

ادب - ع

صفحه دوم

2022/12/20

ص 426



1033



كتاب

علم الآداب

مقالات

لمشاهير العرب

على الجزء الثاني

من

علم الآداب

جمع الاب لويس شينجو اليسوي

ASIA JUNG ESTATE LIBRARY

(Oriental Section)

ARABIC PRINTED BOOKS

Accession No. 1944

Subject 1944



حق الطبع محفوظ للمطبعة

طبع في مطبعة الابهاء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩

مَقَامُ الْكَلَامِ

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

في علم الخطابة

الفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليه بوجه الاجمال

(عن كليات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

الْخَطَابَةُ فِي اللُّغَةِ كَالْخَطَابِ وَهِيَ الْمَكَالَةُ أَوْ اللَّفْظُ الْمَتَوَاضِعُ عَلَيْهِ الْمَقْصُودُ بِهِ إِفْهَامٌ مِنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ الْمَوْجَّهِ نَحْوَ الْفَزِيرِ لِلْإِفْهَامِ . وَعِنْدَ الْحُكَمَاءِ الْخَطَابَةُ هِيَ الْقِيَاسُ الْمَفِيدُ تَرْغِيبَ الْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى الْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ أَنْ

يُسْتَعْمَلُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَقَالَاتِ. وَلَمَّا ظَهَرَ أَرِسْطُو فِي يُونَانَ وَهَذَبَ
مَبَاحِثَ الْمُنْطَقِ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصِّلَتْ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ
وَفَاتِحَتَهَا جَعَلَ الْخُطَابَةَ أَحَدَ أَقْسَامِهِ الثَّمَانِيَةِ. وَهَذِهِ الْأَقْسَامُ تَشْتَمِلُ
عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ أَرْبَعَةٌ مِنْهَا فِي صُورَةِ الْقِيَاسِ وَهِيَ كُتُبُ الْقَوْلَاتِ
وَالْعِبَارَةِ وَالْقِيَاسِ وَالْبَرْهَانِ وَأَرْبَعَةٌ فِي مَادَّتِهِ وَهِيَ كُتُبُ الْجَدَلِ
وَالسُّفْسَطَةِ وَالْخُطَابَةِ وَالشَّعْرِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْمَطَالِبَ التَّصْديْقِيَّةَ عَلَى
أَنْحَاءٍ فَيَنْهَا مَا يَكُونُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ الْيَقِينَ بَطْبَعِهِ دَهْوٌ تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ
الْكُتُبُ الْأَرْبَعَةُ الْأُولَى. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ الظَّنُّ وَهَذَا
تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْكُتُبُ الْأَرْبَعَةُ الْآخَرَى. وَفِيهَا تَدْخُلُ الْخُطَابَةُ.
وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي أَلِفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَكُتِبَتْهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلَا سِقَةَ الْإِسْلَامِ
بِالشَّرْحِ وَالتَّلْخِيصِ كَمَا فَعَلَهُ الْفَارَابِيُّ وَأَبْنُ سِينَا ثُمَّ ابْنُ رُشْدٍ مِنْ فَلَاسِفَةِ
الْأَنْدَلُسِ. وَلَا بَنَ سِينَا كِتَابَ الشِّفَاءِ اسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ الْفَلَسَفَةِ
كُلُّهَا. ثُمَّ جَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا أَصْطِلَاحَ الْمُنْطَقِ وَحَصَرُوا مَطَالِبَهُ فِي
كُتُبٍ خَمْسَةٍ الْبَرْهَانِ وَالْجَدَلِ وَالْخُطَابَةِ وَالشَّعْرِ وَالسُّفْسَطَةِ وَرَبَّمَا يَلِمُ
بَعْضُهُمْ بِأَلَيْسِيرٍ مِنْهَا إِمَامًا وَاغْفَلُوا هَا كَانَ لَمْ تَكُنْ هِيَ أَلِهْمُ الْمُعْتَمَدِ
فِي الْفَنِّ. وَأَمَّا الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ كِتَابُ الْخُطَابَةِ فَهُوَ تَعْرِيفُ الْقَائِلِيسِ
الْخُطَابِيَّةِ الْبَلَاغِيَّةِ النَّافِعَةِ فِي مُحَاطَبَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمَشَاوَرَاتِ
وَالْمُحَاضَمَاتِ فِي الْمَشَاجِرَاتِ أَوْ الْمَذَحِ أَوْ الذَّمِّ أَوْ الْحِيلِ النَّافِعَةِ فِي
الْإِسْتِغْطَافِ وَالْإِسْتِمَالَةِ وَالْإِغْرَاءِ وَتَضْعِيفِ الْأَمْرِ وَتَعْظِيمِهِ وَوُجُوهِ
الْمَعَاذِيرِ وَالْمُعَاتَبَاتِ وَوُجُوهِ تَرْتِيبِ الْكَلَامِ فِي كُلِّ قِصَّةٍ وَخُطْبَةٍ

المبحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) الْخُطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَكْلَفُ الْإِقْتَاعَ الْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَفْرَدَةِ . وَنَعْنِي (بِالْقُوَّةِ) الصَّنَاعَةُ الَّتِي تَفْعَلُ فِي الْمُتَقَابِلِينَ . وَلَيْسَ تَتَّبَعُ غَايَتَهَا فِعْلَهَا ضَرُورَةً . وَنَعْنِي (بِالتَّكْلَفِ) أَيِ تَبَدُّلِ مَجْهُودِهَا فِي اسْتِقْصَاءِ فِعْلِ الْإِقْتَاعِ الْمُمْكِنِ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْقَوْلُ وَذَلِكَ يَكُونُ بَغَايَةً مَا يُمَكِّنُ فِيهِ . وَنَعْنِي بِقَوَاهِ : (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَفْرَدَةِ) أَيِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَفْرَدَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي مَقُولَةٍ مِنَ الْقَوْلَاتِ الْعَشْرِ (١) . وَهَذَا هُوَ الْفَصْلُ الَّذِي تَفْصِلُ بِهِ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ عَنْ سَائِرِ الصَّنَائِعِ الَّتِي يُظَنُّ أَنَّهَا قَدْ تُتَّبَعُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَنْظَرُ فِيهَا . وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ إِنَّمَا هِيَ مُعَلَّةٌ أَيْ مُبَرِّهَةٌ وَمُشْعِةٌ فِي الْجِنْسِ الَّذِي تَنْظَرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ الْأَجْنَاسِ . وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الطَّبَّ إِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

(١) المقولة لفظة المفعول من القول والتاء للمبالغة بمعنى المفلوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنه القول وأبرز فيه الحكم من الاجناس العالبة المجردة من المحسوسات التي ليس فوقها جنس . والمقولات عشر : الجوهر والمكان والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لصا يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لصا متى واين) والهيئة والوضع (ويقال لصا ان يكون له والموضوع)

الْبُرْهَانَ وَيُقْنِعُ فِي الصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ وَفِي أَنْوَاعِهِمَا . وَكَذَلِكَ الْهَنْدَسَةُ
إِنَّمَا تُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ الْبُرْهَانِ وَعَلَى طَرِيقِ الْأَقْنَاعِ فِي الْأَعْظَامِ
وَالْأَشْكَالِ الَّتِي تَوْحَدُ فِي الْأَجْسَامِ . وَأَمَّا الْخُطَابَةُ فَهِيَ تَتَكَلَّفُ
الْأَقْنَاعَ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ فِي أَيِّ مَقُولَةٍ كَانَتْ وَآيِ جِنْسٍ كَانَتْ وَلِذَلِكَ
لَيْسَ تُنْسَبُ إِلَى جِنْسٍ خَاصٍ

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(قَالَ) إِنَّ صِنَاعَةَ الْخُطَابَةِ تُنَاسِبُ صِنَاعَةَ الْجَدَلِ . وَذَلِكَ أَنَّ
كِلَيْهِمَا يَوْمَانِ غَايَةٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ مُخَاطَبَةُ الْغَيْرِ إِذْ كَانَتْ هَاتَانِ
الصَّنَاعَتَانِ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُهُمَا الْإِنْسَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ كَالْحَالِ فِي
صِنَاعَةِ الْبُرْهَانِ بَلْ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُمَا مَعَ الْغَيْرِ وَتَشْتَرِكَانِ بِمَحْوٍ مِنْ
الْأَحْكَامِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ إِذْ كَانَ كِلَاهُمَا يَتَعَاطَى النَّظَرَ فِي جَمِيعِ
الْأَشْيَاءِ وَيُوجَدُ اسْتِعْمَالُهُمَا مُشْتَرَكًا لِلْجَمِيعِ أَتَنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ
يَسْتَعْمِلُ بِالطَّبَعِ الْأَقَاوِيلَ الْجَدَلِيَّةَ وَالْأَقَاوِيلَ الْخُطْبِيَّةَ . وَإِنَّمَا كَانَ
ذَلِكَ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ مُفْرَدًا بِذَاتِهِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْعُلُومَ لَهَا مَوْضُوعَاتٌ خَاصَّةٌ وَيَسْتَعْمِلُهَا أَصَافٌ مِنَ النَّاسِ
خَاصَّةٌ . وَلَكِنْ مِنْ جِهَةٍ أَنَّ هَذَيْنِ (أَيِ الْخُطَابَةَ وَالْجَدَلَ) يَنْظُرَانِ
فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ وَجَمِيعِ الْعُلُومِ تَنْظُرُ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ فَقَدْ

تُوجَدُ جَمِيعُ الْعُلُومِ مُشَارَكَةً لَهَا بِخَوْرِ مَا . وَإِذَا كَانَتْ هَاتَانِ
الصَّنَاعَتَانِ مُشْتَرَكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِيهِمَا إِصْصَاعَةً
وَاحِدَةً وَهِيَ صِنَاعَةُ الْمُنْطَقِ

المبحث الرابع

في ان الخطابة تتحرى للتصديق اكثر منها للتأثير

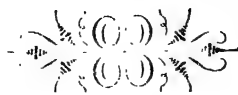
(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَأَى مَنْ رَأَى أَنَّ اسْتِعْمَالَ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي
التَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُرَادُ تَشْهِيقُهَا بِطَرِيقِ الْخُطَابَةِ هُوَ
الصَّوَابُ . وَخَلِيقٌ إِنْ اسْتَعْمَلَ أَحَدُ هَذَا انْقَانُونَ أَنْ يَكُونَ
بِاسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لَيْبًا أَدْبِيًا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
الْأُمُورَ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنَّ
الَّذِي يَرُومُ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ الْحُكَّامِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُثْبِتُ
أَنَّ الشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ أَعْنَى أَنَّهُ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ .
وَذَلِكَ إِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ الشَّرِيعَةِ أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ الَّذِي فِيهِ الشَّكْوَى
عَظِيمٌ أَوْ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ . وَإِمَّا أَنْ يُثْبِتَ الْأَمْرَيْنِ وَذَلِكَ
إِذَا لَمْ يُحَدِّدِ الشَّرِيعَةُ ذَلِكَ الشَّيْءَ الَّذِي فِيهِ الْكَلَامُ . فَمَا اسْتِعْمَلَ
الْإِنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ أَنَّ الْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ فَغَيْرُ مُمَكِّنٍ . وَذَلِكَ
أَنَّ الْأَنْفِعَالَاتِ بِالرَّحْمَةِ أَوْ الْبَغْضَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لَشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَالْعَدْلُ

وَالْجَوْرُ أُمُورٌ كُفْيَتْ. وَأَمَّا اسْتِعْمَالُهَا فِي أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ
فَلَهُ فِي ذَلِكَ تَأْثِيرٌ لِكُنْهٖ لَيْسَ يُوجِبُ أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ
بِالذَّاتِ بَلْ إِنَّمَا يُعْمِلُ الْحُكَّامَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ عَدْلٌ فِيمَا ادَّعَى
أَوْ لَمْ يَضِدَّقْ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْذُلَ لِلْحَاكِمِ أَوْ الْمُنَاطِرِ بِذَلِكَ تَصَدِّقُ
رَأْيُ الشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْكَلَامُ

(قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ السُّنَّةُ هِيَ الَّتِي تُخَدِّدُ أَنَّ الْأَمْرَ
جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ وَتُقَوِّضُ أَنَّ الْأَمْرَ وَجَدَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ أَوْ لَمْ
يُوجَدْ إِلَى الْحُكَّامِ. وَبِالْجُمْلَةِ تَقْوِضُ إِلَيْهِمُ الْأُمُورَ الْيَسِيرَةَ وَذَلِكَ
لِشَيْئَيْنِ: (الْأَوَّلُ) أَنَّهُ قَلَّ مَا يُوجَدُ حَاسِمٌ يَقْدِرُ أَنْ يُمَيِّزَ الْأُمُورَ
عَلَى كُنْهَيْهَا فَيَضَعُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ جَوْرٌ وَهَذَا عَدْلٌ إِلَّا فِي الْأَقْلِ مِنْ
الزَّمَانِ وَاسْتُرُّ الْحُكَّامُ الْمَوْجُودِينَ فِي الْمَدِينِ لَيْسَ لَهُمْ هَذِهِ
الْقُدْرَةُ. (وَالثَّانِي) فَلَا يَنْالُ الْقَوِّفَ عَلَى أَنَّ الشَّيْءَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ
يَحْتَاجُ فِيهِ وَاضِعُ السُّنَّةِ إِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ وَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ فِي الزَّمَانِ
الْيَسِيرِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ التَّنَاطُرُ فِي الشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيِ الْحُكَّامِ فَلَمَّا كَانَ
هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ يَضَعُ أَنْ يُقَوِّضَ إِلَى الْحُكَّامِ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ عَدْلٌ
أَوْ جَوْرٌ نَافِعٌ أَوْ ضَارٌّ بَلْ إِنَّمَا يُقَوِّضُ إِلَيْهِمُ أَنَّ الْأَمْرَ وَقَعَ مِنْ
هَذَا الشَّخْصِ أَوْ لَمْ يَقَعْ وَذَلِكَ لِإِيكَانِهِ وَلَا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ
يَضَعَهُ صَاحِبُ السُّنَّةِ



المبحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) وَلِلْخُطَابَةِ مَنَفَعَتَانِ أَحَدَاهُمَا أَنْ يُحِثَّ الْخَطِيبُ الْمَدِينِينَ عَلَى
الْأَعْمَالِ الْفَاضِلَةِ. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بِالطَّبَعِ يَمِيلُونَ إِلَى ضِدِّ الْفَضَائِلِ
الْعَادِلَةِ فَإِذَا لَمْ يُضْطَبُوا بِالْأَقَاوِيلِ الْخَطِيبِيَّةِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ أَضْدَادُ الْأَفْعَالِ
الْعَادِلَةِ. وَذَلِكَ شَيْءٌ مَذْمُومٌ يَسْتَحِقُّ قَاعِلُهُ التَّأْنِيبَ وَالتَّوْبِيخَ أَغْنَى
الَّذِي يَمِيلُ إِلَى ضِدِّ الْأَعْمَالِ الْعَادِلَةِ أَوْ الْمَذْذَرِ الَّذِي لَا يُضْطَبُ
الْمَدِينِينَ بِالْأَقَاوِيلِ الْخَطِيبِيَّةِ عَلَى الْفَضَائِلِ الْعَادِلَةِ الَّتِي هِيَ فَضَائِلُ
بَيْنِ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ أَغْنَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَشَارِكِ لَهُ فِي أَيْ شَيْءٍ
كَانَتْ الشَّرَكَةُ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. (وَالْمَنْفَعَةُ الثَّانِيَةُ) أَنَّهُ لَيْسَ
كُلُّ صِنْفٍ مِنَ أَصْنَافِ النَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَعْمَلَ مَعَهُمُ الْبُرْهَانُ
فِي الْأَشْيَاءِ النَّظَرِيَّةِ الَّتِي يُرَادُ مِنْهُمْ اعْتِقَادُهَا. وَذَلِكَ إِمَّا لِأَنَّ
الْإِنْسَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى مَشْهُورَاتٍ تَخَالِفُ الْحَقَّ فَإِذَا سَلَكَ بِهِ نَحْوَ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا سَهْلَ اقْتِنَاعِهِ. وَإِمَّا لِأَنَّ فِطْرَتَهُ لَيْسَتْ مُعَدَّةً
لِقَبُولِ الْبُرْهَانِ أَصْلًا. وَإِمَّا لِأَنَّهُ لَا يُعْكَنُ بَيَانُهُ لَهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ
الَّذِي يُرَادُ مِنْهُ وَقُوعُ التَّصْدِيقِ فِيهِ. فَلهَذَا قَدْ نَضَرُ إِلَى أَنْ
نُحْصَلَ التَّصْدِيقَ بِالْمَقْدَمَاتِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُخَاطَبِ أَغْنَى

بِالْخُمُودَاتِ. وَهَذِهِ الْمُنْفَعَةُ تَشَارِكُ هَذِهِ الصِّنَاعَةَ فِيهَا صِنَاعَةُ الْجَدَلِ
 كَمَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْجَدَلِ. وَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ يُمَكِّنُهَا الْإِقْنَاعُ فِي
 الْمُتَضَادِّينَ جَمِيعًا كَمَا يُمَكِّنُ ذَلِكَ فِي الْقِيَاسِ الْجَدَلِيِّ. وَذَلِكَ أَنَا
 قَدْ نَفَعْتُ فِي الْجَانِبِ أَنَّهُ آسَاءٌ وَأَنَّهُ لَمْ يُسَيِّءْ وَلَسْتُ أَغْنِي أَنَا نَفْعُ
 الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ نَفْعُ هَذَا فِي وَقْتٍ وَهَذَا فِي وَقْتٍ
 بِحَسَبِ الْإِنْفَعِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ الشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ
 وَضِدَّهُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ آخَرَ. وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ الَّتِي
 تُثَبِّتُ الشَّيْءَ وَضِدَّهُ عِنْدَنَا عَتِيدَةً وَسَمِعْنَا مُتَكَلِّمًا قَدْ أَقْنَعَ فِي
 الضِّدِّ الَّذِي لَيْسَ بِعَدْلٍ أَمْكَنَّا بِهِذِهِ الْقُوَّةِ أَنْ نَقْضَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ.
 فَهَاتَانِ الْمُنْفَعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْقُدْرَةِ الَّتِي فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ عَلَى
 الْإِقْنَاعِ فِي شَيْءٍ مِنْ الصَّنَائِعِ الْقِيَاسِيَّةِ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا
 مُهِمَّاتَانِ بِالطَّبَعِ. وَعَلَى السَّوَاءِ لِلْإِقْنَاعِ فِي كِلَا الْمُتَقَابِلَيْنِ. أَغْنِي أَنَّهُ
 أَيْسَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا تُوجَدُ أَشَدَّ اسْتِعْدَادًا لِلْإِقْنَاعِ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ
 مِنْهَا فِي الْآخَرِ بَلْ الْإِسْتِعْدَادُ الْمَوْجُودُ فِيهَا عَلَى الْإِقْنَاعِ فِي الْمُتَقَابِلَيْنِ
 هُوَ عَلَى السَّوَاءِ. فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الْمَوْضُوعَةُ لِهَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ أَغْنِي الْأَشْيَاءُ
 الَّتِي فِيهَا تُقْبَعُ فَلَيْسَ اسْتِعْدَادُهَا لِقَبُولِ الْإِقْنَاعِ عَلَى السَّوَاءِ لَكِنْ
 إِذَا كَانَتْ الْأُمُورُ الَّتِي تُقْبَعُ فِيهَا صَادِقَةً كَانَتْ أَلَا قَابِلُ الْخَطِيئَةِ
 وَالْجَدَلِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَفْضَلُ وَأَبْلَغُ... فَقَدْ اسْتَبَانَ مِنْ هَذَا
 أَنَّ هَذِهِ الصِّنَاعَةَ أَيْسَ تَنْظُرُ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ وَلَكِنَّهَا تَنْظُرُ
 فِيهِمَا عَلَى السَّوَاءِ كَالْحَالِ فِي الْجَدَلِ وَأَنَّهَا نَافِعَةٌ لِهَذَا جِدًّا. وَلَيْسَ عَمَلُ

هَذِهِ الصَّاعَةِ أَنْ تُشْفَعَ وَلَا بُدَّ . أَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ يَتَّبِعُ فِعْلَهَا الْإِشْتِقَاعُ
 ضَرُورَةٌ كَمَا يَتَّبِعُ فِعْلَ النَّجَّارِ وَجُودَ الْكُرْسِيِّ ضَرُورَةٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ
 هُنَاكَ عَاقِبٌ مِنْ خَارِجٍ بَلْ عَمَلُهَا هُوَ أَنْ تُعَرِّفَ جَمِيعَ الْمُنْفَعَاتِ فِي الشَّيْءِ
 وَتَأْتِي بِهَا فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ وَلَنْ لَمْ يَتَّبِعْ إِشْتِقَاعٌ . وَالْحَالُ فِيهَا فِي هَذَا
 أَلْفَعْنِي كَالْحَالِ فِي صِنَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ مِثْلَ صِنَاعَةِ الطَّابِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِعْلُهَا
 الْإِبْرَاءُ وَلَا بُدَّ . بَلْ إِنَّمَا فِعْلُهَا أَنْ تَبْلُغَ مِنْ ذَلِكَ غَايَةَ الشَّيْءِ الْمُمْكِنِ
 فِعْلُهُ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ الْمَقْصُودِ بِالْإِبْرَاءِ . وَلِذَلِكَ قَدْ يُشَارِكُ فِي أَعْمَالِ
 هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا مِثْلَ أَنْ يُبْرِيَ مَنْ لَيْسَ بِطَبِيبٍ
 وَيُشْفِعَ مَنْ لَيْسَ بِمُطِيبٍ لَكِنْ أَلْفَعْلُ الْحَقِيقِيِّ إِنَّمَا هُوَ لِصَاحِبِ
 الصَّنَاعَةِ . وَذَلِكَ أَنَّ أَلْفَايَةَ تَتَّبِعُ فِعْلَ هَذَا عَلَى الْأَكْثَرِ وَذَلِكَ عَلَى
 الْأَقَلِّ . وَكَمَا أَنَّ فِي الْجَدَلِ مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ
 وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ وَهُوَ الْقِيَاسُ السُّوفِسْطَائِيُّ كَذَلِكَ فِي الْأَقَاوِيلِ الْمُنْفَعَةِ
 الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَا هُوَ مُقْتَضٍ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْتَضٍ مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ . لَكِنْ لَمَّا كَانَ السُّوفِسْطَائِيُّ لَيْسَ إِنَّمَا يَكُونُ
 سُوفِسْطَائِيًّا مِنْ قِبَلِ الْقُوَّةِ وَالْمَلَكَةِ الَّتِي بِهَا يَفْعَلُ الْأَقَاوِيلَ
 السُّوفِسْطَائِيَّةَ بَلْ إِنَّمَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ مِنْ قِبَلِ مَا يَقْصِدُهُ بِتِلْكَ
 الْأَقَاوِيلِ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْخَيْرَاتِ الْخَارِجَةِ وَذَلِكَ لِإِيْهَامِهِ أَنَّهُ
 حَكِيمٌ وَكَانَ أَجْدَلِيٌّ إِنَّمَا هُوَ جَدَلِيٌّ بِالْمَلَكَةِ الْخَاصَّةِ لَهُ عَنِ الصَّنَاعَةِ
 فَبِالْوَاجِبِ لَمْ تَكُنْ الْأَقَاوِيلُ السُّوفِسْطَائِيَّةُ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ الْجَدَلِ
 أَعْنِي الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقَابِيِسُ جَدَلِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ جَدَلِيَّةً

إِذَا اسْتَعْمَلْتَ نَحْوَ هَذِهِ الْغَايَةِ . وَأَمَّا إِذَا اسْتَعْمَلْتَ عَلَى طَرِيقِ
 الْأَمْتِحَانِ فَهِيَ جُزْءٌ مِنْهَا . وَأَمَّا الْخَطِيبُ فَلَمَّا كَانَ خَطِيبًا مِنْ أَجْلِ
 الْأُمُورِ الَّتِي مِنْ خَارِجِ وَشَلِ الْكَرَامَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَنِ سَائِرِ
 الْخَيْرَاتِ أَوْ مِنْ قَبْلِ مَلَكَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ كَانَتْ الْأَقَاوِيلُ الَّتِي
 يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُثْبَعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُثْبَعَةٍ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ . لِأَنَّ
 الْمَقْصُودَ بِهَذِهِ الْأَقَاوِيلِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ قَدْ يَكُونُ بِعَيْنِهِ مَقْصُودَ
 السُّوفِسْطَائِيِّ . وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ مِنَ الَّذِي يُرَادُ اقْتِنَاعُهُ إِنَّمَا هُوَ الْفِعْلُ أَوْ الْإِنْفِعَالُ فَإِذَا
 حَصَلَ ذَلِكَ مِنْهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ حُصُولُهُ عَنْ أَقَاوِيلٍ هِيَ
 مُثْبَعَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْ عَنْ أَقَاوِيلٍ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُثْبَعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُثْبَعَةٍ .
 فَإِنْ كَانَ هَذَا الْفِعْلُ الْمَقْصُودُ مِنَ الْمُخَاطَبِ أَوْ الْإِنْفِعَالُ حَيْرًا مَا
 لَهُ لَا لِلْخَطِيبِ كَانَتْ الْأَقَاوِيلُ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُثْبَعَةٌ وَلَيْسَتْ
 بِمُثْبَعَةٍ دَاخِلَةً فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ بِالْجِهَةِ الَّتِي دَخَلَتْ فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ
 الْأَقَاوِيلُ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا جَدَلِيَّةٌ إِذْ لَمْ يُقْصَدْ بِهَا مَقْصَدُ السَّفْسَاطَةِ .
 وَإِنْ كَانَ مَقْصَدُ الْخَطِيبِ خَيْرًا يَبَالُغُهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يَقْصُدهَا
 السُّوفِسْطَائِيُّونَ كَانَ الْقَوْلُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُثْبَعٌ وَلَيْسَ بِمُثْبَعٍ
 مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ سُّوفِسْطَائِيٌّ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ إِذْ قَدْ يُشَارِكُ
 الْخَطِيبُ السُّوفِسْطَائِيَّ فِي غَايَتِهِ . فَلِذَلِكَ قَدْ تَدْخُلُ الْأَقَاوِيلُ
 السُّوفِسْطَائِيَّةُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَلَا تَدْخُلُ فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ



البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعِلاً لِنَحْوِ مَا مِنْ أَتْنَاءِ أَلْبَلَاغَةِ
وَمُسْتَهْياً مِنْهَا إِلَى مَقْدَارٍ مَا وَذَلِكَ فِي صَنْفِي الْأَقَاوِيلِ الَّذِينَ أَحَدُهُمَا
الْمُطَاظَرَةُ وَالْثَانِي التَّعْلِيمُ وَالْإِرْشَادُ . وَاسْتُرْ ذَلِكَ فِي الْمَوْضُوعَاتِ
الْخَاصَّةِ بِهَذِهِ الصِّعَاةِ وَهِيَ مِثْلُ الشِّكَايَةِ وَالْإِعْتِذَارِ وَسَائِرِ الْأَقَاوِيلِ
الَّتِي فِي الْأُمُورِ الْجُرَيْيَةِ . وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَلْعَنُونَ مَقْصُودَهُمْ
بِهَذَا الْفِعْلِ . فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِإِلَاتِفَاقٍ مِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ
بِالْإِعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةِ ثَابِتَةٍ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِي يَفْعَلُ هَذِهِ الصِّعَاةَ
بِمَلَكَةِ ثَابِتَةٍ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَفْعَلُهَا بِإِلَاتِفَاقٍ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ
كَذَلِكَ قَالَ الَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَةِ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِالسَّبَبِ الَّذِي بِهِ يَفْعَلُ
فَعَلَهُ يَكُونُ أَمُّ وَأَفْضَلُ . وَهَذَا أَمْرٌ يَعْرِفُهُ الْجُمْهُورُ فَضْلاً عَنْ
الْخَوَاصِّ . وَلِذَلِكَ كَانَ وَاجِباً أَنْ تُثَبَّتَ أَجْزَاءُ هَذِهِ الصِّعَاةِ فِي
كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرُ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذَلِكَ بِالطَّبْعِ فَقَطُّ وَلَا بِالْإِعْتِيَادِ
فِي كَثِيرٍ مِنَ الصَّنَائِعِ الْقِيَاسِيَةِ



الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصائغين اختصار)

قَالَ مَعْمَرُ أَبُو الْأَشْعَثِ قُلْتُ لِبَهْلَةَ الْهِنْدِيَّ أَيَّامَ اجْتَلَبَ يَحْيَى
 ابْنُ خَالِدٍ أَطْبَاءَ الْهِنْدِ : مَا الْبَلَاغَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْهِنْدِ . قَالَ بَهْلَةُ :
 عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ صَحِيفَةٌ مَكْتُوبَةٌ وَلَكِنِّي لَا أَحْسِنُ تَرْجُمَتَهَا وَلَمْ
 أَعَالِجْ هَذِهِ الصَّاعَةَ فَأَثِقَ مِنْ نَفْسِي بِالْقِيَامِ بِمَخَصَصِهَا وَلَطِيفِ
 مَعَانِيهَا . (قَالَ أَبُو الْأَشْعَثِ) فَتَلَقَّيْتُ تِلْكَ الصَّحِيفَةَ الْمُرْجَمَةَ فَإِذَا
 فِيهَا : أَوَّلُ الْبَلَاغَةِ اجْتِمَاعُ آتَةِ الْبَلَاغَةِ وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ
 رَاطِبًا أَجَاشٍ سَاكِنَ الْجَوَارِحِ مُتَحَيِّرًا لِلْفِظِ لَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ الْأَمَّةِ
 بِكَلَامِ الْأَمَّةِ وَالْمُلُوكِ بِكَلَامِ السُّوْقَةِ وَيَكُونُ فِي كَلَامِهِ التَّصَرُّفُ فِي
 كُلِّ طَبَقَةٍ وَلَا يُدْفِقُ الْعَابِي كُلَّ التَّدْقِيقِ وَلَا يُفْقِجُ الْأَلْفَاظَ كُلَّ التَّنْقِيجِ
 وَيُصَفِّيهَا كُلَّ التَّصْفِيَةِ وَيَهْدِيهَا كُلَّ التَّهْدِيدِ وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّى
 يُضَادِفَ حَكِيمًا وَفِيلَسُوفًا عَظِيمًا . وَمَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ الْكَلَامِ
 وَاسْقَاطَ مُشْتَرَكَاتِ الْأَلْفَاظِ وَنَظَرَ فِي صَاعَةِ الْمُنَاطِقِ عَلَى جِهَةِ

الصِّنَاعَةِ وَالْمُبَالَغَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةٍ الْأَعْرَاضِ (١) وَالْمَصْحُوحِ وَلَا عَلَى
وَجْهِ الْأَسْطِطَافِ وَالنَّظَرِ (٢) لَهَا . (قَالَ) وَأَعْلَمُ أَنَّ حَقَّ الْمَعْنَى
أَنْ يَكُونَ الْأَنْسَمُ لَهُ طَبَقًا وَتِلْكَ الْحَالُ وَقَفًا وَلَا يَكُونَ الْأَنْسَمُ
فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضَنَّاءً وَيَكُونَ تَصْفِيحُهُ لِصَادِرِ
كَلَامِهِ بِقَدَرِ تَصْفِيحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونَ لَفْظُهُ مُوْنِقًا وَمَعْنَاهُ نَبِيْرًا
وَإِضْحًا وَمَدَارَ الْأَمْرِ عَلَى إِفْهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدَرِ طَاقَتِهِمْ وَالْحَمْلُ
عَلَيْهِمْ عَلَى قَدَرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَأَنْ تُؤَاتِيَهُ أَلْتةٌ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ أَدَاتُهُ
وَيَكُونَ فِي أَلْتِهِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ الظَّنِّ أَوْدَعَهَا شَهَاوَنَ
الْأَمْنِيْنَ وَأَنْ تَجَاوَزَ مَقْدَارَ الْحَقِّ فِي أَلْتِهِ ظَلَمَهَا وَأَوْدَعَهَا ذُلَّ
الْمُظْلُوْمِيْنَ وَلِكُلِّ ذَلِكَ مَقْدَرٌ مِنَ الشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مَقْدَارٌ مِنَ
الْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مَقْدَارٌ مِنَ الْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ: (أَوَّلُ الْبَلَاغَةِ أَجْتِمَاعُ أَلْتِ الْبَلَاغَةِ) أَيُّ أَوَّلِ أَلْتِ الْبَلَاغَةِ جُودَةُ
الْقَرِيْبَةِ وَطَلَاوَةُ اللِّسَانِ وَذَلِكَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَى
اِكْتِسَابِهِ لِنَفْسِهِ وَاجْتِلَابِهِ لَهَا . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَاعْمَلَ
فِكْرَهُ أَتَى بِالْبَيَانِ الْعَجِيبِ وَالْكَلَامِ الْبَدِيعِ اَلْمُصِيبِ وَاسْتَخْرَجَ
الْمَعْنَى الرَّائِقَ وَجَاءَ بِالْفَظِّ الرَّائِعِ . وَإِذَا حَاوَرَ وَنَظَرَ قَصَرَ وَتَأَخَّرَ
فَحَقُّ هَذَا أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِأَرْجَاحِ الْخُطْبِ وَلَا يُجَارِي أَصْحَابَ
الْبَدَايَةِ فِي مَيْدَانِ الْقَرِيْضِ وَيَكْتَفِي بِتَنَاجُجِ فِكْرِهِ وَالنَّاسُ فِي

(١) ويروى على جهة الاعتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والنظر

(٣) ويروى في اقدار

صِنَاعَةُ الْكَلَامِ عَلَى طَبَقَاتٍ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا حَادَرَ وَنَظَرَ أَبْلَغَ وَأَجَادَ
وَإِذَا كَتَبَ وَآمَلَى أَخْلَى وَتَحَلَّفَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا آمَلَى بَرَزَ وَإِذَا
حَادَرَ وَكَتَبَ قَصَرَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا كَتَبَ أَحْسَنَ وَإِذَا حَادَرَ وَآمَلَى
أَسَاءَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْحَالَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسِيءُ
فِيهَا كُلِّهَا فَأَحْسَنُ حَالَاتِ الْمُسِيءِ الْأَمْسَاكُ وَأَحْسَنُ حَالَاتِ الْحَسَنِ
التَّوَسُّطُ فَإِنَّ الْأَكْثَرَ يُورِثُ الْأَمْلَالَ وَقَلَّ مَا يَنْجُو صَاحِبُهُ مِنَ
الزَّلَلِ وَالْعَيْبِ وَالْخَطْلِ . وَلَيْسَ يَتَّبِعِي لِلْحُسْنِ فِي أَحَدِ هَذِهِ الْفُنُونِ
الْمُسِيءُ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجَاوَزَ مَا هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ
فَإِنْ أَضْطَرَّ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ إِلَى تَجَاوُزِهِ فَخَيْرُ سُئُلِهِ فِيهِ قَصْدُ
الْإِخْصَارِ وَتَجَنُّبُ الْأَكْثَارِ وَالْإِهْذَارِ لِيَقْلَّ السَّقَطُ فِي كَلَامِهِ وَلَا
يَكْثُرَ الْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقِيلَ لِابْنِ الْقَلْفَنْجَرِيِّ لَمْ لَا تُطِيلُ الْقَصَائِدَ .
قَالَ : لَوْ أَطْلَقْتُهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا . يُرِيدُ أَنَّ الْحَدِيثَ يَتَشَبَّهُ بِالْقَدِيمِ فِي
الْقَلِيلِ مِنَ الْكَلَامِ فَإِذَا طَالَ اخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلَامٌ مَوْلُودٌ عَلَى
أَنَّ السَّابِقَ فِي مِيَادِينَ الْبَلَاغَةِ إِذَا كَثُرَ سَقَطَ فَكَيْفَ الْمُقْصَرُ عَنْ
غَايَتِهَا وَالتَّخَلُّفُ عَنْ أَمْدِهَا . وَمِنْ تَامِ آلَاتِ الْبَلَاغَةِ التَّوَسُّعُ فِي
مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ الْأَسْتِعْمَالِ لَهَا وَالْعِلْمُ بِفَخْرِ الْأَلْفَاظِ
وَسَائِطِهَا وَمُتَحَرِّهَا وَرَدِّيَّتِهَا وَمَعْرِفَةُ الْمَقَامَاتِ وَمَا يَضِلُّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهَا مِنَ الْكَلَامِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ

وَقَوْلُهُ : (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ رَابِطَ الْجُلُوسِ سَاكِنَ النَّفْسِ)
هَذَا لِأَنَّ الْحَيَرَةَ وَالْدهَشَ يُورِثَانِ الْجُنْسَةَ وَالْحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا الْأَرْتَاجِ

وَالْإِفْخَامَ . وَبَلَّغَكَ مَا أَصَابَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَوَّلَ مَا صَعِدَ الْمَنبَرَ
فَارْتَجَعَ عَلَيْهِ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ قَبْلِي كَانُوا يُعَذِّبُونَ لِهَذَا الْمَقَامِ مَقَالًا وَأَنْتُمْ
إِلَى إِمَامٍ عَادِلٍ أَخْرَجَ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَأْتِيكُمْ الْخُطْبَةُ
عَلَى وَجْهَيْهَا . وَصَعِدَ بَعْضُ الْعَرَبِ مِنْهَا نَجْرَاسَانَ فَارْتَجَعَ عَلَيْهِ فَقَالَ
حِينَ تَرَى :

قَالَ : لَمْ أَكُنْ فِيكُمْ خُطِيبًا قَبْلَ أَنْ يَسْئَلَنِي إِذَا جَدَّ الْوَعْدُ خُطِيبُ
وَمِنْ حُسْنِ الْإِعْتِدَادِ عِنْدَ الْإِرْتِاجِ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ
عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (أَمَّا بَعْدُ) أَمْتَنَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ
فَقَدْ يَجِدُ الْمَغْسِرَ وَيَغْسِرُ الْمُوسِرَ وَيُقِلُّ الْحَرِيدَ وَيَقْطَعُ الْكَلِيلَ . وَإِنَّمَا
الْكَلَامُ بَعْدُ لِإِفْخَامِ كَالِإِسْرَاقِ بَعْدَ الظَّلَامِ وَقَدْ يَغْرِبُ الْبَيَانُ وَيَعْتَقِمُ
الصَّوَابُ وَإِنَّمَا الْإِسَانُ مُضَعَّةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ يَنْفُذُ بِقُوَّتِهِ (١) إِذَا
تَكَلَّمَ وَيُثَوِّبُ بِأَنْبِطَاجِهِ إِذَا ارْتَجَلَ . آلا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا وَلَا نَسْكُتُ
حَصْرًا بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ . وَحِينَ بَعْدَ ذَلِكَ
أَمْرَاءُ الْقَوْلِ فِينَا وَشَجَتْ أَعْرَاقُهُ وَعَلَيْنَا نُطِفَتْ أَغْصَانُهُ وَلَكِنَّا تَهَدَّلَتْ
ثَمَرُهُ فَتَحْيِيرُ مِنْهُ مَا أَحَاوَلَى وَعَذَبُ وَطَرَحُ مِنْهُ مَا أَمْلَوَحَ وَحَبَثُ .
وَمِنْ بَعْدِ مَقَاوِنَا هَذَا مُقَامٌ وَمِنْ بَعْدِ أَيَّامِنَا أَيَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ
نَفْسِ الْخُطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَأْشِهِ هُدُوهُ فِي كَلَامِهِ وَتَهْمَلُهُ فِي مَنْطِقِهِ .
قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى جَأْشُهُ هُدُوهُ فِي كَلَامِهِ وَتَهْمَلُهُ فِي
مَنْطِقِهِ . وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى أَنْطَقَ النَّاسَ قَدْ جَمَعَ الْهُدُوَّ

وَالْتَهْلُ وَالْجَزَاءُ وَالْحَلَاوَةُ وَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ نَاطِقٌ يَسْتَعِينِي عَنْ
الْإِشَارَةِ لَكَانَهُ

وَقَوْلُهُ : (مُتَّحِيزَ الْأَلْفَاظِ) فَلَانَّ مَدَارَ الْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْيِيزِ اللَّفْظِ
وَتَحْيِيزُهُ أَصْعَبُ مِنْ جَمْعِهِ وَتَأْلِيفِهِ. وَقَوْلُهُ : (وَيَكُونُ فِي قَوْلِهِ فَضْلٌ
الْتَّصَرُّفِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَانِعُ الْكَلَامِ قَادِرًا عَلَى
جَمِيعِ ضُرُوبِهِ مُتَمَسِّكًا مِنْ جَمِيعِ فُتُونِهِ لَا يِقْتَصِرُ عَلَيْهِ قِسْمٌ مِنْ
أَقْسَامِهِ فَلَنْ كَانَ شَاعِرًا تَصَرَّفَ فِي وَجُوهِ الشِّعْرِ مَدِيحِهِ وَهِجَايِهِ
وَمَرَاثِيهِ وَصِفَائِهِ وَمَفَاجِرِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِهِ. وَلَا خِلَافَ قَوْلِي
النَّاسِ فِي الشِّعْرِ وَفُتُونِهِ مَا قِيلَ : كَانَ أَمْرُهُ الْقَلْبِ اسْأَلِ النَّاسَ إِذَا
رَكِبَ وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهَبَ وَرُضْهِتُ إِذَا رَغِبَ وَالْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ .
وَكَذَلِكَ الْكَاتِبُ رُبَّمَا تَقَدَّمَ فِي ضَرْبٍ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتَأَخَّرَ فِي غَيْرِهِ
وَسَهَّلَ عَلَيْهِ نَوْعٌ مِنْهَا وَعَسَّرَ نَوْعٌ آخَرُ وَآخِرَ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ
قَالَ : أَمَرَنِي الْمَأْمُونُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى الدُّوَاهِي فِي الْأَسْتِكْثَارِ مِنْ
الْقَنَادِيلِ فِي الْمَسَاجِدِ . فَبِتُّ لَا أَذْرِي كَيْفَ أَحْتَذِي فَأَتَانِي آتٍ فِي
مَأْمِي فَقَالَ : قُلْ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ عِمَارَةً لِلْمَسَاجِدِ وَأُنْسًا لِلْسَّالِبَةِ
وَأَذَاءَةً لِلْمُتَّحِيزِينَ وَنَفْيًا لِمَكَايِنِ الْإِيبِ وَتَذْهِبًا لِيُوتِ اللَّهُ جَلَّ
وَعَزَّ مِنْ وَحْشَةِ الظُّلَمِ . فَأَنْتَبَهْتُ وَقَدْ أَنْقَحَ لِي مَا أَرِيدُ فَأَبْتَدَأْتُ
بِهَذَا وَاعْتَمْتُ عَلَيْهِ. وَالْمَقْدَمُ فِي صِنْعَةِ الْكَلَامِ هُوَ الْمُسْتَوِي عَلَيْهِ مِنْ
جَمِيعِ جِهَاتِهِ أَلْتَمَسَكِينَ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَبِهَذَا فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى
الْقُرَزْدَقِ وَقَالُوا : كَانَ لَهُ فِي الشِّعْرِ ضُرُوبٌ لَا يَعْرِفُهَا الْقُرَزْدَقُ . وَسُئِلَ

بَعْضُهُمْ عَنْ أَبِي نُوَّاسٍ وَمُسْلِمٍ فَذَكَرَ أَنَّ أَبَا نُوَّاسٍ اشْعَرُ لِيَصْرِفَهُ فِي
وُجُوهِ الشَّعْرِ وَكَثْرَتُهُ مَذَاهِبُهُ فِيهِ . (قَالَ) وَمُسْلِمٌ جَارٍ عَلَى وَتِيرَةٍ لَا
يَتَغَيَّرُ عَنْهَا . وَأَبْلَغُ مِنْ هَذِهِ الْمَثَلُ أَنْ يَتَفَنَّ صَانِعُ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ
أَيُّ يَأْتِي مَرَّةً بِالْجَزْلِ وَآخَرَى بِالسَّهْلِ قِيلَيْنِ إِذَا شَاءَ وَيَشْتَدُّ إِذَا
أَرَادَ . وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى الْقُرَزْدَقِ وَأَبَا نُوَّاسٍ عَلَى
مُسْلِمٍ

وقوله: (وَلَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ الْأُمَّةِ بِكَلَامِ الْأُمَّةِ وَلَا الْمُلُوكَ
بِكَلَامِ السُّوقِ) لِأَنَّ ذَلِكَ جَهْلٌ بِالْمَقَامَاتِ وَمَا يَضِلُّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهَا مِنَ الْكَلَامِ . وَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي قَالَ : يَكُلُّ مَقَامٌ مَقَالٌ .
وَرُبَّمَا غَلَبَ سُوءُ الرَّأْيِ وَقَلَّتْ الْقِفْلُ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ فَيَجْأِطُونَ
السُّوقَ وَالْمُلُوكَ الْأَعْجَمِيَّ بِالْفَاطِ أَهْلِ نَجْدٍ وَمَعَانِي أَهْلِ السَّرَاقَةِ .
كَأَنِّي عُلُقَمَةٌ إِذْ قَالَ لِجَاهِلِيٍّ : أَشَدُّ لِقَاصِبِ الْمَلَاذِمِ وَأَرْهَفُ ذُبَابِ
الْمَشَارِطِ وَأَمِيرُ الْمَنَسَحِ وَأَسْخَلُ الرَّشَحِ وَخَفِيفُ الْوُطْءِ وَتَحْجِلُ الذَّرْعِ
وَلَا تُكْرِهَنَّ آيَا وَلَا تَمْنَنَّ آيَا . فَقَالَ لَهُ الْجَاهِلِيُّ : لَيْسَ لِي عِلْمٌ
بِالْحُرُوبِ . وَآخَرُ أَبُو الْغَزَالِ الضَّيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كَانَ لَنَا جَادٌ
بِالْكُفَّةِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِالْعَرِيبِ فَخَرَجَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حِجْرِ مَعَهَا
مُهْرٌ . فَأَفْلَتَتْ فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مُهْرُهَا فَخَرَجَ يَسْأَلُ عَنْهَا فَرَّ بِحِطَاطٍ
فَقَالَ : يَا ذَا التِّصَاحِ وَذَاتِ السَّمِّ الطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ وَغَى لِعَلِّغِ عَدَى
هَلْ رَأَيْتَ الْخَيْفَانَةَ الْقَبَاءَ يَتَّبِعُهَا الْحَاسِنُ الْمُسْرَهْفُ (١) كَانَ

(١) ويروى: الحالس المرف

غَرَّتْهُ الْقَمَرُ الْأَزْهَرُ يُنِيرُ فِي حُضْرِهِ كَالْخَلْبِ الْأَجْرَدِ (١) . فَقَالَ
 الْحَيَّاطُ أَطْلَبُهَا فِي بَرٍّ لَعَلَّ (٢) . فَقَالَ : وَيْلَكَ وَمَا تَقُولُ فَجَبَّكَ اللَّهُ
 فَمَا أَعْلَمُ رَطَابَتَكَ . فَقَالَ : لَعَنَ اللَّهُ أَبْعَضَنَا لَفْظًا وَأَخْطَانَا مَنَظِقًا
 وَقَوْلُهُ : (وَلَا يُدَقِّقُ الْمَعَانِي كُلَّ التَّدْقِيقِ) قَالَ أَبُو هِلَالٍ : لِأَنَّ
 الْعَلَايَةَ فِي تَدْقِيقِ الْمَعْنَى سَبِيلٌ إِلَى تَعْيِينِهِ وَتَعْيِينُهُ الْمَعْنَى تُكْنِئُهُ إِلَّا
 إِذَا أُريدَ بِهِ إِلَّا لَعَاؤُ وَكَانَ فِي تَعْيِينِهِ قَائِدَةٌ مِثْلُ اثْبَاتِ (٣)
 الْمَعَانِي وَمَا يُجْرِي مَعَهَا مِنَ اللَّحُونِ الَّتِي اسْتَعْمَلُوهَا وَكُنُوا بِهَا عَنِ الْمُرَادِ
 لِبَعْضِ الْغَرَضِ . فَأَمَّا مَنْ أَرَادَ إِلَّا بَابَةً فِي مَدِيحٍ أَوْ صِفَةٍ شَيْءٍ
 فَاتَى بِإِغْلَاقٍ دَلَّ عَلَى عَجْزِهِ فِي إِلَّا بَابَةً وَقُصُودِهِ عَنِ الْإِنْصَاحِ .
 وَقَوْلُهُ : (وَلَا يَنْتَقِجُ إِلَّا لَفَاطُ كُلِّ التَّنْقِيجِ) فَتَنْقِيجُ اللَّفْظِ أَنْ
 يُبْنَى مِنْهُ بِنَاءٌ لَا يَكْثُرُ فِي الْإِسْتِعْمَالِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
 الْوُزَرَاءُ : أَحْسَنَ اللَّهُ إِبَانَتَكَ . فَقَالَ لَهُ الْوَزِيرُ : عَجَلَ اللَّهُ إِمَاتَتَكَ .
 وَيَدْخُلُ فِي تَنْقِيجِ اللَّفْظِ اسْتِعْمَالُ وَحْشِيَّتِهِ وَتَرْكُ سَلِسِهِ . وَقَدْ أَخَذَ
 الرُّوَاةُ عَلَى زُهَيْرٍ قَوْلَهُ :

تَقِيَّ نَقِيٍّ لَمْ يُكْثَرْ غَنِيْمَةً بِهَكَذَا ذِي الْقُرْبَى وَلَا بِحَقْلَدٍ
 فَاسْتَبْشَعُوا (أَحْمَلَدٌ) وَهُوَ السَّيِّئُ الْخَلْقِ وَقَالُوا : لَيْسَ فِي لَفْظِ زُهَيْرٍ
 أَنْكَرُ مِنْهُ . قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : رَأَيْتُهُمْ يَرِيدُونَ فِي كُثْبِهِمْ هَذَا الْكَلَامَ
 فَإِنْ كَانُوا إِثْمًا رَوَوْهُ وَدَوَّنُوهُ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَسَالَةٍ فَقَدْ

(١) وفي رواية : ينير في حضره كالحلب الاخضر (٢) ويروى : في غر بلخ

(٣) وفي رواية : ايات المعاني

بَاعَدَهُ اللَّهُ مِنْ صِفَةِ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذَلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَيَّاتٌ مِنْ شِعْرِ النِّجَاحِ وَالطَّرِمَاحِ وَأَشْعَارِ هَذِيلٍ يَأْتِي لَمْ مَعَ الرُّصْفِ الْحَسَنِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ الْأَصْمِيَّ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ لَطَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضَهُ وَهَذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ الْبَلَّغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصِفِيهَا كُلَّ التَّصْفِيَةِ وَيَهْدِيهَا كُلَّ التَّهْدِيَةِ) مُتَضَمِّنَةٌ تَقْرِيبُهُ مِنَ الْوَحْشِيِّ وَتَنْفِي الشَّوَاعِلِ عَنْهُ وَتَهْدِيئُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ الرَّدِيِّ الْمُرْذُولِ وَالسُّوقِ الْمُرْدُودِ فَمِنْ الْكَلَامِ الْمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ الْكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَتَسْمَحُ بِحَقِّ يَجِبُ لَهُ وَقِيلَ وَاصْصَحِّ الْعُذْرَ وَأَسْتَكْثَرُ قَلِيلَ الشُّكْرِ لَا زَالَتْ أَيْادِيكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَانِكَ وَنِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا أَنْتَهِى إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بَرَكَ فَلَا زَالَتْ أَيْادِيكَ مُتَمَدُّدَةً بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تَحْقِيقُهُ حَتَّى تَتَمَلَّى مِنَ الْأَعْمَارِ أَطْوَلَهَا وَتَمَالَ مِنْ الدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنَ يُونُسَ: يَوْمًا يَوْمٌ لَيْنُ الْحَوَاشِيِّ وَطِيءُ النَّوَاجِي وَهَذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّتْ بِوَدْقِهَا وَضَحَّكَتْ لِعَابِسِ غَيْمِهَا وَلَا مَعَ بَرَقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ الْأَشْرُورِ وَنِظَامُ الْأُمُورِ فَلَا تَتَّبِعْ عَنَّا فَعِلَ (١) وَلَا تُفَرِّدْنَا (٢) فَتَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ الْحَبِيبَ مُحِبِّهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ وَقَوْلُهُ: (وَلَا تَفْعَلْ ذَلِكَ حَتَّى تُصَادَفَ حَكِيمًا وَفِيلْسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ الْكَلَامِ وَمُشْتَرَكَاتِ الْأَلْفَاظِ وَمَنْ تَنَظَّرَ فِي
الْمُنَظَرِ عَلَى جِهَةِ الصَّنَاعَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ الْأَسْطِرَافِ وَالْاِثْرَافِ
لَهَا فَقَوْلُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِفَاخِرِ الْكَلَامِ وَنَادِيهِ وَرَصِينِهِ
وَمُحْكَمِهِ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُهُ عَنْهُ وَيَقْبَلُهُ مِنْهُ يَمِّنَ عَرَفَ الْمَعَانِي
وَالْأَلْفَاظِ عِلْمًا شَافِيًا لِنَظَرِهِ فِي اللَّغَةِ وَالْإِعْرَابِ وَالْمَعَانِي عَلَى جِهَةِ
الصَّنَاعَةِ لَا كَمَنْ اسْتَطَرَفَ شَيْئًا مِنْهَا فَنَظَرَ فِيهِ نَظْرًا غَيْرَ كَامِلٍ أَوْ
أَخَذَ مِنْ أَطْرَافِهِ وَتَنَاوَلَ مِنْ أَطْرَارِهِ فَحَلَّى بِأَسْمِهِ وَخَلَا مِنْ وَسْمِهِ
فَإِذَا سَمِعَ لَمْ يَفْقَهُ وَإِذَا سُئِلَ لَمْ يَفْقَهُ وَإِذَا تَكَلَّمَ عِنْدَ مَنْ هَذِهِ
صِفَتُهُ ذَهَبَتْ قَائِدَةُ كَلَامِهِ وَغَاءَتْ مَنَفَعَةُ مَنَظَرِهِ لِأَنَّ الْعَامِّيَّ
إِذَا كَلَّمْتَهُ بِكَلَامِ الْعُلِيَّةِ سَخِرَ مِنْكَ وَزَرَى عَلَيْكَ كَمَا رُوِيَ عَنْ
بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ الْعَامَّةِ : يَم كَذُومٌ تَنْتَقِأُونَ الْبَارِحَةَ
(يَعْنِي عَلَى النَّسِيدِ) . فَقَالَ : بِالْحَمَلَيْنِ . وَلَوْ قَالَ لَهُ : (أَيْشَ كَانَ
تَفْلِكُمْ) لَسَلِمَ مِنْ مَخْرَجَتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَبَ كُلُّ فَرِيقٍ بِمَا يَعْرِفُونَ
وَيَنْجَبَ مَا يَجْهَلُونَ

وَأَمَّا قَوْلُهُ : (مَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ الْكَلَامِ الْخ) هُوَ أَنْ
يُسْقِطَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ الْكَلَامَ مَعَ اسْقَاطِهِ تَامًا غَيْرَ
مَنْقُوصٍ وَلَا يَكُونُ فِي زِيَادَتِهِ قَائِدَةٌ . وَذَلِكَ وَمِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْ
مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ قَالَ لِصُحَابِ الْعَبْدِيِّ : مَا الْبَلَاغَةُ فَقَالَ : أَنْ تَقُولَ فَلَا
تُحْطِئُ وَتُسْرِعَ فَلَا تُبْطِئُ . ثُمَّ قَالَ : أَقْلِي هَوَانَ (لَا تُحْطِئُ وَلَا
تُبْطِئُ) . فَالْقَى اللَّفْظَيْنِ لِأَنَّ فِي الْأَوَّلِيِّ أَبْقَى عَنْهُمَا وَعَوَضًا مِنْهُمَا .

فَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي زِيَادَةِ الْأَلْفَافِ قَائِدَةٌ فَذَلِكَ مَحْمُودٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ
التَّذْيِيلِ. وَقَوْلُهُ: (وَمُشْتَرَكَاتِ الْأَلْفَافِ) قَبُولُ أَنْ يُرِيدَ الْأَبَانَةَ
عَنْ مَعْنَى فَيَأْتِي بِالْأَلْفَافِ لَا تَذُلُّ عَلَيْهِ خَاصَّةً بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُ مَعَانٍ
أُخَرُ فَلَا يَعْرِفُ السَّامِعُ أَيَّهَا أَرَادَ. وَرَبَّمَا اسْتَبْتَمَ الْكَلَامَ فِي نَوْعٍ
مِنْ هَذَا الْخَلْسِ حَتَّى لَا يُوقِفَ عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِالتَّوَهُّمِ. فَمِنْ الْخَلْسِ
الْأَوَّلِ قَوْلُ جَرِيرٍ:

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ يَوْمَ الرَّجِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلْ
قَوَّجَهُ إِلَّا شَرَّكَ فِي هَذَا أَنَّ السَّامِعَ لَا يَذَرِي لِي أَيْ شَيْءٍ
أَشَارَ مِنْ أَفْعَالِهِ فِي قَوْلِهِ (فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلْ) أَرَادَ أَنْ يَبْكِي
إِذَا رَحَلُوا أَوْ يَهَيِّمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْقَمَرِ الَّذِي لَحِقَهُ أَوْ يَبْعَثُهُ فِي
الْضِيءِ عَلَى عَزْمَةِ الرَّجِيلِ أَوْ يَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا يَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ أَوْ يَدْفَعُ
إِلَيْهِمْ شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ بِهِ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَهُ الْخَلِيلُ عِنْدَ
فِرَاقِ أَجَبَتِهِ. فَلَمْ يُبَيِّنْ عَنْ غَرَضِهِ وَأَخْرَجَ إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا أَرَادَ
فَعَلَهُ عِنْدَ رَجَائِهِمْ. وَلَيْسَ هَذَا كَقَوْلِهِمْ: (لَوْ رَأَيْتَ عَلِيًّا بَيْنَ الصَّقَيْنِ).
لِأَنَّ دَلِيلَ الْبَسَائِلِ وَالنَّكَايَةِ فِي هَذَا الْكَلَامِ بَيْنٌ وَأَمَارَةٌ
النَّقْصَانِ فِي بَيْتِ جَرِيرٍ وَارْحَمَهُ مَنْ يَسْمَعُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ
الْبَلَاغَةِ يَسْتَبْرِدُهُ وَيَسْتَعِثُّهُ وَيَسْتَرْجِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَحْيِدُهُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ
سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ الْأَزْدِيِّ:

فَإِنَّكَ لَوْ لَاقَيْتَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ لَلَّاقَيْتَ مِنْهُ بَعْضَ مَا كَانَ يَفْعَلُ
فَلَمْ يُبَيِّنْ عَمَّا أَرَادَ بِقَوْلِهِ: (لَلَّاقَيْتَ) أَحْزَانًا أَرَادَ أَمْ شَرًّا إِلَّا

أَنْ تَسْمَعَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَيَتَيْنَ مَعْنَاهُ وَأَمَّا فِي نَفْسِ الْبَيْتِ
فَلَا يَتَيْنَ مَعْنَاهُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

وَقُمْنَا قَتَلْنَا بَعْدَ أَنْ أُوْدِعَ الْوَرَى بِهِ مَا يُقَالُ فِي السَّحَابَةِ تُقَالُ
فَقَوْلُ النَّاسِ فِي السَّحَابِ إِذَا انْتَلَعَ عَلَى وُجُوهِ فَهَنُومٍ مَنْ يَدْعُوهُ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُوهُ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُجِبُ اتِّلَاعَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ اتِّشَاعَهُ
عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ حَالَاتُهَا عِنْدَهُمْ وَمَوَاقِعُهَا مِنْهُمْ فَلَمْ يَسْتَيْنِ
بِقَوْلِهِ مَعْنَى يَعْتَمِدُهُ السَّامِعُ. عَلَى أَنَّ الْمُحْتَمَّ لَهُ لَوْ قَالَ : إِنْ أَكْثَرَ
الْعَادَةِ فِي السَّحَابِ أَنْ يُحْمَدَ آثَرُهُ وَيُسْتَنَى عَلَيْهِ بَعْدَهُ لَمَا كَانَ مُبَدَّلاً.
وَلَمْ أَرِدْ عَيْبَ أَبِي تَمَّامٍ يَا قُلْتُ وَإِنَّمَا أَرَدْتُ الْأَخْبَارَ عَنْ وُجُوهِ
الْأَشْيَاءِ وَذَكَرِي مَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ بَابِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ
مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ. وَمِنْ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

وَحَبْنُ مَا يَخْبَنُ مِنْ آخِرٍ مِنْهُ وَالطَّائِنِ أَمَّارٍ (١)

الْأَمَّارُ هَاهُنَا جَمْعُ مَهْرٍ مِنْ قَوْلِهِمْ : مَهْرٌ يَهْرُ مَهْرًا. وَالْمَصَادِرُ لَا
تُجْتَمِعُ وَلَا يَشْكُ سَامِعُ هَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُ يُرِيدُ جَمْعَ مَهْرٍ فَشَكِلَ
الْمَعْنَى عَلَيْهِ. وَخَطَبَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَقَالَ فِي صِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى :
لَا يُقَاسُ بِأَنْقِيَاسٍ وَلَا يُدْرَكُ بِأَلَا تَاسٍ. أَرَادَ جَمْعَ لَمَسٍ فَانَابَ
السَّجْعُ وَأَخْطَأَ الْمَعْنَى. وَأَمَّا مَا بَيْنَهُمْ فَلَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِأَلَتِهِمْ. وَبِنَ
الْكَلَامِ الْخَالِي مِنْ الْأَشْتِمَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِأَخِي لَهُ أَرَادَ فِرَاقَهُ :

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ فِي دِيْوَانِ أَبِي نُوَّاسٍ :

وَحَبْنُ مَا يَخْبَنُ مِنْ بَعْدِهِ مِنْهُ وَالطَّائِنِ أَمَّارٍ

لَا تَصَفِّحْتُ أَخْلَاقَكَ فَوَجَدْتُهَا مُبَايِنَةً لِشَأْنِي زَانِفَةً عَنْ قَصْدِ
طَرِيقِي صَدَرَتْ عَلَيْهَا رِيَاضَةٌ لِنَفْسِي عَلَى الصَّبْرِ لِمَسَاوِي أَخْلَاقِ
الْمُعَاشِرِينَ وَلِئَلَّمَنِي يَكُنَّ مِنَ الْعُدْوَانِ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِينَ. وَالَّذِي رَجَوْتُ
مِنْ مَرَمَةِ خِصَالِكَ بِنَا أَقَابَهَا بِهِ مِنَ التَّجَاوُزِ وَأَنْخَبُ عَنْ سُوءِ آثَارِهَا
أَذْيَالِ التَّعَاضِي. وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَا تُقَوِّمُ أَعْوَجَاجَ مَذَاهِبِكَ وَلَا
يَغْطِفُ بِكَ الرَّأْيُ عَلَى رُشْدِكَ. فَلَمَّا فَنَيْتَ حَيَاتِي فِيكَ وَأَنْقَطَعْتَ
أَسْبَابُ أَمَلِي مِنْكَ وَرَأَيْتُ الدَّاءَ لَا يَزِيدُ عَلَيَّ التَّعَهُدِ بِالْذَّوَاءِ
إِلَّا فُسَادًا وَالْخَرَقَ عَلَى التَّرْقِيعِ إِلَّا اتِّسَاعًا قَدَّمْتَ الْيَأْسَ مِنْكَ عَلَى
الرَّجَاءِ فِيكَ فَاحْتَسَبْتُ آيَاتِي السَّالِفَةَ فِي اسْتِصْلَاحِي لَكَ

وَقَوْلُهُ : (وَحَقُّ الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ لَهُ الْإِسْمُ طَبَقًا) أَيْ
يَكُونَ الْإِسْمُ طَبَقًا لِلْفِعْلِ بِقَدْرِ الْمَعْنَى غَيْرَ زَائِدٍ عَلَيْهِ وَلَا نَاقِصٍ
عَنْهُ فَكَانَ كَالطَّبَقِ عَلَى الْإِنَاءِ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ

وَقَوْلُهُ : (وَلَا يَكُونَ الْإِسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقْصِرًا) فَهَذَا دَاخِلٌ فِي
الْأَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ : وَحَقُّ الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ لَهُ الْإِسْمُ طَبَقًا . وَمِثَالُ
الْفَاعِلِ مِنَ اللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أَدْنَةَ :

وَأَسْقِ الْعَدُوَّ بِكَأْسِهِ وَأَعْلَمْ لَهُ بِالْغَيْبِ أَنْ قَدْ كَانَ قَبْلُ سَقَاكُمَا
وَأَجْزِ الْكَرَامَةَ مَنْ تَرَى أَنْ لَوْ لَهُ يَوْمًا بَذَلَتْ كَرَامَةٌ لَجَزَاكُمَا
وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ تَحْضُورٌ تَحْتَ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ : اجْزِ كَلَامًا

بِفِعْلِهِ . وَكَانَ السُّكُوتُ عُرْوَةَ خَيْرًا مِنْهُ . وَمِنْ الْكَلَامِ الْفَاعِلُ
عَنْ مَعْنَاهُ قَوْلُ أَبِي الْعِيَالِ الْهَذَلِيُّ .

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صَدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَعْبُ
 فَذَكَرْتُ الرَّأْسَ مَعَ الصَّدَاعِ فَضُلُّ
 وَالْمَقْصَرُ مِنَ الْكَلَامِ مَا لَا يُنْبِتُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ إِيَّاهُ
 وَيُخَوِّجُكَ إِلَى شَرْحِ كَبَيْتِ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ:
 وَالْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالٍ أَلْتَوَكَّ مِنْ رَامٍ كَدًّا
 وَقَوْلُهُ: (وَلَا مُضْمَنًا) التَّضْمِينُ أَنْ يَكُونَ الْفَضْلُ الْأَوَّلُ
 مُفْتَقِرًا إِلَى الْفَضْلِ الثَّانِي وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ مُخْتَاجًا إِلَى الْآخِرِ كَقَوْلِ
 الشَّاعِرِ:

كَانَ الْقَلْبَ لَبَّةً قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلى أَلْهَامِيَّةٍ أَوْ يَرَاخُ
 نَظْمًا غَرَّهَا شَرْكَ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ
 فَلَمْ يَتِمَّ الْمَعْنَى إِلَّا فِي الْبَيْتِ الثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثَالُهُ مِنْ
 نَثْرِ الْكِتَابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: وَجَعَلَ سَيِّدَنَا أَخْذَا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ
 وَيُدْعَى بِهِ فِي الْأَعْيَادِ بِأَجْزَلِ الْأَقْسَامِ وَأَوْفَرِ الْأَعْدَادِ
 وَقَدْ تُسَمَّى اسْتِعَارَتُكَ الْأَنْصَافَ وَالْآيَاتِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ
 وَإِذَا خَالَكَ إِيَّاهُ فِي أَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ
 يَتَضَمَّنُ صِفَةَ التَّكَلُّمِ لَا صِفَةَ الْكَلَامِ إِلَّا قَوْلُهُ: (وَيَكُونُ تَصْفِيحُهُ
 لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصْفِيحِهِ لِمَوَارِدِهِ) وَسَنَأَتِي عَلَى الْكَلَامِ فِي هَذَا
 وَنَسْتَفْصِيهِ فِي فَضْلِ الْمَقَاطِعِ وَالْمَبَادِي



البحث الثاني

في وسائل الاقتناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

أَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَفْعَلُ التَّصْدِيقَاتِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَمِنْهَا مَا هِيَ صَمَائِيَّةٌ وَتِلْكَ هِيَ الَّتِي وَجُودُهَا لِاخْتِيَارِنَا وَرَوَيْتِنَا وَنَحْنُ الْفَاعِلُونَ لَهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ صَمَائِيَّةٍ وَهِيَ الَّتِي لَيْسَ وَجُودُهَا لِاخْتِيَارِنَا وَرَوَيْتِنَا مِثْلُ الشُّهُودِ وَالْتَعْذِيبِ وَالْعُقُودِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَالْأَشْيَاءُ الصَّمَائِيَّةُ الَّتِي نَحْنُ الْفَاعِلُونَ لَهَا مِنْهَا أَشْيَاءٌ قَدْ نَقَدَّمْ غَيْرِنَا فَصَنَعَهَا وَمِثْلُ الْأَخْتِجَاجِ بِالْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ الَّتِي قَدْ وُضِعَتْ وَاشْتَهَرَتْ وَمِنْهَا مَا تَخْتَرِعُهَا نَحْنُ عِنْدَ الْقَوْلِ فِي الشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْأَقْنَاعُ وَنَسْتَنْسِطُهَا. فَأَمَّا التَّصْدِيقَاتُ الَّتِي نَفْعُهَا نَحْنُ وَنَخْتَرِعُهَا فَهِيَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ :

(أَحَدُهَا) إِثْبَاتُ الْمُتَكَلِّمِ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا أَهْلًا أَنْ يُصَدَّقَ وَأَنْ يَكُونَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ بَهِيَّةٌ فِي وَجْهِهِ وَأَعْضَائِهِ شَأْنُهَا أَنْ تُوقَعَ التَّصْدِيقُ بِالشَّيْءِ الْمُتَكَلِّمِ فِيهِ مِثْلُ التُّرُودَةِ وَأَنْوَاقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالْفَضِيلَةُ الَّتِي شَأْنُهَا هَذَا هِيَ الَّتِي يَعْنِي أَرِسْطُو بِالْكَفِيَّةِ. وَالْمُهَيِّئَةُ الَّتِي شَأْنُهَا هَذَا هُوَ الَّذِي يَعْنِي بِالسَّنَةِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلْفَضِيلَةِ تَأْثِيرًا فِي التَّصْدِيقِ أَنَّ الصَّالِحِينَ الْفَاضِلِينَ يُصَدِّقُونَ سَرِيعًا

دُونَ قَوْلٍ يَتَكَلَّفُونَهُ فِي الشَّيْءِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ
 لِحَسَنِ الْإِتِّ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحْسَوْهَا بِشَلِّ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ شَرِبَ أَوْ قَتَلَ.
 قَامًا أَخْبَارُهُمْ عَنِ الْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ عِنْدَ الْحَسَنِ وَهِيَ الَّتِي يُظَنُّ أَنَّهُ خَفِيَ
 عَنْهُمْ مَا أَحْسَوْا مِنْ ذَلِكَ أَوْ وَهَمُوا فِيهِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ
 مُمَكِّنًا أَنْ يَمَّ فِيهِ الْحَسَنُ فَلَيْسَ يُصَدِّقُونَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَدْعُونَهَا
 فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ دُونَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا فِي تَثْبِيتِ ذَلِكَ الشَّيْءِ
 الْقَوْلَ. وَعَلَيْهِ قَدْ أَخْطَأَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي الْخَطَابَةِ
 فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْقَضِيَّةَ وَالْأَنَاءَةَ إِنَّمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِي بَابِ الْإِلْإِنْفَعَالِ
 فَقَطْ. وَأَمَّا (الصَّنْفُ الثَّانِي مِنْ التَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ الصَّنْفُ الَّذِي
 يَكُونُ بِأَنْ يَكْسِبَ السَّامِعُ بِالْقَوْلِ إِنْفِعَالًا مَا بُوْجِبَ لَهُ التَّصْدِيقُ
 بِالشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْقَوْلُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَصْدِيقُنَا بِالشَّيْءِ وَأَقْرَارُنَا بِهِ
 وَنَحْنُ فِي حَالِ الْقَرَحِ أَوْ الْحُزَنِ تَصْدِيقًا وَاحِدًا. وَكَذَلِكَ إِذَا كُنَّا
 فِي حَالِ السُّخْطِ عَلَى الشَّيْءِ أَوْ حَالِ الرِّضَا عَنْهُ. وَهَذِهِ هِيَ الْأَشْيَاءُ
 الَّتِي تَكَلَّمْنَا فِيهَا أَوْلَانِكَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ. وَأَمَّا (الصَّنْفُ الثَّلَاثُ مِنْ هَذِهِ التَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ تَثْبِيتُ
 الشَّيْءِ بِالْكَلَامِ النَّفْعِ أَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُنْفَعٌ وَذَلِكَ فِي الْأُمُورِ
 الْجُرْنِيَّةِ الَّتِي تُنْفَعُ فِيهَا هَذِهِ الصَّنَاعَةُ. وَإِذَا كَانَتْ التَّصْدِيقَاتُ إِنَّمَا
 تَكُونُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ الَّذِي يَقْبَرُ أَنْ
 يُنْفَعُ الْإِقْنَاعُ الْمُمْكِنُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِنَّمَا هُوَ الَّذِي
 يَكُونُ عَالِمًا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: (أَوَّلَهَا) مَعْرِفَةُ الْأَقَارِيلِ الْمُنْفَعَةِ. (وِثَانِيهَا)

مَعْرِفَةُ الْأَخْلَاقِ وَالْفَضَائِلِ . (وَثَالِثُهَا) مَعْرِفَةُ الْأَنْفِعَالَاتِ (١)
وَذَلِكَ بَأَن يَعْرِفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَنْفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ أَيْ
شَيْءٍ يَكُونُ وَبَتَّى يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ
فَهَذِهِ الصَّاعَةُ كَانَتْهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ صِنَاعَةِ الْكَلَامِ وَالصِّنَاعَةِ الْخَلْقِيَّةِ
أَعْنِي الْمَدْنِيَّةِ . وَإِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَوْلُ مُسْتَوْفٍ فِي أَجْزَائِهَا
إِمَّا مِنْ قَبْلِ جَهْلِهِمْ وَإِمَّا مِنْ قَبْلِ أَنَّهُمْ صَنُّوا عَلَى غَيْرِهِمْ وَتَجَلَّوْا
عَلَيْهِمْ بِمَا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ لِمَكَانِ الْخَيْرَاتِ الَّتِي وَنَ حَاجِرٍ .
فَهَذِهِ الصَّاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ الْمُنْطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْجَدَلِ
فِي أَنَّهَا تَنْظُرُ فِي كِلَا الْمُتَقَابِلَيْنِ وَفِي أَنَّهَا لَيْسَا يَنْظُرَانِ فِي شَيْءٍ
مَحْدُودٍ نَظَرًا يَبْلُغَانِ بِهِ الْيَقِينَ لَكِنْ إِنَّمَا يَبْلُغَانِ مِنَ النَّظَرِ مَا
دُونَ الْيَقِينِ

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطليس كل من تكلموا في الخطابة .
وناهيك به من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرع يدعوون
هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, mœurs oratoires, passions)



الفصل الثالث

في الاقاول المقتعة

البحث الاول

في ان الخطيب لا بد له للاقتناع من معرفة القياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطليس في الخطابة لابن رشد)

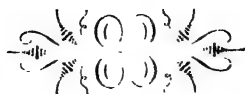
مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمُنْسُوبَةَ إِلَى هَذِهِ الصِّنَاعَةِ
لَنَّمَا يَتَصَدَّقُ بِهَا التَّصَدِيقُ وَالْإِعْتِرَافُ مِنَ الْمُخَاطَبِ بِالشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ
الدَّعْوَى وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَثْبِيتِ الشَّيْءِ عِنْدَ الْمُعْتَرِفِ بِهِ. وَذَلِكَ
أَنَّا لَنَّمَا نَعْتَرِفُ بِالشَّيْءِ الَّذِي رَأَيْنَا أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَنَا وَالشَّيْءِ الَّذِي
تَثَبَّتْ بِهِ الْأَشْيَاءُ عَلَى طَرِيقِ الْخَطَابَةِ هُوَ الضَّمِيرُ (١) لِأَنَّ هَذَا هُوَ
أَصْلُ التَّصَدِيقِ وَنَعْمُودُهُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تُوقَعُ هَذَا النُّجُوعُ مِنَ التَّصَدِيقِ
أَعْنِي التَّصَدِيقَ الْبَلَاغِيَّ. وَالضَّمِيرُ هُوَ نَوْعٌ مِنْ أَقْيَاسٍ وَمَعْرِفَةٍ
أَقْيَاسٍ جُزْءٍ مِنْ صِنَاعَةِ الْمُنْطِقِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ
الْمُنْطِقِ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ إِمَّا فِي كُلِّهَا وَإِمَّا فِي أَحْزَاءِ
مِنْهَا. وَبَيِّنُ أَنْ الَّذِي يَعْرِفُ الْقِيَاسَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَلْتَمِزُ وَيَكُونُ وَمَتَى
يَكُونُ فَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى عَمَلِ الضَّمِيرِ مِمَّنْ يَعْرِفُ الضَّمِيرَ فَقَطْ دُونَ أَنْ

(١) يريد بالضمير القياس الازهاري (Enthymème) وهو القياس

الذي قدرت احدى مقدمتيه امّا الكبرى وامّا الصغرى

عَرَفَ الْقِيَاسَ الَّذِي هُوَ جَنْسُهُ . وَالَّذِي يَزِيدُ عَلَى هَذَا فَيَعْلَمُ لِمَاذَا
 تُعْمَلُ الصَّمَائِرُ وَالْفُصُولُ الَّتِي بَيْنَ الضَّيْرِ وَبَيْنَ سَائِرِ الْقَيَاسِ الَّتِي
 تُسْتَعْمَلُ فِي الصَّمَائِعِ الْآخَرِ فَهُوَ أَقْدَرُ مِنْ ذَلِكَ . وَالْمَعْرِفَةُ بِهَذَا كُنْهٌ
 إِنَّمَا هُوَ لِصِنَاعَةِ الْمُنْطِقِ . فَإِنَّ لِقُوَّةَ الْوَاحِدَةِ بَيْنَهَا أَعْنَى لِلصِّنَاعَةِ
 الْوَاحِدَةِ بَيْنَهَا أَنْ تُعَرَفَ الشَّيْءُ الَّذِي هُوَ حَقٌّ وَالَّذِي هُوَ سَيِّئٌ
 بِالْحَقِّ . وَالتَّصْدِيقَاتُ الْخَطِيئَةُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَقًّا فَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْحَقِّ
 وَأَيْضًا فَإِنَّ النَّاسَ مُتَهَيِّئُونَ بِطَبِيعَتِهِمْ كُلِّ التَّهَيُّةِ نَحْوَ الْوُقُوفِ عَلَى
 الْحَقِّ نَفْسِهِ . وَهُمْ أَكْثَرُ ذَلِكَ يَأْتُونَهُ وَيَفْعَلُونَ عَنْهُ . وَالْحُجُودَاتُ
 وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ مِنْهَا الصَّمَائِرُ شَبِيهَةٌ بِالْحَقِّ مِنْ قَبْلِ أَنَّهَا نَائِبَةٌ عِنْدَ
 الْجُمْهُورِ مَنَابَ الْحَقِّ . وَالشَّيْءُ بِالْحَقِّ قَدْ يَدْخُلُ فِي عِلْمِ الْحَقِّ
 الَّذِي هُوَ عِلْمُ الْمُنْطِقِ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَقَدْ اسْتَبَانَ أَنَّ
 قُصُورَ هَؤُلَاءِ فِيمَا تَكَلَّمُوا فِيهِ مِنْ أَمْرِ الْخُطَابَةِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ أَجْلِ
 أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِالْمُنْطِقِ وَأَنَّ سَائِرَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي
 الْخُطَابَةِ وَمَنْ يَسْتَعْمِلُ الْأَقَاوِيلَ الْخَطِيئَةَ فَقَطَّ مِنْ غَيْرِ أَنَّ
 يَتَقَدَّمُوا فَيَعْرِفُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي هِيَ عُمُودُ الْبَلَاغَةِ إِنَّهُمْ إِنَّمَا
 يَتَكَلَّمُونَ فِي أَشْيَاءٍ تَجْرِي مِنَ الْبَلَاغَةِ تَجْرَى التَّزْيِينِ وَالتَّسْنِيقِ
 الَّذِي يَكُونُ فِي ظَاهِرِ الشَّيْءِ وَصَفَتِهِ لَا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَنْزِلُ
 مِنْهَا مَثَلَةٌ مَا بِهِ قِوَامُ الشَّيْءِ وَوُجُودُهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُظَنُّ بِمَا فَعَلُوا
 مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا الْعَايَةَ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْأَفْنَاعِيَّةِ وَجَرَوْا فِي
 ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ وَالْعَدْلِ

تُعْمَلُ مِنْهَا أَلْمَقَايِيسُ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ الَّتِي ذَكَرْنَا
 بَلْ فِي جَمْعِهَا إِذَا كَانَتْ لَا تُسْتَعْمَلُ نَفْسُهَا وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ قُوَّتُهَا. وَأَمَّا
 الْأَنْوَاعُ فِيهَا الْمَقَدِّمَاتُ الْخَاصَّةُ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ وَنَ الصَّنَاعِ الْخُرَازِيَّةِ مِثْلُ
 الْمَقَدِّمَاتِ الَّتِي تُعْمَلُ مِنْهَا الْمَقَايِيسُ فِي الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ فَإِنَّهَا لَا تُعْمَلُ
 مِنْهَا الْمَقَايِيسُ فِي الْأُمُورِ الْخَلْقِيَّةِ وَلَا الَّتِي فِي الْأُمُورِ الْخَلْقِيَّةِ تُعْمَلُ
 مِنْهَا الْمَقَايِيسُ فِي الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَإِذَا ذُنُ
 الْمَوَاضِعُ لَا يُؤَلَّفُ مِنْهَا قِيَاسٌ فِي صِنَاعَةٍ مُخْصُوصَةٍ إِذَا مَا يُتَصَوَّرُ مِنْهَا
 هُوَ عَامٌّ لِأَكْثَرِ مِنْ صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. وَأَمَّا الْأَنْوَاعُ فِيهَا الَّتِي
 تُؤَلَّفُ مِنْهَا الْمَقَايِيسُ الَّتِي تَنْتَمِي مِنْهَا الصِّنَاعَةُ الَّتِي تِلْكَ الْأَنْوَاعُ
 مُخْصُوصَةٌ بِهَا. لَكِنَّ الْأَنْوَاعَ الَّتِي نَحْنُ عَاذِرُونَ فِي هَذَا الْكِتَابِ عَلَى
 ذِكْرِهَا لَيْسَتْ هِيَ مُقَدِّمَاتٌ يَقِينَةٌ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ
 لَكَانَتْ الْمَقَايِيسُ الْخَطِيئةُ مَقَايِيسَ يَقِينَةٍ وَلَمْ تَكُنْ مَقَايِيسَ
 جَدَلِيَّةً فَضْلًا عَنْ خَطِيئةٍ. وَالضَّمَاوِرُ الْمَعْمُولَةُ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَكْثَرُ
 ذَلِكَ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مَا كَانَ مِنْهَا خَاصًا بِجِنْسٍ جِنْسٍ
 وَنَ أَجْنَاسٍ الْخَطَابَةِ أَثَلَاثَةٌ وَمَا كَانَ مِنْهَا عَامًّا لِلْأَجْنَاسِ الثَّلَاثَةِ
 الَّتِي تُحَدِّدُ بَعْدُ



البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للاببي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

التعريفُ عندَ أهلِ العَرَبِيَّةِ هُوَ جَعْلُ الذَّاتِ مُشَارًا بِهَا إِلَى خَارِجٍ إِشَارَةً وَضَعِيَّةً وَيُقَابِلُهَا التَّنْكِيرُ. وَعِنْدَ الْمُنْطَقِيِّينَ هُوَ الطَّرِيقُ الْمَوْصِلُ إِلَى الْمَطْلُوبِ التَّصَوُّرِيِّ وَيُسَمَّى مُعَرِّفًا وَقَوْلًا شَارِحًا أَيْضًا وَيُسَمَّى حَدًّا أَيْضًا عِنْدَ الْأَعُولِيِّينَ. وَذَلِكَ الْمَطْلُوبُ التَّصَوُّرِيُّ يُسَمَّى مُعَرِّفًا وَمَحْدُودًا. وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمُعَرِّفُ مَا يُكْتَسَبُ بِهِ التَّصَوُّرُ فَخَرَجَ مَا يَحْصُلُ بِطَرِيقِ الْخُذْسِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْمَلْزُومَاتِ الْبَيِّنَةِ مِنَ الْعِلْمِ بِاللَّوْازِمِ فَإِنَّ الْإِكْتِسَابَ إِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ. وَقَالَ الْمُنْطَقِيُّونَ: لَا بُدَّ فِي الْمُعَرِّفِ مِنْ مُتَمَيِّزٍ فَإِنْ كَانَ الْمُتَمَيِّزُ ذَاتِيًّا سُمِّيَ الْمُعَرِّفُ حَدًّا وَإِنْ كَانَ عَرَضِيًّا سُمِّيَ الْمُعَرِّفُ رَسْمًا. وَقَالَ الْمُتَقَدِّمُونَ: إِنَّ الرِّسْمَ مِنْهُ تَأَمُّ يُتَمَيَّزُ الْمَرْسُومَ مِنْ كُلِّ مَا يُعَايِرُهُ وَهُوَ يَتَرَكَّبُ مِنَ الْجَنْسِ الْقَرِيبِ وَالْخَاصَّةِ كَتَعْرِيفِ الْإِنْسَانِ بِالْحَيَوَانِ الضَّاحِكِ. وَمِنْهُ نَاقِصٌ يُتَمَيَّزُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُعَايِرُهُ وَيَكُونُ بِالْخَاصَّةِ وَحْدَهَا أَوْ بِهَا وَبِالْجَنْسِ الْبَعِيدِ كَتَعْرِيفِ الْإِنْسَانِ بِالضَّاحِكِ أَوْ بِالْجِنِّمِ الضَّاحِكِ أَوْ بِعَرَضِيَّاتٍ تَخْتَصُّ جُمْلَتَهَا بِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِنَا فِي

تَعْرِيفِ الْإِنْسَانِ: إِنَّهُ مَا شِ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ الْأَطْفَارِ بَادِي الْبَشَرَةِ
 مُسْتَقِيمُ الْقَامَةِ ضَخَّاكُ بِالطَّبْعِ. وَصَرَّحُوا بِأَنَّ الْمَسَاوَاةَ شَرْطُ جُلُودَةِ
 الرَّسْمِ وَجَرُّوا الرَّسْمَ بِالْأَعْمِ وَالْأَخَصِ وَأَيَّدَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَعْرِفَ
 لَا بُدَّ أَنْ يُفِيدَ التَّمْيِيزَ عَنْ بَعْضِ الْأَغْيَارِ كَمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ
 لِلْمَعْرِفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتَهُ. فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِي التَّمْيِيزَ فِي الْجُمْلَةِ.
 وَأَمَّا التَّمْيِيزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِأَنَّ التَّصَوُّرَاتِ الْمَكْتَسَبَةَ
 كَمَا قَدْ تَكُونُ بِوَجْهِ خَاصٍ بِالشَّيْءِ إِمَّا ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ كَذَلِكَ
 تَكُونُ بِوَجْهِ عَامٍّ ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ. فَجَبُّ أَنْ يَكُونَ كَاسِبٌ كُلِّ
 مِنْهُمَا مَعْرِفًا قَالُ الْمَسَاوَاةَ شَرْطُ الْمَعْرِفِ التَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ
 أَوْ رَسْمًا

قَالَ الْأَيْمِيُّ: (*) الْمَعْرِفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ الْمَعْرِفِ فَيَكُونُ
 غَيْرُهُ أَوْ أَجْلَى مِنْهُ فَلَا يُعْرَفُ بِمَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ أَوْ أَكْثَرَ.

شرح مقالة الايجي للجرجاني

يقول: (المعرف تجب معرفته قبل معرفة (المعرف) لان معرفته طريق الى معرفته وسبب لها فلا بد ان تتقدمها. (فيكون غيره) اذ لو كان عينه لم كون الشيء معلوما قبل ان يكون معلوما (او) يكون ايضا (اجلى منه) اذ لو ساواه في الجلاء او كان اخفى منه لم يكن معلوما قبله. (فلا يعرف) هذا تفريع على كونه اجلى اي لا يعرف الشيء (بما لا يعرف الا به) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دورا صريحا كقولك: الشمس كوكب خماري والنهار زمان = كون الشمس طالعة. (او اكثر) ويسمى دورا مضمرأ كقولك: الحركة خروج الشيء من القوة الى الفسل بالتدرج والتدرج وقوع الشيء في زمان والزمان مقدار الحركة. (ولا بد) اشارة الى شرط آخر للمعرف اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) به (التميز). (اذ لولاه)

وَلَا بُدَّ أَنْ يُسَاوِيَهُ فِي الْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ لِيَحْضَلَ التَّيْزُ إِذْ لَوْلَاهُ
لَدَخَلَ فِيهِ غَيْرُ الْمَعْرِفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطَرِّدًا. أَوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ
أَفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُنْعَكِسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تُمَيِّزٍ فَإِنْ كَانَ
ذَاتِيًّا سُمِّيَ حَدًّا وَإِلَّا سُمِّيَ رَسْمًا. وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَإِنْ ذُكِرَ
فِيهِ تَمَامُ الذَّاتِي أَلْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ أَلْمُسَمَّى بِالْجَنْسِ الْقَرِيبِ
فَتَامٌ وَإِلَّا فَنَاقِصٌ. وَالْمُرَكَّبُ يُحَدُّ دُونَ الْبَسِيطِ فَإِنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا
غَيْرُهُمَا حَدَّ بَهُمَا وَإِلَّا فَلَا. وَكُلُّ كَسْنِي لَهُ خَاصَّةٌ بَيْنَهُ يُرْسَمُ وَإِلَّا فَلَا.

اي لولا كونه مساويا (للدخل فيه غير المعرفة) على تقدير كونه اعم مطلقا او
من وجه (فلم يكن مانعا) من دخول غير المعرفة فيه (و) لا (مطردا) وهو ان
يكون بحيث كلما صدق على شيء صدق عليه المعرفة ايضا. (او خرج عنه بعض افراده)
على تقدير كونه اخص اما مطلقا او من وجه (فلم يكن جامعا) لجميع افراد المعرفة
(و) لا (منعكسا) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرفة.
واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق ما ذهب اليه المتأخرون اذ حينئذ يحصل
التمييز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرفة عن جميع ما عداها ولا يتس شيء منها
بغيرها... (ولا بد فيه) اي في المعرفة (من مميز مساو للمعرفة) (فان كان) المميز
(ذاتيا سمي) المعرفة (حدًا) (والا سمي رسما). وعلى التقديرين فان ذكر فيه تمام
الذاتي المشترك بينه وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتام (اما حد تام مركب
من الجنس والفصل القريبين واما رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب.
(والا فناقص) اما حد ناقص سواء كان بالفصل وحده او مع الجنس البعيد او
العرض العام عند من يجوز اخذه في الحد. واما رسم ناقص بالخاصة وحدها او مع الجنس
البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذه في الرسم. (والمركب) اذا لم يكن بديهي
التصور (يحد) باجزائه حدًا تامًا وناقصًا (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا
جزء له (فان تركب عنهما) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير
بديهي التصور (حد بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور
(كسي) مركب او بسيط (له خاصة) شاملة لازمة (بينه) بحيث يكون تصورهما

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمَكَّنَ رَسْمُهُ التَّامُّ وَالْأَوَّلُ فَالْثَّانِي. وَهَهُنَا نَوْعَانِ
آخَرَانِ مِنَ التَّعْرِيفِ الْأَوَّلِ بِالْمَثَالِ وَهُوَ بِالْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِالْمُشَابَهَةِ.
فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا تَاقِصًا وَالْأَوَّلُ
لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَالثَّانِي التَّعْرِيفُ اللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ اللَّفْظُ

مستلزمًا لتصوره (يرسم، والا) أي وإن لم تكن له خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فإن
كان) ذلك الكسبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا أمكن رسمه التام) بتركيب
جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الأول)
التعريف (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب
أو لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كالنور والحبل كالظلمة. (وهو بالحقيقة
تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرف وبين المثال. (فإن كانت) تلك المشابهة
(مفيدة للتمييز فهي خاصة) لذلك المعرف (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا)
داخلًا في الأقسام الأربعة المذكورة للمعرف (والا) أي وإن لم تكن تلك المشابهة
مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) بما فليس التعريف بالمثال قسيمًا على حدة. ولما كان
استنباس العقول القاصرة بالأمثلة أكثر شاع في محاضرات المتعلمين التعريفات بها.
(والثاني التعريف اللفظي). وهو أن لا يكون اللفظ واضح (الدلالة) على معنى (يفسر
بلفظ أوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنفر الأسد. وليس هذا تعريفًا حقيقيًا
يراد به إفادة تصور غير حاصل. إنما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين
سائر المعاني ليلتفت إليه ويعلم أنه موضوع بأرائه. فأله إلى التصديق وهو طريقة
أهل اللغة وخارج عن المعرف الحقيقي وأقسامه الأربعة التي ذكرت. وحقه أن
يكون باللفظ مفردة مرادفة فإن لم يوجد ذكر مركب يقصد به تعيين المعنى لا
تفصيله. وأعلم أن التعريف الحقيقي الذي يقصد به تحصيل ما ليس بمحصل من
التصورات ينقسم إلى قسمين: أحدهما ما يقصد به تصور مفهومات غير معلومة
الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم. فإذا علم مثلاً مفهوم الجنس
أجمالاً وأريد تصويره بوجه أكمل فإن فصل نفس مفهومه بأجزائه كان ذلك حدًّا
له اسميًا. وإن ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسميًا. والثاني ما يقصد
به تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة إما حدًّا أو رسمًا...

وَاضِحَ الدَّلَالَةِ فَيَفْسَّرُ بِلَفْظٍ أَوْضَحَ دَلَالَةً. ثُمَّ إِنَّهُ يُقَدِّمُ فِي التَّعْرِيفِ
الْأَعْمَ وَيُخْتَارُ عَنْ الْأَلْفَاظِ الْغَرِيبَةِ الْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ الْمَشْتَرَكِ وَالْجَازِ
بِلا قَرِينَةٍ وَبِالْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرٍ الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والحزني

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسية

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

الْكَلِمَةُ عِنْدَ الْمُنْطَلِقِينَ هُوَ الْمَفْهُومُ الَّذِي لَا يَنْعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ
وُقُوعِ شَرَكَةٍ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ إِلَى أَجْزَاءٍ. وَالْمُعْتَبَرُ
فِي الْكَلِمَةِ امْكَانُ فَرَضِ صَدَقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سِوَاهُ كَانَ صَادِقًا أَوْ
لَمْ يَكُنْ وَسِوَاهُ فَرَضِ الْعَقْلِ عِمْدَقُهُ أَوْ لَمْ يَفْرَضْ قَطُّ. وَيَقَابِلُهُ

(ثم انه يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقديمه اولى ولان الاخص
فيد له لمخصص اياه فكان تقديمه عليه انصب وما يقل من انه واجب في الحد التام
محصل لمجزئه الصوري حتى اذا اُخِّرَ الحرف فيه كان حداً ناقصاً فليس بشيء اذ
ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المخصرة في الجنس ونفصل. (ويختار)
فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها
فتطول المسافة ولذلك مما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم
مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم. (وعن المشترك والجاز بلا قرينة) ظاهرة
فيتردد السامع حينئذ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في الجاز الى
غيره. (وبالحملة فمن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه يصدر
الاذهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

الجزئي وهو المفهوم بما يتركب منه ومن غيره شيء سواء كان
موجوداً في الخارج أو في العقل. والكلية تقسيمات فهو إما
حقيقي وهو الذي مرّ تحديده. وإما إغنافي وهو ما أدرج تحته
شيء آخر في نفس الأمر وهو أخص من الكلّي الحقيقي.
والكلّي أيضاً إما جنس أو نوع أو فصل أو خاصة أو عرض
عام. ويقسم أيضاً إلى كلي طبيعي أو عقلي على حسب ما
يكون موجوداً في الخارج أو يفترضه العقل وأعلم أن كل مفهوم
آخر سواء كانا كليين أو جزئيين أحدهما كلياً والآخر جزئياً
فالنسبة بينهما مُحَصَرَّة في أربع: المساواة. والعوم مُطلقاً.
والعوم من وجه. والمباينة الكلية. وذلك أنه إن لم يتصادقا على
شيء أصلاً فهما متباينان تبايناً كلياً. وإن تصادقا فإن تلازماً في
الصدق فهما متساويان وإلا فإن استلزم صدق أحدهما صدق
الآخر فبيهما عوم وخصوص من وجه وكل منهما: (اعم) من
الآخر من وجه وهو كونه شاملاً للآخر ولغيره. (واخص) منه
من وجه وهو كونه مشمولاً للآخر فالمساواة بينهما أن يصدق
كل منهما بالفعل على كل ما صدق عليه الآخر سواء وجب ذلك
الصدق أو لا

وأعلم أن في الكتابة والخطابة والشعر موقفاً للكلّي
والجزئي. وعند البديعيين نوع يعرفونه بخصر الجزئي والخاصة
بالكلّي. فخصر الجزئي هو أن يأتي المتكلم إلى نوع من

الأنواع فجميعه جنساً تعظيماً له وتخصيماً لأمرو بعد أن يخصر جميع
أقسامه. والمراد عندهم بالأنوع أعم من أن يكون صادقاً على
متعددٍ ذهنا كما هو النوع المفهود عند علماء المنطق أو لا يصدق
إلا على فردٍ واحد كالجزيء المعروف عندهم. والمراد بالكلي
الجنس وهو ما صدق على متعددٍ اختلفت حقيقة أفرادِهِ. ومثال
ذلك عندهم كقول المتنبي:

هي الغرض الأقصى ورؤيتك أملني

ومثل ذلك الدنيا وأنت الخلاق
فقد قصد تعظيم مدوحيه فجعل منزله الذي هو جزئي كلياً وهو
الدنيا وجعل ذاته التي هي جزئية كليةً وهي الخلاق. وأما حضر
أقسام الجزئي فلأن العالم عبارة عن حيوان ونبات وجاد. والمثل
شامل لها

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الأمدي وشرح الشمسية والنجاة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

الجنس في اللغة الضرب في كل شيء وهو أعم من النوع.
يقال: الإنسان نوع والحيوان جنس. ويراد به عند أهل العربية
الماهية. وكل ما دل على شيء وعلى كل ما أشبهه وبالنظر إلى

هَذَا قِيلَ اسْمُ الْجِنْسِ اسْمٌ وَضُوعٌ لِلْمَاهِيَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ . وَالْجِنْسُ
 عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ مَقُولٍ عَلَى كَثِيرِينَ مُخْتَلِفِينَ بِالْأَغْرَاضِ دُونَ الْحَقَائِقِ .
 وَقِيلَ أَيْضًا . الْجِنْسُ هُوَ الْمَقُولُ عَلَى أَفْرَادٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ حَيْثُ الْمَقَاصِدِ
 وَالْأَحْكَامِ . وَالنَّوْعُ كُلُّ مَقُولٍ عَلَى أَفْرَادٍ مُتَّفِقَةٍ مِنْ حَيْثُ الْمَقَاصِدِ
 وَالْأَحْكَامِ مُخْتَلِفِينَ بِالْعَدَدِ فَقَطْ كَالْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ مَقُولٌ عَلَى زَيْدٍ
 وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ فِي جَوَابِ مَا هُوَ . وَزَيْدًا أُطْلِقَ الْجِنْسُ عَلَى الْأَمْرِ
 أَلْعَامِ سِوَاهُ كَانَ جِنْسًا عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ أَوْ نَوْعًا . كَالْخَرِّ وَالْعَبْدِ مَثَلًا
 فَهَمَا نَوْعَانِ يَنْدَرِجَانِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ وَيَشْتَرِكَانِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ .
 ثُمَّ إِنْ الْجِنْسُ يُقَرَّبُ إِلَى قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْجَوَابُ عَنْ
 الْمَاهِيَةِ وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذَلِكَ الْجِنْسِ وَاحِدًا فَهُوَ قَرِيبٌ .
 وَيَكُونُ الْجَوَابُ ذَلِكَ الْجِنْسَ فَقَطْ كَالْحَيَوَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ
 وَعَنْ جَمِيعِ مَا يَشَارِكُهُ فِي الْحَيَوَانِيَّةِ كَالْفَرَسِ وَالْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَخَوَاصِهَا .
 وَإِنْ كَانَ الْجَوَابُ عَنْهَا وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذَلِكَ الْجِنْسِ
 مُتَعَدِّدًا فَهُوَ بَعِيدٌ وَيَكُونُ الْجَوَابُ هُوَ غَيْرُهُ كَالْجِنِّمِ النَّاسِيِّ
 بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ جَوَابٌ عَنِ الْإِنْسَانِ وَعَنْ بَعْضِ
 مُشَارِكَاتِهَا فِيهِ كَالنَّبَاتَاتِ . . وَالْأَجْنَاسُ تَدْرَجُ تَدْرَجًا مُتَصَاعِدَةً وَالْأَنْوَاعُ
 مُتَنَزِّلَةٌ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ إِلَى جِنْسٍ لَيْسَ فَوْقَهُ جِنْسٌ آخَرُ وَهُوَ الْجِنْسُ
 الْعَالِي وَإِلَى نَوْعٍ لَيْسَ تَحْتَهُ نَوْعٌ آخَرُ وَهُوَ الْجِنْسُ الْمَفْرَدُ



البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعبد الرحمن الأبيحي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اعْلَمْ أَنَّ الْعِلِّيَّةَ وَالْمَعْلُولِيَّةَ مِنَ الْعَوَاضِ الشَّامِلَةِ لِلْمَوْجُودَاتِ
 عَلَى سَائِلِ التَّقَابُلِ كَالْإِمْكَانِ وَالْوُجُوبِ. وَتَصَوَّرُ أَحْتِيَاجَ الشَّيْءِ
 إِلَى غَيْرِهِ ضَرْوِيٌّ. فَالْحَتَّاجُ إِلَيْهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَالْحَتَّاجُ مَعْلُولًا.
 وَالْعِلَّةُ إِمَّا جُزْءُ الشَّيْءِ أَوْ خَارِجٌ عَنْهُ. (وَالْأَوَّلُ) إِنْ كَانَ بِهِ الشَّيْءُ
 بِالْفِعْلِ كَالْهَيْئَةِ لِلْسَّرِيرِ فَهُوَ الصُّورَةُ. وَإِنْ كَانَ بِالْقُوَّةِ كَالْحَشَبِ لَهُ
 فَهُوَ الْمَادَّةُ. وَهَذَا اسْمَاءُ بِأَعْيَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ: قَادَّةٌ إِذَا تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا
 الصُّورُ الْمُخْتَلِفَةُ. وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةٍ اسْتِعْدَادِهَا لِلصُّورِ. وَعَنْصَرٌ إِذَا مِنْهَا
 يَبْتَدَأُ التَّرَكِيبُ. وَاسْطَقْسٌ إِذَا إِلَيْهَا يَنْتَهِي التَّخِيلُ. وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ
 لِلْمَاهِيَةِ كَمَا أَنَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلْوُجُودِ فَيُحْصَانِ بِأَسْمِ عِلَّةِ آلْمَاهِيَةِ.
 (وَالثَّانِي) إِمَّا مَا بِهِ الشَّيْءُ كَالْجَارِ لِلْسَّرِيرِ وَهُوَ الْفَاعِلُ. وَإِمَّا لِأَجْلِ
 الشَّيْءِ كَالْجُلُوسِ عَلَيْهِ وَهُوَ الْغَايَةُ. وَهَاتَانِ تُحْصَانِ بِأَسْمِ عِلَّةِ
 الْوُجُودِ. وَالْأَوَّلَانِ لَا تُوْجَدَانِ إِلَّا لِلْمَرْكَبِ. وَالْغَايَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا
 لِفَاعِلٍ بِالْإِخْتِيَارِ. وَقَدْ تُسَمَّى قَائِدَةً فِعْلٍ الْمَوْجِبِ غَايَةً أَيْضًا تَشْبِيهَاً
 وَالْغَايَةُ مَعْلُوءَةٌ فِي الْخَارِجِ وَإِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي الذِّهْنِ فَلَهَا عِلَاقَةٌ

العلية والعلولية. ويسمى جميع ما يحتاج إليه الشيء علة تامة وهي
قد تكون علة فاعلية أو مع الفاعلية كما في البسيط. وقد تكون
مجتبة من الأذرع كما في المركب... والفرق بين العلة والشرط
أن العلة مطردة فحينما وجدت وجد الحكم وتأثيرها بالذات. أما
الشرط فتتوقف عليه تأثير المؤثر لا ذاته كنبوسة الخطب للأحراق
إذ النار لا تؤثر في الخطب بالأحراق إلا بعد أن يكون يابساً

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الأول

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

أَعْلَمُ أَنَّ لِلْكَلامِ آدَابًا إِنْ أَغْفَلَهَا اَلْتَّكَلِيمُ أَذْهَبَ رَوْقِي
كَلامِهِ وَطَمَسَ بَهْجَةَ بَيَانِهِ وَلَهَا النَّاسُ عَنْ مَحَاسِنِ فَضْلِهِ بِمِثَالِهِ
فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِهِ . (فَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي
مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَإِنْ كَانَتْ الزَّاهَةُ عَنِ الذَّمِّ كَرَمًا .
وَالَّتَّجَاوُزُ فِي الْمَدْحِ مَلَقًا يَصْدُرُ عَنْ مَهَابَةٍ وَالسَّرْفُ فِي الذَّمِّ اِنْتِقَامًا

يُضَدُّ عَنْ شَرِّهِ. وَكَلاَهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ الْكَذِبِ. عَلَى أَنْ
السَّلَامَةَ مِنَ الْكَذِبِ فِي الْمَدْحِ وَالذَّمِّ مُتَعَدِّةٌ لَأَسِيًّا إِذَا مَدَحَ
تَقَرُّبًا وَذَمَّ تَحَقُّقًا. وَحُكِيَ عَنِ الْأَخْفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ سَهَرْتُ
لَيْلَتِي أَفَكَّرْتُ فِي كَلِمَةٍ أَرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي فَمَا
وَجَدْتُهَا. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى
السُّلْطَانِ وَمَعَهُ دَيْنُهُ فَيُخْرِجُ وَمَا مَعَهُ دَيْنُهُ. قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ.
قَالَ: يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. وَسَمِعَ ابْنُ الرُّومِيِّ رَجُلًا
يَصِفُ رَجُلًا وَيُثَلِّغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا مَا وَصَفْتَ أَمْرًا لَا أَمْرِي فَلَا تَغُلْ فِي وَصْفِهِ وَأَقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغُلْ تَغُلْ الظُّنُ نَ فِيهِ إِلَى الْأَمَدِ الْأَبَدِ
فِيضَالُ مِنْ حَيْثُ عَظُمَتْهُ لِفَضْلِ الْغَيْبِ عَلَى الْمَشْهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا تَبْعَثَ الرِّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ عَلَى الْأَسْتِزَالِ
فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَخْجُرُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْوَفَاءِ بِهِمَا. فَإِنْ مَنْ
أَطْلَقَ بِهِمَا لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهِمَا عِمَانَهُ وَلَمْ يَسْتَثْقِلْ مِنَ الْقَوْلِ مَا
يَسْتَثْقِلُهُ مِنَ الْعَمَلِ صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا. (وَمِنْ آدَابِهِ)
إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ فَإِنْ
أَرْسَلَ الْقَوْلَ اخْتِيَارًا وَالْعَمَلَ بِهِ اضْطِرَارًا وَلَيْنَ يَفْعَلْ مَا لَمْ يَقُلْ
أَحْمَلُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَحْسَنُ
الْكَلَامِ مَا لَا يُجْتَاجُ فِيهِ إِلَى الْكَلَامِ أَيْ يَكْتَفِي بِالْفِعْلِ مِنْ
الْقَوْلِ. وَقَالَ مُحَمَّدٌ الْوَرَّاقُ:

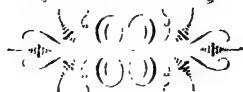
أَلْقَوْلُ مَا صَدَقَهُ الْفَعْلُ وَالْفَعْلُ مَا وَكَدَهُ الْعَقْلُ
 لَا يَثْبُتُ الْقَوْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يُقَالُهُ مِنْ تَحْتِهِ الْأَصْلُ
 (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يُرَاعِيَ تَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ
 وَانْغَرَاضِهِ فَإِنْ كَانَ تَرْغِيئًا قَرَنَهُ بِاللِّينِ وَاللَّطْفِ. وَإِنْ كَانَ تَرْهِيئًا
 خَلَطَهُ بِالْخُشُونَةِ وَالْعَنْفِ. فَإِنَّ لَيْنَ اللَّفْظِ فِي التَّرْهِيْبِ وَخُشُونَتَهُ فِي
 التَّرْغِيْبِ حُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعَيْهَا وَتَغْيِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهَا فَيَصِيرُ الْكَلَامُ
 لَعْنًا وَانْقِرَاضُ الْمَقْصُودِ هَوًا. وَقَدْ قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدِّيْلِيُّ لِأَبْنِهِ :
 يَا ابْنِي إِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مِنْ هُوَ فَوْقَكَ
 فَيُحَقِّقُوكَ. وَلَا بِكَلَامٍ مِنْ هُوَ دُونَكَ فَيَذَرُوكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ
 لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنَكِرًا وَلَا يَتَرَعَّجَ لَهُ أَتْرَعَا جًا مُسْتَهْجَأًا
 وَلِيَكْفَ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيِّشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا. فَإِنْ
 نَقَصَ الطَّيِّشُ أَكْثَرَ مِنْ فَضْلِ الْبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ
 لِأَعْرَابِيٍّ : أَخْطِيبُ أَنَا. قَالَ : نَعَمْ لَوْ لَا أَنَّكَ تُكْثِرُ الرَّدَّ وَتُمَيِّزُ
 بِالْيَدِ وَتَقُولُ أَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يَتَجَانَّبَ فِي هُجْرِ الْقَوْلِ
 وَمُسْتَهْجِ الْكَلَامِ وَلِيَعْدِلَ إِلَى الْكِتَابَةِ عَمَّا يُسْتَهْجَى صَرِيحُهُ
 وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ الْغَرَضَ وَلِسَانَهُ تَرَهُ وَآدَبُهُ مَضُونٌ كَمَا أَنَّهُ
 يَضُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذَلِكَ فَهَكَذَا يَضُونُ عَنْهُ سَمْعُهُ فَلَا يَسْمَعُ خِيًّا وَلَا
 يُضْغِي إِلَى فُحْشٍ فَإِنَّ سَمَاعَ الْفُحْشِ دَاعٍ إِلَى إِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةٌ إِلَى
 انْكَارِهِ وَإِذَا وُجِدَ عَنِ الْفُحْشِ مُغْرَضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ إِنْغَرَاضُهُ
 أَحَدَ التَّكْيِيدَيْنِ كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ أَحَدَ الْبَلَاغَتَيْنِ. وَأَنْشَدَنِي أَبُو الْحَسَنِ

أَبْنُ الْحَارِثِ الْهَاشِمِيُّ :

تَحَرَّ مِنْ الطَّرْقِ أَوْسَاطَهَا وَعَدَّ عَنِ الْمَوْضِعِ الْمَشْتَبِهِ
وَسَمِعَكَ صُنَّ عَنْ قَبِيحِ الْكَلَامِ كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ
فَأَتَاكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقَبِيحِ شَرِيكَ لِقَائِهِ فَأَنْتَبَهَ
وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى فَحْشِ الْقَوْلِ وَهَجْرِهِ فِي وَجُوبِ اجْتِنَابِهِ وَلُزُومِ
تَنَكُّهِ مَا كَانَ شَنِيعَ الْبَدِيَّةِ مُسْتَكْرَ الظَّاهِرِ وَإِنْ كَانَ غُشِبَ
اَلتَّامُلِ سَلِيًّا وَبَعْدَ الْكُشْفِ وَالرَّوْيَةِ مُسْتَقِيمًا كَالَّذِي رَوَاهُ الْأَزْدِيُّ
عَنِ الصَّوْلِيِّ لِبَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ :

إِنِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ كَافِرٌ بِاللَّهِ سِيرِي
أَنْتَ رَبِّي وَالْهِي رَازِقُ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ

يُرِيدُ بِقَوْلِهِ (كَافِرٌ) أَيَّ لَا بَسُّ لَأَنَّ الْكُفْرَ اَلتَّغْطِيَّةُ . وَلِذَلِكَ
سُمِّيَ الْكَافِرُ بِاللَّهِ كَافِرًا لِأَنَّهُ قَدْ عَطَى نِعْمَةَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ . وَقَوْلُهُ :
(بِاللَّهِ سِيرِي) يُقْسِمُ عَلَيْهَا أَنْ تَسِيرَ . وَقَوْلُهُ : (أَنْتَ رَبِّي) يَعْنِي رَبِّي
وَلَدَيْكَ مِنَ التَّرْبِيَةِ . وَالْهِي رَازِقُ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ كَمَا أَنَّهُ رَازِقُ الْوَلَدِ
الْكَبِيرِ . فَانْظُرْ إِلَى هَذَا اَلتَّكْلُفِ الشَّنِيعِ وَالتَّعَمُّقِ الْبَشِيعِ مَا
اُعْتَاضَ مِنْ حَيْثُ الْبَدِيَّةِ إِذَا سَلِمَ بَعْدَ الْفِكْرِ وَالرَّوْيَةِ إِلَّا لَوْ مَا
إِنْ حَسُنَ فِيهِ الظَّنُّ أَوْ دَمًا إِنْ قَوِيَ فِيهِ الْاِزْتِيَابُ . وَقَلَمًا يَكُونُ
ذَلِكَ إِلَّا مِنْ خَلِيعٍ بَطِرٍ أَوْ مُرْتَابٍ آثِرٍ



المبحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والغزالي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

إِنَّ الْخَطِيبَ الْحَرِيَّ بِالْإِزْشَادِ مَنْ قَدْ اسْتَكَمَلَتْ فِيهِ خَمْسُ
 خِصَالٍ : (إِحْدَاهُنَّ) عَقْلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجَرِبَةٍ سَالِفَةٍ فَإِنَّ بِكَثْرَةِ
 التَّجَارِبِ تَصِحُّ الرُّوْيَةُ . وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : اسْتَرْشِدُوا الْعَاقِلَ
 تُرْشِدُوا وَلَا تَعُصُوهُ فَنُذِّمُوا . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ لِابْنِهِ مُحَمَّدٍ :
 احْذَرُوا مَشُورَةَ أَجَاهِلٍ وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تُحْذَرُ عَدَاوَةُ الْعَاقِلِ
 إِذَا كَانَ عَدُوًّا فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يُورِطَكَ بِمَشُورَتِهِ فَيَسْبِقُ إِلَيْكَ
 مَكْرُ الْعَاقِلِ وَتُورِطُ أَجَاهِلٍ . وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبَسَ : مَا أَكْثَرَ
 صَوَابَكُمْ . قَالَ : نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَأَنَّا
 أَلْفُ حَازِمٍ . وَكَانَ يُقَالُ إِيَّاكَ وَمَشَاوَرَةَ رَجُلَيْنِ شَابٍ مُتَجَبِّ
 بِنَفْسِهِ قَلِيلِ التَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ أَوْ كَبِيرٍ قَدْ أَخَذَ الدَّهْرَ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا
 أَخَذَ مِنْ جَسَدِهِ . وَقِيلَ فِي مَنْشُورِ الْحُكَمَاءِ : كُلُّ شَيْءٍ لَا يَخْتِاجُ إِلَى
 الْعَقْلِ وَالْعَقْلُ يَخْتِاجُ إِلَى التَّجَارِبِ . وَلِذَلِكَ قِيلَ : أَلَا يَأْمُرُ تَهْتِكُ لَكَ عَنْ
 الْأَسْتَارِ الْكَامِنَةِ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : التَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ
 وَالْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : مَنْ اسْتَعَانَ بِذَوِي
 الْعُقُولِ قَارَ بِذَلِكَ الْأُمُومِ . وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدِّبَلِيُّ :

وَمَا كُلُّ ذِي نَفْسٍ يُؤْتِيكَ نَفْسَهُ وَلَا كُلُّ مَوْتٍ نَفْسَهُ بَلِيبٌ
وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعْنَا عِنْدَ صَاحِبٍ فَتَحَى لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِصِيبٍ
(وَالْخُصْلَةُ الثَّانِيَّةُ) أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ ذَا دِينٍ وَتَقَى قَانَ
ذَلِكَ عِمَادُ كُلِّ صَلاحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الدِّينُ فَهُوَ
مَأْمُونُ السَّرِيرَةِ مُوَفَّقُ الْعَزِيمَةِ. (وَالْخُصْلَةُ الثَّالِثَةُ) أَنْ يَكُونَ
نَاصِحًا وَدُودًا فَإِنَّ النَّصِيحَ وَالْمُودَّةَ يُصَدِّقَانِ الْفِكْرَةَ وَيَخَصَّصَانِ الرَّأْيَ.
وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا الْحَازِمَ غَيْرَ الْحُسُودِ وَاللَّيْبِ
غَيْرَ الْحَقُودِ وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةُ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى الْأَفْنِ وَعَزَمَهُنَّ
إِلَى الْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدَبَاءِ مَشُورَةُ الْمُسْتَفِيقِ الْحَازِمِ ظَرْفُ
وَمَشُورَةُ غَيْرِ الْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

أَصْفِ ضَمِيرًا لَنْ تُعَايِرَهُ وَأَسْكُنْ إِلَى نَاصِحٍ تُشَاوِرُهُ
وَأَرْضَ مَنْ آتَرَ فِي مَوَدَّتِهِ بِأَيُّدِي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفُ النَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا تَنْصَحُ مِنْهُمْ لَهُ سَرَائِرُهُ
أَوْشَكَ أَنْ لَا يَدُومَ وَصْلُ أَخٍ فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

(وَالْخُصْلَةُ الرَّابِعَةُ) أَنْ يَكُونَ سَلِيمَ الْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ
وَعَمٍّ شَاغِلٍ. فَإِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرُهُ شَوَائِبُ الْهَمِّ لَا يَسْلَمُ لَهُ
رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِنَرِي إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعَثَ إِلَى
مَرَاذِيئِهِ فَاسْتَشَارَهُمْ فَإِنْ قَصَرُوا بِالرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتَهُ وَقَالَ: أَبْطَأْتُمْ
بَارِزَاتِهِمْ فَأَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ:

وَلَا مُشِيرَ كَنَدِي نَفِيحٍ وَمَقْدَرَةٍ فِي مُشْكِالِ الْأَمْرِ فَاتَّخَذَ ذَلِكَ مُنْتَصِحًا

(وَالْخُصْلَةُ الْخَامِسَةُ) أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي الْأَمْرِ الْمُسْتَشَارُ
غَرَضٌ يُتَابَعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَإِنَّ الْأَغْرَاضَ جاذِبَةٌ وَالْهَوَى صَادٌّ
وَالرَّأْيَ إِذَا عَارَضَهُ الْهَوَى وَجَاذَبَتْهُ الْأَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ
الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ عَتَبَةَ بْنِ أَبِي هَبَبٍ :

وَقَدْ يُحْكِمُ الْأَيَّامُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا

وَيُرْدِي الْهَوَى ذَا الرَّأْيِ وَهُوَ لَيْبٌ

وَيُحْمَدُ فِي الْأَمْرِ الْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ

وَيُعْذَلُ فِي الْإِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبٌ

فَإِذَا اسْتَكْمَلْتَ هَذِهِ الْخِصَالَ الْخَمْسَ فِي رَجُلٍ كَانَ أَهْلًا
لِلْإِشَادِ وَالْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلْ عَنْ اسْتِشَارَتِهِ اعْتِمَادًا
عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةٍ بِمَا تَسْتَشِيرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوَيْتِكَ.
فَإِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي الْحَاجَةِ أَسْلَمَ وَهُوَ مِنَ الصَّوَابِ أَقْرَبُ لِلْخُلُوصِ
الْفِكْرِ وَخُلُوعِ الْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ الْهَوَى وَارْتِفَاعِ الشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي
الْحَدِيثِ: إِنَّ رَأْسَ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ وَمَا
اسْتَغْنَى مُسْتَشِيرٌ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ أَحَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ فَلِذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ أَوَّلُ مَا يَهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:
الْإِسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهُدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنْ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ
الْحَكِيمُ لِابْنِهِ شَاوِرَ: مَنْ جَرَّبَ الْأُمُورَ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا
قَامَ عَلَيْهِ بِالْقَلَاءِ وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ بِجَانَا. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: يَنْصِفُ
رَأْيُكَ مَعَ أَخِيكَ فَشَاوِرُهُ لِيَكْمَلَ الرَّأْيُ

البحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ الطُّفُولِيَّةِ) هَذَا هُوَ الدَّوْرُ الْأَوَّلُ لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ. وَالْعُلُوءَةُ
 الْأُولَى فِي طَرِيقِ الزَّمَانِ. حِينَ يُقَالُ لِلدَّخْلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ.
 وَلِلخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ. وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الدَّخْلِ عَدِيمَ
 الْبَصِيرَةِ. خَالِي السَّرِيرَةِ. عَارِيًا مِنْ كُلِّ الْكِمَالَاتِ الْأَدَبِيَّةِ. غَيْرِ
 حَاصِلٍ عَلَى تَأَمُّمِ الْوُطَائِفِ الْعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَرَى إِلَّا مَا يَعُومُ قُرْبَهُ. وَلَا
 يَشْعُرُ إِلَّا بِمَا يَسْتَعِظُ قَلْبَهُ. فَيَلْعَبُ بِالْثَرَابِ وَيَذَرِيهِ. وَيَعْبَثُ بِالْثَبْرِ
 وَيُزْرِئِهِ. وَيَسْتَحِرُّ بِالْمَقْبُولَاتِ وَالْمَرْذُودَاتِ. وَيَضْحَكُ عَلَى كُلِّ
 أَوْجُودَاتٍ. فَلَا يَتَمُّ إِلَّا بِطَلَبِ الْغِذَاءِ. وَلَا يَخْفَلُ إِلَّا بِمَا يُورِثُ
 الْأَذَى. وَإِذَا لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِحَقِّهِ بَنِيَّتِهِ. وَضَائِعًا فِي تِهٍ بَنِيَّتِهِ. فَلَا
 يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ الْعَوَالِمِ. وَلَا رَوِيَّ قَوَائِي الْعُظَائِمِ. بَيْنَمَا
 يَكُونُ بَاصِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَقَوَائِلِهَا. وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ
 جَوَازِيهَا وَعَوَامِلِهَا. وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ إِلَى الدَّخُولِ فِي
 أَبْوَابِهَا. وَالْقَوْصِ فِي بُعَابِهَا. فَلَيْتَ عَيْنُهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ
 الْأَوْضَابِ. وَمَا يَسْتَنْظِرُهُ مِنَ الْأَتْعَابِ. فَمَا أَتَذْنِي إِلَّا رَمَزُ الرَّدَى
 فِي طَلَبِ الْقَوْتِ. وَمَا أَلْهَدُ إِلَّا إِشَارَةُ التَّائِبِ

(حَالُ الْفُتُوَّةِ) هَذَا هُوَ الدَّوْرُ الثَّانِي لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ . وَالْمَسَاحَةُ
الْأُولَى لِاتِّشَارِ الْقُوَى الْعَقْلِيَّةِ أَوْ التَّلُّ الْأَوَّلُ فِي طَرِيقِ الْأَجَلِ .
وَمَسْلِكِ الْعَمَلِ . فَيَصْعَدُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ وَيَنْظُرُ الْعَالَمَ بِعَيْنَيْهِ . فَيَرَاهُ
مَشْهُدًا بَدِيعَ الْجَمَالِ . وَمَلْعَبًا تَلْعَبُ بِهِ الْآ مَالُ . وَتَرْقُصُ فِيهِ
الْمَلَكَّاتُ وَالْأَمَانِي . وَتَحُومُ حَوْلَهُ الْبَشَائِرُ وَالْتِهَانِي . فَتَشْلُهُ سُؤْلُ هَذَا
الظُّهُورِ . وَتَلْعَبُ بِرَأْسِهِ حِمْيَةُ هَذِهِ الْأُمُورِ . فَيَبْتَ سَكْرَانٌ بِالْأَفْرَاحِ .
وَمَاخُودًا بِرَيْنِ تِلْكَ الْأَقْدَاحِ . فَيَنْسَمُ مَدَى الْأَوْقَاتِ . وَلَا يَعْلَمُ مَا
الْآ قَاتُ . إِذْ يَظَلُّ مُلْتَمِّيًا بِكِسَاءِ الْآ مَالِ . وَمُخْتَفًا بِأَوْهَامِ الْأَعْمَالِ .
وَلَا يَنْظُرُ إِلَّا إِلَى ذَاتِهِ . وَلَا يَحْفَلُ إِلَّا بِصِفَاتِهِ . هَائِمًا فِي مَلَاهِي
ذُنْيَاهُ . وَمُتَهَافِنًا عَلَى حَدَاثَةِ قُوَاهُ . وَهَكَذَا يَهْبِطُ فِي وَادِي هَذَا
الْعَالَمِ الْمَلِيمِ . وَيَخْبِطُ فِي ذَلِكَ الْبَحْرِ الْخِضَمِ . وَلَا يَزَالُ بَيْنَ هُبُوبِ
وَأَنْكَبَابِ . إِلَى أَنْ يَنْشَلُهُ الصَّوَابُ . وَيُدْرِكُهُ الشَّبَابُ

(حَالُ الشُّبُوبَةِ) أَمَّا الشُّبُوبَةُ فَهِيَ الدَّوْرُ الثَّلَاثُ لِلْأَجَلِ . وَحَلُّ الْكَدِّ
وَالْعَمَلِ . وَمَوْقِعُ الْيَأْسِ وَالْأَمَلِ . حَيْثُمَا يُوجَدُ الْإِنْسَانُ ضَائِعًا فِي مَفَازَةِ
الْعُمْرِ . حَائِرًا فِي تَنَوُّهِ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ . فَيَرَى نَفْسَهُ قَائِمًا فِي وَسْطِ
هَذِهِ الدُّنْيَا . مُنْمَقًا بِكَافَةِ الْأَشْيَاءِ . مُلْتَطِمًا بِأَمْوَاجِ الْعَالَمِ وَأَهْوَاهِهِ .
مَضْرُوعًا وَمَاخُودًا بِخِجَابِهِ وَضَوْغَانِهِ . وَهَكَذَا تَهَضُّ فِي قَلْبِهِ ثَوْرَةُ
الْحَوَاسِ . وَتَشْبُ فِي دِمَاعِهِ نَارُ الْوَسْوَاسِ . وَتَضْفِرُ فِي سَرِيرَتِهِ رِيحُ
الْأَهْجَاسِ . فَيَنْدَفِعُ إِلَى مُنَازَلَةِ الْأَقْدَارِ وَالْآيَامِ . وَمُقَاتَلَةِ الْحَقَائِقِ
وَالْأَوْهَامِ . فَتَارَةً تَهْبُ بِهِ الْآ مَالُ إِلَى أَوْجِ الْأَفْرَاحِ وَالْمَسَرَّاتِ .

وَطَوْرًا تَكْبُ بِهِ الْحَيَاتُ فِي حَضِيضِ الْأَتْرَاحِ وَالْحَسَرَاتِ . يَرَى
 الْعَالَمَ قَرِيبَ الْمَالِ . فَيَنْدَفِعُ وَرَاءَهُ عَلَى نُثُونِ الْأَهْوَالِ . حَتَّى إِذَا
 مَا ظَفَرَ بِالْبَعْضِ طَمِعَ بِالْكُلِّ . وَإِذَا قَارَ بِالشَّمْعِ رَغِبَ فِي الْفِطْلِ .
 فَلَا يَكُونُ إِلَّا مُضْمَعَةً فِي أَفْوَاهِ الطَّامِعِ . وَكَرَّةً تَتَلَقَّهَا الْقَوَامِعُ .
 وَذَلِكَ إِنَّمَا يُوْجَدُ مُهَيَّطًا لِحَوَادِثِ الْجِدْثَانِ . وَنَسَقَطًا بِحَاثِبِ
 الزَّمَانِ . وَلَا تَرَالُ زَهْرَةٌ هَذَا الشَّبَابِ الرَّاهِي بَيْنَ ذُبُولٍ وَأَقْتِرَارِ .
 وَلَا يَبْرَحُ بَدْرُ هَذَا الْعَصْرِ الْبَاهِي بَيْنَ خُسُوفٍ وَأَسْفِرَارِ . إِلَى أَنْ
 تَشْتُرَ الشَّيْخُوخَةَ تَاجَ تِلْكَ الزَّهْرَةِ . وَيَضَعُ الْحَرَمَ وَجْهَ هَانِكِ الْقُدْرَةِ .
 حِينَئِذٍ يَسْقُطُ الشَّبَابُ مِنْ قَرْنِهِ . وَيَرْتَفِعُ الْمَشِيبُ عَلَى عَرْشِهِ .
 (حَالُ الشَّيْخُوخَةِ) فَلَا يَزَالُ الْإِنْسَانُ سَافِرًا فِي طَرِيقِ غَمْرِهِ
 سَيِّدَ الْمَسَافِرِ فِي الْقَفَارِ . إِلَى أَنْ يَبْلُغَ رَابِعَ الْأَدْوَارِ . وَهُوَ دَوْرُ الدُّنْيَا .
 هَذَا إِذَا أَمْسَكَهُ الْخَلَاصُ مِنْ لُحُوصِ الْحَوَادِثِ . وَالْمُنَاصِرُ مِنْ أَسَدِ
 الْكَوَارِثِ . وَنَهَبَ الْأَعْرَاضِ . وَقَتَلَ الْأَمْرَاضِ فَيَلْبِثُ هُنَاكَ مِنْهُوَكَ
 مِنْ تَعَبِ الْمَسِيرِ . وَمَضَى التَّأْثِيرِ . إِذْ يَبُودُ مُخَيَّيَا تَحْتَ أَحْمَالِ الْحَيَاةِ
 وَأَثْقَالِهَا . وَمَرُثُوصًا مِنْ عَمَلَاتِ الدُّنْيَا وَأَهْوَالِهَا . فَضُضْتُ ضَوْضَاءُ
 حَوَاسِهِ وَهَوَاجِسِهِ . وَيُخْرَسُ رَيْنُ أَنْفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ . فَيَكْفُ بِصَرِّهِ
 وَتَجْفُ فِكْرُهُ . وَيَقِلُّ دَوْنُهُ . وَيَكْثُرُ شَوْقُهُ . وَيَجْلُ حَتَّى بِأَنْفَاسِهِ
 وَيَزِيدُ جَرْعُهُ عَلَى أَنْفُسِهِ . وَيَبُودُ بِأَنْفَاسِهِ . فَإِذَا أَلْتَمَّتْ إِلَى وَرَائِهِ
 وَرَأَى الدُّنْيَا الَّتِي قَطَعَهَا . وَالْعَارِيقَ الَّتِي تَتَّبَعَهَا . ظَهَرَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ
 أَشْبَاحَ أَحْلَامِهِ . وَمَلَأَتْ أَوْهَامَهُ . وَكُلُّهَا تَجْرِي تَحْيِيرُهُ إِلَى الزَّوَالِ .

كَأَطِيفٍ وَالتَّحْيَالِ . فَيَضْحَكُ عَلَى الْجَمِيعِ . ضَحِكُ الْوَلَدِ الرُّضِيعِ . أَمَّا إِذَا اتَّفَقَتْ إِلَى الْأَمَلِ . وَطَمَعَ بِبَقِيَّةِ الْأَيَّامِ . حَنَّ إِلَى الْوُجُودِ . وَهَامَ بِحُبِّ الْخُلُودِ . وَلَا يَزَالُ الْمَاضِي يَدْفَعُهُ . وَالْحَاضِرُ يَرُدُّهُ . وَالْمُسْتَقْبَلُ يُطْعِمُهُ . حَتَّى تَخْتَطِفَ نِيَامَةً نَفْسِهِ بُرَاةُ الْمَنِيَّةِ . وَتَسْلِبَهُ كُلَّ بُغْيَةٍ وَأُمْنِيَةٍ . فَيَهْبِطَ هُبُوطَ الْبُذْيَانِ . وَيَعُورَ فِي قَبْرِ النَّسِيَانِ . حِينَ تَسْتَرْجِعُ الْكَلِمَاتُ جُزْئِيَّاتَهَا . وَتَسْرُدُ التَّجْمُوعَاتُ مُفْرَدَاتِهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ الْخَطِيبَ إِذَا مَا أَرَادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحَسَنَ سِيَاسَةَ نَفْسِهِ فِي أُورِهِ فَلْيَتَوَخَّ طِبَاعَهُمْ وَتَلَوَّنْ أَخْلَاقَهُمْ وَتَبَايُنَ أَسْوَاقِهِمْ . قَالَ أَفَلَاطُونُ : لِكُلِّ أَمْرٍ حَقِيقَةٌ . وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ . وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ خَلِيقَةٌ . فَعَابِلِ النَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِمْ وَأَتَمِّسْ مِنَ الْأُمُورِ حَقَائِقَهَا وَاتَّجِرْ مَعَ الزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهِ (١٥) . وَهَذِهِ قَوَائِنُ تَنْفَعُ الْخَطِيبَ فِي مُتَصَرِّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ طَبَقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ عَلَى سَبِيلِ الْأَبْجَازِ وَالْإِخْتَصَارِ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْتَحُ قَوْلُنَا هَذَا مِنْ ذِكْرِ مَا يَخْتَصُّ بِاسْتِعْمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ

دُونَ وَقْتٍ وَمَعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ إِذَا الْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ لَا يُنْكِبُهُ
 أَنْ يَسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ
 السِّيَاسَاتِ. وَنُقَدِّمُ لِذَلِكَ مُقَدِّمَاتٍ وَنَهَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ
 مِنَ النَّاسِ مَتَى مَا رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَهَا وَأَحْوَالَ غَيْرِهِ
 مِنْ فِتَاتِ النَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتْبَةٍ يَشْرِكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ .
 وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةٌ هُمْ أَعْلَى مَنَازِلًا مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ. وَوَجَدَ
 دُونَهَا طَائِفَةٌ هُمْ أَوْضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ. لِأَنَّ أَلَمَّكَ الْأَعْظَمُ مَثَلًا
 وَإِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فِي رَمَانِهِ مَثَلَهُ
 أَعْلَى مِنْ مَنَازِلِهِ فَإِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعْمًا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْضَلُهُ
 بِنَوْعٍ مِنَ الْفَضِيلَةِ الْفَضِيلَةِ إِذْ لَيْسَ فِي أَجْزَاءِ الْعَالَمِ مَا هُوَ
 كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ. وَكَذَلِكَ الْوَضِيعُ الْخَامِلُ الَّذِي يُجِدُ
 فِي نَفْسِهِ أَشْيَاءَ لَمْ يَفْزِ بِهَا مَنْ هُوَ فَوْقَهُ. فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا. وَيَنْتَفِعُ
 الْخَطِيبُ بِاسْتِعْمَالِ السِّيَاسَاتِ مَعَ هَذِهِ الْأَطْبَقَاتِ الثَّلَاثِ... وَنَقُولُ
 أَيْضًا إِنَّ أَنْفَعَ الطَّرِيقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْخَطِيبُ فِي ذَلِكَ تَأَمُّلُ أَحْوَالِ
 النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ وَمُتَحَصِّرَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا بِمَا سَمِعَهُ
 وَتَنَامَى إِلَيْهِ مِنْهَا وَأَنْ يُبَيِّنَ النَّظَرَ فِيهَا وَيُبَيِّنَ مَحَاسِنَهَا وَمَسَاوِيَهَا
 وَبَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِّ لَهُمْ مِنْهَا. ثُمَّ لِيَجْتَهِدَ فِي التَّمَسُّكِ بِخَاسِنِهَا وَحَضَرَ
 النَّاسِ عَلَى طَلِبِهَا لِيَسْأَلُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مِنْ تَقَدُّمِهِمْ وَيَجْتَهِدَ
 فِي التَّنْكِيبِ عَنْ مَسَاوِيهَا لِيَأْمَنَ مِنْ مَضَارِّهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَايَاهَا
 مِثْلَ مَا سَلِمُوا. وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنْ أَتَخَاصِ

أَدَّاسُ قُوتَيْنِ إِحْدَاهُمَا نَاطِقَةٌ وَالْأُخْرَى بَهِيمَةٌ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا
 تَزَاعُ غَالِبٌ. فِتْرَاعُ الْقُوَّةِ الْبَهِيمَةِ نَحْوُ اللَّذَاتِ الْعَاجِلَةِ الشَّهَوَانِيَّةِ مِثْلِ
 أَنْوَاعِ الْغِذَاءِ وَتَزَاعُ الْفُرَّةِ النُّطْقِيَّةِ نَحْوُ الْأُمُورِ الْعَمُودَةِ الْعَوَاقِبِ..
 فَعَلَى كُلِّ مَنْ يَرْتُدُّ الْجُمْهُورَ وَيُخْضِطُّهُمْ عَلَى نَيْلِ الْقَضَائِلِ أَنْ لَا
 يَتَعَاقَلَ عَنْ تَحْرِيطِهِمْ عَلَى مَا هُوَ أَضْلَحُّ لَهُمْ وَأَنْ لَا يُهْمِلَهُمْ قَلْبُهُ مَتَى
 مَا أَهْمَلَهُمْ تَحَرَّكُوا نَحْوَ الطَّرَفِ الْآخِرِ الَّذِي هُوَ الْبَهِيمِيُّ. وَإِذَا
 تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ تَشَبَّهُوا بِبَعْضِ مَنْهُ حَتَّى إِذَا أَرَادَ رَدُّهُمْ عَمَّا تَحَرَّكُوا
 نَحْوَهُ لِحَقَّةٍ مِنَ النَّصَبِ أَعْغَافَ مَا كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَهْمَلَهُمْ.
 وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ الْخَطِيبَ لَا يُتَّبَعُ فِي جَمِيعِ مُتَصَرِّقَاتِهِ مِنْ أَنْ يَلْقَى
 الْجُمْهُورَ مَائِلًا إِلَى أَسْرِ تَحْمُودٍ أَوْ أَسْرِ مَذْمُومٍ. وَلَكِنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ
 مِنْ الْأَمْرَيْنِ قَائِدَةٌ وَمَوْضِعٌ رِيَاضَةٌ لِلتَّصَرُّفِ وَهُوَ أَنْ يُجَاهِلَ دَفْعَ
 السَّامِعِينَ إِلَى ذَلِكَ الْأَسْرِ الْعَمُودِ الَّذِي يَلْقَاهُ إِنْ وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى
 الدَّفْعِ إِلَيْهِ وَيَلْتَمِسُهُمْ عَلَى فَضِيلَتِهِ وَيُوجِبُ عَلَيْهِمُ التَّمَسُّكَ بِهَا مَتَى
 وَجَدَ الْفُرْصَةَ لِذَلِكَ. وَإِذَا يَلْقَاهُ الْأَمْرُ الْمَذْمُومُ فَلْيَتَّخِذْ فِي التَّخْذِيرِ
 مِنْهُ وَالْتَجَنُّبِ مِنْهُ. وَإِنْ لَمْ يَجِدْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا فَلْيَتَّبِعْهُمْ عَلَى
 الْإِعْتِبَارِ بِمَنْ نَأْتِيهِمْ مَضَارٌّ وَمِثْلُهَا. فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ لِلْخَطِيبِ فِي جَمِيعِ
 أَحْوَالِهِ جُلُهَا وَدَقِّهَا خَيْرُهَا وَشَرُّهَا مَوْضِعَ الرِّيَاضَةِ لِنَفْسِهِ وَارْتِشَادِ
 الْجُمْهُورِ. وَإِذَا تَيَقَّنَ ذَلِكَ فَيَتَّبِعِي أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى سِيَاسَةِ الْأَحْوَالِ
 بِقَلْبٍ قَوِيٍّ وَبَيَّةٍ صَادِقَةٍ وَعِذْرِ وَاسِعٍ وَثِقَةٍ أَنْ مَا يَأْتِيهِ مِنْ ذَلِكَ
 وَإِنْ قَلَّ يُجِدِي عَلَيْهِ نَفْعًا يُجِلُّ. وَنَبْدَأُ بِتَعَهُدِ الْخَطِيبِ لِلرُّؤَسَاءِ إِنَّهُ

يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُلَازِمًا لِمَا هُوَ فِي صَدَدِهِ مُوَاطِّبًا عَلَى مَا قُوضَ
إِلَيْهِ وَلَا يَخْشَى اَللَّالَ وَخَصُوصًا مِنَ اَلْمُلُوكِ وَأَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا فِي
طَلَبِ وَجْهِهِ حِسَانٍ لِكُلِّ مَا يَطْلُبُهُ مِنْهُمْ إِذْ لَا شَيْءَ مِنَ الْأُمُورِ
فِي الْعَالَمِ إِلَّا وَلَهُ وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا جَمِيلٌ وَالْآخَرُ قَبِيحٌ فَلْيَطْلُبْ لِكُلِّ
أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ وَجْهًا جَمِيلًا يَصْرِفُهُ إِلَيْهِ وَيَتَكَلَّفْ لِدُكْرِهِ بِحَضْرَتِهِ
فَإِنَّ اَلْخَطِيبَ اَلْقُوضِ إِلَيْهِ تَذِيرُ ذَلِكَ الرَّئِيسِ كَالسَّيْلِ اَلْمُتَحَدِّدِ مِنْ
الرُّبُوعَةِ إِنْ أَرَادَ اَلْمَرْءُ أَنْ يُوَاجِهَهُ أَهْلَكَ نَفْسَهُ وَآتَى عَلَيْهِ اَلسَّيْلُ
فَاغْرَقَهُ. وَإِنْ سَعَى مَعَهُ وَعَلَى جَانِبِهِ وَتَلَطَّفَ لِيَصْرِفَهُ إِلَى اَلنَّاحِيَةِ
بِأَنْ يَطْرَحَ فِي بَعْضِ جَوَانِبِهِ مَقْدَارًا مِنَ اَلشَّدَدِ وَيَطْرُقَ لَهُ مِنْ
اَلْجَانِبِ اَلْآخَرِ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَصْرِفَهُ إِلَى حَيْثُ شَاءَ. فَيَنْبَغِي لَهُ كَذَلِكَ
أَنْ يَسْتَعْمِلَ مَعَ الرَّئِيسِ فِي صَرْفِ وَجْهِهِ عَمَّا يُرِيدُ صَرْفَهُ عَنْ أَمْرٍ
يُرِيدُ أَنْ يُجْرَى مَعَهُ فِيمَا هُوَ جَارِئُ حَوَهِ وَلَا يُوَاجِهَهُ وَإِنْ كَانَ فِي
غَايَةِ اَلْإِنْسَاطِ مَعَهُ وَلَا يُقَرَّرُ بِمَا يُلْقِي مِنْهُ إِلَى النَّاسِ بِمَا يُسْتَقْبَلُ
فَسَيَّانَ بَيْنَ اَلْخَبَرِ وَاَلْإِقْرَارِ.. وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَلَطَّفَ كُلُّ اَلتَّلَطُّفِ فِي
مِثْلِ اَلْمَنَافِعِ مِنْ جِهَةِ الرُّؤَسَاءِ بِأَنْ لَا يُبْلَغَ فِي السُّؤَالِ وَلَا يُدْعَى
وَلَا يُظْهَرُ اَلطَّعَمُ وَاَلشَّرُّ مِنْ نَفْسِهِ وَيَجْتَهِدُ فِي أَنْ يَطْلُبَ مِنْ
الرُّؤَسَاءِ أَسْبَابَ اَلْمَنَافِعِ لَا اَلْمَنَافِعَ أَنْفُسَهَا.. وَيَجْتَهِدُ فِي أَنْ يُظْهِرَ
فِي كُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَفْعَلُهُ زِينَةً وَجَمَالًا لِلرَّئِيسِ لَا
لِنَفْسِهِ وَأَنَّهُ يُرِيدُ وَجْهَ الصَّلَاحِ فِي خِلَافِ مَا يَأْبِيهِ وَيَذْكُرُهُ فِي
اَلْوَقْتِ بَعْدَ اَلْوَقْتِ عَلَى سَبِيلِ اَلْحِكَايَاتِ عَنْ غَيْرِهِ وَاَلْحِيلِ اَللطَّيْفَةِ

الشيخ
محمد بن
عبد الله

بَعْضَ مَا يَعْزُضُ مِمَّا هُوَ فِيهِ. فَإِنَّهُ مَتَى مَا اسْتَعْمَلَ هَذِهِ الطَّرِيقَ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَعُودَ الْحَالُ بِرَأْيِهِ.. وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِلرُّؤَسَاءِ هِمًّا يَنْقَرُدُونَ بِهَا عَنْ سِوَاهُمْ مِنَ النَّاسِ وَهِيَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي جَمِيعِ مَنْ دُونَهُمْ الْإِسْتِحْدَامَ وَالْإِسْتِعْبَادَ وَفِي أَنْفُسِهِمُ الْإِعَابَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتُونَ وَإِنَّمَا يَخْذُ هَذَا بِهَيْمَتِهِمْ لِكَثْرَةِ مَدْحِ النَّاسِ لَهُمْ وَإِظْهَارِهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَتَصَوُّبِهِمْ آرَاءَهُمْ

فَهَذِهِ قَوَائِنُ يَنْتَفِعُ بِاسْتِعْمَالِهَا الْخَطِيبُ فِي مَعَاشِرِ الرُّؤَسَاءِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا الْمُرُءُ مَعَ الْأَكْفَاءِ فَسَنَذْكُرُ مِنْهَا جُمْلًا وَنَقُولُ إِنَّ الْأَكْفَاءَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَدِدَاءَ أَوْ أَعْدَاءَ أَوْ لَيْسُوا بِأَصْدِقَاءَ وَلَا أَعْدَاءَ. وَالْأَصْدِقَاءُ عِشْقَانِ أَحَدُهُمَا الْأَعْفِيَاءُ الْخُلَاصُونَ فِي الصَّدَاقَةِ فَيَنْبَغِي لِلْمُسْتَكَلِمِ أَنْ يُدِيمَ مُلَاطَفَتَهُمْ وَتَعَهُدَ أَسْبَابِهِمْ وَرَاهِدَاءَ مَا يَسْتَحْسِنُهُ وَمَا يَتَسَرَّلُهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وَيَجِيءُ الْحَالُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِذَلِكَ بَعِيرٌ أَنْ يُظْهِرَ مِنْهُ مَلَالًا أَوْ تَقْصِيرًا وَيَجْتَنِبُ فِي الْأَكْثَارِ مِنْهُمْ غَايَةَ الْجُهْدِ فَإِنَّ الصَّدِيقَ زَيْنُ الْمُرُءِ وَعَضْدُهُ وَعَوْنُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُذِيعُ قَضَائِهِ وَكَاتِمُ هَفَوَاتِهِ وَخَفِيِّ زَلَاتِهِ وَمَهْمَا كَانَ هُوَ لَاءَ أَكْثَرُ كَانَتْ أَحْوَالُ الْخَطِيبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَحْسَنَ وَأَقْوَمَ. وَالصَّنْفُ الْآخَرُ أَيْ الْأَصْدِقَاءُ فِي الظَّاهِرِ عَنْ لَا صِدْقٍ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ بَلْ يَنْشَبُ وَتَصْنَعُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمُدَارَاةٍ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَلَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ وَخُصُوصًا مِنْ عُيُوبِهِ. وَيَجْتَنِبُ فِي اسْتِمَالَتِهِمْ وَالصَّبْرَ مَعَهُمْ وَمَعَامَلَتِهِمْ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ

دُونَ أَخْذِهِمْ بِالْبَاطِنِ وَلَا يَأْخُذْهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فَإِنَّهُ مَهْمَا عَمِلَ ذَلِكَ
يُرْجَى عَمَلُهُمْ وَرُجُوعُهُمْ إِلَى مُرَادِهِ وَآمَلَهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتْبَةِ
الْأَضْفَاءِ لَهُ . أَمَّا الْأَكْفَاءُ الْأَعْدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ
وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلَ نِيَّاتِهِمْ . وَأَمَّا سَائِرُ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسُوا
بِصَدِيقٍ وَلَا عَدُوٍّ فَهُمْ طَبَقَاتُ سَنَدٍ رُجُلُهَا فَنْتَهَى الَّذِينَ
يَتَبَرَّعُونَ بِالنَّصِيحَةِ فَأَلْوَابُ أَنْ لَا يَذْكُرَ كُلُّ مَا يُنْهَى إِلَيْهِ
وَيَعَزِّمَ عَلَى قَلْبِهِ أَوَّلًا بَانَ لَا يَغْتَرُ بِكُلِّ قَوْلٍ يَسْمَعُهُ بَلْ يَتَأَمَّلُ
أَقْوَابَهُمْ وَيَتَعَرَّفُ أَغْرَاضَهُمْ غَايَةَ التَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعْرِفَةِ أَغْرَاضِهِمْ
عَلَى حَقِيقَةِ أَقْوَابِهِمْ فَرَدَا لَاحَ لَهُ وَجْهُ الصَّوَابِ حَقِيقَةُ بَادَرِ إِلَى
إِنْفَازِ الْأَمْرِ . وَمِنْهُمْ الصُّلَحَاءُ وَهُمْ أَنْاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِإِصْلَاحِ
مَا بَيْنَ النَّاسِ فَجِبُّ عَلَى الْخَطِيبِ أَنْ يَدْحَهُمْ أَبَدًا عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ
وَأَنْ يَتَشَبَّهُ بِهِمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ فَإِنَّ مَذَاهِبَهُمْ مَرْضِيَّةٌ عِنْدَ
كُلِّ النَّاسِ وَمَهْمَا مَالَ الْخَطِيبُ إِلَيْهِمْ عُرِفَ بِالْخَيْرِ وَخَسِرَ
الْتِيَّةُ . وَمِنْهُمْ السُّفَهَاءُ فَجِبُّ عَلَى الْخَطِيبِ أَنْ لَا يُؤَاتِيَهُمْ وَلَا
يُقَابِلَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ أَبَدًا بِحِلْمٍ رَزِينٍ
وَسُكُونٍ بَلِيعٍ لِيَسَاسُوا مِنْ مَنَالَاتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤْذُوهُ بَعْدَ
ذَلِكَ مَتَى يَلْقَوُهُ بِالْمُشَامَةِ فَجِبُّ أَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقَلَّةِ الْأَكْثَرَاتِ .
وَمِنْهُمْ أَهْلُ الْكِبَرِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَجِبُّ أَنْ يُقَابِلَهُمْ بِثُلَّةٍ لِأَنَّهُ إِنْ
تَوَاضَعَ لَهُمْ أَحْسَوْا مِنْهُ بِضَعْفٍ وَتَرَهُمُوهُ أَنْ فَعَلَهُمْ ذَلِكَ صَوَابٌ
وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوَاضُعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ الْمَرْءُ عَلَيْهِمْ

وَكَاثُرُهُمْ فِي الْأَحْوَالِ وَتَاذُوا بِهِ عَلِمُوا أَنَّ الذَّنْبَ فِي ذَلِكَ لَهُمْ
وَرَجَعُوا إِلَى التَّوَّاضُعِ

وَأَمَّا الَّذِي يَتَّبِعِي لِلْخُطِيبِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ مَعَ مَنْ دُونَهُ مِنَ
النَّاسِ فَلَنَا نِصْفٌ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ وَنَقُولُ : فَنَهُمُ الضُّعَفَاءُ فَيَجِبُ أَنْ
يَتَعَهَّدَهُمْ بِالْمُوَاسَاةِ وَرِقَّةِ الْكَلَامِ بِعَايَةِ مَا أَمَكَّهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يُخِلَّ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ . وَمِنْهُمْ الْمُتَعَلِّمُونَ فَإِنْ كَانُوا أُولَى طَبَائِعِ رَدِيَّةٍ
يَقْصِدُونَ الْعُلُومَ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي الشَّرُورِ فَعَلَى الْخُطِيبِ أَنْ يَحْجِلَهُمْ
عَلَى تَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَلَا يَعْلِمَهُمْ شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا لَا
يَجِبُ وَيَجْتَهِدُ فِي كَشْفِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَدَاءَةِ الطَّبَعِ لِيُجَدِّدَهُمْ مِنْهُ .
وَمِنْهُمْ الْبُلْدَاءُ الَّذِينَ لَا يُرْجَى ذِكَاؤُهُمْ وَبِرَاعَتُهُمْ فَيَتَّبِعِي أَنْ يُحْشَهُمْ
عَلَى مَا هُوَ أَعْوَدَ عَلَيْهِمْ . وَمِنْهُمْ الْمُتَعَلِّمُونَ ذَوُوا الْأَخْلَاقِ الطَّاهِرَةِ
وَالطَّبَائِعِ الْحَيَّةِ فَيَجِبُ أَنْ لَا يَدَّخِرُهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْعُلُومِ .
فَهَذِهِ أَصُولٌ وَقَوَائِينُ مَتَى مَا اسْتَعْمَلَهَا الْخُطِيبُ فِي كَلَامِهِ وَقَاسَ
عَلَيْهَا فِي مُتَصَرِّقَاتِ أُمُورِهِ وَأَسْبَابِهِ اسْتَقَامَتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَتَجَمَّعَ فِي
الْقَوْمِ كَلَامُهُ



الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لكرام بن هادي)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ الْخُلُقَ هُوَ حَالٌ بِهِ يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ أَفْعَالَهُ بِإِلَافَةٍ رَوِيَّةٍ وَلَا
 اخْتِيَارٍ. وَالْخُلُقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ النَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبْعًا وَفِي بَعْضِ
 النَّاسِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالرِّيَاضَةِ وَالْإِجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ
 مِنَ النَّاسِ بَغْيٌ رِيَاضَةً وَلَا تَعْلَمُ كَأَسْجَاعَةٍ وَالْحِلْمِ وَالْعِفَّةِ وَالْعَدْلِ
 وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْحَمُودَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُوجَدُ فِيهِمْ
 ذَلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ إِلَيْهِ بِالرِّيَاضَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَى عَادَتِهِ
 وَيَجْرِي عَلَى مَسِيرَتِهِ. فَأَمَّا الْأَخْلَاقُ الْمَذْمُومَةُ فَلَهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ
 النَّاسِ كَالْمُجَلِّ وَالْخُبْنِ وَالشَّرِّ فَإِنَّ هَذِهِ الْعَادَاتِ غَالِبَةٌ عَلَى أَكْثَرِ
 النَّاسِ مَا لَكَ لَهُمْ مُتَسَلِّطَةٌ عَلَيْهِمْ بَلْ قِيلَ لَا يُوجَدُ فِي النَّاسِ مَنْ
 يَخْلُو مِنْ خُلُقٍ مَكْرُوهٍ وَيَسْلَمُ مِنْ جَمِيعِ الْعُيُوبِ وَلَكِنَّهُمْ يَتَفَاضُونَ

فِي ذَلِكَ كَمَا يَتَفَاضِلُونَ فِي الْأَخْلَاقِ الْحَمْدُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ النَّاسُ
 فِي الْأَخْلَاقِ الْحَمْدُودَةِ بِالتَّفَاضُلِ إِلَّا أَنَّ الْحَيَوَانِ عَلَى الْأَخْلَاقِ
 الْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَالْمُبْغِضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. قَالُوا الْحَيَوَانُونَ عَلَى
 الْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ فَكُثُرُ النَّاسِ لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ
 الشَّرُّ. وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أُنْتَرَسَلَ مَعَ طَبِيعِهِ وَلَمْ يَسْتَعِزَّ
 بِالْفِكْرِ وَلَا التَّمْيِيزِ وَلَا الْحَيَاءِ وَلَا التَّحَفُّظِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ كَانَ الْغَالِبُ
 عَلَيْهِ اخْلَاقُ الْبَهَائِمِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَشَبَّهُ عَنِ الْبَهَائِمِ
 بِالْفِكْرِ وَالتَّمْيِيزِ وَقَطُّ فَإِذَا لَمْ يَسْتَعِزَّ بِهَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي
 عَادَاتِهَا وَالشَّهَوَاتِ مُسْتَوِيَّةً عَلَيْهِ وَالْحَيَاءِ غَائِبٌ عَنْهُ وَالْعُصْبُ مُسْتَقْبِرٌ
 بِهِ وَالسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَالْجُرُصُ وَالْإِحْتِشَادُ دِينُهُ وَالشَّرُّ
 لَا يُفَارِقُهُ. وَإِذَا كَانَ النَّاسُ طَبُوعِينَ عَلَى الْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ
 مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ الدُّنْيَا وَقَعَ الْإِفْتِقَارُ إِلَى الشَّرَائِعِ وَالسُّنَنِ
 وَالسِّيَاسَاتِ الْحَمْدُودَةِ وَعَظُمَ الْإِثْقَالُ بِالْمُلُوكِ الْحَسَنِ السَّيِّقِ
 لِيَرُدَّعُوا الظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَنْعَمُوا الْغَاصِبَ عَنْ غَضَبِهِ وَيُعَاقِبُوا الْقَاجِرَ
 عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْصَحُوا الْجَائِرَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى الْأَعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ.
 أَمَّا الْأَخْلَاقُ الْمَكْرُوهَةُ فِي طَبَاعِ النَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِهَا
 وَيُنْقَادُ إِلَيْهَا وَهُمْ أَشْرَارُ النَّاسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجُودَةِ الْفِكْرِ وَقُوَّةِ
 التَّمْيِيزِ عَلَى قُبْحِهَا فَيَأْتِفُ مِنْهَا وَيَتَصَنَّعُ لِاجْتِنَائِهَا (١) وَذَلِكَ يَكُونُ
 عَنْ طَبِيعِ كَرِيمٍ وَنَفْسِ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

إِذَا نَبِهَ عَلَيْهِ أَحْسَرَّ بِفَتْحِهِ فَرَبَّمَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا
تَنَبَّهَ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ النَّقَاصِ أَوْ نَبِهَ عَلَيْهَا وَرَامَ الْعُدُولَ عَنْهَا تَعَدَّرَ
عَلَيْهِ ذَلِكَ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ وَلَوْ كَانَ مُؤَثِّرًا لِلْعُدُولِ عَنْهَا مُجْتَهِدًا فِي
ذَلِكَ . وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ تَحْتَاجُ أَنْ تُرْشَدَ إِلَى طَرِيقِ التَّدْرِبِ وَالتَّعَلُّمِ
بِالْعَادَاتِ الْحَمُودَةِ حَتَّى تَصِيرَ إِلَيْهَا عَلَى التَّدْرِيجِ . وَمَنْ النَّاسُ مَنْ
إِذَا تَنَبَّهَ عَلَى الْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ أَوْ نَبِهَ عَلَيْهَا فَلَا يَجْنُ إِلَى تَجَنُّبِهَا وَلَا
تَسْمَحُ نَفْسُهُ بِفَارِقَتِهَا بَلْ يُؤْثِرُ الْأَضْرَارَ عَلَيْهَا مَعَ عِلْمِهِ بِرَدَائِئِهَا
وَفَقِيحَتِهَا وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ لَيْسَ إِلَى تَهْذِيبِهَا طَرِيقٌ إِلَّا بِالْقَهْرِ
وَالْعُقُوبَةِ إِنْ لَمْ يَرُدَّعَهَا التَّخْوِيفُ وَالتَّرْهِيبُ . فَأَمَّا الْأَخْلَاقُ الْحَمُودَةُ
فَالنَّاسُ وَإِنْ كَانَتْ فِي بَعْضِ النَّاسِ غَرِيزِيَّةٌ فَلَيْسَتْ فِي جَمِيعِهِمْ
فَعَلَى الْبَاقِينَ أَنْ يَصِيرُوا إِلَيْهَا بِالتَّدْرِبِ وَالرِّيَاضَةِ وَيَرْتَقُوا إِلَيْهَا
بِالْإِعْتِيَادِ وَالتَّائُلُّفِ وَقَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ النَّاسِ مَنْ لَا يَقْبَلُ
طَبْعُهُ الْعَادَاتِ الْحَسَنَةَ وَلَا الْأَخْلَاقَ الْجَمِيلَةَ وَذَلِكَ يَكُونُ لِرَدَاءَةِ
جَوْهَرِهِ وَخُبْثِ غُضْرِهِ . وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَشْرَارِ الَّذِينَ لَا
يُرْجَى صَلَاحُهُمْ . وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْبَلُ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْلَاقِ
الْحَمُودَةِ وَيَأْتَفُ طَبْعُهُ عَنْ بَعْضِهَا فَلَا يُعَدُّ هَذَا زَرِيرًا بَلْ تَكُونُ
رُتْبَتُهُ فِي الْخَيْرِ وَالتَّهْذِيبِ مُحَسَّبٍ مُحَاسِنٍ



البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لكرابا بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

أَمَّا الْأَخْلَاقُ الَّتِي تُعَدُّ فُضَائِلَ فَإِنَّ مِنْهَا (الْعِفَّةُ) وَهِيَ ضَبْطُ
النَّفْسِ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَقَسْرُهَا عَلَى الْإِسْتِفَاءِ بِمَا يُقِيمُ أَوْدَ الْجَسَدِ
وَيَحْفَظُ صِحَّتَهُ فَقَطُّ وَاجْتِنَابُ السَّرَفِ وَالتَّقْصِيرِ فِي جَمِيعِ اللَّذَاتِ
وَقَصْدُ الْإِعْتِدَالِ . وَأَنْ يَكُونَ مَا يُقْتَصَرُ عَلَيْهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ عَلَى
الْوَجْهِ الْمُسْتَحَبِّ الْمُتَّفَقِ عَلَى الْإِرْثَاءِ بِهِ وَفِي أَوْقَاتِ الْحَاجَةِ الَّتِي لَا
غِنَاءَ عَنْهَا وَعَلَى الْقَدْرِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْهُ . وَهَذِهِ الْحَالَةُ هِيَ
غَايَةُ الْعِفَّةِ

(وَمِنْهَا أَيْضًا الْقَنَاعَةُ) وَهِيَ الْإِقْتِصَارُ عَلَى مَا سَمَحَ بِهِ الْعَيْشُ
وَالرِّضَى بِمَا تَسَهَّلَ مِنَ الْمَعَاشِ وَتَرَكَ الْجُرُصَ عَلَى اكْتِسَابِ الْأَمْوَالِ
وَطَلَبِ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ مَعَ الرِّغْبَةِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ وَإِيثارِهِ وَالْمِيلَ إِلَيْهِ
وَقَهْرَ النَّفْسِ عَلَى ذَلِكَ وَالتَّقَنُّعَ بِالْيُسْرِ مِنْهُ . وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ
مِنْ أَوَاسِطِ النَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ فَأَمَّا الْأُمُلُوكُ وَالْعُظَمَاءُ فَلَيْسَ ذَلِكَ
مُسْتَحْسَنًا مِنْهُمْ وَلَا تُعَدُّ الْقَنَاعَةُ مِنْ فُضَائِلِهِمْ
(وَمِنْهَا التَّصَوُّنُ) وَهُوَ التَّحْفُظُ مِنَ التَّبَدُّلِ . فَمِنْ التَّصَوُّنِ التَّحْفُظُ

مِنَ الْهَزْلِ الْقَبِيحِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ وَضَبْطِ اللِّسَانِ عَنِ
النَّفْسِ وَدَكْرِ الْخُفَا وَالْمَزْحِ وَالسَّخِيفِ وَخَاصَّةً فِي الْحَافِلِ وَمَجَالِسِ
الْمُحْتَشِمِينَ إِذَا لَا أَيْهَةٌ إِنْ يُسْرِفَ فِي الْمَزْحِ وَيُفْخَشُ فِيهِ. وَمِنْ
الْتِّصُونِ إِلَّا نَقِيَاضُ عَنِ أَذْنِيَاءِ النَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ وَمُصَادَقَتِهِمْ وَمَجَالَسَتِهِمْ
وَالْعُزُورِ مِنَ الْعَيْشَةِ الزَّرِيَّةِ وَتَسَابِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْوُجُوهِ
الْحَسِيصَةِ وَالْأَثَرِ فَعَنْ طَلَبِ لِحَاجَاتِ مَنْ لِيَامِ النَّاسِ وَسَفَلَتِهِمْ
وَالْتَّوَاضِعِ إِنْ لَا قَدْرَ لَهُ وَالْأَقْلَالِ مِنَ الْبُرُوزِ أَغْنَى الطَّوَّافِ مِنْ
غَيْرِ اضْطِرَارٍ وَالتَّبَدُّلِ بِالْجُلُوسِ فِي الْأَسْوَاقِ وَقَوَارِعِ الطَّرِيقِ مِنْ
غَيْرِ حَاجَةٍ حَيْثُ إِنَّ الْأَكْثَارَ مِنْ ذَلِكَ لَا يَخْلُوْنَ مِنَ الْعُيُوبِ
فَإِنَّ أَكْثَرَهُمُ النَّاسِ قَدَرًا كَمَا قِيلَ مَنْ ظَهَرَ أَسْمُهُ وَخَفِيَ جِسْمُهُ

(وَمِنْهَا الْحِلْمُ) وَهُوَ تَرْكُ الْإِتِّقَامِ عِنْدَ شِدَّةِ الْغَضَبِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى
ذَلِكَ وَهَذَا الْحَالُ مُحَمَّدٌ مَا لَمْ يُودَّ إِلَى ثَلَمِ جَاهٍ أَوْ فُسَادِ سِيَاسَةٍ وَهُوَ
بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ أَحْسَنُ لَأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى الْإِتِّقَامِ مِنْ مُغْضِيهِمْ.
وَلَا يُعَدُّ فَضِيلَةً حِلْمُ الصَّغِيرِ عَلَى الْكَبِيرِ وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى مُقَابَلَتِهِ
فِي الْحَالِ فَإِنَّهُ وَإِنْ أَمْسَكَ عَنْهُ فَإِنَّمَا يُعَدُّ ذَلِكَ مِنْهُ خَوْفًا لَا حِلْمًا
(وَمِنْهَا الْوَقَارُ) وَهُوَ الْإِمْسَاكُ عَنْ فَضُولِ الْكَلَامِ وَالْعُشْبِ

وَكَثْرَةِ الْإِشَارَةِ وَالْحُرْكََةِ فِيمَا يُسْتَفْتَى عَنْ التَّحَرُّكِ فِيهِ وَقِلَّةُ الْغَضَبِ
وَالْإِضْغَاءِ عِنْدَ الْإِسْتِفْهَامِ وَالتَّوَقُّفُ عِنْدَ الْجَوَابِ وَالتَّخَفُّظُ عِنْدَ السَّرْعَةِ
وَالْمُبَادَرَةُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ. وَمِنْ قِيَلِ الْوَقَارِ أَيْضًا أَحْيَاءُ وَهُوَ
غَضُّ الطَّرْفِ وَالْإِنْقِيَاضُ مِنَ الْكَلَامِ حِشْمَةً لِلْمُسْتَحْيِينَ مِنْهُ وَهَذِهِ

الْعَادَةُ مَحْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ أَوْ عَجْزٍ
(وَمِنْهَا الْوُدُّ) وَهُوَ الْحُبُّ الْمُتَعَدِّلُ مِنْ غَيْرِ اتِّبَاعِ الشَّهْوَةِ
وَالْوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالنُّبْلِ
وَذَوِي الْوَقَارِ وَالْأَبْيَةِ وَالْمُتَمَيِّزِينَ مِنَ النَّاسِ . فَأَمَّا اتُّوَدُّ إِلَى أَرَادِلِ
النَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ وَأَهْلِ الْخِلَاعَةِ وَمَا شَابَهُهُمْ فَكَرُوهٌ جِدًّا . وَحُسْنُ
الْوُدِّ مَا نَسَجْتَهُ عَلَى مَنَوَالٍ مُنَاسِبٍ لِلْفَضَائِلِ وَهُوَ أَوْثَقُ الْوُدِّ وَآثَمُهُ
فَأَمَّا مَا كَانَ أَتْبَادُهُ أَجْتِمَاعًا عَلَى هَزَلٍ أَوْ طَلَبِ لَذَّةٍ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ
فَإِنَّهُ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٍ وَرُبَّمَا أَفْضَى إِلَى الشَّرِّ .

(وَمِنْهَا الرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلُقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ الْوُدِّ وَالْجَرِّ وَالرَّحْمَةُ لَا
يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خِلَّةٌ مَكْرُوهَةٌ أَمَّا نَقِصَةُ فِي
نَفْسِهِ وَأَمَّا مِحْنَةٌ عَارِضَةٌ لَهُ . فَالرَّحْمَةُ هِيَ حُبُّهُ لِلْمَرْحُومِ مَعَ جَزَعٍ مِنْ
أَحَالَةِ أَلْتِي رُحِمَ لِأَجْلِهَا . وَهَذِهِ أَحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٍ مَا لَمْ تَخْرُجْ بِصَاحِبِهَا
عَنِ الْعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَهَ بِهِ إِلَى الْجَوْرِ وَإِلَى فَسَادِ السِّيَاسَةِ . وَلَيْسَتْ
بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ الْقَاتِلِ عِنْدَ الْقَوَدِ وَالْجَانِي عِنْدَ الْقِصَاصِ .

(وَمِنْهَا الْوَفَاءُ) وَهُوَ الصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْدُلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ
وَيَرْهَنُ بِهِ لِسَانَهُ وَعَدَمُ الْخُرُوجِ مِمَّا يَضُمُّهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرِطًا وَلَا
يَعُدُّ وَفَاءً مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ بَوْفَانِهِ أَذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا أَضَرَّ بِهِ الدُّخُولُ
تَحْتَ مَا حُكِمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ أَلْبَغَ فِي الْوَفَاءِ . وَهَذَا الْخُلُقُ
مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ النَّاسِ فَإِنَّ مَنْ عُرِفَ بِالْوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولًا
الْقَوْلُ عِنْدَ النَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

أَجْلَاهُ إِلَّا أَنْ أُنْفَعُ آلُكَ بِهَذَا الْخُلُقِ أَنْفَعُ وَحَاجَّتُهُمْ إِلَيْهِ أَشَدُّ
لِأَنَّهُ مَتَى عَرَفَ مِنْهُمْ قِلَّةَ الْوَفَاءِ لَمْ يُوثِقْ بِوَعِيدِهِمْ وَلَمْ تَتِمَّ
أَغْرَاضُهُمْ وَلَمْ تَسْكُنِ إِلَيْهِمْ جُنْدُهُمْ وَأَعْوَانُهُمْ
(وَمِنْهَا آدَاءُ الْأَمَانَةِ) وَهُوَ التَّعَفُّفُ عَمَّا يَتَصَرَّفُ الْإِنْسَانُ فِيهِ
مِنْ مَالٍ غَيْرِهِ وَمَا يُوثِقُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالْحَرَمِ مَعَ الْقُدْرَةِ
عَلَيْهِ وَرَدَّ مَا يُسْتَوْدَعُ إِلَى مُودِعِهِ

(وَمِنْهَا كَيْتَانُ السِّرِّ) وَهَذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ وَنِ الْوَقَارِ وَآدَاءُ
الْأَمَانَةِ. فَإِنْ أَظْهَرَ السِّرَّ مِنْ فُضُولِ الْكَلَامِ. وَلَيْسَ بِوَقُورٍ مَنْ
تَكَلَّمَ بِالْفُضُولِ وَالْفُضُولِيُّ نَاقِصُ الشَّرَفِ. فَكَمَا أَنَّ مَنْ أَسْتَوْدَعَ
مَالًا فَأَخْرَجَهُ إِلَى غَيْرِ مُودِعِهِ قَدْ حَقَرِ الْأَمَانَةَ كَذَلِكَ مَنْ أَسْتَوْدَعَ
سِرًّا فَأَخْرَجَهُ إِلَى غَيْرِ صَاحِبِهِ فَقَدْ حَقَرِ الْأَمَانَةَ أَيْضًا. وَكَيْتَانُ السِّرِّ
مُخْدُودٌ وَنِ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً مَنْ يَضَعُ السُّلْطَانَ وَآوِلِيَاءَ الْأُمُورِ
فَإِنَّ إِخْرَاجَهُ أَسْرَارَهُمْ قَبِيحٌ فِي نَفْسِهِ يُؤْدِي إِلَى ضَرَرٍ عَظِيمٍ وَبَلَاءٍ
جَسِيمٍ

(وَمِنْهَا التَّوَاضُّعُ) وَهُوَ تَرْكُ التَّرَوُّسِ وَأَظْهَارُ الْخُضُوعِ وَكَرَاهِيَّةُ
التَّعْظِيمِ وَالزِّيَادَةِ فِي الْإِكْرَامِ وَأَنْ يَتَجَنَّبَ الْإِنْسَانُ أَلْبَهُاهَ بِمَا
فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَفَاحِرَةِ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَأَنْ يَتَعَوَّزَ مِنَ الْإِعْجَابِ
وَالْكِبَرِ. وَلَا يُخْجَدُ التَّوَاضُّعُ إِلَّا مِنْ أَكْبَرِ النَّاسِ وَرُؤَسَائِهِمْ وَأَهْلِ
الْقُضَلِ وَالْعِلْمِ. وَأَمَّا مَا سِوَى هَؤُلَاءِ فَلَا يَكُونُونَ مُتَوَاضِعِينَ
بِالتَّوَاضُّعِ لِأَنَّ الصَّعَةَ هِيَ مُحَلُّهُمْ وَمَرْتَبَتُهُمْ وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ مُتَضَعِينَ

(وَمِنْهَا الْبَشَرُ) وَهُوَ إِظْهَارُ السُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ إِلَّا نَسَانُ مِنْ
إِخْوَانِهِ وَأَوْدَانِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلِيَانِهِ وَمَعَارِفِهِ وَالتَّبَسُّمُ عِنْدَ الْلِقَاءِ. وَهَذَا
الْخَلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَهُوَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ
لِأَنَّ الْبَشَرَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ تَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ الرِّعَايَةِ وَالْأَعْوَانِ
وَالْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا إِلَيْهِمْ وَلَا يَعُدُّ سَعِيدًا مِنَ الْمُلُوكِ أَوْ الْوُلَاةِ
مَنْ كَانَ مُبْغِضًا لِرِعَايَتِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى فُسَادِ أَمْرِهِ
وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ اللَّهِجَةِ) وَهُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ
وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدَّ إِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ
بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ الْإِنْسَانِ إِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ أَرْكَبَهَا فَإِنَّهُ لَا
يَفِي حُسْنَ صِدْقِهِ بِمَا يَلْحَقُهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَارِ وَالْمَنْقَصَةِ الْبَاقِيَةِ
الْأَلَزَمَةِ. وَكَذَلِكَ لَيْسَ يَحْسَنُ صِدْقُهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَحِيرٍ أَسْتَجَارَهُ
فَأَخْفَاهُ وَلَا إِنْ سُئِلَ عَنْ جَنَائِهِ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوقِبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةٌ
مُؤَلَّةٌ. وَالصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَهُوَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ
أَحْسَنُ فَلَا يَسَمُّهُمْ الْكَذِبُ مَا لَمْ يَعُدَّ الصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بَضَرًا
(وَمِنْهَا سَلَامَةُ النَّيَّةِ) وَهُوَ اعْتِقَادُ الْخَيْرِ بِجَمِيعِ النَّاسِ وَتَتَكَبُّ
الْجُبْنُ وَالْعِلَّةُ وَالْكُرُ وَالْحَدِيْمَةُ وَهَذَا الْخَلْقُ مُخْدُودٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ
إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ يَضَعُ لِلْمُلُوكِ الْخَلْقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ الْحُكْمُ إِلَّا
بِاسْتِعْمَالِ الْمَكْرِ وَالْحِيلِ وَالْإِغْتِيَالِ مَعَ الْأَعْدَاءِ وَلَكِنْ لَا يَحْسَنُ
بِهِمْ اسْتِعْمَالُهُ مَعَ أَخْصَانِهِمْ وَأَصْفِيَانِهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ

(وَمِنْهَا السَّخَاءُ) وَهُوَ بَذْلُ أَمْوَالٍ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ.
وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يَلْتَمِسْ إِلَى السَّرَفِ وَالْتِبَازِ فَإِنَّ مَنْ بَذَلَ
جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ لَا يُسَمَّى سَخِيًّا بَلْ يُسَمَّى مُبَذِّرًا
وَمُضْطَاعًا. وَالسَّخَاءُ فِي سَائِرِ النَّاسِ فَضِيلَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ وَأَمَّا فِي الْمُلُوكِ
وَالْأَوْلِيَاءِ فَأَمْرٌ وَاجِبٌ لِأَنَّ الْجُلَّالَ يُؤَدِّي إِلَى الضَّرَرِ الْعَظِيمِ فِي
الْأَحْكَامِ. وَالسَّخَاءُ وَالْبَذْلُ تَرْتَبِطُ بِهِمَا قُلُوبُ الرِّعْيَةِ وَالتَّجِدُّ
وَالْأَعْوَانُ فَيُعْظَمُ الْإِتِّفَاعُ بِهِ

(وَمِنْهَا الشُّجَاعَةُ) وَهِيَ الْأَقْدَامُ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْمَهَالِكِ عِنْدَ
الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ وَثَبَاتُ الْجَأَشِ أَيْ الْقَلْبِ عِنْدَ الْخَوَافِ وَالْإِسْتِهَانَةِ
بِالْمَوْتِ. وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ
وَأَعْوَانِهِمُ أَلْيَقُ وَأَحْسَنُ بَلْ لَيْسَ يُسْتَحَقُّ لِلْمَلِكِ مِنْ عَدِمِ هَذِهِ
الْخِصْلَةِ. وَكَثَرُ النَّاسِ أَخْطَارًا وَأَحْوَجُهُمْ إِلَى اقْتِحَامِ أَعْمَرَاتِهِمْ
الْمُلُوكُ وَالْأَحْكَامُ فَالشُّجَاعَةُ إِذَا مِنْ أَخْلَاقِهِمُ الْخَاصَّةِ بِهِمْ

(وَمِنْهَا الْمُنَافَسَةُ) وَهِيَ مُنَازَعَةُ النَّفْسِ إِلَى التَّشَبُّهِ بِالْفَيْرِ فِيمَا
يَرَاهُ وَيَرْغَبُ فِيهِ لِنَفْسِهِ وَالْإِجْتِهَادُ فِي التَّرَقِّي إِلَى دَرَجَةٍ أَعْلَى مِنْ
دَرَجَتِهِ. وَهَذَا الْخُلُقُ مَحْمُودٌ إِذَا سَكَتَ الْمُنَافَسَةُ فِي الْفَضَائِلِ وَالْمَرَاتِبِ
الْعَالِيَةِ أَوْ فِيمَا يُكْسِبُ نَجْدًا وَسُودَدًا قَامًا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ اتِّبَاعِ
الشَّهَوَاتِ وَالْمُبَاهَاةِ بِاللَّذَاتِ وَأَزْيِنَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَكُرُوهُ جِدًّا
(وَمِنْهَا الصَّبْرُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ) وَهَذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْقَوَارِ
وَالشُّجَاعَةِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مَا لَمْ يَكُنِ الْجَزَعُ نَافِعًا وَالْحُزْنُ وَالْقَلَقُ

مُجْدِيًّا وَلَا جِهَادُ دَافِعَةً ضَرَرَ تِلْكَ السَّدَائِدِ فَمَا أَحْسَنَ الصَّبْرَ إِذَا
عَدِمْتَ الْحِيلَةَ وَمَا أَقْبَحَ الْجَنَعَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُفِيدًا

(وَمِنْهَا عَظَمُ الْهَمَّةِ) وَهُوَ اسْتِصْفَارُ مَا دُونَ الْبَهَائَةِ مِنْ مَعَالِي
الْأُمُورِ وَطَلَبُ الْمَرَاتِبِ السَّامِيَةِ وَاسْتِخْقَارُ مَا يَجُودُ بِهِ الْإِنْسَانُ عِنْدَ
الْعَطِيَّةِ وَالِاسْتِخْفَافُ بِأَوَاسِطِ الْأُمُورِ وَطَلَبُ الْغَايَاتِ وَالْتِهَانُ بِمَا
يَمْلِكُهُ وَبَذْلُهُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ مِنْ غَيْرِ امْتِنَانٍ وَلَا اعْتِدَادٍ بِهِ. وَهَذَا الْخُلُقُ
مِنْ خُصُوصِيَّاتِ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ وَقَدْ يَجُسُّ بِالرُّؤَسَاءِ وَالْعُظَمَاءِ
وَمَنْ تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ . وَمَنْ عَظَمَ الْهَمَّةُ الْأَنْفَقَ وَالْحَيَّةُ
وَالْعَيْرَةُ . فَلَا أَنْفَقَ هِيَ بَعْدَ النَّفْسِ عَنِ الْأُمُورِ الدُّنْيَا وَالْحَيَّةُ وَالْعَيْرَةُ
مَعَ وَالْعُضْبُ عِنْدَ الْإِحْسَاسِ بِالنَّقْصِ . وَتَلْحَقُ الْإِنْسَانُ الْعَيْرَةُ عَلَى
الْحَرَمِ لِأَنَّ فِي التَّعَرُّضِ لَهَا عَارًا وَمَنْقُصَةً فَإِنَّ التَّعَرُّضَ لِلْحَرَمِ
مُهْتَضَمٌ لِصَاحِبِهَا وَمَتَّصِرٌ فِي غَيْرِ حَقِّ لَهُ وَالْإِهْتِضَامُ نَقِيصَةٌ
وَمَنْ عَظَمَ الْهَمَّةُ الْأَنْفَقَ مِنْهُ . وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ جَمِيعِ
النَّاسِ

(وَمِنْهَا الْعَدْلُ) وَهُوَ التَّقْطُطُ لِلْأَزْمِ لِلِاسْتِثْوَاءِ وَأَسْتِعْمَالِ
الْأُمُورِ فِي مَوَاقِعِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَوُجُوهِهَا وَمَقَادِيرِهَا مِنْ غَيْرِ سَرْفٍ
وَلَا تَفْصِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ



البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تذيب الاخلاق لوكرياس بن عدي)

فَأَمَّا الْأَخْلَاقُ الرَّدِيَّةُ الَّتِي تُعَدُّ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَإِنَّ مِنْهَا
الْفُجُورَ وَهُوَ الْإِنْهَاكُ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْإِسْتِكْثَارُ مِنْهَا وَإِثَارُ اللَّذَاتِ
وَالْإِدْمَانُ عَلَيْهَا وَارْتِكَابُ الْفَرَاحِشِ وَالْمُجَاهَرَةُ بِهَا وَبِالْجُمْلَةِ السَّرْفُ
فِي جَمِيعِ الشَّهَوَاتِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ جَدًّا يَهْدِمُ الْحَيَاءَ وَيَذْهَبُ
بِمَاءِ الْوَجْهِ وَيَخْرُقُ حِجَابَ الْحِشْمَةِ

(وَمِنْهَا الشَّرُّ) وَهُوَ الْجُرْصُ عَلَى اسْتِسَابِ الْأَمْوَالِ وَجَهْمِهَا
وَطَلَبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَلَوْ قُبْحَ طَرِيقِ اسْتِسَابِهَا وَالْمُلَاوَشَةُ عَلَيْهَا
وَالْإِسْتِكْثَارُ مِنَ الْقَنِيَّةِ وَادِّخَارُ الْأَعْرَاضِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ مِنْ
جَمِيعِ النَّاسِ إِلَّا مِنَ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْأَلَةِ وَالِ
وَالدَّخَائِرِ وَالْأَعْرَاضِ تُعِينُهُمْ وَتُرِيدُهُمْ هَيْبَةً فِي نُفُوسِ رَعِيَّتِهِمْ
وَأَعْوَانِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ وَأَضْدَادِهِمْ

(وَمِنْهَا التَّبَذُّلُ) وَهُوَ أَطْرَاحُ الْحِشْمَةِ وَتَرْكُ التَّحَفُّظِ وَالْإِسْتِثَارِ
مِنَ الْهَزْلِ وَاللَّهْوِ وَمُخَالَطَةُ السُّفَهَاءِ وَحُضُورُ مَجَالِسِ السَّخْفِ وَالْهَزْلِ
وَالْفُحْشِ وَالنَّفْوَةِ بِالْحَنَاءِ وَذِكْرُ الْأَعْرَاضِ وَالزَّحْرِ وَالْجُلُوسُ فِي
الْأَسْوَاقِ وَعَلَى قَوَارِعِ الطَّرِيقِ وَالتَّكَسُّبُ بِالْمَعَايِشِ الزَّرَرِيَّةِ وَالتَّوَضُّعُ

لِلسُّفَلَاءِ وَهَذَا الْخَلْقُ قَبِيحٌ بِجَمِيعِ النَّاسِ
(وَمِنْهَا السَّفَهُ) وَهُوَ ضِدُّ الْجَلَمِ وَهُوَ سِرْعَةُ الْقَضْبِ وَالطَّيْشِ
بِنِ يَسِيرِ الْأُمُورِ وَالْمُبَادَرَةُ فِي الْبَطْشِ وَالْإِيْقَاعُ بِالْمُؤْذِي وَالسَّرَفُ
فِي الْعُقُوبَةِ وَإِهَارُ الْجُرْعِ مِنْ أَدْنَى ضَرَرٍ وَالسَّبُّ الْقَافِشُ. وَهَذَا الْخَلْقُ
مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّهُ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ أَقْبَحُ مِنْهُ بِغَيْرِهِمْ
(وَمِنْهَا الْخُرْقُ) وَهُوَ كَثْرَةُ الْكَلَامِ وَالْتِحْرُكُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ
وَشِدَّةُ الصَّحِيكِ وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى الْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَسُرْعَةُ
الْجَوَابِ وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ
وَذَوِي النَّبَاهَةِ أَقْبَحُ. وَمِنْ قَبِيلِهِ قِلَّةُ الْإِحْسَامِ لِمَنْ يَحِبُّ احْتِسَامَهُ
وَالْحِجَامَةُ بِالْأَجُوبَةِ الْعَلِيْظَةِ الْفُظَّةِ الْمُسْتَشْنَعَةِ وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ
وَخَاصَّةً بِذَوِي أُلُوقَارِ

(وَمِنْهَا الْهَوَى) وَهُوَ إِفْرَاطُ الْحُبِّ وَالسَّرَفُ فِيهِ. وَهَذَا الْخَلْقُ
مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ يَحْمِلُ صَاحِبُهُ عَلَى الْفُجُورِ وَارْتِكَابِ
الْفَوَاحِشِ وَكَثْرَةِ التَّبَدُّلِ وَقِلَّةِ الْحَيَاءِ وَهُوَ يَشِينُ الْإِنْسَانَ كَثِيرًا
(وَمِنْهَا الْقَسَاوَةُ) وَهَذَا الْخَلْقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْبُغْضِ وَالشَّجَاعَةِ
وَهُوَ التَّهَوُّنُ بِمَا يَخْلُقُ الْغَيْرَ مِنَ الْأَلَمِ وَالْأَذَى. وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ
مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنَ الْخُنْدِ وَأَصْحَابِ السِّلَاحِ وَالْمُتَوَلِّينَ
الْحُرُوبَ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مَكْرُوهٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِهِ
(وَمِنْهَا الْقَدَرُ) وَهُوَ الرُّجُوعُ عَمَّا يَبْذُلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ
وَيَضْمِنُ الْوَفَاءَ بِهِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَقْبَحٌ إِنْ كَانَ لِصَاحِبِهِ فِيهِ مَضْلَعَةٌ

وَبِنْفَعَةٍ . وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ أَقْبَحُ وَأَظْرَفَانِ مَنْ عُرِفَ مِنْهُمْ
بِالْقَدْرِ لَمْ يَرْكُنْ إِلَيْهِ أَحَدٌ وَلَمْ يَتَّقِ بِهِ إِنْسَانٌ فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ
فَسَدَ نِظَامُ مُلْكِهِ

(وَمِنْهَا الْحَيَاةُ) وَهِيَ الْأَسْتِدَالُ بِمَا يُؤْتَمَنُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ مِنَ
الْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْحَرَمِ . وَتَمْلِكُ مَا يُسْتَوَدَعُ وَتُجْبِ أَحَدَهُ مُودِعِهِ .
وَوَنَ الْحَيَاةُ أَيْضًا طَيِّ الْأَخْبَارِ إِذَا نَدَبَ الْإِنْسَانُ لِثَأْدِيَّتِهَا وَتَحْرِيفِ
الْوَسَائِلِ إِذَا حَمَلَهَا وَصَرَفَهَا عَنْ وَجْهِهَا . وَهَذَا الْخَلْقُ أَعْنَى الْحَيَاةِ
مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَيَتْلَمُ آجَاهُ وَيَقْطَعُ وَجُوهَ الْمَعَاشِ

(وَمِنْهَا إِفْشَاءُ السِّرِّ) وَهَذَا الْخَلْقُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْخُرْقِ وَالْحَيَاةِ
فَإِنَّهُ لَيْسَ بِوَأُورٍ مَنْ لَمْ يَضْبُطْ لِسَانَهُ وَلَمْ يَتَّسِعْ صَدْرُهُ لِحِفْظِ مَا
يُسْتَسَرُّ بِهِ . وَالسِّرُّ أَحَدُ الْوَدَائِعِ . وَإِفْشَاؤُهُ تَبْقِيعَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ
فَالْمُفْشِي بِالسِّرِّ خَائِنٌ وَهَذَا الْخَلْقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَخَاصَّةً بَيْنَ يَضْحَبُ
الْمُلُوكِ وَأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ وَيَتَدَاخَلُ مَعَهُمْ . وَمِنْ قَبِيلِ إِفْشَاءِ السِّرِّ
أَيْضًا الْغَيْبَةُ وَالنَّمِيصَةُ وَهِيَ أَنْ يَبْلُغَ إِنْسَانٌ إِنْسَانًا عَنْ آخَرٍ قَوْلًا
مَكْرُوهًا وَهَذَا الْخَلْقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَلَوْ لَمْ يُسْتَسَرَّ أَيْضًا بِمَا يَسْمَعُهُ أَوْ
يَبْلُغُهُ فَتَقْلُهُ إِلَى مَنْ يَكْرَهُ قَبِيحٌ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِيقَاعَ وَحْشَةٍ بَيْنَ
الْمُبْلَغِ وَالْمُبْلَغِ عَنْهُ وَذَلِكَ غَايَةُ الشَّرِّ

(وَمِنْهَا الْكِبَرُ) وَهُوَ اسْتِعْظَامُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَاسْتِحْسَانُ مَا
فِيهِ مِنَ الْقَضَائِلِ وَالْإِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ وَاسْتِصْفَارُهُمْ وَالتَّرَفُّعُ عَلَى مَا
يُجِبُّ التَّوَاضُّعَ لَهُ . وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا وَمُضِرٌّ بِصَاحِبِهِ لِأَنَّ

مَنْ أَنْجَبَتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَزِدْ مِنْ اِكْتِسَابِ الْأَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَزِدْ
بَقِيَ عَلَى نَقْصِهِ إِذْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ النِّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي
إِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا الْفِعْلَ يُعْضُهُ عِنْدَ النَّاسِ وَمَنْ
تَبِعْضُهُ النَّاسُ سَاءَتْ أحوَالُهُ

(وَمِنْهَا الْعُبُوسُ) وَهُوَ التَّقَطُّبُ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ وَإِظْهَارُ
الْكِرَاهِيَةِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْكِبَرِ وَغِلْظِ الطَّبَعِ. فَإِنَّ قِلَّةَ
الْبَشَاشَةِ هِيَ اسْتِهَانَةُ النَّاسِ وَالْإِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الْإِعْجَابِ
وَالْكِبَرِ وَقِلَّةِ التَّبَسُّمِ أَيْضًا خَاصَّةٌ عِنْدَ إِقْلَاءِ الْإِخْوَانِ تَكُونُ مِنْ
غِلْظِ الطَّبَعِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَقْبِحٌ وَخَاصَّةٌ بِالرُّؤْسَاءِ وَالْأَفَاضِلِ

(وَمِنْهَا الْكَذِبُ) وَهُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ
عَلَيْهِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤْسَاءِ أَكْثَرُ قُبْحًا
لِأَنَّ الْيَسِيرَ مِنَ النِّقْصِ يَشِينُهُمْ

(وَمِنْهَا الْخُبْتُ) وَهُوَ إِضْمَارُ الشَّرِّ لِلغَيْرِ وَإِظْهَارُ الْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً
وَأَسْتِعْمَالُ الْحِيلَةِ وَالْكَرِّ وَالْحَدِيدَةِ فِي الْعُمَلَامَاتِ وَهَذَا الْخَلْقُ
مَكْرُوهٌ جِدًّا. (وَمِنْ قَبِيلِ الْخُبْتِ الْحَقْدُ) وَهُوَ إِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْجَانِي إِذَا لَمْ
يَتِمَكَّنْ مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ فَتُجَنَّبُ إِلَى وَقْتِ الْفُرْصَةِ وَهَذَا الْخَلْقُ
مِنْ أَخْلَاقِ الْأَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا التَّجَلُّلُ) وَهُوَ مَنَعُ الْمُسْتَطْعِي مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى إِعْطَائِهِ.
وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ
وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّجَلُّلَ يُغَضُّ مِنْهُمْ أَكْثَرُ مِمَّا يُغَضُّ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَقْدَحُ

فِي حُكْمِهِمْ وَيُعْضُضُهُمْ إِلَى رَعِيَّتِهِمْ
(وَمِنْهَا الْخُلْبُنُ) وَهُوَ تَوْهُمُ الْخَوَافِ وَتَمَكُّنُهَا فِي الْعَقْلِ بِدُونِ
طَائِلٍ وَعَدَمُ الْإِقْدَامِ عَلَى الْأُمُورِ عِنْدَ الزُّومِ وَالرَّغْبِ مِنْ مُوَاجَهَةِ
ذَوِي الْأَمْرِ عِنْدَ الْإِقْتِضَاءِ . وَهَذَا الْخُلْقُ مَكْرُوهٌ إِلَّا أَنَّهُ بِالْجُنُودِ
وَأَصْحَابِ الْحُرُوبِ مُضِرٌّ جِدًّا

(وَمِنْهَا الْحَسَدُ) وَهُوَ التَّالُمُ بِمَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ لِعَلِيهِ مِنْ الْخَيْرِ
وَيَحْدُهُ فِيهِ مِنَ الْقَضَائِلِ وَالْأَجْتِهَادُ فِي إِعْدَامِ الْعَلِيهِ مَا هُوَ لَهُ . وَهَذَا
الْخُلْقُ مَكْرُوهٌ وَقَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ

(وَمِنْهَا الْجَزَعُ عِنْدَ الشَّدَةِ) وَهَذَا الْخُلْقُ مَرْكَبٌ وَنَ الْخُرْقِ
وَالْخُلْبُنِ . وَهُوَ مُسْتَقْبَحٌ جِدًّا إِذَا لَمْ يَكُنْ مُجَدِّيًا نَفْعًا وَأَمَّا إِظْهَارُهُ
لِلْحِيلَةِ عِنْدَ الْوُقُوعِ فِي الشَّدَةِ أَوْ لِاسْتِفَانَةِ مُغِيثٍ أَوْ اجْتِلَابِ مُعِينٍ
لِلْمُسَاعَدَةِ فَغَيْرُ مَكْرُوهٍ وَلَا يُعَدُّ نَقِصَةً

(وَمِنْهَا بَغْرُ الْهَمَّةِ) وَهُوَ ضَعْفُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ الْمَرَاتِبِ
الْعَالِيَةِ وَقُصُورُ الْأَمَلِ عَنْ بُلُوغِ الْعَالِيَاتِ وَأَسْتِكْثَارُ الْإِسِيرِ مِنَ
الْقَضَائِلِ وَأَسْتَغْثَامُ الْقَلِيلِ مِنَ الْعَطَايَا وَالْإِعْتِدَادُ بِذَلِكَ وَالرَّضَى
بِأَوَاسِطِ الْأُمُورِ وَأَصَاغِرِهَا . وَهَذَا الْخُلْقُ قَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ
بِالْمُلُوكِ وَالْأَظْمَاءِ أَقْبَحُ بَلْ لَيْسَ يُسْتَحَقُّ لِلْإِعْتِبَارِ مَنْ صَغُرَتْ هِمَّتُهُ
(وَمِنْهَا الْجَوْرُ) وَهُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الْعَدْلِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ
كَأَخْذِ الْأَمْوَالِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا الْحَلَالِ وَالْمُطَالَبَةُ بِمَا لَا جُبَّ مِنْ
الْحَقُوقِ وَفِعْلِ الْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَلَا أَوْقَاتِهَا وَلَا عَلَى الْقَدْرِ

الَّذِي يُحِبُّ لَهَا وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا وَمِنْ قِيلَ ذَلِكَ
السَّرْفُ وَالتَّبَذِيرُ أَيْضًا

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس
فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لتركيا بن عدي)

(مِنْهَا حُبُّ الْكَرَامَةِ) وَهُوَ أَنْ يُسَّرَ الْإِنْسَانُ بِالْمَغْظِمِ
وَالْتَّجْبِيلِ وَالْمُقَابَلَةِ بِالْمَدْحِ وَأَشْيَاءَ الْجَمِيلِ . وَهَذَا الْخَلْقُ مُحَمَّدٌ فِي
الْأَحْدَاثِ وَالصِّيَّانِ لِأَنَّ حُبَّ الْكَرَامَةِ تَحْتُمُّهُمْ عَلَى الرَّغْبَةِ فِي اكْتِسَابِ
الْفَضَائِلِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْخَدَثَ وَالصِّيَّانَ إِذَا مُدِّحًا عَلَى فَضِيلَةٍ وَجَدَتْ
فِيهَا كَانَ ذَلِكَ دَاعِيًا لَهُمَا إِلَى الْإِزْدِيَادِ فِي الْفَضَائِلِ . وَأَمَّا الْأَفَاضِلُ
مِنَ النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُعَدُّ مِنْهُمْ نَقِصَةً . لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا يُدْحُ
عَلَى الْفَضِيلَةِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَعْرَبَةً مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ
فَلَا يَبْغِي أَنْ يُسَرَّ أَوْ يَسْتَقْرِبَ مَا يَطْهَرُ مِنْهُ مِنَ الْفَضَائِلِ . وَكَذَلِكَ
الْإِكْرَامُ وَالتَّجْبِيلُ إِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى
الْمُلْقِ وَالسُّرُورُ بِالْمُلْقِ غَيْرُ مُحَمَّدٍ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْخَلِيعَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ الرِّيَّةِ) وَهُوَ التَّصَنُّعُ بِلِبْسِ أَثْيَابِ الْفَاخِرَةِ
وَرُكُوبِ الْخَيْلِ وَكَثْرَةِ الْخَدَمِ وَالْحَشَمِ وَهَذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْمُلُوكِ
وَالْعُظَمَاءِ وَالْأَحْدَاثِ وَالظُّرَفَاءِ وَالنِّسَاءِ . فَأَمَّا الرُّهْبَانُ وَالرُّهَادُ

وَالشُّيُخُ وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَخَاصَّةً الْخُطَبَاءُ وَالْوَاعِظُونَ وَرُؤَسَاءُ الدِّينِ
فَإِنَّ التَّصَنُّعَ بِالرِّيَاسَةِ مُسْتَشْبَهٌ مِنْهُمْ وَالْمُسْتَحْسَنُ بِهِمْ هُوَ لِبَسُ
الْحُسْنِ وَكَرَاهِيَةُ التَّنَعُّمِ وَازْوَاجُ بُيُوتِ الصَّلَاةِ

(وَمِنْهَا الْمَجَازَاةُ عَلَى الْمَدْحِ) وَهُوَ مَجَازَاةٌ مَنْ يَمْدَحُ الْإِنْسَانَ
وَيَشْكُرُهُ فِي الْحَمَائِلِ وَالْحَقَائِلِ . وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْمُلُوكِ
وَالرُّؤَسَاءِ لِأَنَّهُ يَدْعُو الْمَادِحَ إِلَى الْإِزْدِيَادِ فِي مَدْحِهِ فَيَكْتَسِبُ
الْمَدْحُوحُ ذِكْرًا جَمِيلًا يَبْقَى إِلَى الدَّهْرِ . وَمَنْ فَضَّلَ الْمُلُوكَ وَالرُّؤَسَاءَ
بَقَاءَ ذِكْرِهِمُ الْجَمِيلَ . وَمَا تَحْتَبُّهُمْ سَمَاعَ الْمَدْحِ مِنَ الْمَادِحِ مُوَاجَهَةً
فَذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَحَبٍّ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْمَلَقِ وَحُبُّ الْمَلَقِ مَكْرُوهٌ
لِكَوْنِهِ مِنْ قِبَلِ الْخِدِيعةِ كَمَا تَقَدَّمَ . فَأَمَّا إِيْثَارُهُمْ أَنْتِشَارَ ذِكْرِهِمْ
وَمَدْحِهِمْ وَتَتَابُلُ النَّاسِ لَهُ وَبَقَاؤُهُ بَعْدَهُمْ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ . وَمَجَازَاةُ الْمَادِحِ
مُسْتَحْسَنَةٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَمَنْعُهُمْ مُسْتَشْبَهٌ وَعَادَ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ ذَلِكَ يَدْعُو
إِلَى ذَمِّهِمْ وَذَمُّهُمْ يَبْقَى أَيْضًا إِلَى الدَّهْرِ فَيَنْشِئُ لَهُمْ ذِكْرًا قَبِيحًا
وَذَلِكَ مَكْرُوهٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ . أَمَّا أَصَاغِرُ النَّاسِ فَحَبَّيْهِمْ جَزَاءَ
الْمَادِحِ لَهُمْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ لِأَنَّ الْمَادِحَ إِذَا مَدَحَ الدِّينَ مِنْ النَّاسِ
فَأَنَّمَا يَجِدُّهُ فَإِذَا أَجَارَهُ اعْتَقَدَ أَنَّهُ أَخَذَ مِنْهُ تِلْكَ الْجَازَاةَ بِالْحِيلَةِ .
وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا مَدَحُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ يُبَادِرُونَ إِلَى مَجَازَاةِ
الْمَادِحِ فَيَكُونُونَ قَدْ وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَلَوْ صَرَفُوا ذَلِكَ
الشَّيْءَ إِلَى الصُّفَاءِ وَأَهْلِ الْمُسْكِنَةِ كَانَ ذَلِكَ أَجْمَلَ بِهِمْ وَالْيَقِينُ
(وَمِنْهَا الرُّهْدُ) وَهُوَ قِلَّةُ الرَّغْبَةِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْإِذْخَارِ وَغَيْرِهَا

وَأَيُّهَا الْقَنَاعَةُ يَا يُقِيمُ الرَّمَقَ وَالْإِسْتِحْقَافُ بِالْذُّنْيَا وَحَاسِنُهَا وَلَذَاتِهَا
وَقَلَّةُ الْأَكْثَرَاتِ بِالرَّائِبِ الْعَالِيَةِ وَاسْتِصْغَارُ الْمُلُوكِ وَمَمَالِكِهِمْ
وَأَرْبَابِ الْأَمْوَالِ وَأَمْوَالِهِمْ. وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ الْعُلَمَاءِ
وَرُؤَسَاءِ الدِّينِ وَالْخُطَبَاءِ وَالْوَعَّائِينَ وَمَنْ يُرَقِّبُ النَّاسَ فِي الْمَعَادِ
وَالْبَقَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ. فَأَمَّا الْمُلُوكُ وَالْعُظَمَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ
مِنْهُمْ وَلَا لَانْتِقَاسٍ بِهِمْ لِأَنَّ الْمَلِكَ إِذَا أَظْهَرَ الزُّهْدَ صَارَ نَاقِصًا إِذَا
مُلْكُهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِاِحْتِشَادِ الْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ وَأَذْخَارِهَا لِيُدَبَّرَ
بِهَا مَلْكُهُ وَيَصُونَ بِوَاسِطَتِهَا حَوَازَتَهُ وَيَفْتَقِدَ بِهَا رَعِيَّتَهُ وَهَذَا مُضَادٌّ
لِلزُّهْدِ فَإِنَّهُ إِذَا تَرَكَ الْأَذْخَارَ أَبْطَلَ مَلْكُهُ وَصَارَ مَعْدُودًا فِي
جَمَلَةِ الْمُلُوكِ الْخَائِدِينَ عَنْ طَرِيقِ السِّيَاسَةِ

فَهَذِهِ الْأَقْسَامُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا هِيَ أَخْلَاقُ جَمِيعِ النَّاسِ .
أَمَّا الْمَدُودَةُ مِنْهَا الْمَعْدُودَةُ فَضَائِلُ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي
إِنْسَانٍ وَاحِدٍ وَأَمَّا الْمَذْمُومَةُ مِنْهَا الْمَعْدُودَةُ فَعَاقِبُ وَمَعَابٍ
فَقَلَّمَا يُوْجَدُ إِنْسَانٌ يَخْلُو مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ خُلُقٌ مَكْرُوهٌ
وَخَاصَّةً مَنْ يَرُوضُ نَفْسَهُ وَيُؤَدِّبُهَا. فَإِنَّ مَنْ لَا يَتَعَمَّلُ لِضَبْطِ نَفْسِهِ
وَتَفَقُّدِ عُيُوبِهِ لَمْ يَخْلُ مِنْ عُيُوبٍ كَثِيرَةٍ وَإِنْ لَمْ يُحْسَ بِهَا وَلَمْ يَفْظَنْ
الِیْهَا. وَإِذَا كَانَ الْحَالُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ كَانَ أَوْلَى الْأُمُورِ
بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَتَفَقَّدَ اخْلَاقَهُ وَيَتَأَمَّلَ عُيُوبَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي إِصْلَاحِهَا
وَنَفْيِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَتَّبِعَ الْأَخْلَاقَ الْحَمِيدَةَ وَيُخْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى
أَعْيَادِهَا وَالْحَقِّقَ بِهَا لِأَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِفَضَائِلِهِمْ

لَا كَمَا يَتَقَبَّدُ أَجْهَالُ وَالْعَامَّةُ أَنَّهُمْ يَتَفَاضِلُونَ بِأَحْوَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
وَكثرة ذخائرهم. وَاتِّخَارُ أَكْثَرِ النَّاسِ بِالْأَمْوَالِ وَالذَّخَائِرِ وَالْآلَاتِ
وَتَعْظِيمُهُمُ الْأَغْنِيَاءَ وَذَوِي أَجَاهٍ لَيْسَ فِي مَحَلِّهِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ كَثْرَةَ
الْمَالِ إِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِهَا أَحْوَالُ النَّاسِ وَأَمَّا نُفُوسُهُمْ فَلَا تَكُونُ
أَفْضَلَ مِنْ نُفُوسٍ غَيْرِهَا بِكَثْرَةِ الْمَالِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفَاجِرَ السَّفِيهَ
الْجَاهِلَ الشَّرِيرَ وَإِنْ حَوَى أَمْوَالًا عَظِيمَةً فَلَا تَكُونُ بِأَفْضَلَ مِنْ
الْعَاقِلِ الْحَكِيمِ الْخَيْرِ الْعَالِمِ وَلَوْ كَانَ فَقِيرًا بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ
بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِ أَغْنَى مِنْهُ إِذَا كَانَ ذَاكَ مُعْسِرًا فَقِيرًا وَأَمَّا التَّفْضِيلُ
فَلَا يَكُونُ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْفَضَائِلِ فَقَطْ. وَلَكِنْ إِنْ اجْتَمَعَ بِالْإِنْسَانِ
مَعَ الْأَخْلَاقِ الْجَلِيلَةِ وَالْعَادَاتِ الْمُسْتَحْسَنَةِ الْغِنَى وَالثَّرْوَةُ أَيْضًا
فَلَعَمْرِي إِنَّهُ يَكُونُ أَحْسَنَ حَالًا مِنَ الْفَاقِلِ الْمُعْسِرِ لِأَنَّ ذَلِكَ
مِنْ خَمَلَةِ سَعَادَاتِ الْإِنْسَانِ وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ فَاضِلًا عَادِلًا عَفِيفًا
يَصْرِفُ مَالَهُ فِي وَجْهِهِ وَيُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ وَيَتَّقَدُّ بِهِ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ
وَلَا يَتَهَاَمَلُ فِي مَكْرَمَةٍ تَرِيدُ فِي مُحَاسِنِهِ

أَمَّا النَّاقِصُ الْجَاهِلُ السَّيِّئُ الْعَادَاتِ فَإِنَّ الْغِنَى رُبَّمَا زَادَهُ
نَقْصًا وَعُيُوبًا وَأَضَافَ إِلَى مَعَانِيهِ عُيُوبًا أُخْرَى. وَلَا يُعَدُّ بُخِيلًا
مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَإِنْ كَانَ الْجُبُلُ مِنْ طَبْعِهِ لِأَنَّ قَفْرَهُ يُخْفِي ذَلِكَ
مِنْهُ وَمَتَى لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ هَذَا الْأَمْرُ فَلَا يُعَابُ عَلَيْهِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ
إِنَّمَا يُعَابُ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُ وَأَمَّا مَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَإِسَارَ وَلَمْ يَجِدْ بِهِ
ظَهَرَ بُخْلِهِ قَيْصِيرُ الْمَالِ جَالِبًا عَلَيْهِ عَارًا. وَأَيْضًا فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّجُورِ

وَالْحَظُورَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الرَّدِيئَةِ لَا تُتَالُ غَالِبًا إِلَّا بِالْأَمْوَالِ
فَالْفَقِيرُ الْمَغْسِرُ وَإِنْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْهُ أَمَّا إِذَا
كَانَ ذَا مَالٍ تَمَكَّنَ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَتَظْهَرُ حِينُنْدِ عِيُوبِهِ . وَبَاءَ عَلَيْهِ
يَكُونُ الْغِنَى مُكْسِبًا لِصَاحِبِهِ أَحْيَانًا عِيُوبًا وَنَقَائِصَ وَالْفَقْرُ فَضَائِلَ
وَمَحَاسِنَ . فَيَنْتِجُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا أَنَّ النَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةُ بِالْأَمْوَالِ
وَالذَّخَائِرِ بَلْ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِالْآدَابِ وَالْحَاسِنِ الدَّائِيَّةِ . فَالْحَلِيقُ
بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَسُوسَ نَفْسَهُ بِالْآدَابِ الْمُسْتَحْسَنَةِ وَيَسْأَكَ بِهَا
الطَّرِيقَ الْمَحْمُودَةَ فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَكُونُ مُحْبُوبًا عِنْدَ النَّاسِ مَقْبُولًا
لَدَيْهِمْ مُعْظَمًا فِي نَفُوسِهِمْ مُفَضَّلًا عَنْ غَيْرِهِ مُوقَرًا عِنْدَ الرُّؤَسَاءِ
وَالْمُلُوكِ مَقْبُولَ الْقَوْلِ عَظِيمَ الْجَاهِ

فَهَذِهِ حَالَةُ الْعَظْمَةِ الْحَقِيقَةِ الْمَكْتَسَبَةِ بِالْأَمْوَالِ لِأَنَّ أَلْمَالَ
قَدْ تَلَحُّقَهُ الْمَصَائِبُ فَإِذَا فَارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَتْ مَازِلَتُهُ مِنْ نَفُوسِ النَّاسِ
وَسَاوَى الْعَامَّةِ وَالسُّوقَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَظْمَ لَهُ كَانَ مَالُهُ لَا نَفْسَهُ
فَقَتَى زَالَ ذَلِكَ أَلْمَالُ لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ يُعْظَمُ مِنْ أَجَلِهِ . وَلَيْسَ
كَذَلِكَ الْعَالِمُ الْفَافِيسُ الْفَاضِلُ الْمُهَذَّبُ الْإِخْلَاقِ لِأَنَّ عَظَمَتَهُ
بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيْرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعْتَبَرٌ دَائِمًا وَمُعْظَمٌ مِنْ أَجْلِ
ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ



البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزرارياء بن عدي)

وَبِمَا أَنَّ الرَّائِبَ فِي سِيَاسَةِ نَفْسِهِ أَلْمُؤَثِّرَ تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِ إِذَا
 بُنِيَ عَلَى خُلُقٍ مَذْمُومٍ وَجَدَ فِيهِ وَاحِبًا اجْتِنَابَهُ رُبَّمَا صَعُبَ عَلَيْهِ
 إِلَّا نَبَالَ عَنْهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَرُبَّمَا لَمْ يَتَلَّ الْخُلُوصَ مِنْهُ وَلَمْ يَطَاوِعَهُ
 طَبْعُهُ أَوْ رُبَّمَا اسْتَحْسَنَ أَيْضًا خُلُقًا مَحْمُودًا لَا يَجِدُهُ لِنَفْسِهِ وَأَثَرَ الْخُلُقِ
 بِهِ لَمْ تَسْخَعْ لَهُ عَادَتُهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى مُرَادِهِ . لِذَلِكَ وَجِبَ أَنْ تَرْسُمَ
 لِلرَّائِبِينَ فِي السِّيَاسَةِ الْخُودَةَ طُرُقًا يَتَدَبَّرُونَ بِهَا وَيَتَدَرَّجُونَ فِيهَا
 حَتَّى يَتَّهِوْا إِلَى مُرَادِهِمْ مِنْ اِعْتِيَادِ الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ وَالْإِطَاعِ عَلَيْهَا
 وَتَحْبُطِ الْأَخْلَاقِ الْقَبِيحَةِ وَالْفَرَحُ مِنْهَا وَلِهَذَا نَذَكُرُ طَرِيقَ الْإِرْتِيَاضِ
 بِالْأَخْلَاقِ الْخُودَةِ وَالتَّعَمُّلِ لِإِعْتِيَادِهَا لِكَيْ يُمَكِّنَ لِلرَّائِبِ
 أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهَا فَنَقُولُ :

إِنَّهُ لَأَمْرٌ مُقَرَّرٌ أَنَّ سَبَبَ اخْتِلَافِ الْأَخْلَاقِ فِي النَّاسِ هُوَ
 اخْتِلَافُ قُوَى النَّفْسِ الثَّلَاثِ فِيهِمْ وَهِيَ الشَّهَوَانِيَّةُ وَالْعَظِيَّةُ وَالنَّاطِقَةُ
 وَأَنَّ إِصْلَاحَ الْأَخْلَاقِ هُوَ تَذْلِيلُ الشَّهَوَانِيَّةِ مِنْهَا وَالْعَظِيَّةِ وَتَمْيِيزُ

(*) اعلم ان ما يقوله هنا لزرارياء بن عدي في سياسة الانسان نفسه يصلح
 للنخيط لسياسة غيره . لانه موكل بتحسين طباع الجمهور منووض اليه حملهم
 على الخير وصرافهم عن مضار الاهواء المخرفة

عَادَتِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ وَاسْتِعْمَالِ الْخُحُودِ مِنْ أَعْمَالِهِمَا. فَطَرِيقُ التَّدْرُجِ
لِاسْتِعْمَالِ الْعَادَاتِ الْجَمِيلَةِ وَاللَّدُولِ عَنْ الْعَادَاتِ الْقَمِيمَةِ هُوَ التَّدْرُجُ
فِي تَذَلِيلِ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ

أَمَّا النَّفْسُ الشَّهْوَانِيَّةُ فَالطَّرِيقُ إِلَى قَهْمِهَا أَنْ يَتَذَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِي أَوْقَاتِ
شَهْوَاتِهِ وَعِنْدَ شِدَّةِ الْعَزْمِ إِلَى لَذَاتِهِ أَنَّهُ يُرِيدُ تَذَلِيلَ نَفْسِهِ الشَّهْوَانِيَّةِ
فَيَعْدِلُ عَمَّا تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّهْوَةِ الرَّدِيئَةِ إِلَى مَا هُوَ مُسْتَحْسَنٌ
مِنْ جِنْسِ تِلْكَ الشَّهْوَةِ وَتَتَّقَى عَلَى ارْتِضَائِهِ وَيَقْتَصِرُ عَلَيْهِ. فَإِنْ لَمْ
تَنْكَسِرْ شَهْوَاتُهُ يُعْلَلُهَا وَيَعْدُهَا فَإِنْ سَكَنْتِ انْتَصَرَ وَالْأَعَادُ الْفَعْلَ
مِنْ أَلْوَجِهِ الْمُسْتَحْسَنِ. بَلَّغَهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ وَكَرَّرَهُ كَفَّتِ النَّفْسُ وَإِذَا
اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا الْحَالِ آلَفَتْ هَذِهِ الْعَادَةَ وَتَأَنَسَتْ بِهَا وَاسْتَوْحَشَتْ
مِمَّا سِوَاهَا. وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ قَهْمَ نَفْسِهِ الشَّهْوَانِيَّةِ أَنْ يَكْثُرَ مِنْ
مُجَالَسَةِ الزُّهَادِ وَالرُّهْبَانِ وَالنَّسَاكِ وَأَهْلِ الْوَرَعِ وَالْوَاعِظِينَ وَيُلَازِمَ
مُجَالِسَ الرُّؤَسَاءِ وَأَهْلَ الْعِلْمِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ وَخَاصَّةً رُؤَسَاءَ الدِّينِ
يُعْظِمُونَ مَنْ كَانَ مَعْرُوفًا بِالْعَنَّةِ وَيَسْتَزِدُّونَ مَنْ كَانَ فَاجِرًا مُنْهَكًا.
فَيُجَالِسُونَهُ وَمُلَازِمَتُهُ لِهَذِهِ الْمُجَالِسِ تَضْطَرُّهُ إِلَى التَّصَوُّنِ وَالتَّمَقُّفِ
وَالْتَّجَمُّلِ لِدَوَقِهِمْ لئَلَّا يَسْتَزِدُّوهُ وَيَغْضَبُوا مِنْهُ وَيَلْحَقَ بِرُبَّةٍ مَنْ
يُعْظَمُ فِي الْحَافِلِ وَالْمُجَالِسِ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَيْضًا أَنْ يُدِيمَ النَّظَرَ فِي
كُتُبِ الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَاسَةِ وَأَخْبَارِ الزُّهَادِ وَالرُّهْبَانِ وَالنَّسَاكِ وَأَهْلِ
الْوَرَعِ وَيَتَجَنَّبَ مُجَالِسَ الْخُلَمَاءِ وَالسُّفَهَاءِ وَالنَّهْمَكِينَ وَمَنْ يَكْثُرُ
الْهَزْلُ وَاللَّعِبُ وَحِينَئِذٍ يَلْحَقُ بِرُبَّةٍ وَيُعْظَمُ فِي الْحَافِلِ. وَكَثُرَ مَا

يَحِبُّ لَهُ أَنْ يَتَجَنَّبَ السُّكْرَ فَلَا يَمَسُّ نَفْسَهُ الشَّهْوَانِيَّةَ وَيُقْوِيَهَا وَيَحْمِلُهَا عَلَى التَّهْتِكِ وَأَرْثَاكِابِ الْقَوَاحِشِ وَالْمُجَاهَرَةِ بِهَا... وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ قَمَعَ نَفْسِهِ الشَّهْوَانِيَّةَ أَنْ يُقِلَّ مِنَ اسْتِمَاعِ الْغَمَاءِ وَخَاصَّةً مِنَ الدَّسَاءِ الْمُتَصَنِّعَاتِ وَالشُّبَّانِ الظُّرَفَاءِ فَلَنْ لِسَمَاعِ قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ فِي إِثَارَةِ الشَّهْوَةِ... أَمَّا الطَّعَامُ فَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ غَايَتَهُ هُوَ الشَّبَعُ إِنْ دَفَعَ أَلَمَ الْجُوعِ . وَفَاجِرُ الطَّعَامِ وَدَيْنُهُ جَمِيعُهُمَا مُشْبَعَانِ فَلَيْسَ لِلْمُبَالَقَةِ فِي تَجْوِيدِ الطَّعَامِ الْكَثِيرِ حَظٌّ وَلَا فَايِدَةٌ . وَالْأَوَّلَى هُوَ التَّوَسُّطُ فِي أَنْوَاعِ الْمَأْكَلِ وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْجَنَسِ الَّذِي نَشَأَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ وَاعْتَادَهُ وَالْفَقْرَ... وَطَرِيقُ التَّدْرِجِ إِلَى الْإِقْتِصَارِ فِي الطَّعَامِ هُوَ أَنْ يُبَادِرَ ذُو الشَّهْوَةِ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ وَجَدَهُ مِنَ الْمَأْكَلِ فَإِنْ كَانَ أَلْشَّتْهُ الَّذِي تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ حُلُوا قَالَا أَيَّ حَلَاوَةٍ وَجَدَهَا وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالَا مَا يَشْتَبِيهِ مِنَ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ إِذَا تَنَاوَلَ الْإِنْسَانُ مِنْ ذَلِكَ تَكَرَّارًا وَشَبَعَ مِنْهُ سَكَنَتْ شَهْوَتُهُ وَكَفَّتْ نَفْسُهُ بَعْدَ ذَلِكَ

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَحَبَّ الْعِفَّةَ أَنْ يَكُونَ أَبَدًا مُتَيَقِّظًا ذَاكِرًا لِمَا يَلْحَقُ الْفَاجِرَ وَالْهَيْمَ وَالشَّرَّهَ وَالْمُتَهْتِكَ مِنَ الْقَبَاحَةِ وَالْعَارِ فِي الدُّنْيَا جَاعِلًا ذَلِكَ دَيْنَهُ وَشِعَارَهُ وَمُدَاوِمًا عَلَى ذِكْرِهِ . فَإِنَّ نَفْسَهُ حِينَئِذٍ تُبْغِضُ الشَّهَوَاتِ الرَّدِيئَةَ وَتَشْتَاقُ إِلَى التَّعَفُّفِ وَالْقَنَاعَةِ وَتَطْرِبُ عِنْدَ الْعُدُولِ عَنِ الْقَوَاحِشِ مَعَ الْفُدْرَةِ عَلَيْهَا وَتَرْتَاحُ لِمَا يُنْشَرُ عَنْهَا وَمَا يَبْلُغُهَا عَنِ النَّاسِ مِنَ الْأَشَاءِ الْجَمِيلِ عَلَى صَاحِبِهَا . فَهَذَا هُوَ طَرِيقُ رِيَاضَةِ النَّفْسِ

إِلَى قَهْرِ الْقُوَّةِ لَشَهْوَانِيَّةٍ وَتَذْلِيلِهَا وَقَعْبِهَا آغْيَ طَرِيقَ الْإِرْثِيَّاسِ
بِالْعَادَاتِ الْخَمُودَةِ الْمُرْضِيَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّهَوَاتِ وَالذَّلَّاتِ الدَّيْنِيَّةِ
فَأَمَّا النَّفْسُ الْغَضَبِيَّةُ فَإِنَّ طَرِيقَ قَعْبِهَا وَتَذْلِيلِهَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ
الْإِنْسَانُ هِمَّتَهُ إِلَى تَفْقُذِ السُّفَهَاءِ الَّذِينَ يُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْغَضَبُ فِي
أَوْقَاتِ طَيْشِهِمْ وَحِدْيَتِهِمْ وَيَلَاظِظُ تَسْفُهِهَهُمْ عَلَى أَخْصَابِهِمْ وَعُقُوبَتِهِمْ
لِحَدِيثِهِمْ وَعَيْبِهِمْ فَإِنَّهُ يُشَاهِدُ إِذَا ذَلِكَ مَنْظَرًا شَنِيعًا يَأْتِي مِنْهُ
الْخَاصُّ وَالْعَامُّ وَأَنْ يَتَذَكَّرَ فِي أَوْقَاتِ غَضَبِهِ وَعِنْدَ جُنَايَاتِ خَدَمِهِ
وَعَيْبِهِ وَوُثُوبِ إِخْوَانِهِ وَأَوْدَانِهِ فِي جَمِيعِ مُحَاورَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ مَا
شَهِدَهُ مِنْ أَوْلِيكَ. فَإِنَّهُ إِذَا تَفَكَّرَ فِيمَا كَانَ اسْتَحَقَّهُ مِنْهُمْ
فَتَنَكَّرَ بِذَلِكَ سَوْرَةَ غَضَبِهِ وَيُخْجِمُ عَنْهُمْ بِالْإِقْدَامِ عَلَيْهِ مِنْ
السَّبِّ وَالْوُثُوبِ فَإِنْ لَمْ يَكْفِ بِالْكُلِّيَّةِ قَصَرَ وَلَمْ يَنْتَبِهْ إِلَى غَايَةِ
الْفَحْشِ

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَهْزِلَ نَفْسَهُ الْغَضَبِيَّةَ أَنْ يَتَذَكَّرَ فِي
أَوْقَاتِ غَضَبِهِ عَلَى مَنْ يُؤْذِيهِ أَوْ يَتَجَنَّى عَلَيْهِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ هُوَ الْجَانِي
مَا الَّذِي كَانَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَابَلَ بِهِ عَلَى جُنَايَتِهِ فَإِنَّ هَذَا الْفِعْلَ يَعْتَقِدُ
أَنْ دَرَكَ تِلْكَ الْجُنَايَةَ وَذَلِكَ الْأَذَى يَسِيرٌ. جِدًّا فَإِذَا اعْتَقَدَ ذَلِكَ
كَانَتْ مُقَابَلَتُهُ لِلْجَانِي الْمُوْذِي بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِ خَفِيفَةً وَجِنْدًا لَا
يُسْرِفُ فِي الْإِنْتِقَامِ وَلَا يَفْخَشُ فِي الْغَضَبِ فَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ دَائِمًا
وَجَمَلَهُ دَيْدَنًا وَتَفَقَّدَ مَعَايِبَ السُّفَهَاءِ وَمَنْ يُسْرِعُ إِلَيْهِ الْغَضَبُ لَمْ
يُبْعِدْ أَنْ تَنَكَّرَ نَفْسُهُ الْغَضَبِيَّةُ وَتَتَفَادَى إِلَيْهِ وَإِذَا اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا

الْعَمَلُ مُدَّةً صَارَ لَهُ خُلُقًا وَعَادَةً

وَيَلْبَغِي لِمَنْ رَغِبَ فِي تَذَلِيلِ قُوَّةِ الْغَضَبَةِ أَنْ يَتَجَنَّبَ حَمْلَ السِّلَاحِ
فِي مَجَالِسِ الشَّرَابِ وَحُضُورِ مَوَاضِعِ الْفِتَنِ وَمَقَامَاتِ الْحُرُوبِ وَفِي
مَجَالِسَةِ الْأَشْرَارِ وَيَتَجَنَّبَ مَعَاشِرَتَهُمْ وَمُخَالَطَةَ الشَّرِطِ فَإِنَّ هَذِهِ
الْمَوَاضِعَ تَكْسِبُ قَسَاوَةَ الْقَلْبِ وَتَغْلُظُهُ وَتُعْدِمُهُ الرِّقَاقَةَ فَتَشْتَدُّ
إِذْكَ الْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ فَإِذَا أَرَادَ تَذَلِيلَهَا وَتَسْكِينَهَا يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ
مُجَالِسَتَهُ لِأَهْلِ الْوَقَارِ وَالشُّيُوخِ وَالرُّؤَسَاءِ وَلَا فَاخِلَ وَمَنْ يَقِلَّ غَضَبُهُ
وَيَكْثُرُ جُلُوسُهُ وَوَقَارُهُ

وَيَلْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَجَنَّبَ الْسُّكْرَ مِنَ الشَّرَابِ فَإِنَّهُ يُهَيِّجُ الْقُوَّةَ
الْغَضَبِيَّةَ أَكْثَرَ مِمَّا يُهَيِّجُ الْقُوَّةَ الشَّهْوَانِيَّةَ . . .

وَيَلْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ تَذَلِيلَ قُوَّتَيْهِ الْغَضَبِيَّةِ وَالشَّهْوَانِيَّةِ مَعًا أَنْ
يَسْتَعْمِلَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ الْفِكْرَ وَلَا يَقْدِمُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ
يُورِيَ فِيهِ وَيَجْعَلَ الْفِكْرَ وَاتِّبَاعَ الرَّأْيِ دَيْدَنَهُ وَعَادَتَهُ فَإِنَّ الرَّأْيَ
وَجُودَةَ الْفِكْرِ يُقْتَضِيَانِ لَمْ يَسْفَهْ وَبِزَعَةٍ الْغَضَبِ وَالْإِنْهَادِ فِي
الشَّهَوَاتِ وَاتِّبَاعِ اللَّذَاتِ . فَإِذَا اسْتَقْبَحَ ذَلِكَ أَحْجَمَ عَنْهُ وَعَدَلَ إِلَى
مَا يَقْتَضِيهِ الرَّأْيُ وَالْفِكْرُ وَإِنْ لَمْ يَرْتَدِعْ بِالنَّكِلَةِ لَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ
فِيهِ ذَلِكَ فَيَقْتَضِرَ عَمَّا يُرِيدُ التَّسْرِعَ إِلَيْهِ

وَمِلَاكُ الْأَمْرِ فِي تَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَضَبْطِ الْقُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ
وَالْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ هِيَ الْقُوَّةُ النَّاطِقَةُ فَإِنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ تَكُونُ جَمِيعُ
السِّيَاسَاتِ فَإِذَا كَانَتْ قُوَّةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ صَاحِبِهَا أَمَكَتْهُ أَنْ

يُسُوسَ بِهَا قُوَّتَيْهِ الْبَاقِيَتَيْنِ وَيَكُفَّ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ الْقَبَائِحِ وَيَسَّعَ
أَبْدًا مُحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قُوَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ
مُضْمُورَةً خَافِيَةً

قَاوِلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخْلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هَذِهِ
الْقُوَّةَ. وَتُرَوِّضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هَذِهِ
الْعُلُومِ وَدَقَّقَ النَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَاسَةِ وَدَاوَمَ عَلَيْهَا
تَيَقَّظَتْ نَفْسُهُ وَتَذَهَّبَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَأَتَمَّعَتْ مِنْ ثَمَوِلِهَا وَاحْسَنَتْ
بِفَضَائِلِهَا وَأَنْفَتَ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ إِنَّمَا تَضَعُفُ وَتَخْفُ
إِذَا عَدِمَتْ الْقَضَائِلَ وَالْمُنَاقِبَ وَاسْتَوَلَتْ عَلَيْهَا الرَّذَائِلُ. أَمَّا إِذَا
أَفْتَتَتْ الْقَضَائِلَ وَاسْتَسَبَّتْ الْأَدَابَ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشِيَّتِهَا وَتَارَتْ
بِزُكْرَاهَا وَقَوِيَتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا. وَفَضَائِلُ هَذِهِ الْقُوَّةِ هِيَ الْعُلُومُ
الْعَقْلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا قَاوِلٌ إِذَا ارْتَاضَ الْإِنْسَانُ بِهَا شَرَفَتْ نَفْسُهُ
وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكَ أَخْلَاقَهُ
وَقَدَّرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَأَنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهَلَ عَلَيْهِ تَهْذِيبُهُ وَأَذْعَنَتْ لَهُ
الْقُوَّةُ النَّصِيئَةُ وَالشَّهَوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيْهِ قَمْعُهُمَا وَتَهْذِيبُهُمَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِيَ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ النَّظَرُ
فِي كُتُبِ الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَاسَاتِ ثُمَّ الْأَرْتِيَاضُ بِالْعُلُومِ الْحَقَائِقِ فَإِنَّ
أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ إِذَا رَاكُمُهَا حَقَائِقُ الْأُمُورِ وَأَطْلَاعُهَا عَلَى
هَيْئَاتِ الْمَوْجُودَاتِ مَتَى شَرَفَتْ نَفْسُ الْإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى
مَرَاتِبِ الْفَضْلِ

وَمَا يُضِلُّهُ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ وَيُقْوِيهَا أَيْضًا مُجَالَسَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ
وَمُخَالَطَتُهُمْ وَالْإِقْتِدَاءُ بِأَخْلَاقِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخَاصَّةً أَصْحَابَ عُلُومِ
الْحَقَائِقِ وَالْمُتَقِظُونَ مِنْهُمْ الْمُسْتَعْمِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ
عُلُومُهُمْ وَتَوْجِبُهُ عُقُولُهُمْ

أَمَّا تَمْيِيزُ عَادَاتِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ وَاسْتِعْمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَأَطْرَاحُ
مَا قَبِحَ فَإِنَّمَا يُمَكِّنُ وَيَسْهَلُ إِذَا رَاضَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ النَّاطِقَةَ فَلَنَهَا
إِذَا ارْتَضَتْ بِالْعُلُومِ الْحَقِيقَةِ وَتَقَطَّطَتْ وَتَشَرَّفَتْ أَرْنَفَتْ مِنْ
الْعَادَاتِ الْمُسْتَفْجَةِ وَتَذَرَتْ عَنِ التَّدْنِيسِ بِهَا فَيَهْوُ حَيْثُذِي عَلَى
الْإِنْسَانِ تَجَنَّبُ مَا يُسْتَكْرَهُ مِنَ الْعَادَاتِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ اسْتِحْسَانُ
الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ الْجَمِيلَةِ وَالْخَلْقِ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ طَرِيقَ الْإِرْتِيَاضِ بِالْأَخْلَاقِ
الْخَمُودَةِ وَالْتَّصُّعِ لِاعْتِيَادِهَا وَاتِّبَاعِ الْخَمُودِ الْمُرْضِيِّ مِنْهَا وَتَرْكِ
الْمَذْمُومِ الْمُسْتَفْجِ وَتَذَلِيلِ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ الْعَصِيَّةِ وَضَبْطِهَا وَقَهْرُهَا هُوَ
إِصْلَاحُ الْقُوَّةِ النَّاطِقَةِ وَتَقْوِيَتُهَا وَتَحْلِيلُهَا بِالْقَضَائِلِ وَالْأَدَابِ
وَالْحَاسِنِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ آلَةُ السِّيَاسَةِ وَمَرْكَبُ الرِّيَاضَةِ

وَمَنْ يَتَسَكَّنُ مِنْ أَكْتَسابِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْإِمْعَانِ فِيهَا
وَتَعَدَّرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فَلْيَبْذُلْ جُهْدَهُ فِي تَذْقِيقِ الْفِكْرَةِ وَمُجَاهَدَةِ
النَّفْسِ وَيُصَوِّرِ الْفَرْقَ مَا بَيْنَ عَادَتِهِ الْقَبِيحَةِ وَالْجَمِيلَةِ وَيَنْظُرْ أَيُّهَا
أَجْدَى عَلَيْهِ وَأَنْفَعُ وَأَيُّهَا أَجْدَرُ عَاقِبَةً وَأَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ فَإِنَّهُ
إِذَا صَدَقَ مَا تَأَكَّدَتْهُ نَفْسُهُ وَجَدَ أَنَّ شَهْوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ إِنَّمَا هِيَ مُدَّةُ

وَقَتِ اسْتِعْمَالَهَا فَقَطُّ أَمَّا بَعْدُ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٍ
لَهُ وَتُجِدُ عَارَهَا وَشِدَّتِهَا بَاقِيًا إِلَى الدَّهْرِ مُتَدَاوِلًا بَيْنَ النَّاسِ يُعَابُ
بِهِ وَيُزَرَّى عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ فِي شِدَّةِ الْغَضَبِ وَالْإِسْرَاعِ إِلَى الْإِنْتِقَامِ
وَالسَّبِّ وَالْفُحْشِ قَتَى انْخَلَّتْ غَمْرَتُهُ وَسَكَنتْ ثَوْرَتُهُ تَامَلَ أَمْرُهُ
فَرَأَى أَنَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَجِدْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ
مَا فَعَلَهُ وَقَتِ الْغَضَبِ نَقِصَةً يُوسَمُ بِهَا وَمَعِيرَةً يُسَبُّ عَلَيْهَا وَرَبَّمَا
أَرْتَكَبَ حَالَ الْغَضَبِ جَنَائِتَ كَثِيرَةً يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُرَدَّبُ مِنْ
أَجْلِهَا. كَذَلِكَ أَلْعَادَاتُ الْمَكْرُوَّةِ فِي النَّفْسِ النَّاطِقَةِ هِيَ أَيْضًا غَيْرُ
نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْإِنْسَانِ نَفْعًا كَالْحَسَدِ مَثَلًا وَالْحَقْدِ وَالْخُبْثِ
وَأَمْثَالِ هَذِهِ إِذَا لَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَإِنْ أُنْتَفَعَ كَانَ شَرًّا مُنْفَعَةً
وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ مُضِرَّةٌ لَهُ لِأَنَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصْدُهُ النَّاسُ بِالشَّرِّ
وَأَسْتَعْدُوا لِإِذْيَتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْإِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَأَخْتَرُوا مِنْهُ
وَكَرِهُوا نَفْعَهُ وَقَصَرُوا عَلَيْهِ وَجُوهَ الْخَيْرِ.. فَإِذَا حَاسَبَ الْإِنْسَانُ
نَفْسَهُ وَاجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمَيَّزَهُ عِلْمَ أَنَّ الضَّرَرَ فِي مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ
أَكْثَرُ مِنَ النِّفْعِ بِهَا وَأَنَّ الَّذِي يَعُدُّ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى
الْحَقِيقَةِ وَإِذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جَدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَمِرٌّ وَإِنَّ
هَذَا الْيَسِيرَ الَّذِي يَعُدُّ نَفْعًا لَا يَفِي بِالضَّرْرِ الْكَثِيرِ وَالْعَارِ الدَّائِمِ
الْمُتَّصِلِ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ أَنْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ
فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنَهَايَتَهَا وَلَا يَقْنَعَ مِنْهَا بِأَدْنَى أَلْفَايَةٍ وَلَا يَرْضَى إِلَّا

بِأَعْلَى دَرَجَةٍ فَإِنَّهُ إِذَا جَعَلَ ذَلِكَ غَرَضَهُ كَانَ حَرِيًّا أَنْ يَتَوَسَّطَ فِي
الْفَضَائِلِ وَيَبْلُغَ فِيهَا رُتَبَةً مُرْضِيَةً إِنْ مَاتَتْهُ الدَّرَجَةُ الْعُلْيَا وَأَمَّا إِنْ
قَنَعَ بِالتَّوَسُّطِ يَا مَنْ أَنْ يَقْصَرَ عَنْ بُلُوغِهِ فَيَبْقَى فِي أَدْنَى الْمَرَاتِبِ
وَيَقْوَةُ الْمَطْلُوبُ وَلَا يَطْمَعُ أَبَدًا فِي التَّامِّ.

فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ طَرِيقُ الْأَرْتِيَاضِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَنْهَجُ
التَّدْرُجِ فِي مَحْمُودَاتِهَا وَكَيْفِيَّةُ تَهْدِيئِهَا فَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ بِتَدْرِيبِ
نَفْسِهِ بِهِ وَكَثَّرَ مِنْ مُرَاعَاتِهِ وَتَعَهُّدِهِ صَارَتْ لَهُ الْفَضَائِلُ ذِيْدًا
وَالْحَاسِنُ خُلُقًا وَطَبْعًا

هَذَا وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَذْكُرَ أَوْصَافَ الْإِنْسَانِ التَّامِّ
الْجَامِعِ لِحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ... فَنَقُولُ إِنَّ الْإِنْسَانَ التَّامَّ هُوَ الَّذِي
لَمْ تَفُتَّهُ فَضِيلَةٌ مِنَ الْفَضَائِلِ وَلَمْ تَشْهُ رَذِيلَةٌ مِنَ الرَّذَائِلِ وَهَذَا
الْحَدُّ قَلَمًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ إِنْسَانٌ وَإِذَا انْتَهَى إِلَيْهِ اقْتِرَاضًا كَانَ
أَشْبَهَ مِنْهُ بِالنَّاسِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَضْرُوبٌ بِأَنْوَاعِ النِّقْصِ
مُسْتَوِلٌ عَلَى طَبْعِهِ ضَرْبُ الشَّرِّ وَبِنَاءٍ عَلَى ذَلِكَ فَقَلَمًا يَخْلُصُ مِنْ
جَمِيعِهَا حَتَّى تَسْلَمَ نَفْسُهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَمَنْقِصَةٍ وَتُحِيطَ بِهِ كُلُّ
فَضِيلَةٍ وَمَنْقِبَةٍ حَسَنَةٍ فَالتَّامُّ وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا بَعِيدَ التَّأَوُّلِ إِلَّا أَنَّهُ
مُمْكِنٌ وَهُوَ غَايَةُ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فَإِذَا صَدَقَتْ عَزِيمَتُهُ
وَأَعْطِيَ الْأَجْهَادَ حَقَّهُ كَانَ مُمَكِّنًا لَهُ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْعَالِيَةِ
الْمُقْصُودَةِ الْمُنْتَهَى هُوَ لَهَا بَلَكُ الْآتِي تَسُو نَفْسُهُ إِلَيْهَا

أَمَّا تَفْصِيلُ ذَلِكَ هُوَ أَنْ يَكُونَ مُتَقَدِّمًا لِجَمِيعِ أَخْلَاقِهِ مُتَقِظًا

لِسَائِرِ مَعَايِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ
مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ الْغَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ الْكَمَالِ مُسْتَلِذًا بِمَحَاسِنِ
الْأَخْلَاقِ مُتَقِظًا لِذَمُّومِ الْعَادَاتِ مُعْتَنِيًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ
مُسْتَكْثِرٍ لِمَا يَبْقِيهِ مِنَ الْقَضَائِلِ مُسْتَعِظًا لِلْيَسِيرِ مِنَ الرَّدَائِلِ
مُسْتَضْعَفًا لِلرُّتْبَةِ الْعُلْيَا مُسْتَحْقِرًا لِلْغَايَةِ الْقُصْوَى يَرَى التَّمَامَ دُونَ مَحَلِّهِ
وَالْكَمَالَ أَقْلَ أَوْصَافِهِ . .

فَمَا أَوَّلَى مَنْ نَظَرَ فِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا
وَتَدَبَّرَهَا وَآخَذَ نَفْسَهُ بِاسْتِعْمَالِ مَا تَبَيَّنَ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ أَخْلَاقَهُ
عَلَى التَّطَرُّقِ إِلَى مَا فُتِنَ فِي أَبْوَابِهِ وَاجْتَهَدَ كُلَّ الْجُتْهَادِ فِي تَكْمِيلِ
نَفْسِهِ وَأَسْتَفْرَعَ غَايَةَ الْوُسْعِ فِي طَلَبِ التَّمَامِ . وَمَا أَقْبَحَ النَّقْصَ
بِالْقَدْرِ عَلَى التَّمَامِ وَالْعُجْزَ عَنِ الْمُقْتَدِرِ



الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الأول

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصنائع لابن هلال العسكري بتصرف

(راجع صفحة ٧٧ من عام الخطابة)

قَالَ بَعْضُ الْكُتَّابِ : أَمَعَاثِرَ الْكُتَّابِ أَحْسِنُوا إِلَّا بَتْدَاءَاتٍ
فَإِنَّهُمْ دَلَالٌ أَلْيَانٌ . وَذَلِكَ أَنْ يَجْعَلَ الْخَطِيبُ فَاتِحَةً كَلَامِهِ وَأَوَّلَهُ
دَلِيلًا عَلَى الْقَصُودِ الَّذِي دَعَاهُ لِلِقَائِهِ فَيَنْظُرُ إِلَى الْقَرَضِ الْمَطْلُوبِ
فَيَجْعَلُ التَّحْمِيدَ أَوْ الدُّعَاءَ أَوْ اتِّضَاعَ مُشْعَرٍ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْلَى
مَرَاتِبِ الْبَلَاغَةِ وَإِنَّمَا خُصَّتِ إِلَّا بَتْدَاءَاتٍ بِالْإِخْتِيَارِ لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَا
يَهْرُقُ السَّمْعَ مِنَ الْكَلَامِ فَإِذَا كَانَ إِلَّا بَتْدَاءٌ مُؤَنِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا
لَانِقًا بِالْمَعْنَى أَلْوَارِدِ بَعْدَهُ تَوَقَّرَتِ الدَّوَاعِي لِاسْتِمَاعِ مَا يَحْيِي بَعْدَهُ
فَيَقْرَعُ أَسْمَاعَهُمْ شَيْءٌ بَدِيعٌ لَيْسَ لَهُمْ بِشَيْءٍ عَهْدٌ فَيَرْغَبُونَ أَنْ
يَسْتَمِعُوا مَا بَعْدَهُ لِفَهْمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ الْكُتَّابُ وَأَلْوَاعِظُونَ أَكْثَرَ
إِلَّا بَتْدَاءَاتٍ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ لِأَنَّ النَّفْسَ تَتَشَوَّقُ لِلشَّاءِ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

إِلَى الْأَسْتِمَاعِ . وَقَدْ قِيلَ : كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْتَدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدَةِ فَهُوَ
 أَنْتَرُ . وَحَقِيقَةُ هَذَا الْبَابِ أَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ الْكَلَامِ مِنْ الْخُطْبِ أَوْ
 الرِّسَالِ أَوْ الشِّعْرِ دَالًّا عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ . إِنْ
 فَتَحْنَا فَقَتْمًا وَإِنْ كَانَ هُنَا فَهِنًا أَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَزَاءً وَكَذَلِكَ يَجْرِي
 الْحُكْمُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْيَانِ . وَقَائِدُهُ أَنْ يُعْرَفَ مِنَ الْكَلَامِ
 مَا الْمُرَادُ بِهِ وَيُسْتَفْتَحُ أَلْتَّكَلَّمَ أَبْوَابَ الْأَسْمَاعِ . وَيُسْتَحْضَرُ الْأَذْهَانُ
 لِلْأَسْتِمَاعِ . وَهَذَا الشَّعْبُ عَظِيمُ النَّفْعِ لِمَنْ حَقَّقَهُ وَلَا يُفْتَحُ بِأَبَةٍ إِلَّا
 لِمَنْ طَرَفَهُ وَقَدْ يُسَمَّى أَيْضًا هَذَا النَّوعُ بِرِاعَةِ الْأَسْتِهْلَالِ وَسَيَأْتِي
 عَنْهُ الْكَلَامُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْجُمُوعِ عِنْدَ الْكَلَامِ عَنْ
 الشِّعْرِ

البحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكميات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

الْقَضِيَّةُ قَوْلٌ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ لِقَائِهِ إِنَّهُ صَادِقٌ فِيهِ أَوْ كَاذِبٌ وَهِيَ
 مَجْمُوعُ الْمَعْلُومَاتِ الْأَرْبَعَةِ وَهِيَ الْحُكُومُ عَلَيْهِ وَالْحُكُومُ بِهِ وَالنِّسْبَةُ
 الْحَكَمِيَّةُ وَالْحُكْمُ وَادْرَاكُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ تَصْدِيقٌ . وَالْقَضِيَّةُ أَمَّا حَلِيَّةٌ
 وَأَمَّا شَرْطِيَّةٌ . قَالُوا : إِنْ كَانَ الْحُكُومُ عَلَيْهِ وَالْحُكُومُ بِهِ قَضِيَّتَيْنِ
 عِنْدَ التَّحْلِيلِ أَيْ عِنْدَ حَذْفِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْعِلَاقَةِ بَيْنَهُمَا مِنَ النِّسْبَةِ

الْحَكْمِيَّةُ سُمِّيَتْ شَرْطِيَّةً وَالْأُسْمِيَّةُ حَمَلِيَّةً . فَإِنَّ قَوْلَنَا مَثَلًا : (زَيْدٌ نَائِمٌ) . قَضِيَّةٌ حَمَلِيَّةٌ . لِأَنَّ طَرَفَيْهَا مُفْرَدَانِ عِنْدَ التَّحْلِيلِ وَيُسَمَّى الطَّرْفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْحَمَلِيَّةِ وَهُوَ الْمُحْتَبَرُ عَنْهُ مَوْضُوعًا وَالثَّانِي مَحْمُولًا . وَقَوْلُنَا : (إِنْ كَانَتْ الشَّمْسُ طَالَعَةً فَالْيَوْمُ مُوجُودٌ) قَضِيَّةٌ شَرْطِيَّةٌ . لِأَنَّهُ إِذَا حَذَفْنَا (إِنْ وَآلِفَاءُ) الْمُوجِبَيْنِ لِلرَّابِطِ بَقِيَ : (الشَّمْسُ طَالَعَةٌ) (وَالْيَوْمُ مُوجُودٌ) وَهُمَا قَضِيَّتَانِ . وَالْقَضِيَّةُ الْحَمَلِيَّةُ أَمَّا شَخْصِيَّةٌ وَهِيَ آتِي يَكُونُ الْحَكْمُ عَلَيْهِ فِيهَا جُزْئِيًّا مُعَيَّنًا كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ . وَأَمَّا كَلِمَةٌ وَهِيَ آتِي يَكُونُ الْحَكْمُ عَلَيْهِ فِيهَا كَلِمًا يَشْمُلُ جَمِيعَ أَفْرَادِ الْمَوْضُوعِ . وَتَكُونُ كِلَاهُمَا أَمَّا مُوجِبَةٌ وَأَمَّا سَالِبَةٌ . وَإِنَّمَا يُحْكَمُ فِي الْقَضِيَّةِ الشَّرْطِيَّةِ عَلَى التَّعْلِيلِ وَهُوَ وَجُودُ أَحَدَى قَضِيَّتَيْهَا مُعَلَّقٌ عَلَى وَجُودِ الْأُخْرَى أَوْ عَلَى نَفْيِهَا وَهِيَ قِسْمَانِ مُتَّصِلَةٌ وَهِيَ الَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِإِزْمٍ قَضِيَّةٌ أُخْرَى أَوْ لَا لِزُومِهَا وَهِيَ الَّتِي تُوجِبُ التَّلَازُمَ بَيْنَ جُزْئَيْهَا نَحْوُ : لَوْ كَانَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . وَمُنْفَصِلَةٌ وَهِيَ الَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِإِمْتِنَاعٍ . اجْتِمَاعُ قَضِيَّتَيْنِ فَكَثَرَتْ فِي الصِّدْقِ وَهِيَ الَّتِي جُزْأَاهَا مُتَعَانِدَانِ نَحْوُ : الْعَالَمُ أَمَّا قَدِيمٌ أَوْ حَدِيثٌ . وَيُسَمَّى الطَّرْفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْقَضِيَّةِ الشَّرْطِيَّةِ مُقَدِّمًا وَالثَّانِي تَالِيًا . وَلَا بُدَّ مِنْ رَابِطٍ بَيْنَ الْمَوْضُوعِ وَالْمَحْمُولِ

وَالْقَضِيَّةُ أَقْسَامٌ غَيْرُ هَذِهِ مِنْهَا (الْقَضِيَّةُ الْبَسِيطَةُ) وَهِيَ الَّتِي حَقِيقَتُهَا أَوْ مَعْنَاهَا أَمَّا إِيحَابٌ فَقَطْ نَحْوُ : كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ بِالضَّرُورَةِ .

وَأَمَّا سَلْبُ قَطْعِ نَحْوٍ: لَا شَيْءَ مِنَ الْإِنْسَانِ يَجْرِي بِالْضَّرُورَةِ. وَمِنْهَا
(الْقَضِيَّةُ الْمُرَكَّبَةُ) وَهِيَ الَّتِي حَقِيقَتُهَا مُلْتَبِسَةٌ مِنْ إِجَابٍ وَسَلْبٍ
مَعًا نَحْوُ: كُلُّ إِنْسَانٍ ضَاحِكٌ لَا دَائِمًا. وَمِنْهَا (الْقَضِيَّةُ النَّظَرِيَّةُ)
وَهِيَ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا وَيُطْلَبُ بِالدَّلِيلِ اثْبَاتُهَا فِي الْعِلْمِ. فَهِيَ مِنْ
حَيْثُ أَنَّهَا يُسْأَلُ عَنْهَا تُسَمَّى مَسْأَلَةً. وَمِنْ حَيْثُ يُطْلَبُ حُدُودُهَا
مَطْلَبًا. وَمِنْ حَيْثُ تُسْتَخْرَجُ مِنَ الْإِرَاهِينِ نَتِيجَةٌ. وَمِنْ حَيْثُ يُبْتَنَى
عَلَيْهَا الشَّيْءُ أَصُولًا. وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهَا مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَوْضُوعَةٍ
تَتَعَرَّفُ أَحْكَامُهَا مِنْهَا قَاعِدَةٌ. وَمِنْ حَيْثُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْحُجَّةُ مُقَدِّمَةٌ
وَقَضِيَّةٌ. وَمِنْ حَيْثُ تَحْتَوِي الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ خَبْرًا

المبحث الثالث

في القياس واقسامه وانواعه

(من كتاب النجاة لابن سينا والكلبيات لابي البنا)

(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وَأَمَّا الْقِيَاسُ فَهُوَ قَوْلُ مُؤَلِّفٍ مِنْ قَضَايَا إِذَا وُضِعَتْ لَزِمَ عَنْهَا
بِذَاتِهَا لَا بِالْعَرَضِ قَوْلُ آخَرٍ اضْطِرَّارًا كَقَوْلِنَا: الْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ وَكُلُّ
مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ فَإِنَّهُ مُؤَلِّفٌ مِنْ قَضِيَّتَيْنِ وَلَزِمَ عَنْهُمَا أَنَّ الْعَالَمَ حَادِثٌ
وَهُوَ الْقِيَاسُ الْعَقْلِيُّ وَالْمُنْطَقِيُّ. وَالْقَوْلُ الْآخِرُ يُسَمَّى مَطْلُوبًا قَبْلَ
إِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ. وَنَتِيجَةٌ بَعْدَ تَرْكِيبِ الْقِيَاسِ لَهُ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ

عَلَيْهِ وَيُسَمَّى بِالزَّدِفِ أَيْضًا. وَمَوْضُوعُ النَّتِيجَةِ هُوَ الْحَدُّ الْأَصْغَرُ
وَالْحَكْمُ فِيهَا هُوَ الْحَدُّ الْأَكْبَرُ. وَمَا كُتِبَ فِي الْقَضِيَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ
يُسَمَّى حَدًّا أَوْسَطَ. وَيَدْعُونَ الْقَضِيَّةَ الْمَشْتَبَهَةَ عَلَى الْحَدِّ الْأَكْبَرِ
مُقَدِّمَةً كُبْرَى وَالْمَشْتَبَهَةَ عَلَى الْحَدِّ الْأَصْغَرِ مُقَدِّمَةً صُغْرَى. وَتَجْمُوعُ
الْمُقَدِّمَةِ الصُّغْرَى بِالْكُبْرَى فِي الْقِيَاسِ يُعْرَفُ بِالضَّرْبِ. وَنِسْبَةُ
الْحَدِّ الْأَوْسَطِ إِلَى الْأَصْغَرِ وَالْأَكْبَرِ هُوَ الشَّكْلُ. وَاشْكَالُ
الْقِيَاسِ أَرْبَعَةٌ لِأَنَّ الْأَوْسَطَ إِنْ كَانَ مَحْمُولًا فِي الصُّغْرَى مَوْضُوعًا
فِي الْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ الْأَوَّلُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ
وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ. وَشَرَطُ إِتْنَاهِ هَذَا الشَّكْلُ إِيحَابُ الصُّغْرَى
وَكُلِّيَّةُ الْكُبْرَى وَهُوَ يَخْتَصُّ بِأَنَّهُ يُنتِجُ الْمَوْجِبَةَ الْكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي
الْأَشْكَالِ لَا يُنتِجُ الْمَوْجِبَةَ الْكُلِّيَّةَ بَلْ إِمَّا مُوجِبَةً جُزْئِيَّةً أَوْ
سَالِبَةً. وَإِنْ كَانَ الْحَدُّ الْأَوْسَطُ مَحْمُولًا فِي الصُّغْرَى وَالْكُبْرَى فَهُوَ
(الشَّكْلُ الثَّانِي) كَقَوْلِكَ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيْءٌ مِنْ
الْجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيْءٌ مِنَ الْجَمَادِ بِإِنْسَانٍ. وَكَقَوْلِ الْبَعْضِ: كُلُّ
غَائِبٍ مَجْهُولُ الصِّفَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيَعُهُ لَيْسَ بِمَجْهُولِ الصِّفَةِ فَالنَّتِيجَةُ
كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيَعُهُ. وَشَرَطُ إِتْنَاهِ اخْتِلَافُ مُقَدِّمَتَيْهِ فِي
الْإِيحَابِ وَالسَّلْبِ وَكُلِّيَّةِ كُبْرَاهُ وَمِنْ خَوَاصِهِ أَنَّهُ لَا يُنتِجُ إِلَّا
سَالِبَةً. وَإِنْ كَانَ الْأَوْسَطُ مَوْضُوعًا فِي الصُّغْرَى وَالْكُبْرَى فَهُوَ
(الشَّكْلُ الثَّلَاثُ) نَحْوُ كُلِّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ إِنْسَانٍ نَاطِقٌ
فَبَعْضُ الْحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرَطُ إِتْنَاهِ أَنْ تَكُونَ صُغْرَاهُ مُوجِبَةً

وَأَنْ تَكُونَ إِحْدَى مُقَدِّمَتَيْهِ كُتِبَتْهُ وَمِنْ خَوَاصِهِ أَنْ تَنْجِيَّتَهُ لَا
تَكُونَ إِلَّا جُزْئِيَّةً. وَإِنْ كَانَ أَحَدُ الْأَوْسَطِ عَكْسَ الْأَوَّلِ بَانَ
يَكُونُ مَوْضُوعًا فِي الصُّغْرَى تَحْذُولًا فِي الْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ
الرَّابِعُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ إِنْسَانٌ فَبَعْضُ
الْحَيَوَانِ نَاطِقٌ

وَالْقِيَاسُ يُقْسَمُ إِلَى كَامِلٍ وَغَيْرِ كَامِلٍ فَالْقِيَاسُ الْكَامِلُ هُوَ
الْقِيَاسُ الَّذِي يَكُونُ لِرُومٍ مَا يَلْزَمُ عَنْهُ بَيِّنًا عِنْدَ وَضْعِهِ فَلَا يَحْتَاجُ
أَنْ تُبَيِّنَ أَنَّ ذَلِكَ لَا زَمَ عَنْهُ. وَالْغَيْرُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ
شَيْءٌ وَلَكِنْ لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنَّ ذَلِكَ يَلْزَمُ عَنْهُ.
بَلْ إِذَا أُريدَ أَنْ تُبَيِّنَ ذَلِكَ بُيِّنَ بِشَيْءٍ آخَرَ لِكِنَّهُ غَيْرُ خَارِجٍ مِنْ
جُمْلَةِ مَا قِيلَ بَلْ إِمَّا نَقِصُ مَا قِيلَ أَوْ عَكْسُهُ تَغْيِيرُ شَيْءٍ مِنْهُ
وَأَفْتِرَاضُهُ. وَالْقِيَاسُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ لَيْسَ هُوَ وَلَا نَقِصُهُ
مَقُولًا فِيهِ بِالْفِعْلِ بَوَجهِ بَلْ بِالْقُوَّةِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا اقْتِرَانِيًّا كَقَوْلِكَ:
كُلُّ جِسْمٍ مُؤَلَّفٌ وَكُلُّ مُؤَلَّفٍ مُخْدَتٌ سَمِّيَ بِهِ لِاقْتِرَانِ الْخُدُودِ فِيهِ.
وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ هُوَ أَوْ نَقِصُهُ مَقُولًا فِيهِ بِالْفِعْلِ وَيُسَمَّى
قِيَاسًا اسْتِثْنَائِيًّا كَقَوْلِكَ: إِنْ كَانَتْ النَّفْسُ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ
قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لَكِنْ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا



البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسية والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وَلَا قِسَامَ الْقِيَاسِ مُلْحَقَاتُ آخَرُ يُقَسَّمُ إِلَيْهَا. (أَوَّلُهَا) الْقِيَاسُ
الْمُرَكَّبُ وَهُوَ قِيَاسٌ رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَنْتَجِ مُقَدَّمَتَانِ مِنْهَا نَتِيجَةٌ
وَهِيَ مَعَ الْأَقْدَمَةِ الْآخَرَى نَتِيجَةٌ أُخْرَى وَلَا تَرَالُ نَتَائِجُ بَعْضُهَا
مُقَدَّمَاتُ لِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَخْصَلَ الْمَطْلُوبُ. فَإِنْ صُرِحَ بِنَتَائِجِ تِلْكَ
أَلَا قِيسَةً سُمِّيَ. وَضُولُ النَتَائِجِ لَوْضَلِ تِلْكَ النَتَائِجِ بِالْمُقَدَّمَاتِ
كَقَوْلِكَ: كُلُّ كَاتِبٍ إِنْسَانٌ وَكُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ
حَيَوَانٌ. وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ فَكُلُّ كَاتِبٍ ذُو حِسٍّ. وَكُلُّ ذُو
حِسٍّ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ. وَإِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِنَتَائِجِ تِلْكَ
أَلَا قِيسَةً سُمِّيَ مَفْضُولُ النَتَائِجِ وَمَطْوِيَّهَا كَقَوْلِكَ: كُلُّ كَاتِبٍ إِنْسَانٌ.
وَكُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ. وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ. وَكُلُّ ذُو حِسٍّ نَامٌ.
وَكُلُّ نَامٍ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ. (وَالثَّانِي) قِيَاسُ الْخَافِ. وَهُوَ
قِيَاسٌ أَسْتَشْنَائِيٌّ يُقْصَدُ فِيهِ إِثْبَاتُ الْمَطْلُوبِ بِإِبْطَالِ نَقِيضِهِ كَمَا إِذَا
قِيلَ كُلُّ نَبَاتٍ نَامٌ وَلَا شَيْءٌ مِنْ الْجَمَادِ نَامٌ فَلَا شَيْءٌ مِنَ النَّبَاتِ
بِجَمَادٍ. فَيُقَالُ لَوْ لَمْ يَكُنِ الْمَطْلُوبُ حَقًّا أَيْ لَا شَيْءٌ مِنَ النَّبَاتِ
بِجَمَادٍ لَصَدَقَ نَقِيضُهُ أَيْ بَعْضُ النَّبَاتِ جَمَادٌ. لَكِنْ لَوْ كَانَ هَذَا

الْتَقِيسُ حَقًّا لَمَّا صَدَقَ كَوْنُ كُلِّ نَبَاتٍ نَائِمًا. وَقَدْ سُمِّيَ هَذَا الْقِيَاسُ
خَلْقًا لِأَنَّهُ اَلْتَّمَسِيكُ بِهِ يُثَبِّتُ مَطْلُوبُهُ مِنْ خَلْفِهِ أَيَّ مِنْ وَرَائِهِ .
(وَالثَّالِثُ) قِيَاسُ اَلْاِسْتِقْرَاءِ وَهُوَ قَوْلُ مُؤَلَّفٍ مِنْ قَضَايَا تَشْتِمِلُ
عَلَى الْحُكْمِ عَلَى اَلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ الْحُكْمِ اَلْكُلِّيِّ . وَيُحَدِّثُ أَيْضًا
اَلْحُكْمَ عَلَى كُلِّيٍّ لَوْجُودِهِ فِي أَكْثَرِ جُزْئِيَّاتِهِ وَقِيلَ أَيْضًا: هُوَ تَصْفُحُ
اَلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ حُكْمِ كُلِّيٍّ ثُمَّ اَلْاِسْتِقْرَاءُ قِسْمَانِ (نَائِمٌ) وَيُسَمَّى
قِيَاسًا مُفْتَسِمًا وَهُوَ أَنَّهُ يُسْتَدَلُّ بِجَمِيعِ اَلْجُزْئِيَّاتِ وَيُحْكَمُ عَلَى اَلْكُلِّ
وَهُوَ قَلِيلُ اَلْاِسْتِعْمَالِ كَمَا يُقَالُ: كُلُّ جِسْمٍ إِمَّا حَيَوَانٌ أَوْ نَبَاتٌ
أَوْ جَمَادٍ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَحَيِّزٌ فَيَنْتِجُ أَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ
يُفِيدُ اَلْيَقِينَ . (وَنَاقِصٌ) وَهُوَ أَنَّهُ يُسْتَدَلُّ بِأَكْثَرِ اَلْجُزْئِيَّاتِ فَقَطْ
وَيُحْكَمُ عَلَى اَلْكُلِّ وَهُوَ قِسْمُ اَلْقِيَاسِ وَلِذَا عَدَّوهُ مِنْ لَوَاقِحِ
اَلْقِيَاسِ وَتَوَابِعِهِ وَهُوَ يُفِيدُ الظَّنَّ كَقَوْلِنَا: كُلُّ حَيَوَانٍ يَتَحَرَّكُ فَكُهُ
اَلْأَسْفَلُ عِنْدَ اَلْمَضْغِ لِأَنَّ اَلْإِنْسَانَ وَالفَرَسَ وَاَلْجَمَادَ وَالبَقَرَ وَغَيْرَ
ذَلِكَ بِمَا تَتَّبَعْنَاهُ كَذَلِكَ . فَإِنَّهُ يُفِيدُ الظَّنَّ بِجَوَازِ اَلتَّخَلُّفِ كَمَا فِي
اَلتَّنْسَاحِ . (وَالرَّابِعُ) قِيَاسُ اَلتَّشْبِيلِ وَهُوَ إِثْبَاتُ حُكْمٍ فِي جُزْئِيٍّ
لِثْبُوتِهِ فِي جُزْئِيٍّ آخَرَ لِمَعْنَى مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا مُؤَثِّرٍ فِي ذَلِكَ اَلْحُكْمِ
كَقَوْلِكَ: اَلْعَالَمُ مُؤَلَّفٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ كَالْمَدِينَةِ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا مُرَكَّبٌ
مِنْ أَجْزَاءٍ وَهُوَ يُقَسَّمُ إِلَى تَشْبِيلٍ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ اَلْيَقِينَ وَإِلَى غَيْرِ
قَطْعِيٍّ يُفِيدُ الظَّنَّ
أَمَّا أَنْوَاعُ اَلْقِيَاسِ فَخَمْسَةٌ . (أَحَدُهَا) اَلْقِيَاسُ اَلْبُرْهَانِيُّ وَهُوَ

مَا رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينَةٍ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ إِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلٌ
 الْعِلْمِ . (وَالثَّانِي) الْجَدِيُّ وَهُوَ مَا رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ
 يُسَلِّمُ بِهَا الْخَصْمُ وَلَا يَقْوَى عَلَى انْكَارِهَا لِشُهْرَتِهَا بَيْنَ الْجُمْهُورِ
 نَحْوُ : الْعَالَمُ مُتَعَيِّرٌ فَهُوَ مُحَدَّثٌ . (وَالثَّالِثُ) الْخَطَائِيُّ وَهُوَ مَا
 رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يَرَادُ بِهَا تَرْغِيبُ السَّامِعِ أَوْ تَرْهِيْبُهُ نَحْوُ :
 الصَّلَاةُ بَرٌّ فَهِيَ مَجْنَاءٌ لِلْإِنْسَانِ . وَانْهَاهَا مَعْصِيَةٌ فَهُوَ مُمْلِكٌ .
 (وَالرَّابِعُ) الشَّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مُحْيِلَةٍ تُوْزَعُ
 فِي النَّفْسِ بَسْطًا أَوْ قَبْضًا صَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ : الْحُمْرُ
 قُرْمَزِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فَهِيَ تَبْهِيحُ النَّظَرَ أَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُهَوَّعَةٌ فَهِيَ مُتْرَجِّعٌ
 النَّفْسَ . (وَالخَامِسُ) الْمَلْطَطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ كَاذِبَةٍ
 شَدِيدَةٍ بِالصَّادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُنَجٍ الْأَسَدِ : هَذَا أَسَدٌ فَهُوَ يَرَارُ .
 وَالْعَمْدَةُ فِي الْخُطَابَةِ عَلَى الْبُرْهَانِ الْخَطَائِيِّ أَيْ ذِي الْمَقَدَّمَاتِ الْمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري

والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ إِنَّ الْأَقَاوِيلَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِنْبَاتُ وَالْإِبْطَالُ كَمَا
 إِنَّهَا فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا الْأِسْتِقْرَاءُ وَمَا يُضْنُّ بِهِ أَنَّهُ

اِسْتِقْرَاءَ وَالصَّنْفُ الثَّانِي الْقِيَاسُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ كَذَلِكَ
 الْأَقْوَالُ الْمَثَلَةُ فِي الصَّنَاعَةِ وَالْمُبْطَلَةُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا شَبِيهُ بِالْاِسْتِقْرَاءِ
 وَهُوَ الْمِثَالُ وَالْآخَرُ شَبِيهُ بِالْقِيَاسِ وَهُوَ الضَّمِيرُ وَالضَّمِيرُ الَّذِي
 يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ضَمِيرٌ وَلَيْسَ بِضَمِيرٍ يُشَبِّهُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ هُنَاكَ أَنَّهُ
 قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ. وَكَذَلِكَ الْمِثَالُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مِثَالٌ
 وَلَيْسَ بِمِثَالٍ يُشَبِّهُ الْاِسْتِقْرَاءَ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ اِسْتِقْرَاءٌ وَلَيْسَ
 بِاِسْتِقْرَاءٍ. فَالضَّمِيرُ هُوَ الْقِيَاسُ الْخَطِيئُ وَالْمِثَالُ هُوَ الْاِسْتِقْرَاءُ الْخَطِيئُ.
 وَالْخَطَاءُ إِذَا تَوَمَّلَ أَمْرُهُمْ ظَهَرَ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ جَمِيعَ التَّضَدِّقَاتِ
 الَّتِي تَكُونُ بِالْقَوْلِ يَهْدِيَنِ الصَّنَفَيْنِ أَعْنَى أَمَّا بِالْمِثَالِ وَأَمَّا بِالضَّمِيرِ.
 وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَوْمُونَ بِفَعْلِهِمْ هَذَا أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالْاِسْتِقْرَاءِ وَالْقِيَاسِ.
 وَالَّذِي يَفْعَلُونَ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا يَفْعَلُونَهُ بِمَا هُوَ مِثَالٌ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْ
 بِمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ كَذَلِكَ وَتَبَيَّنَ فِي كِتَابِ الْقِيَاسِ أَنَّ كُلَّ تَضَدِّقٍ
 فَإِنَّهُ يَكُونُ بِالْقِيَاسِ وَأَنَّ الْاِسْتِقْرَاءَ وَالْمِثَالِ إِنَّمَا يُفِيدَانِ
 التَّضَدِّقَ بِمَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ الْقِيَاسِ. فَأَمَّا مَا هُوَ الْقِيَاسُ وَمَا الْقُصْلُ
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْاِبْرَهَانِ فَقَدْ قِيلَ فِي كِتَابِ الْجَدَلِ وَقَدْ تَبَيَّنَ هُنَاكَ
 أَيْضًا الْفَرْقُ بَيْنَ الْقِيَاسِ وَالْاِسْتِقْرَاءِ وَالْاِسْتِقْرَاءِ وَالْمِثَالِ يَشْتَرِكَانِ
 فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا يُشْتَبَانِ أَنَّ هَذَا الشَّيْءَ، وَجُودٌ كَذَا أَوْ غَيْرُ وَجُودٍ كَذَا
 مِنْ أَجْلِ وَجُودِ ذَلِكَ الشَّيْءِ أَوْ لَا وَجُودِهِ فِي شَبِيهِهِ. وَالضَّمِيرُ
 وَالْقِيَاسُ يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا قَوْلٌ يُوَضَّعُ فِيهِ شَيْءٌ فَيَلْزَمُ عَنْهُ
 شَيْءٌ آخَرُ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ

هَذَيْنِ الْجَنَسَيْنِ مِنَ الْقَوْلِ نَوْعًا خُطِيًّا وَنَوْعًا جَدِيًّا وَنَوْعًا بُرْهَانِيًّا وَنَوْعًا سُوفِسْطَائِيًّا. فَإِنَّهُ كَمَا يُوجَدُ الْأَسْتِقْرَاءُ وَالْقِيَاسُ فِي هَذِهِ الصَّنَائِعِ كَذَلِكَ يُوجَدُ فِي الْخُطَابَةِ الْمِثَالُ وَالضَّمِيرُ وَإِنَّمَا يُخْتَلَفُ فِي هَذِهِ الصَّنَائِعِ بِجِهَةِ الْأَسْتِعْمَالِ أَدْنَى فِي صِنَاعَةِ الدُّرْهَانِ وَصِنَاعَةِ الْجَدَلِ. وَالْقِيَاسُ فِي الْجَدَلِ أَوْثَقُ مِنَ الْأَسْتِقْرَاءِ وَالْمِثَالِ فِي الْخُطَابَةِ أَقْنَعُ مِنَ الضَّمِيرِ لِأَنَّ الضَّمِيرَ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ أَكْثَرَ مِنْ تَطَرُّقِهِ إِلَى الْمِثَالِ وَسَبَبُ هَذَا سَخِيخٌ بِهِ فِيمَا بَعْدَ وَكَذَلِكَ كَيْفَ نَسْتَعْمِلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ. فَأَمَّا الْآنَ فَيَنْبَغِي أَنْ نَحْدِدَ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ مِنَ الْأَقْنَاعِ أَدْنَى الضَّمِيرِ وَالْمِثَالِ فَقُولُ :

إِنَّ الْقَوْلَ الْمُفْنَعُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُفْنَعًا لِوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ لِمَجْمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ لِأَكْثَرِ النَّاسِ. وَأَيْضًا مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ فِي أَمْرِ كُلِّيٍّ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ فِي أَمْرِ جُزْئِيٍّ. وَكِلَا هَذَيْنِ مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بَيِّنًا بِنَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ. وَالَّذِي يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ فِي الْجُزْئِيَّاتِ ضَرْبَانِ (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ : إِنَّ كَذَا إِثْمًا هُوَ كَذَا لِلْمَوْضِعِ كَذَا. مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ : إِنَّ شَرَابَ السَّكَّاجِينَ يَنْفَعُ فَلَنَا لِأَنَّهُ مَحْمُومٌ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسَمَّى الضَّمِيرَ. (وَالضَّرْبُ الثَّانِي) أَنْ يَقُولَ : إِنَّ كَذَا إِثْمًا كَانَ كَذَا لِأَنَّهُ مِثْلُ كَذَا. مِثْلُ أَنْ يَقُولَ : إِنَّ فَلَانًا يَنْتَفِعُ بِشَرَابِ لَسَّكَّاجِينَ لِأَنَّ فَلَانًا اتَّفَعَ بِهِ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسَمَّى الْمِثَالِ. وَالْمُفْنَعَاتُ الَّتِي هِيَ مُفْنَعَةٌ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ فَلَيْسَ تَسْتَعْمِلُهَا

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ لِأَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُتَّاهٍ وَغَيْرُ مَعْلُومٍ عِنْدَ الْمُسْتَعْمِلِ
لَهَا وَإِذَلِكَ لَيْسَتْ تَسْتَعْمِلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنَ الْمَقَدَّمَاتِ الْمَحْمُودَةِ
أَعْنِي الْمَقْبُولَةَ مَا كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ . وَتِلْكَ هِيَ
الْأَرَاءُ الْخَادِثَةُ لِلنَّاسِ عِنْدَ الشَّوْقِ وَالْهَوَى بَلْ إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ
الْمَحْمُودَةُ عِنْدَ الْأَكْثَرِ أَوْ الْجَمِيعِ عَلَى مِثْلِ مَا تَسْتَعْمِلُ صِنَاعَةُ
الْجَدَلِ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا قَالَتُ يَتَرَقُّ بِهِ الْقِيَاسُ
الْمُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ وَفِي صِنَاعَةِ الْبُرْهَانِ مِنَ الضَّمِيرِ الْمُسْتَعْمَلِ
فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَنَّ الْقِيَاسَ يَرْتَبُ التَّرْتِيبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْقَوْلُ
مُتَّبِجًا بِالضَّرُورَةِ . وَأَمَّا الضَّمِيرُ فَإِنَّهُ تَرْتَبُ مُقَدَّمَاتُهُ التَّرْتِيبَ الَّذِي
هُوَ مُعْتَادٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ أَنْ يُقْبَلَ . وَذَلِكَ هُوَ بِخِلَافِ التَّرْتِيبِ
الصَّنَاعِيِّ فَإِنَّ النَّاسَ يَسْتَرِيضُونَ بِالْقَوْلِ اللَّازِمِ عَنِ الْقَوْلِ الصَّنَاعِيِّ
وَيَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا لَزِمَ مِنْ جِهَةِ الصِّنَاعَةِ لَا مِنْ جِهَةِ الْأَمْرِ فِي
نَفْسِهِ . وَإَيْضًا فَإِنَّ التَّرْتِيبَ الصَّنَاعِيَّ يَفْتَضِي أَنْ يُصْرَحَ فِيهِ بِجَمِيعِ
الْمَقَدَّمَاتِ الضَّرُورِيَّةِ فِي بَيَانِ ذَلِكَ الْمَطْلُوبِ وَالْجُمْهُورُ لَا
يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْهَمُوا الزُّومَ النَّاتِجَ الْبَاقِي تَلَزَمَ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ كَثِيرَةٍ .
وَإَيْضًا فَلَنَهُمْ لَا يُبَاعِدُونَ بَيْنَ النَّاتِجَةِ وَالشَّيْءِ الَّذِي تَلَزَمَ عَنْهُ النَّاتِجَةُ
أَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يَصْرِحُونَ فِي الْقَائِلِ بِالْمَقَدَّمَتَيْنِ جَمِيعًا مَعَ النَّاتِجَةِ
بَلْ إِنَّمَا يَأْتُونَ بِمُقَدِّمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُرَدُّونَهَا بِالنَّاتِجَةِ . وَمِثْلُ أَنَّهُمْ
يَقُولُونَ : هَذَا يَدُورُ بِاللَّيْلِ فَهُوَ لَصٌّ . وَلَا يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ يَدُورُ
بِاللَّيْلِ فَهُوَ لَصٌّ وَهِيَ الْمَقَدَّمَةُ الْكُبْرَى . وَإَيْضًا فَلَنْ الضَّمَايِرَ لَمَّا

كَانَتْ تُضَعُّ فِي الْأَمْرِ فِي الْأُمُورِ الْمُسْكِنَةِ وَذَلِكَ بَيْنَ فِي
 الْأُمُورِ الْمُسَاوَرَةِ فَلَا تَهْلِكُ لَيْسَ يَشِيرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ بِأَمْرٍ ضَرُورِيٍّ
 الْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعٍ الْوُجُودِ وَكَانَتْ الْمَقْدَمَةُ الْكُبْرَى فِي أَمْثَالِ
 هَذِهِ الْمَوَادِّ كَاذِبَةٌ بِالْجُزْءِ لَمْ يُصَرِّحُوا بِهَا فِي الْمَقَاسِ الْآتِي
 يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لِئَلَّا يُنْطَنَ لِكُذِبِهَا . وَآيْضًا فَلَمَّا كَانَتْ
 الْمَقَاسِ الْخَيْرُ الْخَيْرُ الصَّنَاعَةِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ إِنَّمَا هِيَ أَحَدُ صِنْفَيْنِ إِنَّمَا
 الْمَقَاسِ الْآتِي تُؤَلَّفُ مِنَ الْمَقَدَّمَاتِ الْآتِيَةِ إِقْبَاعُهَا بِنَفْسِهِ وَإِنَّمَا مِنْ
 مُقَدَّمَاتٍ تَبَيَّنَ مُقَدَّمَاتُهَا بِمَقَدَّمَاتٍ أُخَرُ خُطِّطُهَا وَالْأَمْرُ لَا يَبَيَّنُ
 حَمْدُهَا . فَقَدْ يَلْحَقُ ضَرُورَةً فِي هَذَا الصَّنْفِ الثَّانِي أَنْ يَعْسُرَ تَأْلِيفُ
 الْمَقَدَّمَاتِ وَتَرْتِيبُهَا التَّرْتِيبَ الصَّاعِي لِمَكَانِ كَثْرَةِ الْمَقَدَّمَاتِ وَطُولِ
 الزَّمَانِ الَّذِي يُصَرِّحُ فِيهِ بِجَمِيعِهَا وَتَرْتِيبُ تَرْتِيبًا صَّاعِيًا وَذَلِكَ الشَّيْءُ
 لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ الْحُكَّامُ بَلْ يَحْمِلُونَ التَّكْلِمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَنْ يَكُونَ
 كَلَامُهُ بَسِيطًا غَيْرَ مُتَكَلِّفٍ فِيهِ صَنْعَةٌ عَلَى الْجُمْهُورِ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ
 مَتَى كَانَ الْكَلَامُ لَيْسَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ كَانَ غَيْرَ مُنْعٍ . وَذَلِكَ
 فِي الْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكُونُ فِيهِمَا الْإِقْتِنَاعُ أَغْنِي فِي أَنْ الشَّيْءُ مَوْجُودٌ
 أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ وَفِي أَنَّهُ إِذَا وَجَدَ مُحَمَّدٌ أَوْ غَيْرُ مُحَمَّدٍ . وَكَذَلِكَ
 إِذَا اسْتَعْمِلَ التَّصَدِيقُ بِطَرِيقِ اخْتِذِ الْأَشْيَاءِ فَاسْتَقْصِي وَجْعَلْ عَلَى
 طَرِيقِ الْإِسْتِقْرَاءِ عَرْضَ الْعُسْرِ الَّذِي وَصَفْنَاهُ مِنْ الطُّولِ وَالْكَثْرَةِ .
 وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَادْنِ الْقِيَاسُ الْخَطِيئُ وَهُوَ الضَّيْرُ وَالْأَمْثَالُ إِنَّمَا
 يَكُونَانِ فِي الْأَشْيَاءِ الْآتِيَةِ يَكُونُ فِيهَا الْقِيَاسُ وَالْإِسْتِقْرَاءُ بِإِطْلَاقٍ وَتِلْكَ

الْأَشْيَاءَ مَأْخُودَةٌ بِحَالٍ غَيْرِ الْحَالِ الَّتِي أُخِذَتْ بِهَا فِي الْقِيَاسِ
وَالِاسْتِقْرَاءِ. فَإِذَا اسْتُعْمِلَتْ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ بِالْحَالِ الَّتِي بُرِينَ فِي
كِتَابِ الْقِيَاسِ عَادَ الْمِثَالُ اسْتِقْرَاءً وَالضَّمِيرُ قِيَاسًا. وَإِذَا أُخِذَتْ
بِهَذِهِ الْحَالِ الَّتِي ذَكَرْنَا عَادَ الْاسْتِقْرَاءُ مِثَالًا وَالْقِيَاسُ ضَمِيرًا.
وَتِلْكَ الْحَالُ هِيَ اخْتِزَامُ الْقِيَاسِ وَالْإِعْتِبَارُ بِمُقَدَّمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجِدَةٍ
فَإِنَّ الْإِفْتِنَاعَ إِنَّمَا يَكُونُ أَكْثَرَ ذَلِكَ بِالْمُقَدَّمَاتِ الَّتِي هِيَ فِي
غَايَةِ الظُّهُورِ وَحَذْفِ مَا خَفِيَ مِنْهَا وَإِذَا كَانَ الْخُجُودُ فِي
هَذِهِ الصَّاعَةِ أَنْ يُحْذَفَ اللَّازِمُ عَنْهُ وَيُؤْتَى بِالشَّيْءِ الَّذِي يَلْزَمُ
إِذَا أُخْبِرَ بِاللَّازِمِ وَالْمُزْمَعِ فَكَأَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ الشَّيْءَ مَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ
هَذَا فِي بَادِي الرَّأْيِ. وَعَلَى هَذَا فَلَا يُصْرَحُ بِالْحَدِّ الْأَوْسَطِ فِي
الْقِيَاسِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا فِي الْإِعْتِبَارِ إِلَّا بِشَيْءٍ وَاحِدٍ فَيَكُونُ
الْقِيَاسُ ضَرُورَةً ضَمِيرًا أَيْ مُحْذُوفًا إِحْدَى مُقَدَّمَتَيْهِ وَهَذَا سَمِيَّ ضَمِيرًا
إِذْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا مُضْمَرَةً وَيَكُونُ الْاسْتِقْرَاءُ ضَرُورَةً تَمَثِيلًا

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطيئة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَمُقَدَّمَاتُ الْقِيَاسَاتِ الْخَطِيئَةِ قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً وَذَلِكَ
فِي الْأَقْلِ وَتَكُونُ مُمَكِّنَةً وَذَلِكَ فِي الْأَكْثَرِ لِأَنَّ أَكْثَرَ النَّحْصِ
الْجَهْلِيَّ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِحَالٍ وَيُمْكِنُ إِلَّا يَكُونُ

بِتِلْكَ الْحَالِ . وَذَلِكَ بَيِّنٌ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُشَارُ بِهَا وَذَلِكَ أَنَّهَا كُلُّهَا
أُمُورٌ مَفْعُولَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا ضَرُورِيَّةُ الوجودِ وَلَا مُتَمَتِّعَةُ الوجودِ .
وَالْتَبَاحُ الضَّرُورِيَّةُ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِالذَّاتِ عَنْ مُقَدَّمَاتِ ضَرُورِيَّةٍ
وَالْمُكِنَّةِ عَنْ مُقَدَّمَاتِ مُمَكِّنَةٍ . وَالضَّمَاوِرُ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَنْ مُقَدَّمَاتِ
مَحْمُودَةٍ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مِنَ الدَّلَائِلِ . وَأَعْنِي بِالْمُقَدَّمَاتِ الْحَمْدُودَةِ
الَّتِي لَيْسَتْ دَلَائِلَ . مِثْلُ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُشْكَرَ الْمُنْعَمُ وَأَنْ يُسَاءَ
إِلَى الْمُسِيءِ . . وَأَعْنِي بِالْأَدَلِّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى وجودِ شَيْءٍ
لِشَيْءٍ . وَهَذَانِ الصَّنِفَانِ مِنَ الْمُقَدَّمَاتِ يُوجَدَانِ فِي أَلْوَادِ الضَّرُورِيَّةِ
وَالْمُكِنَّةِ أَغْنِي الْحَمْدُودَاتِ وَالْأَدَلِّ . وَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي الْمُكِنَّةِ
عَلَى الْأَكْثَرِ قَطُّ بَلْ وَفِي الْمُكِنَّةِ عَلَى التَّسَاوِي . وَهِيَ الَّتِي
نَسَبَتْهَا إِلَى الْمُقَدَّمَاتِ الْمُكِنَّةِ عَلَى الْأَكْثَرِ نِسْبَةً الَّتِي عَلَى الْأَكْثَرِ
إِلَى الضَّرُورِيِّ وَهِيَ نِسْبَةُ الْكُلِّ مِنَ الْبَعْضِ وَذَلِكَ أَنَّ الصِّدْقَ
فِي الضَّرُورِيَّةِ أَعْمُ مِنَ الصِّدْقِ فِي الْمُكِنَّةِ عَلَى الْأَكْثَرِ إِذَا
كَانَتِ الضَّرُورِيَّةُ تُوجَدُ لِكُلِّ الْمَوْضُوعِ وَالْمُكِنَّةُ عَلَى الْأَكْثَرِ لَا
تُوجَدُ لِكُلِّهِ . وَكَذَلِكَ نِسْبَةُ الْمُكِنَّةِ عَلَى التَّسَاوِي إِلَى الْمُكِنَّةِ
عَلَى الْأَكْثَرِ هِيَ هَذِهِ النِّسْبَةُ أَغْنِي أَنَّ الْمُكِنَّةَ عَلَى الْأَكْثَرِ
تَصْدُقُ مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا تَصْدُقُ الْمُكِنَّةُ عَلَى
التَّسَاوِي . وَالْأَدَلِّ الْمَأْخُودَةُ حَدًّا أَوْسَطَ مِنْهَا مَا هُوَ أَعْمُ مِنَ
الْطَّرَفِ الْأَصْغَرِ وَأَخْصُ مِنَ الْأَكْبَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ أَعْمُ مِنَ
الْطَّرَفَيْنِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ أَخْصُ مِنْهُمَا . أَمَّا الَّذِي هُوَ أَعْمُ مِنَ الطَّرَفِ

الْأَصْغَرِ وَأَخْصُ مِنَ الْأَكْبَرِ فَإِنَّهُ يَأْتِلِفُ ضُرُورَةً فِي الشَّكْلِ
الْأَوَّلِ. وَإِذَا كَانَ فِي الْمَادَّةِ الْمُسَكَّكِ عَلَى الْأَكْثَرِ فَهُوَ الَّذِي
يَعْرِفُهُ الْقَدَمَاءُ بِالْأَشْبَةِ. وَمِثَالُهُ فِي الْمَادَّةِ الضَّرُورِيَّةِ: هَذِهِ أُنْتَى الْحَيَوَانِ
لَهَا لَبَنٌ فِيهَا قَدْ وَلَدَتْ. وَفِي الْمُسَكَّكِ عَلَى الْأَكْثَرِ. فَلَانٌ يُعَدُّ
السِّلَاحَ وَيَجْمَعُ الرِّجَالَ وَلَيْسَ قُرْبَهُ عَدُوٌّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْصِيَ الْمَلِكَ.
وَمِثَالُ الْمُسَكَّكِ عَلَى التَّسَاوِي: فَلَانٌ قَدْ تَعَبَ وَالْمَتْعُوبُ مَحْمُومٌ
فَلَانٌ مَحْمُومٌ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعْرَفُ بِالْمَشَبِّهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ أَعْمُ
مِنَ الطَّرَفَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْتِلِفُ فِي الشَّكْلِ الثَّانِي إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُتَّبَعٍ إِلَّا
فِي بَادِي الرَّأْيِ. مِثَالُ ذَلِكَ فِي الْمَادَّةِ الْمُسَكَّكِ عَلَى الْأَكْثَرِ
قَوْلُ الْقَائِلِ: سُقْرَاطُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا وَالْمَحْمُومُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا قُسْطَرَا
مَحْمُومٌ. فَهَاتَانِ الْمَقْدَمَتَانِ صَادِقَتَانِ وَالتَّسْجِةُ قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً إِذَا
قَدْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ تَنَفَّسُ سُقْرَاطُ مُتَوَاتِرًا لِمَوْضِعِ إِحْضَارِهِ.
وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ خَافِيًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِذَا رَأَوْا فِي أَمْثَالِ هَذِهِ
الْمَقْدَمَاتِ الصَّادِقَةَ أَنَّهَا تَنْتِجُ كَذِبًا ظَنُّوا لِذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ انْطَرَى فِيهَا
كَذِبٌ فَيَرُومُونَ أَنْ يُعَانِدُوا الْمَقْدَمَاتِ فَيَعْسُرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَكَانِ
صِدْقِهَا فَيَتَحَيَّرُونَ لِذَلِكَ. وَأَمَّا الَّتِي هِيَ أَخْصُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ فَتَنْتِجُ فِي
الشَّكْلِ الثَّلَاثِ جُزْئِيًا لَا كُلِّيًّا لَكِنْ تُوَحَّدُ تَبَيُّحًا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
كُلِّيَّةً. مِثَالُ ذَلِكَ فِي الْمَادَّةِ الضَّرُورِيَّةِ قَوْلُ الْقَائِلِ: الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا
فِي كُرَّةِ الْعَالَمِ وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي الزَّمَانِ قَالِ زَمَانُ كُرَّةِ الْعَالَمِ. وَفِي
الْمُسَكَّكِ قَوْلُ الْقَائِلِ: الْحُكَمَاءُ عُدُولٌ لِأَنَّ سُقْرَاطَ حَكِيمٌ وَعَدْلٌ.

وَالدَّلَائِلُ الَّتِي تَكُونُ فِي الشَّكْلِ الثَّلَاثِ وَالثَّانِي يُخَصُّ بِاسْمِ
 الْعَلَامَةِ وَمَا كَانَ مِنْهَا فِي الشَّكْلِ الْأَوَّلِ يُخَصُّ بِاسْمِ الدَّلِيلِ .
 وَالَّذِي فِي الشَّكْلِ الثَّانِي هُوَ أَخَصُّ بِاسْمِ الْعَلَامَةِ مِنَ الثَّلَاثِ
 كَمَا أَنَّهُ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْمُنَكَّةِ الْأَكْثَرِيَّةِ يُخَصُّ بِاسْمِ
 الْأَشْبِهِ وَإِنْ كَانَ فِي الْمُنَكَّةِ عَلَى السَّوَاوِي خُصٌّ بِاسْمِ الضَّمِيرِ
 الْمُسْتَشَبِّهِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ مَا هِيَ الْخُشُودَاتُ وَالِدَّلَائِلُ
 وَالْعَلَامَاتُ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا . لَكِنَّ الَّذِي تَبَيَّنَ مِنَ الْأَقَاوِيلِ
 الْقِيَاسِيَّةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي كِتَابِ الْقِيَاسِ فَإِنَّهُ هُنَاكَ تَبَيَّنَ مَا
 هُوَ الْقِيَاسُ وَكَمْ أَجْنَاسُ الْأَقَاوِيلِ الْقِيَاسِيَّةِ وَتَبَيَّنَ فِي جِنْسٍ جِنْسٍ
 وَهِيَ مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا لَيْسَ بِقِيَاسٍ . وَأَمَّا (الْمِثَالُ) فَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا تَقَدَّمَ
 أَنَّهُ اسْتِقْرَاءٌ مَا لَيْكُنْ يُبَيِّنُ الْأَسْتِقْرَاءَ بِأَنَّهُ لَيْسَ يُصَادَرُ فِيهِ لَا مِنْ
 الْجُزْئِيِّ إِلَى بَيَانِ الْأَمْرِ الْكُلِّيِّ كَمَا يُصَادَرُ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِ
 الْأَسْتِقْرَاءِ وَلَا مِنْ الْكُلِّيِّ إِلَى الْجُزْئِيِّ كَمَا قَدْ يُصَادَرُ فِي
 بَعْضِ أَنْوَاعِ الْأَسْتِقْرَاءِ . وَذَلِكَ إِذَا بَيَّنَّا بِالْكُلِّيِّ الَّذِي اثْبَتْنَاهُ
 بِالْأَسْتِقْرَاءِ جُزْئِيًّا آخَرَ غَيْرَ الْجُزْئِيَّاتِ الَّتِي اثْبَتْنَاهَا بِالْكُلِّيِّ بِأَسْتِقْرَاءِهَا
 وَيُؤَافِقُهُ فِي أَنَّهُ يَصِيرُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ لِاجْتِمَاعِهِمَا فِي أَمْرِ
 كُلِّيٍّ . وَذَلِكَ إِذَا جَمَعْنَا فِي الْأَسْتِقْرَاءِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا أَعْنِي أَنَّ نَصِيرَ فِيهِ
 مِنَ الْجُزْئِيِّ إِلَى الْكُلِّيِّ ثُمَّ مِنَ الْكُلِّيِّ إِلَى جُزْئِيٍّ آخَرَ فَإِنَّا
 فِي هَذَا الْفِعْلِ قَدْ صِرْنَا مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ يَتَوَسَّطُ الْكُلِّيُّ
 كَالْحَالِ فِي الْمِثَالِ فَإِنَّ الْمِثَالَ إِنَّمَا يَصِيرُ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ

لأَشْتَرَاكِهِمَا فِي أَمْرِ كُلِّي إِذَا كَانَ الْحُكْمُ الْمَقُولُ مِنْ أَحَدِهِمَا
إِلَى الْآخَرِ مَوْجُودًا لِلْجُزْئِي الْأَعْرَفِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْكُلِّي أَوْ
يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ وَإِلَّا لَمْ تَصِحَّ النَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِي إِلَى
جُزْئِي آعِنِي إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ كُلِّي وَكَانَ وُجُودُ ذَلِكَ الْحُكْمِ
مِنْ أَجْلِهِ لِلْجُزْئِي الْأَعْرَفِ. وَمِثَالُ مَا يَعْرِضُ مِنْ هَذَا فِي الْأَسْتِقْرَاءِ
آعِنِي إِذَا كَانَتْ النَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِي إِلَى جُزْئِي بِتَوَسُّطِ النَّقْلَةِ إِلَى
الْكُلِّي قَوْلُ مَنْ قَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنْ فُلَانًا طَلَبَ أَنْ يَكُونَ مِنْ
جُمْلَةِ الْعَسَسِ وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ عَدُوِّكَ فَلَا تُبَيِّحْ لَهُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُرِيدُ
أَنْ يَفْتِكَ بِالْمَلِكِ لِأَنَّ فُلَانًا طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ فُلَانٍ الْمَلِكِ وَفُلَانًا مِنْ
فُلَانٍ الْمَلِكِ لَا قَوَامَ يُعَيِّدُهُمْ فَفَتَّكُوا بِمَوَاقِفِهِمْ. فَإِنَّ قَائِلَ هَذَا
الْقَوْلِ قَدْ جَعَلَ النَّقْلَةَ فِيهِ مِنْ جُزْئِي إِلَى جُزْئِي بِتَوَسُّطِ الْكُلِّي
الَّذِي هُوَ: إِنْ كُلٌّ مِنْ طَلَبَ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْحَرْسِ مِمَّنْ كَانَ فِي
جُمْلَةِ عَدُوِّ الْمَلِكِ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِهِ. إِلَّا إِنْ هَذَا الْكُلِّي الَّذِي
أَرْتَمَ فِي النَّفْسِ بِالْقُوَّةِ وَإِنْ لَمْ يُصْرَحْ بِهِ يَسْتَعْمِلُ النَّقْلَةَ مِنْ
جُزْئِي إِلَى جُزْئِي إِذَا كَانَتْ النَّقْلَةُ إِلَيْهِ فِي الدِّهْنِ مِنْ أَكْثَرِ
الْجَرَنِيَّاتِ كَانَ اسْتِقْرَاءً وَإِنْ كَانَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ مِنْ الْأَقْلِ
كَانَ تَمْثِيلًا. (قَالَ) فَأَمَّا الْقَوْلُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا مِثَالَاتُ
فَقَدْ يُكْتَفَى هَاهُنَا بِهَذَا الْقَدْرِ الْمُعْطَى مِنْهَا

وَأَمَّا الْقَوْلُ فِي فُضُولِ الصَّمَايِرِ مِنْ جِهَةِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا
تَعْمَلُ فَإِنَّ الْقَوْلَ فِيهَا غَاوِضٌ وَخَفِيٌّ وَهُوَ عَظِيمُ الْقَاءِ فِيهَا نَفْصُهُ

هَاهُنَا . وَسَبَبُ مُعْوَغِهِ أَنَّ الصَّمَاوِيَّاتِ تَكُونُ فِي جَمِيعِ الْمَقُولَاتِ
 الْأَشْرَكَ كَمَا تَكُونُ الْقِيَاسَاتُ الْجَدِيدَةُ لَكِنَّ مِنَ الصَّمَاوِيَّاتِ مَا يَكُونُ فِي
 الْمَوَادِّ آتِي فِي الصَّنَائِعِ . مِثْلَ الصَّمَاوِيَّاتِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي الْأُمُورِ
 الْكُلِّيَّةِ وَالْخُرُوجِيَّةِ فِي صِنَاعَةِ الطِّبِّ وَغَيْرِهَا مِنَ الصَّنَائِعِ . وَهَذِهِ
 فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي هَذِهِ الصَّنَائِعِ عَلَى نَحْوِ اسْتِعْمَالِ الْبَرَاهِينِ فِي
 تِلْكَ الصِّنَاعَةِ لَا عَلَى مَا يَسْتَعْمَلُهَا الْخَطِيبُ فِي الْمَادَّةِ الَّتِي تُحْصَى
 الْخُطَابَةُ مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا جُزْءًا مِنْ خُطْبَةٍ . وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي
 تَكُونُ بِهَا الْأَقَاوِيلُ الْخُطْبِيَّةُ أَتَمَّ فِعْلًا وَأَنْفَذَ بِمَا يُذَكَّرُ بَعْدُ . وَمِنْ
 الصَّمَاوِيَّاتِ مَا يَكُونُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تُحْصَى هَذِهِ الصِّنَاعَةُ بِحَسَبِ مَا
 تَبَيَّنَ مِنْ مَنَافِعِهَا وَهِيَ الْأُمُورُ الْإِرَادِيَّةُ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ
 تُسْتَعْمَلَ عَلَى جِهَةٍ مَا يَسْتَعْمَلُ الْخُطْبَاءُ الْأَقَاوِيلَ الْخُطْبِيَّةَ . وَمِنْ هَذِهِ
 الْأَشْيَاءِ يَنْبَغِي أَنْ تُعَدَّ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي هِيَ فُضُولُ
 الصَّمَاوِيَّاتِ لَا مِنْ تِلْكَ الْمَوَادِّ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهَا صِنَاعَةُ صِنَاعَةٍ



الفصل السابع

في التنفيذ

البحث الأول

في المناظرة والمجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث للسمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

الْمُنَاطَرَةُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ إِثْبَاتِ الْمَطْلُوبِ وَنَفْيِهِ أَوْ نَفْيِ دَلِيلِهِ مَعَ الْخُفْمِ. وَالْآدَابُ الطُّرُقُ. وَمَوْضُوعُ هَذَا الْعِلْمِ الْآدِلَةُ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا يُثَبَّتُ بِهَا الْمَدْعَى عَلَى الْغَيْرِ. وَمَبَادِئُهُ أُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا. وَالْعَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَتِ طُرُقِ الْمُنَاطَرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ الْخَبْطُ فِي الْبَحْثِ فَيُتَضَخَّ الصَّوَابُ. وَتُطْلَقُ الْمُنَاطَرَةُ أَيْضًا فِي أَصْطِلَاحِ أَهْلِ هَذَا الْعِلْمِ عَلَى النَّظَرِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ فِي النَّسَبَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ. وَقِيلَ أَيْضًا هِيَ تَوَجُّهُ الْخَصْمَيْنِ فِي النَّسَبَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ أَيْ تَوَجُّهُ الْمُتَخَاجِرَيْنِ اللَّذَيْنِ مَطْلَبُ أَحَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ الْآخَرِ إِذَا تَوَجَّهَا فِي النَّسَبَةِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ التَّوَجُّهُ فِي النَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ الْأَشْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذَلِكَ إِظْهَارُ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ. وَالْمَسَائِلُ الْعِلْمِيَّةُ تَتَزَايَدُ يَوْمًا بِيَوْمٍ بِتَبْلَاحِ الْأَفْكَارِ

وَالْأَنْظَارِ فَلْتَقَاوَتْ مَرَاتِبُ الطَّبَائِعِ وَالْأَذْهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنَ
 الْعُلُومِ عَنْ تَصَادُمِ الْأَرَاءِ وَتَبَايُنِ الْأَفْكَارِ وَإِدَارَةِ الْكَلَامِ مِنْ
 الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ وَالرَّدِّ وَالْقَبُولِ إِلَّا أَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُعْتَبَرَةٍ مَشْرُوطٌ
 وَبِرِعَايَةِ الْأُصُولِ مَنْوُطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ . فَلَا بُدَّ
 مِنْ قَانُونٍ يُعَرِّفُ مَرَاتِبَ النِّجَاحِ عَلَى وَجْهِ يَتَمَيَّزُ بِهِ الْمَقْبُولُ عَنْهَا هَوَ
 مَرْدُودٌ وَتِلْكَ الْقَوَائِنُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ النِّجَاحِ

أَمَّا الْجِدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يَنْجُثُ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامِ
 وَنَقْشٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ النَّظَرِ وَمَبْنَى لِعِلْمِ الْخِلَافِ مَأْخُودٌ مِنْ
 الْجِدْلِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَجْزَاءِ مَبَاحِثِ الْمُنْطِقِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبَيَّنَةٌ
 فِي عِلْمِ النَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَابِيَّةٌ وَبَعْضُهَا أُمُورٌ عَادِيَّةٌ . وَلَهُ اسْتِمْدَادٌ مِنْ
 عِلْمِ الْمُنَاطَرَةِ الْمَشْهُورِ بِآدَابِ النِّجَاحِ . وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ الطَّرِيقُ وَالْفَرْصُ
 مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكََةِ النَّقْشِ وَالْإِبْرَامِ وَفَائِدَتُهُ كَثِيرَةٌ فِي الْأَحْكَامِ
 الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ الْإِزَامِ عَلَى الْمُخَافِينَ . وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ
 عِلْمَ الْجِدْلِ هُوَ عِلْمُ الْمُنَاطَرَةِ لِأَنَّ الْمَالَ وَنَهْمًا وَاحِدًا إِلَّا أَنَّ الْجِدْلَ
 أَحَصُّ مِنْهُ . وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ابْنِ خَلْدُونَ فِي الْمُقَدِّمَةِ حَيْثُ قَالَ :
 وَأَمَّا الْجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ الْمُنَاطَرَةِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ
 الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ الْمُنَاطَرَةِ فِي الرَّدِّ
 وَالْقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُنَاطِرِينَ فِي الْإِسْتِدْلَالِ وَالْجَوَابِ
 يُرْسِلُ عَنْهُ فِي الْإِخْتِجَاحِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ
 خَطَأً فَاحْتَاجَ الْآيَةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَآحْكَامًا يَقِفُ الْمُنَاطِرَانِ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ اَلْمُسْتَدِلِّ
وَالْحَاجِبِ وَحَيْثُ يَسُوعُ لَهُ اَنْ يَكُونَ مُسْتَدِلًّا وَكَيْفَ يَكُونُ
مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَحَلُّ اَعْتَرَاضِهِ اَوْ مُعَارَضَتِهِ وَاَيْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ
السُّكُوتُ وَلَحْظِهِ اَلْكَلَامُ وَالْاِسْتِدْلَالُ. وَلِذَلِكَ قِيلَ فِيهِ اَنَّهُ
مَعْرِفَةٌ بِالْقَوَاعِدِ مِنَ اَلْحُدُودِ وَالْاَدَابِ فِي اَلْاِسْتِدْلَالِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ
بِهَا اِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذَلِكَ الرَّأْيُ مِنْ اَلْفِقْهِ اَوْ غَيْرِهِ .
وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ اَلْبَزْدَوِيِّ اَلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠ م) وَهِيَ
خَاصَّةٌ بِالْاَدَلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النَّصِّ وَالْاِجْمَاعِ وَالْاِسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ
رُكْنِ الدِّينِ اَلْعَمِيدِيِّ اَلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي
كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ اَيِّ عِلْمٍ كَانَ. وَكَثُرَتْ اُسْتِدْلَالُهُ وَهُوَ
مِنَ الْمُنَاجِحِ اَلْحَسَنَةِ وَالْمُعَاطَاتِ فِيهِ فِي نَفْسِ الْاَمْرِ كَثِيرَةٌ وَاِذَا
اَعْتَبَرْنَا اَلنَّظَرَ اَلْمُنَظِقِيَّ كَانَ فِي اَلْغَالِبِ اَشْبَهَ بِالْقِيَاسِ اَلْمُعَاطِي
وَالسُّوْفِسْطَائِيِّ . اِلَّا اَنْ صَوَرَ اَلْاَدَلَّةُ وَالْاَقْيَسَةُ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةً
تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ اَلْاِسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهَذَا اَلْعَمِيدِيُّ هُوَ اَوَّلُ
مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ الطَّرِيقَةُ اِلَيْهِ وَوَضَعَ اَلْكِتَابَ اَلْمُسَمَّى
بِالْاِرْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ اَلْمُتَأَخِّرِينَ كَاللَّسْفِيِّ
اَلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى اَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ
وَكَثُرَتْ فِي الطَّرِيقَةِ اَلتَّالِيفُ وَهِيَ لِهَذَا اَلْعَهْدِ مَجْهُورَةٌ لِنَقْصِ الْعِلْمِ
وَالْتَّعْلِيمِ فِي اَلْاَمْصَارِ اَلْاِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب إجماع الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَخْصٍ أَوْ قَوْمٍ وَكَانَ إِرَادَتُكَ
فِيهَا أَنْ تَظْهَرَ الْحَقُّ وَلَا تُضَيِّعَ جَارَ لَكَ الْبَحْثُ. لَكِنْ لَيْتَكَ الْإِرَادَةُ
عَلَامَتَانِ أَحَدَاهُمَا أَنْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَنْ يَكْشِفَ الْحَقُّ عَلَى
لِسَانِكَ أَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيَهُمَا أَنْ يَكُونَ الْبَحْثُ فِي الْخَلَاءِ أَحَبَّ
إِلَيْكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَلَأِ وَأَسْمَعَ إِلَيَّ أَذْكَرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةٌ.
أَعْلَمُ أَنَّ السُّؤَالَ عَنِ الْمَشْكِلَاتِ عَرَضُ مَرَضٍ الْقَلْبِ إِلَى الطَّبِيبِ
وَالْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِإِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَأَعْلَمُ أَنَّ أَجَاهِلِينَ الْمَرَضِي
قُلُوبُهُمْ وَالْعُلَمَاءُ الْأَطِبَّاءُ. وَالْعَالِمُ النَّاقِصُ لَا يُجَسِّنُ الْمُعَالَجَةَ وَالْعَالِمُ
الْكَامِلُ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ الْمُعَالَجَةِ
وَالْإِصْلَاحِ وَإِذَا كَانَتِ الْعِلَّةُ مُزْمَنَةً أَوْ عَقِيمًا لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَحَذَافَةُ
الطَّبِيبِ فِيهِ أَنْ يَقُولَ: هَذَا لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِدَوَائِهِ
وَمُعَالَجَتِهِ لِأَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ الْعُمَرِ

أَعْلَمُ أَنَّ مَرَضَ أَجْهَلٍ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ أَحَدُهُمْ يَقْبَلُ
الْمُعَالَجَةَ وَالْبَاقِي لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ. وَأَمَّا الْمَرَضُ الَّذِي يَقْبَلُ الْعِلَاجَ

فَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُسْتَشِدًّا عَالِمًا عَاقِلًا فَهَمَا لَا يَكُونُ مَغْلُوبَ الْحَسَدِ
وَالنَّغْصِ وَحُبِّ الْجَاهِ وَالْأَمَالِ وَالشَّهْوَةِ وَيَكُونُ طَالِبَ الطَّرِيقِ
الْمُسْتَقِيمِ وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدٍ وَتَفَنُّتٍ وَامْتِحَانٍ
وَبَحْثٍ. وَهَذَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَيَجُوزُ أَنْ تَشْتَغِلَ بِجَوَابِ سُؤَالِهِ بَلْ يَجِبُ
عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ. أَمَّا الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ أَحَدُهُمْ مَنْ كَانَ سُؤَالُهُ
وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدِهِ وَبُغْضِهِ وَالْحَسَدُ لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ لِأَنَّهُ مِنْ
الْعِلَّةِ الْمُزْمَنَةِ فَكُلَّمَا تَحَبَّبَ بِأَحْسَنِ الْجَوَابِ وَأَفْصَحِهِ وَأَوْضَحِهِ لَا
يَزِيدُ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا غَيْظًا وَحَسَدًا فَالطَّرِيقُ أَنْ لَا تَشْتَغِلَ بِجَوَابِهِ:

كُلُّ الْعِدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِذَا كُنْتَهَا إِلَّا عِدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدٍ
فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ وَتَتْرَكَهُ مَعَ مَرْضِيهِ قَالَ: فَأَعْرِضْ
عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ وَالْدُنْيَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
فَتَرَدَّى وَالْحُسُودَ بِكُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ يُوقِدُ النَّارَ فِي رِزْقِ تَحْمِلِهِ
كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ
الْخُطْبَ. وَالثَّلَاثِي أَنْ يَكُونَ عِلَّةً مِنَ الْحِمَاقَةِ وَهُوَ أَيْضًا كَالْحُسُودِ
لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: (١) إِنِّي مَا عَجَزْتُ عَنْ
إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ مُعَالَجَةِ الْأَحْمَقِ وَذَلِكَ رَجُلٌ يَشْتَغِلُ
لِطَلَبِ الْعِلْمِ زَمَانًا قَلِيلًا وَيَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ الْعَقْلِيِّ وَالشَّرْعِيِّ
فَيَسْأَلُ وَيَعْتَزُّ مِنْ حَقِيقَتِهِ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَفْهَمُ عَلَى الْعِلْمِ الْكَبِيرِ

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره السجود لا في الانجيل ولا في

التقليد. ولا نعلم عمن رواه الغزالي

فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيِّ وَالشَّرْعِيِّ. وَهَذَا الْأَحَقُّ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا
 أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكَلٌ لِلْعَالِمِ الْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هَذَا
 الْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَأَعْتَرَاؤُهُ مِنَ الْحِمَاقَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُشْتَغَلَ
 بِجَوَابِهِ. وَالثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلُ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ
 كَلَامِ الْأَكْبَابِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونُ سُؤَالُهُ لِلِاسْتِفَادَةِ لَكِنْ
 يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ الْحَقِّقَ فَلَا يَنْبَغِي الْأَشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا. وَفِي
 الْحَدِيثِ: نَحْنُ مَعَاشِرَ الْحُكَمَاءِ أَيْرَنَّا أَنْ نَكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ
 وَعَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ: إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغَلَ بِهَذَا الْجَدَلِ الَّذِي ظَهَرَ
 بَعْدَ أَنْ قَرَأْتَ الْأَكْبَابَ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُبْعَدُ عَنِ الْفَقْهِ وَيُضِيعُ
 الْعَمَلَ وَيُورِثُ الْوَحْشَةَ وَالْعِدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ كَذَا
 وَرَدَّ فِي الْحَدِيثِ وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَاتِلِ :

أَرَى فُقَهَاءَ هَذَا الْعَصْرِ طَرَأَ أَضَاعُوا الْعِلْمَ وَاشْتَغَلُوا بِلَمْ يَلْمَ
 إِذَا تَأَذَّرْتَهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ سِوَى حَرْقَيْنِ لَمْ يَلْمَ لَا نَسْلِمَ
 وَالْإِنْصَافُ أَنَّ الْجَدَلَ لِإِظْهَارِ الصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي
 تَشْجِيزِ الْأَذْهَانِ. وَالْمَنْعُوعُ الْجَدَلُ الَّذِي يُضِيعُ الْأَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ
 مِنْهُ طَائِلٌ. قَالَ مَوْقُفُ الدِّينِ الْبَعْدَادِيُّ: إِيَّاكَ الْهَلِطَةُ فِي الْخُطَابِ.
 وَالْجَلَاءُ فِي الْمُنَاطَرَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَذْهَبُ بِهَيْجَةِ الْكَلَامِ وَيُسْقِطُ
 قَائِدَتَهُ. وَيُعِدُّ حِلَاوَتَهُ. وَيَجْلِبُ الضَّعَائِنَ. وَيَخْتَقُ الْمَوَدَّاتِ. وَيُصَيِّرُ
 الْقَاتِلَ مُسْتَشْفَلًا. سَكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى السَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ. وَيُثِيرُ
 النُّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَنْبَسُطُ أَلْسُنَ مُجَاشَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

المبحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

إِنَّ الْجَوَابَاتِ هِيَ أَعْيَبُ الْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَأَعَزُّهُ مَطْلَبًا
وَأَعْمَضُهُ مَنْصَبًا وَأَضْيَقُهُ مَسْلَكًا لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُجِلُّ مُنَاجَاةَ الْفِكْرَةِ
وَأَسْتِعْمَالَ الْقَرِيحَةِ يَوْمُ فِي بَدْيِهِ تَقْضَى مَا أَبْرَمَ الْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ
فَهُوَ كَمَنْ أَخَذَتْ عَلَيْهِ النَّحَاجُ وَسَدَّتْ لَهُ الْخَارِجُ قَدْ اعْتَرَضَ الْأَسِنَّةُ
وَأَسْتَهْدَفَ لِلرَّامِي لَا يَذَرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبُ لَهُ وَلَا مَا يَفْجَأُ
مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعُهُ عِثْلُهُ. وَلَا سِيَّامًا إِذَا كَانَ الْقَائِلُ قَدْ أَخَذَ بِجَمَاعِ
الْكَلَامِ فَقَادَهُ بِزَمَانِهِ بَعْدَ أَنْ رَأَى فِيهِ وَاخْتَلَفَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ
وَأَجْتَهَدَ وَتَرَكَ الرَّأْيَ يَنْبُحُ حَتَّى يَخْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا الرَّأْيَ الْفَطِيرَ كَمَا
كَرِهُوا الْجَوَابَ الدَّبْرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسَجِ الْكَلَامِ وَأَسْتِثْنَاهُ حَتَّى
إِذَا أَطْلَعَ أَنْ شَارِدَهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ
قِيلَ لَهُ أَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَأَسْرِعْ وَلَا تُطِئْ. فَتَرَاهُ بِجَوَابِهِ مِنْ غَيْرِ
أَنَاءٍ وَلَا اسْتِعْدَادٍ يُطَبِّقُ الْفَاصِلَ وَيَنْفُذُ الْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمِي الْجَنْدِلُ
بِالْجَنْدِلِ وَيُقْرَعُ الْحَدِيدُ بِالْحَدِيدِ فَيُجِلُّ بِهِ عَرَاهُ وَيَقْضَى بِهِ مَرَارَهُ
وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى أَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسِتَابَةٍ لَبِثَتْ عَجَاجَتُهُ فَلَا شَيْءَ
أَعْضَلُ مِنَ الْجَوَابِ الْخَاضِرِ وَلَا أَعَزُّ مِنَ الْخَصْمِ الْأَلَدِيِّ الَّذِي يَقْرَعُ

صَاحِبَهُ وَيَضْرَعُ مُنَازَعَهُ يَقُولُ كَيْثُلُ النَّارِ فِي الْحَطَبِ الْجَزَلِ

المبحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

الْمُغَالَطَةُ هِيَ قِيَاسٌ قَاسِدٌ أَوْ مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ أَوْ مِنْ جِهَةِ
الْمَادَّةِ أَوْ مِنْ جِهَتَيْهِمَا مَعَ وَالْآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لغيرِهِ .
وَلَوْ لَا الْقُدُورُ وَهُوَ عَدَمُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا
تَمَّ لِلْمُغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةُ كَاذِبُهُ تَنْفَعُ بِالْفَرْضِ إِذَا الْفَرْضُ مِنْ
مَعْرِفَتِهَا الْإِحْتِرَازُ عَنِ الْخَطِإِ وَرَبَّمَا يُتَمَكَّنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ امْتِحَانُهُ فِي
الْعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ يَعْدَمُ ذَهَابِ الْغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِنَدَاهَا بِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ
وَبِهَذَا الْأَعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا امْتِحَانِيًّا . وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ
يُوهَمُ الْعَوَامُّ أَنَّهُ عَالِمٌ لِيُظْهِرَ لَهُمْ عَجْزُهُ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّوَابِ وَالْخَطِإِ
فَيَصْدُقُونَ عَنِ الْإِقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهَذَا الْأَعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًّا . قَالَ
شَارِحُ إِشْرَاقِ الْحِكْمَةِ : مَوَادُّ الْمُغَالَطَةِ الْمُسْتَهْزِئَاتُ لَفْظًا أَوْ مَعْنَى
وَلِهَذَا الصِّنَاعَةُ أَجْزَاءُ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ . وَالْأَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ
بِالتَّبْكِيتِ الْمُغَالِطِيِّ .

وَعَلَى هَذَا فَنَقُولُ : إِنَّ أَسْبَابَ الْغَلَطِ عَلَى كَثَرَتِهَا تَرْجِعُ إِلَى

أَمْرٍ وَاحِدٍ وَهُوَ عَدَمُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الشَّيْءِ وَشَبَاهِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَنْقَسِمُ إِلَى
 مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَلْفَازِ وَإِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَعَانِي. (وَالْأَوَّلُ) يَنْقَسِمُ إِلَى مَا
 يَتَعَلَّقُ بِالْأَلْفَازِ لَا مِنْ حَيْثُ تَرْكُوبُهَا وَإِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ حَيْثُ
 تَرْكُوبُهَا. (وَالْأَوَّلُ) لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِالْأَلْفَازِ أَنْفُسُهَا وَهُوَ أَنْ
 تَكُونَ مُخْتَلِفَةً الدَّلَالَةَ فَيَقَعُ الْأَشْبَاهُ بَيْنَ مَا هُوَ الْمُرَادُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ .
 وَيَدْخُلُ فِيهِ الْإِشْتِرَاكُ وَالْأَشْبَاهُ وَالْحِجَازُ وَالِاسْتِعَارَةُ وَمَا يَجْرِي
 مَجْرَاهَا وَيُسَمَّى جَمِيعًا بِالْإِشْتِرَاكِ اللفظي . وَإِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِأَحْوَالِ
 الْأَلْفَازِ وَهِيَ إِمَّا أَحْوَالٌ ذَاتِيَّةٌ دَاخِلَةٌ فِي صِنْعِ الْأَلْفَازِ قَبْلَ
 تَحْصُلِهَا كَالِاسْتِبْهَامِ فِي اللفظِ الْخُتَارِ بِسَبَبِ التَّضَرُّيفِ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى
 الْفَاعِلِ أَوْ الْفِعُولِ . وَإِمَّا أَحْوَالٌ عَارِضَةٌ لَهَا بَعْدَ تَحْصُلِهَا كَالِاسْتِبْهَامِ
 بِسَبَبِ الْأَنْجَامِ وَالْإِعْرَابِ. (وَالْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّرْكِيبِ) تَنْقَسِمُ إِلَى مَا
 يَتَعَلَّقُ الْأَشْبَاهُ فِيهِ بِنَفْسِ التَّرْكِيبِ كَمَا يُقَالُ: كُلُّ مَا يَتَصَوَّرُهُ
 الْعَاقِلُ فَهُوَ كَمَا يَتَصَوَّرُهُ . فَإِنَّ لَفْظَ (هُوَ) يَعُودُ تَارَةً إِلَى الْعَقُولِ
 وَتَارَةً أُخْرَى إِلَى الْعَاقِلِ وَإِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِوُجُودِهِ وَعَدَمِهِ أَيْ بِوُجُودِ
 التَّرْكِيبِ وَعَدَمِهِ . وَهَذَا الْآخِرُ يَنْقَسِمُ إِلَى مَا لَا يَكُونُ التَّرْكِيبُ
 فِيهِ مَوْجُودًا فَيُظَنُّ مَعْدُومًا وَيُسَمَّى تَفْصِيلَ التَّرْكِبِ . وَإِلَى عَكْسِهِ
 وَيُسَمَّى تَرْكِيبَ الْمُفْصَلِ وَإِمَّا (الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْمَعَانِي) فَلَا بُدَّ أَنْ تَتَعَلَّقَ
 بِالتَّأْلِيفِ بَيْنَ الْمَعَانِي إِذَا الْأَفْرَادُ لَا يُتَصَوَّرُ فِيهَا غَلْطٌ لَوْ لَمْ يَقَعْ فِي
 تَأْلِيفِهَا بِخَوْفٍ مَا وَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِتَأْلِيفِ يَقَعُ بَيْنَ الْقَضَايَا
 أَوْ بِتَأْلِيفِ يَقَعُ فِي قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ . وَالْوَاقِعَةُ بَيْنَ الْقَضَايَا إِمَّا قِيَاسِيَّةٌ

أَوْ غَيْرُ قِيَاسِيٍّ. وَالْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّأْلِيفِ الْقِيَاسِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَتَّعَ فِي الْقِيَاسِ
 نَفْسَهُ لَا قِيَاسَهُ إِلَى نَتِيجَتِهِ أَوْ تَتَّعَ فِيهِ بِقِيَاسِهِ إِلَى نَتِيجَتِهِ.
 وَالْوَاقِعَةُ فِي نَفْسِ الْقِيَاسِ إِمَّا أَنْ تَتَّعَقَ بِمَادَّتِهِ أَوْ بِصُورَتِهِ. وَأَمَّا
 (الْمَادِّيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مَثَلًا بِحَيْثُ إِذَا رُبَّتْ الْمَعْنَى فِيهَا
 عَلَى وَجْهِ يَكُونُ صَادِقًا لَمْ تَكُنْ قِيَاسًا وَإِذَا رُبَّتْ عَلَى وَجْهِ
 يَكُونُ قِيَاسًا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا كَقَوْلِنَا: كُلُّ إِنْسَانٍ نَاطِقٌ مِنْ حَيْثُ
 هُوَ نَاطِقٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ النَّاطِقِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ بِحَيَوَانٍ إِذَا مَعَ
 اثْبَاتِ قَيْدٍ (مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ) فِيهِمَا تَكْذِيبُ الصُّغْرَى وَمَعَ حَذْفِ
 عَنْهَا تَكْذِيبُ الْكُبْرَى. وَإِنْ حُذِفَ مِنَ الصُّغْرَى وَاثْبَتَ فِي
 الْكُبْرَى تَقَلَّبَ صُورَةُ الْقِيَاسِ لِعَدَمِ اشْتِرَاكِ الْأَوْسَطِ. وَأَمَّا (الصُّورِيَّةُ)
 فَكَمَا تَكُونُ مِنْهُ عَلَى ضَرْبٍ غَيْرِ مُنْتَجِ تَكُونُ أَيْضًا عَلَى ضَرْبٍ مُنْتَجِ
 وَهَذَا يُسَمَّى سُوءَ التَّأْلِيفِ بِاعْتِبَارِ الْبَرْهَانِ وَسُوءَ التَّزْكِيكِ بِاعْتِبَارِ
 غَيْرِهِ. وَأَمَّا (الْوَاقِعَةُ فِي الْقِيَاسِ بِالْقِيَاسِ إِلَى النَّتِيجَةِ) فَتَنْقَسِمُ إِلَى
 مَا لَا يَكُونُ النَّتِيجَةُ مُعَايِرَةً لِأَحَدِ أَجْزَاءِ الْقِيَاسِ وَلَا يُحْصَلُ
 بِالْقِيَاسِ عِلْمٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فِي الْمَقْدَمَاتِ وَتَسَمَّى مُصَادَرَةً عَلَى
 الْمُطْلُوبِ. وَإِلَى مَا تَكُونُ مُعَايِرَةً لِكِنَّهَا لَا تَكُونُ مَا هِيَ الْمُطْلُوبُ
 مِنْ ذَلِكَ الْقِيَاسِ وَيُسَمَّى وَضْعَ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً كَقَوْلِنَا: الْإِنْسَانُ
 وَحْدَهُ فَخَالِكُ كُلِّ فَخَالِكٍ حَيَوَانٌ. وَأَمَّا (الْوَاقِعَةُ فِي قَضَايَا لَيْسَتْ
 بِقِيَاسٍ) فَتُسَمَّى جَمْعَ الْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ كَمَا يُقَالُ: زَيْدٌ وَحْدَهُ
 كَاتِبٌ. فَإِنَّهُ قَضِيَّتَانِ لِإِقَادَتِهِ أَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُهُ كَاتِبًا. وَأَمَّا (الْمُتَعَلِّقَةُ

بِالْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ) فَمَا أَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْئِي الْقَضِيَّةِ جَمِيعًا وَذَلِكَ
يَكُونُ بِوُقُوعِ أَحَدِهِمَا مَكَانَ الْآخَرِ وَيَسَى إِيهَامُ الْعَكْسِ. وَمِنْهُ
الْحُكْمُ عَلَى الْجُلُوسِ بِحُكْمِ نَوْعٍ مِنْهُ مُنْدَرِجٌ تَحْتَهُ نَحْوُ: هَذَا لَوْ
وَاللَّوْنُ سَوَادٌ فَهَذَا سَوَادٌ. وَمِنْهُ الْحُكْمُ عَلَى الْمَطْلُوقِ بِحُكْمِ الْمُقَيَّدِ
بِحَالٍ أَوْ وَقْتٍ نَحْوُ: هَذِهِ رَقَبَةٌ وَالرَّقَبَةُ مُؤَمَّنَةٌ. وَإِنَّمَا أَنْ تَقَعَ فِيمَا
يَتَعَلَّقُ بِجُزْءٍ وَاحِدٍ مِنْهَا. وَتَنْقَسِمُ إِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ بِدَلِّ الْخِزْءِ غَيْرُهُ مِمَّا
يُشَبِّهُهُ كَعَوَارِضِهِ أَوْ مَعْرُوضَاتِهِ مِنْهُ وَيُسَمَّى أَخْذُ مَا بِالْعَرَضِ مَكَانَ
مَا بِالذَّاتِ كَمَنْ رَأَى الْإِنْسَانَ أَنَّهُ يَلْزَمُ لَهُ التَّوَهُّمُ وَالتَّكْلِيفُ فَظَنَّ
أَنْ كُلَّ مَتَوَهِّمٍ مُكَافٍ. وَإِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ الْخِزْءُ نَفْسُهُ وَلَكِنْ لَا عَلَى
الْوَجْهِ الَّذِي يَأْبَغِي كَمَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا لَيْسَ فِيهِ نَحْوُ: زَيْدٌ الْكَاتِبُ
إِنْسَانٌ. أَوْ لَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا هُوَ مِنَ الشَّرُوطِ أَوْ الْقِيُودِ كَمَنْ يَأْخُذُ
غَيْرَ الوجودِ كَاتِبًا غَيْرَ وجودٍ مُطْلَقًا وَيُسَمَّى سُوءُ اعْتِبَارِ الْحَمْلِ. فَقَدْ
حَصَلَ مِنَ الْجَمِيعِ ثَلَاثَةٌ عَشَرَ زَعَا سِتَّةٌ مِنْهَا لَفْظِيَّةٌ يَتَعَلَّقُ ثَلَاثَةٌ
مِنْهَا بِالْبَسَائِطِ هِيَ الْأَشْتِرَاكُ فِي جَوْهَرِ اللَّفْظِ وَفِي أَحْوَالِهِ الدَّائِيَّةِ
وَفِي أَحْوَالِهِ الْعَرَضِيَّةِ وَثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِالتَّرْكِيبِ وَهِيَ الَّتِي فِي نَفْسِ
التَّرْكِيبِ وَتَفْصِيلِ الْمُرَكَّبِ وَتَرْكِيبِ الْمُفَصَّلِ. وَسَبْعَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ. أَرْبَعَةٌ
مِنْهَا بِاعْتِبَارِ الْقَضَايَا الْمُرَكَّبَةِ وَهِيَ سُوءُ التَّأْلِيفِ وَالْمَصَادَرَةُ عَلَى
الطَّلُوبِ وَوَضْعُ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً وَجَمْعُ الْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ وَاحِدَةٍ.
وِثَلَاثَةٌ بِاعْتِبَارِ الْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ وَهِيَ إِيهَامُ الْعَكْسِ وَأَخْذُ مَا
بِالْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِالذَّاتِ وَسُوءُ اعْتِبَارِ الْحَمْلِ. فَهَذِهِ هِيَ الْأَجْزَاءُ

الذاتية الصناعية لصناعة المغالطة. وأما الخارجيات فما يقتضي المغالطة
بالعرض كالشيع على الخطاب وسوق كلامه إلى التكب بزيادة
أو تأويل وإيراد ما يحيره أو يخبئه من إغلاق العبارة أو المبالغة
في أن المعنى دقيق أو ما ينعه من ألفهم كالحلط بالحشو والهديان
التكرار وغير ذلك مما أشتمل عليه كتاب الشفاء وغيره من
المطولات

البحث الخامس

في مقاطع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قال المأمون لبعضهم: من أبلغ الناس قال من قرب الأمر
البعيد والمتناول الصعب الدرك بالالفاظ اليسيرة. قال: ما عدل
سهمك عن العرض ولكن البليغ من كان كلامه في مقدار
حاجته لا يخيّل الفكرة في اختلاس ما صعب من الالفاظ ولا
يكره المعاني على انزالها في غير منزلها ولا يتعمد الغريب
الوخشي ولا الساقط السوقي فإن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة
بمواضع الفضل والوصل كانت كاللالي بها نظام. وقال أبو
العباس السفاح لكتابه: قف عند مقاطع الكلام وحدوده
وأيالك أن تخط المرعي بالمهمل. ومن حلية البلاغة المعرفة

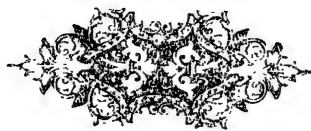
بِمَرَاضِعِ الْفَضْلِ وَالْوَصْلِ . وَقَالَ الْأَخْفُ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا
تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ الْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِعِ الْكَلَامِ . وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ
إِلَّا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِعِ الْكَلَامِ . وَأَعْطَى
حَقَّ الْمَقَامِ وَغَاصَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَعَانِي بِالطَّفِّ مُخْرَجٍ حَتَّى كَانَ
يَقِفُ عِنْدَ الْمَقَاطِعِ وَوُقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَنْتَبِغِيهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ
وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ :

إِذَا مَا بَدَأَ بَيْنَ الْمَنَابِرِ قَائِلًا أَصَابَ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ الْفَاصِلَا
وَلَا أَعْرِفُ فَضْلًا فِي كَلَامٍ مَشُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَيْبِ
أَبْنِ شُبَّةٍ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ الْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ
الصَّمَدِ بْنُ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيُّ فَلَمَّا رَأَاهُ شَيْبٌ قَالَ : أَتَاكُمْ وَاللَّهِ
كَلِيمُ النَّاسِ فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَيْبٌ : تَكَلَّمْ يَا أَبَا الْعَبَّاسِ . فَقَالَ :
أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا . قَالَ : نَعَمْ فَوَاللَّهِ مَا
رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ . فَقَالَ أَيُّ نَبِيٍّ
تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ . (قَالَ) وَإِذَا شِئْخٌ مَعَهُ عَصَا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَيْبٌ :
صِفْ هَذِهِ الْعَصَا . فَحَمِدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ السَّمَاءَ
فَقَالَ : رَفَعَهَا اللَّهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رَجَمٍ وَنُجُومَ أَهْتِدَاءٍ وَادَّارَ
فِيهَا سِرَاجًا وَقَرَأَ مُنِيرًا لَتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّسَنِ وَالْحِسَابَ وَاتَّرَلَ مِنْهَا مَاءٌ
مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّرْعَ وَادَّرَّ بِهِ الْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ الْأَرْوَاحَ
وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يَصْرِفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةٌ
عَمْرٍ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يُقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ . فَبَيْنَا نَرَاهَا خَضْرَاءَ تَرْفَةٌ إِذْ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا الْعِبَادُ وَيُعْمَرُ بِهَا الْإِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا
هَذِهِ الْعَصَا (ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الشَّيْخِ فَقَالَ) : فَكَانَ هَذَا أَوْجَدُهُ اللَّهُ بَعْدَ
عَدَمٍ وَأَنْشَأَهُ أَمْرَدَ وَشَابًا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ إِلَى
هَذِهِ الْحَالِ مِنْ الْكِبَرِ فَاحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ إِلَى هَذِهِ الْعَصَا
فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَلَمْ يُدَبِّرْ لِلْعِبَادِ . قَالَ شَيْبُ بْنُ شُبَّةَ : فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا
عَلَى يَدَيْهِ أَحْسَنَ مِنْهُ . وَلَمَّا أَقَامَ أَبُو جَعْفَرٍ صَالِحًا خَطِيبًا بِحَضْرَةِ
شَيْبِ بْنِ شُبَّةَ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ قَتَلَهُمْ أَقْبَلَ شَيْبُ فَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ أَبِينِ يَبَانًا وَلَا أَرَبَطَ جَانًا وَلَا
أَفْضَحَ لِسَانًا وَلَا أَبَلَ رِيَّةً وَلَا أَعْمَضَ عُرُوقًا وَلَا أَحْسَنَ طَرِيقًا إِلَّا
أَنَّ الْجَوَادَ عَسِيرَ لَمْ يُرْضَ فَحَمَلَتْهُ الْقُوَّةُ عَلَى تَعَسُّفِ الْأَكَامِ
وَحَبْطِهَا وَتَرْكِ الطَّرِيقِ الْأَحَبِّ وَائِمَ اللَّهُ إِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ
مَقَاطِعَ الْكَلَامِ لَكَانَ أَفْضَحَ مَنْ تَطُقَ بِلِسَانِهِ . وَقَالَ الْمَأْمُونُ :
مَا أَعْجَبُ بِكِتَابِ أَحَدٍ كَانِعًا بِي بِكِتَابِ الْقَسَمِ بْنِ عَيْسَى فَإِنَّهُ فِي غُرَّةِ
عُمُرِهِ وَيُجِيبُ مَفَاصِلَ الْكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ الْمَقْدَرَةُ إِلَى الْإِطْطَابِ
وَلَا تَمِيلُ بِهِ الْفَرَارَةُ إِلَى الْإِسْهَابِ يُجَلِّي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ
الْمَغْرَى فِي الْفَاطَةِ . وَكَانَ يَرِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ : إِيَّاكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا
الْفَضْلَ وَضَلًّا فَإِنَّهُ أَشَدُّ وَأَعْجَبُ وَأَعْيَبُ مِنَ الْخَنِّ . وَلَيْكُنْ
أَتَقَفُّدُ لِقَاطِعِ الْكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ . وَكَانَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي
إِذَا كَانَتْ مُلُوكُ الْجَاهِلِيَّةِ تَسْتَكَتِبُهُ قَالَ لِكَاتِبَتِهِ : أَفْصَلُوا بَيْنَ
مُنْقَضَى فَضْلٍ وَصِلُوا إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مَعْجُونًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ . وَكَانَ

الْحَارِثُ بْنُ أَبِي شَعْرٍ الْفَسَائِيَّ يَقُولُ لِكَاتِبِهِ الْمُرْقِشِ : إِذَا تَرَعَ بِكَ
الْكَلَامُ إِلَى أَيْدَاءٍ مَعْنَى غَيْرِ مَا أَنْتَ فِيهِ فَصِلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا
تَبْتَغِيهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ فَإِنَّكَ إِنْ مَدَقْتَ الْأَفَاطِكَ بِغَيْرِ مَا يَحْسُنُ أَنْ
تَمْدُقَ بِهِ نَفَرَتِ الْقُلُوبُ عَنْ وَعِيهَا وَمَلَّتْهُ الْأَسْمَاعُ وَاسْتَقْلَتَهُ الرُّوَاةُ.
وَكَانَ بَرْزَجْمَهَرٌ يَقُولُ : إِذَا مَدَحْتَ رَجُلًا وَهَجَرْتَ آخَرَ فَأَجْعَلْ بَيْنَ
الْقَوْلَيْنِ فَصْلًا حَتَّى تَعْرِفَ الْمَدْحَ مِنَ الْهَجَاءِ كَمَا تَفْعَلُ فِي كُتُبِكَ إِذَا
اسْتَأْنَفْتَ الْقَوْلَ وَأَكْمَلْتَ مَا سَأَفَ مِنَ اللَّفْظِ. وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ
سَهْلٍ لِكَاتِبِهِ الْخُرَائِي : مَا مَنَزَلَةُ الْكَاتِبِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ. قَالَ :
أَنْ يَكُونَ مَطْبُوعًا مُحْتَبَكًا بِالنَّجْرِيَّةِ سَالِمًا بِجَلَالِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
وَحَرَامِهَا بِالذُّهْرِ فِي تَدَارُفِهَا وَتَصَرُّفِهَا وَبِالْمُلُوكِ فِي سِيَرِهَا وَأَيَّامِهَا
مَعَ بَرَاةِ اللَّفْظِ وَحُسْنِ اللَّسَنِ وَتَأْلِيفِ الْأَوْصَالِ بِمُشَاكَلَةِ
الِاسْتِعَادَةِ وَبِشَرْحِ الْمَعْنَى حَتَّى يُنْصَبَ صُورُهَا. وَبِتَقَاطِعِ الْكَلَامِ
وَمَعْرِفَةِ الْفَصْلِ مِنَ الْوَصْلِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَهُوَ كَاتِبٌ
مُحْمَدٌ. وَقَالَ الْمَأْمُونُ : مَا أَحْفَظُ مِنْ رَجُلٍ شَيْئًا كَحَفْظِي عَنِ الْفَصْلِ
وَالْوَصْلِ فِي كِتَابِهِ وَالْتِخَاصِ مِنَ الْخُحُولِ إِلَى الْمَعْقُودِ وَإِنَّ لِكُلِّ
شَيْءٍ جَمَالًا وَحِلْيَةً الْكِتَابِ وَجَمَالُهُ إِيْقَاعُ الْفَصْلِ وَقَعُهُ وَشُحْذُ
الْفِكَرِ وَاجَابَتُهَا فِي لُطْفِ التَّخَاصُصِ مِنَ الْمَعْقُودِ إِلَى الْخُحُولِ. (بُلَا) :
وَمَعْنَى الْمَعْقُودِ وَالْخُحُولِ هَاهُنَا هُوَ أَنَّكَ إِذَا أَبْتَدَأْتَ مُحَاطَبَةً ثُمَّ لَمْ
تَنْتَهِ إِلَى مَوْضِعِ التَّخَاصُصِ فَأَعَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ سُمِّيَ الْكَلَامُ
مَعْقُودًا. وَإِذَا شَرَحْتَ السُّتُورَ وَأَبْنَتَ عَنِ الْغُرُضِ الْمُنْزُوعِ إِلَيْهِ

سُمِّيَ الْكَلَامُ مَحْوُولًا مِثَالُ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ أَنْظِرَ سَدَّدَ اللَّهُ
رَأْيَكَ أَنْ لَا تَدْعُوكَ مَقْدَرْتُكَ عَلَى الْكَلَامِ إِلَى إِطَالَةِ الْعُقُودِ فَإِنَّ
ذَلِكَ مِنْسَاءً مَا أَكْنَنَتْهُ فِي صَدْرِكَ وَأَوْرَدَتْ تَضَمُّنَهُ فِي كِتَابِكَ .
وَأَعْلَمَ أَنَّ إِطَالََةَ الْعُقُودِ تُورِثُ نِسْيَانَ مَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ
وَأَرْتَهَنَتْ بِهِ فِكْرَتَكَ . وَكَانَ شَيْبُ بْنُ شُبَّةٍ يَقُولُ لَمْ أَرِ مُتَكَلِّمًا
قَطُّ أَذْكَرَ لِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ وَلَا أَحْفَظَ لِمَا سَلَفَ مِنْ نُطْقِهِ مِنْ
خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُشِيعُ الْعُقُودَ بِالْمَعَانِي يَضَعُ الْخُرُوجَ مِنْهَا إِلَى
غَيْرِهَا ثُمَّ يَأْتِي بِالْحَوُولِ وَاضْحَايَتِنَا وَمَشْرُوحَا مُنَوَّرَا وَكَانَ السَّامِعَ لَا
يَعْرِفُ مَفْزَاهُ وَمَقْصَدَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى آخِرِهِ . وَقَالَ
بَعْضُهُمْ : لَيْسَ عَمَلٌ مِنَ الْقَائِلِ أَنْ يَكْتُمَ مَفْزَاهُ عَنِ السَّامِعِ لِكَلَامِهِ
فِي أَوَّلِ ابْتِدَائِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهِ بَلِ الْآخَسُنُ أَنْ يَكُونَ
فِي عَدْرِ كَلَامِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَاجَتِهِ وَمُبَيِّنٌ لِمَفْزَاهُ وَمَقْصَدِهِ كَمَا أَنَّ
أَخِيرَ آيَاتِ الشَّعْرِ مَا إِذَا سَجَعَتْ صَدْرُهُ عَرَفَتْ قَافِيَتَهُ . وَكَانَ
شَيْبُ بْنُ شُبَّةٍ يَقُولُ : النَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ الْإِبْتِدَاءِ
وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ الْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ
وَحَيْزُ الْكَلَامِ مَا وَقِفَ عِنْدَ مَقَاطِعِهِ وَبَيْنَ مَوْقِعِ فُضُولِهِ



الفصل الثامن

في التعبير

البحث الأول

في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بِشَرِّ بْنِ الْمُعْتَمِرِ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَبَلَةَ بْنِ مُحْوَمَةَ السَّكَوِيِّ
الْخَطِيبِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِتْيَانَهُمُ الْخُطَابَةَ فَوَقَفَ بِشَرٌّ يَسْتَمِعُ فَظَنَّ
إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ إِنَّمَا وَقَفَ لِيَسْتَفِيدَ أَوْ يَكُونَ رَجُلًا مِنَ النُّظَارَةِ فَقَالَ
بِشَرٍّ: اضْرِبُوا عَمَّا قَالَ صَفْحًا وَأَطُوا عَنْهُ كَشْحًا. ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِمْ
صَحِيفَةً مِنْ تَسْمِيْقِهِ وَتَحْيِيرِهِ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةً نَشَاطِكَ وَفَرَاغَ
بَالِكَ وَاجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ نَفْسَكَ تِلْكَ السَّاعَةُ أَكْرَمُ جَوْهَرًا
وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي الْإِسْتِمَاعِ وَأَحْلَى فِي الصُّدُورِ وَأَسْلَمُ
مِنْ فَاحِشِ الْخَطَا وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنَى
بَدِيعٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ يَمَّا يُعْطِيكَ يَوْمَكَ الْأَطْوَلَ
بِالْكَيْدِ وَالْمُطَاوَلَةِ وَالنَّجَاهَدَةِ بِالتَّكْلِيفِ وَالْمَعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَاكَ

لَمْ يُخْطِئْكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا وَخَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا وَكَذَا
خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ مِنْ مَعْدِنِهِ. وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَإِنَّ التَّوَعُّرَ
يُسَلِّمُكَ إِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيكَ وَيَشِينُ
الْفَاضْلَكَ وَمَنْ أَدَاعَ مَعْنَى كَرِيًّا فَلْيَلْتَمِسْ لَهُ لَفْظًا كَرِيًّا فَإِنَّ حَقَّ
الْمَعْنَى الشَّرِيفِ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهَا أَنْ تَصُونَهَا عَمَّا يُفْسِدُهَا
وَيُهْجِنُهَا وَعَمَّا تَعُودُ مِنْ أَجْلِهِ إِلَى أَنْ تَكُونَ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ
أَنْ تَلْتَمِسَ إِظْهَارَهَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ بِمُلَابَسَتِهَا وَقَضَاءِ حَقِّهَا. فَكُنْ
فِي ثَلَاثَةِ مَازِلَ فَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيْقًا عَذْبًا أَوْ
فَحْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا إِمَّا عِنْدَ
الْخَاصَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصِدْتَ وَإِمَّا عِنْدَ الْعَامَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ
أَرَدْتَ. وَالْمَعْنَى لَيْسَ يَتَضَعُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي الْعَامَّةِ. وَإِنَّمَا
مَدَارُ الْأَمْرِ عَلَى الشَّرَفِ مَعَ الصَّوَابِ وَإِحْرَازِ الْمُنْفَعَةِ مَعَ مُوَافَقَةِ
الْحَالِ وَمَا يَجِبُ إِكْلَامُ كُلِّ مَقَامٍ مِنَ الْقَالَ. وَكَذَلِكَ اللَّفْظُ الْعَامِيُّ
وَالْخَاصِيُّ فَإِنْ أَمَكْنَكَ أَنْ تَبَاغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ لَفْظِكَ
وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَقَدْرِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى أَنْ تُفْهَمَ الْعَامَّةُ مَعَانِي
الْخَاصَّةِ وَتَكْشُوهَا إِلَّا لَفَاطَ التَّوَسُّطَةِ الَّتِي لَا تَلْطَفُ عَنِ الدَّهَاءِ وَلَا
تَخْجُو عَنِ الْإِكْفَاءِ فَأَنْتَ الْبَلِغُ التَّامُّ. فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَبَلَةَ
جُعِلَتْ فِدَاكَ أَنَا أَخُوجَ إِلَى تَعْلِيمِي هَذَا الْكَلَامَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعِلْمَةِ

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنْتُ ذَكَرْتُ لَكَ أَسْعَدَكَ اللَّهُ إِكْثَارَ النَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي
وَصْفِ الْبَلَاغَةِ وَتَعْرِيفِهِمْ الْقَوْلَ فِي أَقْسَامِهَا وَأَنْوَاعِهَا وَأَنَّهَا أَلْفَاظُهُ
يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ الْمَعْنَى فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي النَّظْمِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي
النَّثْرِ وَيَكُونُ فِي الْمَكَاتِبَةِ وَالرَّسَائِلِ وَالْخُطَبِ وَالتَّشْبِihَاتِ
وَالْأَوْصَافِ وَفِي السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. فَأَمَّا بِلَاغَةِ الشِّعْرِ
فَعُدُوْبَةُ الْأَلْفَاظِ وَتَقْرِيبُ الْمَعْنَى وَاتِّسَاقُ النَّظْمِ وَرَشَاقَةُ الْمَعْرِضِ
كَقَوْلِ النَّبَاغَةِ :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ جَلْتَ أَنْ أَلْتَمِتَ أَيْ عَنْكَ وَاسِعُ
وَقَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ فِي وَصْفِ فَرَسِهِ وَالتَّشْبِihِ (بِقَيْدِ الْأَوَابِدِ).
وَقَوْلِ الْأَعَشَى : (فَهُمْ سَاكِنُونَ وَالْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ). وَمِنْهَا مَا يَكُونُ
بِلِصَابَةِ الْمَعْنَى وَقَرَعِ النُّجَّةِ وَالْأَصْلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا أَنَّهَا أَلْفَاظُهُ يُعَبَّرُ
بِهَا عَنِ الْمَعْنَى فَأَحْسَنُهَا مَا يَرِيدُ فِي كَشْفِ الْمَعْنَى مَعَ اخْتِصَارِهِ بِأَقَلِّ
مَا يُمَكِّنُ مِنَ الْعِبَارَةِ بِأَعْدَبِ الْأَلْفَاظِ وَأَحَقِّهَا عَلَى الْأَسْمَاعِ
وَأَقْرَبُهَا إِلَى الْقُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّ الْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ مَقْصُودَةً
عَلَى أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ وَلَا عَلَى مَلِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لِسَانٍ بَلِّ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى أَكْثَرِ أَلْسِنَةٍ فَهُمْ فِيهَا مُشْتَرِكُونَ
وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ الْيُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ الْأَنْجَمِ وَكَلَامِ الْهِنْدِ
وغيرِهِمْ وَلَكِنَّهَا فِي الْعَرَبِ أَكْثَرُ لِكَثْرَةِ تَصَرُّفِهَا فِي الْاَثَرِ وَالنَّظْمِ
وَالْخُطْبِ وَالْكِتَابِ وَالسَّجْعِ وَالْمُرْدُودِ وَالرَّجَزِ وَهُمْ أَيْضًا مُتَفَاوِثُونَ
فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ الْعَبْدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ الْأُمَّةُ
بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُهَا. فَالْبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي أَغْرَابِ الْبَلَادِيَةِ
دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا الْعَبْدُ وَالْمَرْأَةُ... قَالَ أَشْجُحُ أَبُو أَحْمَدَ :
وَوْنٌ عَجِيبٌ مَا فِيهِ وَبَعْدُ تَأْفِيهِ أَنْ يَأْتِي بِدَوِيٍّ أَيْجِيٍّ جِلْفٌ جَافٍ
فَيَسْتَدِرِعُ بِفِكَرِهِ وَقَرِيحَتِهِ الْمَغْنَى الْبَدِيعَ وَاللَّشِيْبَةَ الْمُلْصِبَ وَالسَّوَالَ
الْأَلْفِيفَ وَالسَّدْحَ الشَّرِيفَ وَالنَّزْلَ الرَّقِيقَ وَالْهَجَاءَ الْمُلْجِعَ وَاللِّذْمَ
الْمُفْلِقَ يَنْظُمُ عَجِيبَ وَقَافٍ مُنْتَظِمَةً وَأَوْزَانَ تَامَةً وَأَقْسَامَ مُعَدَّةً
وَالْفَاظَ فَصِيحَةً تَذْبَعُ يَسْتَهِي سَامِعُهَا أَنْ يَحْفَظَهَا ثُمَّ يَسْتَهِي أَنْ
يُحَاضِرَ أَهْلَ الْمُرُوءَاتِ بِهَا مُمَثِّلًا أَوْ شَاكِرًا أَوْ عَاتِبًا أَوْ مَهِنًا أَوْ مُعْزِيًا
فَلَا يَزْدَادُ عَلَى الدَّهْرِ إِلَّا نَضَارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونُ مَنْ حَلَا مِنْهَا
نَاقِصَ الْأَدَبِ وَالْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَاسَا لَدَى ذِكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَلَابِي
وَقَوْلِ النَّابِغَةِ : فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُذْرِكِي. وَقَوْلِ
الْخَطِيبَةِ : لَا يَذْهَبُ الْغُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ . ثُمَّ يَجْتَهِدُ الْعَارِفُ
الْمُلْصِبُ وَالْعَالِمُ الْأَدِيبُ وَالرَّيِّضُ الْحَازِقُ أَنْ يُذْرِكَ شَاؤُهُ فَلَا
يُسْقُ غِبَارُهُ . قَالَ : سُئِلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ الْبَلَاغَةِ فَقَالَ :

التَّقَرُّبُ مِنْ مَعْنَى الْبُعْيَةِ وَالتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ الْكَلَامِ وَالِدَّلَالَةُ
بِقِلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ . قَالَ الشَّيْخُ : وَاسْتَكْثَرَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي الْبَلَاغَةِ أَنَّهَا
الْإِخْتِصَارُ وَتَقَرُّبُ الْمَعَانِي بِالْأَلْفَاظِ الْقَصَارِ وَالْإِخْتِصَارُ عَلَى
الْإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَالِدَّلَالَةُ بِالْقَلِيلِ عَلَى الْكَثِيرِ . وَقَدْ سَبَّلَ
بَعْضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ نَقَالَ : لَحْجَةُ دَالَّةٌ . وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ فِي
الْحَذْفِ وَالْإِخْتِصَارِ وَكَذَلِكَ جَعَلَ أَمْرُ الْقَائِسِ إِخْضَارَ فَرْسِهِ وَسُرْعَةَ
لِحَاقِهِ لِلصَّيْدِ وَأَنَّ الْأَوَابِدَ لَا تَطْمَعُ فِي الْفَخَّاصِ مِنْهُ فَجَمَعَ هَذَا فِي
قَوْلِهِ : (قَيْدُ الْأَوَابِدِ) . وَكَذَلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ : (إِنَّ الْجَوَادَ عَلَى عِلَالَتِهِ
هَرَمٌ) . فَقِي قَوْلُهُ (عَلَى عِلَالَتِهِ) مَا يَتَوَبُّ عَنْ كُلِّ مَا يَنْعِي كَذَلِكَ قَوْلُ
الْأَعَشَى : فَهَمَّ سَائِنُونَ وَالْمَيْمَةُ تَنْطِقُ وَهَذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا
أوردناه بِلَاغٌ وَلِهَذَا وَقَعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى كِتَابِهِ لِيَكُنْ
كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ مِثْلَ التَّوْقِيعِ يَحْضُرُ بِذَلِكَ عَلَى غَايَةِ الْحَذْفِ
وَالْإِخْتِصَارِ . وَمِنْ هَذَا أَنَّ الْمَأْمُونُ أَمَرَ عَمْرُو بْنَ مَسْعَدَةَ أَنْ كَاتِبَ
أَنْ يَكْتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَى بَعْضِ الْعَمَالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَأَنْ
يُخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا أَمَكْنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ بِلَا
زِيَادَةٍ فَكُتِبَ عَمْرُو : كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابٌ وَاشِ بَيْنَ كُتُبٍ إِلَيْهِ
مَعْنِي بَيْنَ كُتُبٍ لَهُ وَلَكِنْ يَضِيعُ بَيْنَ الثَّقَةِ وَالْعِنَايَةِ حَامِلُهُ . وَمِنْ هَذَا
مَا كُتِبَ أَلْوَيْدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَى الْحَجَّاجِ وَقَدْ تَلَكَّأَ
عَنْ يَبْعَتِهِ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ أُخْرَى فَإِذَا
أَتَاكَ كِتَابِي فَأَعْتَمِدْ عَلَى آيَتِهِمَا شِئْتَ وَالسَّلَامُ . وَسَادَ كُرِّي فِي هَذَا

الْمَوْضِعَ صَدْرًا مِنَ الْفُضُولِ الْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ. ثُمَّ
 أَذْكَرُ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ الْفُضُولِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَا يَضِلُّحُ لِلْمَذَاكِرَةِ وَيَبْعَثُ
 عَلَى النَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِيءٌ دَلَّتْ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي الْإِبْجَازِ وَالْحَذَفِ
 وَالْجَمْعِ لِلْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ بِأَلْفَاظٍ الْقَلِيلَةِ. فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ:
 دَلَّ الْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفْظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِي كَثِيرَةٍ
 جَلِيلَةٍ أَلْقَدَرِ لِأَنَّ الْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَضَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا
 حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ الْبِنَاءُ عَلَى الْبَانِي وَالْكِتَابُ عَلَى الْكَاتِبِ.
 فَأَنْظُرْ كَمْ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكِي عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سُئِلَ
 مَا الَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَيُثَبِّتُ الْعِلْمَ بِالْغَيْبِ فَقَالَ: إِنْ
 اِكْتَلَى ظَاهِرٌ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحِوُطُهُ قَدْ كَانَ
 مُعْتَبَرًا بِالْجَلِيلِ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا بَارِئًا
 يُجْرِي فَلَكْهَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا. وَمَنْ أَعْتَبَرَ بِالصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَبَّةٍ
 أَلْحَزْدَلِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرْكِبُهَا وَيَقْدِرُهَا أَقْوَاتًا مِنْ
 الْأَرْضِ وَالْمَاءِ وَيُوقِتُ لَهَا زَمَانًا لَهْشِيئِهَا. وَأَسْرُ الثُّبُوتِ وَالْآيَاتِ وَمَا
 يَحْدُثُ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ اجْتِمَاعُ الْعُلَمَاءِ
 وَالْجُهَالِ وَالْهَتْدَيْنِ وَالضَّلَالِ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَغْطِيهِ وَاجْتِمَاعُ
 مَنْ شَكَّ فِي اللَّهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلِدُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ
 ذَلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى اللَّهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنشَأَ الْخَلْقَ وَدَبَّرَ هَذِهِ الْأُمُورَ.
 (قَالَ الشَّيْخُ) وَهَذَا الْكَلَامُ عَلَى طَوِيلٍ قَدْ أُنْظِمَ أَكْثَرُ مَعَانِيهِ فِي
 قَوْلِ سُقْرَاطَ: دَلَّ الْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. (وَقَالَ الْأِسْكَندَرُ) وَعَظَمَكَ

فِكْرَكَ وَارْشَدَكَ عَقْلَكَ حِينَ حَيْرَكَ سَمْعَكَ وَعَشَّكَ مُحِبَّكَ وَإِنَّ
الْإِنْسَانَ بِاخْتِلَافِ الْمَسْمُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بَغْيُ الْخُبْرَيْنِ وَيَسُومُهُمْ
فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيَمِيزُ لَهُ عَقْلُهُ الصَّوَابَ مِنَ الْخَطَا وَيُرْشِدُهُ إِلَى
الْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الْخَيْرَةِ. وَقَالَ مُطَلِبُ الْعَرَايِ لِلْإِسْكَندَرِ :
أَخْلَقَكَ تَجْعَلُ الْعَدُوَّ صَدِيقًا وَأَحْكَامَكَ تَجْعَلُ الصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ
لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ. (قَالَ الشَّيْخُ) فَانْظُرْ الْآنَ كَمْ
مَعْنَى حَسَنٍ تَحْتَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْقَلِيلَةِ يَعْنِي أَنَّ حُسْنَ خَلْقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ
إِلَى صَدَاقَتِهِ وَأَنَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَأَنَّ
عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَا ضَلَّ الدُّهُورُ قَدْ شَهِدَ بِأَنَّهُ مِثْلُهُ لَا يَكُونُ فِي
مُسْتَقْبَلِ الْعُصُورِ. وَهَذَا كَلَامٌ مَنُقُولٌ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بِلُغَتِهِ كَانَ
أَفْضَحَ وَأَحْسَنَ. وَلَمَّا شَاوَرَ أَبُو مُسْلِمٍ بَعْضَ الْفُرْسِ فِي أَمْرِهِ
قَالَ لَهُ: قُلْ مَا يُقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهُلُ وَاعْمَلْ مَا يَجْمَلُ. فَجَمَعَ لَهُ
بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ أَكْثَرَ مَا فِي السِّيَاسَةِ. وَفِي مَا يُرَوَى أَنَّ
بَعْضَهُمْ رَأَى شَابًا لَا آدَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمٌ ذَهَبٌ فَقَالَ: حَرَّاهُ عَلَيْهِ
لِجَامٍ ذَهَبٍ. وَنَظَرَ إِلَى شَابٍ أَحَقَّ قَاعِدًا عَلَى حَجَرٍ. فَقَالَ: هَذَا حَجَرٌ
قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ. وَقَالَ أَرِسْطَاطَالِسُ: الْحَاجَةُ إِلَى الْفَعْلِ أَقْبَجُ مِنَ
الْحَاجَةِ إِلَى أَمَالٍ. وَقَالَ: غَيْرُ حُبِّ الشَّرَفِ هُوَ الَّذِي يُتَعَبُ نَفْسُهُ
بِالنَّظَرِ فِي الْعِلْمِ. وَقَالَ سُقْرَاطُ: أَلَدَّةُ خِنَاقٍ مِنْ عَسَلٍ. وَرَأَى
سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاوِلًا فَقَالَ: هَذَا مُسْتَحِثٌّ. يَعْنِي يُعْجِلُ بِنِّ يُعَالِجُ إِلَى
الْمَوْتِ. وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِيذِهِ: قَدْ مَاتَ أَسْتَاذُكَ. فَقَالَ: أَلَوْحٌ لِي

لَقَدْ ضَاعَ مَسْنُ عَقْلِي

(قَالَ الشَّيْخُ) وَهَذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى فِي كَلَامِ الْعَجَمِ
وَلَا سِيَّامَا فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَانِهِمْ الَّذِينَ أَخْرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ التَّوْقِيعِ.
فَإِنَّ ذَلِكَ مَا يُحْكِي أَنَّ أَنْوِشِرَوَانَ وَقَعَ فِي وَلَايَةِ الْخُرَاجِ: الْخُرَاجُ
عَمُودُ الْمَلِكِ وَمَا اسْتَنْزَرَ بِمَثَلِ الْجُوزِ وَلَا اسْتَغْزَرَ بِمَثَلِ الْعَدْلِ. وَوَقَعَ
أَيْضًا فِي رُقْعَةٍ رَجُلٌ وَكَيْلٌ لَهُ أَمْرُهُ بِنَاءِ قَصْرِ فَأَخْرَهُ: أَنْتَ مَا شِ
وَالْأَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَالْعَمَلُ بَاعٌ وَالْعِنَايَةُ فِتْرَةٌ. (قَالَ الشَّيْخُ) وَأَيَّاتُ
الشَّعْرِ كَثُرَتْ أَمْثَالُ الْعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى أَمْثَالِ سَائِرِ الْأَعْمِ وَأَنَّ
كَانَ فِي غَيْرِ الْعَرَبِ الشَّعْرُ أَيْضًا عَلَى قَدِيمِ الْوَقْتِ فَلِلْفَرَسِ أَشْعَارٌ
لَا تُضْبَطُ كَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ أَشْعَارٌ دُونَ الْفَرَسِ. وَكَانَ أَفْلَاطُونُ
بَعْضُ مَنْ يَقُولُ الشَّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذِمَّتِهِ: إِنَّ الشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلسَّعْرِ
وَالْمُزَوِّقُ مُصَوِّرٌ لِلْبَصْرِ. فَأَمَّا الْفَرَسُ فَفِي مَثُورِ أَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ
حُرُوفِهِمْ أَشْعَارٌ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُحْلَدُ فِي الْخُرَازِمِ الَّتِي كَانَتْ يُبَوَّتُ
الْحِكْمَةُ ثُمَّ دَرَسَ أَكْثَرُهَا مَعَ دَرَسِ كَلَامِهِمْ وَبَقِيَ مِنْ أَشْعَارِ
الْعَرَبِ السَّوَابِرِ مِنَ الْأَمْثَالِ تَجْرِي عَلَى أَفْوَاهِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ. وَحَكَى
أَبُو حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ أَوْصَلَ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ
أَبَاهِلِيٍّ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ مَثَلٍ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي الْجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي
الْفُطْنِ وَبَعْضُهَا فِي الْفِرَاطِ فَتَقَرَّدَتْ الْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ الْأَعْمِ
بِكثَرَةِ الْأَمْثَالِ... وَمِنْ تَوْقِيعَاتِ الْعَجَمِ تَوْقِيعُ أَرْدَشِيرِ بْنِ بَابَكٍ
وَكَانَ أَهْلُ زَمَانِهِ قَطُّوا قَرَفُوا إِلَيْهِ قِصَّةٌ يَشْكُونُ ذَلِكَ فَوَقَعَ

إِلَى صَاحِبِ بَيْتِ أَمَّالٍ: إِذَا فَحِطَ الْمَطَرُ جَادَتْ مَحَابِبُ الْمَلِكِ. فَفَرَّقَ
 فِيهِمْ مَا قَاتَهُمْ وَمَانَهُمْ. وَشَكِي مِثْلُ ذَلِكَ إِلَى قُبَادَ بْنِ كِسْرَى
 فَوَقَعَ لِيَكُنْ بِنَا أَلْبَدُ لِلرَّعِيَّةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ فَلَا يِي وَرَأْيَاهُمْ فِي
 نَفْعِ ذَلِكَ مُسْتَوُونَ. وَمَدَحَ رَجُلٌ مِنْ الْخَاصَّةِ كِسْرَى بْنَ قُبَادَ
 بِمَدَحٍ أَطْنَبَ فِيهِ وَاسْهَبَ وَذَهَبَ كُلُّ مَذْهَبٍ وَكَانَ الْمَدْحُ فِي
 رُفْعَةٍ. فَوَقَعَ فِيهَا كِسْرَى إِلَى لِلْمَدْحِ مُسْتَضْفِرٌ لِعَلِّي بِأَشْيَاءَ قَدْ
 مِدَحَتْ وَكَانَتْ بِأَنْ تَذَمَّ مُحَقَّقَةٌ. وَوَقَعَ أَنْوِشِرَوَانُ فِي رُفْعَةٍ
 مُسْتَضْمِحٍ: ثَمَرَاتُ النَّصَائِحِ شُكْرُ الْجَوَارِحِ وَخَرَجَ التَّوَقُّعُ إِلَى وَزِيرٍ
 لَهُ أَمْرٌ لَهُ بِجَائِزَةٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: قَدْ جَمَعْنَا إِلَى شُكْرِ اللِّسَانِ
 شُكْرَ أَلِيدٍ وَهُوَ الْبَذْلُ. وَوَقَعَ كِسْرَى فِي رُفْعَةٍ رَجُلٍ سَأَلَهُ فِيهَا
 الثَّقَلَةَ عَنْ صِنَاعَتِهِ إِلَى صِنَاعَةٍ غَيْرِهَا وَكَانَتْ صِنَاعَتُهُ حَسِيسَةً فَاخْتَارَ
 صِنَاعَةً رَفِيعَةً فَوَقَعَ فِي رُفْعَتِهِ: أَنَا حَامِلٌ لِلرَّعِيَّةِ عَلَى لُزُومٍ مَثَرَتِهِمْ
 وَصَنَائِعِهِمْ وَلِنَفْسِي عَلَى مَا يُحْمَلُ عَلَى اللُّزُومِ لَهَا

وَمِنْ حَدِّ الْبَلَاغَةِ جَمْعُ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ فِي الْأَلْفَاظِ الْيَسِيرَةِ
 فَقَدْ سُئِلَ خَلْفُ الْأَحْمَرِ فَقِيلَ لَهُ: مَا لَنَا نَرَى فِي الْكَلَامِ الْقَلِيلِ عِدَّةَ
 مَعَانٍ. فَقَالَ: إِنَّ كَلَامَ الْعَرَبِ أَوْعِيَّةٌ وَالْمَعَانِي أَمْتِعَةٌ فَرُبَّمَا
 جُعِلَتْ ضَرْبٌ مِنَ الْأَمْتِعَةِ فِي وَعَاءٍ وَاحِدٍ... وَحَكِي عَنْ جَعْفَرِ
 ابْنِ يَحْيَى وَكَانَ قَرِيبَ ذَهَرِهِ بِلَاغَةً فِي الْمَكَاتِبَةِ وَجُودَةَ لِسَانٍ فِي
 الْحَاطَةِ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا كَانَ الْإِيحَاذُ كَافِيًا كَانَ التَّطْوِيلُ عِيًّا وَإِنْ كَانَ
 التَّطْوِيلُ وَاجِبًا كَانَ التَّفْصِيرُ عَجْزًا. وَحَكِي الْمَفْضَلُ قَالَ: قُلْتُ

لَا عَرَابِي: مَا الْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: أَلَا يَحْزَنُ مِنْ غَيْرِ عَجْزٍ وَالْإِطْلَابُ فِي غَيْرِ
 خَطَلٍ. وَوَصَفَ الْجَاحِظُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ فَقَالَ: كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا
 يَسْتَدْعِي مَعْنَى مِنْ بَعْدِهِ. قَالُوا: وَالْبَلِيغُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي تَكُونُ
 الْأَلْفَاظُ عِنْدَهُ عَزِيزَةً وَالْمَعَانِي فِي نَفْسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً. وَقَالُوا:
 وَمَحْضُورُ الْبَلَاغَةِ أَنَّ هَئِهِ ثَلَاثَ حَالَاتٍ: حَالًا يَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي
 الْمَعَانِي مِنْ أَجْلِهَا. وَحَالًا يَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي الْأَلْفَاظِ. وَحَالًا مُرَكَّبَةً
 مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ الْبَلَاغَةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِأَسْمِهَا.
 وَلِلْبَلَاغَةِ ثَلَاثَةٌ مَذَاهِبَ تُقْصَدُ فِي اسْتِعْمَالِهَا. أَحَدُهَا الْمُسَاوَاةُ وَهِيَ
 أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ كَالْقَالَِبِ لِلْمَعْنَى لَا يَفْضُلُ عَنْهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ.
 وَالثَّانِي الْإِشَارَةُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ مُشَارًا بِهِ إِلَى الْمَعْنَى بِاللَّحْظِ
 الدَّالِّ. وَالثَّلَاثُ التَّبْدِيلُ وَهُوَ إِعَادَةُ الْأَلْفَاظِ الْمُرَادِفَةِ عَلَى الْمَعْنَى
 الْوَاحِدِ بَيْنَهُ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ وَيَتَوَكَّدَ عِنْدَ مَنْ فَهَمَهُ.
 وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ مَوْطِنٌ يَلِيقُ بِهِ وَوَقْتُ لَا يَضِلُّ
 فِيهِ غَيْرُهُ وَسَادُّ رُؤُوسِهِمَا صَدَدًا مِنَ الْفُضُولِ الْقِصَارِ مِنْ كَلَامِ
 الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا يَتَضَمَّنُ الْفَقْرَ الْخُتَارَةَ وَالْمَعَانِي الْجَمْعُوعَةَ بِاللَّفْظِ
 فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: قِيمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ. وَكَقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ سِتَّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ تَوَزَّنَ كُلُّ
 كَلِمَةٍ وَنَهَى بِأَلْفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَمِنْ
 الْأَدْبَاءِ وَهِيَ: الْأُولَى قَوْلُهُ: قِيمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ. الثَّانِيَةُ:
 النَّاسُ أَعْدَاءُ لِمَا جَهِلُوا. الثَّلَاثَةُ: لِسَانُكَ يَقْتَضِيكَ مَا عَوَّدَتْهُ.

الرَّابِعَةُ: رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ قَدْرَهُ. الْخَامِسَةُ: لَا رَأْيَ لَنَ لَا يُطَاعُ. السَّادِسَةُ: أَلْمَزَ مَحْبُوبُهُ تَحْتَ لِسَانِهِ. وَهِيَ قَوْلُهُمُ الشَّعْرُ مِيزَانُ الْقَوْمِ وَالْعَرُوضُ مِيزَانُ الشَّعْرِ. وَقَوْلُ عُمَرَ: هَاجِرُوا وَلَا تَهْجِرُوا وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بِغَيْرِهِ. وَقَوْلُهُمُ: السَّعِيدُ مَنْ كَفِيَ. وَقَوْلُهُمُ: إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَدِرُ مِنْهُ. وَقَوْلُهُمُ: رَبِّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ. رَبِّ مَلُومٍ غَيْرِ مَلِيمٍ. رَبِّمَا قَتَلَ الْبَلِيعَ لِسَانُهُ. أَعْيُونُ غُنَّانٍ الْقُلُوبُ. الْقُلُوبُ أَبْصَرُ مِنَ الْعُيُونِ. مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ اتَّسَعَ لِسَانُهُ. وَقَوْلُ الْأَعْرَابِيِّ: وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضِرِ قَرَسِهِ فَقَالَ: يُحْضِرُ مَا وَجَدَ أَرْضًا. وَقَالَ آخَرُ: يَسْبِقُ الطَّرْفَ وَيَسْتَعْرِقُ الْوَصْفَ. عُجُ اللَّبَّانِ طَوْعُ الْأَعْنَانِ كَأَنَّهُ مَوْجٌ يُمُورُ أَوْ سَيْلٌ فِي حُدُورٍ. وَقَوْلُهُمُ: الْفِكْرَةُ مِخْ أَلْعَمَلِ. وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ إِنَّكَ لَتُحْسِنُ الْكُدْيَةَ. فَقَالَ: ذَاكَ غُنَّانُ نِعْمَةِ اللَّهِ عِنْدِي. وَقَوْلُهُمُ: حَسْبُكَ مِنْ شَرِّ اسْتِمَاعِهِ. ذَلَّ الشَّرُّ عَلَى نَفْسِهِ. الْبَادِي أَظْلَمُ. حِفْظُ الوجودِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ الْمَفْقُودِ. مِنْ عَزَّ بَزَّ. سَرَّكَ مِنْ دَمِكَ غَنَمٌ سَلِمٌ. سِئِلَ رَجُلٌ رَكِبَ الْبَجَرَ عَنْ أَعْجَبَ مَا رَأَى فَقَالَ: سَلَامَتِي. أَلَمَلْتُ شُكْرُ الضَّعِيفِ. الصَّدِيقُ يَصْدُقُ وَالْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ. أَقْضِ دُيُونَ الْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِاللِّسَانِ قَبْلَ فَقْدِ الْإِمْكَانِ. مَنْ وَاسَكَكَ فِي الرِّحَاءِ حَدَاكَ فِي الْبَلَاءِ. عَجَبًا لِلْغَيْرِ الْمَدْحُوحِ الْمَتْرُوكِ وَالشَّرِّ الْمَذْمُومِ الْمَفْعُولِ. مَنْ تَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ مِنْ آسَاءِ اسْتَوْحَشَ. سَاعَاتُ اللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ الْغَفْلَةِ. (قَالَ الشَّيْخُ) هَذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ اللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. عِنْدَ صَفْوِ

أَلَيْسَ يَكْدُرُ الْمُرِيبُ خُفِيفُ الْحَبُوبِ مَذْكُورٌ. مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ
كُتْلَةً. صَدِيقُ الرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. (قَالَ الشَّيْخُ) وَبِشَلْ هَذَا قَوْلُ
أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي مَا يَرُدُّ أَفْلَاطُونُ : إِنْ كَانَ أَفْلَاطُونُ لَمَّا صَدِيقًا
فَأَخْلَقْتُ أَصْدَقُ لَمَّا مِنْهُ

وَمِنْ الْفُضُولِ الْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ : قَلْبِي نَحْيِي ذِكْرَكَ. وَلِسَانِي
خَادِمُ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ : فُلَانٌ أَذَلُّ مِنْ شَاهِدٍ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ
لَهُ. وَقَالَ آخَرُ : الْأَسْتَطَاةُ لِسَانُ الْجَهَالَةِ. وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ :
أَعْلَمُ أَنَّ النَّظَرَ إِذَا أَخْلَفَ لَكَ أَخْلَفَ وَنَكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي
طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ الْبَلَاغَةِ وَأَنَّ بَعْضَ وَلَدِهِ يَلِغُ : إِنِّي
لَأَكْرَهُ أَنْ يُطَوَّلَ لِسَانُهُ. وَقَالَ آخَرُ : فَضْلُ الْفِعَالِ عَلَى الْمَقَالِ مَكْرَمَةٌ
وَفَضْلُ الْمَقَالِ عَلَى الْفِعَالِ خَدِيعَةٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : تَرَكَ الشُّكْرَ
كَفَرُ النَّعْمَةِ. وَقَالَ آخَرُ : الشُّكْرُ نَسِيمُ النَّعْمَةِ. أَهْيَبَةُ خِيَتُهُ وَالْحَيَاءُ
جِرْمَانُ. الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ. وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ يَوْمَاةٍ لِلْعَبَّاسِ بْنِ
الْحَسَنِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ. فَقَالَ : رَأَيْتُ ذَلِكَ مَعِيَ. قَرَأْتُ فِي فَضْلِ
إِسْعِيدِ بْنِ حَبِيدٍ : نَحْنُ فِي زَمَانٍ الْمَعْرُوفِ فِيهِ ذَلُّ وَالصَّوَابُ فِيهِ
خَطْلٌ وَالْإِنْعَامُ مِثْلُ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ : قَدْ رَخَّصَتِ الضَّرُورَةُ
فِي الْإِلْحَاحِ. أَرْجُو أَنَّ نُحَسِّنَ النَّظَرَ كَمَا أَحْسَنْتَ إِلَّا تَنْتَظَرُ. وَقَالَ
أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى : لِسَانُ الْحَالِ أَفْقَحُ مِنْ لِسَانِ الشُّكْرِ وَكَتَبَ
آخَرُ : أَشْكُرُ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعَمَ عَلَيَّ مِنْ شُكْرِكَ. وَكَتَبَ
آخَرُ : إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتِي مِنْ ضَعْفٍ سَبَبٍ فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْكَ

خَيْبَةَ أَمَلٍ أَوْ عُذُولًا عَنْ ائْتِقَارِ زَلَلٍ أَوْ قُتُورًا عَنْ لَمْ شَعَثٍ وَاصْلَاحِ
خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : أَنَا أَسَالُ الَّذِي رَحِمَ الْعِبَادَ بِكَ عَلَى حِينِ
اِئْتِقَارِهِمْ إِلَيْكَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُعِيدُهُمْ إِلَى الْمَكَارِهِ
الَّتِي اسْتَنْقَذَهُمْ مِنْهَا بِإِيْدِكَ . وَقَالَ أَحْسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي
رَجُلٍ مُذْنِبٍ : هَبْ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا أَهْبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدِرْتُ عَلَيْهِ .
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ : اَلْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشَيَّ الْمَلَكَةِ . وَنَظَرَ إِلَى
خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُوا هَذَا عَنْ مَرْبَّةِ الدِّيَوَانِ
فَلَنْهُ عَلِيلُ الْخَطِّ وَلَا تَأْمَنْ أَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ
الْعَبَّاسِ الصَّوْنِيُّ : اَلْخَطُّ لِسَانُ الْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ
الْعَرِيمِ أَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ الْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مَنْ حُقِّقَ
النَّبْلُ أَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ
مَنْ هُوَ مِثْلُكَ وَتَتَنَبَّلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ



साल र जय ५५ हालय
SALAJUNG MUSEUM LIBRARY
..... Printed Books
Acct. No. 1/285
Call. No.

الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ تَوَجَّدَ أَجْنَاسُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُنْظَرُ فِيهَا الْخُطَابَةُ مِنْ الْأُمُورِ
الْإِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةً كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ أَصْنَافِ السَّامِعِينَ لِلْقَوْلِ الْخُطْبِيِّ
ثَلَاثَةً. وَذَلِكَ أَنَّ الْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ الْخُطِيبُ
وَمَنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ الَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ الْقَوْلُ وَمَنْ الَّذِينَ يُوجَّهُ
إِلَيْهِمُ الْقَوْلُ وَهُمْ السَّامِعُونَ. وَالْعَايَةُ بِالْقَوْلِ إِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ
هَؤُلَاءِ السَّامِعِينَ. وَالسَّامِعُونَ لَا مَحَاةَ إِمَّا مُسَاطِرٌ وَإِمَّا حَاكِمٌ وَإِمَّا
الْمَقْصُودُ إِقْنَاعُهُ. وَالْحَاكِمُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ
وَهِيَ النَّافِعَةُ وَالضَّارَّةُ. وَإِمَّا فِي الْأُمُورِ الَّتِي قَدْ كَانَتْ. وَالْأُمُورُ
الَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تَوَجَّدُ فِي الْإِنْسَانِ بِاخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ
الْفَضَائِلُ وَالرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تَوَجَّدُ فِي الْإِنْسَانِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ
إِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ الْجَبْرُ وَالْعَدْلُ. وَالْحَاكِمُ فِي الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ هُوَ

الرَّيْدُ وَالْحَاكِمُ فِي الْأُمُورِ الْكَائِنَةِ هُوَ الَّذِي يَنْصِبُهُ الرَّئِيسُ (مِثْلُ
الْقَاضِي فِي مُدُنِنَا هَذِهِ وَهِيَ مُدُنُ الْإِسْلَامِ) . وَأَمَّا الْمُنَاطِرُ فَأَنَّمَا
يُنَاطِرُ بِقُوَّةِ الْمَلَكَةِ الْخَطِيئَةِ فَإِنَّ أَجْنَاسَ الْقَوْلِ الْخَطِيئَةِ ثَلَاثَةٌ
مَشُورِيٌّ وَمُشَاجِرِيٌّ وَتَثْبِيئِيٌّ

فَأَمَّا الضَّيْرُ الْمَشُورِيُّ فَيُفْنَهُ إِذْنٌ وَمِنْهُ مَنَعٌ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ
يُشِيرُ إِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِمَا يُخْصُهُ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ
الْمَدِينَةِ بِمَا يُعْمُهُمْ فَأَنَّمَا يُشِيرُ أَبَدًا بِقَوْلٍ هُوَ إِذْنٌ أَوْ مَنَعٌ . وَأَمَّا
الْقَوْلُ الْمُشَاجِرِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ شِكَايَةٌ وَتَصَلُّ مِنْ الشِّكَايَةِ .
وَأَمَّا الْقَوْلُ التَّثْبِيئِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ إِمَّا مَدْحٌ وَإِمَّا ذَمٌّ وَالزَّمَانُ
الْخَاصُّ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي يُشَارُ بِهَا هُوَ الزَّمَانُ الْمُسْتَقْبَلُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُشِيرُ
إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ بِأَشْيَاءٍ مَعْدُومَةٍ . وَالزَّمَانُ الْخَاصُّ بِالْأَشْيَاءِ
الْمُشَاجِرِيَّةِ هُوَ الزَّمَانُ الْمَاضِي لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي
قَدْ وَقَعَتْ وَإِنْ تُشَكَّى مِنْ أُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ الْمُسْتَكْبَرِ بِهِ فَإِنَّمَا
تِلْكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ الْإِشَارَةِ بِالنَّافِعِ فِي ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ قَدْ
يَعْرِضُ أَنْ تَكُونَ الْمَشُورَةُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي قَدْ كَانَتْ لَكِنْ مِنْ
جِهَةٍ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْهَا فَتَمَّتْ كَانَتْ الشُّكُوى فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا مِنْ
أَجْلِ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا تَكُونُ أَبَدًا فِي الشَّيْءِ الَّذِي قَدْ وَقَعَ . وَأَمَّا
الْأَشْيَاءُ التَّثْبِيئِيَّةُ فَإِنَّ أَوَّلَى الْأَزْمَنَةِ بِهَا هُوَ الزَّمَانُ الْخَاضِرُ أَغْنَى
الْقَرِيبَ مِنَ الْآنِ فَإِنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يُمَدِّحُونَ وَيَذْمُونَ بِالْأَشْيَاءِ
الْمَوْجُودَةِ فِي حِينَ الْمَدْحِ وَحِينَ الذَّمِّ فِي الْمَدْحِ وَالْمَذَمِّ وَرَبَّمَا

مُدِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْحِيلَةِ فِي اسْتِكْثَارِ قَضَائِلِ الْمُدُوحِ
وَمَذَامِهِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي يُتَوَقَّعُ حَدُوثُهَا مِنْهُ أَوْ يُرْجَى حَدُوثُهَا مِنْهُ
فَيَحْتَاطُونَ مَعَ الْمَدْحِ الْإِشَارَةَ عَلَى الْمُدُوحِ بِفِعْلِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسه)

وَأَمَّا الْغَايَاتُ مِنْ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لَهُ هَذِهِ
الثَّلَاثَةُ الْأَقَاوِيلُ أَمَّا الْقَوْلُ الْمُسِيرُ فَقَايَتُهُ النَّافِعُ وَالضَّارُّ . فَإِنَّ الَّذِي
يُسِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي النَّافِعِ أَوْ فِي الَّذِي هُوَ أَنْفَعُ وَيَنْجُو مِنَ الضَّارِّ
أَوْ مِنَ الَّذِي هُوَ أَضَرُّ . وَأَمَّا الْقَوْلُ الْمُشَاجِرِيُّ فَقَايَتُهُ الْعَدْلُ وَالْجَوْرُ .
وَأَمَّا الْقَوْلُ الْمُنْتَبِهُ فَقَايَتُهُ الْفَضِيلَةُ وَالرَّذِيلَةُ وَإِنْ اسْتَعْمَلَ وَاحِدٌ مِنْ
هَذِهِ غَايَةٍ صَاحِبِهِ فَلَيْسَ عَلَى الْقَضْدِ الْأَوَّلِ بَلْ مِنْ أَجْلِ الْغَايَةِ
الْخَاصَّةِ بِهِ . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُسِيرَ قَدْ يُقْبَعُ أَنَّ هَذَا عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ
لِيُسِيرَ بِالْإِذْنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ الْعَدْلِ مِنَ الْمَنْفَعَةِ وَبِالْتِمَاعِ عَنْ مَا
يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ الْجَوْرِ لِمَا فِي الْجَوْرِ مِنَ الْمَضَرَّةِ الَّتِي تُتَوَقَّعُ .
وَكَذَلِكَ قَدْ اسْتَعْمَلَ الْفَضِيلَةَ وَالرَّذِيلَةَ أَعْنِي مِنْ جِهَةٍ مَا يُلْحَقُهَا مِنَ
النَّافِعِ وَالضَّارِّ . وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْغَايَاتُ الثَّلَاثُ تُحْصَى كُلُّ وَاحِدَةٍ
مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ أَعْنِي مِنْ جِهَةٍ مَا هِيَ غَايَاتٌ عَلَى
الْقَضْدِ الْأَوَّلِ فَالْحُدُودُ الْمُمَيَّزَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ

الثَّلَاثَةِ إِنَّمَا تَكُونُ الْفُضُولُ الْمُعْطَاةُ فِيهَا مِنْ قَبْلِ هَذِهِ أَلْفَايَاتٍ .
 وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ أَلْفَايَاتٍ هِيَ خَاصَّةٌ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ
 هَذِهِ الْأَجْنَاسِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْأَقَاوِيلِ أَنَّهُ إِذَا أَقْنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا
 فِي غَايَةِ الْجَنَسِ الْآخِرِ رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُتَظَرِّ فِي ذَلِكَ مُعَاسَرَةٌ
 وَمُشَاكَسَةٌ بَلْ كَثِيرًا مَا يُسَلِّمُ لَهُ ذَلِكَ وَلَكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ غَايَةَ
 ذَلِكَ الْقَوْلِ الَّتِي تَحْصُهُ . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُدَّعِي إِذَا ادَّعَى أَنَّ فُلَانًا
 أَخَذَ أَمْثَالَ مِنْ فُلَانٍ وَذَلِكَ لَا شَكَّ ضَرَّرَ بِهِ قَرِيبًا يُسَلِّمُ لَهُ الْخُصْمُ
 أَنَّ ذَلِكَ كَانَ وَلَكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ أَنَّ أَخَذَهُ أَمْثَالَ مِنْهُ كَانَ عَلَى جِهَةِ
 الْجَوْرِ . وَكَذَلِكَ الْمُشِيرُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ الْفِعْلَ الْمُمْكِنَ جَوْرٌ وَلَا
 يُسَلِّمُ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلِمَكَانٍ تَدَاخَلَ فِي هَذِهِ أَلْفَايَاتٍ يَغْرُضُ لِلْمُشِيرِينَ
 كَثِيرًا أَنَّ يُشِيرُوا بِأَشْيَاءَ ضَارَّةٍ عَلَى جِهَةِ الْمُغَالَطَةِ مِنْ قَبْلِ أَنَّهَا
 عَدْلٌ أَوْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَوْرٍ وَلَكِنْ لَا يَقْرُونَ بِأَنَّهَا ضَارَّةٌ بَلْ رُبَّمَا
 احْتَالُوا فِي دَعْوَى وَجُودِ النِّفَعِ فِيهَا . وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ يُشِيرُونَ
 بِالْصَّبْرِ عَلَى الْمَوْتِ فِي الْحَرْبِ وَالْأَيُّ قَرُونَ لِكُونَ الْفِرَارِ جَوْرًا فِي
 الشَّرِيعَةِ . وَكَذَلِكَ مَتَى قَهَرَ قَوْمٌ قَوْمًا وَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهِمْ رُبَّمَا أَشَارَ
 الْمُشِيرُ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَتَعَصُّوا لِذَلِكَ الْقَهْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَوْرًا وَرُبَّمَا أَوْهَمَ
 فِيهِ أَنَّهُ غَيْرُ ضَارٍّ لَهُمْ . وَكَذَلِكَ الْمَادِحُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ الشَّيْءَ ضَارٌّ وَلَكِنْ
 يَدَّعِي أَنَّهُ فَضِيلَةٌ مِثْلُ مَنْ يُخَلِّصُ إِنْسَانًا مِنَ الْمَوْتِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ
 يَمُوتُ بِتَخْلِيصِهِ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ . فَالْمَوْتُ يُسَلِّمُ الْخُصْمُ أَنَّهُ ضَارٌّ
 وَلَكِنْ يَرَى أَنَّهُ فَضِيلَةٌ . وَكَذَلِكَ رُبَّمَا مَدَحَ بِالرَّذِيَّةِ عَلَى جِهَةِ

الْمُعَالَطَةِ مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ نَافِعَةٌ لَكِنْ لَا يُقَرُّ أَنَّهَا رَذِيَّةٌ بَلْ يَدَّعِي
 فِيهَا أَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَا لَمْ كَانَ النَّفْعُ الَّذِي فِيهَا قَادِرًا كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ
 هَذِهِ الْمُحَاطَبَاتِ قَدْ تَسْتَعْمِلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِالْعَرَضِ وَلِذَلِكَ لَا
 تُشَاسِكُ فِيهَا وَتُشَاسِكُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَإِذَا اسْتَعْمَلْتَ الْوَاحِدَةَ
 غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ الْمُعَالَطَةِ . (نَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ
 قِيَاسِيَّةً مَعْلُومٌ أَنَّهُ يُجِبُّ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدِّمَاتٌ وَمُقَدِّمَاتُهَا هِيَ
 الثَّلَاثُ الَّتِي وَصَفْنَا: التَّحْمُودَاتُ وَالْأَدْلَالُ وَالْأَعْلَامَاتُ. وَذَلِكَ أَنَّ
 الْقِيَاسَ الْأَطْلَقَ يَكُونُ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ الْأَطْلَقَةِ وَالْقِيَاسَ الْخَاصَّ
 بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ يَكُونُ مِنْ مُقَدِّمَاتِ خَاصَّةٍ. وَلِذَلِكَ كَانَ الضَّمِيرُ
 قِيَاسًا يَأْتِيهِ مِنْ هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَا وَلِأَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي
 يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ أَمْرِهِ أَوَّلًا أَنَّهُ مُمَكِّنٌ لِأَنَّ الْأُمُورَ
 الْغَيْرَ الْمُسَكَّنَةَ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ تُفْعَلَ لَا فِي الْخَاضِرِ وَلَا فِي
 الْمُسْتَقْبَلِ. وَكَذَلِكَ يَحْتَاجُ فِي الْجِنْسَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ مِنْ اجْتِمَاعِ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ أَغْنِي إِنْ غُفِرَ أَوَّلًا أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ أَغْنِي الْجِنْسَ
 التَّثْنِيَّ وَالْجِنْسَ الْأَشْجَرِيَّ. قَادِرًا لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنْ
 تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدِّمَاتٌ يُقْبَعُ بِهَا فِي أَنَّ الْأَمْرَ مُمَكِّنٌ أَوْ غَيْرَ مُمَكِّنٍ
 وَفِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ سِوَى الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ
 الْغَايَاتِ الثَّلَاثَ. ثُمَّ أَيْضًا لَمَّا كَانَ الْخُطْبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى
 الْمَدْحِ وَالذَّمِّ وَالْإِذْنِ وَالنَّهْيِ وَالشِّكَايَةِ وَالْإِعْذَارِ بَلْ يَتَكَلَّمُونَ
 مَعَ هَذَا أَنْ يُبَيِّنُوا أَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ

شَرِيفٌ أَوْ حَسِيسٌ وَلَا يَلِيقُ أَوْ غَيْرُ لَا يَلِيقُ وَذَلِكَ إِمَّا عَلَى الْإِطْلَاقِ
وَأَمَّا بِالْمُقَايَسَةِ أَعْنِي أَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَشْرَفُ أَوْ بِالضِدِّ فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَنْبَغِي
أَنْ تَكُونَ عِنْدَ الْخُطْبَاءِ مُقَدِّمَاتٌ يُشْتَوْنَ بِهَا أَنْ الْخَيْرَ أَوْ الشَّرَّ
عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ وَحَسِيسٌ أَوْ شَرِيفٌ وَلَا يَلِيقُ بِالْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ أَوْ غَيْرُ
لَا يَلِيقُ فَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هَذِهِ الصَّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسه)

وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ نَبْتَدِيَّ بِتَعْدِيدِ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي تَخْصُ
غَرَضًا غَرَضًا مِنَ الْأَغْرَاضِ السَّارَّةِ وَتَجْعَلَ الْكَلَامَ أَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ
الْمُقَدِّمَاتِ الْمَشُورَةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي التَّنْبِيْهِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي الْمُسَاجَرَةِ
فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُشَارُ
بِهَا مَا هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي يُشَارُ بِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ تَكُونَ الْمَشُورَةُ فِي كُلِّ
خَيْرٍ لَكِنْ فِي الْخَيْرَاتِ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ أَوْ أَنْ لَا تَكُونَ
فَأَمَّا الْخَيْرَاتُ الَّتِي كَوْنُهَا أَوْ لَا كَوْنُهَا مِنَ الْأَضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونَ
فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا أَيْضًا الْمَشُورَةُ تَكُونَ فِي جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ الْمُمْكِنَةِ
فَإِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمَكِّنَةٌ وَجُودُهَا عَنِ الطَّبِيعَةِ بَلْ فِي الْخَيْرَاتِ
الْمُمْكِنَةِ الَّتِي إِلَيْنَا أَنْ تَكُونَ أَوْ أَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ الْأَشْيَاءُ

أَلَّتِي بَدَأَ كَوْنَهَا مِنْ قَبْلِ الْأَخْتِيَارِ وَالْإِرَادَةِ . وَمِنْ هَذِهِ فِيمَا كَانَ
 وَجُودُهُ أَوْ لَا وَجُودُهُ تَابِعًا لِرُؤْيَيْنَا وَأَفْعَالِنَا عَلَى الْأَكْثَرِ وَأَمَّا مَا
 كَانَ مِنْهَا يَعْزُضُ عَنِ الرَّوْيَةِ بِالْإِتْفَاقِ وَأَقَلِّ ذَلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي
 الْأَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا إِلَّا حَيْثُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرْجَدَ الْجُلُوسُ الْآخَرُ
 وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِشَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَنَّ الْإِنْسَانَ
 إِنَّمَا يَنْظُرُ أَوْ لَا هَلْ الْأَمْرُ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ مُمَكِّنٌ ثُمَّ إِنْ
 كَانَ مُمَكِّنًا بِأَيِّ شَيْءٍ يُمَكِّنُ فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ شَرَعَ فِي السَّعْيِ
 فِيهِ وَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ مُمَكِّنٍ حَلَّى عَنْهُ . وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي بِهَا نُشِيرُ
 هِيَ الَّتِي فِيهَا نَزَوِي . فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ مَا هُوَ الْخِيَرُ الَّذِي نُشِيرُ
 بِهِ وَفِي آيِ الْأَشْيَاءِ يَكُونُ وَالْأُمُورُ الْإِرَادِيَّةُ الَّتِي مَبْدَأُ وَجُودِهَا وَثَمًا
 لَا الْأُمُورُ الْإِضْطِرَّادِيَّةُ الَّتِي لَيْسَ إِلَيْنَا وَجُودُهَا وَأَعْطَاهُ الْفَرْقُ النَّتَاجَ
 بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْإِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ الْإِرَادِيَّةِ وَتَضَجُّجُ عَدَدِ أَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ
 مَا هِيَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى أَقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا أَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ
 شَأْنِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَشْيَاءِ الْإِرَادِيَّةِ وَلَكِنْ
 ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ الْفَلَسَفَةِ الَّتِي لَهَا الْفَضْلُ عَلَى هَذِهِ فِي التَّحْصُورِ
 وَالتَّصْدِيقِ وَالْقَدَمَاتُ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا أَعْدَقُ وَأَصَحُّ مِنْ هَذِهِ .
 وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا لَسْنَا تَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْآخَوَالِ
 الذَّائِيَّةِ الْمُنَاسِبَةِ لَهَا بَلِ الْأُمُورِ الْمَشْهُورَةِ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي هَذِهِ
 الْأَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ جَمِيعَ مَا
 قُلْنَاهُ فِي أَجْزَاءِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ أَغْنِي أَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمِ

أَلْتُنْقِ وَمِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ الْخَلْقِيَّةِ وَأَنَّ فِيهَا أَشْيَاءَ جَدَلِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً
بِالْأَشْيَاءِ الْجَدَلِيَّةِ وَأَيْضًا سُوفِسْطَائِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِالسُّوفِسْطَائِيَّةِ .
وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي فِي صَنَائِعٍ كَثِيرَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ أَجْزَاءَ لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ
مَتَى أُخِذَ جَمِيعُهَا بِالْجِهَةِ وَالْحَالِ الَّتِي بِهَا تَكُونُ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ
الْكَثِيرَةُ مُتَعَاوَةً وَنَافِعَةً فِي غَرَضٍ تِلْكَ الصِّنَاعَةُ الْوَاحِدَةُ وَطُرِحَ
مِنْهَا الْأَحْوَالُ الَّتِي بِهَا تَخْتَلِفُ أَغْنَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَيْسَتْ تَكُونُ بِهَا مَعْنِيَّةٌ
فِي غَرَضٍ تِلْكَ الصِّنَاعَةُ الْوَاحِدَةُ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَالْأَشْيَاءُ
الْخَلْقِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُعَدَّةٌ
نَحْوَ الْكَلَامِ وَالْحُطَّابَةِ وَهِيَ مِنْ صِنَاعَةِ السِّيَاسَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ أَحَدُ
الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي نَقْصِدُ مَعْرِفَتَهَا وَعِلْمَهَا . وَالْأَشْيَاءُ الْجَدَلِيَّةُ
وَالسُّوفِسْطَائِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ
الَّذِي تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا هَذِهِ الصِّنَاعَةُ هُوَ سَابِقُ الْمَعْرِفَةِ الْأُولَى لِلْإِنْسَانِ
لَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ الْجُمْهُورِ مِثْلُ أَنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنَ الْقِيَاسِ
الْقِيَاسِ الْغَرُوفِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَهُوَ التَّمْيِيلُ وَالضَّمِيرُ وَكَذَلِكَ الْحَالُ
فِي الْأُمُورِ السُّوفِسْطَائِيَّةِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا مَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِاسْتِعْمَالِهِ
عِنْدَ الْجُمْهُورِ مِثْلُ مَوَاضِعِ الْإِطْلَاقِ وَالْتَقْيِدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ بِمَا يَسْتَعْمَلُهُ
طَبَاعُهُمُ الْجُمْهُورُ فَهِيَ إِنَّمَا تُخَالَفُ هَذِهِ بِعَقْدَارِ النَّظَرِ وَقَدْ تُخَالَفُ
أَيْضًا بِعَقْدَارِ النَّظَرِ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ فِي الْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ النَّظَرِ الَّذِي
لِلْعِلْمِ السِّيَاسِيِّ فِيهَا أَنِّي أَنَا إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي الْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ النَّظَرِ
الَّذِي هُوَ فِي سَابِقِ الْمَعْرِفَةِ لِلْإِنْسَانِ وَتَدْعُ تَقْصِي النَّظَرِ فِي ذَلِكَ

لِلْعِلْمِ السِّيَاسِيِّ مِنْهَا . وَالْأُمُورُ الَّتِي يُشِيرُ بِهَا الْخَطِيبُ مِنْهَا مَا يُشِيرُ بِهِ
عَلَى أَهْلِ مَدِينَةٍ بِأَسْرِهِمْ وَمِنْهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ
تِلْكَ الْمَدِينَةِ أَوْ جَمَاعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة أمور يدور عليها البحث في النوع المشوري
وفي القياسات المختلفة بها

من الكتاب نفسه

(قَالَ) : فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْمَشُورَةُ فِي
الْأُمُورِ الْعِظَامِ مِنْ أُمُورِ الْمَدْنِ فَهِيَ قَرِيصَةٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ
حَمْسَةً . أَحَدُهَا الْإِشَارَةُ بِالْعِدَّةِ الْمُدَّخَرَةِ مِنَ الْأَمْوَالِ لِلْمَدِينَةِ .
وَالثَّانِي الْإِشَارَةُ بِالْحَرْبِ أَوْ السَّلَمِ . وَالثَّالِثُ الْإِشَارَةُ بِحِفْظِ الْبَلَدِ
مِمَّا يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ . وَالرَّابِعُ الْإِشَارَةُ بِمَا يَدْخُلُ فِي الْبَلَدِ
وَيَخْرُجُ عَنْهُ . وَالْخَامِسُ الْإِشَارَةُ بِالْإِتِمَانِ الشَّئْنِ . فَالَّذِي يُشِيرُ بِالْعِدَّةِ
يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ ثَلَاثَةً أُمُورَ أَحَدُهَا أَنْ يَعْرِفَ غَلَاتِ الْمَدِينَةِ مَا
هِيَ أَعْيِي هَلْ هِيَ تَبَاتٌ أَوْ حَيَوَانٌ أَوْ مَعْدِنٌ أَوْ جَمِيعُ هَذِهِ أَوْ اثْنَانِ
مِنْهَا كَيْفَا إِنْ نَقَصَ مِنَ الْفَاضِلِ مِنْهَا لِلْعِدَّةِ شَيْءٌ أَشَارَ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا .
وَالثَّانِي أَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذَلِكَ نَقَعَاتِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كُلِّهَا . وَالثَّالِثُ أَنْ
يَعْرِفَ أَصْنَافَ النَّاسِ الَّذِينَ فِي الْمَدِينَةِ فَإِنْ كَانَ فِيهَا إِنْسَانٌ بَطَالٌ

وَهُوَ الَّذِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ أَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ الَّذِي لَا صِنَاعَةَ لَهُ أَشَارَ
بِخِيَّتِهِ مِنَ الْبَلَدِ. وَإِنْ كَانَ هُمَاكَ عَظِيمُ النِّفَقَاتِ فِي غَيْرِ الْجَمِيلِ أَوْ
غَيْرِ الضَّرُورِيِّ أَشَارَ بِأَخْذِ ذَلِكَ الْفَضْلِ مِنَ الْمَالِ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ
يَكُونُ الْغِنَاءُ بِالزِّيَادَةِ فِي الْمَالِ بَلْ وَالنَّقْصَانِ مِنَ النِّفَقَةِ وَلِذَلِكَ
قِيلَ : قِلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ

(قَالَ) وَمِنْ الضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمِثْلَ إِدَارِ
الْحَاجَةِ إِلَيْهَا يَقِفُ الْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ أَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ
وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ الْإِشَارَةِ بِالزِّيَادَةِ فِي
الْثَبَاتِ أَنْ يَكُونَ فَلَاحًا وَلَا فِي الْحَيَوَانِ أَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لَكِنْ
يَكْفِيهِ فِي ذَلِكَ مَعْرِفَتُهُ قَدَارَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا لَكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هَذَا
أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالسَّيْرِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ النَّاسِ
فِيهَا. وَأَمَّا الْمَشِيرُ بِالْحَرْبِ أَوْ السَّلْمِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ
يُحَارِبُ وَقُوَّةَ مَنْ يُحَارَبُ وَمِقْدَارَ الْأَمْرِ الَّذِي يُنَالُ بِالْمُحَارَبَةِ هَلْ هُوَ
يَسِيرٌ أَوْ عَظِيمٌ وَحَالُ الْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَضَعْفُ أَهْلِهَا
وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صَعْرِ الْمَدِينَةِ أَوْ فِي عِظَمِهَا أَعْنِي هَلْ مِقْدَارُهُمْ مِقْدَارُ
مَنْ يَسْتَطِيعُ الْمُحَارَبَةَ أَمْ لَيْسَ مِقْدَارُهُمْ ذَلِكَ الْمِقْدَارُ. وَهَلْ هُمْ
بِصِفَةٍ مَنْ تَمَكَّنَتْهُمْ الْمُحَارَبَةُ أَمْ لَيْسَ هُمْ. وَإِنْ يَعْرِفَ مَعَ ذَلِكَ شَيْئًا
مِنَ الْحُرُوبِ الْمُتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا إِنْ أَشَارَ عَلَيْهِمْ
بِالْحَرْبِ وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ أَمْرَ الْحَرْبِ. أَوْ يُعْرِفُهُمْ بِمَا فِي الْحَرْبِ مِنْ
مَكْرُوهِه إِنْ أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ الْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

حَالَ أَهْلَ مَدِينَتِهِ قَطَطَ بَلْ وَحَالَ مَنْ فِي ثُجُومِهِ وَثَغَرِهِ أَعْنِي كَيْفَ
حَالُهُمْ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَحَالُهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي الظَّفَرِ بِهِ أَوْ الْقَبْرِ
عَنْهُ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ هَاهُنَا مُقَدَّمَاتٍ نَافِعَةٍ فِي الْإِشَارَةِ عَلَيْهِمْ بِالْحَرْبِ
أَوْ السَّلَامِ. وَيَحْتَاجُ مَعَ هَذَا أَنْ يَعْلَمَ الْحُرُوبَ الْجَمِيلَةَ مِنَ الْحُرُوبِ
الْجَائِزَةِ وَأَنْ يَعْلَمَ حَالَ الْأَجَادِ هَلْ هُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي الْقُوَّةِ
وَالشَّجَاعَةِ وَالرَّأْيِ وَإِجَادَةِ مَا فُوضَ إِلَى صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْهُمْ مِنْ
الْقِيَامِ بِجُزْءٍ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْحَرْبِ. أَعْنِي أَنْ يَكُونُوا فِي ذَلِكَ
مُتَشَابِهِينَ فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَثُرُوا وَتَنَاسَلُوا حَتَّى يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ
لِلْحَرْبِ أَوْ لِلْجُزْءِ مِنَ الْحَرْبِ الَّذِي فُوضَ إِلَيْهِ الْقِيَامُ بِهِ. وَقَدْ يَنْبَغِي
مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ نَاطِقًا لَيْسَ فِيهَا أَفْضَتُ إِلَيْهِ مُحَارَبَتُهُمْ بَلْ وَفِيهَا
أَفْضَتُ إِلَيْهِ حُرُوبُ سَائِرِ النَّاسِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ لَهُمْ فَإِنَّ
الشَّيْءَ يُحْكَمُ مِنْهُ عَلَى الشَّيْءِ. أَعْنِي أَنَّهُ إِنْ كَانَ أَفْضَتِ الْحُرُوبُ
الشَّيْءَ بِجُزْءٍ مِنْهُمْ إِلَى مَكْرُوهٍ أَنْ يُشِيرَ بِالسَّلَامِ وَإِنْ كَانَتْ أَفْضَتِ
إِلَى الظَّفَرِ أَنْ يُشِيرَ بِالْحَرْبِ. وَأَمَّا حِفْظُ الْبِلَادِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ الْمَشِيرَ
بِالْحِفْظِ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ تَحْفَظُ الْبِلَادُ وَمَا مِقْدَارُ الْحِفْظِ الْحَاجِ
إِلَيْهِ فِي طَارِيءٍ طَارِيءٍ وَكَمْ أَنْوَاعُ الْحِفْظِ. وَيَعْرِفُ مَعَ هَذَا
الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَكُونُ حِفْظُهَا بِالرِّجَالِ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى السَّلَاحِ. فَإِنْ
كَانَ الْحِفْظُ لِتِلْكَ الْمَوَاضِعِ قَلِيلًا زَادَ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا
يَصْلُحُ لِلْحِفْظِ نَحَاهُ مَنْ لَيْسَ يَقْصِدُ قَصْدَ الْحُكَمَاةِ عَنِ الْمَدِينَةِ بَلْ يَقْصِدُ
قَصْدَ نَفْسِهِ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْفَظَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ الْمَوَاضِعِ الْحَيَّةِ

أَعْنِي الَّتِي الْفَنَعَةُ بِحِفْظِهَا أَكْثَرُ . قَدْ عَرَفَ هَذَا فَقَدْ يُمَكِّنُهُ أَنْ
يُشِيرَ بِالْحِفْظِ وَأَنْ يَكُونَ خَيْرًا بِاللِّبَادِ الَّتِي يُشِيرُ بِحِفْظِهَا . وَأَمَّا
الْإِشَارَةُ بِالْقَوْتِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الضَّرُورِيَّةِ الَّتِي تَحْتَاجُهَا الْمَدِينَةُ فَإِنَّهُ
يَحْتَاجُ الْمَشِيرُ فِيهِ أَنْ يَعْرِفَ مَقْدَارَهَا وَكَمْ يَكْفِي الْمَدِينَةَ مِنْهَا وَكَمْ
الْحَاضِرُ الْمَوْجُودُ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ ذَلِكَ وَهَلْ أُدْخِلَ الْكَافِي مِنْ
ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ وَأُخْرَزَ أَمْ لَمْ يُدْخَلْ . وَمَا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ
تُخْرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَهُوَ الْفَاضِلُ عَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ . وَمَا الْأَشْيَاءُ الَّتِي
يَنْبَغِي أَنْ تَدْخُلَ وَهُوَ مَا قَصَرَ عَنِ الضَّرُورِيِّ لِتَكُونَ شُورَتُهُ وَمَا
يُعْهَدُ بِهِ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ يَحْتَاجُ الْمَرْءُ أَنْ يَحْفَظَ أَهْلَ مَدِينَتِهِ
لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِمَكَانِ ذَوِي الْقَضَائِلِ وَالثَّانِي لِمَكَانِ ذَوِي أَلْمَالِ
الَّذِينَ مِنْ أَجْلِ ذَوِي الْقَضَائِلِ . وَالْحَافِظُ لِلْمَدْنِ يَحْتَاجُ بِالْجُمْلَةِ إِلَى
أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِجَمِيعِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْخَمْسَةِ عِنْدَ حِفْظِهَا

(قَالَ) وَأَمَّا النَّظَرُ فِي وَضْعِ السُّنَنِ وَالْإِشَارَةُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَسِيرٍ
فِي أَمْرِ الْمَدْنِ فَإِنَّ الْمَدْنَ إِنَّمَا تَسْلَمُ وَيَلْتَمُ وجودُهَا بِالسُّنَنِ وَلِذَلِكَ
قَدْ يَنْبَغِي لَوَاضِعِ السُّنَنِ أَنْ يَعْرِفَ كَمْ أَصْنَافُ السِّيَاسَاتِ وَآيُ
سُنَّةٍ تَنْفَعُ فِي سِيَاسَةِ سِيَاسَةٍ وَآيُ سُنَّةٍ لَا تَنْفَعُ وَآيُ نَاسٍ
تَضِلُّ بِهِمْ سُنَّةٌ وَسُنَّةٌ وَسِيَاسَةٌ سِيَاسَةٌ وَآيُ نَاسٍ لَا تَضِلُّ بِهِمْ وَأَنْ
يَكُونَ يَعْرِفُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي يَخَافُ أَنْ يَدْخُلَ مِنْهَا الْفَسَادُ عَلَى
الْمَدِينَةِ . وَذَلِكَ إِمَّا مِنَ الْأَصْدَادِ مِنْ خَارِجٍ وَإِمَّا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
فَإِنَّ سَائِرَ الْمَدْنِ مَا عَدَا الْمَدِينَةَ الْفَاضِلَةَ قَدْ تَفْسُدُ مِنْ قَبْلِ السُّنَنِ

الْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذَلِكَ إِذَا كَانَتْ السَّنَةُ مُفْرَطَةً الضَّعْفِ وَاللَّيْنِ أَوْ
مُفْرَطَةً السَّيِّئَةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ أَوْ فِي خُلُقٍ أَوْ فِي فِعْلٍ
وَذَلِكَ أَنَّ السِّيَاسَةَ الَّتِي تَسْمَى الْخُرَيْيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا
تَتَنَقَّلُ كَثِيرًا مِنْ قَبْلِ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى رِثَاسَةِ الْحَسَةِ أَعْنِي رِثَاسَةَ
الشَّهَوَاتِ أَوْ رِثَاسَةَ أَلْمَالِ وَالَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِ
دَوِي السِّيَاسَاتِ الَّتِي وَصَلَتْنا أَخْبَارُهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يُوَلُّ الْأَمْرُ فِي هَذِهِ السِّيَاسَةِ أَعْنِي سِيَاسَةَ
الْخُرَيْيَّةِ إِلَى سِيَاسَةِ الْأَخْسَاءِ مِنْ قَبْلِ اسْتِخَاءِ السُّنَنِ وَلِئِنْهَا وَإِنْ
كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْأَكْثَرُ بَلْ وَمِنْ قَبْلِ الْأَفْرَاطِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ
الْأَشْيَاءِ إِذَا أُفْرِطَتْ بَطُلَ وَجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وَجُودُهَا مِنْ قَبْلِ
الضَّعْفِ وَالْتَقْصِيرِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْفَطْسَ إِذَا أَفْرُطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ
قَرِيبًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ أَنْفٌ وَإِذَا كَانَ غَيْرُ مُفْرِطٍ
قَرُبَ مِنَ الْإِعْدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَعْرِفَ السُّنَنَ الَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ
مِنَ النَّاسِ فَاتَّبَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةِ سِيَاسَةٍ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَشْهُورَةِ
وَفِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ لِيَسْتَعْمِلَ مِنْهَا النَّافِعَ الَّذِي يُخْصُهُ وَالْأُمَّةُ الَّتِي تُخْصُهُ .
وَلِذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ السُّنَنِ بِأَمْزَجَةِ النَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ
وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ السُّنَنِ فَإِنَّ مِنْ هَاهُنَا يُمَكِّنُ أَنْ
يَضَعَ السُّنَنَ النَّافِعَةَ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ الطَّبَائِعِ. وَأَمَّا الْفَسَادُ
الِدَاخِلُ عَلَى الْمُدُنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي مِنَ الْأَعْدَاءِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

وَقَدْ كَتَبَ النَّاسُ فِي الْأَوْجِهِ الَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ الْأَعْدَاءِ
وَالْأَوْجِهِ الَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يَأْخُذُ الْمُقَدَّمَاتِ
الَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى أَهْلِ مَدِينَتِهِ بِالْتَّحْظِ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَمَا قُلْنَا فِي
وَضْعِ السُّنَنِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ لَا مِنْ
عِلْمِ الْخَطَايَةِ. وَإِنَّمَا يُذَكِّرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من أجله يشير الخطيب وهو سعادة السامع
وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها

تتولد السعادة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهَذِهِ هِيَ الْأُمُورُ الْعُظْمَى الَّتِي بِهَا يُشِيرُ الْمُشِيرُونَ
عَلَى أَهْلِ الْمَدُنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ
وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ الْآنَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا يَكُونُ
الْإِذْنُ وَالْمَنْعُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ أَوَّلًا بِالْإِخْبَارِ
عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُشِيرُ الْمُشِيرُونَ فَيَأْذَنُونَ فِيهَا أَوْ يَمْنَعُونَ
مِنْ أَضْدَادِهَا. وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْفِعَالٌ
مَا وَتَشَوُّقٌ بِالطَّبْعِ لِلْخَيْرِ الَّذِي يَتَشَوَّقُ الْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى
غَيْرِهِ مَنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذَلِكَ الْخَيْرُ فَيَحْتَارُونَ
وَيُؤَيِّرُونَ عَلَى غَيْرِهِ. أَوْ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ أَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِيٍّ عَنْ

طَبِيعَتِهِ بَلْ إِنَّمَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَجُودُهُ فَقَطُّ. وَإِذَا سُئِلَ وَاحِدٌ
وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَسْأَلُهُ أَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ غَيْرِ الْجَوَابِ
الَّذِي يُجِيبُ فِيهِ الْآخَرُ. وَإِنَّمَا يُؤَثِّرُهُ الْجَمِيعُ لِمَكَانِ هَذَا إِلَّا نِفْعَالُ
الْمَوْجُودِ لَهُ بِالطَّبَعِ عِنْدَ الْجَمِيعِ. وَهَذَا الْخَيْرُ فِي الْجَمَلَةِ هُوَ صَلَاحُ
أَحْصَالٍ وَأَجْزَاءِ صَلَاحِ أَحْصَالٍ. وَلِذَلِكَ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نُفَضِّلَ أَوَّلًا مَا
هُوَ صَلَاحُ أَحْصَالٍ بِقَوْلِ عَامِرٍ ثُمَّ نُفَضِّلَ أَجْزَاءَهُ وَنُخَبِّرَ عَنْ أَضْدَادِهَا
وَعَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْأَذْنُ وَالْمَنْعُ وَهِيَ النَّافِعَةُ فِي صَلَاحِ
أَحْصَالٍ أَوْ الْأَنْفَعُ فِيهِ أَوْ الضَّارَّةُ فِيهِ أَوْ الْأَضَرُّ فِيهِ فَإِنَّ هَذَا يَتِمُّ
لَنَا الْقَوْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا تَلْتَمِ الْأَقَاوِيلُ الْمَشُورِيَّةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ
مَعَ جَمِيعِ النَّاسِ

(قَالَ) وَالَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَلَمْ يَتَكَلَّمُوا
مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا فِيمَا يَجْرِي مَجْرَى الْأُمُورِ الْكَلِيَّةِ مِثْلَ
أَنَّهُمْ قَالُوا: يَنْبَغِي لِلطَّبِيبِ أَنْ يُعْظِمَ الشَّيْءَ الصَّغِيرَ إِذَا أَرَادَ
تَغْنِيْمَهُ وَيُصَغِّرَ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ إِذَا أَرَادَ تَهْوِينَهُ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا
يَأْذَنَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُفْسِدُ صَلَاحَ أَحْصَالٍ وَفِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي
تَعُوقُ عَنْ صَلَاحِ أَحْصَالٍ أَوْ تَتَجَاوَزُ صَلَاحَ أَحْصَالٍ إِلَى ضِدِّهِ. وَلَمْ يَقُولُوا
مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي بِهَا يُعْظَمُ الشَّيْءُ أَوْ يُصَغَّرُ وَلَا مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ
الَّتِي تُوجِبُ اخْتِلَالَ صَلَاحِ أَحْصَالٍ أَوْ تَعُوقُهُ أَوْ تَتَجَاوَزُهُ إِلَى ضِدِّهِ
(قَالَ) فَأَمَّا صَلَاحُ أَحْصَالٍ فَهُوَ حُسْنُ الْفِعْلِ مَعَ فَضِيلَةٍ وَطُولٍ مِنْ
الْعَمْرِ وَحَيَاةٍ لَدِيدَةٍ مَعَ السَّلَامَةِ وَالسَّعَةِ فِي أَمَالٍ وَحُسْنِ أَحْصَالٍ

عِنْدَ النَّاسِ مَعَ تَحْصِيلِ الْأَشْيَاءِ الْحَافِظَةِ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَالْفَاعِلَةِ لَهَا .
وَقَدْ يَشْهَدُ أَنَّ هَذَا هُوَ رَسْمُ صَلَاحِ الْحَالِ الْمَشْهُورِ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ
يَرَوْنَ أَنَّ صَلَاحَ الْحَالِ هُوَ هَذَا أَوْ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا وَإِذَا كَانَ
صَلَاحُ الْحَالِ هُوَ هَذَا فَأَجْزَاؤُهُ هِيَ كَرَمُ الْحَسَبِ وَكَثْرَةُ الْإِخْوَانِ
وَالْأَوْلَادِ وَالْيَسَارُ وَحُسْنُ الْفِعْلِ وَالشَّيْخُوخَةُ الصَّالِحَةُ وَفَضَائِلُ الْجَسَدِ
وَمِثْلُ الصِّحَّةِ وَالْجَمَالِ وَالْجَلْدِ وَالْجِرَّةِ وَالْبَطْشِ وَالْعَجْدِ وَالْجَلَالَةِ
وَالسَّعَادَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَأَجْزَاؤُهَا مِثْلُ الْعَقْلِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْعَفَافِ وَالْعَدَالَةِ
وَالْبِرِّ فَإِنَّهُ هَكَذَا أُخْرَى أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مَوْفُورًا مَكْنِيًّا
أَعْنِي إِذَا كَانَتْ لَهُ الْخَيْرَاتُ الْمَوْجُودَةُ مِنْ خَارِجٍ . وَالْخَيْرَاتُ
الْمَوْجُودَةُ فِيهِ النَّفْسَانِيَّةُ وَالْجَسَدَانِيَّةُ وَالَّتِي مِنْ خَارِجٍ هِيَ الْحَسَبُ
وَالْإِخْوَانُ وَالْأَمَالُ وَالْكَرَامَةُ وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ يُعَدُّ مَعَ هَذِهِ نَفْوَذُ
الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِتِّفَاقَاتُ الْجَمِيلَةُ وَهِيَ الْمَسَامَةُ عِنْدَ النَّاسِ سَعَادَةٌ
فَإِنَّ يَهَذِهِ الْأَشْيَاءَ تَكُونُ حَيَاةَ الْمَرْءِ فِي سِيرَتِهِ حَيَاةً مَنْ لَا
يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ وَلَا يَشُوبُ خَيْرُهُ شَيْءٌ مُضَادٌّ . وَإِذَا كَانَ
هَذَا هَكَذَا فَجِبُّ أَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ
النَّظَرِ الْمَقْصُودِ هُنَا وَهُوَ النَّظَرُ الْمَشْهُورُ . فَأَمَّا الْحَسَبُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ
الْقَوْمُ الَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ هُمْ أَوَّلَ مَنْ تَزِلُ الْمَدِينَةُ أَوْ يَكُونُوا قَدَمَاءَ
الْأَثَرِ فِيهَا وَيَكُونُوا مَعَ هَذَا حُكَّامًا أَوْ رُؤَسَاءَ دَوِي ذِكْرِ جَمِيلٍ
وَكَثْرَةَ عَدَدٍ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ هَذَا أَخْرَارًا لَمْ يُخْزَ عَلَيْهِمْ سِبَاءٌ أَوْ
يَكُونُوا مِنْ نَالِ الْأُمُورِ الْجَمِيلَةِ الْمَقْبُولَةِ عِنْدَ النَّاسِ وَإِنْ لَمْ

يَكُونُوا حُكَّامًا وَلَا رُؤَسَاءَ . فَأَمَّا النَّظَرُ فِي الْحَسَبِ هَلْ هُوَ مِنْ
الرِّجَالِ فَقَطْ أَوْ مِنْ النِّسَاءِ فَأَلْظَاهِرُ مِنْ ذَلِكَ وَالْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ
الْجَمِيعِ أَنَّهُ يَكُونُ أَمًّا إِذَا كَانَ مِنْ كِلَيْهِمَا . وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعِيلَ
الْحَاطِبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَشْهُورَ فِي أُمَّةٍ أُمَّةً . وَمِنْ شُرُوطِ الْحَسَبِ أَنْ
يَكُونَ الرَّؤَسَاءُ وَالْأَخْرَارُ مِنْ أُولَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ شَهَرُوا بِالْفَضِيلَةِ
وَالنِّسَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ لَمْ يَنْقَطِعْ وَجُودُهُمْ فِي الْقَوْمِ
الَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ إِلَى وَجُودِهِ هُوَ بَلْ يُوجَدُ فِي ذَلِكَ الْجِنْسِ أَبَدًا
أَشْيَاخُ بِهِذِهِ الصِّفَةِ يَخْلَفُهُمْ غِلْمَانٌ فِي تِلْكَ الْخِلَاصِ . فَإِنَّهُ إِنْ أَنْقَطَعَ
الشَّرَفُ فِي ذَلِكَ الْجِنْسِ الَّذِي هُوَ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ حَسِبًا وَإِنْ لَمْ
يَنْقَطِعْ مِنْهُمْ فَهُوَ حَسِبٌ وَإِنْ أَنْقَطَعَ فِيمَنْ وُلِدَ مِنْهُمْ . وَأَمَّا حُسْنُ
الْحَالِ بِالْأَوْلَادِ وَكَثْرَتِهِمْ فَهُوَ بِمَا لَا حَقَّاءَ بِهِ وَحُسْنُ الْحَالِ بِالْأَوْلَادِ
الْمُشْتَرَكُ لِلْجَمِيعِ هُوَ كَثْرَةُ الْفَتَيَانِ وَصَلَاحُهُمْ فِي فَضَائِلِ الْجَسَدِ
وَفَضَائِلِ النَّفْسِ . أَمَّا فِي فَضَائِلِ الْجَسَدِ فَبِارْتِباعِ أَحْدَاها الْجُرْأَةُ وَهِيَ
أَنْ تَكُونَ خُافُهُمْ خُلُقًا طَبِيعِيَّةً يَفُوقُونَ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ .
وَالثَّانِيَةُ الْجَمَالُ . وَالثَّلَاثَةُ الشَّدَّةُ . وَالرَّابِعَةُ الْبَطْشُ فَهَذِهِ الْآرْبَعُ
يَكُونُ الْعِلْمَانُ صَالِحِينَ فِي فَضَائِلِ أَجْسَادِهِمْ . وَأَمَّا فِي فَضَائِلِ
النُّفُوسِ فَيَكُونُونَ بِاثْنَتَيْنِ بِالْعِفَافِ وَالشَّجَاعَةِ . وَأَمَّا مَا قَدْ يَكُونُ بِهِ
صَلَاحُ حَالِ بَعْضِ النَّاسِ فَكَثْرَةُ الْأَوْلَادِ مِنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ .
وَصَلَاحُ الْحَالِ بِالْإِنَاثِ أَيْضًا يَكُونُ بِفَضِيلَتَيْنِ فِي الْجَسَدِ وَالنَّفْسِ .
أَمَّا فِي الْجَسَدِ فَاثْنَتَانِ الْعِبَالَةُ وَهُوَ عَظَمُ الْأَعْضَاءِ الْعَظَمِ الطَّبِيعِيِّ

وَكثْرَةُ اللَّحْمِ الطَّيِّبِ لَا اللَّوْنُ وَالْجَمَالُ. وَأَمَّا فِي النَّفْسِ فَثَلَاثُ
 الْغَفَاةِ وَحُبُّ الْأَلْفَةِ وَحُبُّ الْكَدِّ فَإِنَّ هَذِهِ الْفَضَائِلَ يَكْمُلُ
 الْمَثَرُ وَهَذِهِ الْفَضَائِلُ الَّتِي قُلْنَا سَبِيلَهَا أَنْ تُوجَدَ فِي الْإِنْسَاءِ كُلِّهِنَّ
 اللَّائِي مِنْ نَسَبِ ذَلِكَ الرَّجُلِ عَلَى الْعُمومِ وَفِي الرِّجَالِ كُلِّهِمْ عَلَى
 الْعُمومِ وَفِي أَوْلَادِهِ الذُّكُورِ خَاصَّةً إِذَا كَانَ أَوَّلُ وَلَدِهِ بِهِ الصَّقَ.
 وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَنْظُرَ هَلِ الْفَضَائِلُ الَّتِي هُوَ مِنْهَا هِيَ هَذِهِ
 الْفَضَائِلُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي فِي أَوْلَادِهِمْ أَمْ لَيْسَ هِيَ هَذِهِ فَإِنَّ كَثِيرًا
 مِنْ الْأَنْمِ يُرْبُونَ أَوْلَادَهُمْ الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ بِالزَّيْنَةِ وَالسِّمَنِ
 وَهُوَ لَا يَقُولُ فِيهِمْ أَرَسَطُوا إِنَّهُ قَدْ قَاتَهُمُ التَّيْضُفُ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ
 بِالْأَبْنَاءِ. قَامًا أَجْزَاءُ الْيَسَارِ فَبِكثْرَةِ الدَّانِيَةِ وَالْأَرْضِيْنَ وَالْعَقَارِ
 وَالْإِنَاثِ وَالْأَمْتَةِ وَالْمَوَاشِي وَجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْخُتْلَفَةِ فِي النَّوعِ
 وَالْجِنْسِ. وَكُلُّ ذَلِكَ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِي حِفْظٍ وَمَعَ حُرِّيَّةٍ
 وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا مُتَمَتِّعًا أَيْ مُلْتَذًا لَا حَافِظًا لَهَا فَقَطُّ أَوْ مُنِيًّا
 (قَالَ) وَمِنْ الْأُمُورِ الْمُنَافِعَةِ فِي الْيَسَارِ وَالنَّفَاعَةِ لَهُ الْأَشْجَارُ
 الْمُشْمَرَةُ وَالْعَلَاتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَاللَّذِيذُ وَنَ هَذِهِ هُوَ مَا يُجْنَى
 بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَفَقَةٍ وَحَدُّ الْحِفْظِ وَالْإِحْرَازِ لِلْمَالِ هُوَ أَنْ يَكُونَ
 فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُتَعَذَّرُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ بِالْحَالِ الَّتِي
 يُمَكِّنُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا وَمِثْلُ أَنْ إِذَا كَانَتْ أَرْضًا أَلَّا تَكُونَ سَجَنَةً وَإِنْ
 كَانَ قَرْسًا أَلَّا يَكُونَ جُوحًا. وَحَدُّ الْحُرِّيَّةِ فِي الْمَالِ أَنْ يَكُونَ
 إِلَيْهِ التَّصَرُّفُ فِي الْمَالِ بِالْإِعْطَاءِ وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَأَمَّا التَّنَعُّمُ بِالْمَالِ

فَهُوَ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى طَرِيقِ التَّلَذُّذِ بِهِ . وَإِنَّمَا اشْتَرَطَ فِي الْغِنَى هَذَا
الشَّرْطَ لِأَنَّهُ أَنْ يَكُونَ الْغِنَى فِي اسْتِعْمَالِ أَمَالٍ أُخْرَى مِنْهُ أَنْ
يَكُونَ فِي اقْتِنَائِهِ لِأَنَّ الْاِقْتِنَاءَ هُوَ فَاعِلُ الْغِنَى وَأَمَّا الْأَسْتِعْمَالُ
فَهُوَ الْغِنَى بَعْنِهِ وَأَمَّا حُسْنُ الْفِعْلِ عَلَى الرَّأْيِ الصَّوَابِ فَهُوَ الَّذِي
يُظَنُّهُ الْكُلُّ قَاضِيًا وَهُوَ الَّذِي يَقْنِي الشَّيْءَ الَّذِي يَتَشَوُّهُ الْأَكْثَرُ
لَا مَحَالَةَ أَوْ الْأَخْيَارُ مِنَ النَّاسِ وَذَوُوا الْكَيْسِ وَالْفِطْنَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا الْكَرَامَةُ فَلَهَا فِي زَمَانِنَا هَذَا لِلْمُعْتَنِي بِحُسْنِ
الْفِعْلِ وَالْإِكْرَامِ النَّاسُ الَّذِينَ لَهُمُ الْعِنَايَةُ الْحَسَنَةُ بِهِمْ هِيَ مُكَافَأَةٌ
عَلَى طَرِيقِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ إِذْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَفْعَالُ لَيْسَ تُكَافِئُهَا
الدَّانِيَةُ وَالْدَّرَاهِمُ . وَلَيْسَ يُكْرَمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْعِنَايَةُ الْحَسَنَةُ بِالنَّاسِ
قَطُّ بَلْ وَالَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْعِنَايَةُ الْحَسَنَةُ أَعْنِي
الَّذِينَ لَهُمْ قُوَّةٌ عَلَى ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ فِي حَالِ الْإِكْرَامِ
وَالْعِنَايَةِ بِالنَّاسِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الْكَرَامَةَ هِيَ الْعِنَايَةُ تَحْلِصُهُمْ مِنْ
الْشُرُورِ الَّتِي لَيْسَ التَّحْلِصُ مِنْهَا يَهَيِّئُ أَوْ إِفَادَتُهُمْ الْخَيْرَاتِ الَّتِي لَيْسَ
إِفَادَتُهَا بِالسَّهْلِ . وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ الْجَمِيلَةُ هِيَ تَكُونَ عَنْ الْغِنَى أَوْ
السُّلْطَانِ أَوْ مَا أَشَبَّ ذَلِكَ تَمَّا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ بِهِ الْقُدْرَةُ عَلَى
أَنْثَالِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ وَقَدْ يُكْرَمُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى خَيْرَاتٍ
يَسِيرَةٍ لَكِنَّا تَكُونُ كَثِيرَةً بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ الزَّمَانِ وَإِلَى
تِلْكَ الْحَالِ . فَكَانَ الْكَرَامَةُ عَلَى الْأَشْيَاءِ الْيَسِيرَةِ هِيَ بِالْعَرَضِ
أَيَّ مِنْ جِهَةٍ مَا عَرَضَ لَتِلْكَ الْأَشْيَاءِ أَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً بِالْإِضَافَةِ

إِلَى ذَلِكَ أَلَوْتِ أَوْ أَحَالَ. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْكَرَامَةُ
فَإِنَّهَا مُشْتَرَكَةٌ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ وَمِنْهَا خَاصَّةٌ. فَالْخَاصَّةُ مِثْلُ الذَّبَاحِ
وَالْقَرَابِينِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ جَرَتْ عَادَةُ الْيُونَانِيِّينَ أَنْ يُكْرَمُوا بِهَا
الْأَمْوَاتُ. وَمِنْهَا عَامَّةٌ وَهِيَ الْمَرَاتِبُ فِي الْجَالِسِ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى
أَقْوَالِهِ وَتَرْكِ مُحَالَفَتِهِ وَالْهَدَايَا الَّتِي تُوجِبُ الْحُبَّ وَالْقُرْبَ. قَانَ الْهَدِيَّةُ
جَمَعَتْ أَمْرَيْنِ بَذَلِ أَلْمَالِ وَالْكَرَامَةِ وَلِذَلِكَ كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً لِجَمِيعِ
النَّاسِ وَكُلِّ إِنْسَانٍ يُحِبُّ فِيهَا مَا يَتَشَوَّقُ لَهُ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ ثَلَاثَةٌ
أَصْنَافٍ إِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ الْكَرَامَةَ وَإِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ أَلْمَالِ وَإِمَّا
صِنْفٌ يَجْمَعُ الْأَمْرَيْنِ. وَالْهَدِيَّةُ قَدْ جَمَعَتْ مُتَشَوِّقَ هَذِهِ الْأَصْنَافِ
الثَّلَاثَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ الْجَسَدِ فَالصِّحَّةُ وَذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا عَرِيضِينَ
مِنَ الْأَسْقَامِ الْبَتَّةِ وَأَنْ يَسْتَعْمِلُوا أَبْدَانَهُمْ لِأَنَّ مِنْ لَا يَسْتَعْمِلُ
صِحَّتَهُ فَلَيْسَ يَقْبِطُ نَفْسَهُ بِالصِّحَّةِ أَيْ لَيْسَ هُوَ حَسَنُ أَحْصَالٍ بِهَا وَهُوَ
بَعِيدٌ مِنْ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَوْ مِنْ أَكْثَرِهَا

(قَالَ) وَأَمَّا الْحُسْنُ فَإِنَّهُ مُخْتَلِفٌ بِاخْتِلَافِ أَصْنَافِ الْإِنْسَانِ
فَحُسْنُ الْعِلْمَانِ وَجَاهِلُهُمْ هُوَ أَنْ تَكُونَ أَبْدَانُهُمْ وَخَلْقُهُمْ بِهَيْئَةٍ
يُفَسِّرُ بِهَا قَبُولُهُمْ الْأَلَامَ وَالْإِنْفِعَالَ أَيْ لَا يَكُونُونَ غَيْرَ مُحْتَمِلِينَ
لِلَّذِي وَأَنْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يُسْتَلَذُّ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الْجُرْيِ
وَالْعَلْبَةِ

(قَالَ) وَلِذَلِكَ مَا يَرَى النَّاسُ الْعِلْمَانَ الَّذِينَ هُمْ مُهَيَّأُونَ نَحْوَ الْخَمْسِ

الْمُزَاوَلَاتِ وَاللَّعِبَاتِ حَسَنًا جِدًّا وَنَعْنِي بِالْخَنَسِ الْمُزَاوَلَاتِ وَاللَّعِبَاتِ
الْأَشْيَاءَ الَّتِي كَانَ الْيُونَانِيُّونَ يُرَوِّضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ الْعَدُوُّ
وَالرُّكُوبُ وَالْمُتَأَقَّةُ وَالصِّرَاعُ وَالْمَلَاكِرَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ النَّاسُ يُرَوِّضُونَ فِيمَنْ كَانَ مُهَيَّأً لِنَحْوِ هَذِهِ
الْأَفْعَالِ الْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا لِنَحْوِ الْحِقَّةِ وَالْعَلْبَةِ وَإِذَا
شَبَّ أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الْعِلْمَانِ كَانُوا لَذِيذِي النَّظَرِ عِنْدَ الْعَمَلِ فِي
الْحَرْبِ وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْهَيْئَةِ الَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا لِنَحْوِ الْحَرْبِ. وَأَمَّا
الشُّيُوخُ فَجَبَلُهُمْ هُوَ اسْتِلْذَافُ أَفْعَالِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ جَدُّ وَهِيَ
الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُرَاضُ الصِّبْيَانُ عَلَى هَذِهِ اللَّعِبَاتِ الْخَمْسِ وَهِيَ
الْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذَلِكَ يُرَوِّضُونَ غَيْرَ دَوِيَّ أَحْزَانٍ وَلَا غَمٍّ .
وَذَلِكَ أَنَّ الْحُزْنَ وَالْغَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِالشَّيْخِ ذُنَّ بِهِ أَنَّ ذَلِكَ الطَّارِئَ
الَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ وَمِثْلَ الْفَقْرِ وَالْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ
ذَلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا الْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةُ يُجْرِكُ الْمَرْءَ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ
شَاءَ. فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَسَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ مَغَطَّهُ
وَكَانَ هَذَا الْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو
بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ الصَّخَامَةِ فَهُوَ أَنْ يَفُوتَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ
وَيُجَاوِرَهُمْ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ وَالْعُمُقِ وَتَكُونُ مَعَ صَخَامَتِهِ حَرَكَاتُهُ
غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ لِحُودَةٍ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ وَتَكُونُ صَخَامَتُهُ لَيْسَ سَبَبًا سِمًا

وَلَا أَمْرًا مُكْتَسَبًا

(قَالَ) وَأَمَّا الْهَيْئَةُ الَّتِي تُسَمَّى الْجِهَادِيَّةَ فَإِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ الصَّخَامَةِ وَالْجَلْدِ وَالْحِفَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا أَفْتَرَتِ الْحِفَّةُ مَعَ الْقُوَّةِ أَمَكَنَ أَنْ يَبْلُغَ بِالسَّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلْدٍ لَمْ يَبْلُغَ بِالسَّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا. وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي جَمَعَ الصَّخَامَةَ وَالْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَالَّذِي جَمَعَ الصَّخَامَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْحِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا الَّذِي جَمَعَ الصِّرَاعَ وَالْحِفَّةَ مَعَ فَيْسَى عِنْدَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُسْتَقَى مِنَ الْحَذَقِ بِاسْتِعْمَالِ الْقُوَّةِ وَالْحِفَّةِ وَأَمَّا الَّذِي جَمَعَ هَذِهِ الْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَا الْخُمْسِ اللَّعْبِ

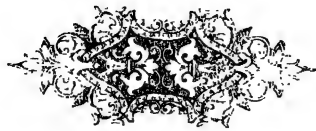
(قَالَ) وَأَمَّا الشَّيْخُوخَةُ الصَّالِحَةُ فَإِنَّهَا دَوَامُ الْكِبَرِ مَعَ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْحُزَنِ لِأَنَّهُ إِنْ عَجَلَتْ وَفَاةُ الْإِنْسَانِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ مُتَهَيَّ الشَّيْخُوخَةَ لَمْ يَكُنْ ذَا شَّيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَإِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ الْآخِرَانِ وَلَا أَنْ أُهْمِلَ إِلَى مُتَهَيَّ الشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَّيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَإِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ الْآخِرَانِ إِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ الْجَلْدِ وَقَضَائِلِ الْبَدَنِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَقْتَرِهِ مَصَائِبُ تَكَدَّرَ شَيْخُوخَتُهُ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَرِضًا أَوْ كَانَ أُنْجِلِدَ غَيْرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ قَدْ أَغْتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِصَالِحٍ الشَّيْخُوخَةِ وَإِنْ كَانَ مُعْمَرًا. وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ مَرِضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيْفَ يَكُونُ طُولُ الْعُمُرِ مَعَ الْأَمْرَاضِ لَكِنْ يُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ الْعُمُرِ غَيْرَ قُوَّةِ الصِّحَّةِ فَإِنَّا نَرَى قَوْمًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

أَعْمَارُهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ مُسْقَامُونَ. وَتَضَحُّجُ هَذَا هُوَ لِلْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ وَلَيْسَ
فِي تَضَحُّجِهِ فِي هَذَا الْعِلْمِ مَنَفَعَةٌ وَالْحَطِيبُ إِنَّمَا يَكْتَفِي مِنْ ذَلِكَ
بِالشَّيْءِ الظَّاهِرِ

(قَالَ) وَأَمَّا كَثَرَةُ الْحِلَّةِ وَصَلَاحُ حَالِ الْإِنْسَانِ بِالْإِخْوَانِ
فَذَلِكَ أَيْضًا غَيْرُ خَفِيِّ إِذَا حُدِّ مَاهُوَ الْخَلِيلُ وَالصَّاحِبُ . وَهُوَ أَنْ
يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفْعَلُ الْخَيْرَ الَّذِي يَنْظُرُ أَنَّهُ يَنْفَعُ بِهِ
الْآخَرَ لَا الْخَيْرَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ فِي نَفْسِهِ فَقَطْ . وَإِذَا كَانَتْ الْحِلَّةُ
وَالصُّحْبَةُ هِيَ هَذِهِ فَبَيِّنَ أَنَّ الْمَرْءَ يَكُونُ صَالِحَ الْحَالِ بِالْإِخْوَانِ
الْكَثِيرَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا صَلَاحُ الْجَدِّ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْإِتِّفَاقُ لِإِنْسَانٍ مَا
عِلَّةُ لَوْجُودِ الْخَيْرِ لَهُ . وَذَلِكَ إِمَّا مِنْ الْخَيْرَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي ذَاتِهِ وَإِمَّا
مِنْ الْخَيْرَاتِ الْمَوْجُودَةِ لَهُ مِنْ خَارِجِهِ . وَعِلَّةُ الْإِتِّفَاقِ قَدْ تَكُونُ
الصَّنَاعَةُ وَقَدْ تَكُونَ الطَّبِيعَةُ وَهُوَ الْأَكْثَرُ . فَمِثَالُ مَا يَكُونُ عَنْ
الْإِتِّفَاقِ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يُولَدَ الْإِنْسَانُ ذَا قُوَّةٍ وَهَيْئَةٍ يَغْسُرُ بِهَا قَبُولُهُ
الْأُمُورَ الْوَارِدَةَ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ . فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ صَحِيحًا
فَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ الْإِتِّفَاقُ الطَّبِيعِيُّ وَمِثْلُ أَنْ يُولَدَ صَحِيحًا . وَقَدْ يَكُونُ
الْإِتِّفَاقُ الصَّنَاعِيُّ مِثْلُ أَنْ يُسْقَى سُمًّا فَيَبْرَأَ مِنْ مَرَضٍ كَانَ بِهِ .
وَأَمَّا الْجَمَالُ وَالصَّخَاةُ فَعِلَّتُهُمَا الْإِتِّفَاقُ الصَّنَاعِيُّ وَالطَّبِيعِيُّ وَجَمْعُهُ
الْأَمْرُ أَنَّ الْخَيْرَاتِ الَّتِي سَبَبُهَا الْجَدُّ الَّذِي هُوَ حُسْنُ الْإِتِّفَاقِ هِيَ
الْخَيْرَاتُ الَّتِي يَكُونُ الْمَرْءُ مَغْبُوطًا بِهَا مَحْسُودًا عَلَيْهَا . وَقَدْ يَكُونُ

أَجْدُّ عِلَّةَ خَيْرَاتٍ لَيْسَتْ هِيَ خَيْرَاتٍ بِالْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا تُرَى خَيْرَاتٍ
 بِالْإِضَافَةِ وَالْمُقَايَسَةِ إِلَى الْغَيْرِ. كَمَا قَدْ يَكُونُ التَّفْجِيعُ فِي حَقِّ إِنْسَانٍ
 خَيْرًا مَّا إِذَا رُئِيَ غَيْرُهُ فَتَجِبُ مِنْهُ وَمِثْلَ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا وَقَفًا مِنْ
 الْحَرْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فَاصَابَ أَحَدُهُمَا السَّهْمُ وَلَمْ يُصَبِّ الثَّانِي
 فَإِنَّ الَّذِي لَمْ يُصَبِّ السَّهْمُ يَرَى أَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهِ خَيْرٌ
 كَثِيرٌ. وَبِخَاصَّةٍ إِنْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي لَمْ يُصَبِّ السَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ
 يَشْهَدَ الْحُرُوبَ كَثِيرًا وَالْآخَرُ لَمْ يَشْهَدْ قَطُّ إِلَّا تِلْكَ الْحَرْبَ
 وَكَذَلِكَ إِذَا وَجَدَ الْكَثْرَ وَاحِدٌ يَمْنُ طَلْبُهُ. قَدْ يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ
 بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يُصَبِّهِ وَإِنْ كَانَ الْكَثْرُ يَسِيرًا فَمِنْ هَذَا
 وَنَحْوِهِ يَنْظُرُ الْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ الْجَدِّ. وَأَمَّا تَعْرِيفُ الْقَضِيَّةِ فَأَوَّلَى
 الْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ الْقَوْلِ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُنَادِحُ بِهَا. لِأَنَّ
 الْقَضِيَّةَ خَاصَّةً بِالْمَادِحِ وَلِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمَادِحُ هُوَ الَّذِي
 يَعْرِفُ بِاسْتِقْصَاءِ الْقَضِيَّةِ وَالْقَضَائِلِ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبَلٌ وَحَاضِرٌ
 فَأَلْمَادِحُ إِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةٍ سَاهِيَةٍ حَاضِرَةٌ وَالْمَشِيرُ مِنْ جِهَةٍ
 آتِيَةٍ مُسْتَقْبَلَةٌ أَيْ نَافِعَةٌ



المبحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

تَبْدَأُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ بِذِكْرِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَيْرِ
وَالسَّعَادَةِ بَعْدَ أَنْ نَذْكُرَ الْقَاطِئَ أَرِسْطَاطَالِيْسَ أَقْبَدَاءَ بِهِ وَتَوْفِيَةَ
لِحَقِّهِ فَقُولُ: إِنَّ الْخَيْرَ عَلَى مَا حَدَّهُ وَاسْتَحْسَنَهُ مِنْ آرَاءِ الْأَقْدَمِيْنَ هُوَ
الْمَقْصُودُ مِنَ الْكُلِّ وَهِيَ الْعَالِيَةُ الْأَخِيرَةُ وَقَدْ يُسَمَّى الشَّيْءُ النَّافِعُ
فِي هَذِهِ الْعَالِيَةِ خَيْرًا فَأَمَّا السَّعَادَةُ فَهِيَ الْخَيْرُ بِالْإِضَاقَةِ إِلَى صَاحِبِهَا
وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ فَالسَّعَادَةُ إِذَا خَيْرٌ مَا. وَقَدْ تَكُونُ سَعَادَةُ الْإِنْسَانِ
غَيْرَ سَعَادَةِ الْفَرَسِ وَسَعَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تَمَامِهِ وَكَمَالِهِ الَّذِي يُحْضِرُهُ .
فَأَمَّا الْخَيْرُ الَّذِي يَقْصِدُهُ الْكُلُّ بِالشَّوْقِ فَهُوَ طَبِيعَةُ تُقْصَدُ وَلَهَا
ذَاتٌ وَهُوَ الْخَيْرُ الْعَالَمُ لِلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ فَهُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ
مُشْتَرِكُونَ فِيهَا. فَأَمَّا السَّعَادَةُ فَهِيَ خَيْرٌ مَا لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ
فَهِيَ إِذَا بِالْإِضَاقَةِ لَيْسَ لَهَا ذَاتٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِالْإِضَاقَةِ إِلَى
قَاصِدِيهَا. فَلِذَلِكَ يَكُونُ الْخَيْرُ الْمَطْلُوقُ غَيْرَ مُخْتَلَفٍ فِيهِ وَقَدْ يُظَنُّ
بِالسَّعَادَةِ أَنَّهَا تَكُونُ لِعَيْنٍ لِنَاطِقَيْنِ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا هِيَ
اسْتِعْدَادَاتٌ فِيهَا لِقَبُولِ تَمَامَاتِهَا وَكَمَالَاتِهَا مِنْ غَيْرِ قَضْدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا
إِرَادَةٍ وَتِلْكَ أَلَا سَعَادَاتٌ هِيَ الشَّوْقُ أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى الشَّوْقِ

مِنَ الدَّاطِقِينَ بِالْإِرَادَةِ . فَأَمَّا مَا يَتَأْتِي لِلْخَيْرَاتِ فِي مَآكِلِهَا
وَمَشَارِبِهَا وَرَاحَتِهَا فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بِمَجْتَمَعٍ أَوْ اتِّفَاقٍ وَلَا يُوْهَلُ لِأَسْمِ
السَّعَادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي الْإِنْسَانِ أَيْضًا . وَإِنَّمَا اسْتَحْسِنَ الْحَدُّ الَّذِي
ذَكَرْنَاهُ لِلْخَيْرِ الْمَطْلُوقِ لِأَنَّ الْعَقْلَ لَا يُطْلَقُ السَّغْيَ وَالْحَرَكَةَ إِلَى لَا
نِهَآيَةٍ وَهَذَا أَوَّلُ فِي الْعَقْلِ . وَمِمَّا أَلْ ذَلِكَ أَنَّ الصِّاعَاتِ وَالْهَمَمِ
وَالْتَّدَابِيرِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ كُلُّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَّا وَلَمْ يُقْصَدَ بِهِ خَيْرٌ
مَّا فَهُوَ عَبَثٌ وَالْعَقْلُ يَحْتَذِرُهُ وَيَمْتَنِعُ مِنْهُ وَيَا لَوَاجِبِ صَارَ الْخَيْرُ الْمَطْلُوقُ
هُوَ الْمَقْصُودُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ النَّاسِ . وَلَكِنْ بَقِيَ أَنْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا
الْغَايَةُ الْآخِرَةُ مِنْهُ الَّتِي هِيَ غَايَةُ الْخَيْرَاتِ الَّتِي تَرْتَقِي الْخَيْرَاتُ
كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى تَجْعَلَ غَرَضًا وَتَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَا تَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا
تَنْتَشِرَ أَفْكَارُنَا فِي الْخَيْرَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً
بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا تَغْلَطُ أَيْضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَظَنُّهُ خَيْرًا
ثُمَّ تَفْنَى أَعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَالتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَبْنِي بِمَشِيَّةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ

البعث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسه)

الْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ أَرِسْطَاطَالِيْسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْقُونِيُْسُ
وَعَبْرُهُ هَكَذَا قَالَ : الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

مَدُوحَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ بِالْقُوَّةِ كَذَلِكَ وَمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِيهَا . فَالْشَّرِيقَةُ
 مِنْهَا هِيَ الَّتِي شَرَفُهَا مِنْ ذَاتِهَا وَتَجَمُّلُ مَنْ أَقْتَنَاهَا بِرِيفًا وَهِيَ
 الْحِكْمَةُ وَالْعَقْلُ . وَالْمَدُوحَةُ مِنْهَا وَمِثْلُ الْفَضَائِلِ وَالْأَفْعَالِ الْحَبِيبَةِ
 الْإِرَادِيَّةِ . وَالَّتِي هِيَ بِالْقُوَّةِ مِثْلُ التَّهَيُّوِّ وَالِاسْتِعْدَادِ إِنِّيلِ الْأَشْيَاءِ
 الَّتِي تَقَدَّمَتْ . وَالنَّافِعَةُ هِيَ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُطْلَبُ لِذَاتِهَا بَلْ
 لِيَتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى الْخَيْرَاتِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ
 غَايَاتُ وَمِنْهَا مَا هِيَ لَيْسَتْ بِغَايَاتٍ . وَالغَايَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ تَامَةٌ وَمِنْهَا
 مَا هِيَ غَيْرُ تَامَةٍ . فَالَّتِي هِيَ تَامَةٌ كَالسَّعَادَةِ وَذَلِكَ أَنَا إِذَا وَصَلْنَا
 إِلَيْهَا لَمْ نَتَفَتَّحْ أَنْ نَسْتَرِيدَ إِلَيْهَا شَيْئًا آخَرَ . وَالَّتِي هِيَ غَيْرُ تَامَةٍ
 فَكَالْصِّحَّةِ وَالْيَسَّارِ مِنْ قَبْلِ أَنَا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا نَحْتَجِبُنَا أَنْ نَسْتَرِيدَ
 فَتَفْتَنِي أَشْيَاءُ أُخْرَى . وَأَمَّا الَّتِي لَيْسَتْ بِغَايَةٍ أَلْبَتَّه فَكَالْعِلَاجِ وَالتَّعَلُّمِ
 وَالرِّيَاضَةِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ مُؤَثِّرٌ لِأَجْلِ ذَاتِهِ
 وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤَثِّرٌ لِأَجْلِ غَيْرِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤَثِّرٌ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا وَمِنْهَا
 مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْهَا . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ
 عَلَى الْإِطْلَاقِ وَمِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ الْضَّرُورَةِ وَالْإِتِّفَاقَاتِ الَّتِي تَتَّفِقُ
 لِبَعْضِ النَّاسِ وَفِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ وَآيضًا مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ لَجَمِيعِ
 النَّاسِ وَمِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَفِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَمِنْهَا مَا لَيْسَ بِخَيْرٍ
 لَجَمِيعِ النَّاسِ وَلَا مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ
 مِنْهَا مَا هُوَ فِي الْجَوْهَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الْكَيْفِيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي
 الْكَيْفِيَّةِ وَفِي سَائِرِ الْمَقُولَاتِ مِنْهَا كَالْقُوَى وَالْمَلَكَاتِ وَمِنْهَا

كَأَلْأَحْوَالِ وَمِنْهَا كَالْأَفْعَالِ وَمِنْهَا كَالْعَايَاتِ وَمِنْهَا كَالْأَوَادِ وَمِنْهَا
كَالْآلَاتِ. وَوُجُودُ الْخَيْرَاتِ فِي الْمَقُولَاتِ كُلِّهَا يَكُونُ عَلَى هَذَا
الْمِثَالِ أَمَّا فِي الْجَوْهَرِ أَعْنِي مَا لَيْسَ بِعَرَضٍ فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
هُوَ الْخَيْرُ الْأَوَّلُ فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَتَحَرَّكُ نَحْوَهُ بِالشَّوْقِ إِلَيْهِ وَلِأَنَّ
مَالَ الْخَيْرَاتِ الْأَلَهِيَّةِ مِنَ الْبَقَاءِ وَالسَّرْمَدِيَّةِ وَالنَّجْمِ مِنْهُ. وَأَمَّا فِي
الْكَيْفِيَّةِ فَالْعَدَدُ الْمُعْتَدِلُ وَالْمِقْدَارُ الْمُعْتَدِلُ وَأَمَّا فِي الْكَيْفِيَّةِ
فَكَاللَّذَاتِ. وَأَمَّا فِي الْإِضَافَةِ فَكَالصِّدَقَاتِ وَالرِّئَاسَاتِ. وَأَمَّا فِي
الْأَيْنِ وَالْمَتَى فَكَالْمَكَانِ الْمُعْتَدِلِ وَالزَّمَانِ الْأَيْنِقِ الْبَهْجِ. وَأَمَّا فِي
الْوَضْعِ فَكَالْمَقُودِ وَالْإِضْطِحَاعِ وَالْإِتِّكَاءِ الْمُوَافِقِ. وَأَمَّا فِي الْمِلْكِ
فَكَالْأَمْوَالِ وَالْمَنَافِعِ. وَأَمَّا فِي الْإِنْفَعَالِ فَكَالسَّمْعِ الطَّيِّبِ
وَسَائِرِ الْمُحْسُوسَاتِ الْمُؤَثَّرَةِ. وَأَمَّا فِي الْفِعْلِ فَفِي نَفَاذِ الْأَمْرِ وَرَوَاجِ
الْفِعْلِ. (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَعْقُولَاتٌ وَمِنْهَا مُحْسُوسَاتٌ
(وَأَمَّا السَّعَادَةُ) فَقَدْ قُلْنَا إِنَّهَا خَيْرٌ مَا وَهِيَ تَمَامُ الْخَيْرَاتِ
وَعَايَاتُهَا وَالنَّجْمُ هُوَ الَّذِي إِذَا بَلَّغْنَا إِلَيْهِ لَمْ نَخْتِجْ مَعَهُ إِلَى شَيْءٍ
آخَرَ فَلِذَلِكَ نَقُولُ إِنَّ السَّعَادَةَ هِيَ أَفْضَلُ الْخَيْرَاتِ وَلَكِنَّا نَحْتَاجُ
فِي هَذَا التَّمَامِ الَّذِي هُوَ الْعَايَةُ الْقُضْرَى إِلَى سَعَادَاتٍ أُخَرَ وَهِيَ
الَّتِي فِي الْبَدَنِ وَالَّتِي خَارِجَ الْبَدَنِ. (وَأَرِسْطَاطَلِسُ) يَقُولُ إِنَّهُ
يَعْسُرُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ الْأَفْعَالَ الشَّرِيفَةَ بِلَا مَادَّةٍ مِثْلِ
اتِّسَاعِ الْيَدِ وَكَثْرَةِ الْأَصْدِقَاءِ وَجُودَةِ النَّجْتِ
(وَأَمَّا أَقْسَامُ) السَّعَادَةِ عَلَى مَذْهَبِ هَذَا الْحَكِيمِ فِيهِ خَمْسَةٌ

أَقْسَامُ : (أَحَدُهَا) فِي صِحَّةِ الْبَدَنِ وَلُطْفِ الْخَوَاسِ وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ أَعْتِدَالِ الزَّوْجِ أَغْنِي أَنْ يَكُونَ جَيِّدَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالشَّمِّ وَالذَّوْقِ وَاللَّمْسِ . (وَالثَّانِي) فِي الثَّرْوَةِ وَالْأَعْوَانِ وَأَشْبَاهِهِمَا حَتَّى يَتَّسِعَ لِأَنْ يَضَعَ أَمْوَالَهُ فِي مَوْضِعِهِ وَيَعْمَلَ بِهِ سَائِرَ الْخَيْرَاتِ وَيُوَاسِي مِنْهُ أَهْلَ الْخَيْرَاتِ خَاصَّةً وَالْمُسْتَخِينِ عَامَّةً وَيَعْمَلَ بِهِ كُلَّ مَا يَزِيدُ فِي فَضْلِهِ وَيَسْتَحِقُّ الثَّنَاءَ وَالْمَدْحَ عَلَيْهِ . (وَالثَّالِثُ) أَنْ تَحْسُنَ أُحْدُوَّتَهُ فِي النَّاسِ وَيُنْشَرِ ذِكْرُهُ بَيْنَ أَهْلِ الْفَضْلِ فَيَكُونَ مَمْدُوحًا بَيْنَهُمْ يُكْثَرُونَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ لِمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالْمَعْرِوفِ . (وَالرَّابِعُ) أَنْ يَكُونَ مُنْجَحًا فِي الْأُمُورِ وَذَلِكَ إِذَا اسْتَمْتَّ كُلُّ مَا رَوَى فِيهِ وَعَزَمَ عَلَيْهِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى مَا يَأْمُلُهُ مِنْهُ . (وَالْخَامِسُ) أَنْ يَكُونَ جَيِّدَ الرَّأْيِ صَحِيحَ الْفِكْرِ سَلِيمَ الْأَعْتِقَادَاتِ فِي دِينِهِ بَرِيئًا مِنَ الْخَطَا وَالزَّلَلِ جَيِّدَ الْمَشُورَةِ فِي الْأَرَءَاءِ . فَمَنْ اجْتَمَعَتْ لَهُ هَذِهِ الْأَقْسَامُ كُلُّهَا فَهُوَ السَّعِيدُ الْكَامِلُ عَلَى مَذْهَبِ هَذَا الرَّجُلِ الْفَاضِلِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ بَعْضُهَا كَانَ حَظُّهُ مِنَ السَّعَادَةِ بِحَسَبِ ذَلِكَ . (وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ) قَبْلَ هَذَا الرَّجُلِ مِثْلُ فَيْثَاغُورَسَ وَبُقْرَاطَ وَأَوَّلَاطُونَ وَأَشْبَاهِهِمْ فَلَنْتَهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْفَضَائِلَ وَالسَّعَادَةَ كُلَّهَا فِي النَّفْسِ وَخَدَّهَا وَلِذَلِكَ لَمَّا قَسَمُوا السَّعَادَةَ جَعَلُوهَا كُلَّهَا فِي قُوَى النَّفْسِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ (وَهِيَ الْحِكْمَةُ وَالسَّجَاعَةُ وَالْفِطْنَةُ وَالْعَدَالَةُ) . وَاجْمَعُوا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْفَضَائِلَ هِيَ كَافِيَةٌ فِي السَّعَادَةِ وَلَا يُجْتَاجُ مَعَهَا إِلَى غَيْرِهَا مِنْ فَضَائِلِ الْبَدَنِ

وَلَا مَا هُوَ خَارِجَ الْبَدَنِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَصَلَ تِلْكَ الْفَضَائِلُ لَمْ
يُضِرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيمًا نَاقِصَ الْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ
أَمْرَاضِ الْبَدَنِ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُلْحَقَ النَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ
أَفْعَالِهَا مِثْلُ فُسَادِ الْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ الذِّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا . وَأَمَّا الْفَقْرُ
وَالْحُمُولُ وَسُقُوطُ أَحَالٍ وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ
بِقَادِحَةٍ فِي السَّعَادَةِ الْبَتَّةَ . وَأَمَّا الرِّوَاقِيُّونَ وَجَمَاعَةُ مِنَ الطَّبِيعِيِّينَ
فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا الْبَدَنَ جُزْءًا مِنَ الْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ
فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذَلِكَ أَضْطَرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا السَّعَادَةَ الَّتِي فِي النَّفْسِ
غَيْرَ كَامِلَةٍ إِذَا لَمْ يَثْبُرْنَ بِهَا سَعَادَةُ الْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجُ الْبَدَنِ
أَيْضًا أَعْيَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ بِالنَّجْتِ وَالْجِدِّ . وَالْمُحَقِّقُونَ مِنْ
الْأَفْلَاسِفَةِ يَحْقِرُونَ أَمْرَ النَّجْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤْتَهُونَ
تِلْكَ الْأَشْيَاءَ لِأَسْمِ السَّعَادَةِ لِأَنَّ السَّعَادَةَ شَيْءٌ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ
وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ الْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ
لِأَحْسَنِ الْأَشْيَاءِ وَهُوَ الَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَحْصُلُ بِرَقِيَّةٍ وَلَا
فِكْرِ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلِ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيبًا

وَلِهَذَا النَّظَرِ اخْتَلَفَ أَقْدَمَاءُ فِي السَّعَادَةِ الْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ
أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْبَدَنِ وَالطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا .
وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْقَوْمُ الَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ السَّعَادَةَ الْعُظْمَى هِيَ فِي
النَّفْسِ وَخَدَهَا وَسَمَّوْا الْإِنْسَانَ ذَلِكَ الْجَوْهَرُ وَخَدَهُ دُونَ الْبَدَنِ
وَلِذَلِكَ حَكَمُوا أَنَّهَا مَا دَامَتْ فِي الْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةٌ بِالطَّبِيعَةِ وَكَدَرَهَا

وَتَحَاسَاتِ الْبَدَنِ وَضُرُورَاتِهِ وَحَاجَاتِ الْإِنْسَانِ بِهِ وَافْتِقَارَاتِهِ إِلَى
 الْأَشْيَاءِ الْكَثِيرَةِ فَلَيْسَتْ سَعِيدَةً عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَآيَضًا لَمَّا رَأَوْهَا لَا
 تَكْمُلُ لَوْجُودِ الْأَشْيَاءِ الْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَبْرِ عَنْهَا بِظُلْمَةِ الْهَيُولَى
 أَغْنَى قُصُورَهَا وَنُقْصَانَهَا ظَنُّوا أَنَّهَا إِذَا فَارَقَتْ هَذِهِ الْكُدُورَةَ فَارَقَتْ
 أَجْهَالَاتِ وَصَفَتْ وَخَلَصَتْ وَقَبِلَتْ الْإِضَاءَةَ وَالتَّوْرَ الْإِلَهِيَّ أَغْنَى الْعَقْلَ
 التَّامَّ. وَيَجِبُ عَلَى رَأْيٍ هَؤُلَاءِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْعُدُ السَّعَادَةَ التَّامَّةَ
 إِلَّا فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَأَمَّا الْفِرْقَةُ الْآخَرَى فَلَانْهَا قَالَتْ إِنَّهُ
 مِنْ أَتَقَبُّجِ الشَّنِيعِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَا دَامَ حَيًّا يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ
 الصَّالِحَةَ وَيَعْتَقِدُ الْآرَاءَ الصَّحِيحَةَ وَيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ الْفَضَائِلِ كُلِّهَا أَنْفُسِهِ
 أَوْ لَا ثُمَّ لَا بِنَاءَ جَنَسِهِ ثَانِيًا وَيَخْلِفُ رَبَّ الْعِزَّةِ تَقْدَسَ ذِكْرُهُ فِي
 خَلْقِهِ بِهِذِهِ الْأَفْعَالِ الْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ شَقِيٌّ نَاقِصٌ حَتَّى إِذَا مَاتَ
 وَعَدِمَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ صَارَ سَعِيدًا تَامَ السَّعَادَةِ وَارِسَ طَائِلِيسُ يَتَحَقَّقُ
 بِهِذَا الرَّأْيِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي السَّعَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِنْسَانُ هُوَ
 الْمُرَكَّبُ عِنْدَهُ مِنْ بَدَنِ وَنَفْسٍ وَلِذَلِكَ حَدَّ الْإِنْسَانِ بِاللَّاطِقِ
 أَلَمَاتٍ وَبِاللَّاطِقِ أَلَمَاتٍ بِرَجُلَيْنِ وَمَا أَشَبَهَ ذَلِكَ. وَهَذِهِ الْفِرْقَةُ وَهِيَ
 الَّتِي رَأْسُهَا أَرِسْطَاطَالِيسُ رَأَتْ أَنَّ السَّعَادَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ تَحْصُلُ
 الْإِنْسَانُ إِذَا سَعَى لَهَا وَتَعَبَ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى أَقْصَاهَا. وَلَمَّا رَأَى
 الْحَكِيمُ ذَلِكَ وَأَنَّ النَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِي هَذِهِ السَّعَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنَّهَا
 قَدْ أَشْكَتْ عَلَيْهِمْ إِشْكَالًا شَدِيدًا أَحْتَاجَ أَنْ يَتَعَبَ فِي الْإِبَاتَةِ
 عَنْهَا وَاطَّاعَهُ الْكَلَامَ فِيهَا. وَذَلِكَ أَنَّ الْفَقِيرَ يَرَى أَنَّ السَّعَادَةَ الْعُظْمَى

فِي الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ وَالْمَرِيضَ يَرَى أَنَهَا فِي الصِّحَّةِ وَالسَّلَامَةِ وَالذَّلِيلَ
يَرَى أَنَهَا فِي الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ وَالْخَلِيعَ يَرَى أَنَهَا فِي التَّمَكُّينِ مِنَ
الشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا وَالْعَاشِقَ يَرَى أَنَهَا فِي الظَّفَرِ بِالْمَعْشُوقِ
وَالْفَاضِلَ يَرَى أَنَهَا فِي إِفَاضَةِ الْمَعْرُوفِ عَلَى الْمُسْتَخِيقِينَ وَالْفَيْلَسُوفَ
يَرَى أَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا إِذَا كَانَتْ مُرْتَبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ الْعَدْلِ أَعْنِي عِنْدَ
الْحَاجَةِ وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَحِبُّ وَكَمَا يَحِبُّ وَعِنْدَ مَنْ يَحِبُّ فَفِي
سَعَادَاتِ كُلِّهَا وَمَا كَانَ وَنَهَا يُرَادُ لِشَيْءٍ آخَرَ فَبِذَلِكَ الشَّيْءِ أَحَقُّ
بِاسْمِ السَّعَادَةِ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ هَاتَيْنِ الْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ ظَرْأًا مَا
وَجَبَ أَنْ تُثَبَّتَ فِي ذَلِكَ مَا نَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ فَقَوْلُ :
إِنَّ الْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا الْأَرْوَاحَ الطَّيِّبَةَ الَّتِي
تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا الْأَنْعَامَ لِأَنَّهُ
مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا فَهُوَ بِالْخَيْرِ الْجِسْمَانِيِّ الَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ الْأَنْعَامَ مُقِيمٌ
فِي هَذَا الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيَعْمُرَهُ وَيُنْظِمَهُ وَيُرْتَبَهُ حَتَّى إِذَا
ظَفِرَ بِهَذِهِ الْمُرْتَبَةِ عَلَى الْكَمَالِ انْتَقَلَ إِلَى الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ وَأَقَامَ
فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ وَرَبَّيْنِي أَنْ
يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ وَالْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ
قَالًا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ إِنَّا لَسْنَا نَعْنِي بِالْعُلَوِيِّ الْمَكَانَ الْأَعْلَى فِي الْحِسِّ
وَلَا بِالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ الْمَكَانَ الْأَسْفَلَ فِي الْحِسِّ بَلْ كُلُّ مُحْسُوسٍ
فَهُوَ أَسْفَلٌ وَإِنْ كَانَ مُحْسُوسًا فِي الْمَكَانِ الْأَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

أَعْلَى وَإِنْ كَانَ مَعْقُولًا فِي الْمَكَانِ الْأَسْفَلِ . وَيَتَّبِعِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ
 لَيْسَ يُحْتَاجُ فِي صِحَّةِ الْأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ الْمُسْتَقْنِيَةِ عَنْ الْأَبْدَانِ إِلَى
 شَيْءٍ مِنْ السَّعَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا سِوَى سَعَادَةِ النَّفْسِ فَقَطْ
 أَغْنِي الْمَعْقُولَاتِ الْآبَدِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْحِكْمَةُ فَقَطْ . فَإِذَا مَا دَامَ
 الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا فَلَيْسَ تَتِمُّ لَهُ السَّعَادَةُ إِلَّا بِتَحْصِيلِ الْحَالَيْنِ جَمِيعًا
 وَلَيْسَ يَحْصُلَانِ عَلَى التَّمَامِ إِلَّا بِالْأَشْيَاءِ النَّافِعَةِ فِي الْوُضُوعِ إِلَى
 الْحِكْمَةِ الْآبَدِيَّةِ . فَالسَّعِيدُ إِذَا مِنْ النَّاسِ يَكُونُ فِي إِحْدَى
 مَرْتَبَتَيْنِ إِمَّا فِي مَرْتَبَةِ الْأَشْيَاءِ الْجَسَدِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِأَحْوَالِهَا السُّفْلَى
 سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُطَالِعُ الْأُمُورَ الشَّرِيفَةَ بَاحِثًا عَنْهَا مُشْتَاقًا
 إِلَيْهَا مُتَحَرِّكًا نَحْوَهَا مُغْتَبِطًا بِهَا . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي رُتْبَةِ الْأَشْيَاءِ
 الرُّوحَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِأَحْوَالِهَا الْعُلْيَا سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُطَالِعُ
 الْأُمُورَ الْبَدَنِيَّةَ مُغْتَبِطًا بِهَا نَاطِرًا فِي عِلَامَاتِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ
 وَدَلَائِلِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ مُقْتَدِيًا بِهَا نَاطِمًا لَهَا مُفِضًا لِلْخَيْرَاتِ عَلَيْهَا
 سَاقِيًا لَهَا نَحْوَ الْأَفْضَلِ فَإِلَّا فَضْلَ بِحَسَبِ قَبُولِهَا وَعَلَى نَحْوِ اسْتِطَاعَتِهَا .
 وَآيُ امْرَأَةٍ لَمْ يَحْصُلْ فِي إِحْدَى هَاتَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ فَهُوَ فِي رُتْبَةِ
 الْإِنْعَامِ بَلْ هُوَ أَضَلُّ وَإِنَّمَا صَارَ أَضَلَّ لِأَنَّ تِلْكَ غَيْرُ مُعَرَّضَةٍ لَهُذِهِ
 الْخَيْرَاتِ وَلَا أُعْطِيَتْ اسْتِطَاعَةٌ تَتَحَرَّكُ بِهَا نَحْوُ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ
 وَإِنَّمَا تَتَحَرَّكُ بِقُوَّاهَا نَحْوَ كَمَالِهَا الْخَاصَّةِ بِهَا وَالْإِنْسَانُ مُعَرَّضٌ هَا
 مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا مُزَاحٌ الْعِلَّةِ فِيهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ مُحْصِلٍ لَهَا وَلَا سَاعٍ
 نَحْوَهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُؤَيَّرٌ لِضِدِّهَا يَسْتَعْمِلُ قُوَّاهُ الشَّرِيفَةَ فِي

الْأُمُورِ الدَّيْنِيَّةِ وَتِلْكَ مُحْصَلَةُ نِكَمَاتِهَا الَّتِي تُخَصُّهَا. فَإِذَا الْإِنْعَامُ إِذَا
 مُنِعَتْ الْخَيْرَاتِ الْإِنْسِيَّةِ حُرِمَتْ جَوَارِ الْأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ
 الَّتِي وَعَدَ بِهَا الْمُتَّقُونَ فَهِيَ مَعْدُورَةٌ وَالْإِنْسَانُ غَيْرُ مَعْدُورٍ. وَمِثْلُ
 الْأَوَّلِ مِثْلُ الْآخَرِ إِذَا جَارَ عَنِ الطَّرِيقِ قَتَرَدَى فِي بَارٍ فَهُوَ مَرْحُومٌ
 غَيْرُ مَلُومٍ. وَمِثْلُ الثَّانِي مِثْلُ بَصِيرٍ يَجُورُ عَلَى بَصِيرَةٍ حَتَّى يَتَرَدَّى فِي
 السَّيْرِ فَهُوَ مَمْقُوتٌ مَلُومٌ. وَإِذَا قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ السَّعِيدَ لَا حِمَاةَ فِي إِحْدَى
 الْمَرْتَبَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُمَا نَاقِصٌ مُقْصَرٌ
 عَنِ الْآخَرِ وَأَنَّ الْإِنْقِصَ مِنْهُمَا لَيْسَ يَخْلُو وَلَا يَتَعَرَّى مِنَ الْإِلَامِ.
 وَالْحَسَرَاتِ لِأَجْلِ خَدَائِعِ الطَّيِّعَةِ وَالزَّخَارِفِ الْجَسِيَّةِ الَّتِي تَعَارِضُهُ
 فِيمَا يَلَابِسُهُ وَتَعْرِفُهُ عَمَّا يَلَا حِظَّهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الزَّرَقِ فِيهَا عَلَى مَا يَلْبَغِي
 وَتَسْغُلُهُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْجَسَمَانِيَّةِ فَصَاحِبُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ غَيْرُ
 كَامِلٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَا سَعِيدٍ تَامٌ. وَأَنَّ صَاحِبَ الْمَرْتَبَةِ الْآخَرَى
 هُوَ السَّعِيدُ التَّامُّ وَهُوَ الَّذِي تَوَقَّرَ حَظُّهُ مِنَ الْحِكْمَةِ فَهُوَ مُقِيمٌ
 بِرُوحَانِيَّتِهِ بَيْنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى يَسْتَمِدُّ مِنْهُمْ لَطَائِفَ الْحِكْمَةِ وَيَسْتَنِيرُ
 بِالنُّورِ الْإِلَهِيِّ وَيَسْتَزِيدُ مِنْ قَضَائِهِ بِحَسَبِ عِمَائِيَّتِهِ بِهَا وَقَلَّةِ عَوَائِقِهِ
 عَنْهَا وَلِذَلِكَ يَكُونُ أَبَدًا خَالِيًا مِنَ الْإِلَامِ وَالْحَسَرَاتِ الَّتِي لَا يَخْلُو
 صَاحِبُ الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى مِنْهَا. وَيَكُونُ مَسْرُورًا أَبَدًا بِذَاتِهِ مُغْتَضِّيًا
 بِحَالِهِ وَبِمَا يَحْصُلُ لَهُ دَائِمًا مِنْ قِيَضِ نُورِ الْأَوَّلِ فَلَيْسَ يَسُرُّ إِلَّا بِتِلْكَ
 الْأَحْوَالِ وَلَا يَفْتَشُ إِلَّا بِتِلْكَ الْأَحْمَاسِ وَلَا يَبْشُرُ إِلَّا بِالْإِظْهَارِ
 تِلْكَ الْحِكْمَةِ بَيْنَ أَهْلِهَا وَلَا يَرْتَاحُ إِلَّا لِمَنْ نَاسَبَهُ أَوْ قَارَبَهُ

وَأَحَبُّ الْأَقْبَاسِ مِنْهُ . وَهَذِهِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الَّتِي مَنْ وَصَلَ إِلَيْهَا فَقَدْ
وَصَلَ إِلَى آخِرِ السَّعَادَاتِ وَأَقْصَاهَا وَهُوَ الَّذِي لَا يُبَالِي بِفِرَاقِ
الْأَحْبَابِ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ التَّعَمُّعِ فِيهَا
وَهُوَ الَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا الَّتِي عَدَدَ نَاهَا فِي
السَّعَادَاتِ الَّتِي فِي بَدَنِهِ وَالْخَارِجَةِ عَنْهُ كُلِّهَا كَلَّا عَلَيْهِ إِلَّا فِي
ضَرُورَاتٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِبَدَنِهِ الَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَسْتَطِيعُ
الْإِنْخِلَالُ عَنْهُ إِلَّا عِنْدَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ الَّذِي يَشْتَقُّ إِلَى صُحْبَةِ
أَشْكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ الْأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ وَاللَّائِكَةِ
الْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ الَّذِي لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْهُ وَلَا يَخْتَارُ إِلَّا
مَا قُرِبَ إِلَيْهِ وَلَا يُخَالِفُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ الرَّدِيئَةِ وَلَا يَخْدَعُ
بِحَدَائِجِ الطَّيِّبَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ يَعُوقُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ الَّذِي
لَا يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِ مُحَبُّوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى قُوْتِ مَطْلُوبٍ . إِلَّا أَنْ
الْمَرْتَبَةَ الْآخِرَةَ تَتَفَاوَتْ تَفَاوُتًا عَظِيمًا أَعْنِي أَنْ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهَا مِنْ
النَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ الْمَرْتَبَتَانِ هُمَا
الَّتَانِ سَاقَ الْحَكِيمِ الْكَلَامَ إِلَيْهِمَا وَاخْتَارَ الْمَرْتَبَةَ الْآخِرَةَ مِنْهُمَا . .
(وَإِذْ قَدْ خُفِّضْنَا أَمْرَهُمَا تَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ مِنَ السَّعَادَةِ الْقُضُوصِ) فَقَدْ بَيَّنَّ
يَنَانًا كَافِيًا أَنْ أَحَدَهُمَا بِالْإِصَاقَةِ إِلَيْنَا أَوْلَى وَالْآخَرَى ثَانِيَةٌ وَمِنْ
الْمَحَالِّ أَنْ تَسْلُكَ إِلَى الثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَمُرَّ بِالْأُولَى . ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ
مَنْ غَنِيَ بِبَعْضِ أَلْوَى آتِي ذَكَرْنَا هَا دُونَ بَعْضٍ أَوْ تَعَمَّدَ لِإِصْلَاحِهَا
فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ السَّعَادَةُ الثَّامَّةُ . . .

المبحث الثامن

في انه ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة
وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطاليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتْ أَلْفَايَاتُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُشِيرُ الْمَشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ
أَعْدَادُهَا الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يَنْعُ الْمَشِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا أَقَاوِيلُ
الْمَنْعِ إِذَا كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذَلِكَ الْعَدَدُ بِعَيْنِهِ وَوَضْعُهَا مِنَ الْأَقَاوِيلِ
الْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذَلِكَ الْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمَنْ أَجَلَ أَنْ الْمَشِيرَ إِنَّمَا غَرَضُهُ
الْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ أَنْ يُشِيرَ بِالشَّيْءِ النَّافِعِ الَّذِي تَلَزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ
وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ أَلْفَايَاتِ وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ أَلْفَايَاتِ هِيَ أَوَّلُ الْفِكْرَةِ
وَأَخِرُ الْعَمَلِ وَالْأَشْيَاءِ النَّافِعَةِ هِيَ آخِرُ الْفِكْرَةِ وَأَوَّلُ الْعَمَلِ
وَأَعْنِي بِأَوَّلِ الْفِكْرِ النَّشِيجَةَ وَبِآخِرِ الْفِكْرِ الْمَقْدَمَاتِ

فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ أُصُولٌ وَقَوَائِنُ يَعْرِفُ بِهَا الْأَشْيَاءَ
النَّافِعَةَ فِي أَلْفَايَاتِ وَهِيَ الْعَرَاقِبُ إِذَا كَانَتْ هِيَ أَوَّلَ الْعَمَلِ
وَالنَّافِعَاتِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِأَنَّهَا طَرِيقٌ إِلَى
الْخَيْرِ بِإِطْلَاقٍ. فَالْخَيْرُ الْمَطْلُوقُ هُوَ الَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ
غَيْرُهُ مِنْ أَجْلِهِ وَهُوَ الَّذِي يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ الْكُلُّ. وَأَعْنِي هَاهُنَا
بِالْكُلِّ دَوِي أَلْفَهُمُ الْحَسَنِ مِنَ النَّاسِ وَالذُّكَاةِ. وَذَلِكَ قَدْ
يَكُونُ خَيْرًا فِي الْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي الظَّنِّ وَذَلِكَ بِحَسَبِ
اعْتِقَادِ إِنْسَانٍ إِنْسَانٍ فِي هَذَا الْخَيْرِ. وَلِذَلِكَ إِذَا كَانَ الشَّيْءُ الَّذِي

يَعْتَقِدُ فِيهِ الْإِنْسَانُ هَذَا الْأَعْتِقَادَ مَوْجُودٌ لَهُ فَقَدْ اكْتَفَى بِهِ وَنَالَ
 حَاجَتَهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ تَشَوُّقٌ إِلَى شَيْءٍ أَضَلَّ. وَالْأَشْيَاءُ النَّافِعَةُ فِي هَذَا
 الْخَيْرِ هِيَ بِالْجُمْلَةِ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ الْأَشْيَاءُ الْفَاعِلَةُ وَالْأَشْيَاءُ الْخَافِظَةُ
 لَهُ وَمَا يَلْزَمُ الْفَاعِلَةَ وَذَلِكَ أَنَّ لَازِمَ الشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ الشَّيْءِ. وَكَذَلِكَ
 أَيْضًا لَازِمُ الْمُنْفِيسِ لِلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ الْمُنْفِيسِ. وَلَازِمُ ضِدِّ الْفَاعِلِ مَعَ
 ضِدِّ الْفَاعِلِ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَنْهَى عَنْهَا وَلِزُومُ الْغَايَةِ لِلْفَاعِلِ رَبِّمَا
 كَانَ مَعًا وَمِثْلُ مَا يَلْزَمُ الْمَدْحَ اقْتِنَاءُ الْأَشْيَاءِ الْمَدْحُودَةِ وَرَبِّمَا كَانَ
 مُتَاَخِرًا وَمِثْلُ الْإِلْعَامِ الَّذِي يَتَّبِعُ التَّعْلَمَ بِآخِرَةٍ. وَالْأَشْيَاءُ الْفَاعِلَةُ ثَلَاثَةٌ
 أَصْنَافٌ إِمَّا بِالذَّاتِ وَإِمَّا بِالْعَرَضِ. وَالَّذِي بِالذَّاتِ أَثْنَانِ إِمَّا
 قَرِيبٌ وَمِثْلُ فِعْلِ الْغِذَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَإِمَّا بَعِيدٌ وَمِثْلُ الطَّيِّبِ. وَالَّذِي
 بِالْعَرَضِ مِثْلُ فِعْلِ النَّعْبِ فِي الرِّيَاضَةِ لِلصِّحَّةِ. وَإِذَا كَانَ وَاجِبًا أَنْ
 تَكُونَ أَصْنَافُ الْأَشْيَاءِ الْفَاعِلَةِ لِلْخَيْرِ هِيَ هَذِهِ الْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ
 قَبْاضِطَرَارٍ أَنْ تَكُونَ الْأُمُورُ النَّافِعَةُ فِي الْخَيْرِ بَعْضُهَا خَيْرٌ فِي ذَاتِهَا
 وَمِثْلُ نَفْعِ الْغِذَاءِ فِي الصِّحَّةِ وَبَعْضُهَا شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَخَيْرٌ مِمَّا يَحْسَبُ
 نَفْعَهَا فِي الْخَيْرِ مِثْلُ شُرْبِ الدَّوَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَالشُّرُورُ الَّتِي تَنْفَعُ فِي
 الْخَيْرِ هِيَ نَافِعَةٌ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يُسْتَفَادَ بِهَا خَيْرٌ هُوَ أَكْثَرُ
 مِنَ الشَّرِّ اللَّاحِقِ مِنْ امْتِنَاعِهَا مِثْلُ اسْتِفَادَةِ الصِّحَّةِ عَنْ شُرْبِ
 الدَّوَاءِ وَمِثْلُ الْمَشَقَّةِ الْيَسِيرَةِ فِي اسْتِفَادَةِ أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ. وَمِنْهَا مَا
 تُنَالُ بِهِ السَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ أَكْثَرُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يُنَالُ مِنْهَا
 مِثْلُ مَا يُنَالُ رُكَّابَ الْبَحْرِ مِنَ السَّلَامَةِ إِذَا طَرَحُوا أَمْتِعَتَهُمْ فَإِنَّ

طَرَحَ أَمْتَهُمْ شَرًّا لَكِنْ تُسْتَفَادُ مِنْهُ السَّلَامَةُ مِنْ شَرِّ هُوَ أَظْمُ
وَهُوَ أَعْطَبُ. وَالْخَيْرَاتُ الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنَ الْخَيْرَاتِ يُسَمِّيَهَا أَرِسْطُو
فَوَانْدَ بِإِطْلَاقٍ وَأَمَّا تِلْكَ فَلْيُسَمِّيهَا اتِّبَالًا وَيَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّهَا اتِّبَالٌ
مِنْ شَرِّ إِلَى مَا هُوَ أَخْفُ شَرًّا مِنْهُ أَوْ اتِّبَالٌ مِنْ شَرِّ إِلَى مَا هُوَ
خَيْرٌ

(قَالَ) وَالْفَضَائِلُ وَإِنْ كَانَتْ غَايَاتٍ فِيهِ أَيْضًا خَيْرَاتٌ فِي
أَنْفُسِهَا وَنَافِعَةٌ فِي الْخَيْرِ فَإِنَّ الْمُقْسِمِينَ لَهَا هُمْ بِهَا حَسَنُوا الْأَحْوَالِ
وَهِيَ مَعَ هَذَا فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَمُسْتَعْلَةٌ فِيهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نُخَيِّرَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ وَكَيْفَ
هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَكَيْفَ هِيَ فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَنُقْصَلُ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ.
وَاللَّذَاتُ أَيْضًا هِيَ خَيْرٌ بِنَفْسِهَا لِأَنَّ جَمِيعَ الْحَيَوَانِ يَشْتَقُّ إِلَيْهَا.
وَالْأُورُ اللَّذِيذَةُ إِنَّمَا تَكُونُ خَيْرًا إِذَا كَانَ بِهَا أَلْتَلْتَدُ حَسَنَ الْحَالِ
وَقَدْ يَسْتَبِينُ مَنْ اتَّصَفَحَ أَنَّهَا خَيْرٌ وَأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ نَافِعَةٌ فِي الْخَيْرِ
وَأَجْزَاءُ صَلَاحِ الْحَالِ. وَبِالْجُمْلَةِ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ فَقَطُّ. وَمِنْهَا مَا قَدْ
تُعَدُّ غَايَاتٍ وَهِيَ نَافِعَةٌ أَيْضًا فِي الْغَايَاتِ. وَذَلِكَ أَنَّ لِبَعْضِهَا تَرْتِيبًا
عِنْدَ بَعْضِ أَغْنِي أَنْ بَعْضُهَا عِلَّةٌ لَوْجُودِ بَعْضٍ وَمُقَدِّمٌ عَلَيْهِ. وَمِثَالُ
ذَلِكَ أَنَّ الشَّجَاعَةَ وَالْحِكْمَةَ وَالْعَفَافَ وَكِبَرَ النَّفْسِ وَالنُّبْلَ وَمَا
أَشْبَهَهَا مِنْ فَضَائِلِ النَّفْسِ قَدْ تُخْتَارُ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَجْزَاءِ صَلَاحِ
الْحَالِ مِنْ أَجْلِهَا. وَكَذَلِكَ الصِّحَّةُ وَالْجَمَالُ مِنْ فَضَائِلِ الْجَسَدِ قَدْ تُخْتَارُ
أَشْيَاءٌ مِنْ أَجْلِهَا هِيَ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ وَهِيَ فَاعِلَاتُهَا وَكَذَلِكَ تُخْتَارُ

فَاعِلَاتُ أَشْيَاءٍ أُخَرَ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ مِثْلُ فَاعِلَاتِ اللَّذَّةِ وَفَاعِلَاتِ
السَّيْرِ الْحَسَنَةِ . وَلِذَلِكَ مَا يُظَنُّ بِالْيَسَارِ أَنَّهُ خَيْرٌ إِذَا كَانَ سَبَبًا
لِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ أَحَدُهُمَا اللَّذَّةُ وَالْآخَرُ حُسْنُ السَّيْرِ
وَصَلَاحُ الْحَالِ بِكَثْرَةِ الْإِخْوَانِ قَدْ يُوجَدُ فَاعِلًا لِأَشْيَاءٍ كَثِيرَةٍ مِنْ
الْخَيْرَاتِ وَذَلِكَ إِذَا كَانَتْ الصَّدَاقَةُ الَّتِي بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ الْحُبَّةِ
نَفْسِهَا لَا أَنْ تَكُونَ الْحُبَّةُ بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ فَإِنَّ
الْإِخْوَانَ الَّذِينَ يَهَذِهِ الصِّقَّةَ هُمْ يَفْعَلُونَ الْكَرَامَةَ وَالْتَّجِيدَ وَغَيْرَ
ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَذَلِكَ يَكُونُ مِنْهُمْ بِالْقَوْلِ
وَالْفِعْلِ فَإِنَّ الْأَقْوَالَ وَالْأَفْعَالَ الَّتِي تُفْعَلُ بِهَا الْكَرَامَةُ وَالْتَّجِيدُ
وَعَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا هِيَ خَيْرٌ وَنَافِعٌ .

(قَالَ) وَمِنْ النَّافِعَاتِ بِذَاتِهَا الْمَلَكَاتُ الطَّبِيعِيَّةُ الَّتِي يَكُونُ
الْإِنْسَانُ بِهَا مُسْتَعِدًّا لِأَشْيَاءٍ حَسَنَةٍ مِثْلُ الذِّكَاءِ وَالْحِفْظِ وَالْعِلْمِ
وَحِفْظِ الْحَرَكَاتِ . وَكَذَلِكَ الْكَمَالَاتُ مِثْلُ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَكَذَلِكَ
السَّيْرُ الْحَمِيدُ وَهَذِهِ كُلُّهَا مَعَ أَنَّهَا نَافِعَةٌ فِي غَيْرِهَا هِيَ خَيْرٌ فِي
نَفْسِهَا وَإِنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِهَا خَيْرٌ آخَرُ فَهِيَ خَيْرَاتٌ مُنْفَرِدَةٌ بِأَنْفُسِهَا
مُخْتَارَةٌ لِذَاتِهَا وَأَلْبَرُءُ أَيْضًا خَيْرٌ نَافِعٌ

(قَالَ) فَهَذِهِ هِيَ الْخَيْرَاتُ الَّتِي يُعْتَرَفُ بِهَا وَيُجْتَمَعُ أَنَّهَا خَيْرَاتٌ
وَنَافِعَاتٌ وَمَتَى بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَنَّهَا خَيْرٌ فَذَلِكَ يَبَيِّنُ لَا عَلَى طَرِيقِ
الْإِرَاءِ وَالْمَعَالِظَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ . وَأَمَّا إِذَا بُيِّنَ فِي شَيْءٍ
مِنْ أَضْدَادِ هَذِهِ أَنَّهَا خَيْرٌ وَفِيهَا أَنَّهَا شَرٌّ فَذَلِكَ يَكُونُ فِي هَذِهِ

الضَّاعَةِ عَلَى طَرِيقِ الْمَرَاءِ أَغْنِي بَيَانُ سُوفِسْطَايِي. وَذَلِكَ أَنَّ الشَّرَّ
إِنَّمَا يَنْفَعُ بِالْعَرَضِ مِثْلَ أَنْ يُبَيِّنَ خَطِيبٌ لِأَهْلِ مَدِينَةٍ مَا أَنَّ
أَجْبِنَ لَهُمْ خَيْرٌ لَّانَّهُمْ إِنْ شَجُّوا خَرَجُوا عَنِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ مِنْهُمْ
أَلْعَدُوُّ وَلَكِنْ أَجْبِنُ لَيْسَ هُوَ خَيْرًا عَلَى الْإِطْلَاقِ وَإِنَّمَا كَانَ خَيْرًا
بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ عُرِضَ لَهُمْ هَذَا. وَأَمَّا النَّافِعُ فِي
أَلَا كَثُرَ وَبِالذَّاتِ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ الْخَيْرُ كَمَا أَنَّ الشَّرَّ الْمَضَادُّ لِلْخَيْرِ
هُوَ نَافِعٌ لِلْإِعْدَاءِ. وَذَلِكَ أَنَّ أَجْبِنَ لَمَّا كَانَ شَرًّا لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ
بِالْعَرَضِ كَانَ نَافِعًا لِلْإِعْدَاءِ. وَالشَّجَاعَةُ لَمَّا كَانَتْ بِالذَّاتِ خَيْرًا لَهُمْ
كَانَتْ ضَارَّةً بِالْإِعْدَاءِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَلْحَقُ مَا هُوَ شَرٌّ مَا لِلْإِنْسَانِ
أَنْ يَكُونَ ضَارًّا لِعَدُوِّهِ وَمَا هُوَ خَيْرٌ مَا لَهُ أَنْ يَكُونَ نَافِعًا لِعَدُوِّهِ
مِثْلُ أَجْبِنٍ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ إِذَا خَرَجُوا عَنِ الْمَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ
لَهُمْ قُوَّةٌ يُقَاوِمُونَ بِهَا عَدُوَّهُمْ. فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَتَحَرَّى فِي
كُلِّ وَقْتٍ النَّافِعَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ أَيْضًا لَيْسَتْ كَلِمَةً
أَغْنِي الْقَائِلَةَ أَنَّ كُلَّ مَا يَضُرُّ الْعَدُوَّ وَيَكْرَهُهُ نَافِعٌ وَكُلُّ مَا يَنْفَعُ
الْعَدُوَّ وَيُسِرُّهُ ضَارٌّ فَإِنْ كَثِيرًا مَا يَكُونُ الْأَمْرُ الْوَاحِدُ ضَارًّا
لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ وَنَافِعًا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ. فَيُقَالُ مَا هُوَ نَافِعٌ لِكُلِيهِمَا
وَيُسِرُّ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُفَارَقَةُ الْعَدُوِّ عَدُوَّهُ إِذَا كَانَتْ بَعْدَ مُقَاتَلَةٍ
شَدِيدَةٍ بَيْنَهُمَا وَمُقَاوَمَةُ أَشْفَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى الْعَطَبِ مِنْهَا
مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْفَرَ أَحَدُهُمَا بِصَاحِبِهِ فَإِنَّهُمَا إِذَا اقْتَرَقَا فِي إِثْرِ هَذِهِ
الْحَالِ سُرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْإِقْتِرَاقِ وَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ النَّافِعُ

نَافِعًا لِلْأَعْدَاءِ أَيْضًا. وَأَمَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لِكُلِّهِمَا فَكَثِيرًا مَا يُوجِبُ
 صَدَاقَةَ الْعَدُوِّ. وَذَلِكَ إِذَا كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي تَرَدُّدِ الشَّرِّ الْوَارِدِ
 بِهِمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْضَلَ أَحَدُهُمَا فِي ذَلِكَ صَاحِبَهُ. وَكَثِيرٌ مِنْ
 الْأَنْفَعِ الْمُخْتَلِفَةِ كَانَ اتِّفَاقُهُمْ بِهَذَا السَّبَبِ وَلِذَلِكَ قِيلَ إِنَّ الشَّرَّ قَدْ
 يَجْمَعُ النَّاسَ فَهَذَا أَيْضًا أَحَدُ مَا يَكُونُ بِهِ الشَّرُّ نَافِعًا أَغْنِي أَنْ
 يَكُونَ الضَّرُّ النَّازِلُ بِالْإِنْسَانِ نَازِلًا بِعَدُوِّهِ. فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ
 صَدَاقَةَ الْعَدُوِّ وَحِينَئِذٍ يَهْوَى الْعَدُوُّ الْوَارِدُ ضِدَّ مَا يَهْوَاهُ كُلُّ وَاحِدٍ
 مِنَ الْمُتَعَادِيَيْنِ اللَّذَيْنِ وَرَدَّ عَلَيْهِمَا الْعَدُوُّ مِنْ خَارِجٍ. وَذَلِكَ أَنَّ
 كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَعَادِيَيْنِ يَهْوَى صَدَاقَةَ صَاحِبِهِ لِمَكَانِ تَعَاوُنِهِمَا عَلَى
 الْعَدُوِّ الْوَارِدِ عَلَيْهِمَا مِنْ خَارِجٍ. وَالْعَدُوُّ الْوَارِدُ يَهْوَى بَقَاءَ عَدَاوَتِهِمَا
 عَلَى حَالِهَا أَوْ تَأْكِيدِهَا. وَارِسْطُو يَقُولُ: وَلِذَلِكَ كَثِيرًا مَا تُنْفَقُ
 النَّفَقَاتُ الْعَظِيمَةُ وَتُفْعَلُ الْأَفْعَالُ الْكَثِيرَةُ فِي مِثْلِ هَذَا الْخَيْرِ
 الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ الشَّرُّ الْعَظِيمُ وَإِنَّمَا تَطِيبُ النَّفْسُ بِالنَّفَقَاتِ فِي مِثْلِ
 هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لَظُهُورِ مَا يَلْزَمُ عَنْهَا مِنَ الْعَالِيَةِ الْمَطْلُوبَةِ وَفَرْجِهَا حَتَّى
 كَانَهَا إِذَا وَجِدَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَجِدَتْ الْعَالِيَةَ. وَقَدْ يَكُونُ الشَّرُّ
 الْمَفْرُطُ النَّازِلُ بِالْعَدُوِّ أَيْضًا سَبَبًا لِلْإِعْزَافِ بِالْخَيْرِ الْيَسِيرِ الَّذِي
 نَالَهُ مِنْ عَدُوِّهِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَعْرِفْ بِهِ الْعَدُوُّ. مِثْلَ مَا حَكَى أَرِسْطُو
 أَنَّهُ عَرَضَ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا أَعْدَاءَ لِلْيُونَانِيِّينَ أَنَّهُ اشْتَدَّتْ
 مُحَارَبَتُهُمْ لَهُ وَحَصَرُ هُمْ إِيَّاهُ سِنِينَ كَثِيرَةً وَقَتَلُوا فِي ذَلِكَ الْخِصَارِ
 أَبْنَهُ قَسَا لَهُمْ أَنْ يُعْطَوْهُ جُسْتَهُ لِيُخْرِقَهَا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي مَوَاتِهِمْ فَعَمَلُوا

ذَاكَ فَشَكَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَظْهَرَ شُكْرَهُمْ عِنْدَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَأَهْلِ
 مَدْيَنَاتِهِ . فَلَوْلَا مَا تَرَلَّ بِهِ مِنَ الشَّرِّ الْعَظِيمِ لَمَا شَكَرَهُمْ عَلَى هَذَا
 الشَّيْءِ الْيَسِيرِ الَّذِي سَحَّوْا لَهُ بِهِ كَمَا قَالَ ذَلِكَ أُوْمَيْرُوشُ الشَّاعِرُ
 (قَالَ) وَمِنَ الْأَضْطِعَاتِ اللَّافِعَةِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي يَعْظُمُ قَدْرُهَا
 عِنْدَ الْمُضْطَنَعِ إِلَيْهِمْ فَيَصِيرُ بِهِ الْمُضْطَنَعُ إِلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنْ
 الْمُضْطَنَعِ إِلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَارَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا عَظِيمَ الْقَدْرِ مِنْ جِنْسٍ مَا
 مِنَ النَّاسِ لَهُ أَيْضًا عَدُوٌّ عَظِيمُ الْقَدْرِ فِي جِنْسٍ آخَرَ مِنَ النَّاسِ
 فَيَفْعَلُ بَعْدُ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ الشَّرَّ وَبَاصِدٍ فَإِنَّهُ الْخَيْرُ . مِثْلُ مَا عَرَضَ
 لِأُوْمَيْرُوشَ مَعَ الْيُونَانِيِّينَ وَأَعْدَائِهِمْ فَإِنَّهُ قَصَدَ إِلَى عَظِيمٍ
 مِنْ عُظَمَاءِ الْيُونَانِيِّينَ فِي الْقَدِيمِ وَخَصَّهُ بِالْمَدْحِ وَأَصْدَقَاءَهُ مِنْ
 الْيُونَانِيِّينَ . وَخَصَّ عَدُوًّا لَهُ عَظِيمًا بِالْهَجْوِ هُوَ وَقَوْمُهُ الْعَادِيْنَ
 الْيُونَانِيِّينَ فِي حُرُوبٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا فَكَانَ رَبُّ التَّعَفُّةِ الْعَظِيمَةِ
 بِذَلِكَ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ وَعَظَّمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ حَتَّى اعْتَقَدُوا فِيهِ أَنَّهُ كَانَ
 رَجُلًا إلهِيًّا وَأَنَّهُ كَانَ الْمَعْلَمَ الْأَوَّلَ لِجَمِيعِ الْيُونَانِيِّينَ . وَبِالْجُمْلَةِ
 فَعَمَلُ الشَّرِّ بِالْأَعْدَاءِ وَالْخَيْرِ بِالْأَصْدِقَاءِ مِنَ الْأُمُورِ اللَّافِعَةِ .
 وَمِنْ شَرْطِ هَذَا الْفِعْلِ الَّذِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ أَنْ يَكُونَ مَا فُعِلَ
 مِنْهُ يُرَى أَنَّهُ لَمْ يُمْكِنْ الْفَاعِلُ وَلَا تَسَرَّ لَهُ غَيْرُهُ وَسِوَاهُ كَانَ الْفِعْلُ
 كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ أَوْ يَسِيرًا وَأَنْ يَظُنَّ أَنَّ فِعْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِمَكَانٍ
 خَوْفٍ وَلَا شَيْءٍ يَرْجُوهُ بَلْ لِأَنَّ شَوْقَهُ وَهُوَاهُ قَادَهُ إِلَى ذَلِكَ فَإِنَّ
 بِهَذَا يَكُونُ الْفِعْلُ مُدَاوِمًا عَلَيْهِ مِنْ الْفَاعِلِ وَهُوَ السَّهْلُ عَلَيْهِ لِأَنَّ

الْأَفْعَالُ الَّتِي تَكُونُ مِنْ أَجْلِ خَوْفٍ إِنَّمَا تَكُونُ غَيْرَ شَاقَّةٍ زَمَانًا
 سِيرًا وَإِذَا طَالَ بِهَا الزَّمَانُ كَانَتْ شَاقَّةً فَأَنْقَطَعَتْ وَإِذَا انْقَطَعَتْ
 كَانَ مِنْ ذَلِكَ عَدَاوَةٌ مِنَ الْمُضْطَنِعِ إِلَيْهِ لِلْمُضْطَنِعِ . فَلِذَلِكَ
 يُشْتَرَطُ فِي هَذَا الْفِعْلِ أَنْ يَكُونَ سَهْلًا عَلَى الْقَاعِلِ فَهَذِهِ هِيَ
 شُرُوطُ الْأَبْتِدَاءِ بِالصَّنَائِعِ الَّتِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا وَيُوجَدُ نَفْعُهَا . وَآمَّا
 الْمُكَافَاةُ الَّتِي لَا يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا فَهِيَ الْمُكَافَاةُ الَّتِي لَا تَكُونُ
 بِحَسَبِ مَا يَهْوَى الْمُكَافِي بِالطَّبْعِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ وَهُوَ أَنْ
 تَكُونَ نَاقِصَةً عَنِ الصَّنِيعَةِ الَّتِي أُسْدِيَتْ إِلَيْهِ إِمَّا فِي الْكَيْفِيَّةِ
 وَإِمَّا فِي الْمَنْفَعَةِ وَإِمَّا لِأَنَّهَا قَدْ فَضُلَتْ عِنْدَ الْمُكَافِي وَلَيْسَ يَمْتَحِجُ
 إِلَيْهَا وَهِيَ الْمُكَافَاةُ الَّتِي يُعَالِطُ فِيهَا وَإِنَّمَا كَانَ الْمُكَافِي بِالطَّبْعِ
 الَّذِي يَشْتَبِهِي أَنْ تَكُونَ مُكَافَاةً بِأَحَدِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَحْوَالِ
 لِأَنَّ الْمُكَافِي كَأَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى الْإِعْطَاءِ فَهُوَ إِنَّمَا يَشْتَبِهِي إِمَّا
 أَلَّا يَلْحَقَهُ نَقْصٌ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ
 النِّقْصُ أَقْلَ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ . فَإِذَا لَمْ تَكُنِ الْمُكَافَاةُ
 بِهَذِهِ الصِّفَةِ بَلْ كَانَتْ مُقَارَنَةً لِلصَّنِيعَةِ إِمَّا فِي الْجِنْسِ مِثْلَ أَنْ
 تَكُونَ الْمُكَافَاةُ عَلَى الدَّائِيَةِ بِدَرَاهِمٍ وَإِمَّا فِي الْقُوَّةِ مِثْلَ أَنْ
 تَكُونَ الْمُكَافَاةُ عَلَى أَلَمَالٍ بِكَرَامَةٍ يُقْتَنَى بِهَا مِثْلَ ذَلِكَ أَلَمَالٍ
 فَهِيَ الْمُكَافَاةُ الْعَادِلَةُ لِكِنَّهَا سُوقِيَّةٌ . فَإِذَا لَمْ تَكُنِ الْمُكَافَاةُ لَا
 سُوقِيَّةً وَلَا فِيهَا غَبْنٌ بَلْ كَانَ الْمُكَافِي يُعْتَقَدُ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ
 اخْتِيَارُهُ فِي الْمُكَافَاةِ لِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَكْثَرَ مِنْ اخْتِيَارِهِ لِمَا هُوَ

أَزِيدُ وَسَوَاءُ وَقَعَتْ مُكَافَأَتُهُ بِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَوْ بِمَا هُوَ مُسَاوٍ أَوْ بِمَا
هُوَ شَيْءٌ فِيهِ الْمُكَافَأَةُ الْجَسِيَّةُ لِأَنَّ مُكَافَأَتَهُ بِالْأَنْقَصِ لَمْ تَكُنْ
مِنْهُ بِاخْتِيَارٍ لِذَلِكَ بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ ذَلِكَ فَإِذَا اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ
مَعَ هَذَا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِمَّا يَسُرُّ بِهِ الْأَصْدِقَاءُ أَعْنِي أَصْدِقَاءُ
الْمُكَافِيءِ بِالْفِعْلِ وَيَسُوهُ أَعْدَاءُهُ وَيَكُونُ مَعَ هَذَا مُتَّحِبًا مِنْهُ
عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَذَلِكَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ صَدَرَ عَنْهُ عَظِيمُ مَوْقِعِهِ مِنْ
الْمُضْطَنَعِ إِلَيْهِ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ الصَّنِيعَةُ مِمَّا تُوَافِقُ شَهْوَةَ الْمُضْطَنَعِ
إِلَيْهِ وَمِثْلُ أَنْ يُكَافِيَ أَوْ يُبَدَأَ بِحُبِّ الْكَرَامَةِ بِالْكَرَامَةِ وَحُبِّ
أَمْوَالٍ بِالْأَمْوَالِ وَحُبِّ الْقَلْبَةِ بِالْقَلْبَةِ فَإِنَّ هَذِهِ الصَّنِيعَةَ لَيْسَتْ هِيَ
لِذِيذَةٍ فَقَطْ عِنْدَ الَّذِي تُضْطَنَعُ إِلَيْهِ أَوْ يُكَافَأُ بِهَا بَلْ هِيَ عِنْدَهُ
فَاضِلَةٌ وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ فِي سَائِرِ أَصْنَافِ الْخَيْرَاتِ وَإِنَّمَا تَكُونُ
أَفْعَالُ الصَّائِعِ وَالْمُكَافَأَةُ عَلَى الْمُتَبَدَّى وَالْمُكَافِيءُ أَفْعَالًا سَهْلَةً
يُمْكِنُ أَنْ يُدَاوِمُوا عَلَيْهَا مَتَى كَانُوا بِاسْتِعْدَادِهِمُ الطَّبِيعِيِّ مُهَيَّيْنِ
لِلتِلْكَ الْأَفْعَالِ وَكَانَتْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ الْمَلَكَةُ الَّتِي بِهَا تَصْدُرُ مِنْهُمْ
نِزَاكُ الْأَفْعَالِ وَمِنَ الصَّائِعِ الْيَسِيرَةِ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَ تُنْقُصُ
الْمُضْطَنَعُ شَيْئًا إِلَّا ضْطَنَاعَ بِالتَّأْدِيبِ وَالْمَوْظَظَةِ



البحث التاسع

في اثمار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض

والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَمِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ يَأْخُذُ الْخَطِيبُ الْمُقَدَّمَاتِ الَّتِي مِنْهَا يُشْفَعُ أَنَّ الشَّيْءَ نَافِعٌ أَوْ غَيْرُ نَافِعٍ. وَمِنْ أَجْلِ أَنَّ الْخَطِيبَ قَدْ يَعْتَرِفُ أحيانًا بِأَنَّ الْأَمْرَ نَافِعٌ وَلَكِنْ يَدَّعِي أَنَّ هَاهُنَا شَيْئًا هُوَ أَنْفَعُ فَقَدْ يَحْتَاجُ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مَوَاضِعُ يَقْدِرُ أَنْ يُبَيِّنَ بِهَا أَنَّ الْأَمْرَ أَنْفَعُ وَأَفْضَلُ. فَمِنْهَا أَنَّ مَا كَانَ نَافِعًا فِي كُلِّ الْأَشْيَاءِ فَهُوَ أَنْفَعُ بِمَا هُوَ نَافِعٌ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ. وَالَّذِي هُوَ أَدْوَمُ نَفْعًا هُوَ أَنْفَعُ مِنَ الَّذِي هُوَ أَقْصَرُ نَفْعًا. وَالَّذِي هُوَ أَكْبَرُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ الْأَصْغَرِ. وَالَّذِي هُوَ أَكْثَرُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ الْأَقَلِّ. وَالَّذِي جَمَعَ مِنْ صِفَاتِ الْخَيْرِ أَكْثَرُ أَوْ جَمَعَ صِفَاتِهِ كُلَّهَا فَهُوَ أَنْفَعُ. وَصِفَاتُ الْخَيْرِ الثَّلَاثُ هُوَ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ مُخْتَارًا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ وَأَنْ يَكُونَ مُتَشَوِّقًا عِنْدَ الْكُلِّ وَأَنْ يَكُونَ دَوْرُ الْفَضْلِ وَاللُّبِّ يَحْتَارُونَهُ وَالَّذِي جَمَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا فَهُوَ الْخَيْرُ وَالنَّافِعُ الَّذِي فِي الْعَالِيَةِ وَهُوَ الْعَالِيَةُ لِسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُوصَفُ بِالْخَيْرِ. وَالْأَشْيَاءُ الْمُتَصِفَةُ بِالْخَيْرِ الْمُتَعَلِّقَةُ بِهَذَا الْخَيْرِ الَّذِي

جَمَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ إِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا أَنَّهَا أَنْفَعُ إِذَا وُجِدَ فِي وَاحِدٍ
 مِنْهَا صِفَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ . وَكُلُّ
 مَا كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تُوْجِدُ فِيهِ صِفَاتٌ أَكْثَرُ مِنْ صِفَاتِ الْخَيْرِ
 فَهُوَ أَنْفَعُ مَا لَمْ تَكُنِ الصِّفَةُ الْوَاحِدَةُ أَنْفَعَ مِنْ اثْنَتَيْنِ أَوْ مِنْ
 ثَلَاثٍ . وَآيَضًا قَدْ كَانَ الْعَظِيمُ فِيهِ أَفْضَلُ مِنَ الْعَظِيمِ فِي
 جِنْسٍ آخَرَ فَالْجِنْسُ الَّذِي فِيهِ الْعَظِيمُ الْأَفْضَلُ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ
 الْجِنْسِ الْآخَرِ وَمَا كَانَ الْجِنْسُ مِنْهُ أَفْضَلُ مِنَ الْجِنْسِ الْأَفْضَلِ
 قَدْ الْعَظِيمُ مِنَ الْجِنْسِ الْأَفْضَلِ أَفْضَلُ مِنَ الْعَظِيمِ مِنَ الْجِنْسِ الْآخَرِ
 وَهُوَ عَكْسُ الْأَوَّلِ . وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ الذُّكْرَانُ أَفْضَلُ
 مِنَ الْإِنَاثِ فَالرُّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْأَةِ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ أَفْضَلُ
 مِنَ الْمَرْأَةِ فَالذُّكْرَانُ أَفْضَلُ مِنَ الْإِنَاثِ . وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ
 كَذَلِكَ لِأَنَّ نِسْبَةَ الْعَظِيمِ إِلَى جِنْسِهِ هِيَ كَنِسْبَةِ الْعَظِيمِ الْآخَرِ إِلَى
 جِنْسِهِ فَتَكُونُ نِسْبَةُ الْجِنْسِ إِلَى الْجِنْسِ هِيَ نِسْبَةُ الْعَظِيمِ إِلَى
 الْعَظِيمِ . ثُمَّ إِذَا كَانَ الشَّيْءُ لَا زِمًا لِشَيْءٍ مَا وَالْآخَرُ غَيْرَ لَا زِمٍ لَهُ
 فَإِنَّ الَّذِي يَلْزِمُ عَنْهُ الشَّيْءُ آتَرُ مِنَ الَّذِي لَا يَلْزِمُ عَنْهُ الشَّيْءُ .
 مِثَالُ ذَلِكَ السُّلْطَانُ وَالثَّرْوَةُ فَإِنَّ الثَّرْوَةَ تَلْزِمُ السُّلْطَانَ وَلَيْسَ يَلْزِمُ
 السُّلْطَانُ الثَّرْوَةَ . فَلِذَلِكَ السُّلْطَانُ أَفْضَلُ مِنَ الثَّرْوَةِ وَكَذَلِكَ الْحَالُ
 فِي الْخَضَارِ فَإِنَّ الْفَقْرَ يَلْزِمُ عَنْهُ الْجُبْلُ وَلَيْسَ يَلْزِمُ عَنْ الْجُبْلِ الْفَقْرُ .
 فَالْفَقْرُ أَكْثَرُ شَرًّا مِنَ الْجُبْلِ وَاللَّازِمُ يُوْجِدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا
 أَنْ يُوْجِدَ مَعًا غَنِيَّ الْإِلَازِمِ وَالْمَلْزُومِ مِثْلُ وُجُودِ الْأَبْيَضِ وَالْبَيَاضِ

مَعًا وَمِثْلُ لُزُومِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ. وَإِمَّا أَنْ يُوجَدَ الْأَلَزَمُ تَابِعًا
بِآخِرَةٍ مِثْلُ لُزُومِ الْعِلْمِ عَنِ التَّعَلُّمِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَلَاذُمُهُمَا فِي
الْقُوَّةِ أَيْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ فِعْلَ الْآخَرِ وَلَا يَنْعَكِسُ آغِي
أَلَا يَفْعَلُ الْآخَرُ فِعْلَ الْأَوَّلِ. مِثَالُ ذَلِكَ الْفَقْرُ وَالْجُلُ فَإِنَّ الْفَقْرَ
يَلْزِمُ عَنْهُ أَنْ يَفْعَلَ الْإِنْسَانُ فِعْلَ الْجُلِّ وَلَيْسَ يَلْزِمُ عَنِ الْجُلِّ فِعْلُ
الْفَقْرِ فَإِنَّ الْفَقْرَ يَعُوقُ عَنْ أَشْيَاءَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَمِ اسْتِعْمَالِ الْمَالِ
الَّذِي هُوَ الْجُلُّ وَآيضًا الَّذِي يَفْعَلُ الْخَيْرَ الْأَنْفَعُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ
النَّافِعِ. مِثَالُ ذَلِكَ الْجِلْدُ وَالْجَمَالُ فَإِنَّ كِلَيْهِمَا نَافِعٌ وَخَيْرٌ وَالْجِلْدُ
يُفْعَلُ بِهِ خَيْرٌ أَعْظَمُ مِمَّا يُفْعَلُ بِالْجَمَالِ فَهُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا. وَكَذَلِكَ
الصِّحَّةُ أَيْضًا أَعْظَمُ نَفْعًا مِنَ اللَّذَّةِ لِأَنَّ الصِّحَّةَ يُفْعَلُ بِهَا خَيْرَاتٌ
أَكْثَرُ مِمَّا يُفْعَلُ بِاللَّذَاتِ. وَآيضًا فَإِنَّ الَّذِي يُخْتَارُ مُفْرَدًا أَفْضَلُ نَفْعًا
مِنَ الَّذِي لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ذَلِكَ الْمُخْتَارُ مُفْرَدًا. وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ
الْجَمَالَ لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ الصِّحَّةِ وَالصِّحَّةَ تُخْتَارُ دُونَ الْجَمَالِ فَالصِّحَّةُ
أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ الْجَمَالِ. وَآيضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا كَمَالًا
وَالْآخَرُ طَرِيقٌ إِلَى الْكَمَالِ فَالَّذِي هُوَ كَمَالٌ أَفْضَلُ. مِثْلُ الصِّحَّةِ
وَاللَّذَّةِ فَإِنَّ الصِّحَّةَ كَمَالٌ وَاللَّذَّةُ كَوْنٌ وَالْكَوْنُ طَرِيقٌ إِلَى الْكَمَالِ.
وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُخْتَارُ لِذَاتِهِ وَالْآخَرُ يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ
فَالَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ
غَيْرِهِ. مِثَالُ ذَلِكَ الْحِكْمَةُ وَالْيَسَارُ فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تُخْتَارُ لِذَاتِهَا
وَالْيَسَارُ يُخْتَارُ لِغَيْرِهِ. وَآيضًا فَإِنَّ الَّذِي يَجْعَلُ الْمَرْءَ إِذَا أَقْتَنَاهُ أَقَلَّ

حَاجَةً إِلَى أَصْدِقَائِهِ أَوْ إِلَى الْإِنْسَانِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَجْمَعُهُ
 أَكْثَرُ عَاجَةٍ. فَإِنَّ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ كِفَايَةً وَاسْتِعْنَاءً عَنِ النَّاسِ هُوَ الَّذِي
 يَخْتِاجُ إِلَى أَشْيَاءَ قَلِيلَةٍ الْعَدَدِ سَهْلٍ وَجُودُهَا. وَآيَضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ
 أَحَدُهُمَا يُخْرِجُ اقْتِنَاؤَهُ إِلَى الثَّلَاثِي وَالثَّلَاثِي لَا يُخْرِجُ اقْتِنَاؤُهُ إِلَى
 الْآخَرِ فَإِنَّ الَّذِي لَا يُخْرِجُ اقْتِنَاؤُهُ إِلَى الْآخَرِ هُوَ آثَرٌ. وَمِثَالُ ذَلِكَ
 الْبَسَارُ وَالْبُنُونُ فَإِنَّ الْبَنِينَ يُخْرِجُونَ إِلَى اقْتِنَاءِ أَلْمَالِ وَالْبَسَارُ لَيْسَ
 يُخْرِجُ إِلَى اقْتِنَاءِ الْبَنِينَ فَالْبَسَارُ أَفْضَلُ نَفْعًا

(قَالَ) وَيَسْتَسِينُ أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لَيْسَ يَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ
 مِنَ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ لَهُ مَبْدَأٌ. وَذَلِكَ أَنَّ الْإِرَادَةَ مَبْدَأُ الْخَيْرِ وَفِعْلُ
 الْخَيْرِ أَعْظَمُ مِنَ إِرَادَةِ الْخَيْرِ. وَكَذَلِكَ التَّعْلُمُ وَالْعِلْمُ وَإِنْ كَانَ
 لَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ النَّافِعُ دُونَ مَبْدَأِهِ. وَإِذَا كَانَ
 شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ وَاحِدِ الْمَبْدَأَيْنِ أَعْظَمُ مِنَ الثَّلَاثِي فَإِنَّ الَّذِي
 يَكُونُ عَنِ الْمَبْدَأِ الْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَعَكْسُ هَذَا آيَضًا وَهُوَ إِذَا كَانَ
 شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ عَلَى أَنَّهُمَا فَاعِلٌ وَاحِدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الثَّلَاثِي
 فَإِنَّ الَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لِلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ مَبْدَأَانِ عَلَى
 أَنَّهُمَا غَايَةٌ وَإِذَا قِيسَ الْمَبْدَأُ الْفَاعِلُ إِلَى الْغَايَةِ أَمَكَّنَ أَنْ يُتَوَهَّمُ
 أَنَّ الْفَاعِلَ أَعْظَمُ مِنَ الْغَايَةِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْفَاعِلَ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ
 الْغَايَةَ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ تُوجَدْ الْغَايَةُ وَأَمَكَّنَ أَنْ يُتَوَهَّمُ آيَضًا أَنَّ الْغَايَةَ
 أَعْظَمُ مِنَ الْمَبْدَأِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا الْغَايَةُ لَكَانَ الْفَاعِلُ فَضْلًا. فَمِثَالُ
 مَا تَجَمَّلُ الْغَايَةُ فِيهِ أَعْظَمُ مِنَ الْفَاعِلِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ فِي الدَّمِّ: إِنَّ

فَلَا أَوْلَىٰ بِأَن يُنْسَبَ إِلَى الْجَوْرِ فِي فِعْلِهِ كَذَا مِنْ فُلَانٍ الَّذِي
 أَشَارَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ذَلِكَ الْفِعْلُ إِذْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ
 هُوَ ذَلِكَ الْفِعْلُ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ الضَّرَرُ. وَمِثَالُ مَا يُجْعَلُ الْقَاعِلُ فِيهِ
 أَعْظَمُ مِنَ الْعَايَةِ قَوْلُ الْقَائِلِ: فُلَانٌ أَحَقُّ بِالشُّكْرِ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ
 مِنْ فُلَانٍ لِأَن فُلَانًا هُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ الْفِعْلِ وَلَوْ لَا
 إِشَارَتُهُ لَمْ يَكُنْ لِفِعْلٍ ذَلِكَ الْفِعْلُ الْحَمْدُ وَفِي كِلَا الْمَوْضِعَيْنِ
 مَا قَبِلَ الْعَايَةُ إِنَّمَا يُفْعَلُ لِمَكَانِ الْعَايَةِ. وَآيِضًا قَانَ الَّذِي وَجُودُهُ
 أَقْلُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِثْلُ الذَّهَبِ وَالْحَدِيدِ غَيْرَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ الذَّهَبُ
 أَقْلَ وَجُودًا مِنَ الْحَدِيدِ فَلَيْسَ هُوَ أَنْفَعُ. وَآيِضًا مُقَابِلُ هَذَا وَهُوَ أَنَّ
 مَا كَثُرَ وَجُودُهُ فَهُوَ أَفْضَلُ بِمَا قَلَّ وَجُودُهُ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ وَمِنْ هُنَا
 يُقَالُ إِنْ أَلْمَاءٌ خَيْرٌ لِكَثْرَةِ وَجُودِهِ وَعُمُومِ مَنَافِعِهِ. وَآيِضًا فَإِنَّ مَا
 هُوَ أَعْسَرُ وَجُودًا فَهُوَ أَفْضَلُ لِأَن مَا عَسَرَ وَجُودُهُ قَلَّ وَجُودُهُ
 وَمَا قَلَّ وَجُودُهُ فَهُوَ غَرِيبٌ وَيَتَأَقَّسُ فِيهِ. وَمُقَابِلُ ذَٰلِكَ وَهُوَ أَنَّ مَا
 سَهْلٌ وَجُودُهُ فَهُوَ أَفْضَلُ لِأَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ حِينٍ يُتَشَوَّقُ إِلَيْهِ.
 وَآيِضًا الشَّيْءُ الَّذِي صُدِّهُ أَعْظَمُ فَهُوَ أَفْضَلُ. وَآيِضًا الَّذِي عَدِمَهُ
 أَشَدُّ ضَرَرًا فَهُوَ أَنْفَعُ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ هَا هُنَا مِنَ الْأَعْظَمِ
 وَالْأَقْلِ عَظَمُ الْمَقَالِيسَةِ فِي الْخَيْرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي الشَّرِّ وَفِيهَا هُوَ لَا
 خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ. وَآيِضًا قَانَ الْعَايَاتِ وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا تُفْعَلُ
 الْأَفْعَالُ إِذَا كَانَتْ الْعَايَاتُ بَعْضُهَا أَزِيدَ خَيْرًا مِنْ بَعْضِ أَوْ أَزِيدَ
 شَرًّا مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ الْأُمُورَ الْمَتَقَدِّمَةَ لِتِلْكَ الْعَايَاتِ الْأَزِيدِ هِيَ

أَزِيدُ. وَآيْضًا فَإِنَّ مَا كَانَ مِنَ الْمَلَكَاتِ وَالْفَضَائِلِ وَبِالْجُمْلَةِ الْأَشْيَاءِ
 الْقَاعِلَةِ أَعْظَمُ فَإِنَّ أَعْمَالَهَا الصَّادِرَةَ عَنْهَا تَكُونُ أَعْظَمَ لِأَنَّ نِسْبَةَ
 الْأَفْعَالِ إِلَى مَبَادِيهَا هِيَ نِسْبَةُ الْمَبَادِي بِغَضِّهَا إِلَى بَعْضٍ. فَإِنَّهُ
 إِنْ كَانَ الْبَصَرُ آثَرٌ مِنَ الشَّمِّ فَإِنَّ الْبَصَارَ آثَرٌ مِنَ الشَّمِّ
 وَهَكَذَا يُوجَدُ الْأَمْرُ فِي جَمِيعِ الْأَفْعَالِ مَعَ أَسْبَابِهَا الْقَاعِلَةِ لَيْسَ
 فِي الدَّائِيَّةِ قَطُّ بَلْ وَفِيمَا يَعْزُضُ عَنِ الشَّيْءِ بِإِلْتِفَاقٍ فَإِنَّ الْأَعْظِيمَ
 يَكُونُ إِلَّا تَفَاقُ الَّذِي يَعْزُضُ لَهُ عَظِيمًا وَفِي الْأَعْرَاضِ الْمَوْجُودَةِ فِي
 الشَّيْءِ أَعْنِي أَنَّ الشَّيْءَ الْأَعْظَمَ أَلْعَرُضُ الْمَوْجُودُ فِيهِ أَعْظَمُ. وَآيْضًا
 أَنْ يُحِبَّ الْإِنْسَانُ صَاحِبَ الْمَالِ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُحِبَّ الْمَالُ لِأَنَّ
 حُبَّ الْإِنْسَانِ أَفْضَلُ مِنْ حُبِّ الْمَالِ. وَآيْضًا فَإِنَّ الْفَضَائِلَ أَفْضَلُ
 مِنْ ذَوِي الْفَضَائِلِ وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي شَهْوَتُهَا فَاضِلَةٌ أَفْضَلُ مِنَ الَّتِي
 شَهْوَتُهَا غَيْرُ فَاضِلَةٍ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ شَهْوَةَ الْعُلُومِ فَاضِلَةٌ وَشَهْوَةُ
 الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ غَيْرُ فَاضِلَةٍ فَالْعُلُومُ أَفْضَلُ مِنَ الْأَكْلِ
 وَالشُّرْبِ. وَآيْضًا عَكْسُ هَذَا وَهُوَ أَنَّ مَا هُوَ أَفْضَلُ فَشَهْوَتُهُ أَفْضَلُ
 مِثْلُ أَنَّ الْحِكْمَةَ أَفْضَلُ مِنَ الصِّحَّةِ فَشَهْوَتُهَا أَفْضَلُ مِنْ شَهْوَةِ
 الصِّحَّةِ. وَآيْضًا فَإِنَّ الْعُلُومَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فَاعْمَالُهَا خَيْرٌ
 وَأَفْضَلُ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْعُلُومُ الْعِلْمِيَّةُ أَفْضَلُ مِنَ
 الْعَمَلِيَّةِ كَانَ فِعْلُهَا الَّذِي هُوَ الصِّدْقُ أَفْضَلُ مِنَ الَّتِي فِعْلُهَا الْعَمَلُ.
 وَعَكْسُ هَذَا وَهُوَ أَنَّ الَّتِي فِعْلُهَا أَفْضَلُ مِنَ الْعُلُومِ فَفِي أَفْضَلُ
 وَذَلِكَ أَنَّ الْوُقُوفَ عَلَى الْحَقِّ لَمَّا كَانَ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ كَانَتْ

الصَّنَاعُ الْعِلْمِيَّةُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِيَّةِ وَإِنَّمَا كَانَا هَذَانِ الْمَوْضِعَانِ مُتَلَاذِمَيْنِ لِأَنَّ نِسْبَةَ الصَّنَاعَةِ إِلَى الصَّنَاعَةِ هِيَ نِسْبَةُ فِعْلِهَا إِلَى فِعْلِهَا (قَالَ) وَالَّذِي يَحْكُمُ بِهِ الْكُلُّ مِنَ الْجُمْهُورِ أَوْ الْأَكْثَرُ أَوْ ذُوو الْأَلْبَابِ وَالْأَخْيَارُ الصَّالِحُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ فَهُوَ أَفْضَلُ بِإِطْلَاقٍ وَفِي نَفْسِهِ إِذَا كَانَ حُكْمُهُمْ فِي الْأَشْيَاءِ بِحَسَبِ فِطْرِهِمْ وَكَانُوا ذَوِي لُبٍّ لَا يَحْسِبُ مَا اسْتَفَادُوهُ مِنَ الْآرَاءِ مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّ ذَوِي الْأَلْبَابِ مِنَ النَّاسِ قَدْ يَقُولُونَ بِفِطْرِهِمْ فِي الْقَضَائِلِ وَالْخَيْرَاتِ مَا هِيَ وَكَمْ هِيَ وَعِنْدَ آيِ شَيْءٍ هِيَ وَإِنْ كَانَ مَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ بِفِطْرِهِمْ دُونَ مَا يُوقِفُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ فِي الْعُلُومِ وَمَا قِيلَ فِي حَدِّ الْخَيْرِ مِنْ أَنَّهُ الَّذِي يَتَشَوُّهُ الْكُلُّ إِنَّمَا يُرَادُ بِذَلِكَ الْخَيْرُ الَّذِي يَتَشَوُّهُ الْكُلُّ بِحَسَبِ فِطْرِهِمُ الطَّبِيعِيَّةِ أَيْمَنِ اللَّيْبَةِ فَإِنَّ مَا تَتَشَوُّهُ الْفِطْرُ اللَّيْبَةُ بِمَا هِيَ فِطْرٌ لَيْبَةٌ هُوَ خَيْرٌ مُطْلَقٌ أَوْ خَيْرٌ أَفْضَلُ مِنْ خَيْرٍ مِثْلُ عِلْمِهِمْ أَنَّ الشَّجَاعَةَ وَالْأَدَبَ وَالْجَلَدَ خَيْرَاتٌ وَتَشَوُّفُهُمْ إِيَّاهَا. وَأَمَّا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى إِنْسَانٍ مَا مِثْلُ مَنْ يَرَى مِنَ النَّاسِ الْفَاضِلِينَ أَنَّهُ أَنْ يُجَارَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُجُودَ هُوَ فَإِنَّ هَذَا الْخَيْرَ لَا يُدْرِكُهُ النَّاسُ بِحَسَبِ طَبَاعِهِمْ وَإِنَّمَا يَرَى هَذَا الرَّأْيُ الَّذِي هُوَ مِنَ النَّاسِ فِي غَايَةِ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ. وَإِذَا مَا كَانَ مِنَ الْخَيْرَاتِ مَعَهُ أَكْثَرُ لَذَّةً فَهُوَ أَثَرٌ. وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْكُلَّ مِنَ الْجُمْهُورِ يَتَبَدَّرُونَ إِلَى اللَّذَّةِ وَيَطْلُبُونَهَا وَطَلَبُهُمُ اللَّذَّةُ هُوَ مِنْ أَجْلِ اللَّذَّةِ نَفْسَهَا لَا مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِهَا. وَمَا

كَانَ يَهْدِيهِ الصِّفَةُ أَغْنَى مُتَشَوِّقًا لِلْكَلِّ فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ الْخَيْرُ وَالْعَايَةُ
 قَالَتُ لَذَّةُ إِذْنٍ خَيْرٌ وَلَا زَيْدٌ لَذَّةٌ هِيَ الْمَلَذَّاتُ الَّتِي هِيَ أَبْرَأُ مِنَ الْأَذَى
 وَالْحُزْنِ وَأَدْوَمُ بَقَاءً. وَاللَذَّةُ الْجَمِيلَةُ الَّتِي مِنَ اللَّذَّةِ الْقَبِيحَةِ لِأَنَّ الْجَمِيلَ
 بِمَا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُخْتَارُ
 الْمَرْءُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ لِكُونِهِ إِمَّا لِنَفْسِهِ وَإِمَّا لِصَدِيقِهِ. وَبِالْجَمَلَةِ فَكُلُّ
 مَا كَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَذَّةٌ أَفْضَلُ فَهُوَ الَّذِي بِمَا هُوَ أَحْسَنُ وَكُلُّ مَا هُوَ
 مِنْهَا أَطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ الَّذِي مِنَ الَّتِي هِيَ مِنْهَا أَقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ
 مِنَ الْخَيْرَاتِ أَثْبَتَ فِينَا فَهُوَ الَّذِي بِمَا هُوَ أَقْلُ ثَبَاتًا وَذَلِكَ أَنَّ الصِّحَّةَ
 لَمَّا كَانَتْ أَرْسَخَ فِينَا مِنَ الْجَمَالِ كَانَ وَجُودُ الصِّحَّةِ لَنَا أَلَدَّ مِنْ
 وَجُودِ الْجَمَالِ. وَالْأَشْيَاءُ اللَّذِيذَةُ أَوْ الْأَكْثَرُ لَذَّةً إِنَّمَا السَّبَبُ
 فِي وَجُودِهَا لَنَا يَهْدِيهِ الصِّفَةُ أَحَدُ أَمْرَيْنِ إِمَّا طَوِيلُ أَعْتِيَادِ الشَّيْءِ حَتَّى
 يَصِيرَ لَنَا الْإِلْتِدَادُ بِهِ مِنْ قَبْلِ الْعَادَةِ كَالْحَالِ فِي اللَّذَّةِ الْخَاصَّةِ عَنْ
 الْعِلْمِ. وَإِمَّا مِنْ قَبْلِ أَنَّهَا لَذِيذَةٌ جَدًّا عِنْدَنَا بِالطَّبْعِ. وَالْهَوَى قَالَا شَيْءٌ
 إِذْنًا إِنَّمَا تَصِيرُ أَكْثَرُ لَذَّةً إِمَّا مِنْ قَبْلِ طَوِيلِ الزَّمَانِ وَإِمَّا مِنْ
 قَبْلِ الْهَوَى وَالْمَوَاقِفَةِ الَّتِي بِالطَّبْعِ. وَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُتَلَاثِمُ هَوَانًا
 مُلَانِسَةً أَكْثَرُ فَإِنَّ مَنَفْعَهَا لَنَا إِنَّمَا تَكُونُ فِي رُسُوحِهَا وَثُبُوتِهَا.
 وَقَدْ تَوَخَّذُ مُقَدِّمَاتُ الْإِنْفَعِ وَالْأَفْضَلُ مِنْ مَوَاضِعِ النَّظَائِرِ
 وَالتَّصَارِيفِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَتْ الشُّجَاعَةُ آثَرُ مِنَ الْعَفَافِ قَالُوا لَجُلِّ
 الشُّجَاعِ آثَرُ مِنَ الرَّجُلِ الْعَفِيفِ

(قَالَ) وَمَا اخْتَارَهُ الْكُلُّ آثَرًا لَا يَخْتَارُهُ الْكُلُّ مِنْ

الْجَهْلُورُ وَمَا اخْتَارَهُ اَيْضًا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ آثَرٌ مِمَّا يَخْتَارُهُ الْقَلِيلُ مِنْ
 النَّاسِ فَإِنَّ الْخَيْرَ كَمَا قِيلَ هُوَ الَّذِي يَشْتَقُّ إِلَيْهِ الْكُلُّ . وَمَا
 اخْتَارَهُ اَيْضًا الْحُكَّامُ الْأَوَّلُ اَعْنِي الَّذِينَ لَا يَأْخُذُونَ بِالْأَحْكَامِ
 مِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمْ الشَّرَاعُ أَفْضَلُ مِمَّا لَمْ يَخْتَارُوهُ . وَمَا اخْتَارَهُ اَيْضًا
 الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ بِالْأَحْكَامِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَفْضَلُ مِمَّا لَيْسَ يَخْتَارُهُ هَؤُلَاءِ .
 وَالَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ بِالْأَحْكَامِ مِنَ الْحُكَّامِ الْأَوَّلِ وَهُمْ الَّذِينَ تَوَخَّذَ عَنْهُمْ
 أَصُولُ الْأَحْكَامِ صِنْفَانِ إِمَّا سَامِعٌ فَقَطْ مُبْلَغٌ وَإِمَّا سَامِعٌ عَالِمٌ
 أَيْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَسْتَنْبِطَ مِنْ تِلْكَ الْأُصُولِ أَحْكَامًا مَا لَمْ
 يُصَرِّحْ بِهَا الْحُكَّامُ الْأَوَّلُ . وَهَؤُلَاءِ صِنْفَانِ إِمَّا مُسَلِّطُونَ مِنْ قَبْلِ
 الْحُكَّامِ الْأَوَّلِ وَهُمْ الْقَضَاةُ وَمَا أَشْبَهُهُمْ وَإِمَّا غَيْرُ مُسَلِّطِينَ وَهُمْ
 الْفُقَهَاءُ . وَمِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مَا لِجَمِيعِ أَصْنَافِ الْمُتَلَقِّينَ مِنَ الْحُكَّامِ
 الْأَوَّلِ أَنْ يَقُولُوا فِيهَا . وَهُوَ مَا سَمِعُوهُ أَوْ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْحَاكِمِ
 الْأَوَّلِ وَمِنْهَا مَا يَخْتَصُّ بِذَوِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَهُوَ الْقَوْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي
 تُسْتَنْبَطُ عَنْ الْأَحْكَامِ الْأَوَّلِ الَّتِي صَرَّحَ بِهَا الْحَاكِمُ الْأَوَّلُ وَلَيْسَ
 لِلْسَامِعِينَ دُونَ عِلْمِهِ أَنْ يَقُولُوا فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ . وَإِمَّا الَّذِي يَخْتَصُّ
 بِالْحُكَّامِ الْأَوَّلِ الْقَوْلُ فِيهِ فَهِيَ الْأُصُولُ الَّتِي تَتَنَزَّلُ مِنْزَلَةً
 أَلْبَادِيَّةً لِسَائِرِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ السَّامِعُونَ دُونَ الْعِلْمِ اَعْنِي الْمُسَلِّطِينَ
 وَالْفُقَهَاءَ وَهِيَ الَّتِي يُسَمِّيَهَا أَرِسْطُو الْأُمُورَ الْعُظْمَى . وَالْقَضَاةُ الْأَبْرَارُ
 الَّذِينَ جَرَتْ أَلْعَادُهُ أَنْ يَأْخُذَ عَنْهُمْ الْجَمِيعُ أَوْ الْأَكْثَرُ فَحُكْمُهُمْ
 أَفْضَلُ فَإِنَّ عَدَمَ الْأَخْذِ قَدْ يُخِيلُ هَوَانًا وَنَقْصًا فِي الْمَرْءِ الْقَاضِلِ الْبَرِّ

وَقَوْلُهُ قَبُولُ لِقَوْلِهِ وَقَدْ يُحْيِلُ الْأَمْرُ بِعَكْسِ هَذَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ هُوَ لَا الْأَبْرَارُ الْفَاضِلُونَ مَقْبُولِي الْقَوْلِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ مِنَ الْجُمْهُورِ عَنْهُمْ أَصْلًا شَيْئًا أَوْ إِنَّمَا أَخَذَ عَنْهُمْ قَلِيلٌ. وَذَلِكَ أَنَّ أَقَاوِيلَ هُوَ لَا قَدْ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقْبُولَةٌ بِجِهَةِ أُخْرَى وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمَرْضِيُّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي نَفْسِهِ وَالْأَقْلَ مِنْ الْجُمْهُورِ وَهُمْ ذَوُو التَّمْيِيزِ. وَآيُضًا فَإِنَّ الْفَاضِلِينَ الَّذِينَ كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ الْجُمْهُورِ هُمْ مَدْمُوحُونَ أَكْثَرُ وَهُمْ أَقْلٌ وَجُودًا وَاعَزُّ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ الْجُمْهُورِ لِمَا خَافُوا أَنْ يَلْحَقَهُمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ وَالرِّتَاسَاتِ الَّتِي يُخَافُ إِذَا لَحِقَتْ أَلْمَزَّةُ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِأَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْأَلْحَقَةُ لِلْفَضَائِلِ هِيَ الْمَقْصُودَةُ عِنْدَهُ بِالْفَضَائِلِ. فَمِنْ هَاهُنَا صَارَتْ أَقْوَالُ هَذَا الصَّنِفِ مَقْبُولَةً كَمَا صَارَتْ أَقْوَالُ الصَّنِفِ الْأَوَّلِ الْمُضَادِّ لِهَذَا مَقْبُولَةً وَهُمْ الَّذِينَ أَخَذَ عَنْهُمْ الْجُمْهُورُ

(قَالَ) وَمِنْ الصَّنِفِ الْمَقْبُولِ الْقَوْلُ مِنَ النَّاسِ جِدًّا جِدًّا الصَّنِفِ الَّذِينَ كَرَّامَتُهُمْ أَعْظَمُ لِأَنَّ الْكَرَامَةَ لَمَّا كَانَتْ مُكَافَأَةً الْقَضِيَّةَ كَانَ أَلْمَزَّةُ كُلَّمَا عَظُمَتْ كَرَامَتُهُ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ قَدْ عَظُمَتْ. فَضِيلَتُهُ. وَالصَّنِفُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ نَالَتْهُمْ الْمَضَرَّةُ الْعَظِيمَةُ وَالشَّقَاءُ الْكَبِيرُ لِمَكَانِ الْقَضَائِلِ هُمْ أَيْضًا مَقْبُولُوا الْأَقْوَالِ جِدًّا جِدًّا بِمِثَرَةِ سُقْرَاطَ وَغَيْرِهِ وَالصَّنِفُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَرَى فِيهِ هَذَانِ الصَّنِفَانِ مِنَ النَّاسِ أَعْنِي الَّذِينَ كَرَّامَتُهُمْ أَعْظَمُ وَالَّذِينَ نَالَهُمُ الضَّرَرُ

الْكَبِيرُ مِنْ قَبْلِ الْفَضَائِلِ أَنَّهُمْ فَاضِلُونَ وَيَعْتَرِفُونَ لَهُمْ بِالْفَضْلِ
هُمْ أَيْضًا أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ . فَهَؤُلَاءِ هُمْ أَصْنَافُ النَّاسِ الَّذِينَ إِذَا
اخْتَارُوا شَيْئًا وَاخْتَارَ غَيْرُهُمْ سِوَاهُ كَانَ مَا يُخْتَارُهُ هَؤُلَاءِ أَفْضَلَ
وَأَثَرُ

(قَالَ) وَقِسْمَةُ الشَّيْءِ إِلَى جُزْئِيَّاتِهِ يُحِيلُ فِي الشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ
وَلِذَلِكَ لَمَّا أَرَادَ أُوْمَيْرُوشُ الشَّاعِرُ أَنْ يُعْظِمَ الشَّرَّ الَّذِي لَحِقَ الْقَدِيَّةِ
أَخَذَ بَدَلَهُ جُزْئِيَّاتِهِ فَذَكَرَ قَتْلَ الْأَوْلَادِ وَالنَّوْحَ عَلَيْهِمْ وَحَرَقَ الْقَدِيَّةِ
بِالنَّارِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الشُّرُورِ الَّلَّاحِقَةِ لَهَا

(قَالَ) وَكَذَلِكَ التَّرْكِيبُ قَدْ يُحِيلُ فِي الشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَهُوَ
عَكْسُ . هَذَا أَغْنِي أَنْ يُؤْخَذَ بَدَلُ الْجُزْئِيَّاتِ الْكُلِّي الَّذِي يَعْمُهَا
وَالسَّبَبُ فِي الْإِقْتِنَاعِ فِي هَذَيْنِ الصَّنِفَيْنِ هُوَ التَّغْيِيرُ وَالْإِبْدَالُ

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ الْأَعْسَرُ وَجُودًا فِي نَفْسِهَا
وَالْأَقْلُ وَجُودًا يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا أَفْضَلُ كَانَتْ الْأَشْيَاءُ الْكَثِيرَةُ
الْوُجُودِ فِي نَفْسِهَا وَالسَّهْلَةُ الْوُجُودِ قَدْ تَرَى عَظِيمَةً إِذَا وَجَدَتْ فِي
الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَقِلُّ فِيهَا وَجُودُهَا أَوْ فِي الْأَزْمِنَةِ الَّتِي يَقِلُّ وَجُودُهَا
فِيهَا أَيْضًا أَوْ فِي الْأَنْسَانِ مِنَ النَّاسِ الَّتِي يَقِلُّ وَجُودُهَا فِيهَا مِثْلُ
وُجُودِ الْإِنْسَانِ حَاطِيًا فِي سِنِّ الْأَصْبَا أَوْ فِي الْمُدَدِ الَّتِي لَيْسَ مِنْ
شَأْنِهَا أَنْ تُوجَدَ فِيهِ . وَمِثْلُ مَنْ يَفْعَلُ مَا شَاءَهُ أَنْ يَفْعَلَ فِي زَمَانٍ
طَوِيلٍ فِي زَمَانٍ قَصِيرٍ أَوْ تَكُونَ صَادِرَةً عَنِ الْقُوَى الَّتِي يَقِلُّ
صُدُورُهَا عَنْهَا مِثْلُ أَنْ يَفْعَلَ الضَّعِيفُ فِعْلَ الْقَوِيِّ وَالْمَرِيضُ فِعْلَ

الصَّحِيحِ . وَكُلُّ هَذِهِ وَأَشْبَاهُهَا يَمَّا يُصَيِّرُ الْأَمْرَ الَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَعْرَبًا . وَآيضًا فَإِنَّ أَلْجُزَّ الْعَظِيمِ مِنَ الشَّيْءِ هُوَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِثْلُ الْقَلْبِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالِدِّمَاغِ أَوِ الرِّيعِ . مِنَ السَّنَةِ وَالشَّبَابِ مِنَ الْمَدِينَةِ . وَآيضًا فَإِنَّ النَّافِعَ فِيهَا الْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَشَدُّ هُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا وَالضَّارُّ فِيهِ أَكْثَرُ ضَرَرًا وَمِثْلُ الصِّحَّةِ فِي السَّيْخُوخَةِ وَالْمَرَضِ فِيهَا . فَإِنَّ الصِّحَّةَ فِيهَا أَثَرٌ مِنَ الصِّحَّةِ فِي أَصْبَابِ وَالْمَرَضِ فِيهَا أَضَرُّ . وَآيضًا مَا كَانَ مِنَ الْأَمْرَيْنِ أَقْرَبَ إِلَى الْعَاقِبَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ . وَآيضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ الْعُمُرِ فَهُوَ أَفْضَلُ فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي سَبِيلُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ هِيَ أَفْضَلُ مِثْلُ الْحِكْمَةِ وَالْإِلْهِمِ . وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقَضَائِلِ الَّتِي تَكْمُلُ مَعَ طَوْلِ الْعُمُرِ . وَآيضًا الْأَشْيَاءُ الَّتِي فُعِلَتْ أَوْ فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا أَعْظَمُ مِنَ الَّتِي إِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةً تَمَامًا . وَارْسَطُو يُسَمَّى الَّتِي إِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا الَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا الْحَقِيقَةُ وَيُسَمَّى الْآخَرُ الَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا الْمَدْحُ أَعْنِي الَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا (قَالَ) وَحَدُّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا الْمَدْحُ أَنَّهَا الَّتِي إِذَا فُعِلَتْ يَجْهَلُ أَوْ يَغْلَطُ لَمْ تُنْمَحْ أَضَلًّا وَالَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا الْحَقِيقَةُ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى التَّمَامِ .

(قَالَ) وَلِذَلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ الشَّيْءِ الْجَمِيلِ أَثَرٌ مِنَ فِعْلِ الشَّيْءِ الْجَمِيلِ لِأَنَّ فِعْلَ الْجَمِيلِ إِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ أَوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلْ وَلَا مُدِيحٌ قَاعِلُهُ . وَأَمَّا حُسْنُ الْأَفْعَالِ وَالْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

حَصَلَ فَقَدْ اسْتَفَادَ الْخَيْرَ مِنْهُ الْقَابِلُ لَهُ . وَآيَضًا مَا أُؤْتِرَ فِعْلُهُ لِنَفْسِهِ
 وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ أَثَرٌ يَمَّا لَا يُخْتَارُ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ مَا يُعْلَمُ كَالْخَالِ
 فِي الصِّحَّةِ وَالْجَمَالِ . فَإِنَّ الصِّحَّةَ مُؤْتَرَةٌ بِذَاتِهَا وَالْجَمَالَ مُؤْتَرٌ الْغَيْرِ .
 وَآيَضًا فَإِنَّ النَّافِعَةَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَهِيَ أَنْفَعُ كَالنَّافِعَةِ فِي طَوْلِ
 الْعُذْرِ وَفِي حُسْنِ الْبَيْشِ أَعْنِي الْغَيْشِ الرَّغْدِ وَفِي اللَّذَاتِ وَفِي
 أَصْطِنَاعِ الْخَيْرَاتِ . وَلِذَلِكَ مَا يُظَنُّ بِالصِّحَّةِ وَالْيَسَارِ أَنَّهَا عَظِيمَانِ لِأَنَّهَا
 يَجْمَعَانِ الْخُلُوءَ مِنَ الْحُزَنِ وَالْفِعْلَ بِإِذَّةٍ أَنِّي إِنَّ الصِّحَّةَ هِيَ سَبَبُ
 الْفِعْلِ بِإِذَّةٍ وَالْيَسَارِ سَبَبُ الْخُلُوءِ مِنَ الْآخْزَانِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ
 هَذَيْنِ عَلَى الْإِنْفِرَادِ قَاضٍ وَمُخْتَارٌ بِنَفْسِهِ أَعْنِي الْخُلُوءَ مِنَ الْآخْزَانِ
 وَالْأَفْعَالِ اللَّذِيذَةِ فَإِذَا اجْتَمَعَا لِأَمْرٍ جَعَلَاهُ أَكْظَمَ مِنْ كُلِّ
 شَيْءٍ سِوَاكَ عَالِمٍ ذَلِكَ مِنْ عَلَيْهِ أَوْ جِهَلُهُ مِنْ جَهْلِهِ لِأَنَّ هَذِهِ
 خَيْرَاتٌ مُسْتَفَادَةٌ بِالْحَقِيقَةِ لَا مِنَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا الْمَذْحُ .
 وَلِكُونَ الْيَسَارِ سَبَبًا لِدَفْعِ الْآخْزَانِ طَنَّ بِهِ أَنَّ السَّعَادَةَ قَوْمٌ
 وَآخَرُونَ رَأَوْا أَنَّ السَّعَادَةَ هِيَ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ وَذَلِكَ
 وَاجِبٌ مِنْ قَبْلِ أَنَّهُ آخَرَى أَنْ تَكُونَ السَّعَادَةُ ثَابِتَةً وَمَا مَوْنَةً
 أَلْزَالًا . فَإِنَّهُ لَيْسَ الضَّرَرُ الْأَلْحَقُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ فَقَدْ أَحَدَاهُمَا كَمَنْ لَهُ
 عَيْنٌ وَاحِدَةٌ فَقَدْ هَدَاهَا لِأَنَّ الَّذِي لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ سَلَبَ أَحَبَّ مِمَّا سَلَبَ
 مَنْ لَهُ عَيْنَانِ . وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَتْ السَّعَادَةُ فِي أَمَالٍ وَفِي شَيْءٍ آخَرَ
 لَمْ يَكُنِ الضَّرَرُ الْأَلْحَقُ عَنْ سَبَبِ أَمَالٍ كَالضَّرَرِ الْأَلْحَقِ عَنْ سَلْبِهِ
 إِنْ كَانَ هُوَ السَّعَادَةُ وَحْدَهُ

(قَالَ) وَالْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا هَاهُنَا لَيْسَ هُوَ عَلَى جِهَةِ
التَّضَحُّجِ وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِيهَا بِالْقَدْرِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَطِيبُ مِنْ
ذَلِكَ وَيَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَبَدًا مَتَى آتَى بِالتَّنَاجُجِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ
الْمُقَدَّمَاتِ أَنْ يُرْفِدَهَا بِأَلْمَلَّاتِ الْمَأْخُودَةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ فَعَلُوا
تِلْكَ الْأَفَاعِيلَ فَحَقَّقَهُمُ النِّفْعُ أَوْ الضَّرَرُ فَلِذَلِكَ مَا يَجِبُ لِلْخَطِيبِ
أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْقِصَصِ وَالْأَخْبَارِ

المبحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات

وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهَذِهِ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يُثَبَّتُ بِهَا أَنَّ الشَّيْءَ أَنْفَعُ أَوْ
أَضَرُّ. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِذْنُ وَالْمَنْعُ فَقَدْ قِيلَ فِيهَا قَبْلَ هَذَا
بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ. لَكِنْ أَهْمُ وَأَعْظَمُ مَا فِيهَا هُوَ الْقَوْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي
بِهَا يَقْدَرُ عَلَى جُودَةِ الْإِقْتِنَاعِ فِي السُّنَنِ وَالْإِشَارَةِ بِالسُّنَنِ الَّتِي لَا يُوجَدُ
أَنْفَعُ مِنْهَا. وَلِذَلِكَ قَدْ يَجِبُ أَنْ نَسْتَفْصِيَ الْقَوْلَ فِيهَا هَاهُنَا فَقَوْلُ:
إِنَّ الْأُمَامَةَ بِالسُّنَنِ النَّافِعَةِ وَالْإِقْتِنَاعَ التَّامَّ فِيهَا يَتَأْتَى بِمَعْرِفَةِ اصْنَافِ
السِّيَاسَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالسُّنَنِ الَّتِي تُخَصُّ سِيَاسَةً سِيَاسَةً. وَذَلِكَ أَنَّ
فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ السِّيَاسَاتِ سُنَّتًا نَافِعَةً فِيهَا وَهِيَ السُّنَةُ الَّتِي بِهَا

يَكُونُ خَلاصُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَقَوَامُهَا. وَالسَّنُّ النَّفِيسَةُ الْخَطِيرَةُ هِيَ السَّنُّ
الْعَادِلَةُ أَعْنِي الْمَوْضُوعَةُ فِي الْعَدْلِ الَّتِي رَسَمَهَا الرَّئِيسُ الْأَوَّلُ فِي
تِلْكَ الْمَدِينَةِ أَوْ أَلْسَلَطُ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ الرَّئِيسِ الْأَوَّلِ. وَهَذِهِ السَّنُّ
النَّفِيسَةُ أَعْنِي السَّنُّ الْعَادِلَةُ تَحْتَلِفُ فِي السِّيَاسَاتِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ
غَايَتِهَا. وَعَدَدُهَا عَلَى عِدَدِ السِّيَاسَاتِ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ فِي
سِيَّاسَةِ الثَّقَلِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَى الرَّئِيسِ إِذَا لَطَمَ الْمَرْؤُسَ. وَفِي
سِيَّاسَةِ الْخُرَيْقَةِ الْعَدْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ يُلَطَمَ الرَّئِيسُ مِثْلَ اللَّطْمَةِ الَّتِي
لَطَمَهَا. وَالسِّيَاسَاتُ بِالْجُمْلَةِ أَرْبَعُ السِّيَاسَةِ الْجَمَاعِيَّةِ وَسِيَّاسَةُ الْحِسَّةِ
وسِيَّاسَةُ جُودَةِ التَّلَاسُّطِ وَسِيَّاسَةُ الْوَحْدَانِيَّةِ وَهِيَ الْكَرَامِيَّةُ. وَهَذِهِ
السِّيَاسَاتُ كُلُّهَا الْمَقْصُودُ بِالسَّنِّ الْمَوْضُوعَةِ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ الْمَدِينَةُ
وَالْكُلُّ لَا الشَّخْصُ. فَأَمَّا الْمَدِينَةُ الْجَمَاعِيَّةُ فَهِيَ الَّتِي نَكُونُ الرِّئَاسَةَ
فِيهَا بِالْإِتِّفَاقِ وَالنَّجْتِ لَا عَنْ اسْتِثْنَالٍ إِذْ كَانَ لَيْسَ فِي هَذِهِ
الْمَدِينَةِ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ. وَأَمَّا حِسَّةُ الرِّئَاسَةِ فَهِيَ الَّتِي يَتَسَلَّطُ
فِيهَا التَّلَاسُّطُونَ عَلَى الْمَدِينِيِّينَ بِإِدَاءِ الْإِتَادَةِ وَالْتَّعْرِيمِ لَا عَلَى جِهَةٍ
أَنْ تَكُونَ نَفَقَةً لِلْحِمَاةِ وَالْحَفَظَةِ وَلَا عُدَّةً لِلْمَدِينَةِ عَلَى مَا عَلَيْهِ
الْأَمْرُ فِي السِّيَاسَاتِ الْأُخْرَى بَلْ عَلَى جِهَةٍ أَنْ تَحْصُلَ الثَّرْوَةُ لِلرَّئِيسِ
الْأَوَّلِ. فَإِنْ جَعَلَ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةُ الثَّرْوَةِ.
وَأِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةُ الثَّقَلِ وَكَانُوا
بِمَنْزِلَةِ الْعَبِيدِ لِلرَّئِيسِ الْأَوَّلِ. وَكَانَتْ مُحَامَاةُ عَنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ
مُحَامَاةِ الْإِنْسَانِ عَنْ عَبِيدِهِ. وَأَمَّا جُودَةُ التَّلَاسُّطِ فَهُوَ التَّلَاسُّطُ الَّذِي

يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ الْأَدَبِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِمَا تُوجِبُهُ السُّنَّةُ فَإِنَّ الَّذِينَ يُشِيرُونَ بِمَا تُوجِبُهُ السُّنَّةُ هُمْ مُتَسَلِّطُونَ بِجُودَةِ التَّسَلُّطِ. وَهَذَا هُوَ التَّسَلُّطُ الَّذِي يَحْضُلُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالسَّعَادَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ. وَلِذَلِكَ كَانَ هَؤُلَاءِ أَهْلَ فَضَائِلِ وَإِقْتِدَارٍ عَلَى الْأَفْعَالِ الَّتِي تُضْلِحُ الْمَدِينَةَ وَأَهْلَ حَزْمٍ وَتَحْزُرٍ بِمَا شَأْنُهُ أَنْ يُفْسِدَ الْمَدِينَةَ مِنْ خَارِجٍ أَوْ مِنْ دَاخِلٍ. وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ بِهَذَا الْأِسْمِ. وَهَذَا التَّسَلُّطُ الَّذِي ذَكَرَهُ صِنْفَانِ رِئَاسَةِ الْمَلِكِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الَّتِي تَكُونُ أَرَائِهَا وَأَفْعَالُهَا بِحَسَبِ مَا تُوجِبُهُ الْعُلُومُ النَّظَرِيَّةُ. وَالثَّانِيَةُ رِئَاسَةُ الْأَخْيَارِ وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ أَفْعَالُهَا فَاضِلَةً فَقَطْ. وَهَذِهِ تُعْرَفُ بِالْإِمَامِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي الْفُرْسِ الْأَوَّلِ فِيمَا حَكَاهُ أَبُو نَضِيرٍ

(قَالَ) وَأَمَّا وَحْدَانِيَّةُ التَّسَلُّطِ فَهِيَ الرِّئَاسَةُ الَّتِي يُجِبُ الْمَلِكُ أَنْ يَتَوَحَّدَ فِيهَا بِالْكَرَامَةِ الرِّئَاسِيَّةِ وَالْأَلَا يَنْقُصُهُ مِنْهَا شَيْءٌ بِأَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَذَلِكَ بِضِدِّ مَدِيَّةِ الْأَخْيَارِ. وَهَذِهِ الْمَدِينُ رُبَّمَا كَانَتْ السُّنَنُ الْمَوْضُوعَةُ فِيهَا مَحْدُودَةً غَيْرَ مُتَبَدِّلَةٍ وَاحِدَةً فِي الدُّهُورِ عَلَى مَا عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي سُنَنِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَرُبَّمَا كَانَتْ غَيْرَ ذَاتِ سُنَنِ مَحْدُودَةٍ بَلْ يُفَرِّضُ الْأَمْرُ فِيهَا إِلَى التَّسَلُّطِينَ عَلَيْهَا بِحَسَبِ الْأَنْفَعِ فِي وَقْتٍ وَوَقْتٍ عَلَى مَا عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُنَنِ الرُّومِ الْيَوْمَ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَتَّبِعِي أَنْ يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ هَذَا الَّذِي رَسَمْنَا بِهِ هَذِهِ

السياسات غاية كل واحدة منها لآنا إذا عرفنا الغاية علمنا الأشياء المختارة من أجل الغاية فغاية السياسة الجائسة الحرية. وغاية خسة الرئاسة البروة وغاية جودة التسلط أفضيلة والتسلط بالسة. وغاية الوحدة الكرامة والسياسات التي ليس يوضع فيها سن غير متبدلة فغاية واضعها هو الحفظ والآخر أس من الخلل الواقع في السن بتبدل الأزمنة والامكنة. وينبغي أن تعلم أن هذه السياسات التي ذكرها أرسطو ليس تأنى بسيطة وإنما تأنى أكثر ذلك مركبة كالحال في السياسة الموجودة الآن فإنها إذا تاملت ته جد مركبة من فضيلة وكرامة وحرية وتغلب

(قال) وإذا كانت أصناف السياسات معلومة عندنا فهو بين آنا نستطيع أن نعرف الأخلاق والسن التي تؤدي إلى غاية كل واحدة من هذه السياسات أعني النافعة فيها وأن نعتمد في أنفسنا الخلق بتلك الأخلاق والتسلط بالصنف من السن التي نروم الاقتناع فيها. فإنه إنما تكون الأقاويل التي يحث بها على السن مقنعة إذا كان المشيرون بها ذوي صلاح وحسن فعل حتى تكون هذه الأشياء المذكورة هاهنا معلومة لنا وموجودة فينا. فإنه إذا وجد فينا الخلق الذي يحث عليه كان قولنا في الحث عليه أشد إقناعاً ولذلك ينبغي ألا نشير إلا بما هو موجود لنا أو نحن عازمون على أن يوجد لنا. ومعلوم أن الوقوف على السن

النَّافِعَةِ فِي الْعَالِيَةِ لَهَا إِنَّمَا تُسْتَنْبَطُ عَلَى جِهَةِ التَّحْلِيلِ مِنَ النَّظَرِ
إِلَى الْعَالِيَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ أَيْنَ تَوْجَدُ الْمُفْتَعَاتُ فِي
النَّافِعِ مِنَ الشُّنَنِ فِي سِيَاسَةِ سِيَاسَةٍ وَكَمْ اتَّخَذَ السِّيَاسَاتِ وَالشُّنَنِ
الَّتِي تَحْتَذِي فِيهَا وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْكَافِي فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ. وَأَمَّا الْقَوْلُ
فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى التَّحْقِيقِ فَيَبْقَى الْأَقَارِيلُ الْمَدِينَةُ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفه في النوع التثني . وفي الفضيلة

والنقيصة والمدح والذم وتصرف الخطيب فيهما

وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَأَمَّا بَعْدَ هَذَا فَتَحْنُ قَائِلُونَ فِي الْفَضِيلَةِ وَالنَّقِصَةِ
وَالْجَمِيلِ وَالْقَبِيحِ لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ الَّتِي يُمدَحُ بِهَا وَيُذَمُّ . وَيَلْحَقُ مِنْ
تَعْرِيفِنَا هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَنَّ تُعَرَفَ الْأُمُورَ الَّتِي بِهَا يُنْبِتُ الْمَرْءُ فَضِيلَةً
نَفْسِهِ إِذْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الطَّرِيقَ الثَّانِي مِنَ الطَّرِيقِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يَقَعُ
بِهَا الْإِقْتَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْمَدْحِ أَنْفِي
أَنْ يَكُونَ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحٍ غَيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا
أَنْفُسِنَا عَلَى مَدْحِ أَنْفُسِنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمدَحُ بِهَا الْغَيْرُ بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِالْفَضِيلَةِ فَقَطْ

وَهِيَ الْأُمُورُ الرَّاجِعَةُ إِلَى الْإِخْتِيَارِ

(قَالَ) وَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَغْرُضُ كَثِيرًا أَنْ يُمَدِّحَ النَّاسُ
وَالرُّوحَانِيُونَ بِالْفَضِيلَةِ وَبِأَشْيَاءَ غَيْرِ الْفَضِيلَةِ وَلَيْسَ يَغْرُضُ هَذَا فِي
مَدْحٍ هَؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ وَفِي مَدْحِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَفِّسَةِ وَغَيْرِ الْمُتَنَفِّسَةِ.
أَعْنِي أَنَّهُ يُمَدِّحُ بِأَشْيَاءَ خَارِجَةً عَنِ الْفَضِيلَةِ. فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ
هَاهُنَا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُؤْخَذُ مِنْهَا الْمَقْدَمَاتُ فِي الْمَدْحِ بِالْفَضَائِلِ
وَيُغَيَّرُ الْفَضَائِلُ لِيَكُونَ الْقَوْلُ فِي ذَلِكَ عَامًّا فَقُولُوا: إِنَّ الْجَلِيلَ هُوَ
الَّذِي يُجْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ وَهُوَ مَمْدُوحٌ وَخَيْرٌ وَلَذِيذٌ مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ
خَيْرٌ. وَإِذَا كَانَ الْجَلِيلَ هُوَ هَذَا فَبَيِّنْ أَنَّ الْفَضِيلَةَ حِمْلَةٌ لَا حِمْلَةَ
لِأَنَّهَا خَيْرٌ وَهِيَ مَمْدُوحَةٌ. وَالْفَضِيلَةُ هِيَ مَلَكَتُهُ مُقَدَّرَةٌ لِكُلِّ فِعْلٍ
هُوَ خَيْرٌ مِنْ جِهَةٍ ذَلِكَ التَّقْدِيرُ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَعْنِي الْحَافِظَةَ
لِهَذَا التَّقْدِيرِ وَالْفَاعِلَةَ لَهُ. وَلِذَلِكَ كَانَتْ مُوجِدَةً لِكُلِّ فِعْلٍ يُقْصَدُ
بِهِ نَحْوُ غَايَةٍ مَا جَلِيلَ الْقَدْرِ عَظِيمِ الشَّانِ فِي حُصُولِ تِلْكَ الْغَايَةِ
عَنْهُ. فَمَا أَجْزَاءُ الْفَضِيلَةِ فَالْبُرُّ أَيْ الْعَدْلُ الْعَامُّ وَالشُّجَاعَةُ وَالْأَرْوَةُ
وَالْعِفَّةُ وَكِبَرُ الْهِمَّةِ وَالْحِلْمُ وَالسَّخَاءُ وَاللُّبُّ وَالْحِكْمَةُ. وَهَذِهِ
الْفَضَائِلُ مِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ فِي ذَاتِ الْفَاضِلِ فَقَطْ وَمِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ
مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ تَفَعَّلُ فِي أَنْاسٍ آخَرِينَ وَهَذِهِ الَّتِي تَفَعَّلُ فِي
أَنْاسٍ آخَرِينَ تَكُونُ أَعْظَمَ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْهَا عِنْدَ آخَرِينَ وَفِي حَالٍ
دُونَ حَالٍ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ فَضِيلَةَ الشُّجَاعَةِ أَثَرُ فِي وَقْتِ الْحَرْبِ
مِنْهَا فِي وَقْتِ السَّلَامِ. وَأَمَّا فَضِيلَةُ الْعَدْلِ فَمُؤَثَّرَةٌ فِي السَّلَامِ وَالْحَرْبِ

جَمِيعًا. وَفَضِيلَةُ السَّخَاءِ وَالْمُرُوءَةِ عِنْدَ الْحَاوِيحِ أَثَرُ وَنَهَا عِنْدَ غَيْرِ الْحَاوِيحِ.
وَأَمَّا تَنْفِصِلُ فَضِيلَةُ الْمُرُوءَةِ مِنَ السَّخَاءِ بِالْأَقْلِ وَالْأَكْثَرِ لِأَنَّ
فِعْلَ كِلْتَمَيَّهَا هُوَ فِي الْمَالِ لَكِنَّ الْمُرُوءَةَ هِيَ فِعْلٌ أَكْثَرُ مِنْ فِعْلِ
السَّخَاءِ. فَمَا أَلْبَسَ فَهُوَ فَضِيلَةٌ عَادِلَةٌ يُعْطِي الْقَاضِلُ بِهَا إِكْثَلَ أَمْرٍ
مِنَ النَّاسِ مَا يَسْتَحِقُّ وَذَلِكَ بِقَدْرِ مَا تَأْمُرُ بِهِ السُّنَّةُ. وَالْجُودُ هُوَ الْخُلُقُ
الَّذِي يَأْخُذُ بِهِ الْمَرْءُ الْأَشْيَاءَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهَا فِي
السُّنَّةِ. وَأَمَّا الشُّجَاعَةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ الْمَرْءُ بِهَا فَعَالًا لِلْأَفْعَالِ الصَّالِحَةِ
الْمُتَّاعَةِ فِي الْجِهَادِ عَلَى حَسَبِ مَا تَأْمُرُ بِهِ السُّنَّةُ حَتَّى يَكُونَ بِنِعَالِهِ ذَلِكَ
حَادِمًا لِلْسُّنَّةِ. وَأَمَّا الْجَبْنُ فَضِدُّ هَذَا. وَأَمَّا الْعِفَّةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا الْمَرْءُ
فِي شَهَوَاتِ الْبَدَنِ عَلَى مِقْدَارِ مَا تَأْمُرُ بِهِ السُّنَّةُ. وَالْفُجُورُ ضِدُّ هَذَا.
وَأَمَّا السُّخَاءُ فَفَضِيلَةٌ تَفْعَلُ الْجَمِيلَ الْمَشْهُورَ فِي الْمَالِ. وَالذَّنَاءُ ضِدُّ
هَذَا. وَأَمَّا كِبَرُ الْهَمَّةِ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا حُسْنُ الْأَفْعَالِ الْعَظِيمَةِ
وَصِغَرُ النَّفْسِ. وَالذَّنَالَةُ ضِدُّهَا. وَأَمَّا اللَّبُّ فَفَضِيلَةُ الْعَقْلِ الَّذِي يَكُونُ
بِهِ حُسْنُ الْمَشُورَةِ وَالرَّوْيَةِ مَعَ وُجُودِ الْفَضَائِلِ الْخَلْقِيَّةِ لَهُ الَّتِي هِيَ مِنْ
صِلَاحِ الْحَالِ. فَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ فِي الْفَضِيلَةِ وَأَجْزَائِهَا بِقَدْرِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ
فِي هَذِهِ الصَّاعَةِ. وَأَمَّا سَائِرُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُدْخِلُ بِهَا مِمَّا عَدَا الْفَضِيلَةَ
فَلَيْسَ يَغْسُرُ الْقُوفُ عَلَيْهَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ فَاعِلَاتِ الْفَضَائِلِ
وَمِثْلَ اللَّذَابِ وَالْإِزْتِيَاضِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا تَحْصُلُ الْفَضَائِلُ هِيَ أَوْ
حِسَانٌ وَتَمْدُوحٌ بِهَا. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُوجَدُ فِي الْفَضَائِلِ أَنْفُسُهَا
أَعْنِي الْأَعْرَاضَ الَّتِي تُوجَدُ فِيهَا. وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي تُوجَدُ تَابِعَةٌ

الْفَضَائِلِ فِيهِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا أَلَانَ وَهِيَ عِلَامَاتُ الْفَضَائِلِ
وَأَعْرَاضُهَا اللَّاحِظَةُ لَهَا. وَأَفْعَالُهَا إِنَّمَا يُدْخِلُ بِهَا إِذَا كَانَتْ حَسَنَةً
مُحْمُودَةً فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَفْعَالِ الْفَضَائِلِ قَدْ لَا يُدْخِلُ بِهَا وَكَذَلِكَ
كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَاضِ. فَمِثَالُ الْأَفْعَالِ وَالْأَعْرَاضِ الَّتِي هِيَ مُحْمُودَةٌ
أَفْعَالُ الشُّجْعَانِ فِي الْحَرْبِ أَوْ مَنْ فَعَلَ فِي الْحَرْبِ فَعَلَهُمْ وَإِنْ لَمْ
تَكُنْ لَهُمْ مَلَكَ الشُّجَاعَةِ. وَكَذَلِكَ الْأَعْرَاضُ الَّتِي تَلْحَقُ الشُّجْعَانَ بِمَا
يُدْخِلُ بِهَا. وَمِثَالُ الْأَفْعَالِ الَّتِي لَا يُدْخِلُ بِهَا فِي وَقْتٍ مَا بَدَلُ
الْأَمَالِ فَإِنَّهُ فَعُلُ مِنْ أَفْعَالِ السُّخَاءِ لَكِنْ رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْفِعْلُ
عَلَى جِهَةِ التَّبَذِيرِ. وَمِثَالُ الْأَعْرَاضِ الَّتِي لَا يُدْخِلُ بِهَا أَنْفِعَالُ
الْمَرْءِ عَنِ الْعَدْلِ وَقَبُولُهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ أَنَّ فِعْلَ الْعَدْلِ مَدْحٌ وَأَمَّا
الْإِنْفِعَالُ عَنْهُ فَلَيْسَ بِمَدْحٍ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مَهَانَةٌ وَضَمٌّ. وَبِالْجُمْلَةِ
فَأَفْعَالُ الْفَضَائِلِ إِنَّمَا تَكُونُ مَدْمُوحَةً إِذَا كَانَتْ مُقَدَّرَةً تَقْدِيرَ
الْعَدْلِ وَمِمَّا يُدْخِلُ بِهَا الْأَفْعَالُ الْعَظِيمَةُ الشَّاقَّةُ الَّتِي جَزَاؤُهَا
الْكِرَامَةُ فَقَطْ. فَإِنَّ الْأَفْعَالِ الَّتِي يَكُونُ جَزَاؤُهَا الْكِرَامَةُ خَيْرٌ
مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي جَزَاؤُهَا الْإِمَالُ. وَبِذَلِكَ إِذَا كَانَ فِعْلٌ يُجَازَى
عَلَيْهِ بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَقَعْلُهُ قَاعِلٌ مِنْ أَجْلِ الْكِرَامَةِ فَقَطْ مُدَحٌّ
بِهِ وَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ الْمَرْءُ مِنَ الْفَضَائِلِ لَا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ مُدَحٌّ بِهِ.
وَفِعْلُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ خَيْرَاتٌ بِإِطْلَاقِ كَذَلِكَ بِمَا يُدْخِلُ بِهِ.
وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي فِي طَبِيعَتِهَا خَيْرَاتٌ وَإِنْ كَانَتْ ضَارَةً لِلْفَاعِلِ يُدْخِلُ
بِهَا أَيْضًا. مِثْلُ فِعْلِ الْعَدْلِ فَإِنَّ الْعَادِلَ كَثِيرًا مَا يَسْتَضِرُّ بِهِ.

وَالْأَفْعَالُ الَّتِي تَحْتَصُّ بِالْكَرَامِ الْأَمْوَآتِ مَمْدُوحَةٌ لِأَنَّ الْأَفْعَالَ
الَّتِي تَكُونُ لِلْأَحْيَاءِ إِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا الْمَرْءُ أَكْثَرَ ذَلِكَ مَنَفَعَةٌ
نَفْسِهِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَكُلُّ فِعْلٍ كَانَ الْمَقْصُودُ بِهِ الْقِيَرُ وَلَمْ يَكُنْ
يَنْتَفِعُ بِهِ الْفَاعِلُ لَهُ أَوْ كَانَ يُلْحِقُهُ مِنْهُ ضَرَرٌ فَهُوَ مَمْدُوحٌ بِهِ . وَالْفِعْلُ
الَّذِي يَكُونُ إِلَى الْمُحْسِنِينَ إِلَى النَّاسِ مَمْدُوحٌ بِهِ أَيْضًا لِأَنَّ هَذَا
هُوَ عَدْلٌ إِذْ كَانَ لَيْسَ يَنْتَفِعُ بِهِ الْفَاعِلُ لَهُ . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
الْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ أَنْ لَا يَفْعَلَ الْأَفْعَالَ الَّتِي يَفْتَضِحُ بِهَا أَهْلُ
الْفَوَاحِشِ وَأَنْ يُؤَدِّبَهُمْ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ . وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ ذَوِي
الْفَضَائِلِ وَمُحَمَّدَتُهُمْ مِمَّا يُدْعَى بِهِ . وَالنَّجَلُ عِنْدَ ذِكْرِ الْقَبَائِحِ مِمَّا
قَدْ يَدُلُّ عَلَى الْفَضِيلَةِ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّ الْحَيَاءَ يَنْعُهُ عَنْ إِتْيَانِ تِلْكَ
الرَّذِيلَةِ . وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا عَدَمُ الْحَيَاءِ عِنْدَ ذِكْرِ الْفَوَاحِشِ عَلَامَةً يُدْعَى
بِهَا . وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يُظَنُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَسْتَحْيِي عِنْدَ ذِكْرِ الْقَبَائِحِ
إِذَا كَانَ قَدْ فَعَلَهَا أَوْ نَالَهَا أَوْ هُوَ مُزْمَعٌ أَنْ يَفْعَلَهَا . مِثْلُ مَا حَكَى
أَرِسْطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِأَمْرَأَةٍ مَشْهُورَةٍ بِالْحِكْمَةِ عِنْدَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ إِنْسَانًا
مَشْهُورًا عَرَضَ لَهَا بِالْقَبِيحِ بَانَ قَالَ لَهَا : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ قَوْلًا
يَمَعْنِي عَنْهُ أَحْيَاءُ فَحَلَمْتُ عَنْهُ وَلَمْ تُجِبْهُ بِقَوْلٍ قَبِيحٍ . وَلَمْ يُدْرِكْهَا مِنْ
ذَلِكَ تَأَلَّمُ وَلَا أَنْفَعَالَ لِأَنَّهُمَا كَانَتْ تَرَى لِمَكَانِ فَضِيلَتِهَا أَنَّ
أَحَدًا لَا يُعْرِضُ لَهَا لَا بِمِثَالٍ وَلَا بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ (وَهُمَا صِنْفَا
التَّعْرِيزِ) . لِكِنَّمَا فِي تِلْكَ الْحَالِ جَعَلَتْ تَمُصُّ الْفَضَائِلَ وَتَمْدَحُ
أَهْلَهَا وَتَتَعَصَّبُ لَهُمْ وَتُحَامِي عَنْهُمْ . وَكَانَ أَيْضًا مِنْ مَعَهَا لَمْ يَأْتُوا

أَيْضًا لِقَوْلِ ذَلِكَ وَلَا تَعْرِضْهُ لِعَلِيهِمْ أَنْ مِثْلَهَا لَا يُتَّهَمُ بِمِثْلِ هَذَا

(قَالَ) وَلِذَلِكَ كَانَ التَّعَصُّبُ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي تُكْسَبُ التَّجْدُّ وَالْحَمَامَةُ عَنْهَا قَدْ تَجَمَّلُ التَّعَصُّبُ لَهَا وَالْحَاكِمِي عَنْهَا مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِجَاهِدَةٍ كَثِيرَةٍ لِلطَّبِيعَةِ مِثْلِ أَلْعَافِ وَالشَّجَاعَةِ وَغَيْرِهِمَا. وَذَلِكَ إِذَا صَارَتْ لَهُ مَلَكَهٌ بِتَرَدَادٍ فِعْلِهَا وَالتَّعَصُّبُ لَهَا وَالْحَمَامَةُ عَنْهَا كَمَا عَرَضَ لِهَذِهِ الْمَرْأَةِ الَّتِي اقْتَصَصْنَا ذِكْرَهَا مَعَ ذَلِكَ الرَّجُلِ. وَذَلِكَ أَنَّ أَمثالَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ قَدْ يَصِيرُ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِجَاهِدَةٍ كَثِيرَةٍ

(قَالَ) وَالْإِنْعَامُ عَلَى الْغَيْرِ إِذَا لَمْ يَسْتَفِدِ النِّعَمُ مِنْهُ شَيْئًا هُوَ مِمَّا يُدْخِلُ بِهِ وَلِذَلِكَ مَا كَانَ الْعَدْلُ وَالْبِرُّ يُدْخِلُ بِهِمَا الْإِنْسَانُ مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُمَا نَافِعَانِ كَمَا يُدْخِلُ بِهِمَا مِنْ جِهَةٍ مَا هُمَا جَمِيلَانِ. وَالْإِنْتِقَامُ أَيْضًا مِنَ الْأَعْدَاءِ وَالْأَيُّضَى عَنْهُمْ فِي حَالٍ مِمَّا يُدْخِلُ بِهِ. فَإِنَّ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ هُوَ جَزَاءٌ وَالْجَزَاءُ عَدْلٌ وَالْعَدْلُ جَمِيلٌ. وَحُبُّهُ الْقَلْبَةُ أَيْضًا وَحُبُّهُ الْكَرَامَةُ مِمَّا يُدْخِلُ بِهِمَا لِأَنَّهَا عِلَامَتَانِ تَدُلُّانِ عَلَى إِثَارِ الْفَضَائِلِ لَا لِكَانِ اكْتِسَابِ مَالٍ بِهِمَا. أَمَّا حُبُّهُ الْقَلْبَةُ فَتَدُلُّ عَلَى إِثَارِ الشَّجَاعَةِ. وَأَمَّا حُبُّهُ الْكَرَامَةَ فَعَلَى إِثَارِ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ وَلِذَلِكَ كَانَتْ الْفَضَائِلُ الْآثِرَةُ الْخُتَارَةُ هِيَ الَّتِي لَيْسَ يَقْصِدُ بِهَا مُقْتَنِيهَا إِلَى اكْتِسَابِ مَالٍ. لِأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ

الْفَضِيلَةَ وَمِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي يُمدَحُ بِهَا الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ يَنْقَى ذِكْرُهَا
مَحْفُوظًا أَبَدًا عِنْدَ النَّاسِ. وَمِنْ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمدَحُ بِهَا الْهَيْئَاتُ
الْمَحْمُودَةُ عِنْدَ قَوْمٍ الَّتِي يَجْعَلُونَهَا عَلَامَةً لِذَوِي الشَّرَفِ مِثْلُ تَوْفِيرِ
الشُّعُورِ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الشَّرَفِ إِذَا كَانَ لَيْسَ كُلُّ
أَحَدٍ يَسْهَلُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ شَعْرَةٍ لِأَنَّ الْمَوْفُورِي الشُّعُورِ لَا يَفْعَلُونَ عَمَلًا
مَنْ لَيْسَ بِمَوْفُورِ الشَّعْرِ وَلَا يُتَمَنُّونَ بِأَيِّ هِنَةٍ اتَّفَقَتْ. وَالْأَزْيَاءُ
الَّتِي كَانَتْ تُتَّخَذُ عِنْدَ تَاهِي مِنْ هَذَا النَّوعِ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو
(قَالَ) وَمِنْ الشَّرَفِ أَلَا يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ إِلَى آخَرِينَ بَلْ
يَكُونُ مُكْتَفِيًا بِنَفْسِهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَأْخُذَ فِي الْمَدْحِ وَالذَّمِّ وَالْأُمُورِ
الْقَرِيبَةِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالنَّقَائِصِ وَهِيَ النَّقَائِصُ الَّتِي قَدْ تَوَجَّدَ عَنْهَا
أَفْعَالُ الْفَضِيلَةِ أَوْ الْفَضَائِلِ الَّتِي قَدْ تَوَجَّدَ عَنْهَا أَفْعَالُ النَّقَائِصِ.
فَيُمدَحُ بِالنَّقَائِصِ الَّتِي تَوَجَّدَ عَنْهَا أَفْعَالُ الْفَضِيلَةِ بِأَنَّهُ يُوْهِمُ أَنَّهَا
فَضَائِلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ تِلْكَ الْأَفْعَالَ هِيَ مِنْ أَفْعَالِ الْفَضَائِلِ. وَكَذَلِكَ
يُوْهِمُ فِي الْفَضَائِلِ أَنَّهَا نَقَائِصُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ عَرَضَ أَنْ وَجَدَ عَنْهَا
أَفْعَالُ النَّقَائِصِ. فَيَقَالُ النَّقَائِصُ الَّتِي تَوَجَّدَ عَنْهَا أَفْعَالُ الْفَضَائِلِ
قَدَّوْهُمْ أَنَّهَا فَضَائِلُ الْعَلِيُّ الَّذِي قَدْ يَكُونُ عَنْهُ أَفْعَالُ الْحَلِيمِ فَيُوْهِمُ
بِهِ أَنَّهُ حَلِيمٌ. وَالْبَلَّةُ الَّذِي قَدْ تَوَجَّدَ عَنْهُ أَفْعَالُ ذَوِي السَّمْتِ
فَيُوْهِمُ بِذَلِكَ أَنَّهُ ذُو سَمْتٍ. وَكَذَلِكَ الْعَدِيمُ الْحَسِّ قَدْ يُوْهِمُ فِيهِ
أَنَّهُ عَفِيفٌ إِذَا كَانَ قَدْ يُوْجَدُ لَهُ فِعْلُ الْعَفِيفِ بِالْعَرَضِ. وَكَذَلِكَ

الْمُتَهَوِّرُ قَدْ يُؤْهِمُ فِيهِ أَنَّهُ شَجَاعٌ وَالسَّفِيهُ أَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا
يُؤْهِمُ بِهِ أَنَّهُ نَقِصَةٌ وَلَيْسَ بِتَقْصِصَةٍ مَا يَغْرِضُ الْكَبِيرُ أَهْلَةً مِنْ
أَنْ يَتَجَاوَى عَنْ الْأُمُورِ الْبَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَغْلُطُ وَيَتَخَدَّعُ.
وَالْكَبِيرُ أَهْلَةً إِنَّمَا يَخْنَعُ ذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الْبَسِيرَةِ الَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ
مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ وَذَلِكَ أَيْضًا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي
يُحْسَنُ فِيهِ أَنْ يَتَعَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُؤْهِمُ أَيْضًا هَذَا الْمَوْضِعُ عَكْسَ هَذَا.
وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي الْمُتَخَدِّعِ إِنَّهُ كَبِيرُ أَهْلَةٍ. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ أَنْ
يَكُونَ الْمَرْءُ يُعْطِي أَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا
يَعْرِفُ لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنْ شَرَفَ فَضِيلَةٍ السَّخَاءِ هُوَ بِذَلِكَ أَمَالٍ لِلْكُلِّ
(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَدْحُ بِحُضْرَةِ الَّذِينَ يُجِئُونَ الْمَدْحُ
كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: إِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ أَهْلِ أَثِينَةٍ بِأَثِينَا. وَيَنْبَغِي أَنْ
يُمْدَحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِالَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ إِنْ
كَانَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنْ الْمَدْحِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ خَارِجِ مَدْحِ الْأَبَاءِ
وَذِكْرِ مَأْثَرِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ وَمَدْحِ الْمَرْءِ بِمَا نَسَبُوا إِلَيْهِ هِمَّتَهُ مِنْ
الْمَرَاتِبِ. وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَالرَّجُلُ الْكَبِيرُ
أَهْلَةً الَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهِتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ الْمَرَاتِبِ يُمْدَحُ
بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجِ أَغْنَى بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤْمَلُ أَنْ يَنْسُوَ
نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ آيٍ مَأْثَرٌ أَبْتَدَأَ مِنْ قَبْلِ آبَائِهِ وَإِلَى آيٍ مَأْثَرٌ
يَنْتَهِي مِنْ قَبْلِ هِمَّتِهِ. وَأَمَّا الَّذِي لَا يَنْسُوَ بِهِتِهِ إِلَى نَيْلِ أَكْثَرِ مَا

حَصَلَ لَهُ مِنَ الرُّتْبَةِ فَإِنَّمَا يُدَحُّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ مِنْ خَارِجٍ
بِأَبَائِهِ فَقَطْ. وَكَأَنَّهُ يَرَى هَاهُنَا أَنَّ الْمَدْحَ بِمَنَاقِبِ الْأَبَاءِ أَيْسَرَ
يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُدَحَّ بِفَضِيلَةِ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:
لَسْنَا وَإِنْ كُرِّمَتْ أَوَائِلُنَا يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ تَشْكُلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
وَأَنَّهُ قَدْ يُقْتَصَرُ بِالْمَدْحِ عَلَى الْفَضِيلَةِ دُونَ ذِكْرِ الْأَبَاءِ كَمَا قَالَ:
نَفْسُ عَصَامٍ سَوَّدَتْ عَصَامًا

(قَالَ) وَأِنَّمَا يَكُونُ الْمَدْحُ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْأَفْعَالِ الَّتِي تَكُونُ عَنْ
الْمَشِئَةِ وَالْإِخْتِيَارِ فَإِنَّ الْفِعْلَ الَّذِي يَكُونُ بِالْمَشِئَةِ وَالْإِخْتِيَارِ
هُوَ الْفِعْلُ الْقَاضِلُ. وَالَّذِي يُدَحُّ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ بِالِاتِّفَاقِ
أَوْ بِالْعَرَضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا إِذَا اقْتَرَنْتْ بِالْقَضَائِلِ تَرَيْنَا لَهَا
وَتَفْخِيمًا بِمَنْزِلَةِ الْحَسَبِ الْمُقْتَرِنِ إِلَى الْفَضِيلَةِ وَجُودَةِ النَّجْتِ الْمُقْتَرِنِ
بِأَفْعَالِ الْقَضَائِلِ. وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي الْمَدْحِ الْأَفْعَالُ الَّتِي تَكُونُ
بِاتِّفَاقٍ وَالْأَعْرَاضُ الَّتِي تَقْتَرِنُ بِالْعَرَضِ مَعَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَكُونُ
بِالْمَشِئَةِ مَتَى تَكَرَّرَتْ مِرَارًا كَثِيرَةً عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى أَوْهَمَتْ
أَنَّهَا بِالذَّاتِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ لَهَا ذَلِكَ ظَنَّ بِهَا أَنَّهَا عِلَامَةٌ
لِلْفَضِيلَةِ مِثْلَ أَنْ يَنْجَلِ الْإِنْسَانُ مِرَارًا كَثِيرَةً بِالِاتِّفَاقِ فِي مَوَاضِعَ
يُمدَحُّ النَّجَلُ فِيهَا. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِي الْمَدِيحِ لِأَنَّ
الْمَدِيحَ هُوَ قَوْلٌ يَصِفُ عَظَمَ الْفَضِيلَةِ وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ هِيَ مِمَّا تَعْظُمُ بِهَا
الْفَضِيلَةُ. وَإِذَا اسْتَعْمِلَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِي الْمَدِيحِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ

عَلَى أَنَّهَا حَدَّثَتْ عَنِ الرَّوِيَّةِ . وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي بِالْإِتِّفَاقِ مِنْهَا أَشْيَاءُ
لَيْسَ الْإِنْسَانُ سَبَبُهَا لَا بِالذَّاتِ وَلَا بِالْعَرَضِ مِثْلُ الْحَسَبِ وَالْمُنْشَأِ
الْفَاضِلِ وَمِنْهَا أَشْيَاءُ تَعْرِضُ عَنِ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَكُونُ عَنِ الرَّوِيَّةِ .
فَأَمَّا الْإِتِّفَاقَاتُ الْحَيِّدَةُ الَّتِي تَعْرِضُ عَنِ الْأَفْعَالِ فَتَوَخَّذْ عَلَامَةً عَلَى
الْفَضَائِلِ . وَأَمَّا الْإِتِّفَاقَاتُ الْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى الْإِنْسَانِ فَتَوَخَّذْ فِي تَقْرِيرِ
الْفَضِيلَةِ وَتَنْشِئَتِهَا مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي الْمَدْحِ : إِنَّ الْخِيَارَ يُؤَادُّ فِي
الْخِيَارِ . وَفِي الذَّمِّ : إِنَّ الْحَيَّةَ تَبْدُ الْحَيَّةَ . وَالْأَفْعَالُ بِالْجُمْلَةِ هِيَ الَّتِي
عَلَيْهَا يُجْمَدُ الْفَاعِلُ . وَأَمَّا آثارُ الْأَفْعَالِ فَهِيَ دَلَائِلُ عَلَى الْفِعْلِ وَإِنَّمَا
يُمَدِّحُ بِهَا إِذَا اثْبَتْنَا مِنْهَا الْفِعْلَ

(قَالَ) وَجُودَةُ الْخَبَرِ الَّتِي قِيلَ فِيهَا تَقَدَّمَ إِنَّهَا السَّعَادَةُ عَلَى
مَا يَرَاهُ الْجَنُودُ هِيَ وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الْإِتِّفَاقِيَّةِ الَّتِي يُمَدِّحُ بِهَا
وَاحِدَةً فِي الْخِنْسِ وَلَيْسَتْ هِيَ وَالْفَضَائِلُ وَاحِدَةٌ بِالْجِنْسِ بَلْ كَمَا
أَنَّ صَلَاحَ الْحَالِ جِنْسٌ لِلْفَضِيلَةِ أَعْنِي مُحِيطًا بِهَا كَذَلِكَ مَا يَجْدُثُ
بِالْإِتِّفَاقِ جِنْسٌ مُحِيطٌ بِالسَّعَادَةِ . وَهَذَانِ الْخِنْسَانِ أَعْنِي الْفَضَائِلُ وَمَا
بِالْإِتِّفَاقِ يَدْخُلَانِ جَمِيعًا فِي بَابِ الْمَدْحِ وَفِي بَابِ الْمَشُورَةِ لَكِنْ مِنْ
جِهَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ . وَإِنَّمَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا الْأَشْيَاءَ الَّتِي
يُحِبُّ أَنْ تُفْعَلَ فَقَدْ عَرَفْنَا الْأَشْيَاءَ الَّتِي إِذَا فُعِلَتْ مُدِّحُ بِهَا الْإِنْسَانُ .
وَلِذَلِكَ إِذَا ذَكَرْتَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ذِكْرًا مُطْلَقًا أَمَكْنَ أَنْ تَدْخُلَ فِي
الْمَشُورَةِ وَفِي الْمَدْحِ وَذَلِكَ بِزِيَادَةِ الْجِهَةِ الَّتِي بِهَا تَدْخُلُ فِي الْمَشُورَةِ
أَوْ الْجِهَةِ الَّتِي بِهَا تَدْخُلُ فِي الْمَدْحِ . وَذَلِكَ مِثْلُ مَا يَقُولُ الْقَائِلُ

إِنَّهُ لَيْسَ يَتَّبِعِي أَنْ يُوجِبَ الْعِظَمُ وَالْفَضْلُ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ
لِلْإِنْسَانِ بِالْعَرَضِ بَلْ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ عَنْ رَوَيْتِهِ وَاخْتِيَارِهِ .
فَإِذَا زِيدَ إِلَى هَذَا . فَلِذَلِكَ لَيْسَ يَتَّبِعِي أَنْ يُمَدِّحَ الَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ
بِالْحُجَّتِ وَإِنَّمَا يَتَّبِعِي أَنْ يُمَدِّحَ الَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ عَنْ رَوِيَّةٍ وَاخْتِيَارِ
كَفْلَانِ كَانَ دَاخِلًا فِي بَابِ الْمَدْحِ . وَإِذَا زِيدَ إِلَى هَذَا فَلِذَلِكَ لَا
يَتَّبِعِي أَنْ تُطْلَبَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَكُونُ عَنِ الْإِتِّفَاقِ بَلْ الْأَشْيَاءُ
الَّتِي تَكُونُ عَنِ الرُّوْيَةِ دَخَلَ فِي الْمَشُورَةِ . وَالْأَشْيَاءُ الْإِتِّفَاقِيَّةُ قَدْ
يُمْكِنُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي الْمَدِيحِ نَارَةً وَفِي الذَّمِّ أُخْرَى . فَإِنْ ظَنُّوا
النَّاسَ فِيهَا مُخْتَلِفَةً فَإِنَّ قَوْمًا يَرَوْنَ أَنَّ الْحَيَرَاتِ الَّتِي تَكُونُ
بِالْإِتِّفَاقِ لَيْسَ يَتَّبِعِي أَنْ يُمَدِّحَ بِهَا إِذَا كَانَتْ شَيْئًا غَيْرَ مُحْصَلٍ وَلَا
مُكْتَسَبٍ لِلْإِنْسَانِ . وَقَوْمٌ يَرَوْنَ أَنَّهُ يُجِبُ أَنْ يُمَدِّحَ بِهَا وَأَنَّهَا
تَدُلُّ عَلَى عِنَايَةِ الْهِمَّةِ بِالَّذِي تَعْرِضُ لَهُ وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي عَنْ
الْإِخْتِيَارِ فَالْمَدْحُ مِنْهَا يُمَدِّحُ بِهِ أَبَدًا وَالذَّمُّ مِنْهَا يَذُمُّ بِهِ أَبَدًا
(قَالَ) وَيَتَّبِعِي أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي الْمَدْحِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَكُونُ
بِهَا تَعْظِيمُ الشَّيْءِ وَنَسِيئَتُهُ وَهُوَ أَنْ يُحْيَلَ فِي الشَّيْءِ أَنَّهُ بِالْقُوَّةِ أَشْيَاءُ
كَثِيرَةٌ . وَذَلِكَ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ أَوَّلَ مَنْ فَعَلَ هَذَا كَمَا قِيلَ فِي قِصَّةِ
هَابِيلَ وَقَابِيلَ . أَوْ إِنَّهُ وَحْدَهُ فَعَلَ هَذَا . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ
يَسِيرٍ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُفْعَلَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِعْلًا كَبِيرًا .
فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا إِنَّمَا تُفِيدُ عِظَمَ الْفِعْلِ . وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ أَنَّهُ فَعَلَ
فِي زَمَانٍ يَعْسُرُ فِعْلُهُ . وَذَلِكَ إِذَا كَانَ بِحَسَبِ مَا يُشَاكِلُ إِنْسَانًا

إِنْسَانًا. ثُمَّ إِنَّهُ إِنْ كَانَ الْفَاعِلُ مِمَّنْ يُقْتَدَى بِهِ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَامِهِ
مِرَارًا كَثِيرَةً فَإِنَّ فِعْلَهُ عَظِيمٌ كَمَا قِيلَ: إِنَّكُمْ أَيُّهَا الرَّهْطُ أُمَّةٌ
يُقْتَدَى بِكُمْ. وَالْأَفْعَالُ الَّتِي يُقْتَدَى بِهَا لَيْسَتْ هِيَ الْأَفْعَالُ الَّتِي تَكُونُ
بِالْإِتِّفَاقِ بَلْ الْأَفْعَالُ الَّتِي تَكُونُ عَنِ الْمَشِيَّةِ وَالرَّوِيَّةِ. وَهَذِهِ
الْأَشْيَاءُ قَدْ يُمَكِّنُ أَنْ تَدْخُلَ فِي الْمَشُورَةِ أَعْيُنُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي
تُعْظَمُ الشَّيْءُ مِثْلُ أَنْ يُشَارَ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِالْمَدْحِ الْأَوَّلِ
فِي ذَلِكَ الْجُلُوسِ أَوْ يَتَشَبَّهَ بِهِ فِي الْمَدْحِ أَوْ يُشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ
مِنْ مُجَلَّةِ الْمَدُوحِينَ الَّذِينَ لَا يَنَازِعُ أَحَدٌ فِي حَمْدِهِمْ. وَمِثْلُ الَّذِينَ
يُعَدُّونَ فِي الْأَسْوَاقِ أَوْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي الْمَدْحِ. وَبِمَا يُعْظَمُ
الْمَدُوحِينَ أَنْ يُقَاسُوا بِالَّذِينَ يَفْعَلُونَ أَضْدَادَ أَعْمَالِهِمْ وَذَلِكَ عِنْدَ
ذِكْرِ أَعْمَالِهِمُ الْقَائِضَةِ.

(قَالَ) وَالَّذِينَ شَانُهُمْ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالْمَدُوحِينَ الَّذِينَ فِي
الْعَمَاةِ وَيُقَاسُوا أَنْفُسَهُمْ مَعَهُمْ دَائِمًا فَقَدْ يَتَّبِعِي أَنْ يُشَبَّهُوا بِأُولَئِكَ
وَأَنْ يُجْرَوْا مَجْرَاهُمْ فِي الْمَدْحِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا وَصَلُوا مَرَاتِبَهُمْ. فَإِنَّ
فَضَائِلَهُمْ فِي نُمُوِّ دَائِمٍ. وَمُقَاسِيَةُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ مَعَ غَيْرِهِ لَا
تَصِحُّ إِلَّا مِنَ الرَّجُلِ الْفَاضِلِ لِمَوْضِعِ حُبِّ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ فَهُوَ
يَرَى نَقَائِصَهُ أَقْلَ مِنْ نَقَائِصِ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَتْ أَعْظَمَ. وَيَرَى
فَضَائِلَهُ أَكْثَرَ وَإِنْ كَانَتْ أَصْغَرَ وَلِذَلِكَ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَسْتَطِيعُ
الْمُقَاسِيَةَ وَإِنَّمَا يَسْتَطِيعُهَا الْفَضْلَاءُ مِنَ النَّاسِ وَمِثْلُ مَا حَكَى أَرِسْطُو
عَنْ سُقْرَاطَ أَنَّهُ كَانَ يُقَاسُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ وَيُجْرَى الْأَحْكَامَ

عَلَى اخْلَاقِ نَفْسِهِ . بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَإِنْ وَجَدَ فِيهِ فَضِيلَةً آثَابَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَإِنْ وَجَدَ فِيهِ رَذِيلَةً عَاقَبَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا .
وَالْمُقَاسِمَةُ الدَّفَاعَةُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَرَدَّدَ فِي الْفَضَائِلِ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِالْمَدُوحِينَ جِدًّا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ مَدُوحُونَ أَعْيُنِ الَّذِينَ فَضَائِلُهُمْ فِي نُصُورٍ دَائِمٍ أَنَّ الَّذِينَ أَجْهَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي أَنْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ الْفَاضِلِينَ فَحُجَّزُوا عَنْ ذَلِكَ فَهُمْ مَدُوحُونَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ . وَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ تَعْظِيمَ الشَّيْءِ دَاخِلٌ فِي الْمَدْحِ . فَإِنَّ التَّعْظِيمَ لِلشَّيْءِ تَشْرِيفٌ لَهُ وَالتَّشْرِيفُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُسَبِّحُ بِهَا . وَيَنْبَغِي إِذَا أُرِيدَ التَّعْظِيمُ بِالشَّيْءِ أَنْ يُشَبَّهَ بِكَثِيرٍ مِنَ التَّحْمُودِينَ فَإِنَّ فِي هَذَا الْفِعْلِ تَشْرِيفًا لِلْمَدْحِ وَدَلَالَةً لِلْجُمْهُورِ عَلَى فَضِيلَتِهِ . وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي الْأَنْوَاعِ الْمُشْتَرَكَةِ لِأَجْناسِ الْأَقَاوِيلِ الثَّلَاثَةِ أَنَّ التَّعْظِيمَ وَإِنْ كَانَ مُشْتَرَكًا لِأَجْناسِ الْأَقَاوِيلِ الْخَطِيئَةِ الثَّلَاثَةِ فَهُوَ أَحْصَى بِالْمَدْحِ وَالذَّمِّ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُعَدُّ الْإِنْسَانُ أَوْ يُذَمُّ بِالْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ الْمُعْتَرَفِ بِوُجُودِهَا . وَتَعْظِيمُ الشَّيْءِ أَحْصَى بِالْمَوْجُودِ مِنْهُ بِالْمَعْدُومِ . وَلِذَلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِلْمَدْحِ أَنْ يَصِفَ جَلَالََةَ الشَّيْءِ وَبِهَاءَهُ وَزِينَتَهُ . وَأَمَّا اسْتِعْمَالُ الْعَلَامَاتِ وَالْمِثَالَاتِ فَهُوَ أَحْصَى بِالشُّورَةِ لِأَنَّ مِنَ الْأُمُورِ الْمُتَصَرِّمَةِ الَّتِي قَدْ سَلَفَتْ يُجَدِّسُ عَلَى الَّتِي سَتَكُونُ وَاعْطَاءُ السَّبَبِ وَالْعِلَّةِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي قَدْ سَلَفَتْ نَحْنُ لَهُ أَكْثَرُ قَبُولًا وَتَعْظِيمًا لِانْتِقَاضِهِ وَتَصَرُّمِهِ . وَأَمَّا مَعْرِفَةُ الْعَدْلِ وَالْجَوْرِ فَهُوَ خَاصٌّ بِالْمُشَاجَرَةِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَجَمِيعُ الْمَدْحِ

وَالذَّمَّ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْمُقَايَسَةِ بَيْنَ سَلَفٍ مِنَ الْحَمْدِيِّينَ
وَالذَّمُّومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَالذَّمَّامِ أَنْ يَعْلَمَ بِمِحْضَةِ مَنْ يَكُونُ
الْمَدْحُ أَوِ الذَّمُّ أَعْنِي أَنْ يَعْلَمَ بِمِحْضَةِ الْأَصْدِقَاءِ وَيَذُمَّ بِمِحْضَةِ الْأَعْدَاءِ
كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْلَمَ الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَأْخُذُ فِيهَا الْمَدْحُ وَالذَّمُّ وَهِيَ
الَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ الْقَضَائِلُ وَقَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَأَعْرَاضُهَا
وَهُوَ بَيِّنٌ أَنْ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حُدُودِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تُعَرَفُ حُدُودُ
أَصْدَادِهَا إِذَا كَانَ الْضِدُّ يُعَرَفُ مِنْ ضِدِّهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهاني

(من كتاب صناعة الترسل)

إِنَّ التَّهْنِائِيَّ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا بَسْطُ الْكَلَامِ وَالْإِظْطَابُ فِي
شُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ وَالتَّبَرُّؤِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ وَوَصَفُ مَا
أُعْطِيَ مِنَ النَّصْرِ وَنُجْجٍ مِنَ الثَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسَّرَ مِنَ الْفَتْحِ ثُمَّ
مَا وَصِفَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ عَزْمٍ وَأَقْدَامٍ وَصَبْرٍ وَجَلَدٍ عَنِ الْمَلِكِ وَعَنْ
جَيْشِهِ حَسَنٌ وَعَمُّهُ قَلَاقٌ ذِكْرُهُ وَرَاقٌ التَّوْسِيعُ وَعَذَبٌ بَسْطُ

الْكَلَامِ فِيهِ فَإِنَّهُ مُتَرَتَّبٌ عَلَى مَا قَدَّمَ مِنْ رُسْبَةِ النَّصْرِ إِلَى
وَاهِيهِ وَالْجَلْدِ إِلَى مُعْطِيهِ وَالْثَبَاتِ إِلَى الْمُرُوقِ لَهُ ثُمَّ كَلَّمَ اتَّسَعَ
مَجَالُ الْكَلَامِ فِي ذِكْرِ الْمُرَافَقَةِ وَوَضْفِهَا كَانَ أَحْسَنَ وَأَدَلَّ عَلَى
الْبَلَاغَةِ وَأَدْعَى لِسُرُورِ الْمَدْحِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِ التَّعْمَةِ عِنْدَهُ
وَأَشْفَى إِلَى سَمْعِهِ وَأَشْفَى لِعَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَالِ عَلَى
جَلِيلِهِ وَلَا بَأْسَ بِتَهْوِيلِ أَمْرِ الْعَدُوِّ وَوَضْفِ جَمْعِهِ وَإِقْدَاوِهِ فَإِنَّ
فِي تَصْغِيرِ أَمْرِهِ تَحْقِيرَ الظَّفَرِ بِهِ

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسه)

الْأَحْسَنُ مِنْهَا بَسْطُ الْكَلَامِ وَتُعْتَبَرُ كَثْرَتُهُ وَقِلَّتُهُ بِمَحَسَبِ
الرُّتَبِ وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهَا أُمُورٌ مِنْهَا بَرَاغَةُ الْأَسْتِهْلَالِ بِذِكْرِ
الرُّتَبَةِ أَوْ الْحَالِ وَقَدَرُ التَّعْمَةِ أَوْ لَقَبِ صَاحِبِ التَّقْلِيدِ أَوْ أَسْمِهِ
لَا يَكُونُ الْمَطْلَعُ أَجْنَبِيًّا مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ وَلَا يَبْعِدُ مِنْهَا وَلَا
مُبَايَنًا لَهَا ثُمَّ يَنْتَضِبُ مَا يُنَاسِبُ الْقَرَضَ وَيُؤَافِقُ الْمَقْصَدَ مِنْ أَوَّلِ
الْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ مُنْقَسِمًا فِي التَّقْلِيدِ
عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَقَارِبَةٍ الْقَادِرِ فَالرُّبْعِ الْأَوَّلُ الْخُطْبَةُ وَالثَّانِي
ذِكْرُ مَوْقِعِ الْإِنْعَامِ فِي حَقِّ الْقَلْدِ وَذِكْرُ الرُّتَبَةِ وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا

وَالثَّالِثُ فِي أَوْصَافِ الْقَلْدِ وَذِكْرُ مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ الرُّتْبَةَ وَيُنَاسِبُ
حَالَهُ مِنْ عَدْلٍ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُفْعَةٍ وَشَجَاعَةٍ إِنْ
كَانَ نَائِبًا وَوَضْفِ الْعَدْلِ وَالرَّأْيِ وَحُسْنِ التَّدْبِيرِ وَالْعُرْفَةِ بِوُجُوهِ
الْأَقْوَالِ وَعِمَارَةِ الْإِلَادِ وَصَلَاحِ الْأَحْوَالِ وَمَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ إِنْ
كَانَ وَزِيرًا وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ بِحَسَبِهَا. وَالرَّابِعُ فِي الْأَوْصَافِ وَهَذِهِ
هِيَ الْقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى الْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ
فَلَا يُعْطَى أَحَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يُصَفُّ بِكَثْرٍ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ
وَيُرَاعَى أَيْضًا مِقْدَارُ الْعِمَّةِ وَالرُّتْبَةِ فَيَكُونُ وَضْفُ الْمُنَّةِ بِهَا عَلَى
مِقْدَارِ ذَلِكَ وَمِنْهَا أَنْ لَا يُصَفَّ الْمُتَوَلِّي بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَغْرِیضٌ
بِالْمَعْدُولِ وَتَقْيِصٌ لَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ بِمَا يُوَعِّرُ الصُّدُورَ وَيُورِثُ الضَّعَائِنَ
فِي الْقُلُوبِ وَيُدِلُّ عَلَى ضَعْفِ الْأَرَءِ فِي اخْتِيَارِ الْأَوَّلِ وَلَهُ أَنْ
يُصَفَّ الثَّانِي بِمَا يَحْصُلُ بِهِ الْمَقْصُودُ مِنْ غَيْرِ تَغْرِیضٍ بِالْأَوَّلِ وَمِنْهَا
أَنْ يُجْتَنَّبَ الْكَلَامَ وَاللَّعَانِي فَإِنَّهُ مِمَّا يُشِيعُ وَيَذِيعُ وَلَا يُعَدَّرُ الْقَصْرُ
فِي ذَلِكَ بِحِجَلَةٍ وَلَا ضِيقٍ فَإِنَّ مَجَالَ الْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَسَّعٌ وَالْبَلَاغَةُ
تُظْهَرُ فِي الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ وَالْأَمْرُ الْجَارِي فِي ذَلِكَ عَلَى الْعَادَةِ
مَعْرُوفٌ وَفِي أَيْدِي النَّاسِ مِمَّا كُتِبَتْ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لَكِنْ تَقَعُ
أَشْيَاءٌ خَارِجَةٌ عَنِ الْعَادَةِ فَيُجْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَى التَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى
مَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ



المبحث الثالث

في الارتجال والبديهة وإشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البدائع والعقد الفريد)

قِيلَ إِنَّ الْإِرْتِجَالَ فِي اللُّغَةِ مَاخُودٌ مِنَ الْإِنْصَابِ وَالسُّهولةِ وَمِنْهُ
 قِيلَ : شَعَرَ رَجُلٌ إِذَا كَانَ سَبْطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَضٍ .
 وَقِيلَ مِنْ إِرْتِجَالِ الْبَيْتِ وَهُوَ أَنْ يَنْزِلَ الرَّجُلُ بِرَجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلِ
 فَكَانَهُمْ شَبَّهُوا اقْتِدَارَ الشَّاعِرِ عَلَى الْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا أَهْبَةٍ
 بِاقْتِدَارِ نَازِلِ الْبَيْتِ عَلَى التَّذْوِيلِ مِنْ غَيْرِ حَبْلِ وَلَا آتَةٍ . وَالْبَدِيْهَةُ
 مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَأَ بِيَدِهِ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ أَبْدَلُوا أَهْمَزَةً هَاءَ لِقَرِبِهَا مِنْهَا
 كَمَا قَالُوا : لَهْنُكَ بِمَعْنَى لَأَنَّكَ وَكَمَا أَبْدَلُوا أَحَاءَ أَيْضًا بِأَهَاءَ لِقَرِبِهَا
 مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَّه . وَاسْتِغْنَاءُ الْإِرْتِجَالِ وَالْبَدِيْهَةِ وَإِنْ كَانَا
 مُتَقَارِبَيْنِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ
 الْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ :

الْإِرْتِجَالُ هُوَ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي أَوْحَى مِنْ حَظْفِ
 الْبَارِقِ وَاخْتِطَافِ السَّارِقِ وَاسْرِعَ مِنَ الْتِيحِ الْوَامِقِ وَنُقُودِ
 السَّهْمِ الْفَارِقِ حَتَّى يُجَالَ مَا يُعْمَلُ مُحْفُوظًا أَوْ مَرِيئًا مُلْحُوظًا مِنْ غَيْرِ
 حَاجَةٍ إِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقْيِهِ وَتَتَقَرُّدُ عِنْدَ ذَلِكَ قَضِيَّةُ الْحَالِ
 بِاخْتِرَاعِ أَلْوَزْنِ وَالْقَافِيَةِ وَهُمْ الشُّهُودُ الْعُدُولُ الَّذِينَ يَجِبُ الرُّجُوعُ

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجُوزُ عَنْهُمْ الْغَدُولُ بِالشَّهَادَةِ عَلَى اسْتِطَاعَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ
الْمَنْظُومَ إِنِّ سَاعَتِهِ. وَالْبَدِيَّةُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَلِيلًا
وَيُفَكِّرَ مُقَصِّرًا لَا مُطِيلًا فَإِنْ أَطَالَ ذُو الْبَدِيَّةِ الْفِكْرَةَ
أَنْعَكَسَتِ الْقَضِيَّةُ وَخَرَجَتْ مِنْ حَدِّ الْبَدِيَّةِ إِلَى حَدِّ الرَّوِيَّةِ
وَعِنْدَ ذَلِكَ تَقْصُرُ نَهْضَةُ الْإِقْتِدَارِ عَنْ بُلُوغِ ذَلِكَ الْخِصَارِ إِذَا الْمُرْتَجِلُ
وَالْبَادِئُ يَفْتَعُ مِنْهُمَا بِالرَّدِيِّ الْيَسِيرِ وَلَا يُفْتَعُ مِنَ الْمُرَوِيِّ إِلَّا بِالْحَيْدِ
الْكَثِيرِ وَكَفَاكَ فِي ذِكْرِهِمَا قَوْلُ ابْنِ الْمَعْتَرِ :

وَالْفِكْرُ قَبْلَ الْقَوْلِ يُؤْمَنُ زَيْغُهُ شَتَانُ بَيْنِ رَوِيَّةٍ وَبَدِيَّةٍ
وَقَوْلُ ابْنِ جَرِيحٍ :

نَارُ الرَّوِيَّةِ نَارٌ تُتْلَقَى نَضِيجَةً وَلِلْبَدِيَّةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحٍ
وَقَدْ يُفَصِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا لَكِنَّهَا عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ
وَحَسْبُكَ يَهْرَبُ إِمَامُ الشُّعْرَاءِ وَقَاتِكُمْ مِنْ أَلْبَدِيَّةِ فَاذْنُكُ
بِالْأَرْتَجَالِ وَإِذَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِيَّ رَئِيسُ الْخَوَارِجِ
فِي يَوْمِ النَّهْرِ وَأَنْ يَقُولُ وَهُوَ الْبَدَوِيُّ الْقَصِيحُ وَالْعَرَبِيُّ الصَّرِيحُ
إِيَّاكُمْ وَالرَّأْيَ الْفَطِيرَ وَالْكَلَامَ الْقَضِيبَ يَقُولُ هَذَا فِي مُطْلَقِ
الْكَلَامِ وَهُوَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوزْنٍ وَلَا قَافِيَةٍ فَكَيْفَ الظَّنُّ بِالْمُقَيَّدِ
بِهِمَا لَعَنَرِي أَنَّهُ لَمَقَامٌ يَحْبُنُ فِيهِ الشُّجَاعُ وَيَكْذِبُ فِيهِ رَائِدُ الْفِكْرِ
فِي طَلَبِ الْإِتِّجَاعِ.

قَالَ مُحَمَّدٌ كَاتِبُ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ شَاعِرًا رَافِيًا وَطَالِبًا لِلنَّحْوِ عَلَامَةً
قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ وَجَرَى شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ الْخُطْبِ وَتَمْيِيزِ الْكَلَامِ.

قَالَ: تَخِيصُ الْمَعَانِي رَفَقٌ وَاسْتِعَانَةٌ بِالْغَرِيبِ عَجْزٌ وَالتَّشَادُقُ فِي غَيْرِ
 أَهْلِ الْبَادِيَةِ نَقْصٌ وَالظَّرُّ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عِيٌّ وَمَسُّ الْحَيَّةِ هُلْكٌ
 وَخُرُوجُ مِمَّا بَيْنِي عَلَيْهِ الْكَلَامُ اسْهَابٌ (فَقَالَ) وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ رَأْسُ
 الْخُطَابَةِ الطَّبَعُ وَمَحْمُودُهَا الدَّرَبَةُ وَحَلِيهَا الْأَعْرَابُ وَبَهَاؤُهَا تَحْيِيرُ اللَّفْظِ
 وَالْحَبَّةُ مَقْرُونَةٌ بِقَلَّةِ الْإِسْتِكْرَاءِ وَأَنْشَدَنِي بَيْتًا فِي خُطْبَةٍ إِيَادُ
 يُؤْمُونَ بِاللَّفْظِ الْخَفِيِّ وَتَارَةً رَمَى الْمَلَا حِظْ خِيفَةَ الرُّقْبَاءِ
 (وَقَالَ) ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ قُلْتُ لِلْفَضْلِ مَا الْأَيْجَازُ عِنْدَكَ قَالَ
 حَذْفُ الْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ الْبَعِيدِ (وَتَكَلَّمَ) ابْنُ السَّمَّاكِ يَوْمًا وَجَارِيَةٌ
 لَهُ تَسْمَعُ فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ لَهَا كَيْفَ سَمِعْتَ كَلَامِي قَالَتْ إِلَى أَنْ
 تَفْهَمَهُ مَنْ لَمْ يَفْهَمَهُ مَلَهُ مَنْ فَوْهَهُ

البحث الرابع

في خطب الوعاظة

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد

وزهر الاداب للصري بنصراف)

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْمُنتَحَبِ: لَمَّا كَانَتْ الْمَوَاعِظُ مَسْدُوبًا
 إِلَيْهَا يَقُولُ: فَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوْلُهُ لِعَمَالِهِ
 تَعَاهِدُوا النَّاسَ بِالتَّذْكِرَةِ. وَلِأَنَّ أَدْوَاءَ الْقُلُوبِ تَفْتَقِرُ إِلَى
 أَدْوِيَةٍ كَمَا تَحْتَاجُ أَمْرَاضُ الْبَدَنِ إِلَى مُعَالَجَةٍ أَلْفَتْ فِي هَذَا

أَلْفَنَ كُتُبًا تَشْتَمِلُ عَلَى أَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَكَانَ السَّلَفُ يَقْتَنِعُونَ مِنْ
 أَلْمَوَاعِظِ بِالْيَسِيرِ مِنْ غَيْرِ تَحْسِينِ لَفْظٍ أَوْ زُخْرَفَةِ نُطْقٍ وَمَنْ تَأَمَّلَ
 مَوَاعِظَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ مِمَّا اشْرَتْ إِلَيْهِ. وَكَذَلِكَ كَانَتْ أَلْفَقَهَاءُ
 فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ يَتَنَاطَرُونَ مِنْ غَيْرِ مُعَارَضَةٍ فِي تَسْمِيَةِ قِيَاسِ عِلْمٍ
 أَوْ قِيَاسِ شَيْءٍ وَتَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَا أَخَذْتَ مِنَ أَلْفَاظٍ وَأَلْسَانِي
 لَا يَخْرُجُ عَنْ مَرَحَاةِ أَلْوَاوِيلِ وَلِذَلِكَ مَا أَخَذْتُ مِنَ أَلْعُلَمَاءِ الْمَذْكُورِينَ
 مِنْ تَحْسِينِ لَفْظٍ أَوْ تَسْجِيعِ وَغَطِّ وَلَا يَخْرُجُ مِنْ قَانُونِ أَلْجَوَادِ وَمَا
 ذَاكَ إِلَّا بِمِثَابَةِ جَمْعِ أَلْقُرْآنِ أَلَّذِي أُنْتَبَأَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَشَيْءٌ بِهِ عُثْمَانُ
 فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَأَذِنَ لِتَسْمِيَةِ أَلْدَّارِي أَنْ يَقْصَّ وَمِثْلُ هَذِهِ لَا
 تُذَمُّ لِكُونِهَا أُنْتَبِذَتْ إِذْ لَيْسَتْ تَخَارِجُ عَنْ أَلْأَسْلِ الْمَشْرُوعِ وَقَالَ
 أَلْحُسَنُ أَلْقِصَصُ بِدَعَاكَ كَمْ مِنْ أَخٍ يُسْتَفَادُ وَدَعْوَةٍ تُسْتَجَابُ
 قَالَ بَعْضُ أَلْقُدَمَاءِ إِنَّ أَلْوَعْظَ حَبْلُ اللَّهِ أَلْمَمْدُودُ وَعَهْدُهُ أَلْعَهْدُ
 وَظِلُّهُ أَلْعِمِيمُ وَبِرَاطُهُ أَلْمُسْتَقِيمُ وَحُجَّتُهُ أَلْكُبْرَى وَمَحَجَّتُهُ أَلْوُسْطَى وَهُوَ
 أَلْوَاضِحُ سَبِيلُهُ أَلرَّاشِدُ دَلِيلُهُ أَلَّذِي مَنْ أَسْتَضَاءَ بِصَاحِبِيهِ أَبْصَرَ وَجَا
 وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ضَلَّ وَهُوَ حُجَّةُ اللَّهِ وَعَهْدُهُ وَوَعْدُهُ وَوَعْدُهُ بِهِ يَعْلَمُ
 أَلْجَاهِلُ وَيَعْمَلُ أَلْعَالِمُ أَلْعَامِلُ وَيَتَّبِعُهُ أَلْسَاهِي وَيَتَذَكَّرُ أَللَّاهِي بِشِيرِ
 أَلثَّوَابِ وَتَذِيرِ أَلْعِقَابِ وَشِفَاءِ أَلصَّدُورِ وَجَلَاءِ أَلْأُمُورِ مِنْ فَضَائِلِهِ
 أَنَّهُ يُقْرَأُ دَائِمًا وَيُكْتَبُ وَيَعْلَى وَلَا يَمِلُ مَا أَهْوَنَ أَلدُّنْيَا عَلَى مَنْ
 جَعَلَ أَلدِّينَ إِمَامَهُ وَتَصَوَّرَ أَلْمَوْتَ إِمَامَهُ قَالَ بَعْضُ أَلْحُكَمَاءِ
 أَلْحِكْمَةُ مَوْقِفَةُ أَلْقُلُوبِ مِنْ سِنَةِ أَلْعَفْلَةِ وَمُنْقَذَةُ أَلْبَصَائِرِ مِنْ سَكْرَةِ

الْحَيَرَةُ وَنُحْيِيَهُ لَهَا مِنْ مَوْتِ الْجَهَالَةِ وَمُسْتَخْرِجَةٌ لَهَا مِنْ ضَيْقِ الصَّلَاةِ
 وَالْعِلْمِ دَوَاءٌ لِلْقُلُوبِ الْعَلِيلَةِ وَمُسْحَدٌ لِلْأَذْهَانِ الْكَلِيلَةِ وَنُورٌ فِي
 الظُّلُمَةِ وَأَنْسٌ فِي الْوَحْشَةِ وَحَاجِبٌ فِي الْوَحْدَةِ وَسَمِيرٌ فِي الْخُلُوةِ
 وَوُضْعَةٌ فِي الْحَجَلِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَتَلْقِيحٌ لِلْفَهْمِ وَنَافٍ لِلْعِيَالِ الْمُزْرِي
 بِأَهْلِ الْأَحْسَابِ الْمُقْصِرِ بِذَوِي الْأَلْبَابِ أَنْطَقَ اللَّهُ سُجَّانَةَ أَهْلِهِ
 بِأَنْبِيَانِ الَّذِي جَعَلَهُ صِفَةً لِكَلَامِهِ فِي تَنْزِيلِهِ وَأَيَّدَهُ رُسُلُهُ إِضَاحًا
 لِلْمُشْكِلَاتِ وَقَضَا بَيْنَ الشُّبُهَاتِ شَرَفَ بِهِ الْوَضِيعَ وَأَعَزَّهُ بِهِ
 الدَّلِيلَ وَسَوَّدَ بِهِ الْمَسْوَدَ مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِهِ فَهُوَ مُعْطَلٌّ وَمَنْ تَعَطَّلَ مِنْهُ
 فَهُوَ مُعْقَلٌ لَا تَبْلِيهِ الْأَيَّامُ وَلَا تَحْتَرِمُهُ الدُّهُورُ يُتَجَدَّدُ عَلَى الْإِتِّدَالِ
 وَيَذْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ لِلَّهِ عَلَى مَنْ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ. قِيلَ
 لِعِمْرُو بْنِ عُبَيْدٍ مَا الْبَلَاغَةُ قَالَ مَا بَلَغَكَ الْجَنَّةُ وَعَدَلَ بِكَ عَنِ النَّارِ
 وَبَصَرَكَ مَوَاقِعَ رُشْدِكَ وَعَوَاقِبَ عَمَلِكَ. قَالَ السَّائِلُ لَيْسَ هَذَا
 أُرِيدُ قَالَ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْكُتَ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْتَمِعَ وَمَنْ لَمْ
 يُحْسِنْ الْإِسْتِمَاعَ لَمْ يُحْسِنْ الْقَوْلَ قَالَ لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ قَالَ : قَالَ
 النَّبِيُّ إِنَّا مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ فِينَا تَلَكَّا أَيْ قَلَّةُ الْكَلَامِ وَكَانُوا
 يَكْرَهُونَ أَنْ يَزِيدَ مَنْطِقُ الرَّجُلِ عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ السَّائِلُ لَيْسَ هَذَا
 أُرِيدُ. قَالَ : كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَوْلِ وَمِنْ سَقَطَاتِ الْكَلَامِ
 مَا لَا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ السُّكُوتِ وَسَقَطَاتِ الصَّمْتِ. قَالَ : لَيْسَ هَذَا
 أُرِيدُ. قَالَ عَمْرُو : يَا هَذَا فَكَأَنكَ تُرِيدُ تَحْيِيرَ اللَّفْظِ فِي حُسْنِ الْإِفْهَامِ.
 قَالَ : نَعَمْ. قَالَ : إِنَّكَ إِنْ أَرَدْتَ تَقْرِيرَ حُجَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُقُولِ

الْمُكَلِّفِينَ وَتَخْفِيفَ الْمَوْتَةِ عَلَى الْمُسْتَمِيعِينَ وَتَزْيِينَ تِلْكَ أَلْمَاعِي فِي قُلُوبِ الْمُرِيدِينَ بِالْأَلْفَافِ الْحَسَّةِ فِي الْأَذَانِ الْبَثْوَةِ عِنْدَ الْأَذْهَانِ رَغْبَةً فِي سِرْعَةِ إِجَابَتِهِمْ وَنَفْيِ الشَّوْاعِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَّةِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ الْحِكْمَةَ وَفُضِّلَ الْخِطَابُ وَاسْتَوْجِبْتَ مِنَ اللَّهِ جَزِيلَ الثَّوَابِ

قَالَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكُمُ الْمَوَاعِظِ مَوَاعِظُ اللَّهِ ثُمَّ مَوَاعِظُ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ الْأَبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ الْحُكَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ الْعِبَادِ بَيْنَ أَيْدِي الْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي الزُّهْدِ وَرِجَالِهِ الْمَعْرُوفِينَ بِهِ ثُمَّ الْمَشْهُودِينَ مِنَ الْمُتَنَسِّينَ إِلَيْهِ وَالْمَوْعِظَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَى السَّمْعِ مُسْتَحْرَجَةٌ عَلَى النَّفْسِ بَعِيدَةٌ مِنَ الْقَبُولِ لِأَعْيَاضِهَا الشَّهْوَةِ وَمُضَادَّتِهَا الْهَوَى الَّذِي هُوَ رَيْعُ الْقَلْبِ وَمُرَادُ الرُّوحِ وَمَرْبِعُ اللَّهِو وَمَسْرَحُ الْأَمَانِيِ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَارْشَدَهُ قَلْبُهُ وَأَحْكَمَتْهُ تَجَرُّبَتُهُ. قَالَ الشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ النَّفْسُ عَنْ غَيِّهَا حَتَّى يَرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ
(وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ) السَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بِنَفْسِهِ وَلَا يَغْنُونُ مَنْ
وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلَكِنْ مَنْ رَأَى الْعِبْرَةَ فِي غَيْرِهِ فَأَتَعَّظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ
وَلِذَلِكَ كَانَ يَقُولُ الْحَسَنُ: اقْرَعُوا هَذِهِ النَّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلَعَتْ وَحَادِثُوهَا
بِالذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الدُّثُورِ وَأَعَصَوْهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ بَرَعَتْ فِي
الشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ انْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَخَتَمَ مَوْعِظَتِهِ يَا هَا مِنْ
مَوْعِظَةٍ لَوْ عِمَادَتْ مِنَ الْقُلُوبِ حَيَاةً. وَكَانَ ابْنُ السَّمَاكِ يَقُولُ

إِذَا قَرَعَ مِنْ كَلَامِهِ: أَلْسُنُ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَأَعْمَالٌ تُخَالِفُ.
وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُيَيْنَةَ: لَوْ أَمَرْنَا بِالْجُرْعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلُ الْمَوْعِظَةِ
عَلَى السَّمْعِ وَجُنُوحَ النَّفْسِ إِلَى مُخَالَفَتِهَا. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: (أَحَبُّ شَيْءٍ
إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا). وَقَوْلُهُمْ: وَالشَّيْءُ يُرَغَّبُ فِيهِ حِينَ يُنْتَمَعُ
وَالْمَوْعِظَةُ مَانِعَةٌ لَكَ مِمَّا تُشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ إِلَّا
أَنْ تَلْقَاهَا بِسَمْعٍ قَدْ فَتَنَتْهُ الْغَيْرَةُ وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ الْفِكْرَةُ
وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيُفْتَحُ لَكَ بَابُ
التَّوْبَةِ وَيُوضَحُ لَكَ سَبِيلُ الْإِنَابَةِ (قَالَ النَّبِيُّ) حُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ
وَحُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ يُرِيدُ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْجَنَّةِ أُخْتِمَ
بِالْمَكْرُوهِ فِي الدُّنْيَا وَالطَّرِيقَ إِلَى النَّارِ رُكِبَ الشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ
الْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ إِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ)
الْكَلِمَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ وَإِذَا خَرَجَتْ
مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ الْأَذَانَ. وَقَالُوا مَا أَحْسَنَ التَّلَاجَ. وَهُوَ عَلَى
رَأْسِ الْمَلِكِ أَحْسَنُ. وَمَا أَحْسَنَ الدَّرَّ. وَهُوَ عَلَى نَحْرِ الْفَتَاةِ أَحْسَنُ وَمَا
أَحْسَنَ الْمَوْعِظَةَ. وَهِيَ مِنَ الْفَاضِلِ التَّقِيِّ أَحْسَنُ. (وَقَالَ زِيَادُ)
أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَنْعَمُ كُمْ سُوءُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا أَنْ تَتَنَفَّعُوا بِأَحْسَنِ مَا
تَسْمَعُونَ مِنَّا. قَالَ الشَّاعِرُ:

اعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصُرَتْ فِي عَمَلِي

يَنْفَعَكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب الفصن الرطب للمعري)

قَالَ لِسَانَ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ فِي الرُّوضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ الْعَزِيمَةِ
 وَهِيَ الَّتِي تَقْطَعُ مَا نَحْنُ قُلْتُ وَالْمُحَرِّكَاتُ الْمُشْتَرِكَاتُ فِي بَاعِثِ الْيَقْظَةِ
 كَثِيرَةٌ مِنْهَا الْوَعْظُ السَّائِقُ بِمَقْصِدِ الشَّارِدِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى مَرَبِطِ
 التَّوْبَةِ وَمُحَرِّكُ الْعَزِيمَةِ يُرَدِّدُ آدَاءَهُ عَلَى نَوَامِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَقَدْ ضُرِبَ
 نَوْمُ الْقَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرَكِّبُهُمْ
 ظَهَرَ الْإِيَّازَةِ حَتَّى تَلْحَقَهُمْ بِالْمُجْتَذِبِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ
 الدُّنْيَا هُوَ الْمَانِعُ عَنِ الشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ الْعَمَلِ وَالْقَاطِعُ بِهِ لَمَّا بَعْدَهُ لَمْ
 يَجِدْ إِسَاءَةَ خَبَلِ أَمْرٍ وَجُنُونَ أَلْكَسَلِ انْتَجِعَ مِنْ وَفَى الْعِذْلِ وَالتَّائِبِ
 وَتَتَبَّعَ الْحُبُوبِ سِيمًا إِذَا أَتْرَعَتْ نِبَالُ نَبْلِهِ عَنْ حَنِيَّاتِ ضُلُوعِ
 الصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْقَلْبِ دَخَلَ الْقَلْبَ
 أَوْقَدَ النَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى وَأَخَذَ السَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي
 وَلَا تَعْدِلِ الْوَعْظُ الْبَلِيغَ بِاللِّسَانِ الْقَصِيحِ وَالْقَلْبِ الْقَرِيحِ فَإِذَا
 رَأَيْتَ الْأَرْضَ قَدْ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَهَضَابَ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ قَدْ
 تَقَلَّبَتْ فَشَمِرَ لِلْفِرَاسِ وَالزَّرَاعِ عَنِ الذَّرَاعِ وَاعْتَمِ السَّرَاعُ وَالْأَسْرَاعُ
 إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُكَ فَأَعْتَمَتْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونًا
 وَكَقَوْلِ الْآخَرِ :

حَقَّرَ لَهَا مَاءَ يُرِيهَا بَدَاءَةً وَأَضْمَنَ لَهَا حَوْضًا وَإِنْ لَمْ تُنْفَخِرْ
 وَأَرْبَابًا بِفَيْسِكَ عَنْ تَسَاحُرٍ بَانِعٍ وَأَغْنَمَ إِذَا سَامَتْكَ مَهْرَةٌ مُشْتَرِي
 قَالُوا أَلَوْعْظُ يَضْرِبُ وَجْهَ النَّفْسِ عَنِ التَّنَبُّطِ فِي يَسَاطِ اللَّذَاتِ
 وَيَنْقُلُ خَطَرَاتِهَا عَنِ الْخَطَرِ فِي مَلْعَبِ الْخَطِيئَاتِ وَيُمَثِّلُ لَهَا الصَّبْرَ عَيَانًا
 وَيُبَيِّنُ أَلْوَابَ الْمُحْجَبَةِ بَيَانًا وَيُنْشِي سَحَابَ الْخُزْنِ فِي أَجْوَابِ أَجْرَائِهَا
 وَيَذْكُرُهَا بِمَا لَهَا وَأَنْتِهَائِهَا وَيُعْرِضُ عَنْ مَصَارِعِ قَنَائِهَا وَخَرَابِ بَنَائِهَا
 وَفِرَاقِ حَبَائِبِهَا وَأَبْنَائِهَا عِنْدَ تَرْوِيلِ هَادِمِ اللَّذَاتِ بِفَنَائِهَا فَتَرْجِعُ إِلَى
 اللَّهِ تَعَالَى بِحُكْمِ الْأَضْطِرَارِ أَفْكَارُهَا وَتَحْشَعُ مِنْ خِيفَةِ اللَّهِ تَعَالَى
 وَجَلَالِهِ أَبْصَارُهَا وَأَلَوْعْظُ يَكُونُ لِبَسَانَيْنِ وَيُوجَدُ فَنَيْنِ لِسَانِ حَالِ
 وَلِسَانِ مَقَالِ وَرَبِّمَا كَانَ لِسَانُ الْحَالِ أَبْلَغَ وَهُوَ يُسْمَعُ مِنْ
 الْقُبُورِ الْمُوجِشَةِ وَالْقُصُورِ الْخَالِيَةِ وَالْعِظَامِ الْبَالِيَةِ وَفِيهِ حِكَايَاتُ
 وَأَخْبَارُ. وَلِسَانُ مَقَالِ كَقَوْلِهِ سُجَّانُهُ وَتَعَالَى وَسَكَنَتْكُمْ فِي مَسَاكِينِ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ
 الْأَمْثَالَ وَهُوَ سَبِيلُ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي بَعَثَ بِهَا النَّبِيِّينَ وَضَمَّنَ قُصُوهَا
 الْكِتَابَ الْمُبِينِ وَالسُّوْطَ الَّذِي يُجْمِلُ عَلَى الْأَوَابَةِ وَيَسُوقُ دَوْدَ
 الْمُتَطَهِّرِينَ إِلَى غَدِيرِ التَّوْبَةِ وَنَحْنُ نَجْعَلُهُ هَيْئَةً بَيْنَ يَدَيْ الْفِرَاسَةِ
 لِتَذْكِيَةِ النَّفُوسِ إِنْ صَدَقَ حُكْمُ الْفِرَاسَةِ مِنْ ذَلِكَ فَنَزَلَ ذَلِكَ مَا صَدَرَ
 عَنِّي عَلَى لِسَانِ وَاعِظٍ



البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم الثمان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مَوْضِعًا لِلسَّهْرِ وَاللَّيْسَانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهُولِ
وَالْعَفْلَةِ لَمَّا يَعْتَوِرُهُ وَيَكْنِفُهُ مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ الْبَتَّى بِاتِّبَاعِهَا
وَالْإِنْقِيَادِ مَعَهَا يَدْخُلُ الْإِخْتِلَالُ عَلَى النِّظَامِ الْكُلِّيِّ وَالْمُضْلَحَةِ
الْعَامَّةِ ثُمَّ يَسْرِي بِعَاقِبَةِ السَّرْعَةِ إِلَى النِّظَامَاتِ الْجُزْئِيَّةِ وَالْمَصَالِحِ
الْخَاصَّةِ فَيَضِجُ الْغَنِيُّ فَقِيرًا وَالْقَادِرُ عَاجِزًا وَالشَّجَاعُ جَبَانًا وَالذَّكِيُّ
غَبِيًّا وَالْفَطْنُ بَلِيدًا وَيَصِيرُ اسْمُ الْبِهَائِمِ أَوَّلَى بِهِمْ مِنْ اسْمِ
الْإِنْسَانِيِّ بَلْ كَانَتْ الْبِهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا
مَوْضِعَ قَوْلِهِ : إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا . تَعَيَّنَ
أَنْ يَضْحَكُ مُذَكِّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُسْتَرْتِيهِدٌ إِلَى قَضَاءِ السَّيْلِ
وَجَادَةِ الْمَحْجَةِ كُلَّمَا جَارَتْ بِهِ الْخَيَالَاتُ الْفَاسِدَةُ وَالْوَسَاوِسُ
الرَّدِيَّةُ . وَلِتَحْصِيلِ ذَلِكَ وَرَدَّ الْأَنْرُ فِي قَوْلِهِ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ
يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ . فَقَدْ أَبَانَ أَنَّ لَا صَلَاحَ لِلْكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ
تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دُعَاءُ النَّاسِ لِلْخَيْرِ وَصَرْفُهُمْ عَنْ نَاحِيَةِ الشَّرِّ وَأَمْرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَتَوَهَّ بِمَقْدَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِذَا وُجِدَتْ
وَنَبَّهَ عَلَى شَرِّهَا وَفَضْلِ مَكَانِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا مُحْتَصَةً بِأَفْلَاحِ

وَأَقْوَدُ بِحَقِيقَةِ السَّعَادَةِ إِذْ قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا
يَعْمُ الدَّلَالُ فَيَصِيرُ فَلَاحُهَا أَصْلًا لِفَلَاحِ سِوَاهَا فَاسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ
فِيهَا بِعِبَادَةِ التَّخْصِصِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَإِنَّمَا يُمَكِّنُ تَأْدِيَةَ تِلْكَ
الْوُضُوفَةِ وَالْقِيَامُ بِهَا حَقَّ اتِّمَامٍ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نُفُوسُهُمْ وَتَنَقَّتْ
طِبَاعُهُمْ وَتَهَدَّبَتْ أَحْلَافُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ عُقُولُهُمْ وَصَحَّتْ أَنْفُسُهُمْ
وَرَجَحَتْ أَحْلَافَهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هَمَمُهُمْ وَعَرَفُوا أَجْنَاسَ
الْخَيْرِ وَاحَاطُوا بِأَنْوَاعِهِ وَمَيَّزُوهَا مِنْ أَصَافِ الشَّرِّ فَرُبَّمَا أَشَبَّهَ الْخَالُ
وَيُمَثِّلُ كُلُّ فِي صُورَةٍ الْآخَرِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمَيُّزُ الْخَيْرِ مِنْ
الشَّرِّ أَمْرًا عَسِيرًا إِذْ كَانَ الْأَسَاسُ الضَّرَرُ وَالنَّفْعُ وَلَا تَجِدُ أَحَدًا
يَجْهَلُهُمَا وَلَكِنْ رُبَّ ضَارٍّ فِي الْحَالِ نَافِعٌ فِي الْمَالِ فَيَكُونُ خَيْرًا
وَرُبَّ نَافِعٍ فِي الْحَالِ ضَارٌّ فِي الْمَالِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا اجْتَمَعَتِ
الْمُضَرَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ وَاسْتَوَتَا أَوْ غَلَبَتْ إِحْدَاهُمَا وَمِنْ هُنَا تَبَتَّ
الْإِحْتِيَاجُ لَوْجُودِ أَمَةٍ تُفَرِّغُ أَنْفُسَهَا لِلْإِسْتِغَالِ بِذَلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ
أَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظُ النَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ لِتَدْعُوهُمْ إِلَى الْخَيْرِ
وَتَأْمُرَهُمْ بِمَا عَرَفَتْهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا أَنْكَرَتْهُ وَعَرَفَتْهُ شَرًّا
تُنَفِّسُهُمْ بِالْإِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَكَثُرَ الْمَنَافِعُ
وَالْمُضَارُّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يَخْتَلِفُ بِالنَّاسِ عَلَيْهِ حَتَّى قِيلَ إِنَّ الدِّينَ
أَمْرٌ تَقْفِضِيهِ الطَّبَاعُ وَتَدْفَعُ إِلَيْهِ الْفِطْرَةُ وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ لَعَلَبَةٌ
هَوَاهُ قَدْ يُبَيِّجُ لِنَفْسِهِ مَا يَحْكُمُ عَقْلُهُ بِمَنْعِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ
اسْتِقْبَاحَهُ أَلَا تَرَى إِلَى السَّارِقِ وَالْعَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَحْجِزُ أَنْ يَفْعَلَ

بغيرِهِ مَا لَا يَسْتَحِيزُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِ غَيْرُهُ . فَتَى سُرِقَ مَالُهُ أَوْ اغْتَصَبَ مِنْهُ وَجَدَ بِذَلِكَ فِي قَلْبِهِ حَرَارَةً وَفِي نَفْسِهِ ضِيقًا وَتَشْوِشَ فِكْرُهُ وَاخْتَلَّتْ حَالُهُ وَبَطَلَ نِظَامُ سَيَرِهِ . وَهُوَ لَا يُرِيدُ ذَلِكَ . بَلْ يُرِيدُ أَنْ يَدُومَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ طَيِّبِ النَّفْسِ مُسْتَقِيمِ الْأَحْوَالِ . فَهُوَ يَحْكُمُ بِفَتْحِ ذَلِكَ وَحُسْنِ هَذَا . وَإِنْ كَانَ لَا يَعْبُرُ عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِهِ عَنْ مَعْرِقَةِ الْأَلْفَاظِ بِالْحِلِّ وَالْحَرَمَةِ . وَإِلَى ذَلِكَ أَلْمَعَى الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ الْحَلَالُ بَيْنٌ وَالْحَرَامُ بَيْنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ . وَعَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَعْرِفَ الْمُجَبَّدَاتِ الزَّمَانِيَّةَ لِتَكُونَ أَعْمَالُهَا مُطَابِقَةً لِلْأَحْوَالِ الْحَاضِرَةِ . قُرْبَ أَمْرٍ يَكُونُ خَيْرًا فِي عَصْرِ فَيْضِي شَرًّا فِي غَيْرِهِ . وَهَلْ هَذِهِ الْأُمَّةُ كَائِنَةٌ أَوْ كَانَتْ . لَا أَثَبْتُ ذَلِكَ وَلَا أَنْفِيهِ حَتَّى أَقَاوِضَكَ أَحَدِيثَ فِيهِ . إِنْ قُلْتَ هَذِهِ الْأُمَّةُ مُحَقَّقَةٌ فِي خُطَبَاءِ الْمَنَابِرِ . قُلْتُ لَكَ : أَتُرِيدُ بِهِمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَاهُمْ وَتَسْمَعُهُمْ وَهُمْ إِنَّمَا تَمَيَّزُوا عَنْ آخِرِ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ الْعَالَمَةِ لِتَسْكُنَهُمْ مِنْ قِرَاءَةِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَطِّ . فَقَايَةُ أَمْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ دِيوانَ خُطْبٍ صَنَفَةٍ بَعْضُ أَسْلَافِهِ كَمَا تَحِيلُ مُنَاسِبًا لِلشُّهُورِ وَالْمَوَاسِمِ . لِيَحْفَظَ مَا تُعْطِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ مِنْ مَوَادِّ الْأَلْفَاظِ . أَوْ يَنْسَخَ صُورَةَ خُطْبَةٍ لِيَحْفَظَ حَمَلَهَا عَلَيْهِ إِذَا قَامَ بِهَا خَطِيبًا . يَسْرُدُ الْفَاقِطًا حِفْظَهَا أَوْ تَظَرُّرُوفَهَا لَا يَعْقِلُ مَعْنَاهَا وَلَا يَفْهَمُ الْمُرَادَ مِنْهَا . كَمَا إِذَا لَمْ يَكُنِ الدِّيوانُ مَشْكُولًا وَلَمْ يَقْرَأِ الْخُطْبَةَ عَلَى ذِي دِرَايَةِ سَيَغْتَمِنُ مِنَ الْمُنْجَبِ وَالْمُطْرَبِ مِنَ اللَّحْنِ الْفَاجِشِ وَالْتَضْخِيمِ الْقَبِيحِ . فَإِنَّ مِنْهُمْ

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ اتِّعَادَ السَّامِعِينَ فَيَقْرَأُ الْخُطْبَةَ مِرَارًا
 عَلَى بَعْضِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ النُّطْقِ بِهَا. وَمِنْهُمْ
 مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَضْجِيعِ الْحَدِيثِ أَحَدًا أَمَا إِكْلَامَ النَّبِيِّ. وَرَبَّمَا قَرَأَهُ
 عَلَى رَجُلٍ يُقِيمُهُ لَهُ بِصِنَاعَةِ الْخَوِّ فَيُضِلُّانِ جَمِيعًا. إِذْ لَا عَمَلَ لِصِنَاعَةِ الْخَوِّ
 إِلَّا بَعْدَ فَهْمِ الْمَعْنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُبَالِي بِتَضْجِيعِ آيَةٍ وَلَا حَدِيثٍ.
 مَا أَطْنُ أَنْكَ تَسْتَحِيزُ أَنْ تَقُولَ أَرَدْتُ هَؤُلَاءِ. فَإِنْ قُلْتَ إِنَّمَا
 أَرَدْتُ خُطْبَاءَ الْأَسْلَافِ قُلْتُ لَكَ: تَجَاوَزَ عَصْرَ النَّبِيِّ وَعَصْرَ أَصْحَابِهِ
 ثُمَّ أَقْرَأْ خُطْبَ الْأَخْلَافِ وَنَوَائِبِهِمْ فِي النَّوَاحِي ثُمَّ أَمُضْ فِي ذَلِكَ
 طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ وَعَصْرًا خَلْفَ عَصْرٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى وَقْتِكَ هَذَا
 تَجِدُ أَنَّ جَمِيعَ الْخُطْبِ يَدُورُ أَمْرَهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَالْفَاطِئَةُ مُعِينَةٌ
 لَا تَجَاوِزُهَا. وَهِيَ التَّرْهِيدُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّرْغِيبُ فِي الْآخِرَةِ وَتَبْشِيرُ
 الْمَطِيعِ وَإِنْدَارُ الْعَاصِي. يُكَرِّرُونَ ذَلِكَ كُلَّ جُمُعَةٍ وَكُلَّ مَوْسِمٍ حَتَّى لَمْ
 يَبْقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَالْحَقُّ بِالْأُمُورِ الْمَعْتَادَةِ. إِنَّمَا يَسْمَعُ النَّاسُ أَصْوَاتًا
 ذَاتَ كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ إِقَامَةً لِدَلَالَةِ الرَّسْمِ حَسَبًا يَصِلُ إِلَيْهِ فَهُمْ
 الْعُلَمَاءُ مِنْ أَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ هِيَ إِقَامَةُ الدِّينِ. وَفِي صِفَةِ خُطْبَاءِ
 الْعَصْرِ الثَّلَاثِي بَعْدَ عَصْرِ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ :

وَدَّعُوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا أَفَؤَيْقَ حَتَّى مَا يَدُرُّ لَنَا ثَمْلُ
 وَالثَّمْلُ بِقُحِّ أَوَّلِهِ أَوْضِيهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةُ فِي أَطْبَاءِ
 النَّفَاقَةِ وَغَيْرِهَا تُشَبِّهُ حَلْمَةَ الثَّوْدِيِّ لَا يُخْجُ مِنْهَا فِي الْعَادَةِ لَبَنٌ. وَلَا
 تَقْنُنُ آتِي أَنْتَقِصُ بِذَلِكَ خُطْبَاءَ الْعُصُورِ الْأُولَى فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَدُونَ

كِفَايَةِ ذَلِكَ لِكثَرَةِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَلِكَ. وَبِالْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا
 كَانَ الْحَالُ فِي الْخُطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحْقِيقِ الدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ
 وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَا تَكُونُ الْأَمَّةُ مُتَحَقِّقَةً
 بِخُطْبَاءِ الْمَلَايِمِ. وَإِنْ قُلْتُ: إِنَّهَا الْعُلَمَاءُ قُلْتُ: هَذَا قَرِيبٌ وَلَكِنْ
 نَنْظُرُ. أَمَّا عُلَمَاءُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ جَزَاهُمْ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ وَالْأَمَّةِ خَيْرًا
 فَكَانَ اسْتِعَاظُهُمْ بِمَجْمَعِ الْأَصُولِ وَتَقْيِيئِهَا مِنَ الدَّخِيلِ الَّذِي بَادَرَ
 بِإِذْخَالِهِ أَهْلَ الْإِتِّفَاقِ وَالزُّنْدَقَةَ لِأَغْرَاضِ شَيْءٍ. مِنْهَا التَّشْكِيكُ فِي
 الدِّينِ. وَمِنْهَا التَّيَمُّسُ بِمَا عِنْدَ الْمُلُوكِ وَمِنْهَا آيِنَاءُ مَذَلَّةٍ فِي قُلُوبِ
 الْعَامَّةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مَنْ قَرَأَ التَّوَارِيخَ وَتَأَمَّلَهَا.
 وَاجْتِهَادُهُمْ وَبَذْلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ الْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِ
 الْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفَرِّضُ وَيُقَدِّرُ حَتَّى إِذَا وَقَعَتْ
 الْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَأَمْرًا كَافِيًا فِي إِنْقَاضِ أَعْمَالِهَا
 مَا نَعَاهُ عَنْ رَاحَةِ أَبْدَانِهِمْ فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يَبَالُ
 الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجَنِينِ. وَأَمَّا مَنْ خَلَقَهُمْ فَكَانَ إِقْبَالُهُمْ عَلَى دَوَائِنِ
 مَشِيئَتِهِمْ يُهَيِّزُ بَيْنَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيبَهَا وَيَوْضَحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوَضُّحِ
 مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَحْرِيجًا عَلَى أَصُولِهِمُ الَّتِي قَرَرُوهَا
 إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ نَاطِلًا لَهُمْ فِي سَبِيلِ سَلَفِهِمْ. فَكَانَ
 حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتُ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي تَعَهُّدِ النَّاسِ
 وَدُعَائِهِمْ إِلَى الْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ الْأَمَّةِ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ
 هَؤُلَاءِ خَلْفٌ اتَّخَذُوا الْجِدَالَ شِرْعَةً وَالْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا. وَخَرَجَ بِهِمْ ذَلِكَ

إِلَى سَبَابٍ وَمُشَاتَمَةٍ وَاخْتِقَارِ قَوْمٍ قَوْمًا وَرَجَعَ بِهِمْ إِلَى الْقَنْحِ فِي
السَّلفِ وَصَارَ الْاِخْتِلَافُ بَيْنَ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ مُنْشَأً اِعْدَاوَةً إِنْ لَمْ
تَكُنْ فَوْقَ اَلْعِدَاوَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْأَذْيَانِ فَلَيْسَتْ دُونَهَا. فَكَثِيرًا مَا
كَانَتْ سَبَبًا لِيَجْرِي السُّيُوفُ يُقَاتِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى دَخَلَ بَيْنَهُمْ
الْحُكَّامُ لِإِصْلَاحِهِمْ وَكَانُوا هُمْ الْأَوَّلَى بِذَلِكَ. وَهُوَ حَقُّهُمُ الَّذِي
مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُكِنُّوا مِنْهُ غَيْرَهُمْ وَصَارُوا أَخْرَابًا يَتَحَارَّ كُلُّ
حِزْبٍ إِلَى مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ النُّوَاجِي وَصَارَتِ الْمَدَائِنُ بِمِثْلَةِ اَلْمَعَالِقِ
وَالْخُصُونِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُهَا تَحْتَ نَظْرِ السِّيَاسَةِ وَقَهَرَهَا وَبَدَلَتْ سِيُوفُ
الْمَنَابِرِ يَقْطَعُ خَشَبٌ فِي صُورَتِهَا يَتَكَيُّ عَلَيْهَا الْخُطْبَاءُ حَالَ صُعُودِهِمْ
وَهُبُوطِهِمْ. وَآلَ أَمْرِ الْعُلَمَاءِ إِلَى كَوْنِهِمْ طَائِفَةً مِنْ الطَّوَائِفِ الْمُرُوبَةِ
الْمُسَوِّسَةِ تَلْخُظُ حَرَكَاتِهِمْ اِرْصَادُ الْحُكُومَةِ وَتَأْخُذُهُمْ عِيُونُهَا مَنَعًا لِيَتَعَدَّى
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَحَسْمًا لِمَادَّةِ الشَّرِّ بَيْنَهُمْ. وَلَعِبَتْ بِهِمْ أَهْوَاءُ اَلْمُلُوكِ
الْخَائِرَةِ الْجَهْلَةِ مِنَ التَّزْرِ وَالذَّلِيمِ وَغَيْرِهِمْ. وَنَشَأَ مِنْ ذَلِكَ مَفَاسِدُ
عَظِيمَةٌ مِنْهَا تَمَكُّنُ كَثِيرٍ مِنَ الْجَهْلَةِ الَّذِينَ اِمْتَضَوْا صُدُورَ اَعْمَارِهِمْ
فِي اَللَّهْوِ وَاللَّعِبِ دُونَ فِكْرَةٍ فِي تَحْصِيلِ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ اَلْمُعِيشَةِ
حَتَّى دَهَمَهُمْ وَقْتُ اَلْاِخْتِيَاجِ لِذَلِكَ مِنَ اَلْاِتِّسَابِ إِلَى اَلْعِلْمِ وَأَهْلِهِ
فَصَفُّوا كُتُبًا مَلَأُوهَا أَحَادِيثَ كَاذِبَةً وَحِكَايَاتٍ غَيْرَ مَعْقُولَةٍ
وَرَوَّجُوهَا عَلَى الْعَامَّةِ وَآكَلُوا بِهَا الْخُبْزَ وَخَاطَبُوا مَا لَيْسَ مِنَ الدِّينِ بِهِ.
فَأَيُّ مَفْسَدَةٍ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَيْسَ لَهُ سَبَبٌ إِلَّا أَفْرَاقُ اَلْعُلَمَاءِ
وَأَهْمَالُهُمْ أَمْرُ الرِّعَايَةِ. وَلَمْ يَزَلِ اَلْاِخْتِلَافُ الَّذِي هُوَ مُنْشَأُ تِلْكَ

أَعْدَاوَةٍ مُسْتَعِيرًا يُخْفِيهِ الضَّعْفُ وَتُظْهِرُهُ الْقُوَّةُ كَمَا تَرَى . فَهَلْ يَسُوعُ
لَكَ بَعْدَ مَعْرِفَةٍ هَذَا أَنْ تَقُولَ إِنَّهَا الْعُلَمَاءُ . وَإِنْ قُلْتَ إِنَّهَا أَلْوَاعِظُ
قُلْتَ هَذَا أَقْرَبُ فَإِنَّ أَلْوَاعِظَةً كَانَتْ حِرْقَةً شَائِعَةً وَصِنَاعَةً فَاشِيَةً
كَانَ أَهْلُهَا يَتَنَافُسُونَهَا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ أَخَذَ عَلَيْهَا الرُّوَاتِبَ مِنْ يَبُوتِ
الْأَمْوَالِ وَأَكْثَرُهُمْ كَانَ يَأْمُ بِهَا الْقَطْعَ مِنَ الْعَامَّةِ الَّذِينَ يَخْضُرُونَ
بِحَالَتِهِمْ . فَكَانَ أَلْوَاعِظُ إِذَا فَرَعَ مِنْ كَلَامِهِ الَّذِي أَعَدَّهُ لِذَلِكَ
الْجَلِيسِ بَسَطَ مِندِيلَهُ وَطَرَحَ فِيهِ كُلُّ مَا سَحَتَ بِهِ نَفْسَهُ

وَصُنِفَتْ لِأَجْلِ أَلْوَاعِظَةِ كُتُبٌ لَقَّبُوهَا بِالْجَالِسِ تَشْتَمِلُ عَلَى
تَفْسِيرِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ التَّرْغِيبِ وَالتَّهْذِيبِ وَبَعْضِ أَحَادِيثِ صَحِيحَةٍ
وَبَعْضِ أَشْعَارٍ وَحِكَايَاتٍ مِنْ ذَلِكَ الْوَادِي . وَنَمُودَجُ ذَلِكَ مَا تَرَاهُ فِي
الْمُسْجِدِ الْخُسَيْنِيِّ بَعْدَ الْعَصْرِ فِي رَمَضَانَ . وَبِالْجُمْلَةِ فَحُصُولُ تِلْكَ
الْكُتُبِ هُوَ مُحْصُولُ خُطْبِ الْمَلَايِمِ . وَإِنْ كَانَ بَعْضُ أَهْلِ تِلْكَ
الْصَّنَاعَةِ وَهُمْ قَلِيلٌ كَانُوا مِنَ الْفِطْنَةِ وَالذِّكَاءِ وَبَرَاءَةِ الْمَنْطِقِ
وَبَلَاغَةِ الْعِبَارَةِ يَمُكِّنُ رَفِيعٍ . فَإِنَّ أَكْثَرَهُمُ الْقُصَّاصُ الْجَهْلَةُ الَّذِينَ
غَايَةُ أَمْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يُلْفِقَ أَحَادِيثَ يَضَعُهَا أَوْ وَضَعَهَا غَيْرُهُ
يُفْرَحُ بِهَا نَفُوسَ الْعَامَّةِ بِمَا يَذْكُرُ مِنْ كَثْرَةِ الثَّوَابِ مَعَ قَلَّةِ الْعَمَلِ
وَمَا يُهَوِّنُ مِنْ أَمْرِ الْمُعْصِيَةِ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ بِمِثْلَةِ التَّخْرِيطِ عَلَى
أَرْتِكَابِ الشَّهَوَاتِ وَالْأَسْتِرْسَالِ مَعَ الْأَهْوَاءِ وَطَرَحِ الْمُبَالَاهِ
اعْتِمَادًا عَلَى مَا رَكَّزُوهُ فِي نَفُوسِهِمْ وَشَغَلُوا بِهِ عُقُولَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ
أَسْبَابِ الْخُفْرَةِ وَسَعَةِ الرَّحْمَةِ وَعِظَمِ الْعَفْوِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . لَا

يَسْكَنُونَ فِي سِوَاهُ حَتَّى صَارَ سَبِيًّا قَوِيًّا فِي خُودِ الطَّبَاعِ. وَاسْتَحْكَامِ
 الْغَفْلَةِ وَالْإِنْصِرَافِ عَنْ تَذَكُّرِ مَعْنَى الْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ وَتَعَقُّلِ
 ضَرُورَةِ التَّعَاوُنِ وَالتَّفَكُّرِ فِي إِحْكَامِ أَسْبَابِ التَّعَارُفِ وَالتَّوَاصُلِ
 وَمُحَادَرَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا يُوجِبُ عِزَّ الْأُمَّةِ وَسَعَادَتَهَا وَسُرُورَ
 أَحَادِهَا وَابْتِهَاجَهُمْ بِالتَّصَافِ وَافْتِخَالِ الْأَقْوِيَاءِ عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ
 عِمَارِ قِوَاهُمْ فَلَا يَتَلَقَّوْنَ إِلَّا وَصُدُّوهُمْ مُنْشَرَحَةً وَقُلُوبُهُمْ قَرِيحَةً
 وَتُغَوَّرُهُمْ بِأَسِمَةٍ وَوُجُوهُهُمْ مُنْبَسِطَةٌ. قَدْ أَمِنَ بَعْضُهُمْ غَوَائِلَ
 بَعْضٍ وَتَحَقَّقُوا السَّلَامَةَ مِنْ مَقَاصِدِ السُّوءِ وَالتَّمَاكُرِ بِاسْتِلَابِ
 الْأَمْوَالِ وَقَهَرِ النَّفُوسِ وَتَسْخِيرِ الْأَقْوِيَاءِ الضُّعَفَاءِ فِيمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ
 مِنَ اللَّذَاتِ وَيَحْفَظُونَ عَلَيْهِ بِجُدْرَانِ الصُّخُورِ وَأَبْوَابِ الْحَدِيدِ حَتَّى كَانَ
 ذَلِكَ مُوَلِّدًا فِي النَّاسِ كَثِيرًا مِنْ خَسِيسِ الطَّبَاعِ آتِي تَقِيلُ بِأَحْكَامِهَا
 نَحْوَ الْأَكْتِسَابِ بِجَهَةِ السَّرِقَةِ وَالسُّوَالِ بِالضَّرَاعَةِ وَالدَّرَامِيِّ عَلَى
 آعْتَابِ الْمَكْثَرِينَ. وَأَنْتَ لِذَلِكَ عَارِفٌ وَإِلَيْهِ نَاطِرٌ لَا تَجْهَلُ تِلْكَ
 الطَّوَائِفَ الْكَاسِبَةَ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ الرَّدِيسَةِ. وَأَسْوَأُهَا حَالًا وَأَخْسَهَا
 عَمَلًا وَبَعْضُهَا مَرَدَّدًا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَطْفَأُوا أَنْوَارَ عَقُولِهِمُ الْخَلْقِيَّةِ وَاحْتَدُوا
 لَهَبَ قِوَاهُمْ الطَّبِيعِيَّةِ وَعَطَّلُوا جَوَارِحَ أَبْدَانِهِمْ بِمَا يَمْلَأُونَ بِهِ رُؤُوسَهُمْ مِنْ
 أَشْرِيَةِ خُرَاقَاتٍ تَخْرُجُ بِهِمْ مِنْ نَوْعِ الْخِيَوَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ أَقُولَ مِنْ
 نَوْعِ الْإِنْسَانِ يُوَلُّ أَمْرَهُمْ إِلَى الْإِخْتِيَاكِ وَطَلَبِ التَّمْعَاشِ بِأَبْدَانِهِمْ
 وَأَبْدَانِهِمْ اتَّقَصَّتْ عَنْهُمْ وَشَغَلُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ الْقَرَارِ أَيَّ أَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانِ
 نَسْلِهِمْ إِلَى أَنْ يَطْرَحُوا نَفُوسَهُمْ بَيْنَ أَيْدِي أَهْلِ الْمَكَاسِبِ بِطُرُقِ

الْأَعْمَالِ الْمُتَعَبَةِ وَالْحَوَالِ الشَّقَاةِ . يُذَكِّرُونَهُمْ ثَوَابَ الصَّدَقَاتِ وَيُلْحِقُونَ فِي السُّؤَالِ حَتَّى تَمَلَّ ذَلِكَ نَفْسُهُمْ وَيَضْعُفَ يَقِينُهُمْ وَتَقْسُو قُلُوبُهُمْ وَيَلْتَمِسُوا وُجُوهًا لِلطَّعْنِ عَلَى تِلْكَ الطَّائِفَةِ لَا يَفْرُقُونَ بَيْنَ أَهْلِ الْأَزَاهَةِ مِنْهُمْ وَغَيْرِهِمْ . فَيَكُونُ الْقَدْحُ عَامًّا وَالْإِحْتِقَارُ شَامِلًا . وَجِهَةٌ أَلَا عِتَابٌ فِيهِ أَنَّ مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِرُؤُوفَةِ الْهَدَى وَدُعَاءِ النَّاسِ إِلَى الْحَيْرِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَبَدُهُمْ مِنَ التَّصَنُّعِ وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى الْكَمَالِ . فَإِنَّ أَدْنَى هَفْوَةٍ مِنْهُ تُسْقِطُ اعْتِبَارَهُ وَتُسَهِّلُ التَّهَانُونَ بِهِ فَلَا يَكُونُ لِكَلَامِهِ تَأْثِيرٌ فِي الْقُوبِ وَيَصِيرُ مَجْلِسُهُ مَسَلَةً يُتَلَهَّى بِمُحْضَرِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلْكَ الْمَجَالِسُ مَوَاعِدَ لِأَهْلِ الْخَلَاعَاتِ وَالْجُحُونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الملاحظ والشرطي والقيرواني)

إِنَّا لَا نَعْرِفُ الْخُطْبَ إِلَّا لِلْعَرَبِ وَالْفَرَسِ . فَمَا أَلْهَدُ فَلَنَّمَا لَهُمْ مَعَانٍ مُدَوَّنَةٌ وَكُتُبٌ مُخَدَّدَةٌ لَا تُضَافُ إِلَى رَجُلٍ مَعْرُوفٍ وَلَا إِلَى عَالِمٍ مَوْصُوفٍ . وَإِنَّمَا هِيَ كُتُبٌ مُتَوَارَثَةٌ وَأَدَابٌ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ سَائِرَةٌ مَذْكُورَةٌ . وَلِلْيُونَانِيِّينَ فَلَاسِقَةٌ وَصِنَاعَةٌ مَنْطِقٍ وَكَانَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ نَفْسُهُ عِيَّ اللِّسَانِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِالْبَيَانِ مَعَ عَلَيْهِ بِتَمْيِيزِ الْكَلَامِ وَتَفْصِيلِهِ وَمَعَارِنِهِ وَبِحِصَانِهِ . وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ جَالِيئُوسَ كَانَ أَنْطَقَ النَّاسِ وَلَمْ يَذْكُرُوهُ بِالْخُطَابَةِ وَلَا بِهَذَا الْجِنْسِ مِنْ

اَلْبَلَاغَةِ وَفِي اَلْفُرْسِ خُطْبَاءٌ اِلَّا اَنْ كَلَامَ اَلْفُرْسِ وَكُلَّ مَعْنَى لَهُمْ
 فَانَّمَا هُوَ عَنْ طُولِ فِكْرَةٍ وَعَنْ اَجْتِهَادِ رَأْيٍ وَعَنْ مُشَاوَرَةٍ وَمُعَاوَنَةٍ
 وَعَنْ طُولِ التَّفَكُّرِ وَدِرَاسَةِ الْكُتُبِ وَحِكَايَةِ الثَّانِي عِلْمَ الْاَوَّلِ
 وَزِيَادَةِ الثَّلَاثِ فِي عِلْمِ الثَّانِي حَتَّى اجْتَمَعَتْ ثَمَارُ تِلْكَ اَلْفِكْرِ عِنْدَ
 آخِرِهِمْ. وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَاِنَّمَا هُوَ بَدِيهَةٌ وَارْتِجَالٌ وَكَانَهُ اِلْهَامٌ
 وَلَيْسَتْ هُنَاكَ مُعَانَاةٌ وَلَا مُكَابَدَةٌ وَلَا اِجَالَةٌ فِكْرٍ وَلَا اسْتِعَانَةٌ
 وَاِنَّمَا هُوَ اَنْ يَصْرِفَ اَحَدُهُمْ وَهَمَّهُ اِلَى الْكَلَامِ وَاِلَى رَجْرِ يَوْمٍ
 اَلْخِصَامِ اَوْ حِينَ يَمْتَحُ عَلَى رَأْسِ بَئْرِ اَوْ يَخْذُو بِبَعِيرٍ اَوْ عِنْدَ اَلْمُقَارَعَةِ
 اَوْ اَلْمُنَاقَلَةِ اَوْ عِنْدَ صِرَاعٍ اَوْ حَرْبٍ قَاهُوَ اِلَّا اَنْ يَصْرِفَ وَهَمَّهُ اِلَى
 جُمْلَةٍ اَلَّذَنْبِ وَاِلَى اَلْعُمُودِ اَلَّذِي اِلَيْهِ يَقْصِدُ قَتْلَتِيهِ اَلْمَعَانِي اَرْسَالًا
 وَتَهَالٍ عَلَيْهِ اَلْاَلْفَاظُ اَمْتِثَالًا. ثُمَّ لَا يَقْبِذُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرُسُهُ
 اَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ وَكَانُوا اِمِّيْنَ لَا يَكْتُبُونَ وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ
 وَكَانَ الْكَلَامُ اَلْحَيَدُ عِنْدَهُمْ اَظْهَرَ وَآكْثَرَ وَهُمْ عَلَيْهِ اَقْدَرُ وَلَهُ
 اَقْهَرُ وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ اَنْطَقَ وَمَكَانُهُ مِنْ اَلْبَيَانِ اَرْفَعُ
 وَخُطْبَاهُمْ لِلْكَلَامِ اَجْوَدُ وَاَلْكَلَامُ عَلَيْهِمْ اَسْهَلُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ اَيْسَرُ
 مِنْ اَنْ يَنْفَقِرُوا اِلَى تَحْفِظِهِ وَيَحْتَاجُوا اِلَى تَدَارُسٍ. وَلَيْسَ لَهُمْ كَمَنْ حَفِظَ
 عِلْمَ غَيْرِهِ وَآخَتَذَى عَلَى كَلَامٍ مِنْ قَبْلِهِ قَمَا يَحْفَظُونَ اِلَّا مَا عَلِقَ
 بِقُلُوبِهِمْ وَاتَّخَمَ بَصُورَهُمْ وَاتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَلَا قَصْدٍ
 وَلَا تَحْفَظٍ وَلَا طَلَبٍ وَاِنَّ هَذَا اَلَّذِي فِي اَيْدِيَنَا جُزْءٌ مِنْهُ (اه)
 وَمِنْ اَشْتَهَرَ فِي اَلْخُطَابَةِ اَيْضًا قُسُ بْنُ سَاعِدَةَ اَلْاِيَادِي اُسْقِفُ

نَجْرَانَ خَطِيبُ الْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَايِمُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي
عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرْفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ
قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَقَصْلُ الْخُطَابِ
وَالَّذِي أُوتِيَهُ قُسٌّ هُوَ قَصْلُ الْخُصُومَةِ وَهَذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ
أَوَّلُ مَنْ قَالَ: أَلْبَيْتَةُ عَلَى الْمُدْعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَأَوَّلُ
مَنْ أَتَكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصَا. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ
فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. أَدْرَكَهُ رَسُولُ الْمُسْلِمِينَ وَرَأَاهُ بِعُكَاظٍ فَكَانَ
يَأْثُرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَالْبَعْثِ. بَلِيغٌ
الْنُطْقِ وَفِيهِ يَقُولُ الْأَعَشَى:

وَأَقْصَحُ مِنْ قُسٍّ وَآجَرَى مِنْ أَلْذِي

بِذِي الْعَيْنِ (١) مِنْ حَقَّانٍ أَضْبَحَ خَادِرًا
وَكَانَ قُسٌّ يَفِدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعْظِمُهُ فَقَالَ لَهُ
قَيْصَرُ: مَا أَفْضَلُ أَعْلَمَ. قَالَ: مَعْرِفَةُ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا
أَفْضَلُ أَعْقَلِ. قَالَ: وَقُوفُ الْمَرْءِ عِنْدَ عَلَيْهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ
أَلَدَبِ. قَالَ: اسْتِيقَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ أَلْمُرُوءَةِ.
قَالَ: قِلَّةُ رَغْبَةِ الْمَرْءِ فِي إِخْلَافٍ وَعَدِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ أَلْمَالِ.
قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ الْحَقُّ

وَقِيلَ إِنَّ أَلْجَارُودَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا وَقَدَّ فِي وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى
رَسُولِ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَاسْتَمَّ سَأَلَهُ

الرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ الْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًا. قَالَ:
 كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو آثَرَهُ وَأَطْلَعُ خَبَرَهُ. كَانَ
 قُسٌ سَبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ الْعَرَبِ. صَحِيحَ النَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْئَةٍ حَسَنَةٍ
 يَتَقَفَّرُ الْقِفَارَ. وَلَا تَكُنْهُ دَارٌ. وَلَا يُقَرَّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَفُّرِهِ
 بَعْضَ الطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِالْوَحُوشِ وَالْهَوَامِّ. يَلْبَسُ الْمُسُوحَ. وَيَتَّبِعُ
 الْمُسِيحَ عَلَى مَنَاجِ الْمَسِيحِ. لَا يُعَيِّرُ الرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِالْوَحْدَانِيَّةِ.
 تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ الْأَمْثَالُ. وَتُكْشَفُ بِهِ الْأَهْوَالُ. وَتَتَّبَعُهُ الْأَبْدَالُ.
 أَدْرَكَ رَأْسَ الْحَوَارِيِّينَ جَمْعَانِ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّاهُ مِنَ الْعَرَبِ.
 وَاعْبَدَ مَنْ تَعَبَّدَ فِي الْخُصْبِ. وَآيَقَنَ بِالْبَغْثِ وَالْحِسَابِ. وَحَذَرَ سُوءَ
 الْمُنْقَلَبِ وَالْمَلَابِ. وَوَعَّظَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِالْعَمَلِ قَبْلَ الْقَوْتِ.
 أَحْسَنُ الْأَلْفَاظِ. الْحَاظِبُ بِسُقَى عَكَاظِ. الْغَارِفُ بِشَرْقِ وَغَرْبِ.
 وَيَإِسِ وَرَطْبِ. وَأُجَاجٍ وَعَذْبِ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَالْعَرَبُ بَيْنَ
 يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِالرَّبِّ الَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ الْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُؤَيِّنَنَّ
 كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ الْقَلْبُ مِنْ هَوَاهُ أَدْوَكَارُ وَلَيَالٍ خِلَالَهُنَّ نَهَارُ
 وَجِبَالُ شَوَاخِ رَاسِيكَاتُ وَبِحَارُ مِيكَاهُنَّ غِرَارُ
 وَنَجُومُ يَجْثُهَا قَمَرُ اللَّيْلِ (١) م وَشَمْسُ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
 ضَوْوَهَا يَطْمُسُ الْغَيُونَ وَارِ عَادُ شَدِيدُ فِي الْحَاقِقِينَ مُثَارُ (٢)
 وَغَلَامٌ وَاشْمَطُ وَرَضِيعُ كُلُّهُمْ فِي الْأَرْبَابِ يَوْمًا يَزَارُ

(١) ويروى: ونجوم تلوح في ظلم الليل (٢) ويروى: مُطَار

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوَتْ الْخَيْرَ م وَأُخْرَى حَوَتْ (١) فَهِنَّ قِفَارٌ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقَصِّرُ عَنْهُ حَدْسَةُ النَّاطِرِ الَّذِي لَا يَحَارُ
وَالَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى اللَّهِ م نَفُوسًا لَهَا هُدًى وَاعْتِبَارٌ
فَقَالَ رَسُولُ الْمُسْلِمِينَ : يَرْحَمُ اللَّهُ قُسا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةٌ وَحَدَهُ

وَمِنْ خُطْبِ قُسا الْمَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ قَالَ :
لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظٍ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ الْخَلْجَةِ وَالطَّائِفِ
كَانَ لِلتَّقِيفِ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْزَقٌ . وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ
مُؤْنِقٍ . فَقَالَ جِبْنٌ خُطْبَ فَأُطْنِبَ . وَرَغَبَ وَرَهَبَ . وَحَذَرَ وَأَنْذَرَ .
وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ : أَيُّهَا النَّاسُ أَسْمِعُوا وَعُوا . وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَأَتَفَعُّوا .
إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ . وَمَنْ مَاتَ قَاتَ . وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ . مَطَرٌ
وَنَبَاتٌ . وَآرِزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ . وَأَبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ . وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ . وَجَمْعٌ
وَشَتَاتٌ . وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ . لَيْلٌ مَوْضُوعٌ . وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ . وَجُجُومٌ
تَغُورُ . وَآرَاضٍ تُمُودُ . وَجُجُودٌ تُمُوجُ . وَتِجَارَةٌ تُزُوجُ . وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ . وَبَرٌّ
وَأَنَامٌ . وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ . وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ . أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ أَلْعَظَاتِ .
السَّيْرِ فِي أَلْفَلَوَاتٍ . وَالنَّظَرِ إِلَى مَحَلِّ الْأَمْوَاتِ . إِنَّ فِي السَّمَاءِ لِحَيْرًا .
وَأَنَّ فِي الْأَرْضِ لِعِبْرًا . لَيْلٌ دَاجٍ . وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَهْرَاجٍ . وَآرَاضٍ
ذَاتُ رِثَاجٍ . وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ . مَا لِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا
يَرْجِعُونَ . أَرْضُوا بِالْمَقَامِ فَأَقَامُوا . أَمْ يَرْكُوهَا هُنَاكَ فَأَمَامُوا . أَقْسَمَ قُسا

بِاللَّهِ قَسَمًا حَقًّا لَا أَيْمًا فِيهِ وَلَا حَاتِثًا إِنَّ اللَّهَ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ
 مِنْ دِينِكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبَا لِلْأَرْبَابِ الْغَفْلَةِ مِنَ
 الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ. وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ إِيَادِ. آيِنَ الْأَبَاءِ
 وَالْأَجْدَادِ. وَآيِنَ الْمَرِيضِ وَالْعَوَادِ. وَآيِنَ الْفَرَاغَةِ الشِّدَادِ. آيِنَ مَنْ
 بَنَى وَشَيْدَ. وَزَخَرَ وَتَجَدَّ. وَغَرَّهُ أَلْمَالُ وَالْوَلَدُ. آيِنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى.
 وَجَمَعَ فَأَوْغَى. وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى. أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ
 أَمْوَالًا. وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ أَجَالًا. طَحَّيْهُمْ الشَّرَى بِكُلِّكَلِهِ. وَمَزَقَهُمْ
 بِتَطَاوُلِهِ. فَتَلَكَ عِظَامُهُمْ بِالْيَسَةِ. وَوَيُوتُهُمْ خَاوِيَةً. عَمَرَتْهَا الدِّيَابُ
 أَلْعَاوِيَةَ. كَلَّا بَلْ هُوَ الْمَعْبُودُ. ثُمَّ انْشَأَ يَقُولُ:

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ مِ
 لَّمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
 وَرَأَيْتُ قَوْمِي تَحْوَهَا تَمْضِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَاكِرُ
 لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرُ (١)
 أَيْقَنْتُ أَتَى لَا مَحَا لَهَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَارُ

وَمَنْ أَشْتَهَرَ عِنْدَ الْعَرَبِ سَجْبَانُ بْنُ زُقَرِّ بْنِ إِيَّاسِ الْوَأَيْلِيُّ وَائِلُ
 بِأَهْلِهِ خَطِيبٌ مُفَضِّحٌ يُضْرَبُ بِهِ الْأَمْلُ فِي الْبَيَانِ. أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ
 وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ. وَحَكَى الْأَضْمَعِيُّ قَالَ: كَانَ إِذَا حَطَبَ
 يَسِيلُ عَرَقًا وَلَا يُعِيدُ كَلِمَةً وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَقْعُدُ حَتَّى يَفْرُغَ. وَقَدِمَ

عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفَدَّ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَجْبَانَ فَلَمْ
يُوجَدْ فِي مَنْزِلِهِ فَأَقْبَضَ مِنْ نَاحِيَةِ أَقْتِصَابٍ وَأَدْخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ
فَقَالَ: أَنْظِرُوا إِلَى عَصَا ثَقُومٍ مِنْ أَوْدِي. قَالُوا: وَمَا تَضَعُ بِهَا وَأَنْتَ
بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَضَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطَبُ
رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَصَحَّكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصَا فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ
فَرَكِبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عَصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَاخَذَهَا. ثُمَّ
قَامَ وَتَكَلَّمَ مُنْذُ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتِ صَلَاةُ الْعَصْرِ
مَا تَسَخَّحَ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ابْتَدَأَ فِي مَعْنَى فَحْجٍ مِنْهُ وَقَدْ
بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. ثُمَّ رَأَتْ تِلْكَ حَالَهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ
فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَجْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعَ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: الصَّلَاةُ.
قَالَ: هِيَ أَمَامُكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ
مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ الْعَرَبِ. فَقَالَ سَجْبَانُ: وَالْعَجَمِ وَالْجَنِّ
وَالْإِنْسِ. وَمِمَّا رَوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطْبِهِ الْبَلِيغَةُ يَقُولُ: إِنَّ الدُّنْيَا
دَارُ بَلَاغٍ وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا النَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِكُمْ لِدَارِ
مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهَيَّكُوا اسْتَارَكُمْ. عِنْدَ مَنْ لَا تُنْقَى عَلَيْهِ أَسْرَادُكُمْ.
وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ. قَبْلَ أَنْ تُخْرَجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. فَفِيهَا
حَيَاتُكُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلُقُكُمْ. إِنْ الرَّجُلُ إِذَا هَلَكَ. قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ
الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلَّهِ. قَدِّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ وَلَا تُخْلِفُوا كُلًّا
يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شِعْرِهِ يَدُخُّ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ الْخَزَاعِيُّ:

يَا ظَلَمَ أَكْرَمَ مِنْ يَهَا حَسَبًا وَأَعْطَاهُمْ لِتَالِدِ
 مِنْكَ الْعَطَاءُ فَأَعْطِنِي وَعَلَى مَدْحِكَ فِي الشَّاهِدِ
 فَيَقَالُ إِنَّ ظُلْمَةَ قَالَ لَهُ: أَخْتَكِمُ. قَالَ: فَرَسَكَ الْوَرْدَ وَقَضَرَكَ
 بِكَذَا. فَقَالَ ظُلْمَةُ أَفَ لَكَ لَوْ سَأَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي أَعْطَيْتُكَ كُلَّ
 قَوْسٍ لِي وَكُلَّ قَضَرٍ وَلَكِنْ أَبَيْتُ إِلَّا بِأَهْلِيَّتِكَ
 وَذَكَرَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى فِي مَجْلِسِ ثَمَامَةَ بْنِ أَشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ
 أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ كَانَ أَبْسَطَ لِسَانًا وَلَا أَحَنَ بِحُجَّتِهِ وَلَا أَقْدَرَ
 عَلَى كَلَامٍ بِنَظْمٍ حَسَنٍ وَالْقَاطِئِ عَذْبَةٍ وَمَنْطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ
 يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَحَسُّ وَلَا يَصِلُ كَلَامُهُ بِحُشْوٍ مِنْ التَّكَلُّامِ
 وَلَا يُعِيدُ لَفْظًا وَلَا مَعْنَى وَلَا يَخْرُجُ مِنْ فَنٍّ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ
 آخِرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا حَكَاهُ وَلَا يَخْكِي شَيْئًا إِلَّا
 كَانَ أَكْثَرَ مِنْهُ وَلَا يُرِي بِذَنبِهِ شَيْئًا إِلَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ إِذَا شَاءَ
 أَضْحَكَ الشَّكْلَى وَأَذْهَلَ الرَّاهِدَ وَحَسَّنَ قَلْبَ الْعَابِدِ. قُلْتُ فَكَيْفَ
 كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالْخَبَرِ الْبَاهِرِ وَالشِّعْرِ
 النَّادِرِ وَالْمَثَلِ السَّائِرِ وَالْفَصَاحَةِ الثَّامَّةِ وَاللِّسَانِ الْبَسِيطِ. قَالَ
 سَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ وَأَبْنَهُ جَعْفَرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ
 التَّكَلُّامُ مُتَصَوِّرًا دُرًّا وَيُلْقِيهِ الْمُنْطِقُ جَوْهَرًا لَكَانَ كَلَامُهُمَا
 وَالْمُنْتَقَى مِنَ الْقَاطِئِهِمَا. وَلَقَدْ غَبَرَتْ مَعَهُمَا وَأَدْرَكَتْ طَبَقَةُ التَّكَلِّمِينَ
 فِي أَيَّامِهِمَا وَهُمْ يَرُونَ الْبَلَاغَةَ لَمْ تُسْتَكْمَلْ إِلَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ
 مَقْصُورَةً إِلَّا عَلَيْهِمَا وَلَا أَنْقَادَتْ إِلَّا لَهُمَا وَإِنَّهُمَا لَلْبَابُ الْكَرَمِ

عَتَقَ مَنْظَرَ وَجُودَةَ مَجَبَرٍ وَسُهُولَةَ لَفْظٍ وَجَزَالَهَ مَنْطِقٍ وَزَاهَةَ نَفْسٍ
وَكَمَالَ خِصَالٍ حَتَّى لَوْ فَاحَرَتِ الدُّنْيَا بِقِلِيلِ أَيَّامِهَا وَالْمَأْثُورُ مِنْ
خَصَائِصِهَا جَمِيعَ أَيَّامٍ مَنْ سِوَاهُمَا مِنْ لَدُنِ آدَمَ إِلَى أَنْ يُنْفَخَ فِي
الصُّورِ وَيُبْعَثَ أَهْلُ الْقُبُورِ حَاشَا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ الْكَرَامَ وَسَلَفَ عِبَادِهِ
الصَّالِحِينَ لَمَا بَاهَتْ إِلَّا بِهِمَا وَلَا عَوَّلَتْ فِي الْفَخْرِ إِلَّا عَلَيْهِمَا. وَلَقَدْ
كَانَا مَعَ تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِمَا وَمَغْسُولِ مَذَاقِهِمَا وَسَنَا إِشْرَاقِهِمَا
وَكَمَالَ خِصَالِ الْخَيْرِ فِيهِمَا فِي مَحَاسِنِ الْإِيمَانِ كَالثَّقَطَةِ فِي النَّجْرِ
وَالْحُرْدَةِ فِي الْقَفْرِ



الْقِسْمُ الثَّانِي

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(عن ابن خلدون)

إِعْلَمَنَّ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَيْنِ فَنِ الشَّعْرِ
الْمَنْظُومِ وَهُوَ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُتَقَفَّى وَمَعْنَاهُ الَّذِي تَكُونُ أَوْزَانُهُ
كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَافِيَةُ. وَفَنِ النَّثْرِ وَهُوَ الْكَلَامُ غَيْرُ
الْمَوْزُونِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَنَيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبٍ فِي
الْكَلَامِ. فَأَمَّا الشَّعْرُ فَهُوَ الْمَذْحُ وَالْهَجَاءُ وَالرِّثَاءُ. وَأَمَّا النَّثْرُ فَهُوَ
الْكَلَامُ الَّذِي يُرْتَقَى بِهِ قِطْعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ
وَيُسَمَّى سَجْعًا. وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ وَهُوَ الَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ الْكَلَامُ إِطْلَاقًا

وَلَا يُقْطَعُ أَجْزَاءُ بَلْ يُرْسَلُ إِزْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْسِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا
غَيْرِهَا. وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطْبِ وَالِدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيْبِهِمْ .
وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُنْشُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَاصٌّ عَنْ الْوُضْعَيْنِ
وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّمًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى
مَقَاطِعَ يَشْهَدُ الذَّوْقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عَنْهَا . ثُمَّ يُعَادُ الْكَلَامُ
فِي الْآيَةِ الْآخَرَى بَعْدَهَا وَيُثْنَى مِنْ غَيْرِ التَّرَامِ حَرْفٍ يَكُونُ
سَجْمًا أَوْ قَافِيَةً . وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْقُرْآنِ : اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْخَبَرِ كِتَابًا
مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . وَقَالَ قَدْ
فَصَّلْنَا الْآيَاتِ . وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاعِيلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا
وَلَا التَّرِيمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ . وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ . وَأُطْلِقَ
أَسْمُ الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ . لِمَا دُرِّكَاهُ وَأَخْتَصَّتْ
بِأَمِّ الْقُرْآنِ لِلْغَلْبَةِ فِيهَا كَالْجَمِّ لِلثَّرْيَا وَلِهَذَا سُمِّيَتْ السَّبْعُ الْمَثَانِي .
وَأَنْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَّتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدُ
لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفَنُونِ
أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَقْطَعُ لِفَنِّ الْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ
فِيهِ مِثْلُ النَّسِيبِ الْمُخْتَصِّ بِالشَّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالِدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْخُطْبِ
وَالِدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْمُحَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ
أَسَالِيبَ الشَّعْرِ وَمَوَازِيئَهُ فِي الْمُنْشُورِ مِنْ كَثَرَةِ الْأَسْجَاعِ وَالْإِزَامِ
الْتَفْقِيَةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَغْرَاضِ وَصَارَ هَذَا الْمُنْشُورُ
إِذَا تَامَلْتَهُ مِنْ بَابِ الشَّعْرِ وَقَتِهِ وَلَمْ يَفْتَرَقَا إِلَّا فِي الْوِزْنِ . وَاسْتَمَرَ

أَلْتَأَخَّرُونَ مِنْ الْكِتَابِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَأَسْتَعْمَلُوا فِي الْحُطَّابَاتِ
السُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا الْإِسْتِعْمَالَ فِي التَّنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هَذَا الْفَنِّ الَّذِي
أَرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا الْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا الْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا
أَهْلَ الْمَشْرِقِ وَصَارَتِ الْحُطَّابَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ الْكِتَابِ
الْقَلْبِ جَارِيَةً عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ. وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ
مِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْيِيقِ الْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ
مِنْ أَحْوَالِ الْخُطَّابِ وَالْحُطَّابِ. وَهَذَا الْفَنُّ التَّنْثُورُ أُلْقِيَ أَدْخَلَ
أَلْتَأَخَّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُتَرَّهَ الْحُطَّابَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ
عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ الشِّعْرِ تُنَافِيهَا اللَّوْذِيعِيَّةُ وَخَلَطُ الْجِدِّ بِالْهَزْلِ وَالْإِطْنَابُ
فِي الْأَوْصَافِ وَضَرْبُ الْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ التَّشْبِIHَاتِ وَالْإِسْتِعَارَاتِ
حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذَلِكَ فِي الْخُطَّابِ. وَالْحَمْدُ فِي الْحُطَّابَاتِ
السُّلْطَانِيَّةِ التَّرْسُلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ الْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَنْجِيعٍ
إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ الْمَلَكَةُ إِرسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ
لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاءُ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَإِنَّ
الْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةً وَلِكُلِّ مَقَامٍ أَسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِجْزَازٍ
أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَضْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ وَكَيْافَةٍ وَأَسْتِعَارَةٍ.
وَأَمَّا إِجْرَاءُ الْحُطَّابَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هَذَا الْفَنِّ الَّذِي هُوَ عَلَى
أَسَالِيبِ الشِّعْرِ قَدْ ذُكِرَ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصْرِ إِلَّا اسْتِيفَاءُ
الْمُجَمَّةِ عَلَى السِّتِيهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذَلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي
مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَهَجَرُوا عَنْ الْكَلَامِ الْمُرْسَلَ لِيُعَدَّ أَمْدُهُ

فِي الْبَلَاغَةِ وَأَنْفَسَاحِ خَطَوَاتِهِ وَوَلَّعُوا بِهَذَا الْمُسَجَّعِ يُلْفِقُونَ بِهِ مَا
نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْيِيقِ الْكَلَامِ عَلَى الْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ فِيهِ
وَيُخْبِرُونَهُ بِذَلِكَ الْقَدَرِ مِنَ التَّزْيِينِ بِالْأَنْجَاعِ وَالْأَلْقَابِ الْبَدِيعَةِ
وَيَقُولُونَ عَمَّا سَوَى ذَلِكَ. وَكَثُرَ مَنْ أَخَذَ بِهَذَا الْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي
سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَابُ الْمَشْرِقِ وَشُعْرَاؤُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ
لَيُخَيَّلُونَ بِالْإِعْرَابِ فِي الْكَلِمَاتِ وَالتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي
تَخْيِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذَلِكَ الْخَصْفَ بَيْنَ
التَّخْيِيسِ وَيَدْعُونَ الْإِعْرَابَ وَيُقْسِدُونَ بِنَيْةِ الْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُضَافُ
التَّخْيِيسَ. فَتَمَلَّ ذَلِكَ بِمَا قَدْ مَنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ
وَاللَّهُ أَلْمَوْقِيُّ إِلَى الصَّوَابِ بَعَثَهُ وَكَرَّمَهُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

البحث الثاني

في صناعة الشعر وأنواع الأشعار

(عن تلخيص كتاب أرسطاطاليس في الشعر تأليف أبي الوليد بن رشد)

الْعَرَضُ فِي هَذَا الْقَوْلِ تَلْخِيسُ مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي
الشَّعْرِ مِنَ الْقَوَائِنِ الْكَلِمَةِ الْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ الْأَنْحَاءِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ إِذَا
كَثُرَ بِمَا فِيهِ هِيَ قَوَائِنُ خَاصَّةٌ بِأَشْعَارِهِمْ وَعَادَتُهُمْ فِيهَا. وَإِنَّمَا أَنْ
تَكُونَ نِسْبًا مَوْجُودَةً فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَوْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ مِنْ
الْأَلْسِنَةِ. (قَالَ) إِنَّ قَصْدَنَا الْآنَ التَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ الشَّعْرِ
وَفِي أَنْوَاعِ الْأَشْعَارِ. وَقَدْ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الْقَوَائِنُ

الَّتِي يُعْطَى فِيهَا تَجْرِي مَجْرَى الْجُودَةِ أَنْ يَقُولَ أَوَّلًا مَا فِصْلُ كُلِّ
وَاحِدٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ الشَّعْرِيَّةِ وَمِمَّا ذَا تَتَقَوَّمُ الْأَقَاوِيلُ الشَّعْرِيَّةُ وَمِنْ
كَمْ شَيْءٍ تَتَقَوَّمُ وَأَيُّمَا هِيَ أَجْزَاؤُهَا الَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا وَكَمْ أَصْنَافُ
الْأَغْرَاضِ الَّتِي تُفْصَدُ بِالْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ . وَأَنْ يَجْعَلَ كَلَامُهُ مِنْ
الْأَوَائِلِ الَّتِي لَنَا بِالطَّبَعِ فِي هَذَا الْمَعْنَى . (قَالَ) فَكُلُّ شِعْرِ وَكُلُّ قَوْلٍ
شِعْرِيٌّ فَهُوَ إِمَّا هَجَاءٌ وَإِمَّا مَدِيحٌ وَذَلِكَ بَيِّنٌ بِاسْتِقْرَاءِ الْأَشْعَارِ
وَبِخَاصَّةِ أَشْعَارِهِمْ الَّتِي كَانَتْ فِي الْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ أَغْنَى الْحَسَّةِ
وَالْقَبِيحَةِ وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي الصَّنَائِعِ الْمُحَاكِمَةِ لِصَنَاعَةِ الشَّعْرِ الَّتِي
هِيَ الضَّرْبُ بِالْعِيدَانِ وَالزَّمْرُ وَالرَّقْصُ أَغْنَى أَنَّهَا مُعَدَّةٌ بِالطَّبَعِ
لِهَذَيْنِ الْقَرَضَيْنِ . وَالْأَقَاوِيلُ الشَّعْرِيَّةُ هِيَ الْأَقَاوِيلُ الْحَيَّةُ . وَأَصْنَافُ
التَّخْيِيلِ وَالشَّيْبِ ثَلَاثَةٌ اِثْنَانِ بَسِيطَانِ وَثَلَاثُ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا . أَمَّا
الْإِثْنَانِ الْبَسِيطَانِ فَاحَدُهُمَا تَشْبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَتَمْثِيلُهُ بِهِ وَذَلِكَ
يَكُونُ فِي لِسَانِ لِسَانٍ بِالْفَاطِ خَاصَّةً عِنْدَهُمْ مِثْلَ كَانَ وَإِخَالُ
وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَهُمْ حُرُوفَ
التَّشْبِيهِ . وَإِمَّا أَخَذَ الشَّيْبِ بِعَيْنِهِ بَدَلَ الشَّيْبِ وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى
الْإِبْدَالَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

هُوَ النَّجْرُ مِنْ أَيِّ الْمَوَاضِعِ جِثَّةُ

وَيَنْبَغِي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ فِي هَذَا الْقِسْمِ تَدْخُلُ الْأَنْوَاعُ الَّتِي
يُسَمَّىهَا أَهْلُ زَمَانِنَا اسْتِعَارَةً وَكِنَايَةً مِثْلَ قَوْلِ الشَّاعِرِ :
وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاحِلُهُ

إِلَّا أَنَّ الْكِنَايَاتِ أَكْثَرُ ذَلِكَ هِيَ إِبْدَالَاتٌ مِنْ لَوَاقِحِ
الشَّيْءِ . وَالْإِسْتِعَارَةُ هِيَ إِبْدَالٌ مِنْ مُنَاسِبِهِ أَغْنَى إِذَا كَانَ شَيْءٌ
نَسَبُهُ إِلَى الثَّانِي نِسْبَةُ الثَّلَاثِ إِلَى الرَّابِعِ فَلِإِبْدَالِ اسْمِ الثَّلَاثِ
إِلَى الْأَوَّلِ وَبِالْعَكْسِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كِتَابِ الْخَطَابَةِ مِنْ كَمِّ شَيْءٍ
تَكُونُ الْإِبْدَالَاتُ . وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي فَهُوَ أَنْ يُبَدَلَ الشَّيْءُ مِثْلَ
أَنْ تَقُولَ : الشَّمْسُ كَأَنَّهَا فُلَانٌ أَوْ الشَّمْسُ هِيَ فُلَانٌ لَا فُلَانٌ
كَالشَّمْسِ وَلَا هُوَ الشَّمْسُ

وَالصَّنْفُ الثَّلَاثُ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ هَذَيْنِ
(قَالَ) وَكَمَا أَنَّ النَّاسَ بِالطَّبْعِ قَدْ يُخَيَّلُونَ وَيُحَاكُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
بِالْأَفْعَالِ مِثْلَ مُحَاكَاةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِالْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ
وَالْأَصْوَاتِ وَذَلِكَ إِمَّا بِصُنَاعَةٍ وَمَلَكَهٌ تُوجَدُ لِلْمُحَاكِينَ وَإِمَّا مِنْ
قَبْلِ عَادَةٍ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ . كَذَلِكَ تُوجَدُ لَهُمُ الْمُحَاكَاةُ
بِالْأَقَاوِيلِ بِالطَّبْعِ وَالْخَيَالِ . وَالْمُحَاكَاةُ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ تَكُونُ
مِنْ قَبْلِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : مِنْ قَبْلِ النِّعَمِ الْمُتَّفَقَةِ وَمِنْ قَبْلِ الْوُزْنِ
وَمِنْ قَبْلِ التَّشْبِيهِ نَفْسِهِ . وَهَذِهِ قَدْ يَوْجَدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُفْرَدًا عَنْ
صَاحِبِهِ مِثْلَ وُجُودِ النِّعَمِ فِي الْمَرَامِيدِ وَالْوُزْنِ فِي الرِّقَصِ وَالْمُحَاكَاةِ
فِي اللَّفْظِ . أَغْنَى الْأَقَاوِيلِ الْخَيَالِيَّةِ الْغَيْرِ مَوْزُونَةٍ . وَقَدْ تَجَمَّعَ هَذِهِ
الْثَلَاثَةُ بِأَسْرِهَا مِثْلَ مَا يَوْجَدُ عِنْدَنَا فِي النَّوعِ الَّذِي يُسَمَّى
الْمَوْشَحَاتِ وَالْأَرْجَالِ وَهِيَ الْأَشْعَارُ الَّتِي اسْتَبْطَهَا فِي هَذَا اللِّسَانِ
أَهْلُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ إِذْ كَانَتْ الْأَشْعَارُ الطَّبِيعِيَّةُ هِيَ مَا جَمَعَتْ

الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا. وَالْأُمُورُ الطَّبِيعِيَّةُ إِنَّمَا تُوجَدُ لِلْأَمْرِ الطَّبِيعِيِّ فَإِنَّ
أَشْعَارَ الْعَرَبِ لَيْسَ فِيهَا لَحْنٌ. وَإِنَّمَا هِيَ إِمَّا أَلْوَزْنُ فَقَطْ وَإِمَّا أَلْوَزْنُ
وَالْحَاكَاةُ مَعًا فِيهَا. وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَالْصِّنَاعَةُ الْحَيَّةُ أَوِ الْيَتِي
تَفْعَلُ فِعْلَ التَّخِيلِ ثَلَاثَةً. صِنَاعَةُ اللَّحْنِ وَصِنَاعَةُ أَلْوَزْنٍ وَصِنَاعَةُ
عَمَلِ الْأَقَاوِيلِ الْحَاكِيَّةِ وَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ الْمُنْطَقِيَّةُ الَّتِي نَنْظُرُ فِيهَا
فِي هَذَا الْكِتَابِ. (قَالَ): وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ مِنْ الْأَقَاوِيلِ الَّتِي تُسَمَّى
أَشْعَارًا مَا لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَعْنَى الشِّعْرِيَّةِ إِلَّا أَلْوَزْنُ فَقَطْ كَأَقَاوِيلِ
شُقْرَاطِ الْمَوْزُونَةِ وَأَقَاوِيلِ إِنْبَادِ قَلِيسَ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ بِخِلَافِ الْأَمْرِ
فِي أَشْعَارِ أَوِ مِيرُوشَ فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا الْأَمْرَانِ جَمِيعًا. (قَالَ): وَلِذَلِكَ
لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى شِعْرًا بِالْحَقِيقَةِ إِلَّا مَا جَمَعَ هَذَيْنِ. وَأَمَّا
تِلْكَ فَهِيَ أَنْ تُسَمَّى أَقَاوِيلَ أُخْرَى مِنْهَا أَنْ تُسَمَّى شِعْرًا
وَكَذَلِكَ الْفَاعِلُ أَقَاوِيلُ مَوْزُونَةٌ بِالطَّبِيعِيَّاتِ هُوَ أُخْرَى أَنْ يُسَمَّى
مُتَكَلِّمًا مِنْ أَنْ يُسَمَّى شَاعِرًا. وَكَذَلِكَ الْأَقَاوِيلُ الْحَيَّةُ الَّتِي
تَكُونُ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ لَيْسَتْ أَشْعَارًا. وَحُكْمِي أَنْ كَانَتْ
تُوجَدُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ وَهَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ عِنْدَنَا فَقَدْ
تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ كَمْ هِيَ أَصْنَافُ الْحَاكَاةِ وَمِنْ أَيْ الصَّانِعِ
تَلْتِمُ الْحَاكَاةُ بِالْقَوْلِ حَتَّى تَكُونَ تَامَةً الْفِعْلِ



البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَ الْمُحَاكُونَ وَالْمُشَبِّهُونَ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ
بِذَلِكَ أَنْ يُحْثُوا عَلَى عَمَلِ بَعْضِ الْأَفْعَالِ الْإِرَادِيَّةِ وَأَنْ يَكْفُوا
عَنْ عَمَلِ بَعْضِهَا فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةٌ أَنْ تَكُونَ الْأُمُورُ الَّتِي تُقْصَدُ
مُحَاكَاةُهَا إِمَّا فَضَائِلَ وَإِمَّا رَدَائِلَ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ وَكُلَّ خُلُقٍ إِنَّمَا
هُوَ تَابِعٌ لِأَحَدِ هَذَيْنِ أَعْنِي الْفَضِيلَةَ وَالرَّذِيلَةَ فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةٌ
أَنْ تَكُونَ الْفَضَائِلُ إِنَّمَا تُحَاكَى بِالْفَضَائِلِ وَالْفَاضِلِينَ وَأَنْ تَكُونَ
الرَّذَائِلُ تُحَاكَى بِالرَّذَائِلِ وَالْأَرْدَلِينَ . وَإِذَا كَانَ كُلُّ تَشْبِيهِ وَحِكَايَةٍ
إِنَّمَا تَكُونُ بِالْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ فَظَاهِرٌ أَنَّ كُلَّ تَشْبِيهِ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا
يُقْصَدُ بِهَا التَّحْسِينُ وَالتَّقْبِيحُ وَقَدْ يَجِبُ مَعَ هَذَا ضَرُورَةٌ أَنْ يَكُونَ
الْمُحَاكُونَ لِلْفَضَائِلِ أَعْنِي الْمَائِلِينَ بِالطَّبَعِ إِلَى مُحَاكَاةِهَا أَفَاضِلَ .
وَالْمُحَاكُونَ لِلرَّذَائِلِ أَنْقَصُ طَبْعًا مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَقْرَبُ إِلَى الرَّذِيلَةِ
وَعَنْ هَذَيْنِ الصَّنِفَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ وَجَدَ الْمَدْحُ وَالنَّجْوُ . أَعْنِي مَدْحَ
الْفَضَائِلِ وَنَجْوَى الرَّذَائِلِ . وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ يُجِيدُ الْمَدْحَ وَلَا
يُجِيدُ النَّجْوُ وَبَعْضُهُمْ بِالْعَكْسِ أَعْنِي يُجِيدُ النَّجْوُ وَلَا يُجِيدُ الْمَدْحَ
فَإِذَا كَانَ بِالْوَجِبِ مَا كَانَ يُوجَدُ لِكُلِّ تَشْبِيهِ وَحِكَايَةٍ هَذَانِ

أَفْضَلَانِ أَغْنِيَ التَّحْسِينَ وَالتَّقْبِيحَ وَهَذَانِ أَفْضَلَانِ إِنَّمَا يُوجَدَانِ
لِلتَّشْبِيهِ وَالْمُحَاكَاةِ الَّتِي تَكُونُ بِالْقَوْلِ لَا الْحَاكَاةِ الَّتِي تَكُونُ
بِالْوِزْنِ وَلَا الَّتِي تَكُونُ بِاللَّحْنِ. وَقَدْ يُوجَدُ لِلتَّشْبِيهِ بِالْقَوْلِ فَضْلٌ
كَأَنَّ هُوَ التَّشْبِيهُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ مُطَابَقَةُ الْمُسَبَّحِ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يُقْصَدَ فِي ذَلِكَ تَحْسِينٌ أَوْ تَقْبِيحٌ لَكِنْ نَفْسُ الْمُطَابَقَةِ وَهَذَا
النُّوعُ مِنَ التَّشْبِيهِ هُوَ كَمَا لَمَدَّةُ الْمَعْدَةِ لِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ إِلَى الطَّرَفَيْنِ
أَغْنِيَ أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ تَارَةً إِلَى التَّحْسِينِ بِزِيَادَةِ عَلَيْهَا وَتَارَةً إِلَى التَّقْبِيحِ
بِزِيَادَةِ أَيْضًا عَلَيْهَا (قَالَ) وَهَذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةُ أَوْمِيرُوشَ أَغْنِيَ أَنَّهُ
كَانَ يَأْتِي فِي تَشْبِيهَاتِهِ بِالْمُطَابَقَةِ وَالزِّيَادَةِ الْحُسْنَةِ وَالْمُقْتَبَةِ. وَمِنْ
الشُّعْرَاءِ مَنْ إِجَادَهُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْمُطَابَقَةِ فَقَطْ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِجَادَهُ
فِي التَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ. وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ الْأَمْرَيْنِ وَمِثْلُ أَوْمِيرُوشَ
وَمِثْلَ فِي كُلِّ صَنْفٍ مِنْ هَؤُلَاءِ بِأَصْنَافٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ كَانُوا
مَشْهُورِينَ فِي مَدَّتِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ بِاسْتِعْمَالِ صَنْفٍ صَنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ
هَذِهِ التَّشْبِيهَاتِ الثَّلَاثَةِ. وَأَنْتَ فَلَيْسَ يَغْسُرُ عَلَيْكَ وَجُودُ مِثَالَاتِ
ذَلِكَ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ إِنَّمَا هِيَ
كَمَا يَقُولُ أَبُو تَضَرُّ فِي النَّهْمِ وَالْكَرِيهِ. وَذَلِكَ أَنَّ النَّوعَ الَّذِي
يُسَمُّونَهُ اللَّسِيبَ إِنَّمَا هُوَ حَثٌّ عَلَى الْفُسُوقِ وَإِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَجَنَّبَهُ
أَوَّلِدَانُ وَيُودِّ بَنُ مِنْ أَشْعَارِهِمْ بِمَا يُحِثُّ فِيهِ عَلَى السَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ.
فَإِنَّهُ لَيْسَ تَحْتَ الْعَرَبِ فِي أَشْعَارِهَا مِنَ الْأَفْضَالِ عَلَى سِوَى هَاتَيْنِ
الْفَضِيلَتَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ لَيْسَ تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ الْحَثِّ عَلَيْهِمَا

وَأِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِيهَا عَلَى طَرِيقِ الْفَحْرِ. وَأَمَّا الصَّنْفُ مِنَ الْأَشْعَارِ
الَّذِي الْمَقْصُودُ بِهِ الْمُطَابَقَةُ فَقَطُّ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ
وَلِذَلِكَ يَصِفُونَ الْجَمَادَاتِ كَثِيرًا وَالْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتِ. وَأَمَّا الْيُونَانِيُّونَ
فَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ ذَلِكَ شِعْرًا إِلَّا وَهُوَ مُوجَّهٌ نَحْوَ الْفَضِيلَةِ
أَوْ الْكَفِّ عَنِ الرَّذِيلَةِ أَوْ مَا يُفِيدُ آدَبًا مِنْ الْأَدَابِ أَوْ مَعْرِفَةً
مِنَ الْمَعَارِفِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ أَصْنَافَ الشَّيْئَاتِ
ثَلَاثَةٌ أَصُولٌ وَأَنَّ فُصُولَهَا ثَلَاثَةٌ وَتَبَيَّنَ مَا هِيَ هَذِهِ الْفُصُولُ
الْثَلَاثَةُ وَالْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ. وَيُشَبَّهُ إِذَا اسْتَقْرَيْتِ الْأَشْعَارُ أَنْ يَقَعَ
الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنْ أَصْنَافِ الشَّيْئَاتِ وَلَا
فَصْلٌ رَابِعٌ مِنْ فُصُولِ تِلْكَ الْأَصْنَافِ

البحث الثالث

في العلل المولدة للشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَيُشَبَّهُ أَنْ تَكُونَ الْعِلْلُ الْمَوْلِدَةُ لِلشَّعْرِ بِالطَّبْعِ فِي
النَّاسِ عِلَّتَيْنِ. أَمَّا الْعِلَّةُ الْأُولَى فَوْجُودُ الشَّيْئِ وَالْحَاجَّةُ لِلْإِنْسَانِ
بِالطَّبْعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَنْشَأُ عِنْدِي أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ يُوجَدُ لِلنَّاسِ وَهُمْ
أَطْفَالٌ وَهَذَا شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ
وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْحَيَوَانِ هُوَ الَّذِي

يَلْتَذُّ بِالتَّشْبِيهِ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي قَدْ أَحَسَّهَا وَبِالْحَاكَاةِ لَهَا . وَالذَّلِيلُ عَلَى
 أَنَّ الْإِنْسَانَ يُسَرُّ بِالتَّشْبِيهِ بِالطَّعْمِ . وَيَفْرَحُ هُوَ أَنَا تَلْتَذُّ وَنَسْرُ
 بِحَاكَاةِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا تَلْتَذُّ بِإِحْسَاسِهَا وَبِخَاصَّةٍ إِذَا سَكَتَتْ
 الْحَاكَاةُ شَدِيدَةً الْأَسْتِقْصَاءِ مِثْلُ مَا يَعْزُضُ فِي تَصَاوِيرِ كَثِيرٍ
 مِنْ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَفْعَلُهَا الْمَهْرَةُ مِنَ الْمَصَوِّرِينَ وَلِهَذَا الْعِلَّةُ
 اسْتُعْمِلَ فِي التَّعْلِيمِ عِنْدَ الْإِنْفَهَامِ . وَالْمُخَاطَبِ الْإِشَارَاتُ فَإِنَّهَا أَدَاةٌ
 مُعِينَةٌ عَلَى فَهْمِ الْأَمْرِ الَّذِي يُقْصَدُ تَفْهِيمُهُ لِمَكَانٍ مَا فِيهَا مِنْ
 الْإِلْتِذَاذِ الَّذِي هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْإِشَارَاتِ مِنْ قَبْلِ مَا فِيهَا مِنْ
 التَّخْيِيلِ فَتَكُونُ النَّفْسُ بِحَسَبِ التَّذَاذِ بِهَ أَتَمَّ قُبُولًا لَهُ . فَإِنَّ
 التَّعْلِيمَ لَيْسَ إِنَّمَا يُوجَدُ لِلْفَيْلَسُوفِ فَقَطْ بَلْ وَلِلنَّاسِ فِي ذَلِكَ
 مُشَارَكَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ الْفَيْلَسُوفِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ يُوجَدُ التَّعْلِيمُ بِالطَّعْمِ
 يَصْدُرُ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَى الْإِنْسَانِ بِحَسَبِ قِيَاسِ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الْمُتَعَلِّمِ
 مِنَ الْإِنْسَانِ الْمُتَعَلِّمِ . وَالْإِشَارَاتُ لَمَّا سَكَتَتْ إِنَّمَا هِيَ تَشْبِيهَاتٌ
 لِأُمُورٍ قَدْ أُحِسَّتْ فَبَيَّنَّ أَنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ لِمَوَاضِعِ الْمُسَارَعَةِ إِلَى
 الْفَهْمِ وَالْقَبُولِ لَهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُفْهَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْإِلْتِذَاذِ لِمَوْضِعِ
 التَّخْيِيلِ الَّذِي فِيهَا . فَهَذِهِ هِيَ الْعِلَّةُ الْأُولَى الْمَوْلِدَةُ لِلشَّعْرِ . وَأَمَّا
 الْعِلَّةُ الثَّانِيَةُ فَالْتِذَاذُ الْإِنْسَانِ أَيْضًا بِالطَّعْمِ بِالْوَزْنِ وَالْأَلْحَانِ فَإِنَّ
 الْأَلْحَانَ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِلْوَزْنِ عِنْدَ الَّذِينَ فِي طَبَائِعِهِمْ
 أَنْ يُدْرِكُوا الْأَوْزَانَ وَالْأَلْحَانَ فَالْتِذَاذُ النَّفْسِ بِالطَّعْمِ بِالْحَاكَاةِ
 وَالْأَلْحَانِ وَالْأَوْزَانِ هُوَ السَّبَبُ فِي وُجُودِ الصِّعَاعَاتِ الشَّعْرِيَّةِ

وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ الْفِطْرِ الْفَائِقَةِ فِي ذَلِكَ قَادًا كَسَاتِ الْأَمَّةُ تَوَلَّدَتْ
فِيهِمْ صِنَاعَةُ الشَّعْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْأَوَّلَ يَأْتِي مِنْهَا أَوَّلًا بِجُزْءٍ يَسِيرٍ
ثُمَّ يَأْتِي مَنْ بَعْدَهُ بِجُزْءٍ آخَرَ وَهَكَذَا إِلَى أَنْ تَكْمُلَ الصِّنَاعَاتُ
الشَّعْرِيَّةُ . وَتَكْمُلُ أَيْضًا أَصْنَافُهَا بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِ صِنْفٍ صِنْفٍ
مِنَ النَّاسِ لِلْإِتِّدَادِ أَكْثَرَ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الشَّعْرِ . مِثَالُ
ذَلِكَ أَنَّ النَّفُوسَ الَّتِي هِيَ قَاضِيَةٌ وَشَرِيقَةٌ بِالطَّبْعِ هِيَ الَّتِي تُنْشِئُ
أَوَّلًا صِنَاعَةَ الْمَدِيحِ أَغْنَى مَدِيحَ الْأَفْعَالِ الْجَمِيلَةِ . وَالنَّفُوسُ الَّتِي هِيَ
أَخْسُ مِنْ هَذِهِ هِيَ الَّتِي تُنْشِئُ صِنَاعَةَ الْهَجَاءِ أَغْنَى هِجَاءَ الْأَفْعَالِ
الْقَبِيحَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَضْطَرُّ الَّذِي مَقْصِدُهُ الْهَجَاءُ لِلشَّرَارِ وَالشُّرُورِ
أَنْ يَمْدَحَ الْأَخْيَارَ وَالْأَفْعَالِ الْقَاضِيَةَ لِيَكُونَ ظُهُورُ قُبْحِ الشُّرُورِ
أَكْثَرَ أَغْنَى إِذَا ذَكَرَهَا ثُمَّ ذَكَرَ بِأَزَائِهَا الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ . فَهَذَا مَا فِي
هَذَا الْقَصْرِ مِنَ الْأُمُورِ الْمَشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ وَسَائِرُ
مَا يُذَكَّرُ فِيهِ فَكُلُّهُ أَوْ جُلُّهُ مِمَّا يَخُصُّ أَشْعَارَهُمْ وَعَادَتَهُمْ فِيهَا وَذَلِكَ
أَنَّهُ يُذَكَّرُ أَصْنَافَ الصِّنَاعَاتِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ
وَكَيْفَ كَانَ مَنَشَأُ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِالطَّبْعِ وَآيُ جُزْءٍ هُوَ الْمُتَمَدِّمُ
مِنْهَا فِي الْكَوْنِ عَلَى آيِ جُزْءٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَصِنَاعَةِ
الْهَجَاءِ الْمَشْهُورَتَيْنِ عِنْدَهُمْ وَيَذَكَّرُ مَعَ هَذَا أَوَّلَ مَنْ أَبْتَدَأَ صِنَاعَةَ
صِنَاعَةٍ مِنْ تِلْكَ الصَّنَائِعِ الشَّعْرِيَّةِ الْمُتَعَادَةِ عِنْدَهُمْ وَمَنْ زَادَ فِيهَا
وَمَنْ كَمَّلَهَا بَعْدُ . وَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ يُثْنَى عَلَى أُوْمَيْرُوشَ ثَنَاءً كَثِيرًا
وَيَعْرِفُ أَنَّهُ الَّذِي أَعْطَى مَبَادِي هَذِهِ الصَّنَائِعِ . وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ

قَبْلَهُ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ عَمَلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا فِي صِنَاعَةِ الْهَجَاءِ وَلَا
 فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ الْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ . قَالَ وَالْأَنْقَصُ مِنَ
 الْأَشْعَارِ وَالْأَقْصَرُ هِيَ الْأَتَقَدِّمَةُ بِالزَّمَانِ لِأَنَّ الطَّبَاعَ أَسْهَلُ وَثَوَعًا
 عَلَيْهَا أَوْلَا . وَالْأَقْصَرُ هِيَ الَّتِي تَكُونُ مِنْ مَقَاطِعِ أَقْلٍ وَالْأَنْقَصُ هِيَ
 الَّتِي تَكُونُ مِنْ تَعَمَّاتٍ أَقْلٍ أَيْضًا . (قَالَ) وَالِدَلِيلُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ
 الْأَنْوَاعَ أَسْبَقَ إِلَى الْفُؤُسِ أَنَّ النَّاسَ عِنْدَ الْمُنَازَعَاتِ قَدْ يَرْتَجِلُونَ
 مَصَارِيعَ مِنْ هَذِهِ فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَذَلِكَ عِنْدَ الْخُرُوجِ . يُرِيدُ فِيمَا أَحْسِبُ
 مِثْلَ قَوْلِ الْقَائِلِ : لَا لَا لَا يُعْطِيهَا صَوْتُهُ . وَمِثْلَ قَوْلِهِ لَيْسَ هَذَا كَذَا
 مَا دَامَ بِهَا صَوْتُهُ فَإِنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الْمُرَاجَعَاتِ هِيَ مَصَارِيعُ مَوْزُونَةٌ
 ذَاتُ لَحْنٍ وَآمَّا الَّتِي هِيَ أَطْوَلُ وَأَتَمُّ فَإِنَّمَا ظَهَرَتْ بِأَخْرَجِ كُلِّحَالٍ
 فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ . (قَالَ) وَصِنَاعَةُ الْهَجَاءِ لَيْسَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا التَّحَاكَاةُ
 بِكُلِّ مَا هُوَ شَرٌّ وَقَبِيحٌ فَقَطْ بَلْ وَبِكُلِّ مَا هُوَ شَيْءٌ مُسْتَهْزَأٌ بِهِ
 أَيْ مَرْدُولٌ قَبِيحٌ غَيْرُ مُغْتَمٍّ بِهِ . (قَالَ) وَالِدَلِيلُ عَلَى أَنَّ الْأَسْتَهْزَاءَ
 يَحِبُّ أَنْ يَجْمَعَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ الْأَوْصَافَ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي وَجْهِ الْمُسْتَهْزِءِ
 هَذِهِ الْأَحْوَالُ الثَّلَاثَةُ أَغْنِي قَبَاحَةَ الْوَجْهِ وَهَيْئَةَ الْأَسْتِغْصَارِ وَقِلَّةَ
 الْأَكْتِرَابِ بِالْمُسْتَهْزَأِ بِهِ وَذَلِكَ بِخِلَافِ وَجْهِ الْغَاصِبِ أَغْنِي أَنَّ
 فِيهِ فُتْنًا وَاهْتِمَامًا وَتِلْكَ هِيَ حَالَةُ نَفْسِ الْغَاصِبِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي
 يُغْصَبُ عَلَيْهِ



البحث الرابع

في وزن الشعر وحقه

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَإِجَادُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ يَكُونُ تَعَلُّمُهَا فِي الْأَعَارِضِ الطَّوِيلَةِ لَا فِي الْقَصِيرَةِ وَلِذَلِكَ رَفَضَ الْمُتَأَخِّرُونَ الْأَعَارِضَ الْقَصَارَ أَيْ كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ صَنَائِعِ الشِّعْرِ. وَأَخَصُّ الْأَوْزَانِ بِهَا هُوَ الْوَزْنُ الْبَسِيطُ الْفَزِيرُ مُرَكَّبٌ وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا يُبْلَغَ فِيهَا مِنَ الطُّولِ إِلَى حَدٍّ يُسْتَكْرَهُ. وَاتَّخَذَ الْمُفْهَمُ جَوْهَرَ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ هُوَ أَنَّهَا نِسْبَةٌ وَمُحَاكَاةٌ لِلْعَمَلِ الْإِرَادِيِّ الْفَاضِلِ الْكَامِلِ الَّذِي لَهُ قُوَّةٌ كُفَيْتَةٌ فِي الْأُمُورِ الْفَاضِلَةِ لَا قُوَّةٌ جُزْئِيَّةٌ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأُمُورِ الْفَاضِلَةِ مُحَاكَاةٌ تَنْفَعِلُ لَهَا النُّفُوسُ أَنْفَعَالًا مُعْتَدِلًا بِمَا يُولَدُ فِيهَا مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْخَوْفِ وَذَلِكَ بِمَا يُحْيَلُ فِي الْفَاضِلِينَ مِنْ التَّقْبِي وَالنَّظَاقَةِ فَإِنَّ الْمُحَاكَاةَ إِنَّمَا هِيَ لِلْهَيْئَاتِ الَّتِي تَأْزِمُ الْفَضَائِلَ لَا لِلْمَلَكَاتِ إِذْ لَيْسَ يُمْكِنُ فِيهَا أَنْ يُحْيَلَ. وَهَذِهِ الْمُحَاكَاةُ بِالْقَوْلِ تَكْمُلُ إِذَا قُرِنَ بِهَا اللَّحْنُ وَالْوَزْنُ وَقَدْ تَوَجَّدَ مِنْ أَلْتَشْدِيدِ أَحْوَالٍ أُخْرَى خَارِجَةٌ عَنِ الْوَزْنِ وَاللَّحْنِ تَجْعَلُ الْقَوْلَ أَتَمَّ مُحَاكَاةً وَهِيَ الْإِشَارَاتُ وَالْأَخْذُ بِالْوُجُوهِ الَّتِي قِيلَ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ قَاوُلُ أَجْزَاءِ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ الشِّعْرِيَّةِ فِي الْعَمَلِ هُوَ أَنْ تُحْصَى

الْعَلَا فِي الشَّرِيفَةِ الَّتِي بِهَا يَكُونُ التَّخْيِيلُ . ثُمَّ تُكْسَى تِلْكَ الْعَلَا فِي
 الْحَنِّ وَالْوَزْنَ أَلْلَانَيْنِ لِلشَّيْءِ الْمَقُولِ فِيهِ . وَعَمَلُ الْحَنِّ فِي الشَّعْرِ
 هُوَ أَنَّهُ يُسَدُّ النَّفْسَ لِقَبُولِ خِيَالِ الشَّيْءِ الَّذِي يُقْصَدُ تَخْيِيلُهُ فَكَانَ
 الْحَنُّ هُوَ الَّذِي يُفِيدُ النَّفْسَ الْإِسْتِعْدَادَ الَّذِي بِهِ يُقْبَلُ الشَّيْءُ
 وَالْحَاكَاةُ لِلشَّيْءِ الْمَقْصُودِ تَشْبِيهُهُ . وَإِنَّمَا يُفِيدُ النَّفْسَ هَذِهِ الْهَيْئَةُ
 فِي نَوْعٍ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّعْرِ الْحَنُّ أَلْلَانِيٌّ لِذَلِكَ النَّوعِ مِنْ
 الشَّعْرِ بِنَعْمَاتِهِ وَتَأْلِيْفِهِ . فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّا نَحْدُ النِّعَمَ الْحَادَةَ ثَلَاثِيٍّ نَوْعًا
 مِنْ الْقَوْلِ غَيْرِ الَّذِي ثَلَاثِيَّتُهُ النِّعَمَاتُ الْقِيَالُ كَذَاكَ يَنْبَغِي أَنْ
 نَعْتَقِدَ فِي تَرْكِيبِ الْأَحَانِ وَهَيْئَاتِ الْحَدِيثِ وَالْأَقْصَاصِ الَّتِي
 تُكْمِلُ التَّخْيِيلَ الْمَوْجُودَ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ أَنْفُسَهَا مِنْ قَبْلِ
 هَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَعْنِي الشَّيْءَ وَالْوَزْنَ وَالْحَنَّ الَّتِي هِيَ اسْطِقْسَاتُ
 الْحَاكَاةِ هِيَ بِالْجُلَّةِ هَيْئَتَانِ إِحْدَاهُمَا هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى خُلُقٍ وَعَادَةٍ
 كَمَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامَ عَاقِلٍ أَوْ كَلَامَ غَضُوبٍ وَالثَّانِيَةُ هَيْئَةٌ تَدُلُّ
 عَلَى اعْتِقَادٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَيْئَةٌ مِنْ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ مُحَقِّقٌ بِالشَّيْءِ هَيْئَةٌ
 مِنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ شَاكٌ . فَالْقَاصُ وَالْحَدِيثُ فِي الدَّيْمِ يَنْبَغِي أَنْ
 تَكُونَ هَيْئَةُ قَوْلِهِ وَشَكْلُهُ هَيْئَةٌ مُحَقِّقٌ لَا شَاكٍ وَهَيْئَةُ جَاذٍ لَا هَازِلٍ
 وَالْقَصَصُ وَالْحَدِيثُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ الْقَاصُ وَالْحَدِيثُ وَهُوَ
 بِهَا تَيْنِ أَحَالَتَيْنِ هُوَ الْخَرَاةُ الَّتِي تَكُونُ بِالشَّيْءِ وَالْحَاكَاةُ وَأَعْنِي
 بِالْخَرَاةِ تَرْكِيبَ الْأُمُورِ الَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا بِحَسَبِ مَا هِيَ
 عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهَا أَعْنِي فِي الوجودِ وَإِمَّا بِحَسَبِ مَا أُعْتِيدَ فِي الشَّعْرِ

مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا. وَلِهَذَا قِيلَ لِلْأَقَاوِيلِ الشَّرْعِيَّةِ خُرَافَاتٌ
 قَائِصُاصُ وَالْمُحَدِّثُونَ بِالْجُمْلَةِ هُمْ الَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مَحَاسِنِ
 الْعَادَاتِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ
 سِتَّةَ : الْأَقَاوِيلُ الْخُرَافِيَّةُ وَالْعَادَاتُ وَالْوَزْنُ وَالْإِعْتِقَادَاتُ وَالنَّظَرُ
 وَالْحُجْنُ. وَالِدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شَعْرِيٍّ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى مُشَبَّهِ
 وَمُشَبَّهِ بِهِ وَالَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ الْحَاكَاةُ وَالْوَزْنُ وَالْحُجْنُ وَالَّذِي
 يُشَبَّهُ فِي الْمَذْحِ ثَلَاثَةٌ أَيْضًا : الْعَادَاتُ وَالْإِعْتِقَادَاتُ وَالنَّظَرُ أَعْنِي
 الْأَسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ الْإِعْتِقَادِ فَتَكُونُ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ
 ضَرْبُورَةً سِتَّةَ. وَإِنَّمَا كَانَتْ الْعَادَاتُ وَالْإِعْتِقَادَاتُ أَعْظَمَ أَجْزَاءِ
 الْمَدِيحِ لِأَنَّ صِنَاعَةَ الْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةُ مُحَاكِي النَّاسِ أَنْفُسَهُمْ
 مِنْ جِهَةِ مَا هُمْ أَشْخَاصُ نَاسٍ مَخْشُوسُونَ بَلْ إِنَّمَا مُحَاكِيهِمْ مِنْ
 قَبْلِ عَادَاتِهِمْ الْجَمِيلَةِ وَأَفْعَالِهِمْ الْحَسَنَةِ وَاعْتِقَادَاتِهِمْ السَّعِيدَةِ تَشْمَلُ
 الْأَفْعَالَ وَالْخُلُقَ وَلِذَلِكَ جُعِلَتِ الْعَادَةُ أَحَدَ أَجْزَاءِ السِّتَةِ وَاسْتَعْنِيَ
 بِذِكْرِهَا فِي التَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ الْأَفْعَالِ وَالْخُلُقِ. وَأَمَّا النَّظَرُ فَهُوَ أَبَاةُ
 صَوَابِ الْإِعْتِقَادِ وَكَانَهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ الْأَخْتِجَاجِ لِصَوَابِ
 الْإِعْتِقَادِ الْمَدْحُوحِ بِهِ. وَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا
 يُوجَدُ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّرْعِيَّةِ الْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ
 الْأَشْيَاءَ أَعْنِي الْعَادَاتِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ وَالْأَسْتِدْلَالَ بِالثَّلَاثَةِ الْأَصْنَافِ
 مِنْ الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا يُحَاكَى أَعْنِي الْقَوْلَ الْخَيَّلَ وَالْوَزْنَ وَالْحُجْنَ (قَالَ)
 وَأَجْزَاءُ الْقَوْلِ الْخُرَافِيِّ مِنْ جِهَةِ تَأْهُوِّ مُحَاكِي جُزْءَانِ ذَلِكَ أَنَّ

كُلِّ مُحَاكَاةٍ فَإِمَّا أَنْ تُوْطِئَ مُحَاكَاةَ إِحْكَامَةٍ ضِدِّهِ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى
 مُحَاكَاةٍ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِالْإِدَارَةِ وَإِمَّا أَنْ يُحَاكِي
 الشَّيْءَ نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَعْرِضَ مُحَاكَاةَ ضِدِّهِ وَهُوَ الَّذِي كَانَ
 يُسَمَّوْنَهُ بِالْإِسْتِدْلَالِ. وَالَّذِي يَتَذَلُّ مِنْ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ مِثْرَةً
 الْمُبْدِئِ وَالْأَسْ هُوَ الْقَوْلُ الْخَرَابِيُّ الْمُحَاكِي. وَالْجُزْءُ الثَّلَاثِي الْعَادَاتُ
 وَهُوَ الَّذِي تُسْتَعْمَلُ أَوَّلًا فِيهِ الْمُحَاكَاةُ أَعْنِي أَنَّهُ الَّذِي يُحَاكِي
 وَإِنَّمَا كَانَتْ الْحِكَايَةُ هِيَ الْعَمُودَ وَالْأَسَّ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لِأَنَّ
 الْإِلْتِذَاذَ لَيْسَ يَكُونُ بِذِكْرِ الشَّيْءِ الْمَقْصُودَ ذِكْرُهُ دُونَ أَنْ يُحَاكِي
 بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ الْإِلْتِذَاذُ بِهِ وَالْقَبُولُ لَهُ إِذَا حُوصِيَ. وَلِذَلِكَ
 لَا يَلْتَذُّ الْإِنْسَانُ بِالنَّظَرِ إِلَى صُورِ الْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ أَنْفُسِهَا وَيَلْتَذُّ
 بِمُحَاكَاةِهَا وَتَصَوُّرِهَا بِالْأَصْغَارِ وَالْأَلْوَانِ وَلِذَلِكَ اسْتَعْمَلَ النَّاسُ
 صِنَاعَةَ الزَّوْاقَةِ وَالْتَّصْوِيرِ. وَالْجُزْءُ الثَّلَاثُ لِصِنَاعَةِ الْمَدِيحِ أَعْنِي الثَّلَاثِي
 لِلثَّلَاثِي هُوَ الْإِعْتِقَادُ وَهَذَا هُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى مُحَاكَاةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ
 كَذَا أَوْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ كَذَا. وَذَلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ الْخُطَابَةُ مِنْ
 تَبْيِينِ أَنْ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ إِلَّا أَنَّ الْخُطَابَةَ تَتَكَلَّفُ
 ذَلِكَ بِقَوْلٍ مُقْنِعٍ وَالشَّعْرَ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ وَهَذِهِ الْمُحَاكَاةُ هِيَ أَيْضًا
 مَوْجُودَةٌ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ. (قَالَ) وَقَدْ كَانَ الْأَقْدَمُونَ مِنْ
 وَاضِعِي السِّيَاسَاتِ يَتَصَرُّونَ عَلَى تَمْكِينِ الْإِعْتِقَادَاتِ فِي النُّفُوسِ
 بِالْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِالطَّرِيقِ الْخُطْبِيَّةِ وَالْفَرْقِ
 بَيْنَ الْقَوْلِ الشَّعْرِيِّ الَّذِي يُحْثُّ عَلَى الْإِعْتِقَادِ وَالَّذِي يُحْثُّ عَلَى الْعَادَةِ.

إِنَّ الَّذِي يَحْتَثُّ عَلَى الْعَادَةِ يَحْتَثُّ عَلَى عَمَلِ شَيْءٍ أَوْ عَلَى الْهَرَبِ مِنْ شَيْءٍ وَالْقَوْلُ الَّذِي يَحْتَثُّ عَلَى الْإِعْتِقَادِ إِنَّمَا يَحْتَثُّ عَلَى أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ لَا عَلَى شَيْءٍ يُطْلَبُ أَوْ يَهْرَبُ عَنْهُ. وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ لَهُدِهِ الْأَجْزَاءُ أَغْنَى التَّالِي لِلثَّالِثِ هُوَ الْوِزْنُ وَمِنْ قَامِهِ أَنْ يَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْعَرَضِ قُرْبٌ وَزَنْ يُنَاسِبُ عَرَضًا وَلَا يُنَاسِبُ عَرَضًا آخَرَ. وَالْجُزْءُ الْخَامِسُ فِي الْمَرْتَبَةِ هُوَ اللَّحْنُ وَهُوَ اعْظَمُ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ تَأْثِيرًا وَأَفْعَالًا فِي النُّفُوسِ. وَالْجُزْءُ السَّادِسُ هُوَ النَّظَرُ أَغْنَى الْإِخْتِجَاجَ لِصَوَابِ الْإِعْتِقَادِ أَوْ صَوَابِ الْعَمَلِ لَا يَقُولُ إِقْنَاعِي فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُلَاحِظٍ. لَهُدِهِ الصَّنَاعَةُ بَلْ يَقُولُ مُحَاكٍ فَإِنَّ صِنَاعَةَ الشَّعْرِ لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى الْإِخْتِجَاجِ وَالْمُنَاطَرَةِ وَبِخَاصَّةِ الصَّنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَلِذَلِكَ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُ الْمَدِيحُ صِنَاعَةَ اتِّفَاقٍ وَالْأَخَذِ بِالْوُجُوهِ — مِمَّا تَسْتَعْمِلُهَا الْخَطَابَةُ. (قَالَ) وَالصَّنَاعَةُ الْعِلْمِيَّةُ الَّتِي تُعَرَّفُ بِمَاذَا تُعْمَلُ الْأَشْعَارُ وَكَيْفَ تُعْمَلُ أَمْ رِئَاسَةً مِنْ عَمَلِ الْأَشْعَارِ فَإِنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ تُوقَفُ مَا تَحْتَهَا مِنَ الصَّنَائِعِ عَلَى عَمَلِهَا هِيَ أَرَأْسُ مَا تَحْتَهَا



البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فَإِذَا قَدْ قِيلَ مَا هِيَ صِنَاعَةُ الْمَدِيحِ وَبِمَاذَا تَلْتَمِمْ وَكَمْ أَجْزَاؤُهَا
وَمَا هِيَ فَلْتَقَسِّرْ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا يَكُونُ حُسْنُ الْأُمُورِ الَّتِي
يَتَقَوَّمُ بِهَا الشَّعْرُ . فَإِنَّ أَقُولَ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ضُرُورِيٌّ فِي صِنَاعَةِ
الْمَدِيحِ وَفِي غَيْرِهَا وَهُوَ لَهَا بِمَثَرَةِ الْمَبْدَأِ وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمُورَ الَّتِي
تَتَقَوَّمُ مِنْهَا الصَّنَائِعُ صِنْفَانِ أُمُورٌ ضُرُورِيَّةٌ وَأُمُورٌ تَكُونُ بِهَا
أَتَمٌّ وَأَفْضَلُ فَتَقُولُ إِنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ صِنَاعَةُ الْمَدِيحِ مُسْتَرْفِيَّةً
إِعْطَايَاتٍ فِعْلِيًّا أَعْنِي أَنْ تَبْلُغَ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالْمُحَاكَاتَةِ الْعَالِيَةِ الَّتِي فِي
طِبَاعِهَا أَنْ تَبْلُغَهَا وَذَلِكَ يَكُونُ بِأَشْيَاءٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ
عَظَمٌ مَا مَحْدُودٌ تَكُونُ بِهِ كَلَامًا وَكَامِلَةً وَالْأَكْلُ وَالْكَامِلُ هُوَ مَا
كَانَ لَهُ مَبْدَأٌ وَوَسْطٌ وَآخِرٌ وَالْمَبْدَأُ قَبْلُ وَلَيْسَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ
مَعَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ لَهَا مَبْدَأٌ وَالْآخِرُ هُوَ مَعَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ لَهَا
آخِرٌ وَلَيْسَ قَبْلُ وَالْوَسْطُ هُوَ قَبْلُ وَمَعًا فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ
إِذَا كَانَ الْوَسْطُ فِي الْمَكَانِ قَبْلُ وَبَعْدُ فَإِنَّ الشُّجْعَانَ هُمُ الَّذِينَ
مَكَانُهُمْ فِي الْحَرْبِ مَا بَيْنَ مَكَانِ الْخَيْلِ وَالْمَتَهَوِّرِينَ وَهُوَ الْمَكَانُ
الْوَسْطُ وَكَذَلِكَ لِحْدُ الْفَاضِلِ فِي التَّرَكِيبِ هُوَ الْوَسْطُ وَهُوَ الَّذِي
يَتَرَكَّبُ مِنَ الْأَطْرَافِ وَلَا تَتَرَكَّبُ الْأَطْرَافُ مِنْهُ وَلَيْسَ يَجِبُ أَنْ

يَكُونُ الْمُتَوَسِّطُ وَسَطًا أَيَّ خِيَارًا فِي التَّرْكِيبِ وَالتَّارِيبِ فَقَطْ بَلْ
وَفِي الْقَدَارِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ
أَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَأَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ
وَسَطًا فِي الْقَدَارِ وَكَذَلِكَ يَجِبُ فِي الْجُمْلَةِ الْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ
بِقَدَرٍ مَحْدُودٍ لِأَنْ تَكُونَ بِأَيِّ عَظَمٍ اتَّفَقَ ذَلِكَ أَنَّ الْجُودَةَ فِي
الْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قَبْلِ شَيْئَيْنِ أَحَدُهُمَا التَّارِيبُ وَالثَّانِي الْقَدَارُ
وَلِهَذَا لَا يُقَالُ فِي الْحَيَوَانِ الصَّغِيرِ الْجُودَةُ بِالْإِصَابَةِ إِلَى الْفَخْصِ
نَوْعِهِ إِنَّهُ جَيِّدٌ. وَالْحَالُ فِي الْخَاطِبَةِ الشَّعْرِيَّةِ فِي ذَلِكَ كَالْحَالِ فِي
التَّعْلِيمِ الْبَرْهَانِيِّ أَعْنِي أَنَّ التَّعْلِيمَ إِنْ كَانَ قَصِيرَ الْمُدَّةِ لَمْ يَكُنْ
أَفْقَهُمْ جَيِّدًا وَلَا إِنْ كَانَ أَطُولَ مَا يَنْبَغِي لِأَنَّهُ يَلْحَقُ التَّعْلِيمُ فِي
ذَلِكَ التَّنْشِيطِ وَالْحَالِ فِي ذَلِكَ كَالْحَالِ فِي النَّظَرِ إِلَى الْخُصُوسِ
أَعْنِي أَنَّ النَّظَرَ إِلَى الْخُصُوسِ إِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا إِذَا كَانَ بَيْنَ
النَّازِلِ وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا إِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ جَدًّا وَلَا إِذَا
كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جَدًّا. وَالَّذِي يَعْزُضُ فِي التَّعْلِيمِ بَعَيْنُهُ يَعْزُضُ فِي
الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ أَعْنِي أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ
أَجْزَاءَ الْمَدِيحِ وَإِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُمَكِّنْ أَنْ تَحْفَظَ فِي ذِكْرِ
السَّامِعِينَ أَجْزَاءَهَا فَيَعْزُضُ لَهُمْ إِذَا سَمِعُوا الْأَجْزَاءَ الْآخِرَةَ أَنْ
يَكُونُوا قَدْ نَسُوا الْأَوَّلَى وَأَمَّا الْأَقَاوِيلُ الْخُطِيبِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي
الْمُنَاطَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدَرٌ مَحْدُودٌ بِالطَّبْعِ وَلِذَلِكَ أَحْتَاجُ النَّاسُ أَنْ
يُقَدِّرُوا زَمَانَ الْمُنَاطَرَةِ بَيْنَ الْخُصُومِ إِمَّا بِأَلَةٍ أَلْمَاءَ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

الْعَادَةُ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ إِذَا كَانُوا إِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ الصَّمَاتِ فَقَطْ وَإِمَّا
 بِتَجِيلِ الْأَيَّامِ كَالْحَالِ عِنْدَنَا إِذَا كَانَ الْمُعْتَمِدُ فِي الْخُصُومَاتِ عِنْدَنَا
 إِنَّمَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الْمُفْتَعَةُ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَلِذَلِكَ لَوْ كَانَتْ صِمَاعُهُ
 الْمَدِيحِ بِالْمُنَاطَرَةِ لَكَانَ يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى تَقْدِيرِ زَمَانٍ الْمُنَاطَرَةِ
 بِسَاعَاتِ الْمَاءِ أَوْ غَيْرِهَا. لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ
 يَكُونَ لِصِمَاعَةِ الشَّعْرِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ كَالْحَالِ فِي الْأَقْدَارِ الطَّبِيعِيَّةِ
 لِلْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ جَمِيعَ الْمُنْتَكَوَنَاتِ إِذَا لَمْ يَعْقُهَا
 فِي حَالِ الْكَوْنِ سَوْءُ النَّجْتِ صَارَتْ إِلَى عِظَمِ تَحْدُودِهَا بِطَبْعِهَا
 كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْحَالُ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي
 صِنْفِيهَا الْخَالِ كَأَنِّي يُنْقَلُ فِيهَا مِنَ الْقَبْدِ إِلَى الضَّدِّ أَوْ
 يُجَاكِي فِيهَا الشَّيْءُ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَلُ إِلَى ضِدِّهِ (قَالَ) وَمِمَّا
 يُحَسِّنُ بِهِ قَوَامُ الشَّعْرِ أَلَّا يُطَوَّلَ فِيهِ بِذِكْرِ الْأَشْيَاءِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي
 تَعْرِضُ لِلشَّيْءِ الْوَاحِدِ الْقُصُودِ بِالشَّعْرِ فَإِنَّ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ تَعْرِضُ
 لَهُ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ وَكَذَلِكَ يُوجَدُ لِلشَّيْءِ الْوَاحِدِ الْمَشَارِ إِلَيْهِ أَفْعَالٌ
 كَثِيرَةٌ (قَالَ) وَيُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ الشَّعْرَاءِ لَا يَحْفَظُونَ بِهَذَا بَلْ
 يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ وَلَا يَلْزَمُونَ غَرَضًا وَاحِدًا بَعِيْنَهُ مَا
 عَدَا أُوْمِيْرُوشَ. وَأَنْتَ تَجِدُ هَذَا كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ
 وَالتَّحْدِثِينَ وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ الْمَدَحِ أَعْنِي أَنَّهُ إِذَا عَنَّ لَهُمْ شَيْءٌ مَا مِنْ
 أَسْبَابِ الْمَدْحِ مِثْلُ سَيْفٍ أَوْ قَوْسٍ اسْتَعْلَوْا يُجَاكِيهِ وَاضْرَبُوا
 عَنْ ذِكْرِ الْمَدْحِ وَبِالْجُمْلَةِ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ الصِّمَاعَةُ تَنْسَبُ بِطَبِيعَةِ

أَعْنِي أَنْ تَكُونَ إِنَّمَا تَفْعَلُ جَمِيعَ مَا تَفْعَلُهُ مِنْ أَجْلِ غَرَضٍ وَاحِدٍ وَغَايَةٍ
وَاحِدَةٍ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَوَاجِبٌ أَنْ يَكُونَ التَّشْبِيهُ وَالْمُخَاكَاةُ
لِوَاحِدٍ وَمَقْصُودًا بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ وَأَنْ يَكُونَ لِأَجْزَائِهِ عِظَمٌ مُحَدَّدٌ
وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا مَبْدَأٌ وَوَسْطٌ وَآخِرٌ وَأَنْ يَكُونَ أَلَوْسَطُ أَفْضَلَهَا
فَإِنَّ أَلْمَوْجُودَاتِ الَّتِي وَجُودُهَا فِي التَّرْتِيبِ وَحُسْنِ التَّنْظَامِ إِذَا عَدِمَتْ
تَرْتِيبَهَا لَمْ يُوَجَدْ لَهَا أَلْفَعْلُ الْخَاصُّ بِهَا. (قَالَ) وَظَاهِرٌ أَيْضًا بِمَا قِيلَ مِنْ
مَقْصِدِ الْأَقْوِيلِ الشِّعْرِيَّةِ أَنَّ الْمُخَاكَاةَ الَّتِي تَكُونُ بِالْأُمُورِ الْمُخْتَرَعَةِ
الْمُكَادِبَةِ لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ الشَّاعِرِ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى أَمَثَالًا وَقِصَصًا مِثْلُ مَا
فِي كِتَابِ دِمْنَةِ وَكَلِيلَةٍ. لَكِنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِي الْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ أَوْ
الْمُسَكَّنَةِ الوجودِ لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ الَّتِي يُقْصَدُ الْهَرَبُ عَنْهَا أَوْ طَلِبُهَا أَوْ
مُطَابَقَةُ التَّشْبِيهِ لَهَا عَلَى مَا قِيلَ فِي فُصُولِ الْمُخَاكَاةِ. وَأَمَّا الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الْأَمَثَالَ وَالْقِصَصَ فَإِنَّ عَمَلَهُمْ غَيْرُ عَمَلِ الشُّعْرَاءِ وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعْمَلُونَ
تِلْكَ الْأَمَثَالَ وَالْأَحَادِيثَ الْمُخْتَرَعَةَ بِكَلَامٍ مَوْزُونٍ. وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّيْهَا
وَإِنْ كَانَا يَشْتَرِكَانِ فِي الْوِزْنِ فَاحَدُهُمَا يَتِمُّ لَهُ الْعَمَلُ الَّذِي قَصَدَهُ
بِالْخُرَاقَةِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَوْزُونَةً وَهُوَ التَّعَقُّلُ الَّذِي يُسْتَفَادُ مِنَ الْأَحَادِيثِ
الْمُخْتَرَعَةِ وَالشَّاعِرِ لَا يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُهُ عَلَى اِتِّمَامٍ مِنَ التَّخْيِيلِ إِلَّا
بِالْوِزْنِ فَالْقَاعِلُ لِلْأَمَثَالِ الْمُخْتَرَعَةِ وَالْقِصَصِ إِنَّمَا يَخْتَرَعُ اشْتِخَاصًا لَيْسَ
لَهَا وَجُودٌ أَصْلًا وَيَضَعُ لَهَا أَسْمَاءً وَأَمَّا الشَّاعِرُ فَإِنَّمَا يَضَعُ أَسْمَاءً لِأَشْيَاءٍ
مَوْجُودَةٍ وَرُبَّمَا تَكَلَّمُوا فِي الْكُلِّيَّاتِ وَلِذَلِكَ كَانَتْ صِنَاعَةُ
الشِّعْرِ أَقْرَبَ إِلَى الْفَلَسَفَةِ مِنْ صِنَاعَةِ اخْتِرَاعِ الْأَمَثَالِ وَهَذَا الَّذِي

قَالَ هُوَ بِحَسَبِ عَادَتِهِمْ فِي الشَّعْرِ الَّذِي يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَمْرَ
الطَّبِيعِيَّ لِلْأُمَمِ الطَّبِيعِيَّةِ (قَالَ) وَأَكْثَرُ مَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ
الْمَدِيحِ أَنْ تَكُونَ الْأَشْيَاءُ التَّحَايِكَاتُ أُمُورًا مَوْجُودَةً لَا أُمُورًا لَهَا
أَسْمَاءُ مُخْتَرَعَةٌ فَإِنَّ الْمَدِيحَ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ التَّحْرِيكِ إِلَى الْأَفْعَالِ
الْإِرَادِيَّةِ فَإِذَا كَانَتْ الْأَفْعَالُ مُمَكِّنَةً كَانِ الْإِقْتَاعُ فِيهَا أَكْثَرَ
وَقُوَّةً أَغْنِي التَّصَدِيقَ الشَّعْرِيَّ الَّذِي يُحْرِكُ النَّفْسَ إِلَى الطَّلَبِ
وَالْعَرَبِ. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الْغَيْرُ الْمَوْجُودَةُ فَلَيْسَ تَوْضَعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا أَسْمَاءُ
فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ إِلَّا أَقَلُّ ذَلِكَ مِثْلُ وَضْعِهِمُ الْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ
يَضَعُونَ أَفْعَالًا لَهُ وَيُحَاكُونَهَا وَيُطَنِّبُونَ فِي مَذْجِهِ. وَهَذَا النَّحْوُ مِنْ
التَّخْيِيلِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنَفْعَةٌ غَيْرُ يَسِيرَةٍ لِمُنَاسَبَةِ أَفْعَالِ
ذَلِكَ الشَّيْءِ الْمُخْتَرَعِ وَأَنْفِعَالَاتِهِ لِلْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَتَّبِعِي أَنْ
يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ فَإِنَّ هَذَا النَّحْوُ مِنَ التَّخْيِيلِ لَيْسَ بِمَا يُوَافِقُ
جَمِيعَ الطَّبَاعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ. وَمِنْ
جَيْدِ مَا فِي هَذَا الْبَابِ لِلْعَرَبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ الْحَثِّ عَلَى
الْأَفْضَلَةِ قَوْلُ الْأَعَشَى :

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونُ نَوَاطِرُ إِلَى ضَوْءِ نَارِ بِالْقِنَاعِ تَحْرِقُ
تُشَبُّ لِقْفُورَيْنِ يَضْطَلِبَانِيَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ الْأَنْدَى وَالْخَلْقُ
رَضِيعِي لَبَانِ ثَدْيِي أُمِّ تَحَاكَلَا بِأَسْحَمِ دَاجٍ عَوْضُ لَا تَتَفَرَّقُ
وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَظَاهِرٌ أَنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا يَكُونُ شَاعِرًا
بِعَمَلِ الْخَرَافَاتِ وَالْأَوْزَانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى عَمَلِ التَّشْبِيهِ

وَالْحَاكَاةُ وَهُوَ إِنَّمَا يَفْعَلُ التَّشْبِيهَ لِلْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ
وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يُحَاكِيَ الْأُمُورَ الَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطْ بَلْ
وَقَدْ يُحَاكِي الْأُمُورَ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُنَكِّةٌ الوجودَ وَهُوَ فِي
ذَلِكَ شَاعِرٌ لَيْسَ بِدُونِ مَا هُوَ فِي مُحَاكَاةِ الْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ مِنْ قَبْلِ
أَنَّهُ لَيْسَ مَانِعٌ يَمْنَعُ أَنْ تَوْجَدَ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ عَلَى مِثْلِ حَالِ الْأَشْيَاءِ
الَّتِي هِيَ الْآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ فِي التَّخْيِيلِ الشَّعْرِيِّ إِلَى مِثْلِ
هَذِهِ الْخَرَافَاتِ الْخَطَرَةِ وَلَا أَيْضًا يُحْتَاجُ الشَّاعِرُ الْمُفَلِّقُ أَنْ تَمَّ
مُحَاكَاتُهُ بِالْأُمُورِ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى نِفَاقًا وَآخِذًا
بِالْوُجُوهِ فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ الْمَوْهُونُ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَعْيَى
الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ شُعْرَاءُ وَلَيْسُوا شُعْرَاءَ . وَأَمَّا الشُّعْرَاءُ بِالْحَقِيقَةِ فَلَيْسَ
يَسْتَعْمِلُونَهُ إِلَّا عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يُقَابِلُوا بِهِ اسْتِعْمَالَ شُعْرَاءِ
الزُّورِ لَهُ وَأَمَّا إِذَا قَابَلُوا الشُّعْرَاءَ الْمُحِيدِينَ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ أَصْلًا . وَقَدْ
يُخْطَرُ الْمُفَلِّقُونَ فِي مَوَاضِعَ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِاسْتِعْمَالِ الْأَشْيَاءِ الْخَارِجَةِ عَنْ
عُمُودِ الشَّعْرِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَحْكَاكَ لَيْسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ
لِلْأَشْيَاءِ الْكَامِلَةِ الَّتِي يُمكنُ مُحَاكَاتُهَا عَلَى التَّمَامِ بَلْ لِأَشْيَاءٍ نَاقِصَةٍ
تَعْسُرُ مُحَاكَاتُهَا بِالْقَوْلِ فَيَسْتَعَانُ عَلَى مُحَاكَاتِهَا بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ
وَبِجَاسَةٍ إِذَا قَصَدُوا مُحَاكَاةَ الْأَعْتِقَادَاتِ لِأَنَّ تَخْيِيلَهَا يَعْسُرُ إِنْ كَانَتْ
لَيْسَتْ أَفْعَالًا وَلَا جَوَاهِرَ وَقَدْ تَمَّجُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ
بِالْمُحَاكَاتِ الشَّعْرِيَّةِ أَحْيَانًا كَانَتْهَا بِاتِّفَاقٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَهَا
فِعْلٌ مُعْجَبٌ إِذَا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ الَّتِي سَأَلْنَا أَنْ تَقَعَ بِاتِّفَاقٍ مُعْجَبَةٍ

(قَالَ) وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ تَكُونُ جُودَتِهَا فِي الْحَاكَاةِ
الْبَسِيطَةِ الْغَيْرِ الْمُتَنَفِّسَةِ وَكَثِيرٌ مِنْهَا إِنَّمَا تَكُونُ جُودَتِهَا فِي نَفْسِ
التَّشْبِيهِ وَالْحَاكَاةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْحَالَ فِي التَّشْبِيهِ كَالْحَالِ فِي الْأَعْمَالِ
فَكَمَا أَنَّ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يُنَالُ بِفِعْلٍ وَاحِدٍ بَسِيطٍ وَمِنْهَا مَا يُنَالُ
بِفِعْلٍ مُرَكَّبٍ كَذَلِكَ الْآخِرُ فِي الْحَاكَاةِ. وَالْحَاكَاةُ الْبَسِيطَةُ هِيَ
الَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَحَدُ نَوْعِي التَّخْيِيلِ أَغْنِي النَّوعَ الَّذِي يُسَمَّى
الْإِدَارَةَ أَوْ النَّوعَ الَّذِي يُسَمَّى الِاسْتِدْلَالَ. وَأَمَّا الْحَاكَاةُ
الْمُرَكَّبَةُ فَهِيَ الَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا الصَّنْفَانِ جَمِيعًا وَذَلِكَ إِمَّا بِأَنْ
يُبْتَدَأَ بِالْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْتَدَأَ
بِالِاسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى الْإِدَارَةِ وَالْإِعْتِمَادُ هُوَ أَنْ يُبْدَأَ
بِالْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ فَإِنَّهُ فَرْقٌ كَثِيرٌ بَيْنَ أَنْ
يُبْدَأَ أَوَّلًا بِالْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْقَلُ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْدَأَ بِالِاسْتِدْلَالِ
ثُمَّ يُنْقَلُ إِلَى الْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَأَغْنِي بِالْإِدَارَةِ مُحَاكَاةَ ضِدِّ
الْمَقْصُودِ مَذْحُهِ أَوَّلًا بِمَا يُنْقَرُ النَّفْسَ عَنْهُ ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى
مُحَاكَاةِ الْمَدْحِ نَفْسِهِ مَثَلًا إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَاكِيَ السَّعَادَةَ
وَأَهْلَهَا ابْتَدَأَ أَوَّلًا بِمُحَاكَاةِ الشَّقَاوَةِ وَأَهْلِهَا ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى مُحَاكَاةِ
أَهْلِ السَّعَادَةِ وَذَلِكَ بِضِدِّ مَا حَاكَى بِهِ أَهْلَ الشَّقَاوَةِ. وَأَمَّا
الِاسْتِدْلَالُ فَهُوَ مُحَاكَاةُ الشَّيْءِ قَطْعًا (قَالَ) وَأَحْسَنُ الِاسْتِدْلَالِ
مَا خُطِبَ بِالْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الِاسْتِدْلَالُ وَالْإِدَارَةُ فِي
الْأَشْيَاءِ الْغَيْرِ الْمُتَنَفِّسَةِ وَفِي الْمُتَنَفِّسَةِ لَا مِنْ جِهَةٍ مَا يُقْصَدُ بِهِ عَمَلٌ

أَوْ تَرَكْ بَلْ مِنْ جَهَّةِ الْخَيْلِ قَطَطَ أَغْنَى الْمَطَابَقَةَ . وَهَذَا النَّوعُ مِنْ
الْإِسْتِدْلَالِ الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ الْقَالِبُ عَلَى أَشْعَارِ الْعَرَبِ أَغْنَى
الْإِسْتِدْلَالَ وَالْإِدَارَةَ فِي غَيْرِ الْمُتَنَفِّسَةِ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:
كَمْ زَوْرَةٌ لَكَ فِي الْأَعْرَابِ خَافِيَةٌ

أَذْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زَوْرَةِ الذَّبِيبِ
أَزْوَرُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي

وَأَنْتَنِي وَيَاسُ الصُّبْحُ يُغْرِي بِي
فَإِنَّ أَلْبَيْتَ الْأَوَّلَ هُوَ اسْتِدْلَالٌ . وَالثَّانِي إِدَارَةٌ وَلَمَّا جَمَعَ
هَذَانِ الْبَيْتَانِ صَنَعْنِي الْمَحَاكَةَ كَمَا فِي غَايَةِ مِنَ الْحُسْنِ (قَالَ)
وَالْإِسْتِدْلَالُ الْإِنْسَانِي وَالْإِدَارَةُ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلَانِ فِي الطَّلَبِ
وَالْهَرَبِ وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ هُوَ الَّذِي يُثِيرُ فِي النَّفْسِ
الرَّحْمَةَ تَارَةً وَالْخَوْفَ تَارَةً وَهَذَا هُوَ الَّذِي نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ
الْمَدِيحِ الْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَلِيلَةِ وَهَجْوِ الْقَبِيحَةِ (قَالَ) فَهَذَانِ
الْجُزْءَانِ اللَّذَانِ أَخْبَرْنَا عَنْهُمَا جُزْءَا صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَهَاهُنَا جُزْءُ
ثَلَاثٍ وَهُوَ الْجُزْءُ الَّذِي يُولَدُ الْإِنْفِعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أَغْنَى أَنْفِعَالَاتِ
الْخَوْفِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحُزْنِ وَهُوَ يَكُونُ بِذِكْرِ الْمَصَائِبِ وَالرَّزَايَا
النَّازِلَةِ بِالنَّاسِ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هِيَ الَّتِي تَبْعَثُ الرَّحْمَةَ وَالْخَوْفَ
وَهُوَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْحَثِّ عَلَى الْأَفْعَالِ الَّتِي هِيَ مَقْصُودَةُ
الْمَدِيحِ عَنْدهُمْ

البحث السادس

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَأَمَّا أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ مِنْ بَابِ الْكِيفِيَّةِ فَقَدْ
تَكَلَّمْنَا فِيهَا . وَأَمَّا أَجْزَاؤُهَا مِنْ جِهَةِ الْكَمِّيَّةِ فَيَنْبَغِي أَنْ تَسْكُنَ
فِيهَا وَهُوَ يَذْكُرُ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَجْزَاءَ خَاصَّةً بِأَشْعَارِهِمْ وَالَّذِي يُوجَدُ
مِنْهَا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ فَهُوَ ثَلَاثَةٌ . الْجُزْءُ الَّذِي يَجْرِي عَنْدهُمْ مَجْرَى
الصَّدْرِ فِي الْخُطْبَةِ وَهُوَ الَّذِي فِيهِ يَذْكُرُونَ الدِّيَارَ وَالْأَنْثَارَ
وَيَتَغَزَّلُونَ فِيهِ وَالْجُزْءُ الثَّانِي الْمَذْهُوعُ . وَالْجُزْءُ الثَّلَاثُ الَّذِي يَجْرِي مَجْرَى
الْحَاشِيَةِ فِي الْخُطْبَةِ وَهَذَا الْجُزْءُ أَكْثَرُ مَا هُوَ عَنْدهُمْ إِمَّا دُعَاءُ
لِلْمَمْدُوحِ وَإِمَّا فِي تَقْرِيزِ الشَّعْرِ الَّذِي قَالَهُ وَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ أَشْهُرُ
مِنْ هَذَا الْآخِرِ وَلِذَلِكَ يُسَمُّونَ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ إِلَى
الثَّانِي أَسْطِطْرَادًا وَرُبَّمَا اتَّوَا بِالْمَدِيحِ دُونَ صَدْرِ . مِثْلُ قَوْلِ أَبِي
تَمَّامٍ :

لَهَا عَلَيَّا أَنْ نَقُولَ وَنَفْعَلَا

وَمِثْلُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعُودَا

وَلَا قَرَعَ مِنْ تَعْدِيدِ أَجْزَاءِ الشَّعْرِ عَنْدهُمْ (قَالَ) فَأَمَّا أَجْزَاءُ

صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ الَّتِي مِنْ جِهَةِ الْكِيفِيَّةِ وَالَّتِي مِنْ جِهَةِ الْكَمِّيَّةِ فَقَدْ

أَخْرَجْنَا بِهَا. فَأَمَّا مِنْ آيَةِ الْمَوَاضِعِ يُمَكِّنُ عَمَلُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ فَتَحْنُ
مُخَيَّرُونَ عَنْهَا بَعْدَ وَمُضِيفُونَ ذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ (قَالَ) وَيَتَبَنَّى كَمَا
قِيلَ أَنْ لَا يَكُونَ تَرْكِيبُ الْمَدَائِحِ مِنْ مُحَاكَاةٍ بَسِيطَةٍ بَلْ مَخْلُوطَةٍ
مِنْ أَنْوَاعِ الْإِسْتِدْلَالَاتِ وَأَنْوَاعِ الْإِدَارَةِ وَمِنْ الْحَاكَاةِ الَّتِي تُوجِبُ
الْإِنْفِعَالَاتِ الْحَقِيقَةَ الْخَرَكَةَ الْمَرْقَقَةَ لِلنُّفُوسِ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ
تَكُونَ الْمَدَائِحُ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا الْحُثُّ عَلَى الْفَضَائِلِ مُرَكَّبَةً مِنْ
مُحَاكَاةِ الْفَضَائِلِ وَمِنْ مُحَاكَاةِ أَشْيَاءَ مُحَوَّرَةٍ مُحْزَنَةٍ يُتَجَمَّعُ لَهَا وَهِيَ الشَّقَاوَةُ
الَّتِي تَلْحَقُ مِنْ عَدَمِ الْفَضَائِلِ لَا بِإِسْتِيْهَالِ ذَلِكَ أَنْ يَهْذِهِ الْأَشْيَاءُ
يَشْتَدُّ تَحْرُكُ النَّفْسِ لِقَبُولِ الْفَضَائِلِ فَإِنْ أُنْتَقَالَ الشَّاعِرُ مِنْ مُحَاكَاةِ
فَضِيلَةٍ إِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَضِيلَةَ أَوْ مِنْ مُحَاكَاةِ فَاضِلٍ إِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَاضِلٍ
لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَمَّا يَحْثُ الْإِنْسَانَ وَيُزَجِّجُهُ إِلَى فِعْلِ الْفَضَائِلِ إِذَا
كَانَ لَيْسَ يُوجِبُ حُبَّهَا زَائِدَةً وَلَا خَوْفًا. وَالْأَقَاوِيلُ الْمَدِيحِيَّةُ
يَجِبُ أَنْ يُوجَدَ فِيهَا هَذَانِ الْأَمْرَانِ وَذَلِكَ يَكُونُ إِذَا أُنتَقِلَ مِنْ
مُحَاكَاةِ الْفَضَائِلِ إِلَى مُحَاكَاةِ الشَّقَاوَةِ وَرَدَّاءَةِ النَّازِلَةِ بِالْأَفْضَلِ
أَوْ أُنتَقِلَ مِنْ هَذِهِ إِلَى مُحَاكَاةِ أَهْلِ الْفَضَائِلِ فَإِنَّ هَذِهِ الْحَاكَاةَ
تُرِقُّ النَّفُوسَ وَتَدْعِيهَا إِلَى قَبُولِ الْفَضَائِلِ وَأَنْتَ تَجِدُ أَكْثَرَ الْحَاكَاةِ
الْوَاقِعَةِ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ الَّذِي ذَكَرَ إِذْ
كَانَتْ تِلْكَ هِيَ الْأَقَاوِيلُ مَدِيحِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الْعَمَلِ بِمِثْلِ مَا وَرَدَ
مِنْ حَدِيثِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الَّتِي تُسَمَّى
مَوَاعِظَ (قَالَ) وَإِنَّمَا تَحْدُثُ الرَّحْمَةُ وَالرِّقَّةُ بِذِكْرِ حَدُوثِ الشَّقَاوَةِ

بَيْنَ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ الْوَاجِبِ. وَالْخَوْفُ إِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ
ذِكْرِ هَذِهِ مِنْ قَبْلِ تَحْيُلِ وَقُوعِ الضَّارِّ بَيْنَ هُوَ ذَوْنُهُمْ أَنِّي بِنَفْسِ
السَّامِعِ إِذَا كَانَ آخِرَى بِذَلِكَ وَالْحُزْنَ وَالرَّحْمَةَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هَذِهِ
مِنْ قَبْلِ وَقُوعِهَا بَيْنَ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ الْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا
يُوقِعُ فِي النَّفْسِ خَوْفًا مِنْ قَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَحُبَّةً قَوَائِبُ عَلَى مَنْ
يُرِيدُ أَنْ يَحْتَثَّ عَلَى الْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ
الَّتِي تَبْعَثُ الْحُزْنَ وَالْخَوْفَ وَالرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذَلِكَ الْمَدَامُحُ الْحَسَنُ
الْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ الشَّعْرِ هِيَ الْمَدَامُحُ الَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هَذَا التَّزَكِي
أَعْنِي ذِكْرَ الْفَضَائِلِ وَالْأَشْيَاءِ الْخُزْنَةِ الْخَوْفَ وَالْمُرُوقَةَ (قَالَ) وَلِذَلِكَ
يُخْطِئُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شِعْرِهِ هَذِهِ الْخُرَاقَاتِ
وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ فِي الْمَدَامُحِ أَنَّ صِنَاعَةَ الْمَدَامُحِ
الْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا الْمَغْضَبَاتُ وَالْعُصْبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبٍّ
شَدِيدٍ لِلْإِنْتِقَامِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَذِكْرُ الرِّزَايَا وَالْمَصَائِبِ
النَّازِلَةِ بِأَهْلِ الْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ قَوَاتِ
الْفَضَائِلِ قَامًا بِمَحَاكَاةِ التَّقَاتِصِ فِي الْمَدَامُحِ فَقَدْ يَدْخُلُهَا قَوْمٌ فِيهَا
لِأَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ الْإِدَارَةِ لَكِنَّهُ مُنَاسِبَةٌ دَمِ التَّقَاتِصِ لِصِنَاعَةِ
الْهَجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ الْمَدَامُحِ وَلِذَلِكَ لَا يَتَّبِعُنِي أَنْ يَكُونَ تَحْيِيئُهَا
فِي الْمَدَامُحِ عَلَى الْقَصْدِ الْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قَبْلِ الْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ
الشَّعْرُ الْمَدَامُحِي تَذَكُّرُ فِيهِ التَّقَاتِصِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ
الْأَعْدَاءِ الْمُبْغِضِينَ وَالْمَدَامُحِ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَفْعَالِ الْأَوْلِيَاءِ

وَالْأَصْدِقَاءُ. وَمَا عَدُوُّ الْعَدُوِّ أَوْ صَدِيقُ الصَّدِيقِ فَلَيْسَ يُذَكَّرُ لَا فِي الْمَذْحِ وَلَا فِي الدَّمِ إِذْ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عَدُوًّا (قَالَ) وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْخَرَافَةُ الْخُفِيَّةُ الْخُزْنَةُ تَخْرِجُهَا تَخْرُجَ مَا يَقَعُ تَحْتَ الْبَصَرِ يُرِيدُ مِنْ وَقُوعِ التَّصَدِيقِ بِهَا لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْخَرَافَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا أَوْ أُخْرِجَتْ تَخْرُجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفْعَلِ الْفِعْلَ الْمَقْصُودَ بِهَا وَذَلِكَ أَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ الْمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشْفِقُ لَهُ. وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنْ كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِالْقَلْصِ الشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ أَرَاذِلَ لِأَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِالطَّبَعِ لِأَحَدِ قَوْلَيْنِ إِمَّا قَوْلَ بُرْهَانِي وَإِمَّا قَوْلَ لَيْسَ بُرْهَانِيَا. وَهَذَا الصَّنْفُ الْخَاسِيسُ مِنَ النَّاسِ قَدْ عَدِمَ التَّحَرُّكُ عَنْ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي الْمَدَائِحِ مُحَاكَاتَ أَشْيَاءَ يُقْصَدُ بِهَا التَّعْجُبُ فَقَطُّ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مُحِيمَةً وَلَا مُخْزِنَةً وَأَنْتَ تَجِدُ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كَثِيرًا فِي الْمَكْتُوباتِ الشَّرْعِيَّةِ إِذَا كَانَتْ مَدَائِحُ الْفَضَائِلِ لَيْسَ تُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هَذَا فِي السُّنَنِ الْمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهَذَا الْفِعْلُ لَيْسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ الْمَدِيحِ بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ الشُّعْرِ أَيُّ لَذَّةٍ اتَّقَعَتْ لَكِنْ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا حُصُولُ الْإِلْتِذَاذِ بِتَخْيِيلِ الْفَضَائِلِ وَهِيَ اللَّذَّةُ الْمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ الْمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعْلُومٌ مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَفْعَلُ اللَّذَاتِ مُحَاكَاتَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْحَقَ عَنْ ذَلِكَ حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ. وَمَا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَلْحَقُ بِهَا إِلَّا لِتِلْذَاذِ مُحَاكَاتِهَا

الرَّحْمَةَ وَالْخَوْفَ فَإِنَّمَا يَقْدِرُ الْإِنْسَانُ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَلْتَمَسَ آيَ
الْأَشْيَاءِ هِيَ الصَّعْبَةُ مِنَ النَّوَائِبِ الَّتِي تُؤْبُ وَآيَ الْأَشْيَاءِ هِيَ
الْأَشْيَاءُ الَّتِي سِيرَةُ أَلَمِيَّةُ الَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُ عَنْهَا كِبَرُ حُزْنٍ وَلَا خَوْفٌ
وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هِيَ مَا يَنْزِلُ بِالْأَصْدِقَاءِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ
مِنْ قَبْلِ الْإِرَادَةِ مِنَ الرِّزَايَا وَالْمَصَائِبِ لَا مَا يَنْزِلُ بِالْأَعْدَاءِ
بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ يَحْزَنُ وَلَا يُشْفِقُ لِمَا يَنْزِلُ
مِنْ الشُّوءِ بِالْعَدُوِّ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا يَحْزَنُ وَيَخَافُ مِنَ الشُّوءِ النَّازِلِ
بِالصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَلْحَقُ عَنْ ذَلِكَ أَلَمٌ فَلَيْسَ
يَلْحَقُ مِثْلُ أَلَمِ الَّذِي يَلْحَقُ مِنَ الشُّوءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ الْمُحِبِّينَ
بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ مِثْلُ قَتْلِ الْأَخَوَةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَوْ قَتْلِ الْآبَاءِ الْآبَاءِ
أَوْ الْآبَاءِ الْآبَاءِ وَلِهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ كَانَ قَصَصُ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أُمِرَ فِي
أَنَّهُ فِي غَايَةِ الْأَقَاوِيلِ الْمَوْجِبَةِ لِلْحُزْنِ وَالْخَوْفِ (قَالَ) وَالْمَذْحُ إِنَّمَا
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِالْأَفْعَالِ الْقَاضِلَةِ الَّتِي تَصُدُّ عَنْ إِرَادَةِ وَعِلْمٍ
لِأَنَّ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يُفْعَلُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ وَمِنْهَا مَا يُفْعَلُ لَا عَنْ
إِرَادَةٍ وَلَا عِلْمٍ وَمِنْهَا يُفْعَلُ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ إِرَادَةٍ أَوْ عَنْ إِرَادَةٍ
لَا عَنْ عِلْمٍ وَكَذَلِكَ الْأَفْعَالُ مِنْهَا مَا تَكُونُ لِمَنْ يَعْرِفُ وَلِمَنْ لَا
يَعْرِفُ فَالْفِعْلُ إِذَا صَدَرَ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا إِرَادَةٍ فَلَيْسَ يَدْخُلُ فِي
بَابِ الْمَذْحِ وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ صَادِرًا مِنْ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِأَنَّهُ يَكُونُ
حِينَئِذٍ فِي الْأَكْثَرِ ذُوبَاتٍ أَدْخَلَ مِنْهُ فِي الشَّعْرِ وَلَا يَجِبُ أَنْ
يُحَاكِيَ. وَأَمَّا الْأَفْعَالُ الَّتِي لَا يُشَكُّ أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَةٍ وَمَعْرِفَةٍ

وَعَنْ مَعْرُوفِينَ فَمَا أَحْسَنَ الْأَسْتِدْلَالَ الَّذِي يَكُونُ فِي هَذِهِ
الْأَفْعَالِ (قَالَ) فَمَا فِي حُسْنِ قَوَامِ الْأُمُورِ الَّتِي تُرَكَّبُ مِنْهَا
الْأَشْعَارُ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا فَقَدْ قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَوْلًا
كَافِيًا فَمَا آيُ الْعَادَاتِ هِيَ الْعَادَاتُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُحَاكِيَ فِي
الْمَدْحِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ نَقُولَ فِيهَا فَنَقُولُ إِنَّ الْعَادَاتِ الَّتِي تُحَاكِيَ عِنْدَ
الْمَدْحِ أَحْيَدُ أَغْنَى الَّذِي يَحْسُنُ مَوْقِعُهَا مِنَ السَّامِعِينَ أَرْبَعَةٌ أَحَدُهَا
الْعَادَاتُ الَّتِي هِيَ خَيْرَةٌ وَفَاضِلَةٌ فِي ذَلِكَ الْمَمْدُوحِ فَإِنَّ الَّذِي يُؤْتَرُ
فِي النَّفْسِ هُوَ مُحَاكَاةُ الْأَشْيَاءِ الْحَقِّ الْمَوْجُودَةِ فِي ذَلِكَ الْمَمْدُوحِ
وَكُلُّ جِنْسٍ فِيهِ خَيْرٌ مَا وَإِنْ كَانَ فِيهِ أَشْيَاءٌ لَيْسَتْ خَيْرًا. وَالثَّانِيَةُ
أَنْ تَكُونَ الْعَادَاتُ مِنَ الَّتِي تَلِيْقُ بِالْمَمْدُوحِ وَتَضِلُّ لَهُ وَذَلِكَ أَنْ
الْعَادَاتِ الَّتِي تَلِيْقُ بِالْمَرْأَةِ لَيْسَتْ تَلِيْقُ بِالرَّجُلِ. وَالثَّلَاثَةُ أَنْ تَكُونَ
مِنَ الْعَادَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِيهِ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ فِيهِ مِنَ
الشَّبهِ وَالْمُوَافَقَةِ. وَالرَّابِعَةُ أَنْ تَكُونَ مُعْتَدَلَةً مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ الْأَطْرَافِ
وَأِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَوَائِدَ الرَّذَلَةَ لَيْسَ بِمَا يُمدَحُ بِهَا
وَكَذَلِكَ الْعَوَائِدُ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِالْمَمْدُوحِ وَإِنْ كَانَتْ جَيَادًا وَكَذَلِكَ
الْعَوَائِدُ اللَّائِقَةُ إِذَا لَمْ تُوجَدَ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمَكِّنُ فِيهَا مِنَ الشَّابَهَةِ
أَوْ لَمْ تُوجَدَ مُسْتَوَافَةً وَالْعَوَائِدُ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَتَدُلُّ عَلَى الْخُلُقِ الْحَسَنِ
الْفَاضِلِ مِنْهَا مَا هِيَ كَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ وَمِنْهَا مَا هِيَ كَذَلِكَ فِي
الْمَشْهُورِ وَمِنْهَا مَا هِيَ شَبِيهَةٌ بِهَذَيْنِ وَالْعَوَائِدُ أَلْيَدُ إِمَّا حَقِيقَةٌ
وَأَمَّا شَبِيهَةٌ بِالْحَقِيقَةِ وَإِمَّا مَشْهُورَةٌ أَوْ شَبِيهَةٌ بِالْمَشْهُورَةِ وَكُلُّ

هَذِهِ تَدْخُلُ فِي الْمَذْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ الْأَشْعَارِ
وَالْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِإِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْعَوَائِدِ الَّتِي وَقَعَ
الْمَذْحُ بِهَا كَالْحَالِ فِي خَوَاتِمِ الْخُطَبِ وَأَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ لَا يُورِدُ
فِي شِعْرِهِ مِنَ الْخُطَا كَاةِ الْخَارِجَةِ عَنِ الْقَوْلِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ
الْخُطَّابُونَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغُلُوِّ وَالْخُرُوجِ
عَنْ طَرِيقَةِ الشِّعْرِ وَلَا إِلَى التَّقْصِيرِ (قَالَ) وَالنَّشْبِ وَالْخُطَا كَاةُ هِيَ
مَدَامُجُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي فِي غَايَةِ الْفَضِيلَةِ فَكَمَا أَنَّ الْمَصُورَ الْحَادِثَ
يُصَوِّرُ الشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي الوجودِ حَتَّى أَنَّهُمْ قَدْ يَصَوِّرُونَ
الْغَضَابَ وَالْكَسَالَى مَعَ أَنَّهَا صِفَاتُ نَفْسَانِيَّةٍ كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ
يَكُونَ الشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاتِهِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى
يُحَاكِيَ الْأَخْلَاقَ وَأَحْوَالَ النَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذَلِكَ فِي شِعْرِ
لَاؤِمِيرُشَ قَالَهُ فِي عِفَّةٍ قُضِيَتْ عَرَضَتْ لِرَجُلٍ وَمِنْ هَذَا النُّحْوِ مِنْ
التَّخْيِيلِ أَعْنِي الَّذِي يُحَاكِي حَالَ النَّفْسِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ يَعْصِفُ
رَسُولُ الرُّومِ الْوَاصِلَ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

أَنَاكَ يَكَادُ الرَّأْسُ يَخْجُرُ عَنْقَهُ وَتَقْدُّ تَحْتَ الدُّعْرِ مِنْهُ الْفَاصِلُ
يُقَوِّمُ تَقْوِيمُ السِّمَاطِينَ مَشِيَهُ إِلَيْكَ إِذَا مَا عَوَّجَتْهُ الْأَقَاكِلُ
(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى الشَّاعِرِ أَنْ يَلْزِمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَمُحَاكَيَاتِهِ
الْأَشْيَاءَ الَّتِي جَرَتْ الْعَادَةُ بِاسْتِعْمَالِهَا فِي النَّشْبِ وَالْأَيْتَعْدَى فِي ذَلِكَ
طَرِيقَةُ الشِّعْرِ (قَالَ) وَأَنْوَاعُ الْأَسْتِذِلَالَاتِ الَّتِي تَجْرِي عَلَى هَذَا
النُّحْوِ أَعْنِي الْخُطَا كَاةِ الْحَارِيَّةِ تَجْرَى الْجُودَةُ عَلَى الطَّرِيقِ الصَّاعِي

أَنوَاعٌ كَثِيرَةٌ فَنَهَا أَنْ تَكُونَ الْحَاكَاةُ لِأَشْيَاءَ مَحْسُوسَةٍ بِأَشْيَاءَ
مَحْسُوسَةٍ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُوقَعَ الشَّكُّ لِمَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتُوْهِمُ أَنَّهَا هِيَ
لِأَشْئَرِ أَكْبَها فِي أَحْوَالِ مَحْسُوسَةٍ وَذَلِكَ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمْ لِبَعْضِ
ضَوَرِ الْكَوَاكِبِ سَرَطَانًا وَلِبَعْضِهَا ثُمْسِكَ الْحَرَبَةِ لِأَنَّهَا مِنْ جِهَةِ
الشَّكْلِ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَوَهَّمُ مَوْتَهُمْ أَنَّهَا هِيَ هِيَ . وَجُلُّ تَشْبِيهَاتِ
الْعَرَبِ رَاجِعَةٌ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ . وَلِذَلِكَ كَانَتْ حُرُوفُ التَّشْبِيهِ عِنْدَهُمْ
تَقْتَضِي الشَّكَّ وَكُلَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْمُتَوَهَّمَاتُ أَقْرَبَ إِلَى وَقْعِ
الشَّكِّ كَانَتْ أَتَمَّ تَشْبِيْهَا وَكُلَّمَا كَانَتْ أَبْعَدَ مِنْ وَقْعِ الشَّكِّ
كَانَتْ أَنْقَصَ تَشْبِيْهَا وَهَذِهِ هِيَ الْحَاكَاةُ الْبَعِيدَةُ وَيَنْبَغِي أَنْ
تُطْرَحَ وَذَلِكَ وَمِثْلُ قَوْلِ أَمْرِيءِ الْقَيْسِ فِي الْقَرْسِ :

كَأَنَّهَا هِرَاوَةٌ وَنَوَالِ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ :

إِذَا أَقْبَلْتُ قُلْتُ دَبَّاءَةٌ مِنْ الْخَضِرِ مَغْمُوسَةٌ فِي الْعُدُرِ
وَأِنْ أَدْبَرْتُ قُلْتُ أَثْفِيَّةٌ مُلَمَلَمَةٌ لَيْسَ فِيْهَا أُرٌّ
وَأِنْ كَانَ هَذَا أَقْرَبَ مِنَ الْأَوَّلِ لِأَنَّ فِيْهِ مُقَابَلَةً مَا . وَمِنْهَا
أَنْ تَكُونَ الْحَاكَاةُ لِأُمُورٍ مَعْنَوِيَّةٍ بِأُمُورٍ مَحْسُوسَةٍ إِذْ كَانَ لِتِلْكَ
الْأُمُورِ أَفْعَالٌ مُسَابِقَةٌ لِتِلْكَ الْمَعْنَوِيَّةِ حَتَّى تُوْهِمَ أَنَّهَا هِيَ مِثْلُ
قَوْلِهِمْ فِي الْإِلَهَةِ إِنَّهَا طَوْقُ الْعَنْقِ وَفِي الْإِحْسَانِ قَيْدٌ كَمَا قَالَ أَبُو
الطَّيِّبِ :

وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا

وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ إِمْرِئِ الْقَيْسِ:
قَيْدُ الْأَوَابِدِ هَيْكَلُ
وَمَا كَانَ مِنْ هَذِهِ أَيْضًا غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَلَا شَيْءٍ قَيْنَبِي أَنْ
يُطْرَحَ وَهَذَا كَثِيرًا مَا يُوْجَدُ فِي أَشْعَارِ الْخُدَّيْنِ وَبِحَاصَةِ فِي شِعْرِ
أَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَا تَسْقِي مَاءَ الْإِلَهِ
فَإِنَّ أَلْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْإِلَهِ . وَانْخَفُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ:
كُتِبَ الْمَوْتُ رَابِئًا وَحَلِيمًا
وَكَمَا أَنَّ الْبَعِيدَ الْوُجُودِ هَاهُنَا مُطْرَحٌ كَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
التَّشْبِيهُ بِالْحَسَنِ الْوُجُودِ مُطْرَحًا أَيْضًا وَأَنْ يَكُونَ التَّشْبِيهُ
بِالْأَشْيَاءِ الْفَاضِلَةِ . فَيُقَالُ تَشْبِيهُ الشَّرِيفِ بِالْحَسَنِ قَوْلُ الرَّاجِزِ:
وَالشَّمْسُ مِثْلُهُ وَلَا تَفْعَلْ فَكَانَهَا فِي الْأَفْقِ عَيْنُ الْأَحْوَلِ
وَكَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ يَدْحُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ:
وَقَدْ عَلِمَ الرُّومُ الشَّقِيقُونَ أَنَّهُمْ سَتَلِقَاهُمْ يَوْمًا وَتَلَقَى الدُّمُسْتَقَا
وَكَانُوا كَفَارًا وَشَوْشُوا خَلْفَ حَائِطٍ وَكَانَتْ كَسَنُورٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا
قَالَ وَهَذَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ الشَّعْرِ وَهِيَ الْأَشْعَارُ الَّتِي هِيَ فِي بَابِ
التَّضْدِيقِ وَالْإِفْتِنَاعِ أُدْخِلَ مِنْهَا فِي بَابِ التَّخْيِيلِ وَهِيَ أَقْرَبُ إِلَى
الْمَثَالَاتِ الْخَطِيئَةِ مِنْهَا إِلَى الْحَاكَاةِ الشَّعْرِيَّةِ وَهَذَا الْجِنْسُ الَّذِي
ذَكَرَهُ مِنَ الشَّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ:
لَيْسَ الشَّكْلُ فِي الْعَيْنَيْنِ كَالشَّكْلِ

وَقَوْلِهِ :

فِي طَلَعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ دُحُلٍ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ أَنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوِ الْقَبْرِ
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نَفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَنَاءَ لَمْ يَغْلُهُ الْمَهْرُ
(قَالَ) وَالنَّوْغُ الثَّلَاثُ مِنَ الْخَلَاكَةِ هِيَ الْخَلَاكَةُ الَّتِي تَقَعُ

بِالتَّذَكُّرِ وَذَلِكَ أَنْ يُورِدَ الشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلَ أَنْ
يَرَى الْإِنْسَانَ حَطَّ إِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَحْزَنُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مَيِّتًا أَوْ
يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ حَيًّا وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ كَثِيرًا
مِثْلُ قَوْلِ مُتِمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ أَلْوَى وَالْأَدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ إِنْ أَلَّاسَى يَبْعَثُ الْأَسَى دَعَوْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَا لَكَ
وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسِ الْجَنْجُونِ :

وَدَاعِ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى فَهَيْجَ أَخْزَانَ الْقَوَادِ وَمَا يَذْرِي
دَعَا بِأَنَمٍ لَيْلِي غَيْرَهَا فَكَا نَمَا

أَطَارَ بِلَيْلِي طَائِرًا كَانَ فِي عَمْدَرِي
وَمِنْ هَذَا النَّوْغِ قَوْلُ الْحَسَنَاءِ :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا وَاذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ
وَقَوْلُ الْهَذَلِيِّ :

أَبَى الصَّبْرُ إِنِّي لَا يَزَالُ يَهَيِّجُنِي مَمِيتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلٌ
إِذَا مَا أَبْيَاضُ الصُّبْحِ أَنْتَسُخُوهُ يُكَادُونِي جَحْمٌ عَلَيَّ ثَقِيلٌ
وَهَذَا النَّوعُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَمِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ تَذَكُّرُهَا
الْأَجَبَةُ بِالْأَيَّامِ وَالْأَظْلَالِ كَمَا قَالَ :

قِفَا بَنَكٍ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
وَيَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ مِنْ
تَذَكُّرِ الْأَجَبَةِ بِالْخَيَالِ وَإِقَامَتِهِ قَامَ الْتَحْيِيلِ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ :
وَأَتِي لَا أَسْتَقْشِي وَمَا بِي نَفْسَةٌ لَعَلَّ حَيَالًا مِنْكَ يَلْقَى حَيَالِيَا
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلِّي أُحَدِّثُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السِّرِّ خَالِيَا
وَتَصْرَفُ الْعَرَبُ وَالْمُحَدِّثِينَ فِي الْخَيَالِ مُتَقَنِّينَ وَأَحْكَامَ أَسْتَعْمَالِهِمْ
لَهُ كَثِيرَةٌ وَلِذَلِكَ يُشَبِّهُهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَوَاضِعِ الشَّعْرِيَّةِ الْخَاصَّةِ
بِالنَّسِيبِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي الرِّثَاءِ كَمَا قَالَ الْبُخْتَرِيُّ :

خَلَا نَظْرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ فَقَدْ عَلَى فَقْدِ
(قَالَ) وَأَمَّا النَّوعُ الرَّابِعُ مِنَ الْمُحَاكَاةِ فَهُوَ أَنْ يُذَكَّرَ أَنَّ
شَخْصًا مَا شَبَّهَهُ بِشَخْصٍ مِنْ ذَلِكَ النَّوعِ بِعَيْنِهِ وَهَذَا التَّشْبِيهُ لَا
يَكُونُ إِلَّا فِي الْخَلْقِ أَوْ الْخَلْقِ بِمِثْلِ قَوْلِ الْقَائِلِ جَاءَ شَيْءٌ يُوسِفَ
وَلَمْ يَأْتِ إِلَّا فَلَانٌ وَمِنْ هَذَا قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَاتِلًا
وَالْتَّضَرِّجُ بِالتَّشْبِيهِ خِلَافَ التَّشْبِيهِ فَإِنَّ التَّشْبِيهِ هُوَ إِيقَاعُ شَيْءٍ
وَالْتَّضَرِّجُ بِالتَّشْبِيهِ بَيْنَ أَثْنَيْنِ هُوَ تَحْقِيقُ لَوْجُودِ الشَّيْءِ وَهُوَ الْغَايَةُ فِي

مُطَابَقَةِ التَّخْيِيلِ أَعْنِي إِذْ قِيلَ شَيْئُهُ ثُلَانٍ (قَالَ) وَالتَّنَوُّعُ الْخَامِسُ
هُوَ الَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ السُّوفِسْطَائِيُّونَ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَهُوَ الثَّلَاثُ الْكَاذِبُ
وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَالتَّخْدِثِينَ وَمِثْلُ قَوْلِ النَّابِغَةِ:
تَقْدُ السَّلَوقِيَّ الْأَضَافَ تَنْجِيهُ وَتُوقِدُ بِالضَّفَّاحِ نَارَ الْحَبَابِ
وَقَوْلِ الْآخَرِ:

فَلَوْ لَا الرِّيحُ أَسْمِعَ مَنْ يَخْجِرُ صَلِيلَ الْبَيْضِ تُتَشَرَّعُ بِالذُّكُورِ
وَهَذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هَذَا قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ:
عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ
وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ:
لَوْ أَلْفَاكَ الدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَيْرَهُ لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ الدَّوَّرَانِ
وَمِنْ هَذَا اللَّابِ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ:
مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفَ لَوْ دَبَّ مُحُولٌ

مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الْأَتَبِ مِنْهَا لَا تَمُوتُ
وَهَذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجِدُ فِي
الْكِتَابِ الْفَرِيزِ مِنْهُ شَيْئًا إِذْ كَانَ يَتَذَلُّ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ مِنْ
الْقَوْلِ أَعْنِي الشِّعْرَ مَثَلَهُ الْكَلَامُ السُّوفِسْطَائِيَّ مِنَ الْبُرْهَانِ
وَلَكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ الشُّعْرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ
الْمُتَنَبِّئِيِّ:

وَأَلَى أَهْتَدَى هَذَا الرَّسُولُ بِأَرْضِهِ
وَمَا سَكَنْتَ مَذْهَبَ سِرَتِ فِيهَا الْقَسَاطِلُ

وَمِنْ آيٍ مَاءٌ كَانَ يَنْتَقِي جِيَادَهُ
وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَرْجٍ الدِّمَاءُ الْمَاهِلُ

وَقَوْلُهُ :

لَيْسَنَ الْوُشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ وَلَكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ الْجَمَالَ
وَضَفَرْنَ الْفَدَايِرَ لَا لِحُنْنَ وَلَكِنْ خَفْنَ فِي الشَّعْرِ الضَّلَالَ
وَهَاهُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْبِلُهُ الْعَرَبُ وَهُوَ إِقَامَةُ
الْجَمَادَاتِ مُقَامَ النَّاطِقِينَ فِي مُحَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ إِذَا كَانَتْ فِيهَا
أَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى النُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَاذِ لَمَّا رَأَيْتُهُ وَكَرَّرَ الرَّحْمَانُ حِينَ رَأَى
فَقُلْتُ لَهُ آيْنَ الَّذِينَ عَهَدْتُهُمْ حَوَالِكَ فِي أَمْنٍ وَخَفَضِ زَمَانٍ
فَقَالَ مَضَوْا وَاسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْخَدَّائِ
وَمِنْ هَذَا أَلْبَابُ مُحَاطَبَتِهِمْ الدِّيَارَ وَالْأَطْلَالَ وَمُجَاوَبَتُهَا لَهُمْ
كَقَوْلِ ذِي الرُّمَّةِ :

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أُبْنُهُ تُكَلِّمُنِي أَنْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ

وَقَوْلِ عَنَتَرَةَ :

أَعْيَاكَ رَنَمُ الدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى تَكَلَّمَ كَأَلَا صَمِّ الْأَنْعَمِ
يَا دَارَ عَبْلَةٍ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي وَبَعِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةٍ وَأَسْلَمِي
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُشْبِهُ هَذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرْتُ هُوَ
هَذَا الْمَوْضِعَ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ وَذَكَرْتُ أَنَّ أُوْمَيْرُوشَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ
كَثِيرًا (قَالَ) وَالْإِسْتِدْلَالُ الْفَاضِلُ وَالْإِدَارَةُ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ

الْإِرَادِيَّةِ وَكَثُرَ مَا يُوجَدُ هَذَا التَّوَعُّدُ مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ فِي الْكِتَابِ
الْعَزِيزِ أَعْنِي فِي مَدْحِ الْأَفْعَالِ الْفَاضِلَةِ وَذَمِّ الْأَفْعَالِ الْفَاقِلَةِ فَاضِلَةٌ
وَهُوَ قَلِيلٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ. وَمِثَالُ الْإِدَارَةِ فِي الْمَدْحِ قَوْلُ
الْقُرْآنِ : ضَرَبَ اللَّهُ شَلًّا كَلِمَةً طَيِّبَةً إِلَى قَوْلِهِ : مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ .
وَمِثَالُ الْإِسْتِدْلَالِ : قَوْلُهُ : كَيْفَ حَبَّةٌ أَنْتَ سَبْعَ سَنَابِلٍ الْآيَةِ .
(قَالَ) وَاجَادَةُ الْقَصَصِ الشَّعْرِيِّ وَالْبُؤُغُ بِهِ إِلَى غَايَةِ التَّمَامِ
إِنَّمَا يَكُونُ مَتَى بَلَغَ الشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ الشَّيْءِ أَوْ الْقَضِيَّةِ
الْوَاقِعَةِ الَّتِي يَصِفُهَا مَبْلَغًا يُرِي السَّامِعِينَ لَهُ كَأَنَّهُ مُحْسُوسٌ وَمَنْظُورٌ
إِلَيْهِ وَيَكُونُ مَعَ هَذَا ضِدُّهُ غَيْرَ ذَاهِبٍ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ أَلَوْضَفِ
وَهَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي شَعْرِ الْفُحُولِ وَالْمُفْلِقِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ لَكِنْ إِنَّمَا
يُوجَدُ هَذَا النَّحْوُ مِنَ التَّخْيِيلِ لِلْعَرَبِ إِمَّا فِي أَفْعَالٍ غَيْرِ عَفِيفَةٍ وَإِمَّا
فِيمَا الْقَصْدُ مِنْهُ مُطَابَقَةُ التَّخْيِيلِ فَقَطْ فَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي
الْفُجُورِ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

سَمَوْتُ إِيَّاهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُو حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالٍ
فَقَالَتْ سَبَاكَ اللَّهُ إِنَّكَ فَاضِحِي أَلَسْتَ تَرَى السَّمَارَ وَالنَّاسَ أَحْوَالِي
فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْيِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي
وَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ بِمَا الْقَصْدُ بِهِ مُطَابَقَةُ التَّشْبِيهِ فَقَطْ
قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ يَصِفُ النَّارَ :

وَسَقَطَ كَعَيْنِ أَلَيْكَ عَاوَزَتْ ضَحْبَتِي

أَبَاهَا وَهَيَّأْنَا لِمَوْقِعِهَا وَكُرَا

قُلْتُ لَهَا أَرْفَعُهَا إِلَيْكَ وَأَخِيهَا
بِرُوحِكَ وَأَقْتَنُهَا قُتَّةَ قَدَرًا
وَوَظَاهِرُهَا مِنْ يَابِسِ الشَّخْتِ وَأَسْتَعِينَ

عَلَيْهَا الصَّبَا وَأَجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرًا
وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَغْفِ الْأَحْوَالِ أَلْوَاقِعَةُ وَمِثْلُ
الْخُرُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتِمَّدُحُونَ بِهِ وَأَلْتَسِّي أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ
هَذَا الصِّنْفُ مِنَ التَّخْيِيلِ وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذَلِكَ يُحْكِي عَنْهُ
أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ أَلْوَقَاعَ الْآتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ الدَّوَلَةِ
وَأَجَادَةُ هَذَا النُّوعِ مِنَ التَّلْثِيهِ يَتَأْتِي بِأَنْ يُخْضَلَ لِلْإِنْسَانِ أَوْ لَا جَمِيعُ
الْمَعَانِي الْآتِي فِي الشَّيْءِ الَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يَرْكَبُ عَلَى تِلْكَ
الْمَعَانِي الْأَجْزَاءَ الثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ الشَّعْرِ أَعْنِي التَّخْيِيلَ وَالْوِزْنَ
وَاللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ الْأَسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا
أَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى كَثَرَتِهَا وَخِلَافِ الْأَمْرِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ
فِيهِ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ
أَقْرَبَ الْأَشْيَاءِ شَبْهًا بِالرِّبَاطِ الْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ الْجُزْءُ الَّذِي
يُسَمَّى عِنْدَنَا الْأَسْطِرَادَ وَهُوَ رِبْطُ جُزْءِ النَّسِيبِ وَبِالْجُمْلَةِ صَدْرُ
الْفَصِيدَةِ بِالْجُزْءِ الْمَدِيحِيِّ. وَالحُلُّ تَفْصِيلُ الْجُزْئَيْنِ أَحَدَهُمَا مِنَ الْآخَرِ
أَيُّ يُوْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا. وَكَثُرَ مَا يُوجَدُ الرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ الْمُخَدِّثِينَ
وَذَلِكَ وَمِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

عَامِي وَعَامِ الْعَيْسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورَةٍ وَتَوْقَةٍ صَيَّوْدٍ

حَتَّى أَغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا
لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ
هَيَاتَ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ
حَتَّى تُنَاجِيَ بِأَحَدِ الْخَمُودِ
وَكَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تَرْبِيهَا فَقُلْتُ لَهَا

مِنْ أَيْنَ جَالَسَ هَذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا

فَأَسْتَضْمِكْتَ ثُمَّ قَالَتْ كَأُلْغِيثٍ يُرَى

لَيْثُ الشَّرَى وَهُوَ مِنْ عَجَلٍ إِذَا انْتَسَبَا

وَأَمَّا الْحُلُّ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ:

دَعْ دَا وَعَدِ الْقَوْلَ فِي هَرَمٍ

(قَالَ) وَأَنْوَاعُ الْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ الَّتِي

تَقْدَمُ أَحَدُهَا الْإِدَارَةُ. وَالثَّانِي الْأَسْتِدْلَالُ. (الثَّلَاثُ الْأَنْفَعَالُ

(قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ الْجَحِيمِ قَانَ هَذِهِ مُخْرَجَةٌ مُفْرَعَةٌ.

وَالرَّابِعُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هَذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثَتِهَا وَإِمَّا مِنْ اثْنَيْنِ مِنْهَا

وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هَذِهِ الْمَدَائِحِ الْأَرْبَعَةِ لِلْفَصْلِ

الْإِرَادِيِّ الْفَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ

فِي الْكِتَابِ الزَّيْدِ كَثِيرًا (قَالَ) وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يُجِيدُ الْقَوْلَ

فِي الْقَصَائِدِ الطُّوَلِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ الْأَشْعَارَ الْقِصَارَ وَالْقَصَائِدَ

الْقَصِيرَةَ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا الْمُقْطَعَاتِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا

كَانَ الشَّاعِرُ الْمُجِيدُ هُوَ الَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِجَوَائِصِهِ وَعَلَى كُنْهِهِ

وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِالْكَثَرَةِ وَالْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ شَيْءٍ مِنْ

الْأَشْيَاءُ الْمَوْضُوعَةُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ التَّخْيِيلُ الْفَاضِلُ هُوَ الَّذِي لَا
يَتَجَارَزُ خَوَاصَّ الشَّيْءِ وَلَا حَقِيقَتَهَا فَمَنْ النَّاسُ مَنْ لَقَدْ اعْتَادَ أَوْ مِنْ
فِطْرَتِهِ مُعَدَّةً نَحْوَ تَخْيِيلِ الْأَشْيَاءِ الْقَلِيلَةِ الْخَوَاصِّ فَهَؤُلَاءِ تَجُودُ
أَشْعَارُهُمْ فِي الْمَقْطَعَاتِ وَلَا تَجُودُ فِي الْقَصَائِدِ وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ هُوَ
عَلَى ضِدِّ هَؤُلَاءِ وَهُمْ الْمُقْصِدُونَ كَالْمُتَنَبِّئِ وَحَبِيبٍ وَهُمْ الَّذِينَ
اعْتَادُوا الْقَوْلَ فِي الْأَشْيَاءِ الْكَثِيرَةِ الْخَوَاصِّ أَوْ هُمْ بِفِطْرَتِهِمْ مُعَدُّونَ
لِحَاكِمَتِهَا أَوْ اجْتَمَعَ لَهُمُ الْأَمْرَانِ جَمِيعًا (قَالَ) وَمِنْ التَّخْيِيلَاتِ وَالْعَلَامَاتِ
مَا يُنَاسِبُ الْأَوْرَانَ الطَّوِيلَةَ وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ الْقَصِيرَةَ وَرَبَّمَا كَانَ
الْوَزْنُ مُنَاسِبًا لِلْمَعْنَى غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلتَّخْيِيلِ وَرَبَّمَا كَانَ الْأَمْرُ
بِالْعَكْسِ وَرَبَّمَا كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِكِلَيْهِمَا وَآمِثَةٌ هَذِهِ بِمَا يَعْسُرُ
وُجُودُهَا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ أَوْ تَكُونُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِيهَا إِذَا
أَعَارِضُهُمْ قَلِيلَةٌ الْقَدَرِ (قَالَ) وَقَدْ يُضَافُ إِلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا قِيَامُ
الْأَشْعَارِ أُمُورٌ مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ الْهَيْئَاتُ الَّتِي تَكُونُ فِي سَمَوَاتِ الشُّعْرَاءِ
وَسُورَتِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَكَثُرَ مَا تَوَجَّدَ هَذِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْمُسْتَعْمِلِينَ
لَهَا فِي الْأَشْعَارِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ مِثْلُ الَّتِي تُقَالُ فِي أَهْلِ الْجَحِيمِ وَغَيْرِهِمْ
وَلَمَّا كُنَّا قَدْ قُلْنَا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا الْأَشْعَارُ الَّتِي هِيَ
أَجْزَاؤُهَا بِالْحَقِيقَةِ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ فِي هَذِهِ أَيْضًا فَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ
الْأَفْعَالُ بِالْجُمْلَةِ هِيَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا الْأَقْوَالُ الَّتِي تُسَمَّى الْإِنْفِعَالِيَّةِ
وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي إِذَا اسْتُعْمِلَتْ هَذِهِ أَنْ تُسْتَعْمَلَ مَعَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ. وَذَلِكَ
أَنَّ هَذِهِ تَرَى الْإِنْفِعَالَ الَّذِي يُقْصَدُ بِالْقَوْلِ تَشْبِيهُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

وَأَسْتَقِنَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي كِتَابِ الْخَطَايَةِ الْأَقَاوِيلُ الْإِنْفَعَالِيَّةُ الْخَطِيئَةُ
وَضُرُوبُ الْإِنْفَعَالَاتِ الَّتِي تَفْعَلُهَا هَذِهِ الْأَقَاوِيلُ وَلِذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ
الْأَفْعَالُ أَحْصَى بِكِتَابِ الْخَطَايَةِ مِنْهَا بِكِتَابِ الشَّعْرِ. وَالْإِنْفَعَالَاتِ الَّتِي
تَثَبَّتْ بِالْقَوْلِ الْخَطِيئَةِ أَوْ الشَّعْرِيِّ هِيَ الْخَوْفُ وَالْقَضْبُ وَالرَّحْمَةُ وَالْتَعْظِيمُ
وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي عُدَّتْ فِي كِتَابِ الْخَطَايَةِ. وَهُوَ طَاهِرٌ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ
هَـ هُنَا أَقْوَى الْأُتُوجِبُ هَذِهِ الْإِنْفَعَالَاتِ كَذَلِكَ هَـ هُنَا هَيْئَاتُ وَأَشْكَالُ
تَدُلُّ مِنْ أَلْتَكَلِّمَ عَلَى حُضُورِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُوجِبُ هَذِهِ الْإِنْفَعَالَاتِ
وَأَنهَا قَدْ وَقَعَتْ لَوْ قُوعِ الْأَشْيَاءِ الْفَاعِلَةِ لَهَا فَيَفْعَلُ لِذَلِكَ الْبَاطِلُ هَـ فَهَذِهِ
الْصُّورُ وَالْهَيْئَاتُ إِنَّمَا يَلْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي الشَّعْرِ إِنْ أُسْتَعْمِلَتْ مَعَ
الْأَقَاوِيلِ الْإِنْفَعَالِيَّةِ الشَّعْرِيَّةِ وَذَلِكَ إِمَّا فِي التَّعْظِيمِ وَإِمَّا فِي التَّضْغِيرِ
وَإِمَّا فِي الْأَشْيَاءِ الْخُزْنَةِ الْخَوْفَةِ إِذْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ هِيَ الَّتِي
تُسْتَعْمَلُ صِنَاعَةُ الْمَدِيحِ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْإِنْفَعَالِيَّةِ عَلَى مَا سَلَفَ. وَإِنَّمَا
تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ مَعَ الْأَقَاوِيلِ الْإِنْفَعَالِيَّةِ الَّتِي لَيْسَتْ صَادِقَةً أَعْنِي الَّتِي
لَيْسَتْ هِيَ طَاهِرَةٌ التَّخِيلِ. وَإِنَّمَا الْأَقَاوِيلُ الْإِنْفَعَالِيَّةُ الَّتِي هِيَ طَاهِرَةٌ
التَّخِيلِ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْعَرَضِ الْمَقُولِ فِيهِ وَهِيَ حَقٌّ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ
فِيهَا هَذِهِ الْأُورُ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّهَا تَحْتَجُّ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ
فِي الْأَقَاوِيلِ الَّتِي تَضَعُفُ أَنْ تَفْعَلَ مَا قُصِدَ بِهَا إِلَّا بِاقْتِرَانِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ
بِهَا وَهِيَ الْأَقَاوِيلُ الشَّعْرِيَّةُ فَإِنَّ الْقَائِلَ مِنَ الْفَقْهَاءِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ
النَّاصِرِ يَحْضَرُ الْمَلَا مِنْ أَهْلِ قُرْطَبَةَ يُحَرِّضُهُ عَلَى حَسْدَايَ الْيَهُودِيِّ:
إِنَّ الَّذِي شَرَفَتْ مِنْ أَجْلِهِ يَزْعُمُ هَذَا إِنَّهُ كَاذِبٌ

لَمْ يَخْتِجْ فِي إِغْضَابِ النَّاصِرِ عَلَيْهِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ وَإِنْ
كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سِدِّهِ وَهَيْئَتِهِ لِكُونَ هَذَا الْقَوْلِ حَقًّا فَلِذَلِكَ لَا
يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا إِذَا كَانَتْ لَيْسَتْ إِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ
وَقَدْ تَفْهِنُ الْقَوْلَ وَالْقَائِلَ إِذَا كَانَ بِالسَّنَةِ وَالْوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ
يَكْتَفِي الشَّاعِرُ مِنْ هَذِهِ بِاسْتِعْمَالِ الْأَشْكَالِ الْخَاصَّةِ بِصِنْفٍ مِنْ
مِنْ أَصَافِ الْأَقَاوِيلِ وَذَلِكَ إِذَا اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ مَعَ الَّذِينَ
يَسْتَعْمِلُونَ الْأَخَذَ بِالْوُجُوهِ . وَاعْنِي بِأَشْكَالِ الْقَوْلِ شَكْلُ الْخَبَرِ
وَشَكْلُ السُّوَالِ وَشَكْلُ الْأَمْرِ وَشَكْلُ التَّضَرُّعِ وَذَلِكَ أَنَّ
شَكْلَ التَّخْبِيرِ غَيْرُ شَكْلِ السَّائِلِ وَشَكْلُ الْأَمْرِ غَيْرُ شَكْلِ
الطَّالِبِ أَوْ التَّضَرُّعِ فَالشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِأَشْكَالِ الْأَقَاوِيلِ عَنْ
سَائِرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ خَارِجِ تِلْكَ إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَفْهِنُ
الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةَ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ الشَّعْرِ
وَأَنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ أُخْرَى

البحث السابع

في اسطقسات الاقاول الشعرية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَالْأَمَّا صِنْفَانِ إِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ هُوَ
مُرَكَّبًا مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِمَّا مُصَاعَفٌ وَهُوَ الَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ أَسْمَاءٍ
تَدُلُّ وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْيِةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تَدُلُّ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ الَّتِي رُكِبَ مِنْهَا مِثْلُ عَبْدِ شَمْسٍ وَعَبْدِ الْقَيْسِ
(قَالَ) وَكُلُّ أَسْمٍ فَهُوَ إِمَّا حَقِيقِيٌّ وَإِمَّا دَخِيلٌ فِي اللِّسَانِ
وَإِمَّا مَنقُولٌ نَادِرُ الْأَسْتِعْمَالِ وَإِمَّا مُزَيْنٌ وَإِمَّا مَعْمُولٌ وَإِمَّا مَعْقُولٌ
وَإِمَّا مُفَارِقٌ وَإِمَّا مُغَيَّرٌ . فَالْحَقِيقِيُّ هُوَ الْأِسْمُ الَّذِي يَكُونُ حَاصًّا
بِأَمَّةٍ أُمَّةٍ وَالْدَخِيلُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لِأَمَّةٍ أُخْرَى فَيُدْخِلُهُ
الشَّاعِرُ فِي شَعْرِهِ وَذَلِكَ مِثْلُ الْإِسْتَبْرَقِ وَالْمِشْكَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
الْأَسْمَاءِ الْأَنْجُمِيَّةِ الدَّخِيلَةِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ . وَإِمَّا الْأِسْمُ النَّادِرُ
الْمَنقُولُ فَهُوَ نَقْلُ أَسْمٍ غَرِيبٍ إِمَّا مِنْ النَّوْعِ إِلَى الْخِنْسِ وَمِثْلُ
تَسْمِيَةِ الْقَتْلِ مَوْتًا وَإِمَّا مِنْ الْخِنْسِ إِلَى النَّوْعِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ الثُّقَلَةِ
حَرَكَةً وَإِمَّا مِنْ نَوْعٍ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِثْلُ تَسْمِيَةِ الْخِيَانَةِ سَرِقَةً
وَإِمَّا أَنْ يُنْقَلَ شَيْءٌ مَنسُوبٌ إِلَى ثَانٍ إِلَى شَيْءٍ ثَالِثٍ مَنسُوبٍ إِلَى
رَابِعٍ مِثْلُ نِسْبَةِ الْأَوَّلِ إِلَى الثَّانِي مِثْلُ مَا كَانَ يُسَمَّى بَعْضُ
الْقُدَمَاءِ الشَّيْخُوخَةَ عَشِيَّةَ الْعُمَرِ وَيُسَمَّى الْعَشِيَّةَ شَيْخُوخَةَ النَّهَارِ وَذَلِكَ
أَنَّ نِسْبَةَ الشَّيْخُوخَةِ إِلَى الْعُمَرِ نِسْبَةُ الْعَشِيَّةِ إِلَى النَّهَارِ وَإِمَّا
الْأَسْمُ الْمَعْمُولُ الْمُرْجَلُ فَهُوَ الْأَسْمُ الَّذِي يُخْتَرَعُ الشَّاعِرُ اخْتِرَاعًا
وَيَكُونُ هُوَ أَوَّلَ مَنْ اسْتَعْمَلَهُ وَهَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي أَشْعَارِ
الْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي الصَّنَائِعِ النَّاسِيَةِ وَكَثُرَ مَا فِي الصَّنَائِعِ
هُوَ مَنقُولٌ لَا مَعْمُولٌ مُخْتَرَعٌ وَرَبَّمَا اسْتَعْمَلَهُ الْخُدَّاثُونَ مِنَ الشُّعْرَاءِ
عَلَى طَرِيقِ الْأَسْتِعَارَةِ أَعْنِي الْمَنقُولَ إِلَى الصَّنَائِعِ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي
الطَّيِّبِ :

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا

مَضَى قَبْلَ أَنْ تُنْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ
وَرَبَّمَا اسْتَعْمَلُوا تَضْرِيْقًا لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَبْلُ مِثْلُ قَوْلِهِ :
تَفَاوَحَ مِنْكَ الْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ

وَأَمَّا الْفُقَارُ وَالْمَعْقُولُ فَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ. وَالْمُزَيَّنَةُ
هِيَ الْأَسْمَاءُ كَانَتْ تُجْعَلُ بَعْضُ أَجْزَائِهَا تَعْمًا قَدْ رَيْنُ بِهَا وَقَدْ قِيلَ
أَنَّهُ يَعْنِي بِالْفُقَارِ الْأَسْمَاءُ الْمَغْيِرَةُ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا وَالتَّقْصَانِ مِنْهَا
وَالْحَذْفِ أَوْ الْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذَلِكَ الْأَسْمَاءُ الَّتِي يَعْسُرُ النُّطْقُ
بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ أَسْمُ كَانَ يُؤَلَّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعِ مَحْدُودَةٍ
وَالْأَسْمُ الْمَعْقُولُ فَإِنَّهُ فِيمَا أَحْسَبُ الَّذِي سَمَاءُ الْمُخْتَلَفِ وَظَاهِرُ
كَلَامِهِ أَنَّهُ الْإِسْمُ الْمُحْذُوفُ بِالتَّقْصَانِ مِثْلُ الْأَسْمَاءِ الْمُرَحَّمَةِ عِنْدَنَا
وَأَمَّا الْمَغْيِرَةُ فَهِيَ الْمُسْتَعَارَةُ الَّتِي تُسْتَعَارُ أَمَّا مِنَ الشَّيْءِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمْ
الْكُوكَبَ نَسْرًا وَرَمًا مِنَ الصِّدِّ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمْ الشَّمْسَ جَوْنَةً وَرَمًا
مِنَ اللَّازِمِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمْ الشَّحْمَ نَدًا وَالْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَأَفْضَلُ
الْقَوْلِ فِي التَّفْهِيمِ إِنَّمَا هُوَ الْقَوْلُ الْمَشْهُورُ الْمُبْتَدَلُ الَّذِي لَا يُجْنَى
عَلَى أَحَدٍ وَهَذِهِ الْأَقَاوِيلُ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمَشْهُورَةِ
الْمُبْتَدَلَةِ وَهِيَ الَّتِي سَمَّاها فِي مَا قَبْلُ الْحَقِيقَةَ وَتُسَمَّى الْمُسْتَوَلِيَّةَ
وَالْأَهْلِيَّةَ (قَالَ) وَذَلِكَ مِثْلُ شَعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ
عِنْدَهُمْ. وَيَبْغِي أَنْ تَتَفَقَّدَ مِنَ الْعَالِبِ عَلَى أَسْعَادِهِ هَذَا النَّوعُ مِنْ
الْأَلْفَافِ مِنَ شُعْرَاءِ الْعَرَبِ (قَالَ) وَالْأَقَاوِيلُ الْعَفِيفَةُ الْمَدِيحَةُ

فَهِىَ الْأَقَاوِيلُ الَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُبْتَدَأَةِ وَمِنَ الْأَسْمَاءِ
الْأُخْرَى أَعْنِي الْمُنْقُولَةَ الْقَرِيبَةَ الْمُغَيَّرَةَ وَاللُّغَوِيَّةَ لِأَنَّهُ مَتَى تَعَرَّى
الشَّعْرُ كُنْهُ مِنْ الْأَلْفَاظِ الْحَقِيقِيَّةِ الْمُسْتَوَلِيَّةِ كَانَ رَمْزًا وَلَغْزًا
وَلِذَلِكَ كَانَتْ الْأَلْفَاظُ وَالرُّمُوزُ هِيَ الَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ الْأَسْمَاءِ
الْقَرِيبَةِ أَعْنِي بِالْقَرِيبَةِ الْمُنْقُولِ الْمُسْتَعَادِ وَالْمَشْتَرَكِ وَاللُّغَوِيِّ. وَالرَّمْزُ
وَاللُّغْزُ هُوَ الْقَوْلُ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ لَا يُمَكِّنُ أَوْ يَعْبُرُ
اتِّصَالُ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا بَعْضًا بِبَعْضٍ حَتَّى يُطَابِقَ
بِذَلِكَ أَحَدَ الْمَوْجُودَاتِ. وَيَكُونُ إِمَّا بِحَسَبِ الْأَلْفَاظِ الْمَشْهُورَةِ
فَاتِّصَالُ تِلْكَ الْمَعَانِي بِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ غَيْرُ مُمَكِّنٍ وَإِمَّا بِحَسَبِ
الْأَلْفَاظِ الْغَيْرِ الْمَشْهُورَةِ فَسَكْنٌ وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي شَعْرِ ذِي الرِّمَّةِ
مِنْ شُعَرَاءِ الْعَرَبِ. وَفَضِيلَةُ الْقَوْلِ الشَّعْرِيِّ الْعَفِيفِيِّ أَنْ يَكُونَ مُؤَلَّفًا
مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُسْتَوَلِيَّةِ مِنْ تِلْكَ الْأَنْوَاعِ الْأُخْرَى وَأَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ
حِينَئِذٍ يُرِيدُ الْإِيضَاحَ يَأْتِي بِالْأَسْمَاءِ الْمُسْتَوَلِيَّةِ وَحِينَئِذٍ يُرِيدُ التَّعْجِبَ
وَالْإِلْدَازَ يَأْتِي بِالصَّنْفِ الْأُخْرَى مِنَ الْأَسْمَاءِ وَلِذَلِكَ قَدْ يُتَضَاحَكُ
بَيْنَ يُرِيدُ الْإِيضَاحَ فَيَأْتِي بِالْأَسْمَاءِ الْمَشْتَرَكَةِ أَوْ الْقَرِيبَةِ أَوْ الْأَلْسُنِ
أَوْ التَّعْجُلاتِ وَيُتَضَاحَكُ أَيْضًا بَيْنَ يُرِيدُ التَّعْجِبَ وَالْإِلْدَازَ فَيَأْتِي
بِالْأَسْمَاءِ الْمُبْتَدَأَةِ وَكَانَ الشَّاعِرُ يُجِبُّ لَهُ أَلَّا يُفْرَطَ فِي اسْتِعْمَالِ
الْأَسْمَاءِ الْغَيْرِ الْمُسْتَوَلِيَّةِ فَيَخْرُجَ إِلَى حَدِّ الرَّمْزِ وَلَا أَيْضًا يُفْرَطَ
فِي الْأَسْمَاءِ الْمُسْتَوَلِيَّةِ فَيَخْرُجَ عَنْ طَرِيقَةِ الشَّعْرِ إِلَى الْكَلَامِ
الْمُعْتَارِفِ (قَالَ) وَإِمَّا مُوَافَقَةُ الْأَلْفَاظِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ فِي الْقَدَارِ

وَمُعَادَلَةُ أَلْمَعَانِي بَعْضَهَا لِبَعْضٍ وَمُواذَنْتَهَا فَأَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ
عَامًّا وَمُشْتَرَكًّا لِجَمِيعِ الْأَلْقَاطِ الَّتِي هِيَ أَجْزَاءُ الْقَوْلِ الشِّعْرِيِّ
وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ الشُّعْرَاءَ وَإِنْ اسْتَعْمَلُوا الْأَلْقَاطَ الْحَقِيقِيَّةَ فِي الْمَوَاضِعِ
الَّتِي يَهْزَأُ بِهَا فِي اسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا لَيْسَ يَحْجَاجُوا شِعْرَهُمْ مِنْ هَذَيْنِ
الْأَمْرَيْنِ أَعْنِي مِنَ الْمُواذَنْةِ وَالْمُوَافَقَةِ فِي الْقَدَارِ وَلَكِنْ كَانَ
هَذَا عَامًّا لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الشُّعْرِ. وَأَمَّا الْأَشْعَارُ الَّتِي تَأْتِلُفُ مِنَ الْأَسْمَاءِ
الْمُخْتَلَفَةِ فَوُجُودُ هَذَا الْمَعْنَى فِيهَا أَبَيْنُ وَمُوَافَقَةُ الْأَلْقَاطِ الَّتِي ذَكَرَ فِي
الْقَدَارِ هِيَ مُقَارَنَةُ بَعْضَهَا لِبَعْضٍ فِي عَدَدِ الْحُرُوفِ وَإِنْ رَافَقَتْ
مَعَ هَذَا فِي كُلِّ اللَّفْظِ أَوْ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ فَهُوَ الَّذِي يُعْرَفُ
بِالْمُطَابَقَةِ وَالْمُجَانَسَةِ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِنَا. وَالْمُوَافَقَةُ أَنْحَاءُ وَذَلِكَ أَنَّهُ
لَا تَحُلُو الْمُوافَقَةُ أَنْ تَكُونَ فِي كُلِّ اللَّفْظِ وَكُلِّ الْمَعْنَى وَهَذَا مِثْلُ
قَوْلِ الشَّاعِرِ:

لَا أَرَى أَلَمْتُ يَسْبِقُ أَلَمْتُ شَيْءٍ

وَمِثْلُ قَوْلِهِمْ طَوِيلُ الْفِتَادِ طَوِيلُ الْعِمَادِ. أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي
بَعْضِ اللَّفْظِ وَبَعْضِ الْمَعْنَى أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ وَكُلِّ الْمَعْنَى
أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ اللَّفْظِ وَبَعْضِ الْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ
اللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ الْمَعْنَى
فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ الْمَعْنَى فَتَقَالُ الْمُوافَقَةُ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ
وَبَعْضِ الْمَعْنَى الْأَسْمَاءِ الْمُسْتَقَّةِ مِنْ تَصْرِيفٍ وَاحِدٍ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ
الْمُتَنَبِّ:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَامُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْكَارِمُ
وَمِثَالُ الْمُوَاقِفَةِ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ وَكُلِّ الْمَعْنَى قَوْلُهُمْ دِرْهَمٌ
ضَرَبُ الْأَمِيرِ وَمَضْرُوبُ الْأَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكْسِ هَذَا أَنْعِي فِي كُلِّ
الْلَفْظِ وَبَعْضُ الْمَعْنَى الْأَسْمَاءُ الْمَشْكُوكَةُ وَالشُّعْرَاءُ يَسْتَعْمِلُونَهَا كَثِيرًا
وَمِثَالُ الْمُوَاقِفَةِ فِي كُلِّ اللَّفْظِ قَطْعُ الْأَسْمَاءِ الْمَشْتَرَكَةِ مِثْلُ قَوْلِ
الْمَعْرِيِّ :

مَعَانٍ مِنْ أَحِبَّنَا سَعَانُ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ :

فَزَنْدُكَ مُغْتَالٌ وَطَرْفُكَ مُغْتَالٌ

وَمِثَالُ الْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ قَطْعُ قَوْلِ حَبِيبٍ :

مَا أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةٍ بِذَاهِلٍ

وَقَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ :

أَقْلَبُ الطَّرْفِ بَيْنَ الْخَيْلِ وَالْخَوْلِ

وَهَذَا سُكُّهُ فِي أُنْفَى الْعَرَبِ مِثْلُ الضَّرْبِ وَالضَّرْبِ وَالْحَمْلِ
وَالْحَمْلِ وَاشْرَقَتِ الشَّمْسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ الْمُوَاقِفَةِ فِي كُلِّ الْمَعْنَى
قَطْعُ الْأَسْمَاءِ الْمُتَرَادِفَةِ مِثْلُ قَوْلِهِ أَقْوَى وَأَقْفَرُ. وَمِثَالُ الْمُتَّفِقَةِ فِي
بَعْضِ الْمَعْنَى قَطْعُ الْأَسْمَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي تَدُلُّ مِنْ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ
عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِثْلُ الصَّارِمِ وَالذَّكْرِ. وَالْقَوَائِي عِنْدَ الْعَرَبِ
هِيَ مُوَاقِفَةٌ فِي الْمِقْدَارِ وَفِي بَعْضِ اللَّفْظِ وَذَلِكَ إِمَّا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ

وَهُوَ الْآخِرُ وَامَّا فِي حَرْفَيْنِ وَهُوَ الَّذِي يُعْرِفُهُ الْمُحَدِّثُونَ بِاللُّزُومِ وَامَّا
 اَلْمُوزَانَةُ فِي اجْزَاءِ الْقَوْلِ فَهِيَ عَلَى اَتَحَاءِ اَرْبَعَةٍ اَحَدُهَا اَنْ يَأْتِيَ
 الشَّاعِرُ بِالشَّيْءِ وَشَبِيهِهِ مِثْلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ اَوْ يَأْتِيَ بِالْاَضَادِ مِثْلَ
 اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اَوْ يَأْتِيَ بِالشَّيْءِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ الْقَوْسِ
 وَالسَّهْمِ وَالْفَرَسِ وَالْبَحَامِ اَوْ يَأْتِيَ بِالْاَشْيَاءِ اَلْمُنَاسِبَةِ مِثْلُ اَللَّيْلِ
 وَالْاِلَهِ وَهَذِهِ اَلْمُنَاسِبَةُ اِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ اَرْبَعَةِ اَشْيَاءَ. وَفِي هَذَا الْبَابِ
 عِيبٌ عَلَى الْكُنَيْتِ:

تَكَامَلَ فِيهِ الدَّلُّ وَالشَّنْبُ

لَآنَ الدَّلَّ غَيْرُ شَبِيهِ بِالشَّنْبِ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ
 فِي قَوْلِ اَمْرِئِ الْقَيْسِ:

كَأَنِّي لَمْ أَزْكِبْ جَوَادًا لِلذِّدَّةِ وَلَمْ أَعْرِفْ كَاعِبَاتٍ خَلْجَالِ
 وَلَمْ أَسْبِ الرِّقَّ الرُّوِّيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِحَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ اجْفَالِ
 إِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَإِنَّ اَلتَّنَاسُبَ فِيهِ هُوَ عَكْسُ مَا فَعَلَ اَعْنِي
 اَنْ يَكُونَ صَدْرُ الْبَيْتِ الْاَوَّلِ صَدْرُ الثَّانِي وَصَدْرُ الثَّانِي صَدْرُ
 الْاَوَّلِ وَمِثْلُ هَذَا قِيلَ فِي قَوْلِ اَبِي الطَّيِّبِ:

وَقَفْتُ وَمَا فِي اَلْمَوْتِ شَكٌّ لِوَأَقِفِ

كَأَنَّكَ فِي جَفَنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

ثُمَّ بِكَ الْاَبْطَالُ كَلِمَى هَزِيمَةً

وَوَجْهَكَ وَصَّاحٌ وَتَغْرَكَ بِاسْمِ

إِنَّ اَلتَّنَاسُبَ فِيهِ اَنْ يَكُونَ صَدْرُ الْبَيْتِ الْاَوَّلِ لِلثَّانِي وَصَدْرُ

الثَّانِي لِلأَوَّلِ وَمَا قَالَهُ أَبُو الطَّيِّبِ لَهُ وَجْهُ مِنَ التَّنَاسُبِ وَكَذَلِكَ مَا
قَالَهُ أَمْرُوهُ الْقَيْسِ (قَالَ) وَالْقَوْلُ إِنَّمَا يَكُونُ مُخْتَلَفًا أَيْ مُغَيَّرًا عَنْ
الْقَوْلِ الْحَقِيقِيِّ مِنْ حَيْثُ تُوضَعُ فِيهِ الْأَنِمَاءُ مُتَوَافِقَةً فِي الْمَوَازِنَةِ
وَالْمَقْدَارِ وَبِالْأَنِمَاءِ الْغَرِيبَةِ وَبَغْيِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّغْيِيرِ. وَقَدْ
يُسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ الشَّعْرِيَّ هُوَ الْمَغْيَرُ أَنَّهُ إِذَا غُيِّرَ الْقَوْلُ
الْحَقِيقِيُّ سُمِّيَ شِعْرًا أَوْ قَوْلًا شِعْرِيًّا وَوُجِدَ لَهُ فِعْلُ الشَّعْرِ مِثَالُ ذَلِكَ
قَوْلُ الْقَائِلِ:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَا سِجْ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ
إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا مِنْ قَبْلِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ قَوْلَهُ:
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ
بَدَلَ قَوْلِهِ تَحَدَّثْنَا وَمَشَيْنَا وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:

بَعِيدَةٌ مَهْوَى الْقُرْطِ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ اسْتَعْمَلَ هَذَا الْقَوْلَ بَدَلَ قَوْلِهِ طَوِيلَةٌ
الْعُنُقِ وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْآخَرِ:

يَا دَارَ أَيْنَ ظَبَاؤُكَ اللَّعْسُ قَدْ كَانَ لِي فِي أَنْسِهَا أَنْسُ
إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ أَقَامَ الدَّارَ مُقَامَ النَّاطِقِ مُجَاطِبَتِهَا وَأَبْدَلَ
لَفْظَ النَّسَاءِ بِالظَّبَاءِ وَأَتَى بِمُوَافَقَةِ الْأَنْسِ وَالْأَنْسِ فِي اللَّفْظِ وَأَنْتَ
إِذَا تَأَمَّلْتَ الْأَشْعَارَ الْحُرَّكَ وَجَدْتَهَا يَهْدِيهِ أَحْالٌ وَمَا عَدَاهُ
التَّغْيِيرَاتِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى الشَّعْرِيَّةِ إِلَّا الْوُزْنُ فَقَطْ وَالتَّغْيِيرَاتُ

تَكُونُ بِالْمُؤَاذَةِ وَالْمُدَافَعَةِ وَالْإِبْدَالِ وَالشَّيْءِ وَبِالْجُمْلَةِ بِإِخْرَاجِ الْقَوْلِ
غَيْرِ مُخْرِجِ الْعَادَةِ مِثْلُ الْقَلْبِ وَالْحَذْفِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ وَالتَّقْدِيمِ
وَالتَّأْخِيرِ وَتَغْيِيرِ الْقَوْلِ مِنَ الْإِيجَابِ إِلَى السَّلْبِ وَمِنَ السَّلْبِ إِلَى
الْإِيجَابِ وَبِالْجُمْلَةِ مِنَ الْمُقَابِلِ إِلَى الْمُقَابِلِ وَبِالْجُمْلَةِ بِجَمِيعِ
الْأَنْوَاعِ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا مَجَازًا فَالْحَذْفُ مِثْلُ قَوْلِ الْقُرْآنِ وَأَسَالِ
الْقُرْيَةِ. وَقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ
الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى. وَالْقَلْبُ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ: فَلَنْ مِنْ
أَجَلٍ بَيْنَهُ لَا بَنُوهُ مِنْ أَجَلِهِ وَالسُّنَّةُ سَبَبُ الْإِنْسَانِ لَا الْإِنْسَانُ
سَبَبُ السُّنَّةِ. وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ مِثْلُ قَوْلِهِ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيَمًا.
وَقَوْلِهِ: وَإِذْ أَتَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ. وَالزِّيَادَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ: تَبَّتْ بِالذَّهْنِ
وَمِثْلُ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَمِثْلُ قَوْلِهِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَاحِهِ
وَمِثَالُ التَّغْيِيرِ مِنَ الْإِيجَابِ إِلَى السَّلْبِ قَوْلُ الْقَائِلِ: مَا فَعَلَ أَحَدٌ
إِلَّا أَنْتَ بَدَلَ قَوْلِهِ: أَنْتَ فَعَلْتَهُ وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ النَّبِيِّ:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفُهُمْ بَيْنَ قُلُوبٍ مِنْ قِرَاعِ الْأَكْتَائِبِ
فَإِنَّهُ أَوْجَبَ لَهُمُ الْقَضَائِلَ لِيَنْفِي الْعُيُوبَ وَأَسْتَقْنَى بِهَا مَا لَيْسَ
بَعِيْبٍ عَلَى جِهَةِ تَنْسِيَةِ الشَّيْءِ بِأَسْمِ ضِدِّهِ. وَمِنَ التَّغْيِيرَاتِ الَّتِي ذَكَرْتُ
جَمْعُ الْأَضْدَادِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ:

فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكْمُ

وَكُونَ الضِّدَّ سَبَبًا لِضِدِّهِ كَقَوْلِهِ: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ وَلَيْسَ
يُحَقِّقُ عَلَيْكَ أَنْوَاعُ الْبَسِيطَةِ وَالْمُرَكَّبَةِ الْمُحْصُورَةِ فِي هَذِهِ الْأَكْلِيَّاتِ

وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ إِحْصَاءُ أَنْوَاعِهَا الْأَخِيرَةِ عَسِيرًا جَدًّا وَلِذَلِكَ
 اقْتَصَرَ هُنَا عَلَى الْكَلِمَاتِ فَقَطْ. وَالْفَاضِلُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ أَنْ
 يُسْتَعْمَلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا هُوَ أَبْيَنُ وَأَظْهَرُ وَأَشْبَهُ وَهَذَا لَا
 يُوجَدُ إِلَّا فِي النَّادِرِ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ اسْتِعْمَالَ الْأَبْيَنِ مِنْ
 هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَشْبَهُ هُوَ دَلِيلُ الْهَيَاةِ. وَهَذَا الصِّفُّ هُوَ الَّذِي
 يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ الْإِنْفَاهِمِ فَعَلَ الْأَقَاوِيلِ الشُّعْرِيَّةِ اعْنِي تَحْرِيكَ
 النَّفْسِ مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْإِبْدَالَ إِذَا كَانَ شَدِيدَ الشَّبهِ أَقَادَ جُودَةَ
 التَّخْيِيلِ وَالْإِنْفَاهِمِ مَعَ وَرَبَّمَا عَرَضَ مِنَ الْإِبْدَالِ الْمُنَاسِبِ قَوْلُهُمْ
 عِنْدَ الْإِنْدَامِ مِنَ السَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَوْلِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخِطُّ
 الْأَبْيَضُ مِنَ الْخِطِّ الْأَسْوَدِ أَنْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ الْخِطُّ الْحَقِيقِيُّ
 فَذَكَرَتْ مِنَ النَّجْرِ. (قَالَ) وَالْأَسْمَاءُ الْمُرَكَّبَةُ تَضِلُّ لِلْوِزْنِ الَّذِي
 يُشْتَرِكُ فِيهِ عَلَى الْأَخْيَارِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ
 هِيَ قَلِيلَةٌ الْوُجُودِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمُ الْعَبَسِيُّ
 الْمُنْسُوبُ إِلَى عَبْدِ شَمْسٍ. وَأَمَّا اللَّفَاتُ فَتَضِلُّ لِلشُّعْرِ الَّذِي يُذَكَّرُ فِيهِ
 أَمْرُ الْعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَكَانَ صَنَافًا مِنَ الشُّعْرِ عِنْدَهُمْ
 مَعْرُوفًا. وَأَمَّا الْأَسْمَاءُ الْمُنْقُولَةُ الْعَرَبِيَّةُ فَتَخْتَصُّ بِالشُّعَارِ الَّتِي تُقَالُ
 فِي الْأَمْثَالِ وَالْحِكْمِ وَالْقِصَصِ الْمَشْهُورَةِ



المبحث الثامن

في صناعة الاشعار القصصية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَمِمَّا قَلَنَاهُ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَفِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَرَكْنَاهُ لِأَصْنَافِ الْأَشْعَارِ بِنَ التَّشْبِيهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ كِفَايَةً . وَالْأَشْعَارُ الْقَصَصِيَّةُ سَبِيلُهَا فِي الْأَجْزَاءِ الَّتِي هِيَ الْمَبْدَأُ وَالْوَسْطُ وَالنَّهْيَةُ سَبِيلُ أَجْزَاءِ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ . وَكَذَلِكَ فِي الْمَحَاكَاةِ إِلَّا أَنَّ الْمَحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ فِيهَا وَإِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَزْمَنَةِ الْوَاقِعَةِ فِيهَا تِلْكَ الْأَفْعَالُ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُحَاكَمُ فِي هَذِهِ كَيْفَ كَانَتْ أَحْوَالُ الْمُتَقَدِّمِ مَعَ أَحْوَالِ الْمُتَأَخِّرِ وَكَيْفَ تُثْقَلُ الدُّوَلُ وَالْمَمَالِكُ وَالْأَيَّامُ . وَمَحَاكَاةُ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْوُجُودِ قَلِيلٌ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْكُتُبِ الشَّرْعِيَّةِ . وَذَكَرَ مُجِيدِينَ فِي هَذَا الصَّنْفِ مِنْ شُعَرَانِهِمْ وَأَتَيْنِي ثَمَاءٌ عَامَا عَلَى أُوْمَيْرُوشَ . وَمِنْ جَيْدٍ مَا فِي هَذَا الْمَعْنَى لِلْعَرَبِ قَوْلُ الْأَنْوَدِ بْنِ يَعْفُرَ :

مَاذَا أَوْقَلَ بَعْدَ آلِ مُحَرَّتٍ	تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَرْضِ الْخَوَزَنِيِّ وَالسَّيْدِيِّ وَبَارِقِ	وَالْقَصْرِ ذِي الشَّرَفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
تَرَلُّوا بِأَنْقَرَةِ يَسِيلُ عَلَيْهِمْ	مَاءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
جَرَتْ الرِّيَّاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ	فَكَانَتْهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
فَارَى الْعَمِيمُ وَكُلُّ مَا يُلْهَى بِهِ	يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَلَى وَنَفَادِ

(قَالَ) وَأَجْزَاءُ هَذَا النَّوعِ هِيَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ الْعَفِيفَةِ
 مِنَ الْإِدَارَةِ وَالْأَسْتِدْلَالِ وَالتَّرْكِيبِ مِنْهُمَا. وَرَبَّمَا كَانَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا
 أَنْفِعَالِيًا كَالْحَالِ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ. وَصَنَائِعُ الشِّعْرِ وَأَحْكَامُهَا فِي
 التَّحْلِيلِ وَالْعِنَاءِ أَحْكَامُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ. وَذَكَرَ فُرُوقًا بَيْنَ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ
 وَبَيْنَ صَنَائِعِ الشِّعْرِ الْآخَرِ عَنْهُمْ وَخَوَاصَّ تَخْتَصُّ بِهَا تِلْكَ الْأَشْعَارُ
 الْآخَرُ فِي الْأَوْزَانِ وَالْأَجْزَاءِ وَالْحَاكَاةِ وَالْقَدْرِ وَأَنَّ هَاهُنَا أَوْزَانًا
 هِيَ أَلِيقُ بِبَعْضِ الْأَشْعَارِ مِنْ بَعْضٍ وَذَكَرَ مَنْ أَجَادَ مِنَ الشُّعْرَاءِ
 فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمَنْ لَمْ يُجِدْ وَأَثْنَى فِي هَذَا كُلِّهِ عَلَى أُوْمَيْرُوشَ
 وَكُلُّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِهِمْ وَغَيْرُ مَوْجُودٍ مِثْلَهُ عِنْدَنَا إِمَّا لِأَنَّ ذَلِكَ الَّذِي
 ذَكَرْ غَيْرُ مُشْتَرَكٍ لِلْأَكْثَرِ مِنَ الْأُمَمِ. وَإِمَّا أَنَّهُ عَرَضٌ لِلْعَرَبِ فِي
 هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ الطَّبَعِ وَهُوَ آيِنُ فَلَانُهُ مَا كَانَ لِيُثْبِتَ
 فِي كِتَابِهِ هَذَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِهِمْ بَلْ مَا هُوَ مُشْتَرَكٌ لِلْأُمَمِ الطَّبِيعِيَّةِ

البحث التاسع

في كيفية التخلّص إلى ما يراد محاكاته

(من الكتاب نفسه)

وَيَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ مَا يَأْتِي بِهِ الشَّاعِرُ مِنَ الْكَلَامِ يَسِيرًا
 بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْكَلَامِ الْحَاكِي كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أُوْمَيْرُوشُ فَلَانُهُ إِنَّمَا
 كَانَ يَعْمَلُ صَدْرًا يَسِيرًا ثُمَّ يَتَخَلَّصُ إِلَى مَا يُرِيدُ مُحَاكَاتَهُ مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يَأْتِيَ فِي ذَلِكَ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْتَدَ لَكِنْ مَا قَدْ أُعْتِيدَ فَإِنَّ غَيْرَ الْمُعْتَادِ

مُسْكِرٌ وَإِنَّا قَالِ ذَٰلِكَ فِيمَا أَحْسَبُ لِأَنَّ لِلْأَمِّ فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ عَوَائِدَ
خَاصَّةً مِثْلُ قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

يُهَيِّلُ وَيُذِرِي ثَرْبَهَا وَيُثِيرُهُ إِثَارَةَ نَبَاتِ الْهَوَاجِرِ مُخْسِرِ
وَكَذَٰلِكَ تَشْبِيهِهُمْ الضَّبَّ بِالثَّوْنِ لِمَكَانِ السَّرَابِ الْمَوْجُودِ فِي
بِلَادِهِمْ وَمِنْ هَٰذَا قَوْلُهُ : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ
(قَالَ) وَمَتَى طَالَ الْكَلَامُ وَلَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنْبَغِي
أَنْ يُعْتَنَى فِي ذَٰلِكَ بِإِبْرَادِ الْأَلْفَاظِ الْبَيِّنَةِ الدَّلَالَةِ وَهِيَ الَّتِي تَدُلُّ
عَلَى أَشْيَاءَ بِأَعْيَانِهَا لَا عَلَى أَشْيَاءَ مُتَضَادَّةٍ أَوْ مُخْتَلِفَةٍ وَأَنْ يَكُونَ
تَرْكِيبُهَا عَلَى الْأَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَتَكُونَ سَهْلَةً عِنْدَ النَّاطِقِ . وَيُشَبِّهُ أَنْ
يَكُونَ هَٰذَا هُوَ أَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ أَمُّ الْفَصَاحَةِ
إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَٰلِكَ الْقَوْلُ ظَاهِرَ الصِّدْقِ وَمَشْهُورًا فَإِنَّ الصِّدْقَ
الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ قِلَّةِ الْفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ التَّغْيِيرِ وَالْمُحَاكَاةِ

المبحث العاشر

في أنواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَالْقَلَطُ الَّذِي يَقَعُ فِي الشَّعْرِ وَيَجِبُ عَلَى الشَّاعِرِ تَوْبِيخُهُ
فِي سِتَّةِ أَصْنَافٍ . أَحَدُهَا أَنْ يُحَاكِيَ بَغْيَ مُمَكِّنٍ بَلْ مُتَمَتِّعٍ وَمِثَالُ
هَٰذَا عِنْدِي قَوْلُ ابْنِ الْأَعْتَرِ يَصِفُ الْقَمَرَ فِي تَنْقُصِهِ :
أَنْظُرْ إِلَيْهِ كَرُورَتِي مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلْتُهُ حُمُولَةً مِنْ عَنَبٍ

فَإِنَّ هَذَا مُتَمَتِّعٌ. وَإِنَّمَا آتَيْنَاهُ بِذَلِكَ شِدَّةَ الشَّيْبِ وَإِنَّهُ لَمْ يُقَصِّدْ
بِهِ حَثٌّ وَلَا نَهْيٌ بَلْ إِنَّمَا يُجِيبُ أَنْ يُحَاكِي بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ أَوْ يُظَنُّ
أَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ الْأَشْرَارِ بِالشَّيَاطِينِ أَوْ بِمَا هُوَ مُمَكِّنُ الْوُجُودِ
فِي الْأَكْثَرِ لَا فِي الْأَقَلِّ أَوْ عَلَى التَّسَاوِي فَإِنَّ هَذَا النَّوعَ مِنْ
الْوُجُودِ هُوَ الَّتِي بِالْخَطَايَةِ مِثْلُهُ بِالشَّعْرِ. وَالْمَوْضِعُ الثَّلَاثِي مِنْ غَلْطِ
الشَّاعِرِ أَنْ يُخَوِّفَ الْمُحَاكَاةَ وَذَلِكَ مِثْلُ مَا يَغْرِضُ لِلْمُصَوِّرِ أَنْ
يَرِيدَ فِي الصُّورَةِ عَضْوًا لَيْسَ فِيهَا أَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ الْمَكَانِ الَّذِي
هُوَ فِيهِ كَمَنْ يُصَوِّرُ الرَّجُلَيْنِ فِي مُقَدِّمِ الْحَيَوَانِ ذِي الْأَرْبَعِ وَالْيَدَيْنِ
فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَتَنَبَّيْ أَنْ يُتَّفَقَ مِثَالُ هَذَا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَقَرِيبٌ
مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ الْفَرَسَ :

وَعَلَى أذُنِهِ أَذُنٌ ثَلَاثُ مِنْ سِنَانِ السَّنَهْرِيِّ الْأَزْرَقِ
وَالْمَوْضِعُ الثَّلَاثُ أَنْ يُحَاكِي النَّاطِقِينَ بِأَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَإِنَّ
هَذَا أَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ التَّوْبِيخِ وَذَلِكَ أَنَّ الصِّدْقَ فِي هَذِهِ الْمُحَاكَاةِ
يَكُونُ قَلِيلًا وَالْكَذِبُ كَثِيرًا إِلَّا أَنْ يُشَبَّهَ مِنَ النَّاطِقِ صِفَةً
مُشْتَرَكَةً لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ النَّاطِقِ وَقَدْ تَوَنَّنْتُ بِمِثْلِ هَذَا الْعَادَةِ مِثْلُ
تَشْبِيهِ الْعَرَبِ النِّسَاءِ بِالطَّبَّاءِ وَبِقَرِّ الْوَحْشِ. وَالْمَوْضِعُ الرَّابِعُ أَنْ
يُشَبَّهَ الشَّيْءُ بِشَيْءٍ صَدِيقِهِ أَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ الْعَرَبِ
سَقِيصَةُ الْجَفُونِ فِي الْحَسَنَةِ الْغَاضَةِ النَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ :

رَاحُوا كَأَنَّهُمْ مَرْضَى مِنَ الْكُرَمِ

وَقَوْلُ الْآخَرِ :

وَمُحَرِّقٍ عَنْهُ أَفْهَمِصُ تَحَالُهُ وَسَطُ الْيُوتِ مِنْ أَحْيَاءِ سَقِيَا
فَإِنَّ هَذِهِ كُلُّهَا هِيَ أَضْدَادُ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذَلِكَ
الْعَادَةُ. وَالْمَوْضِعُ الْخَامِسُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمُتَضَادِّينَ
بِالسَّوَاءِ مِثْلُ الصَّرِيمِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَالْقَرْءِ وَالْجُلْدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ يَمَّا
قَدْ ذَكَرَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ. وَالْمَوْضِعُ السَّادِسُ أَنْ يَتْرُكَ الْحَاكَاةَ الشَّعْرِيَّةَ
وَيَنْتَقِلَ إِلَى الْإِفْتَاعِ وَالْأَقَاوِيلِ التَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ الْقَوْلُ
هَيْئَةً قَلِيلَ الْإِفْتَاعِ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ يَتَعَذَّرُ عَنْ
جُنْبِهِ :

وَمَا جَبُنْتُ خَيْلِي وَلَكِنْ تَدَكَّرْتُ مَرَّاطَهَا مِنْ بَرِيصٍ وَمَيْسَرَا
وَقَدْ يَحْسُنُ هَذَا الصَّنْفُ إِذَا كَانَ حَسَنَ الْإِفْتَاعِ أَوْ صَادِقًا
مِثْلُ قَوْلِ الْآخِرِ يَتَعَذَّرُ عَنِ الْفِرَارِ :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا قَوْسِي بِأَشَقَرِ مَرْبَدٍ
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَقَاتِلُ وَاحِدًا أَقْتُلُ وَلَا يَنْكِى عُدُوِّي مَشْهَدِي
فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَجَبَةُ فِيهِمْ طَمَعَالَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدٍ
فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ إِنَّمَا حَسَنَ فِي الْأَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِأَنَّ التَّفْسِيرَ
الَّذِي فِيهِ يَسِيرُ وَلِذَلِكَ قَالَ الْقَائِلُ: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ لَقَدْ حَسَنْتُمْ
كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْفِرَارَ (قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ مَوَاضِعُ الْغَلَطِ سِتَّةَ
وَمَوَاضِعُ التَّوْبِيخِ مُقَابِلَتَهَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُ الْغَلَطِ الَّتِي
وَالْتَّوْبِيخِ الْخَاصَّةِ اثْنِي عَشَرَ مَوْضِعًا سِتَّةَ أَغْلِيطُ وَسِتَّةَ تَوْبِيخَاتٍ
وَأَمِثَّةُ التَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا إِذَا كَانَ شَعْرَاؤُنَا لَمْ تَتَمَيَّزْ

لَهُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ وَلَا شَعَرُوا بِهَا فَهَذَا هُوَ مَا تَأْدَى إِلَى فَهْمِنَا بِمَا
 ذَكَرَهُ أَرِسْطُو فِي كِتَابِهِ هَذَا مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْمَشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ
 الشَّعْرِ وَالْخَاصَّةِ بِالْمَدِيحِ أَغْنَى الْمَشْتَرَكَةَ مِنْهَا أَيْضًا لِلْكَثَرِ أَوْ
 لِلْجَمِيعِ وَسَائِرُ مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ هَذَا مِنَ الْفُصُولِ الَّتِي بَيْنَ سَائِرِ
 أَصْنَافِ الشَّعْرِ عِنْدَهُمْ وَبَيْنَ صِنْفِ الْمَدِيحِ فَهُوَ خَاصٌّ بِهِمْ وَمَعَ
 ذَلِكَ فَلَسْنَا نَحْدُ ذَكَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْوَأَصِلِ إِلَيْنَا
 إِلَّا بَعْضَ ذَلِكَ. وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَمْ يُتَرَجَمْ عَلَى
 التَّامِّ وَأَنَّهُ بَقِيَ مِنْهُ التَّكْلُمُ فِي سَائِرِ فُصُولِ أَصْنَافٍ كَثِيرَةٍ مِنَ
 الْأَشْعَارِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَدَّ بِالتَّكْلُمِ فِي هَذِهِ كُلِّهَا فِي
 صَدْرِ كِتَابِهِ. وَالَّذِي نَقَصَ بِمَا هُوَ مُشْتَرِكٌ هُوَ التَّكْلُمُ فِي صِنْفَةِ
 الْحِجَاءِ لَكِنْ يُشِبُّهُ أَنْ يَكُونَ الْقُوفُ عَلَى ذَلِكَ بِقُرْبٍ مِنْ
 الْأَشْيَاءِ الَّتِي قِيلَتْ فِي بَابِ الْمَدِيحِ إِذْ كَانَتْ الْأَضْدَادُ يُعْرَفُ
 بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. وَأَنْتَ تَتَبَيَّنُ إِذَا وَقَفْتَ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ
 هَاهُنَا أَنَّ مَا شَعَرَ بِهِ أَهْلُ لِسَانِنَا مِنَ الْقَوَائِنِ الشَّعْرِيَّةِ بِالْإِضَافَةِ
 إِلَى مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطُو هَذَا وَفِي كِتَابِ الْخَطَابَةِ زُرَّ يَسِيرٌ كَمَا
 يَقُولُهُ أَبُو نَضْرٍ. وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَيْضًا كَيْفَ تَرْجِعُ تِلْكَ الْقَوَائِنُ
 إِلَى هَذِهِ وَلَا مَا ذَكَرُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الصَّوَابِ بِمَا ذَكَرَ عَلَى
 غَيْرِ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَلْمُوقِقُ لِلصَّوَابِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ



الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب الزهر في علوم اللغة للعلامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قَدَمَاءِ الشُّعْرَاءِ أَحْصَرُ بْنُ سَعْدٍ بْنُ قَيْسٍ عَيْلَانَ بْنُ مُضَرَ
وَهُوَ مُنْبِئُهُ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٌّ وَالطُّفَاوَةُ . وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوِيرُ بْنُ رَبِيعَةَ
أَبْنِ كَعْبِ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ :
وَلَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ أَحْيَاةٍ وَطُولِهَا وَأَزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ السِّتِينَ مِثْلًا
مِائَةً أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي وَأَزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ الشُّهُورِ سِنِيًا
وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنْبٍ الْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ
الْقَائِلُ :

إِذَا قَالَتْ حَذَامٌ فَصَدِّقُوهَا فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامُ
وَمِنْهُمْ جَذِيعَةُ الْأَبْرَشِ وَالجِّيمُ بْنُ صَغْبٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ بَكْرِ
أَبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ الْقَائِلُ :

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ نَلْتُهُ إِلَّا الْفَحْجَةَ

وَقَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ:

عُوجًا عَلَى طَلَلِ الدِّيَارِ لَعَلَّنَا بَكِي الدِّيَارِ كَمَا بَكَى ابْنُ حَذَامٍ
وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَبِئٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ الَّذِي بَكَى فِيهِ وَلَا
شِعْرًا غَيْرَ هَذَا أَلَيْتِ الَّذِي ذَكَرَهُ أَمْرُو الْقَيْسِ . وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ
قَصَّدَ الْقَصَائِدَ وَذَكَرَ أَلْوَقَائِعَ الْمُهْلِلِ بْنِ رَيْعَةَ التَّغْلِي فِي قَتْلِ
أَخِيهِ كَلَيْبٍ قَالَ الْفَرَزْدَقُ :

وَمُهْلِلُ الشُّعْرَاءِ ذَاكَ الْأَوَّلُ

وَزَعَمَتِ الْعَرَبُ أَنَّهُ كَانَ يَتَكَثَّرُ وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ أَكْثَرُ
مِنْ فِعْلِهِ . وَكَانَ شُعْرَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي رَيْعَةَ أَوَّلَهُمُ الْمُهْلِلُ وَهُوَ خَالَ
أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ الْكِنْدِيِّ وَالْمُرْقَشَانِ وَالْأَكْبَرُ مِنْهُمَا عَمُّ
الْأَضْعَرُ وَالْأَضْعَرُ عَمُّ طَرْقَةَ بْنِ الْعَبْدِ . وَأَمُّ الْأَكْبَرِ عَوْفُ بْنُ سَعْدٍ
وَأَمُّ الْأَضْعَرِ عَمْرُو بْنُ حَرْثَةَ وَقِيلَ رَيْعَةُ بْنُ سُفْيَانَ . وَمِنْهُمْ
سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَطَرْقَةُ بْنُ الْعَبْدِ وَعَمْرُو بْنُ قَمَيْتَةَ وَالْمُلَيْسُ وَهُوَ خَالَ
طَرْقَةَ . وَالْأَعَشَى وَالْمُسَيْبُ بْنُ عِلْسٍ وَالْحَرْثُ بْنُ حِلْزَةَ . ثُمَّ
تَحَوَّلَ الشُّعْرُ فِي قَيْسٍ فَفَنَّهُمُ اللَّابِقَتَانِ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلَمَى وَأَبْنَةُ
كَعْبٍ وَلَيْدٌ وَالْحُطَيْتَةُ وَالشَّخَّاحُ وَأَخُوهُ مُزَرَّدٌ وَخِدَاشُ بْنُ زُهَيْرٍ
ثُمَّ آلُ إِلَى تَيْمِيمٍ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ إِلَى الْيَوْمِ وَمِنْهُمْ كَانَ أَوْسُ بْنُ
حُجْرٍ شَاعِرٌ مُضَرٌّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى نَسَأَ اللَّابِقَةُ
وَزُهَيْرٌ وَأَحْمَلَاهُ وَبَقِيَ شَاعِرٌ تَيْمِيمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ غَيْرُ مُدَافِعٍ . وَكَانَ
الْأَضْعَمِيُّ يَقُولُ أَوْسُ أَشْعَرُ مِنْ زُهَيْرٍ وَلَكِنْ الْبَاغَةُ طَاطَأَ مِنْهُ

وَكَانَ دَاوِيَةَ أَوْسٍ زُهَيْرٌ وَكَانَ أَوْسٌ زَوْجَ أُمِّ زُهَيْرٍ (قَالَ عُمَرُ بْنُ شُبَّةٍ)
 فِي طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ: لِلشُّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ أَوَّلٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ وَقَدْ اخْتَلَفَ
 فِي ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ، وَأَدَّعَتِ الْقَبَائِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِشَاعِرِهَا أَنَّهُ الْأَوَّلُ وَلَمْ
 يَدَّعُوا ذَلِكَ الْقَائِلِ الْبَتَيْنِ وَالثَلَاثَةَ لِأَنَّهُمْ لَا يُسْتَوْنَ ذَلِكَ شِعْرًا فَأَدَّعَتِ
 الْيَمَانِيَّةُ لِأَمْرِئِ الْقَيْسِ وَبَنُو أَسَدٍ لِعُبَيْدِ بْنِ الْأَبْرَصِ وَتَغْلِبُ لِمُهَلِّهِلٍ
 وَبَكْرٌ لِعَمْرِو بْنِ قُمَيْثَةَ وَالْمُرْقَشُ الْأَكْثَرُ وَإِيَادُ لِأَيِّ دُوَادٍ (قَالَ)
 وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْأَفْوَ الْأَوْدِيَّ أَقْدَمُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ
 قَصَّدَ الْقَصِيدَ (قَالَ) وَهَؤُلَاءِ الْفَرُّ الْمُدَّعَى لَهُمُ الْقَدَمُ فِي الشُّعْرِ
 مُتَقَارِبُونَ لَعَلَّ أَقْدَمَهُمْ لَا يَسْبِقُ الْهَجْرَةَ مِائَةَ سَنَةٍ أَوْ نَحْوَهَا
 (وَقَالَ تَغْلِبُ فِي أَمَالِيهِ) قَالَ الْأَضَمِيُّ: أَوَّلُ مَنْ يُرَوَى لَهُ كَلِمَةٌ
 تَبَاعُ ثَلَاثِينَ بَيْتًا مِنَ الشُّعْرِ مُهَلِّهِلٌ ثُمَّ ذُوَيْبُ بْنُ كَهْبٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ
 تَيْمٍ ثُمَّ صَنْرَةُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَالْأَضْبَطُ بْنُ مُرَاجٍ (قَالَ)
 وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِ أَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ أَمْرُ الْقَيْسِ
 بَعْدَ هَؤُلَاءِ بِكَثِيرٍ (وَقَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ لَيْسَ) أَوَّلُ مَنْ
 قَالَ الشُّعْرَ ابْنُ حَدَّامٍ (وَقَالَ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي الْعُمْدَةِ): الْمَشَاهِيرُ
 مِنَ الشُّعْرَاءِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِمْ عَدَدٌ وَمِنْهُمْ مَشَاهِيرُ قَدْ طَلَّاتِ
 أَسْمَاؤُهُمْ وَسَادَ شِعْرُهُمْ وَكَثُرَ ذِكْرُهُمْ حَتَّى غَلَبُوا عَلَى سَائِرِ مَنْ كَانَ
 فِي زَمَانِهِمْ وَلِكُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ تَفْضِلُهُ وَتَتَعَصَّبُ لَهُ وَقَلَّمَا
 تَجْتَمِعُ عَلَى وَاحِدٍ إِلَّا مَا رَوَى عَنِ الرَّسُولِ فِي أَمْرِئِ الْقَيْسِ
 أَنَّهُ أَشْعَرُ الشُّعْرَاءِ وَقَادَهُمْ إِلَى النَّارِ يَعْنِي شُعْرَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْمُشْرِكِينَ

قَالَ دِغِيلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخُرَاعِيُّ: وَلَا يَقُودُ قَوْمًا إِلَّا أَمِيرُهُمْ. قَالَ
 عُمرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلِبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ الشُّعْرَاءِ: أَمَرُوهُ
 الْقَيْسَ سَابِقَهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنُ الشَّعْرِ فَأَفْتَقَرَ عَنْ مَعَانٍ غُورٍ أَصَحَّ
 بَصَرًا (قَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ) خَسَفَ مِنْ الْخُسْفِ وَهِيَ الْبُذْرُ الَّتِي
 حَفَرَتْ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ. وَقَوْلُهُ أَفْتَقَرَ أَيُّ فَتَحَ وَهُوَ
 مِنْ أَفْتَقَرَ وَهُوَ قَمُ الْقِنَاقَةِ وَقَوْلُهُ: عَنْ مَعَانٍ غُورٍ يُرِيدُ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسَ
 مِنْ أَلَيْسَ وَأَنَّ أَهْلَ أَلَيْسَ لَيْسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةٌ تَزَارٍ تَجْعَلُ لَهُمْ مَعَانِي
 غُورًا فَكَانَ فَتَحَ أَمْرِي الْقَيْسَ أَصَحَّ بَصَرًا فَإِنَّ أَمْرًا الْقَيْسَ يَأْتِي
 السَّبَبُ تَزَارِي الدَّارِ وَالْمُنْشَأُ وَفَصَلَهُ عَلَيَّ بِأَنَّ قَالَ: رَأَيْتُهُ أَحْسَنَهُمْ
 نَادِرَةً وَأَسْبَقَهُمْ بَادِرَةً وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرُغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ (وَقَدْ قَالَ
 الْعُلَمَاءُ بِالشَّعْرِ) إِنَّ أَمْرًا الْقَيْسَ لَمْ يَتَقَدَّمَ الشُّعْرَاءُ لِأَنَّهُ قَالَ مَا
 لَمْ يَقُولُوا وَلَكِنَّهُ سَبَقَ إِلَى أَشْيَاءَ فَاسْتَحْسَنَهَا الشُّعْرَاءُ وَاتَّبَعُوهُ فِيهَا
 لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَطَفَ الْمَعَانِي وَمِنْ اسْتَوْقَفَ عَلَى الطُّولِ وَوَصَفَ
 النِّسَاءَ بِالطِّبَاءِ وَالْمَهْمَى وَالْبَيْضَ وَشَبَّهَ الْخَيْلَ بِالْعِثْبَانِ وَالْعِصِيَّ وَفَوَّقَ
 بَيْنَ النَّسِيبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْقَصِيدَةِ وَقَرَّبَ مَا خَذَ الْكَلَامَ قَفِيدَ
 الْأَوَابِدِ وَأَجَادَ الْأُسْتَعَارَةَ وَالنَّشِيئَةَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ
 الْجَحْمِيُّ: إِنَّ سَائِلًا سَأَلَ الْفَرَزْدَقَ مَنْ أَسْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ ذُو
 الْقُرُوحِ (وَسُئِلَ كَيْدٌ): مَنْ أَسْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ الْمَلِكُ الضَّلِيلُ
 قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ: الشَّابُّ الْقَتِيلُ قِيلَ: ثُمَّ مَنْ قَالَ: الشَّيْخُ أَبُو عَقِيلٍ
 يَعْنِي نَفْسَهُ. وَكَانَ اخْذَاقُ يَقُولُونَ: الْفُحُولُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَالْفَرْزَدَقُ وَالنَّابِغَةُ وَالْأَخْطَلُ وَالْأَعَشَى وَجَرِيرٌ
 وَكَانَ خَلْفُ الْأَحْمَرِ يَقُولُ: أَجْمَعُهُمُ الْأَعَشَى. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْنُ
 الْأَعْلَاءِ: مَثَلُهُ مَثَلُ الْبَازِي يَضْرِبُ كَبِيرَ الطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ. وَكَانَ أَبُو
 الْخَطَّابِ الْأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا. وَحَكَى
 الْأَصْمَعِيُّ عَنْ أَيْنِ أَبِي طَرَفَةَ: كَفَاكَ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَرْبَعَةُ زُهَيْرٌ
 إِذَا رَغِبَ وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهَبَ وَالْأَعَشَى إِذَا طَرِبَ وَعَثْرَةُ إِذَا
 كَلِبَ وَرَادَ قَوْمٌ: وَجَرِيرٌ إِذَا غَضِبَ. وَقِيلَ لِكَثِيرٍ أَوْ لِنَصِيبٍ
 مِنْ أَسْعُرٍ أَلْعَرَبِ فَقَالَ: أَمْرُوهُ أَلْقَيْسٌ إِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ
 وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهَبَ وَالْأَعَشَى إِذَا شَرِبَ. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ
 النَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ أَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَأَعَذُّهُمْ بَجْرًا وَأَبْعَدُهُمْ قَعْرًا.
 وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ الْمَوْسُومِ بِجَمْعِهِ أَشْعَارِ
 أَلْعَرَبِ إِنَّ أَبَا عَيْنَةَ قَالَ: أَصْحَابُ السَّبْعِ الَّتِي تُسَمَّى السُّنْطُ أَمْرُوهُ
 أَلْقَيْسٌ وَزُهَيْرٌ وَالنَّابِغَةُ وَالْأَعَشَى وَلَيْدٌ وَخَمْرٌ وَطَرَفَةُ. (قَالَ)
 وَقَالَ أَلْفَضْلُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي السَّبْعِ الَّتِي تُسَمَّى السُّنْطُ لِأَحَدٍ
 غَيْرِ هَؤُلَاءِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَأَسْقَطًا مِنْ أَصْحَابِ الْمُعْلَقَاتِ عَثْرَةُ
 وَالْحُرْثُ بْنُ حِلْزَةَ وَآثِبَتَا الْأَعَشَى وَالنَّابِغَةُ وَكَانَتِ الْمُعْلَقَاتُ تُسَمَّى
 الْمَذَهَبَاتِ وَذَلِكَ أَنَّهَا اخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ الشُّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي
 الْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ الذَّهَبِ وَعُلِقَتْ عَلَى الْكَعْبَةِ فَلِذَلِكَ يُقَالُ مُذَهَبَةٌ
 فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ أَجْوَدَ شِعْرِهِ. ذَكَرَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ
 وَقِيلَ بَلْ كَانَ أَلَمَلِكُ إِذَا اسْتَحْيَدَتْ قَصِيدَةً يَقُولُ: عَلِقُوا لَنَا هَذِهِ

لَتَكُونَ فِي خِزَاتِهِ (وَقَالَ الْجَعْفِيُّ) سَأَلَ عِكْرَمَةُ بْنُ جَرِيرٍ أَبَاهُ
جَرِيرًا. مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ قَالَ: أَعَنَ الْجَاهِلِيَّةُ تَسْأَلُنِي أَمَ الْإِسْلَامُ.
قَالَ: مَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِسْلَامَ فَإِذَا ذَكَرْتَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ
أَهْلِهَا قَالَ: زُهَيْرٌ شَاعِرُهُمْ (قَالَ) قُلْتُ: فَأَلَا إِسْلَامٌ قَالَ:
أَلْفَرَزْدَقُ بَعَثَهُ الشَّعْرُ قُلْتُ: وَالْأَخْطَلُ قَالَ: يُجِيدُ مَدْحَ الْمُلُوكِ
وَيُصِيبُ صِفَةَ الْخَمْرِ قُلْتُ: فَمَا تَرَكَتَ لِنَفْسِكَ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي
بَجَرْتُ الشَّعْرَ بِجَرٍّ (وَسُئِلَ) أَلْفَرَزْدَقُ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ الْعَرَبِ
فَقَالَ بِشَرِّ بْنِ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: يَمَازَا. قَالَ: بِقَوْلِهِ:

تَوَى فِي مُخَدِّ لَا بُدَّ مِنْهُ كَفَى بِالْمَوْتِ نَأْيًا وَأَعْدَا أَبَا
ثُمَّ سُئِلَ جَرِيرٌ فَقَالَ: بِشَرِّ بْنِ أَبِي خَازِمٍ قِيلَ لَهُ: يَمَازَا قَالَ
بِقَوْلِهِ:

رَهِينُ بَلَى وَكُلُّ فَتَى سَيْبَلَى فَشَقِي الْحَيْبَ وَأَنْتَحِي انْتِهَابَا
فَأَتَّفَقَا عَلَى بِشَرِّ بْنِ أَبِي خَازِمٍ كَمَا تَرَى (وَكُتِبَ) الْحُجَّاجُ بْنُ
يُوسُفَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْعَرِ الشُّعْرَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
وَأَشْعَرِ شُعْرَاءِ وَقْتِهِ فَقَالَ: أَشْعَرُ الْجَاهِلِيَّةِ أَمْرُوهُ الْقَيْسُ وَأَضْرَبُهُمْ
مَثَلًا طَرْفَةً. وَأَمَّا شُعْرَاءُ الْوَقْتِ فَأَلْفَرَزْدَقُ الْفَخْرُومُ وَجَرِيرٌ أَهْجَاهُمْ
وَالْأَخْطَلُ أَوْصَفُهُمْ (وَأَمَّا الْخَطِئَةُ) فَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ
أَبُو دُوَادٍ حَيْثُ يَقُولُ:

لَا أَعُدُّ الْإِقْتَارَ عَدَمًا وَلَكِنْ قَقْدُ مَنْ قَدَّ رُزْنُهُ الْإِعْدَامُ
وَهُوَ كَانَ فَخْلًا قَدِيمًا وَكَانَ أَمْرُوهُ الْقَيْسُ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ

وَيُرْوِي شَعْرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ الثَّقَادِ مَقَالَهُ الْخَطِيئَةِ (وَسَالَه
أَبْنُ عَبَّاسٍ مَرَّةً أُخْرَى) فَقَالَ الَّذِي يَقُولُ :
وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ
يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمَ

وَلَيْسَ الَّذِي يَقُولُ :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبَقٍ أَحَا لَا تَلُثُّهُ عَلَى شَعْرِ أَيِّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ
وَلَكِنَّ الضَّرَاعَةَ أَفْسَدَتْهُ كَمَا أَفْسَدَتْ جُرُولا وَاللَّهُ لَوْلَا
وَلَوْلَا لَكُنْتُ أَشْعَرَ الْمَاضِينَ . وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَلَا أَشْكُ إِلَى أَشْعَرِهِمْ
(وَزَعَمَ) أَبْنُ أَبِي الْخَطَّابِ أَنَّ أَبَا عَمْرٍو يَقُولُ أَشْعَرُ النَّاسِ : أَرْبَعَةٌ
أَمْرُوهُ الْقَيْسُ وَالنَّابِغَةُ وَطَرَقَةُ وَمُهَلِّبٌ وَقَالَ الْمِفْضَلُ : سُبُلُ الْفَرَزْدَقِ
فَقَالَ : أَمْرُوهُ الْقَيْسُ أَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ : النَّابِغَةُ أَشْعَرُ النَّاسِ
وَقَالَ الْأَخْطَلُ : الْأَعَشَى أَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ أَبْنُ أَحْمَرَ : زُهَيْرٌ أَشْعَرُ
النَّاسِ وَقَالَ ذُو الرِّمَّةِ : لَمِيدُ أَشْعَرِ النَّاسِ وَقَالَ نَضْرَبُ بْنُ شُمَيْلٍ :
طَرَقَةُ أَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ الْكُمَيْتُ : عَمْرُو بْنُ كُثُومٍ أَشْعَرُ النَّاسِ
وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ وَقَلَّةِ الْإِتِّفَاقِ . وَكَانَ أَبْنُ
أَبِي إِسْحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ تَائِدٌ وَمُقَدِّمٌ مَشْهُورٌ يَقُولُ : أَشْعَرُ الْجَاهِلِيَّةِ
الْمُرْقَشُ الْأَكْبَرُ وَأَشْعَرُ الْإِسْلَامِيِّينَ كَثِيرٌ وَهَذَا غُلُوٌّ مَفْرُطٌ
غَيْرُ أَنَّهُمْ مُتَجَبِّهُونَ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَطَالَ الْمَدْحَ (وَقِيلَ) لِنَصِيبِ
مَرَّةٍ : مَنْ أَشْعَرُ الْعَرَبِ فَقَالَ : أَخُو تَيْمٍ يَعْنِي عَلَقَمَةَ بْنَ عَبْدِ وَقِيلَ
أَوْسَ بْنَ حَجْرٍ . وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ بَعْدَ أَمْرِ الْقَيْسِ مَا

لِزُهَيْرٍ وَاللَّائِبَةِ وَالْأَعَشَى فِي النَّفْسِ . وَعُلَمَاءُ الْبَصَرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ
 أَمْرًا الْقَيْسِ وَأَهْلُ الْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ الْأَعَشَى وَأَهْلُ الْحِجَازِ
 وَالْبَادِيَةَ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَاللَّائِبَةَ وَكَانَ أَهْلُ الْعَالِيَةِ لَا
 يَعْدِلُونَ بِاللَّائِبَةِ أَحَدًا كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ لَا يَعْدِلُونَ بِزُهَيْرٍ أَحَدًا .
 قَالَ ابْنُ سَلَامٍ : قَالَ أَهْلُ النَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ أَحْصَفَهُمْ شِعْرًا
 وَأَبَدَهُمْ مِنْ سَخَفٍ وَاجْتَمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَلِيلٍ مِنْ
 الْأَنْطِقِ . وَأَمَّا اللَّائِبَةُ فَقَالَ مَنْ يَخْتِمْ لَهُ كَانَ أَحْسَنَهُمْ دِيبَاجَةَ شِعْرِ
 وَكَثُرَتْ لَهُمْ رَوَاقِ كَلَامٍ وَأَجَزَلُهُمْ بَيِّنَاتُ شِعْرِهِ كَلَامُ لَيْسَ
 فِيهِ تَكْأُفٌ . وَزَعَمَ أَصْحَابُ الْأَعَشَى أَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ عَرُوضًا وَأَذْهَبُهُمْ
 فِي فُنُونِ الشِّعْرِ وَأَكْثَرُهُمْ طَوِيلَةَ جَيْدَةٍ وَمَدَحًا وَهَجَاءً وَتَحْرًا
 وَصِفَةً (وَقَالَ بَعْضُ مُتَقَدِّمِي الْعُلَمَاءِ) الْأَعَشَى أَشْعَرُ الْأَرْبَعَةِ قِيلَ
 لَهُ : قَائِنَ الْخَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ إِنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ يَبْدُو لَوَاءُ الشِّعْرِ
 فَقَالَ : يَهَذَا الْخَبَرُ صَحَّ لِلْأَعَشَى مَا قُلْتُ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلٍ لَوَاءٍ
 إِلَّا عَلَى رَأْسِ أَمِيرٍ فَأَمَرُوا الْقَيْسَ حَامِلُ الْوَاءِ وَالْأَعَشَى الْأَمِيرُ
 (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ : أَرْجُلَا أَمَ حَيًّا
 قِيلَ بَلْ حَيًّا قَالَ : أَشْعَرُ النَّاسِ حَيَّا هَذِيلٌ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ
 الْجَحْمِيُّ وَأَشْعَرُ هَذِيلٍ أَبُو دُوَيْبٍ غَيْرَ مُدَافِعٍ (وَقَالَ الْأَضْمَعِيُّ)
 قَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ : أَفْصَحُ الشُّعْرَاءِ السَّنَاءُ وَأَعْرَبُهُمْ أَهْلُ
 السَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ الْحَبَالُ الْمَطْلُةُ عَلَى تِهَامَةٍ بِمَا يَلِي
 أَلْسِنَ فَأَوَّلُهَا هَذِيلٌ وَهِيَ تَلِي الرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةٍ ثُمَّ عَلَيْهِ السَّرَاةُ

الْوَسْطَى وَقَدْ شَرَكْتَهُمْ ثَقِيفٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا . ثُمَّ سَرَاةُ الْأَزْدِ
 أَزْدَشْنُوهُ وَهُمْ بَنُو الْحَرِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْحَرِثِ بْنِ نَضْرِ بْنِ
 الْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا : أَفْصَحُ النَّاسِ عَلِيًّا تَمِيمٌ وَسُفْلَى قَيْسٍ
 وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ (أَفْصَحُ النَّاسِ سَافِلَةُ الْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ السَّافِلَةِ يَعْنِي
 هَوَازِنَ وَأَهْلَ الْعَالِيَةِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا
 وَلَعَنَهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ . وَقَوْمٌ يَرُونَ تَقْدِيمَةَ الشَّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
 بِأَمْرِى الْقَيْسِ وَفِي الْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي الْمَوَازِينِ
 بِالْحَسَنِ بْنِ هَانِيٍّ وَأَصْحَابِهِ . وَأَشْعَرُ أَهْلِ الْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ النَّاسِ
 وَاتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْأَعْلَاءِ : خُتِمَ الشَّعْرُ
 بِذِي الرُّمَّةِ وَالرَّجَزِ بِرُؤْبَةِ بْنِ الْحَجَّاجِ . وَزَعَمَ يُوسُفُ : أَنَّ الْحَجَّاجَ
 لَيْسَ فِي شَعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ : لَوْ كَانَ مَكَانَهُ
 غَيْرُهُ لَكَانَ أَجُودَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ الشَّاعِرُ يَقُولُ
 مِنَ الرَّجَزِ الْبَيْتَيْنِ وَالْثَلَاثَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ
 فَاهَرَ حَتَّى كَانَ الْحَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدهُ وَشَبَّ فِيهِ وَذَكَرَ
 الدِّيَارَ وَاسْتَوْقَفَ الرِّكَابَ عَلَيْهَا وَاسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى
 الشَّبَابِ وَوَصَفَ الرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ الشُّعْرَاءُ بِالْقَصِيدِ فَكَانَ فِي
 الرَّجَازِ كَأَمْرِى الْقَيْسِ فِي الشُّعْرَاءِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أَوَّلَ مَنْ طَوَّلَ
 شَعْرَ الرَّجَزِ الْأَغْلَبُ الْأَنْجَلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ . وَزَعَمَ الْأَنْجَلِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ
 مَنْ رَجَزَ . وَقَالَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْأَعْمَدَةِ : وَلَا أَظُنُّ ذَلِكَ صَحِيحًا لَهُ
 لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ وَنَحْنُ نُحِبُّ الرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذَلِكَ .

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ: أَفْتَحَ الشَّعْرُ بِأَمْرِ الْقَيْسِ وَخُتِمَ بِأَبْنِ
 هَرَمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: الشُّعْرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَإِسْلَامِيٌّ وَمَوْلَدٌ
 فَالْجَاهِلِيُّ أَمْرُ الْقَيْسِ وَالْإِسْلَامِيُّ ذُو الرُّمَّةِ وَالْمَوْلَدُ ابْنُ الْمُعْتَرِ
 وَهَذَا قَوْلٌ مَنْ يُفَضِّلُ الْبَدِيعَ وَخَاصَّةً الشَّيْبَةَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ
 الشُّعْرِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَقُولُ بِلِ الثَّلَاثَةِ الْأَعَشَى وَالْأَخْطَلُ وَأَبُو
 أَنْفَوَارِسٍ وَهَذَا مَذْهَبُ أَصْحَابِ الْحَرْبِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ
 بِالتَّصْرِفِ وَقَلَّةِ التَّكَاثُفِ. وَقَالَ قَوْمٌ بِلِ الثَّلَاثَةِ مُنَاهِلٌ وَأَبْنُ أَبِي
 رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ الْأَخَنْفِ وَهَذَا قَوْلُ مَنْ يُؤَيِّزُ الْأَنْفَقَةَ وَسُهُولَةَ
 الْكَلَامِ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الصَّنْعَةِ وَالْتَّجْوِيدِ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي
 الْمَوْلَدِينَ أَشْهُرُ أَمَّا مِنْ الْحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٌ وَالتَّجْثَرِيُّ. وَيُقَالُ إِنَّهُمَا
 أَحْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا تَحْسِبَانِيَّةَ شَاعِرٍ كُلُّهُنَّ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي
 الْأَشْتِهَارِ ابْنُ الرُّومِيِّ وَأَبْنُ الْمُعْتَرِ وَطَارَ اسْمُ ابْنِ الْمُعْتَرِ حَتَّى صَادَ
 كَالْحَسَنِ فِي الْمَوْلَدِينَ وَأَمْرُ الْقَيْسِ فِي الْقَدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ الْمُتَنَبِّيُّ
 فَمَلَأَ الدُّنْيَا وَهَذَا كُلُّهُ كَلَامُ ابْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ الْأَعْيَانِ :

وَيَمُنُّ صَنَعٌ مِنْ أَوْلَادِ الْخُلَفَاءِ فَأَجَادَ وَأَحْسَنَ وَبَرَعَ
 وَتَقَدَّمَ أَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَآدَابًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا
 وَتَصَرَّفًا فِي سَائِرِ الْأَدَابِ أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَرِ بِاللَّهِ
 وَأَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هَذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَآدَابِهِ. وَشِعْرُهُ
 وَإِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةٌ الْمُلُوكِيَّةُ وَغَزَلُ الظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ الْخُدَّاثِينَ

فَإِنَّ فِيهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي أُسْلُوبِ الْمُحِيدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ
عَنْ مَدَى السَّابِقِينَ وَأَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ أَشْعَارِ الْمُلُوكِ فِي جِنْسِ
مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْشَبَّهُ فِيهَا بِخَوْلِ الْجَاهِلِيَّةِ . فَلَيْسَ
يُمْكِنُ وَاصِفًا لَصُبُوحٍ فِي مَجْلِسِ شَكْلِ ظَرِيفٍ بَيْنَ نُدَامَى وَقِيَانٍ
وَعَلَى مِيَادِينَ مِنَ النُّورِ وَالتَّنْفِيسِ وَالْزُّجْجِ وَمَنْصُودٍ مِنْ أَمْثَالِ
ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ الْعَجَائِلِ وَقَاخِرِ الْفَرَسِ وَمُخْتَارِ
الْأَلَاتِ وَرَقَّةِ الْحَدَمِ أَنْ يَغْدَلَ بِذَلِكَ عَمَّا يُشَبَّهُهُ مِنَ الْكَلَامِ .
السَّبْطِ الرَّيْقِ الَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ إِلَى جَعْدِ الْكَلَامِ .
وَوَحْشِيَّةٍ إِلَى وَصْفِ الْيَدِ وَاللِّهَامِ وَالطَّبَّاءِ وَالظُّلُمِ وَالنَّاقَةِ وَالْجَمَلِ
وَالدِّيَارِ وَالْقِفَارِ وَالْمَازِلِ الْحَالِيَةِ الْمَهْجُورَةِ وَلَا إِذَا عَدَلَ عَنْ ذَلِكَ
وَأَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا أَنْ يُفْطَ حَقُّهُ كُلُّهُ إِذَا أَحْسَنَ
الْكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي الْبَعْضِ وَقَصَرَ فِي الْبَاقِي وَنَسَبَ إِلَى التَّقْصِيرِ
فِي الْجَمِيعِ لِشَرِّ الْمَقَاجِجِ وَطَيِّرِ الْحَاسِنِ . فَلَوْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا
كُلُّ أَحَدٍ بِمَنْ تَقَدَّمَ لَوْجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ أَنْ قَائِلًا أَرَادَ الطَّعْنَ عَلَى
صُدُورِ الشُّعْرَاءِ لَقَدَّرَ أَيُّ أَنْ يَطْعَنَ عَلَى الْأَعَشَى وَهُوَ أَحَدُ مَنْ
يُقَدِّمُهُ الْأَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ الشُّعْرَاءِ بِقَوْلِهِ :

فَأَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطَحَّاهَا

وَبِقَوْلِهِ :

وَقَدْ كَانَ إِنْ يَأْمُرُهُمْ كُلٌّ لِيَلِيَهُ بِقِتٍ وَتَعْلِيْقٍ فَقَدْ كَادَ يَنْبُقُ
وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرَةٌ . وَإِنَّمَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُحْفَظَ مِنْ

الشَّيْءَ أَحْسَنَهُ وَيُلْغِي مَا لَا يُسْتَحْسِنُهُ فَلَيْسَ مَأْخُودًا بِهِ وَلَكِنَّ أَقْوَامًا
 أَرَادُوا أَنْ يَرْفَعُوا أَنْفُسَهُمُ الْوَضِيعَةَ وَيَشِيدُوا بِذِكْرِهِمُ الْخَامِلِ
 وَيُعَلُّوا أَقْدَارَهُمُ السَّاقِطَةَ بِالطَّغْنِ عَلَى أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْقَدَحِ فِيهِمْ
 فَلَا يَزْدَادُونَ بِذَلِكَ إِلَّا ضَعْفًا وَلَا يَزْدَادُ الْآخَرُ إِلَّا أَرْتِفَاعًا. أَلَا تَرَى
 إِلَى ابْنِ الْمُعْتَزِّ قَدْ قُتِلَ أَسْوَأُ قِتْلَةٍ وَدَرَجَ قَلَمٌ يَتَّقُ لَهُ خَلْفٌ يَفْرُطُهُ
 وَلَا عَقِبٌ يَرْفَعُ مِنْهُ وَمَا يَزْدَادُ بِأَدَبِهِ وَشِعْرِهِ وَفَضْلِهِ وَحُسْنِ إِخْبَارِهِ
 وَتَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ الْعُلُومِ إِلَّا رُفْعَةً وَعُلُوًّا وَلَا نَظَرَ إِلَى أَضْدَادِهِ
 كُلَّمَا أَرَادُوا فِي طَغْنِهِ وَتَفْرِيطِ أَنْفُسِهِمْ. وَأَسْلَفُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا
 مِثْلَهُمْ فِي ثَلْبِهِ وَالطَّغْنِ عَلَيْهِ زَادُواهَا سُقُوطًا وَضَعَةً وَكُلَّمَا وَصَفُوا
 أَشْعَارَهُمْ وَقَرُّطُوا أَدَابَهُمْ زَادُوا بِهَا ثِقَلًا وَمَقْتًا فَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ
 الْحُصْلُ الْمَوَاقِفُ عَدَلُوا عَنْ ثَلْبِهِ فِي الْأَدَابِ إِلَى التَّشْنِيعِ بِأَمْرِ
 الَّذِينَ وَهَجَاءَ آلِ أَبِي طَالِبٍ وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَشَنَعَ بِهِ عَلَى
 آلِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ الْمُكْتَفِي حَتَّى نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَدَلُوا عَنْ عَيْبِ
 أَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ إِلَى عَيْبِهِ وَارْتَكَبُوا أَكْثَرَ مِنْهُ. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ
 حَسَنَ الْعِلْمِ بِصِنَاعَةِ الْمَوْسِيقَى وَالْكَلَامِ عَلَى النَّعَمِ وَعِلْمَهَا وَلَهُ فِي
 ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَدَابِ كُتُبٌ مَشْهُورَةٌ وَمُرَاسِلَاتٌ جَرَتْ
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ وَبَيْنَ بَنِي حَمْدُونَ
 وَغَيْرِهِمْ تَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِ وَغَزَاةٍ عَلَيْهِ وَأَدَبِهِ وَلَقَدْ قَرَأْتُ بِحَظِّ عُبَيْدِ
 اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ رُقْعَةً إِلَيْهِ بِحَظِّهِ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ إِلَى ابْنِ
 حَمْدُونَ فِي أَنَّهُ يُجَوِّزُ وَلَا يُنْكَرُ أَنْ يُغَيَّرَ الْإِنْسَانُ بَعْضُ نَعَمِ الْعِلَاءِ

الْقَدِيمِ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلُقِهِ وَمَنْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ
طَوِيلَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ الْمَشَاهِيرُ مِنَ الشُّعْرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ أَكْثَرَ
مِنْ أَنْ يُخَصَّصُوا ذَكَرْتُ مِنَ الْمُقَلِّينَ مَنْ وَسَّعَ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ
فَمِنْهُمْ طَرَقَةُ بْنُ الْعَبْدِ وَعَيْيُدُ بْنُ الْأَبْرَصِ وَعَلَقَمَةُ الْفَحْلُ وَعَدِي
أَبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَقَةُ فَضَّلَ النَّاسَ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَهِيَ الْمَلَقَّةُ:
لِحَوْلَةِ أَطْلَالٍ بِطَرَقَةٍ تَهْمِدُ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ الْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ
وَأَصَحُّ مَا فِي ذَلِكَ قَوْلُ أُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً فَلَمَّا تَوَفَّاهَا أُسْتَوَى سَيِّدًا صَحْبًا
فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَحْمًا
أَنْشَدَهُ الْمُبَرَّدُ وَالْقَحْمُ الْمُسْتَأْهِمِي فِي السَّنَةِ. وَعَيْيُدُ قَلِيلُ الشُّعْرِ
فِي أَيِّدِي النَّاسِ عَلَى قَدَمِ ذِكْرِهِ وَعَظَمَ شُهْرَتِهِ وَطُولَ عُمرِهِ يُقَالُ
إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثِمِائَةَ سَنَةٍ وَكَذَلِكَ أَبُو دَوَادٍ. وَإِعْلَقَمَةُ الْفَحْلُ ثَلَاثُ
قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٍ أَحَدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبَتْ مِنَ الْهَجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ) وَالثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَلْحَا بِكَ قَلْبُ

فِي الْحَسَنِ طَرُبُ) وَالثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَدِنْتَ وَمَا اسْتَوْدَعْتَ مَكْتُومُ)
وَأَمَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَشْهُورَاتُهُ أَرْبَعُ قَوْلُهُ: (أَرَوَّاحُ مَوْدِعِ أَمْ
بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدٍ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ
شَيْءٌ عَلَى الْمُنُونِ يَبَاقِي) وَقَوْلُهُ:

لَمْ أَرِ مِثْلَ الْفَتَيَانِ فِي غَيْرِ أَلَا مَ يَامَ يَنْسُونَ مَا عَوَّاهَا
وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: عَدِيُّ بْنُ الشُّعْرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي النُّجُومِ
يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا هُوَلَاءُ أَشْعَارُهُمْ كَثِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ
فِي أَيْدِي النَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ الرُّوَاةِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا .
وَمِنْ الْمُقَلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحَصَيْنُ بْنُ الْحُمَامِ الْفَرَسِيُّ
وَالْمُتَلِّسُ وَالْمُسَيَّبُ بْنُ عَالَسٍ كُلُّ أَشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ
الْجُمْلَةِ . وَيُرْوَى عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ قَالَ: اتَّفَقُوا أَنَّ أَشْعَرَ الْمُقَلِّينَ
فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ الْمُتَلِّسُ وَالْمُسَيَّبُ بْنُ عَالَسٍ وَحَصَيْنُ بْنُ الْحُمَامِ
الْفَرَسِيُّ . وَأَمَّا أَصْحَابُ الْوَاحِدَةِ فَطَرَقَةُ أَوَّلُهُمْ وَمِنْهُمْ عَنَتْرَةُ وَالْحَرْثُ
ابْنُ جِلْزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُثُومٍ أَصْحَابُ الْمُعَلَّقَاتِ الْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ
مَعْدِي كَرَبٍ وَالْأَشْعَرُ بْنُ حَمْرَانَ الْجُعْفِيُّ وَسُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ
وَالْأَسْوَدُ بْنُ يَغْفَرٍ وَكَانَ أَمْرُوهُ الْقَيْسُ مُقْبَلًا كَثِيرَ الْمَعَانِي
وَالْتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ إِلَّا ثِنْفٌ وَعَشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ



البحث الثالث

في المغلبين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

وَأَمَّا الْمَغْلَبُونَ فَمِنْهُمْ تَابِعَةُ بْنُ جَسَدَةَ وَمَعْنَى الْمَغْلَبِ الَّذِي لَا ذَالَ مَغْلُوبًا قَالَ أَمْرُوهُ الْقَيْسُ :

فَلَمْ يَنْجُرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ وَشَلُّ مَغْلَبٍ
يَعْنِي إِذَا قَدَّرَ لَمْ يُبْقِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى الْجَعْدِيِّ أَوْسُ بْنُ مَفْرَاءَ
وَلَيْلَى الْأَخِيلِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ إِنَّ مَوْتَ الْجَعْدِيِّ كَانَ بِسَبَبِ لَيْلَى
الْأَخِيلِيَّةِ قَرْنٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا قَامَتْ فِي الطَّرِيقِ مُسَافِرًا . وَالْمَغْلَبُونَ
الرَّبْرَقَانُ غَلَبَهُ عَمْرُو بْنُ الْأَهِمِّ وَغَلَبَهُ الْمَغِيلُ السَّعْدِيُّ وَغَلَبَهُ الْخَطِيبَةُ
وَقَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ كَانَ الْبَيْعُ مَغْلَبًا فِي الْخُطْبِ

قَالَ ابْنُ رِشْقٍ فِي الْعُمْدَةِ فِي بَابِ الْقُدَمَاءِ وَالْمُحْدَثِينَ :
كُلُّ قَدِيمٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ فَهُوَ مُحْدَثٌ فِي زَمَانِهِ بِالْإِضَاقَةِ إِلَى مَنْ
كَانَ قَبْلَهُ وَكَانَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْأَعْلَاءِ يَقُولُ لَقَدْ حَسُنَ هَذَا الْمَوْلَدُ
حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَمَرَ صَنِيعًا بِرِوَايَتِهِ يَعْنِي بِذَلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ
وَالْفَرَزْدَقِ فَجَعَلَهُ مُوَلَّدًا بِالْإِضَاقَةِ إِلَى شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْمُحَضَّرِينَ
وَكَانَ لَا يَعُدُّ الشُّعْرَ إِلَّا مَا كَانَ لِلْمُقَدِّمِينَ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : جَلَسْتُ
إِلَيْهِ عَشْرَ حَجَجٍ فَمَا سَمِعْتُهُ يَخْتُمُ بِنَيْتٍ إِسْلَامِيٍّ وَسُئِلَ عَنْ
الْمَوْلَدِينَ فَقَالَ : مَا كَانَ مِنْ حَسَنِ فَقَدْ سُبُّوا إِلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ

قَبِيحٌ فَهُوَ مِنْ عِندِهِمْ لَيْسَ النَّسْطُ وَاحِدًا. هَذَا مَذْهَبُ أَبِي عَمْرٍو
 وَأَصْحَابِهِ كَأَلِ الْأَضْمَعِيِّ وَأَبْنِ الْأَعْرَابِيِّ أَعْنِي أَنْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
 يَذْهَبُ فِي أَهْلِ عَصْرِهِ هَذَا الْمَذْهَبَ وَيَقْدِمُ مِنْ قَبْلَهُمْ وَلَيْسَ
 ذَلِكَ لَيْشِي إِلَّا لِحَاجَتِهِمْ فِي الشَّعْرِ إِلَى الشَّاهِدِ وَقَلَّةِ ثِقَتِهِمْ بِمَا يَأْتِي
 بِهِ الْمُؤَلَّدُونَ فَأَمَّا أَبُو قَتَيْبَةَ فَقَالَ: لَمْ يَقْصِرِ اللَّهُ الشَّعْرَ وَالْعِلْمَ
 وَالْبَلَاغَةَ عَلَى زَمَنِ دُونَ زَمَنِ وَلَا خَصَّ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ بَلْ جَعَلَ
 ذَلِكَ مُشْتَرَكًا مَقْسُومًا بَيْنَ عِبَادِهِ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَجَعَلَ كُلُّ قَدِيمٍ
 حَدِيثًا فِي عَصْرِهِ. ثُمَّ قَالَ أَبُو رَشِيقٍ فِي بَابٍ آخَرَ: طَبَقَاتُ
 الشُّعْرَاءِ أَرْبَعٌ جَاهِلِيٌّ قَدِيمٌ وَمُحَضَّرٌ وَهُوَ الَّذِي أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَّةَ
 وَإِسْلَامِيٌّ وَمُحَدَّثٌ ثُمَّ صَارَ الْمُحَدَّثُونَ طَبَقَاتٍ أُولَى وَثَانِيَّةٌ عَلَى
 التَّدْرِيجِ هَكَذَا فِي الْأَلْبُوطِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا فَلْيَعْلَمْ الْمُتَأَخِّرُ مِقْدَارَ مَا
 بَقِيَ لَهُ مِنَ الشَّعْرِ مُتَصَفِحًا أَشْعَارَ مَنْ قَبْلَهُ لِيَنْظُرَ كَمْ بَيْنَ الْمُحَضَّرِ
 وَالْجَاهِلِيِّ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِيِّ وَالْمُحَضَّرِ وَأَنَّ لِلْمُحَدَّثِ الْأَوَّلِ فَضْلًا
 عَمَّنْ بَعْدَهُ فِي الْمَثَلَةِ. فَفِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ مَنْ ذَهَبَ
 بِكُلِّ مَلَاحَةٍ وَرَشَاقَةٍ وَسَبَقَ إِلَى كُلِّ طُلَاوَةٍ وَبَلَّاقَةٍ (قَالَ) أَبُو
 الْحَسَنِ الْأَخْفَشُ: يُقَالُ مَاءٌ خَضِرٌ إِذَا تَنَاهَى فِي الْكَثْرَةِ
 وَالسَّعَةِ فَفَنَّهُ سُبَى الرَّجُلِ الَّذِي شَهِدَ الْجَاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ مُحَضَّرًا
 كَأَنَّهُ اسْتَوْفَى الْأَمْرَيْنِ (قَالَ) وَيُقَالُ: أُذُنٌ مُحَضَّرَةٌ إِذَا
 كَانَتْ مَقْطُوعَةً فَكَأَنَّهُ انْقَطَعَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى الْإِسْلَامِ
 (وَحَكَى) أَبُو قَتَيْبَةَ عَنْ الْأَضْمَعِيِّ قَالَ: أَسْلَمَ قَوْمٌ فِي

الجاهلية على ابل قطعوا آذانها فسمي كل من أدرك الجاهلية
والإسلام محضراً وزعم أنه لا يكون محضراً حتى يكون
إسلامه بعد وفاة الرسول وقد أدركه كثيراً فلم يسلم (قال) ابن
رشيقي: وهذا عندي خطأ لأن النابغة الجعدي وليداً قد وقع
عليها هذا الاسم فاما علي بن الحسن كراع فقد حكى: شاعر
محضرم بجاء غير مفعمة مأخوذ من الحضرة وهي الخلطة لأنه خلط
الجاهلية والإسلام وقالوا: الشعراء أربعة: شاعر خنذيد وهو
الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الخنيد من شعر غيره. وسئل
دوبة عن الخول فقال: هم الرواة. وشاعر مفلح وهو الذي لا
رواية له إلا أنه مجود كالخنذيد في شعره. وشاعر فقط وهو
فوق الردي بدرة وشعور وهو لا شيء. قال بعض الشعراء:
يا رابع الشعراء كيف هجوتني وزعمت آبي منهم لا أنطق
وقيل بل هم شاعر مفلح وشويعر وشعور والمفلح
الذي يأتي في شعره بالفلق وهو العجب وقيل الداهية (قال
الأصمعي) الشويعر خمران بن أبي خمران سمأ بذلك أمرؤ
القيس ومثل عبد العزيز المعروف بالشويعر. قال الجاحظ:
والشاعر عبد بليل من بني سعد بن كيث وقيل أسفه ربيعة بن
عثمان وقال بعضهم شاعر وشويعر وشعور. قال العبدى في شاعر
يدعى الملقوف من بني ضبة ثم من بني حميس:
ألا تنهى سراًه بني حميس شويعرها فويلية الأفاعي

فَسَمَاهُ شُرَيْعًا. وَقَالِيَةُ الْآفَاعِي دُونِيَّةً فَوْقَ الْخَفَسَاءِ فَصَغَّرَهَا تَحْقِيرًا بِهِ
وَرَزَمَ الْحَاقِمِيُّ أَنَّ النَّابِغَةَ سُئِلَ: مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ مَنْ أَسْتَحْيِدُ
جَيْدَهُ وَأَضْحَكَ رَدِيئَهُ كَانَ مِنْ سَفَلَةِ الشُّعْرَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ
فِي الْهَجَاءِ خَاصَّةً وَقَالَ الْخَطِيبِيُّ:

الشُّعْرُ صَغْبٌ وَطَوِيلٌ سَلَمَةٌ وَالشُّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهُ
إِذَا أَرْتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ
يُرِيدُ أَنْ يُغَرِّبَهُ فَيُخْجِمُهُ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

الشُّعْرَاءُ قَالَعَمَنْ أَرْبَعَهُ فَشَاعِرٌ لَا يُرْتَجَى لِنَفْعِهِ
وَشَاعِرٌ يُنْشَدُ وَسَطُ الْجَمْعَةِ وَشَاعِرٌ آخَرٌ لَا يُجْرَى مَعَهُ
وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَمَرٌ فِي دَعَا

قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ: وَإِنَّمَا سُمِّيَ الشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا
يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ. قَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي شَرْحِ الدُّرَيْدِيِّ يَقَالُ:
أَنْشَدْتُهُ مُقَلَّدَاتِ الشُّعْرَاءِ أَيَّ آيَاتِهِمُ الطَّائِنَةِ الْمُسْتَحْسَنَةِ وَيَقُولُ
آخَرُونَ: إِنَّ الْمَقْلَدَ مِنَ الشُّعْرِ مَا كَانَ أَمُّهُ الْمَمْدُوحُ فِيهِ مَذْكُورًا
فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ: هَذَا أَلْبَيْتُ عُقْرِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَيُّ أَجُودَ بَيْتٍ
فِيهَا كَمَا يُقَالُ: هَذَا بَيْتُ طَنَّانٍ. اه. وَفِي الْمَقْصُورِ وَالْمَمْدُودِ
لِلْقَالِي: قَالَ أَبُو عَمِيَّةٍ فِي قَوْلِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِي:

يَصُدُّ الشَّاعِرُ الثَّنِيانُ عَنِّي صُدُودَ الْبَكْرِ عَنْ قَرْنِ الْهَجَانِ
قَالَ الثَّنِيانُ الَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَأَبُوهُ شَاعِرٌ كَكَعْبِ بْنِ زَهَيْرٍ

وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانَ وَرُوْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو الشَّيْبَانِيُّ
 اثْنَانِ الَّذِي يُسْتَقْتَى فَيُقَالُ مَا فِي الْقَوْمِ أَشْعَرُ مِنْ فُلَانٍ إِلَّا
 فُلَانٌ فُلَانٌ يُسْتَقْتَى هُوَ الْأَفْضَلُ الْأَشْعَرُ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ اثْنَانُ
 الَّذِي تُثْنَى عَلَيْهِ أَخْبَارُ فِي الْعَدَدِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ
 هُوَ الَّذِي يُسْتَقْتَى مِنَ الشُّعْرَاءِ لِأَنَّهُ دُونَهُمْ . وَقَالَ غَيْرُهُ اثْنَانُ
 الضَّعِيفُ . وَقَالَ الْقَالِي : اثْنَانُ عِنْدِي الَّذِي يُسْتَقْتَى مِنَ الْقَوْمِ
 رَفِيعًا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا فَيُقَالُ لِلدُّونِ وَالضَّعِيفِ ثْنَانٌ وَلِلرَّفِيعِ
 وَالشَّاعِرِ ثْنَانٌ (وَقَالَ الْقَالِي) فِي الْقُصُورِ وَالْمَدُودِ . حَدَّثَنَا
 أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ قَالَ . ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَاحِسِبُ الْأَصْمَعِيُّ قَدْ
 ذَكَرَهُ أَيْضًا قَالَ . لَقِيتَ السَّعْلَةَ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي بَعْضِ
 طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ الشَّعْرَ فَبَرَكْتَ عَلَى صَدْرِهِ
 وَقَالَتْ أَنْتَ الَّذِي جُوعَ قَوْمُكَ أَنْ تَكُونَ شَاعِرُهُمْ قَالَ : نَعَمْ .
 قَالَتْ . فَأَنْشِدْنِي ثَلَاثَةَ آيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَلَا تَقْلُتْكَ فَقَالَ :
 إِذَا مَا تَرَعَرَعَ فِينَا الْأَعْلَا مُ قَا إِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَ
 إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ قَدْ مِ لِكَ فِينَا الَّذِي لَا هُوَ
 وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي الشَّيْضَبَا نِ فَحِينَا أَقُولُ وَحِينَا هُوَ
 فَحَلَّتْ سَيْلُهُ وَقَالَتْ : أَوَّلَى لَكَ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : يُقَالُ السَّعْلَةُ
 سَاحِرَةٌ الْحِنْ
 (قَائِدَةٌ) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الْبَطْلَيْوْسِيُّ . وَقَدْ أَنْشَدَ قَوْلَ
 الْقَرَزْدَقِيِّ :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا تُمَلِّكَ أَبُو أُمِّهِ حَيَّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ
هَذَا وَأَمثَالُهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي الْأَعْرَابِ . فَلَيْسَ يَجْنُسُ فِي
الشَّعْرِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ . لِمَا فِيهِ مِنْ وَهْيِ الشَّنَجِ وَالْأَضْطِرَابِ .
وَالشَّعْرُ إِذَا أَخْوَجَ إِلَى شَرْحٍ لَمْ يُعَدَّ فِي قَافِرِ الْمَسَاقِ . وَلَا قَامَ
فِي الْإِحْسَانِ عَلَى سَاقٍ . وَلَا عَذَبَ فِي الْمَذَاقِ . فَهُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ
الْحَدَاقِ . وَيَحْتَاجُ الشَّعْرُ إِلَى أَنْ يَسْبِقَ مَعْنَاهُ لَفْظُهُ . فَتَسْتَلِدُّ النَّفُوسُ
رِوَايَتَهُ وَحِفْظُهُ . وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ تَكْتَلِمَ . بَيَانُ مَا يُجَاوِزُهُ
لِلْعَالِمِ . وَأَلْتَعَلَّمَ . فَإِنْ تَكَلَّمَ بِمَقْلُوبٍ . مَجْتَنِّهِ الْأَسْمَاعُ وَالْقُلُوبُ . وَلَمْ
يَتَّخِصَّلْ مِنْهُ الْفَرَضُ الْمَطْلُوبُ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ أَمَا تَرَى فِي الْأَشْعَارِ
أَمثَالَ هَذَا كَقَوْلِهِ :

لَهَا مُقَلَّتَا أَدَاءٍ طَلَّ خَبِيلَةً مِنْ الْوَحْشِ مَا يَنْفَكُ يَرْغَى عَرَاهَا
قِيلَ لَهُ وَهَذَا أَيْضًا قَدْ أَحَالَ وَمِنْ تَكَالَفٍ شَلَّ هَذَا لَمْ
يُخَفَّفْ عَنْ نَفْسِهِ الْكُفَافَةَ وَاللَّامَ . وَتَعَرَّضَ لِأَنْ يَلَامَ . وَتَرَكَ
بَيْنَ الْكَلَامِ . وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ الْكَلَامُ وَالشَّعْرُ بِجُسْنِ الْعِبَارَةِ
وَالدِّيَاجَةِ . وَرَوَتْهُ الْفَصَاحَةُ حَتَّى تَكُونَ الْفَاطْهَاتُ كَانُزُجَاجَةٍ . وَإِلَّا
فَالْعَالِي مَعْرَضَةٌ لِكُلِّ جِيلٍ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ حَتَّى
لِلزُّنَجِ وَالْتَرِ وَالْتَرِ لِكِنَّهُمْ قَصُرَتْ بِهِمْ السِّتْمُ عَنْ بُلُوغِ
مَارَامِهِ مِنْ أَرَبٍ . قَدْ تَهَيَّأَ عَلَى السِّتَةِ الْعَرَبِ . وَأَقْلَ مَا يَجِبُ عَلَى
أَلْتَكَلِمِ أَلْيَانُ لِحَاطِهِ . وَإِلَّا كَانَ كَحَاطِ اللَّيْلِ وَحَاطِهِ . يُحَاطَبُ
الْعَرَبِيُّ بِالْعَجِيَّةِ وَيُحَاطَبُ الْعَجَبِيُّ بِالْعَرِيَّةِ . وَصِنَاعَةُ الشَّعْرِ أَشَدُّ

حَضْرًا. وَأَمَدَّ عَصْرًا وَذَلِكَ أَنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ رَاهِبٌ أَوْ مُعَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيِ مَلِكٍ فَإِنْ حَكَمَى عَنْ نَفْسِهِ وَإِلَّا كَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يَمْلِكَ فَبِنَ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو بِنُ جُنَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ زَكْرِيَاءَ حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْغِلَاظِيُّ حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ سَائِقٍ قَالَ: دَخَلَ النَّابِغَةُ عَلَى النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ فَقَالَ:

تَحِفُّ الْأَرْضُ إِنْ تَفْقِدَكَ يَوْمًا وَتَبْقَى مَا بَقِيَتْ بِهَا ثَقِيلًا
فَنَظَرَ إِلَيْهِ النُّعْمَانُ نَظَرَ غَضَبَانَ . وَكَانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ حَاضِرًا
فَقَالَ: أَضْلَعَ اللَّهُ الْمَلِكَ إِنَّ مَعَ هَذَا بَيْتًا ضَلَّ عَنْهُ هُوَ

لِأَنَّكَ مَوْضِعُ الْقِسْطِ مِنْهَا فَتَسْمَعُ جَانِبَيْهَا أَنْ تَمِيلَا
فَضَحِكَ النُّعْمَانُ وَأَمَرَ لَهَا بِجَاوِزَتَيْنِ فَلَوْلَا كَعْبٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ .
فَإِنْ كَانَ الشَّاعِرُ مُحَاطَبًا مِنْ دُونِ الْمَلِكِ الْأَشْمِ بِمَا لَا يَفْهَمُ وَكَانَ
رَاغِبًا فِي دِرْهِمٍ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِيُطْلَانَ حَاجَتِهِ وَأَسْتَهْجَانَ شِعْرَهُ
وَتَحْقِيرَ أَمْرِهِ وَالْقَدَمَاءُ فِي هَذَا أَعْدَرُوا لِأَنَّهَا لَعَنَهُمُ



الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العدة لابن رشيقي)

وَمِنْ الشَّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَالْمَطْبُوعُ هُوَ الْأَصْلُ وَضَعَ عَلَيْهِ
أَوَّلًا وَعَلَيْهِ الدَّارُ وَالْمَصْنُوعُ وَإِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ هَذَا الْأِسْمُ فَلَيْسَ
مُتَكَلِّفًا تَكَلَّفَ أَشْعَارَ الْمُؤَلِّدِينَ. لَكِنْ وَقَعَ فِي هَذَا النَّوعِ
الَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّلٍ لَكِنْ بِطَبَاعِ الْقَوْمِ
عُنُوا وَاسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا إِلَيْهِ بَعْضَ الْكَمَلِ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا وَجْهَ
اخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرٌ الْحَوَلِيَّاتِ عَلَى التَّنْقِيجِ وَالتَّثْقِيفِ
يَضَعُ الْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظْرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ التَّعَقُّبِ بَعْدَ أَنْ
يَكُونَ قَدْ فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ أَوْ لَيْلَةٍ. وَرَبَّمَا قَصَدَ إِقَامَةَ
نَشَاطِهِ قَتْبَاطًا عَمَلُهُ لِذَلِكَ. وَالْأَرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي أَعْطَافِ شِعْرِهَا بِأَنْ
يُحْسِنَ أَوْ يُطَابِقَ أَوْ يُقَابِلَ فَتَتْرَكَ لَفْظَةً لِلْفِظَةِ أَوْ مَعْنَى لِمَعْنَى كَمَا
يَفْعَلُ الْمُحَدِّثُونَ وَلَكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ الْكَلَامِ أَوْ جَزَالِيهِ

وَبَسْطِ الْمَغْنَى أَوْ إِبْرَازِهِ وَاتِّقَانِ بَيْتِ الشِّعْرِ وَإِحْكَامِ الْقَافِيَةِ
وَتَلَاخُمِ الْكَلَامِ بَعْضِهِ يَبْغِضُ حَتَّى عَدُّوا مِنْ فَضْلِ صَنْعَةٍ
أَخْطِئَتْ حَتَّى نَسَقَهُ الْكَلَامُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ :

فَلَا وَآيِكَ مَا ظَلَمْتَ قُرَيْعُ بَانَ يَنْبُوا الْمَكَارِمَ حَيْثُ شَاؤُوا
وَلَا وَآيِكَ مَا ظَلَمْتَ قُرَيْعُ وَلَا عَنُفُوا بِذَلِكَ وَلَا آسَأُوا
فَإِنَّ الْجَارَ مِثْلَ الضَّيْفِ يَغْدُو لَوُجْهِهِ وَإِنْ طَالَ الثَّوَاءُ
وَرَاتِي قَدْ عَلَتْ بِجَبَلِ قَوْمٍ أَعَانَهُمْ عَلَى الْحَسَبِ الْثَرَاءُ
وَأَسْتَظَرُّوْا مَا جَاءَ مِنْ الصَّنْعَةِ نَحْوَ الْبَيْتِ وَالْبَيْتَيْنِ فِي الْقَصِيدَةِ
بَيْنَ الْقَصَائِدِ يُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى جُودَةِ شِعْرِ الرَّجُلِ وَصِدْقِ حِسِّهِ
وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ . وَأَمَّا إِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فَهُوَ غَيْبٌ يَشْهَدُ بِخِلَافِ الطَّبَعِ
وَأَيَّارِ الْكُلْفَةِ وَلَيْسَ يُجِبُّهُ الْبَيِّنَةُ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ الشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ
كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا مُتَّصَعٌ مِنْ غَيْرِ قَصِيدٍ كَالَّذِي يَأْتِي مِنْ أَشْعَارِ
صَيْبٍ وَالتَّجْزِئَةِ وَغَيْرِهَا وَقَدْ كَانَا يَطْلُبَانِ الصَّنْعَةَ وَيُؤْلَعَانِ بِهَا . فَأَمَّا
حَبِيبٌ فَيَذْهَبُ إِلَى حُزُونَةِ اللَّفْظِ وَمَا يَلَا أَلْسِنَاعَ مِنْهُ مَعَ التَّصْنِيعِ
الْحُكْمِ طَوْعًا وَكَرْهًا يَأْتِي الْأَشْيَاءَ مِنْ بُعْدٍ وَيَطْلُبُهَا بِكُلْفَةٍ
وَيَأْخُذُهَا بِقُوَّةٍ . وَأَمَّا التَّجْزِئَةُ فَكَانَ أَمْلَحَ وَأَحْسَنَ مَذْهَبًا فِي
الْكَلَامِ يَسْلُكُ مِنْهُ دِمَاسَةً وَسُهُولًا مَعَ إِحْكَامِ التَّصْنِيعِ وَقُرْبِ
الْمَأْخُذِ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ كُفَّةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ . وَمَا أَعْلَمُ شَاعِرًا أَكْمَلَ
وَلَا أَمْلَحَ تَصْنَعًا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُغْتَرِّ فَإِنَّ صَنْعَتَهُ حَيِّثُ لَا تَكَادُ
تَظْهَرُ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ إِلَّا لِلْبَصِيرِ بِدَقَائِقِ الشِّعْرِ وَهُوَ عُدِي

أَنْظَفُ أَصْحَابِهِ شِعْرًا وَأَكْثَرُهُمْ بَدِيْعًا وَأَفْنَانًا وَأَقْرَبُهُمْ قَوَافِي
وَأَوْزَانًا وَلَا أَرَى وَرَاءَهُ غَايَةَ لِطَالِبِهَا فِي هَذَا الْبَابِ . غَيْرَ أَنَّا لَا نَحْدُ
الْمُبْتَدِئِ فِي طَلَبِ التَّصْنِيعِ وَمُزْأَوَلَةِ الْكَلَامِ أَكْثَرَ اتِّبَاعًا مِنْهُ
بِمُطَالَعَةِ شِعْرِ حَبِيبٍ وَشِعْرِ مُسْلِمٍ بْنِ الْوَلِيدِ لَمْ فِيهِمَا مِنَ الْقُضِيْلَةِ
لِئْتَفِيْهَا وَلَا نَهْمًا طَرَفًا إِلَى الصَّنْعَةِ وَمَعْرِفَتِهَا طَرِيقًا سَابِلَةً وَكَثَرًا مِنْهَا
فِي أَشْعَارِهَا تَكْثِيرًا سَهْلًا عِنْدَ النَّاسِ وَحَسْرَةً عَلَيْهِمْ عَلَى أَنَّ مُسْلِمًا
أَسْهَلَ شِعْرًا مِنْ حَبِيبٍ وَأَقْلَّ تَكَلُّفًا وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّفَ
الْبَدِيعَ مِنَ الْمَوْلَدِينَ وَأَخَذَ نَفْسَهُ بِالصَّنْعَةِ وَكَثُرَ مِنْهَا وَلَمْ يَكُنْ فِي
الْأَشْعَارِ الْخُدَّةَ قَبْلَ مُسْلِمٍ إِلَّا التُّبْدُ الْيَسِيرَةُ . وَهُوَ هَؤُلَاءِ الْمَوْلَدِينَ
كَانَ يُنْطَى فِي صَنْعَتِهِ وَيُجِيدُهَا . وَقَالُوا : أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ الْبَدِيعَ
مِنَ الْخُدَثَيْنِ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَهُوَ سَاقَةُ الْعَرَبِ وَآخِرُ مَنْ
يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ ثُمَّ اتَّبَعَهُمَا مُقْتَدِيَا بِهِمَا كُلُّهُمْ مِنْ عَمْرِو الْعِتَابِيِّ
وَمَنْصُورُ النَّسْرِيِّ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ وَأَبُو نُوَاسٍ وَاتَّبَعَ هَؤُلَاءِ أَبُو
تَمَّامٍ وَالْجُثْرِيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْأَعْتَرِ فَأَتَتْهُيْ عِلْمُ الْبَدِيعِ وَالصَّنْعَةِ وَخَمَّ
بِهِ . وَشَبَّ قَوْمٌ أَبَا نُوَاسٍ بِالنَّابِغَةِ لَمَّا اجْتَمَعَ لَهُ مِنَ الْجَزَالَةِ مَعَ الرَّشَاقَةِ
وَحُسْنِ الدِّيَابِجَةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَدْحِ الْمُلُوكِ . وَأَمَّا بَشَّارٌ فَقَدْ شَبَّهُهُ
بِأَمْرِئِ الْقَيْسِ لِتَقْدُّمِهِ عَلَى الْمَوْلَدِينَ وَأَخَذَهُمْ عَنْهُ . وَمِنْ كَلَامِهِمْ :
بَشَّارُ أَبُو الْخُدَثَيْنِ . وَسَمِعْنَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ غَيْرَ مَرَّةٍ يَقُولُ : إِنَّا سُبِي
الْأَعَشَى صَنَاجَةُ الْعَرَبِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ ذَكَرَ الصَّنِيعَ فِي شِعْرِهِ . قَالَ
وَيُقَالُ بَلْ سُبِي صَنَاجَةُ لِقْوَةِ طَبْعِهِ وَحَلِيَةِ شِعْرِهِ يُحِيلُ إِلَيْكَ إِذَا

أَنشَدَتْهُ أَنَّ آخَرَ يُنْشِدُ مَعَكَ . وَمِثْلُهُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ تُنْشِدُ أَقْصَرَ شِعْرَهُ
عَرُوضًا وَالْيَنَّةَ كَلَامًا فَحْدُهُ لَهٗ فِي نَفْسِكَ هَزَّةٌ وَجَلْبَةٌ مِنْ قُوَّةِ الطَّبْعِ .
إِنْغَضَى كَلَامَ عَبْدِ اللَّهِ وَرَجَعْنَا إِلَى الْقَوْلِ فِي الطَّبْعِ وَالتَّضَنِيعِ .
فَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ مُصَنِّعًا فَإِنَّ جَيِّدَهُ مِنْ سَائِرِ شِعْرِهِ كَأَيِّ تَمَامٍ
فَصَارَ مُحْضُورًا مَعْرُوفًا بِأَعْيَانِهِ فَإِذَا كَانَ الطَّبْعُ غَالِبًا عَلَيْهِ لَمْ يَبَيِّنْ
جَيِّدَهُ كُلَّ الْبَيِّنَاتِ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْ قَرِيبِ كَالْبُحْثَرِيِّ . وَمَنْ شَاكَهُ
وَقَدْ نَصَّ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي بَعْضِ تَسْطِيرَاتِهِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي
حَكِيمَةَ الشَّاعِرِ حِينَ عَابَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فِي الْفَرَسِ مِنْ قَصِيدَةٍ رَأَى
بِهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنُ ظَاهِرٍ :

فَلَهُ شَهَامَةٌ سُودَنِيْقٍ بِأَكْبَرٍ وَخَوَافِرُ حُفْرٍ وَرَأْسُ صَنْعٍ
وَذَكَرَ قَوْلَ أَبِي تَمَامٍ (بِخَوَافِرِ حُفْرٍ وَصُلْبِ صُلْبٍ) فَحْفَلَّ بِهِ وَأَعْتَدَرَ
لَهُ وَخَرَجَ الْخَارِيجُ الْإِلْسَانَ وَذَكَرَ أَنَّ الْخَافِرَ الْوَأْبَ وَالْخَافِرَ الْمُقْعَبَ
وَنَحْوَهُمَا أَشْرَفُ فِي اللَّفْظِ مِنَ الْخَافِرِ الْآخِرِ إِلَّا أَنَّ أَبَا تَمَامٍ
كَانَ يَطْلُبُ الْمَعْنَى وَلَا يُبَالِي بِاللَّفْظِ حَتَّى لَوْ تَمَّ لَهُ الْمَعْنَى بِلَفْظَةٍ
نَبْطِيَّةٍ لَأَتَى بِهَا . وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ أَبْصَرَ بِأَيِّ تَمَامٍ
وَعَبْرَةٍ مِنَّا وَإِنَّ التَّسْلِيمَ لَهُ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ أَخْزَمُ . غَيْرَ أَنِّي لَوْ شِئْتُ
أَنْ أَقُولَ وَلَسْتُ رَادًّا عَلَيْهِ وَلَا مُعْتَرِضًا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَّ الْمَعْنَى
الَّذِي أَرَادَهُ وَأَشَارَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ أَبِي تَمَامٍ إِنَّمَا هُوَ مَعْنَى الصَّنْعَةِ
مِثْلُ التَّطْيِيقِ وَالْخَيْسِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا لَا مَعْنَى الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ
رُوحُهُ . وَأَمَّا اللَّفْظُ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يُبَالِي بِهِ إِنَّمَا هُوَ قَصِيحُ

الْكَلَامَ وَمُسْتَعْمَلُهُ وَيَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا أَدْعَيْتُهُ عَلَى ابْنِ الرُّومِيِّ
 قَوْلُهُ إِنَّ الْخَافِرَ الْأَوَّابَ وَالْمُقَبَّبَ أَشْرَفَ فِي الْأَلْفَظِ مِنَ الْخَافِرِ الْأَخْفَرِ .
 فَكَلَامُهُ رَاجِعٌ إِلَى مَا قُلْتُهُ فِي أَبِي تَمَّامٍ غَيْرُ مُحَالِفٍ لَهُ وَإِنْ كَانَ
 فِي الظَّاهِرِ عَلَى خِلَافِهِ لَسَاعَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَى مَا قَالَ
 وَإِنَّمَا هُوَ هَذَا مَعْرِضٌ لِلْكَلَامِ لَا مُحَالَفَةٌ . وَقَالَ لِحَاطِظٍ : كَمَا لَا
 يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْأَلْفَظُ عَامِيًّا وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا فَكَذَلِكَ لَا يَنْبَغِي
 أَنْ يَكُونَ وَحْشِيًّا إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَلْتَكَلَّمَ بِهِ بَدْوِيًّا أَعْرَابِيًّا فَإِنَّ
 أَلْوَحْشِيَّ مِنَ الْكَلَامِ يَفْهَمُهُ أَلْوَحْشِيُّ مِنَ النَّاسِ كَمَا يَفْهَمُ
 أَلْسُوقِيَّ رَطَانَةَ أَلْسُوقِيٍّ (قَالَ) وَأَنْشَدَ رَجُلٌ قَوْمًا شِعْرًا فَأَسْتَعْرَبُوهُ
 فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا هُوَ بِغَرِيبٍ وَلَكِنَّكُمْ فِي الْأَدَبِ غُرَبَاءُ . وَعَنْ غَيْرِهِ أَنَّ
 رَجُلًا قَالَ لِأَبِي تَمَّامٍ فِي مَجَاسٍ قَدْ حَفَلَ وَارَادَ تَبْكِيَّتَهُ لَمَّا أَنْشَدَهُ :
 يَا أَبَا تَمَّامٍ لِمَ لَا تَقُولُ مِنَ الشِّعْرِ مَا يُفْهَمُ . فَقَالَ لَهُ : وَأَنْتَ لِمَ لَا
 تَفْهَمُ مِنَ الشِّعْرِ مَا يُقَالُ فَفَتَحَهُ . وَيُرْوَى أَنَّ هَذِهِ الْحِكَايَةَ
 كَانَتْ مَعَ أَبِي الْقَمَيْثِ وَصَاحِبَيْنِ لَهُ خَاطَبَاهُ فَاجَابَهُمَا . وَقَالَ بَعْضُ
 مَنْ نَظَرَ بَيْنَ أَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي الطَّيِّبِ إِنَّمَا أَبُو تَمَّامٍ كَالْقَاضِي الْعَدْلِ
 يَضَعُ الْأَفْظَةَ مَوْضِعَهَا وَيُعْطِي الْمَعْنَى حَقَّهُ بَعْدَ طَوْلِ النَّظَرِ وَاللَّجْثِ
 عَنْ أَلْبَنَةِ أَوْ كَأَلْفَيْهِ أَلْوَرَعِ يَتَحَرَّى فِي كَلَامِهِ وَيَخْرُجُ . وَأَبُو الطَّيِّبِ
 كَالشُّجَاعِ الْجَرِيِّ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ لَا يُبَالِي مَا لَقِيَ وَلَا حَيْثُ
 وَقَعَ . وَكَانَ الْأَصْمَعِيُّ يَقُولُ زُهَيْرٌ وَالنَّابِغَةُ مِنْ عَمِيدِ الشِّعْرِ يُرِيدُ
 أَنَّهُمَا يَتَكَلَّفَانِ إِضْلَاحَهُ وَيُسْغِلَانِ بِهِ خَوَاطِرَهُمَا وَحَوَاسَّهُمَا . وَمِنْ

أَصْحَابَهَا فِي التَّشْيِيعِ وَفِي التَّقْيِيفِ وَالتَّحْكِيكِ طُفَيْلُ الْقَنْوِيِّ . وَقَدْ
قِيلَ إِنَّ زُهَيْرًا أَيْضًا رَوَى لَهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحْتَبَرًا لِحُسْنِ شِعْرِهِ .
وَمِنْهُمْ الْخَطِيبَةُ وَالنَّيْرُ بْنُ تَوَلِّبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ
الْكَيْسَ . وَكَانَ بَعْضُ الْخُذَّاقِ يَقُولُ : قُلْ مِنْ الشَّعْرِ مَا يُخْذُكُمْ وَلَا
تَقُلْ مِنْهُ مَا تُخْذُمُهُ وَهُوَ مَعْنَى كَلَامِ الْأَضْمَعِيِّ . وَسَأُحْكِي هَذَا
الْبَابَ مِنْ كَلَامِ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ بَحْلِيَّةً تَكُونُ لَهُ زِيَّةً قَانِعَةً
وَأَحْتِمَةً بِحَايِمَةٍ تَكْسُوهُ حُلَّةٌ رَانِقَةٌ لِأُورْفَى بِذَلِكَ بَعْضَ مَا صَنَعْتُ
وَأَقْضِي بِهِ حَقَّ مَا شَرَطْتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . فَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ سَنَةَ
٤٠٥ يَتَشَوَّقُ أَهْلُهُ :

وَلِي كَيْدٌ مَكْلُومَةٌ لِفِرَاقِكُمْ أَطَامُنْهَا صَبْرًا عَلَى مَا أَجَسَتْ
تَمَنِّيْكُمْ شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَعَمِيَّةً عَسَى اللَّهُ أَنْ يُبْدِيَ لَهَا مَا تَمَنَّتِ
وَعَيْنٌ جَفَاهَا الدُّرُومُ وَأَعْتَادَهَا الْبُكَاءُ إِذَا عَنْ ذِكْرِ الْقَيْرِ وَأَنْ أَسْتَلَمْتُ
فَلَوْ أَنَّ أَعْرَابِيًّا تَذَكَّرَ نَجْدًا فَحَنَّ بِهِ إِلَى الْوَطَنِ أَوْ تَشَوَّقَ فِيهِ
بَعْضُ السَّكَنِ مَا حَسِبْتُهُ يَرِيدُ عَلَى مَا آتَى بِهِ هَذَا الْوَلَدُ الْخَضِرِيُّ
الْمُتَأَخِّرُ الْعَصْرَ . وَمَا أَخْطَأْتُ فِي هَذَا التَّمْيِيزِ فِي هَوَايَ وَلَا أَتَعَقُّ بِهَذَا
الْقَوْلِ عِنْدَ مَوْلَايَ وَلَا الْحَدِيثَةَ بِمَا نَظُنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلَكِنْ قَدْ
رَأَيْتُ وَجْهَ الْحَقِّ فَعَرَفْتُهُ وَالْحَقُّ لَا يَتَلَمَّ وَمَا هُوَ فِي بِلَاعَتِهِ وَإِحْجَازِهِ
إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَحْمَرُ السَّعْدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ :
مِنْ أَقْوَلِ مَا يَكْفِي الْمُصِيبَ قَلِيلُهُ
وَمِنْهُ الَّذِي لَا يَكْتَفِي الدَّهْرَ قَائِلُهُ

يَصُدُّ عَنِ الْمَغْنَى فَيَذَرُكَ مَا نَجَا
وَيَذْهَبُ فِي التَّفْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهُ
فَلَا تَكُ مَكْتَرًا تَزِيدُ عَلَى الَّذِي
عُنِيتَ بِهِ فِي خَطْبِ امْرِئِ تَرَاوُلُهُ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ الشِّعْرِ أَرْبَعَةُ الْمَدِيحُ وَالْهِجَاءُ
وَالْحِكْمَةُ وَاللَّهُوُ ثُمَّ يَتَفَرَّقُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذَلِكَ فَنُونٌ فَيَكُونُ
فِي الْمَدِيحِ الْمُرَائِي وَالْإِفْتِحَارُ وَالشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ الْهِجَاءِ اللَّذَمُّ
وَالْعِتَابُ وَالْإِسْتِظْهَارُ وَمِنْ الْحِكْمَةِ الْأَمْثَالُ وَالنَّزْهِيْدُ وَالْمَوَاعِظُ
وَيَكُونُ مِنَ اللَّهِوِ الْقَزْلُ وَصِفَةُ الْخَمْرِ وَالْخَمُودُ. وَقَالَ قَوْمُ الشِّعْرِ
كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهَجَاءٌ فَإِلَى الْمَدْحِ يَرْجِعُ الرِّثَاءُ وَالْإِفْتِحَارُ وَالنَّشِيبُ
وَمَا تَعَاقَ بِذَلِكَ مِنْ مَحْمُودٍ الْوُضْفِ كَصِفَاتِ الْحُمُولِ وَالْأَثَارِ
وَالنَّشِيبَاتِ الْحَسَنَةِ وَكَذَلِكَ تَحْسِينُ الْخُلُقِ كَالْأَمْثَالِ وَالْحِكْمِ
وَالْمَوَاعِظِ وَالنَّزْهِيْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالْهِجَاءُ ضِدُّ ذَلِكَ كُلُّهُ غَيْرَ أَنَّ
الْعِتَابَ حَالٌ مِنَ الْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذَلِكَ
الْإِعْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَمَقُولَ إِنَّهُ
حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى الْمُغْرَى الدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

أَيْضًا بِمَدْحِهِ أَلْشَاءَ عَلَيْهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِهِ . وَأَلْبَيْتُ مِنْ
 الشِّعْرِ كَأَلْبَيْتٍ مِنَ الْأَبْنِيَةِ وَالشَّعْرِ قَرَارُهُ الطَّبَعُ وَسَنَكُهُ الرِّوَايَةُ
 وَدَعَائِلُهُ الْقَلَمُ وَبَابُهُ الدَّرَبَةُ وَسَاكِئُهُ الْمَعْنَى وَلَا خَيْرَ فِي بَيْتٍ غَيْرِ
 مَسْكُونٍ . وَصَارَتْ الْأَعَارِيزُ وَالْقَوَائِي كَأَلْمَوَازِينِ وَالْأَمَثِلَةِ لِلْأَبْنِيَةِ
 أَوْ كَأَلْوَاخِي وَالْأَوْتَادِ لِلْأَخِيَّةِ . وَأَمَّا مَا سَوَى ذَلِكَ مِنْ مُحَاسِنِ
 الشِّعْرِ فَلَنَمَّا هُوَ زِينَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ لَوْ لَمْ تَكُنْ لَا سَتُغْنِي عَنْهَا . قَالَ
 الْقَاضِي عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُرْجَانِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ الْوَسَاطَةِ :
 الشِّعْرُ عِلْمٌ مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِ يَشْتَرِكُ فِيهِ الطَّبَعُ وَالرِّوَايَةُ وَالذِّكَاةُ
 ثُمَّ تَكُونُ الدَّرَبَةُ مَادَّةً لَهُ وَقُوَّةً لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَسْبَابِهِ فَمَنْ
 اجْتَمَعَتْ لَهُ هَذِهِ الْخِصَالُ فَهُوَ الْحُسَيْنُ الْمُبَرَّرُ وَيَقْدِرُ نَصِيبُهُ مِنْهَا
 تَكُونُ مَرْتَبَتُهُ مِنَ الْإِحْسَانِ . قَالَ وَلَسْتُ أَفْضَلُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ
 بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْمُحَدَّثِ وَالْجَاهِلِيِّ وَالْحَضَرَمِ وَالْأَعْرَابِيِّ وَالْمَوْلَدِ إِلَّا
 أَنِّي أَرَى حَاجَةَ الْمُحَدَّثِ إِلَى الرِّوَايَةِ أَمَسَّ وَاجِدُهُ إِلَى كَثْرَةِ
 الْحِفْظِ أَفْقَرًا فَإِذَا اسْتَكْشَفْتَ عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ وَجَدْتَ سَبِيلَهَا وَالْعِلَّةَ
 فِيهَا أَنَّ الْمَطْبُوعَ الَّذِي لَا يُمَكِّنُهُ تَنَاوُلُ الْقَاطِرِ الْعَرَبِ إِلَّا رِوَايَةً
 وَلَا رِوَايَةً وَلَا طَرِيقَ إِلَى الرِّوَايَةِ إِلَّا السَّمْعُ وَمَلَكَ السَّمْعِ
 الْحِفْظُ . وَقَالَ دِغْبَلُ فِي كِتَابِهِ مَنْ أَرَادَ الْمَدِيحَ فَبِالرَّغْبَةِ وَمَنْ أَرَادَ
 الْعِجَابَ فَبِالْبَغْضَاءِ وَمَنْ أَرَادَ التَّشْيِيبَ فَبِالشُّوْقِ وَالْعُشْقِ وَمَنْ أَرَادَ
 الْأَمَاتَةَ فَبِالْإِسْتِطَاءِ : فَقَسَّمَ الشِّعْرَ كَهَذِهِ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةَ وَكَانَ
 الرِّثَاءُ عِنْدَهُ مِنْ بَابِ الْمَدْحِ عَلَى مَا قَدَّمْتُ . إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ الْعِتَابَ

بَدَلًا مِنْهُ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الشِّعْرُ مَا اشْتَمَلَ عَلَى الْمَثَلِ
السَّائِرِ وَالْإِسْتِعَارَةِ الرَّائِعَةِ وَاللَّشْبِيهِ الْوَاقِعِ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا
لِقَائِهِ فَضْلُ الْوَزْنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسه)

وَسَبِيلُ الشَّاعِرِ إِذَا مَدَحَ مَلِكًا أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَةَ الْأَفْصَاحِ
وَالْإِسَادَةِ بِذِكْرِ الْمَدْحِ وَأَنْ يَجْعَلَ مَعَانِيَهُ جَزَلَةً وَالْفَاظَةَ نَقِيَّةً
غَيْرَ مُبْتَدَلَةٍ سَوْفِيَّةٍ وَيَحْتَنِبَ مَعَ ذَلِكَ التَّقْصِيدَ وَالتَّطْوِيلَ فَإِنَّ لِلْمَلِكِ
سَامَةً وَخَجَرَ وَرُبَّآ عَابَ مِنْ أَجْلِهَا مَا لَا يُرِيدُ جَرْمَانَهُ وَقَدْ
رَأَيْتُ عَمَلَ الْبُخْتَرِيِّ إِذَا مَدَحَ الْخَلِيفَةَ كَيْفَ يُقِلُّ الْأَيَّاتَ وَيَزِدُّ
وُجُوهَ الْمَعَانِي فَإِذَا مَدَحَ الْكُتَّابَ عَمَلَ طَائِفَتَهُ وَبَلَغَ مُرَادَهُ. وَقَدْ
حُكِيَ عَنْ عَمَّارَةَ أَنَّ جَدَّهُ جَرِيرًا قَالَ: يَا بُنَيَّ إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا
تُطِيلُوا الْمَدَاحَةَ وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا. وَحَكَى آخَرُ قَالَ: دَخَلَ
أَلْفَرَزْدَقٌ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أُمِّ الْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:
يَا أَبَا فِرَاسٍ دَعْنِي مِنْ شِعْرِكَ الَّذِي لَيْسَ يَأْتِي آخِرُهُ حَتَّى يُنْسَى
أَوَّلُهُ وَقُلْ فِي بَيْتَيْنِ يَلْقَانِ بِالرِّوَايَةِ وَأَنَا أُعْطِيكَ عَطِيَّةً لَمْ
يُعْطِكُمَا أَحَدٌ قَبْلِي فَقَدَا عَلَيْهِ وَقَالَ:

وَأَنْتَ ابْنُ بَطْحَاوَى قُرَيْشٍ وَإِنْ تَشَاءُ
تَكُنْ مِنْ تَقِيفِ سُبُلِ ذِي حَدَرٍ عُمْرٍ
وَأَنْتَ ابْنُ سَوَّارِ الْيَدَيْنِ إِلَى الْعَلَا

تَلَقَّتْ بِكَ الشَّمْسُ الْمُضِيئَةُ لِلْبَدْرِ
فَقَالَ لَهُ: أَحْسَنْتَ وَأَمَرَ لَهُ بِبَشْرَةِ آلَافٍ. وَإِذَا كَانَ الْمَدُوحُ
مَلِكًا لَمْ يُبَالِ الشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيْفَ أَطْنَبَ وَذَلِكَ مُحَمَّدٌ
وَسِوَاهُ الْمَذْمُومُ. فَإِنْ كَانَ سُوقَةً فَأَيَّاهُ وَالْجَاوِزَ بِهِ خُطَّتْ فَإِنَّهُ مَتَى
تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتْ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنْهَا وَكَذَلِكَ لَا يَحِبُّ أَنْ يُقَصَّرَ
بِهِ عَمَّا يَسْتَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعْطِيَهُ صِفَةٌ غَيْرُهَا فَيَصِفَ الْكَاتِبُ بِالشَّجَاعَةِ
وَالْفَاضِي بِالْحَمِيَّةِ وَالْمُهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هَذَا لِشُعْرَاءَ وَقَتِنَا وَهُوَ
خَطَأٌ إِلَّا أَنْ تَضَحَّجَهُ قُرَيْنَةٌ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ الرَّأْيِ فِيهِ وَكَذَلِكَ
لَا يَجُوزُ أَنْ يُمدَحَ الْمَلِكُ بِبَعْضِ مَا يَتَّحِجُّ فِي غَيْرِهِ مِنَ الرُّؤْسَاءِ وَإِنْ كَانَ
فَضِيلَةٌ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ الْبُخْتَرِيِّ فِي مَدْحِ الْمُعْتَرِ:

لَا الْعَدْلُ يَرُدُّهُ وَلَا مِثْلُ التَّغْنِيفِ عَنْ كَرَمِ يَصُدُّهُ
فَإِنَّهُ يَمَّا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ:
وَمَنْ ذَا يُعَيِّفُ الْخَلِيقَةَ عَنِ الْكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ. هَذَا بِالْهَجَاءِ أَوَّلَى
مِنْهُ بِالْمَذْحِ. وَغَيْبٌ عَلَى الْأَخْطَلِ قَوْلُهُ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ
هَذَا الْبَيْتُ:

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخِلَاقَةَ مِنْهُمْ
لَا يَبْضُ لَا عَارِي الْجَوَانِ وَلَا جَذْبُ

وَقَالُوا: لَوْ مَدَحَ بِهَذَا حَرَسِيًّا لَعَبِدَ الْمَلِكِ لَكَانَ قَصْرَ بِهِ .
وَأَجُودُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفَنَةَ :
يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيضَ عَلَيْهِمْ .

رَدَى يُصَقِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
وَيُرَوَّى مِنْكَ . وَعَابُوا عَلَى الْأَخَوصِ قَوْلَهُ الْمَلِكِ :
وَأَدَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ

مَذَقُ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ
قَالُوا لِأَنَّ الْمُلُوكَ لَا تُمدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمدَحُ بِهِ الْعَامَّةُ
وَأَنَّمَا تُمدَحُ بِالْإِغْرَاقِ وَالتَّفْضُلِ لَا بِمَا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذَلِهِ . وَمِنْ هَذَا
النَّوعِ قَوْلُ كَثِيرٍ :

رَأَيْتُ ابْنَ لَيْلَى يَغْتَرِي صُلْبَ مَالِهِ
مَسَائِلُ شَتَّى مِنْ غَتِيٍّ وَمُضْرِمِ .
مَسَائِلُ إِنْ تَوَجَّدَ لَدَيْكَ تَجَدَّ بِهَا

يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمَ بِهَا تَتَظَلَّمُ .
لِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ الْخَلِيفَةِ وَالْمَلِكِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ
مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرَمٍ وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذَلِكَ حَسَنَ قَوْلُهُ :
هُوَ أَجْوَادُ الَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلُهُ عَفْوًا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيُظْلَمُ
يُرِيدُ أَنَّهُ يُسَالُ مَا لَيْسَ قَبْلَهُ فَيَحْمَلُهُ . وَحُكِيَ عَنِ الصَّوَلِيِّ أَنَّهُ
مَرَّانَ بَنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كَثِيرًا فِي الْمَدْحِ عَلَى جَرِيرِ
وَالْقَرَزْدَقِ . وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ :

لَوْ كَانَ يَفْعُدُ فَوْقَ النَّجْمِ مِنْ كَرَمٍ
 قَوْمٌ يَا وَلِيَّهُمْ أَوْ تَجِدُهُمْ قَعْدُوا
 وَقَدَّمَهُ قُدَّامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدُ الشَّعْرِ
 لَوْ كَانَتْ فَضَائِلُ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقٍ مَا هُمْ
 مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ الْحَيَوَانِ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَلْبَابِ مِنَ
 الْإِتِّفَاقِ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا هِيَ الْقَتْلُ وَالْعَقَّةُ وَالْعَدَاةُ وَالشَّجَاعَةُ كَانَ
 الْقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهَذِهِ الْأَرْبَعَةِ مُصِيبًا وَإِمَّا سَوَاهَا مُخْطِئًا. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:
 أَخِي ثَمَّةٌ لَا يُتْلَفُ الْخَيْرَ مَا لَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُتْلَفُ أَلْمَالُ نَائِلُهُ
 لِأَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِالْعَقَّةِ لِقَلَّةِ إِمْعَانِهِ فِي اللَّذَاتِ وَأَنَّهُ لَا يَفْعُدُ
 فِيهَا مَا لَهُ بِالسَّخَاءِ لِأَهْلَاكِ مَالِهِ فِي النَّوَالِ وَاتَّجَرَفِهِ فِي ذَلِكَ عَنْ
 اللَّذَاتِ وَذَلِكَ هُوَ الْعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ:

تَرَاهُ إِذَا مَا جَشَهُ مُتَهَلِّلًا سَكَتَكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ
 أَرَادَ أَنْ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي أَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَأْخُذُ فَرَادَ فِي وَصْفِ
 السَّخَاءِ مِنْهُ بِأَنَّهُ جَعَلَهُ يَهْشُ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضْضٌ وَلَا تَكْرُهُ لِفِعْلِهِ
 ثُمَّ قَالَ:

وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي الْخُرُوبِ وَمِثْلُهُ

لِإِنْكَارِ ضَمِّهِ أَوْ لِأَمْرِ يُحَاوِلُهُ
 وَيُرَوَّى أَوْ لِحُصْمِ مُجَادِلِهِ. فَأَتَى فِي هَذَا أَلْبَيْتٍ بِالْوَصْفِ مِنْ
 جِهَةِ الشَّجَاعَةِ وَالْقَتْلِ فَاسْتَوْفَى فِي ضُرُوبِ الْمَدْحِ الْأَرْبَعَةَ الَّتِي هِيَ
 فَضَائِلُ الْإِنْسَانِ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهَذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

الْأَرْبَعَةَ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجَهَ دُخُولِهِ فِيهَا حَيْثُ قَالَ :
 (أَخِي رُتَبَةً) قَوْصَهُ بِالْوَقَاءِ وَالْوَقَاءُ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْفَضَائِلِ
 الَّتِي قَدَّمْنَا وَقَدْ يَجْدُثُ هَذَا لِلشُّعْرَاءِ فَيَعُدُّونَ أَنْوَاعَ الْفَضَائِلِ الْأَرْبَعِ
 وَأَقْسَامَهَا وَكُلَّ دَاخِلٍ فِي جَمَلِهَا مِثْلَ أَنْ يَذْكُرُوا الْمَعْرِفَةَ وَالْحَيَاءَ
 وَالْيَبَانَ وَالسِّيَاسَةَ وَالصَّدْعَ بِالْحُجَّةِ وَالْعِلْمَ وَالْجِلْمَ وَغَيْرَ ذَلِكَ بِمَا
 يَجْرِي هَذَا الْجَرَى . وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ الْعَقْلِ . وَكَذَكَرِهِمُ الْقَنَاعَةَ وَقِلَّةَ
 الشَّرِّ وَطَهَارَةَ الْأَزَارِ وَغَيْرَ ذَلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ الْعِفَّةِ . وَكَذَكَرِهِمُ
 الْحِمَايَةَ وَالْأَخْذَ بِالثَّارِ وَالِدِّفَاعَ عَنِ الْحَارِ وَالْتِّكَايَةَ فِي الْعَدُوِّ وَقَتْلَ
 الْأَقْرَانِ وَالْمَهَابَةَ وَالسَّيْرَ فِي الْمَهَامِهِ وَالْفَقَارَ الْمَوْجِسَةَ وَمَا شَاكَلَ
 ذَلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ الشَّجَاعَةِ . وَكَذَكَرِهِمُ السَّمَاةَ وَالْتَّغَابُنَ وَالْإِنْظِلَامَ
 وَالْتَّبَرُّعَ بِالنَّائِلِ وَاجَابَةَ السَّائِلِ وَقَرَى الْأَضْيَافِ وَمَا جَانَسَ هَذِهِ
 الْأَشْيَاءَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ الْعَدْلِ

وَأَمَّا تَرْكِيبُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَقَدْ حَدَّثْتُ وَنَهَيْتُهُ أَقْسَامُ : يَجْدُثُ
 مِنْ تَرْكِيبِ الْعَقْلِ مَعَ الشَّجَاعَةِ الصَّبْرِ عَلَى اللَّيْلَمَاتِ وَنَوَازِلِ الْخُطُوبِ .
 وَعَنْ تَرْكِيبِ الْعَقْلِ وَالسَّخَاءِ الْبِرِّ وَإِنْجَازِ الْوَعْدِ وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ . وَعَنْ
 تَرْكِيبِ الْعَقْلِ وَالْعِفَّةِ التَّزَهُدِ وَالرَّغْبَةَ عَنِ الْمَسْئَلَةِ وَالْإِقْتِسَارَ عَلَى
 آدَتِي مَعِيشَةٍ وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ الشَّجَاعَةِ مَعَ السَّخَاءِ
 الْإِتْلَافُ وَالْإِسْرَافُ وَمَا جَانَسَ ذَلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ الشَّجَاعَةِ مَعَ
 الْعِفَّةِ انْكَارُ الْقَوَاحِشِ وَالْعِفَّةُ عَلَى الْحَرِيمِ . وَعَنْ السَّخَاءِ مَعَ الْعِفَّةِ
 الْإِسْعَافُ بِالْقُوَّةِ وَالْإِيْشَارُ عَلَى النَّفْسِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ . قَالَ وَكُلُّ

وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفَضَائِلِ الْأَرْبَعِ أَلْتَقَدَّمَ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ
مَذْمُومَيْنِ وَمِنْ أَلْمِدِيحِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَفِيهِ مَقَامَاتٌ حَسَنٌ وَجُوهُهُمْ وَأَنْدِيَّةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ
وَأِنْ جِئْتَهُمْ أَلْقَيْتَ حَوْلَ يَبُوتِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يَشْفَى بِأَحْلَامِهَا الْجَهْلُ
عَلَى مَكْثِهِمْ رِزْقٌ مِنْ يَغْتَرِّبُهُمْ وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاةُ وَالْبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُبْلِسُوا وَلَمْ يَأْلُوا
وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرِ أُنُوهُ وَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنَبِّتُ الْخَطِيئَةَ إِلَّا وَشِجْهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا الْخُلُ
وَقَوْلُهُ :

مَنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عِيَالَتِهِ هَرِمًا يَلْقَى السَّمَاةَ مِنْهُ وَاللَّيْلَى خُلُقًا
أَيْثُ بَعَثَ يَضْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا مَا كَذَبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا
يَطْعَنُهُمْ مَا أَرْتَمُوا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ضَارِبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارِبُوا أَعْتَمَقَا
لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ أَفْقَى السَّمَاءِ لَمَاتَ كَفُّهُ الْأُفُقَا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ الشَّعْرِ فِي مَدْحِ الْوَزِيرِ وَالْكَاتِبِ
عَلَى مَا اخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ مَا نَاسَبَ حُسْنَ الرُّوْيَةِ وَسُرْعَةَ الْخَاطِرِ
بِالضُّوَابِ وَشِدَّةِ الْحَزْمِ وَقِلَّةِ النُّغْلَةِ وَجُودَةِ النَّظَرِ لِلْخَلِيفَةِ وَالْتِيَابَةِ عَنْهُ
فِي الْمَغْضِلَاتِ بِالرَّأْيِ أَوْ بِالذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُؤَاسٍ :

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ قَامًا كَفَيْتُهُ وَإِمَامًا عَلَيْهِ بِالْكَفْيِ تُشِيرُ
وَبِأَنَّهُ مَحْمُودُ السَّيْرِ حَسَنُ السِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَصَافَ إِلَى
ذَلِكَ ذِكْرَ الْبَلَاغَةِ وَالْخَطِّ وَالتَّفَنُّنِ فِي الْعِلْمِ كَانَ غَايَةً وَأَفْضَلَ مَا

مُدِحَ بِهِ الْقَائِدُ الْجُودُ وَالسَّجَاعَةُ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا مِنَ الْإِفْرَاطِ فِي التَّجْدَةِ
وَسُرْعَةِ الْطُشِّ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ. وَيُمْدَحُ الْقَاضِي بِمَا نَاسَبَ الْعَدْلَ
وَالْإِنصَافَ وَتَقْرِبَ الْبَعِيدِ فِي الْحَقِّ وَتَبْعِيدَ الْقَرِيبِ فِي الْأَخْذِ
لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ وَالْمُسَاوَاةَ بَيْنَ الْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ بِسَطِّ الْوَجْهِ
وَلَيْنِ الْجَانِبِ وَقِلَّةِ الْمُبَالَاةِ فِي إِقَامَةِ الْحُدُودِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحَقُوقِ
فَإِنْ زَادَ إِلَى ذَلِكَ وَذَكَرَ الْوَرَعَ وَالنَّحْجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ
الْأَنِّيَاةَ. وَصِفَاتُ الْقَاضِي كُلُّهَا لِأَنَّهُ بِصَاحِبِ الْمَظَالِمِ وَمَنْ كَانَ
دُونَ هَذِهِ الثَّلَاثِ الطَّبَقَاتِ سِوَى طَبَقَةِ أَمْلِكٍ فَلَا أَرَى لِدَحِهِ وَجْهًا
فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذَلِكَ ضَرُورَةٌ مُدِحُ كُلِّ إِنْسَانٍ بِالْفَضْلِ فِي
صِنَائِهِ وَالْمَعْرِفَةِ بِطَرِيقَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا. وَكَثُرَ مَا يُعَوَّلُ عَلَى
الْفَضَائِلِ النَّفْسَانِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا قُدَامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا فَضَائِلُ
عَرَضِيَّةٍ أَوْ جَسَمِيَّةٍ كَالْجَمَالِ وَالْأَهْلِيَّةِ وَبَسْطَةِ الْخُلُقِ وَسَعَةِ الدُّنْيَا
وَكثْرَةِ الْعَيْشِ كَانَ ذَلِكَ جَيِّدًا. إِلَّا أَنَّ قُدَامَةَ قَدْ آبَى مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ
جُمْلَةً وَلَيْسَ ذَلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: الْمَدْحُ
بِالْفَضَائِلِ النَّفْسَانِيَّةِ أَشْرَفُ وَأَصَحُّ قَامًا إِنْكَارُ مَا سِوَاهَا جُمْلَةً
وَإِحْدَةً قَمَا أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُؤَافِقُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَرِهَ
الْحِذَاقُ أَنْ يُمدَحَ أَلْمُلُوكُ بِمَا نَاسَبَ قَوْلَ مُوسَى شَهَوَاتٍ وَيُرْوَى
لِغَيْرِهِ:

أَنْتَ نَعَمَ الْإِتْمَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ
لَيْسَ فِيمَا بَدَأَ لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ عَابَهُ النَّاسُ غَيْرُ أَنَّكَ فَاثِي

وَحَكِي عَنْ بَعْضِ الْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ قَاتَلَهُمُ
 اللَّهُ رَبِّمَا ذَكَّرُونَا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيَنْتَعِصُونَ بِهِ عَلَيْنَا
 أَوْقَاتَ لَذَائِنَا يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَوْتَ. وَمَنْ أَبْشَعَ مَا فِي ذَلِكَ قَوْلُ
 أَبِي تَمَّامٍ :

فَلْيُطْلُ غَمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْسٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبًا
 مَا أَلَدِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ الْمَوْتِ هَهُنَا إِلَّا التَّكْدُ وَالْبَغَاضَةُ
 وَاجْمَعَ النَّاسُ عَلَى تَفْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ ذُهَيْرٍ بِمَدْحِ الرَّسُولِ :
 تَحْمِيلُهُ اللَّاقَةَ الْأَدَمَاءَ مُعْتَجِرًا بِالْبُرْدِ كَالْبُدْرِ جَلِي لَيْلَةٍ أُنْظِمَ
 وَفِي عِطَافِهِ أَوْ أَثْنَاءَ رَيْطَتِهِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمٍ
 وَالْجَهْلَالُ يَرَوْنَ أَلْبَيْتَ لِأَبِي دُعَيْلٍ الْجَحْمِيِّ وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ
 الْعَلَّاجِ :

يَحْمِلُنَ كُلُّ سُرْدُودٍ وَفَخْرٍ يَحْمِلُنَ مَا نَذَرِي وَمَا لَا نَذَرِي
 قَالَ الْأَصْمَعِيُّ أَضْلُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ :
 وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ اللَّهُ مَ وَارِثَ لِلْحَاشِيَيْنِ دِمَاءُ
 قَالَ وَلَمْ يُقَلِّ شَعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَلْعَابِي. قَالَ
 أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرَّدُ : مِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَحْمِلُ الْمَدْحَ فَيَكُونُ ذَلِكَ وَجْهًا
 حَسَنًا لِلْبُؤْسِ أَلْإِرَادَةِ مَعَ خُلُوقِهِ مِنَ الْإِطَالَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ الْإِسْتِثَارِ
 وَدُخُولِهِ فِي الْإِخْتِصَارِ وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِ الْخَطِيبَةِ :

تَرُودُ فَنُيْطِي عَلَى الْحَمْدِ مَا لَهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخْلَدٍ
 كُسُوبٌ وَتِلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ تَهَلَّلَ وَاهْتَدَّ أَهْتَازَ الْمُهَدَّدِ

مَتَى تَأْتِيهِ تَغْشَوِ إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَحْذِخِزَ نَارٍ عِنْدَهَا خِيزَ مُوقِدِ
تَصَرَّفَ فِي آيَاتِهِ هُذُو فِي أَصْفَاءِ الْمَدِيحِ وَآتَى بِجَمَاعِ
الْوَصْفِ وَجَمَلِ الْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ الْاِقْتِصَادِ فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ. وَمِثْلُهُ
قَوْلُ الشَّامِخِ :

رَأَيْتُ عُرَابَ الْأَرْضِ يَسْمُو إِلَى الْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ
إِذَا مَا رَأَيْتُ رُفَعْتَ لِحْجِدِ تَلَقَّاهَا عُرَابُهُ بِالْيَمِينِ
وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِحٍ بِهِ الْمُلُوكُ وَكَثْرُهُ إِصَابَةُ لِلْفَرَضِ مَا
يُنَاسِبُ قَوْلَ ابْنِ هَرَمَةَ فِي الْمَنْصُورِ :

لَهُ لَحْظَاتٌ عَنْ حِفَافٍ سَرِيرِهِ إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ
فَأَمَّا الَّذِي آمَنَتْ أَمْنُهُ الرَّدَى وَأَمَّا الَّذِي أَوَعَدَتْ بِأَشْكَالٍ ثَاكِلُ
وَقَوْلُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ الْعَادِي :

يَضْطَرُّ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ إِذَا حَرَكَ دُوسَى الْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرَ
وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْحَزِينِ الْكِمَائِيِّ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ
أَبْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا
فِي اللَّعِينِ الْمَنْفَرِيِّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُتَمِ بْنِ الْعَبَّاسِ
أَبْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ :

فِي كَفِّهِ خَيْرٌ رَأَى رِيحَهُ عَيْقُ مِنْ كَفِّ أَرْوَغٍ فِي عَرْنِينِهِ شَمَمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ قَمَا يُكَاثِمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ
وَأَجْتَمَعَ الشُّعْرَاءُ بِبَابِ الْمُعْتَمِرِ قَبْعَتِ الْيَهُودِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ
يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورِ النَّسْرِيِّ فِي الرَّشِيدِ :

إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَهُ أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
 إِذَا رَفَعْتَ أَمْرًا قَالَهُ رَافِعُهُ وَمَنْ وَضَعَتْ مِنَ الْأَقْوَامِ مُتَضَعُ
 مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخُمْسِ يَنْتَفِعُ
 إِنْ أَخْلَفَ الْغَيْثُ لَمْ تَخْلَفْ أُنَامِلُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَسَّعُ
 فَلْيَدْخُلْ. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَهَبٍ: فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْرًا مِنْهُ
 وَأَنْشُدَ:

ثَلَاثَةُ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ شَمْسُ الصُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ
 تَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ الْغَيْثُ وَاللَّيْثُ وَالصَّمَامَةُ الذِّكْرُ
 فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ وَأَحْسَنَ صَلَاتَهُ
 وَقَالُوا أَلَّا حَضَرْتَ الْخُطْبَةَ الْوَفَاةُ قَالَ: بَلِّغُوا الْأَنْصَارَ إِنَّ
 أَخَاهُمْ أَمَدَحُ النَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ:
 يُغْشُونَ حَتَّى مَا تَهْرُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْقُفْلِ
 قَالَ تَعَلَّبُ بَلْ قَوْلُ الْأَعَشَى:
 فَتَى لَوْ يُبَادِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا

أَوْ الْقَدَرِ الشَّارِي لِأَتَمَّى الْقَالِدَا
 أَمَدَحُ مِنْهُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ: بَيْتُ جَرِيرٍ
 أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ
 أَسِيرُ مَا قِيلَ فِي الْمَدْحِ وَأَسْهَلُهُ. وَقَالَ غَزِيَّةُ: بَلْ قَوْلُ
 الْأَخْطَلِ:

شَمْسُ الْعِدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَخْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

وَقَالَ دُعِلْ بَلْ قَوْلُ أَبِي الطَّحَّانِ أَتَقِينِي
أَسْنَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ

دُجِيَ اللَّيْلُ حَتَّى نَظَّمَ الْخُرَجَ صَاحِبُهُ
قَالَ : وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هَذَا أَلْبَيْتِ يَعْنِي بَيْتَ أَبِي الطَّحَّانِ قَوْمٌ
وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفَّةَ وَبَيْتِ النَّابِغَةِ :

يَا نَكَ شَمْسُ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوْكَبُ
وَبَيْتُ أَبِي الطَّحَّانِ أَشْعَرُهَا. قَالَ الْخَلَّاطِيُّ : بَلْ بَيْتُ زُهَيْرٍ :
تَرَاهُ إِذَا مَا جَشَّهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ
وَحَكِي عَنْ عَلِيٍّ بْنِ هَارُونَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ : أَجْمَعَ أَهْلُ
أَعْلَمَ أَنَّ بَيْتِي أَبِي نُوَاسٍ أَحْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي الْمَدِيحِ لِلْمَوْلَدِينَ وَهُمَا :
أَنْتَ الَّذِي تَأْخُذُ الْأَيْدِي بِبُخْزَتِهِ

إِذَا أَلْزَمَانُ عَلَى آتِيَابِهِ كَلْحَا
وَكَلَّتْ بِالذَّهْرِ عَيْنَا غَافِلَةٍ

مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا
وَحَكِي الْخَلَّاطِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى
قَالَ : سَمِعْتُ أَبْنَ الْأَعْرَابِيِّ يَقُولُ : أَمْسَحُ بَيْتَ قَالَهُ مُوَلَّدُ قَوْلُ
أَبِي نُوَاسٍ :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَوْ تَسَالُ الْأَجْدَاثُ مَا أَسْمِي مَا دَرَّتْ
وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ: نَحْنُ إِلَى الْإِنْصَافِ أَخَوْجُ مِنْهَا إِلَى
الْمُكَابَرَةِ وَالْخِلَافِ وَأَبُو نُوَاسٍ ذَهَبَ مَذْهَبًا لَطِيفًا يُخْرِجُ لَهُ فِيهِ الْعُذْرُ
وَالْتَأْوِيلُ وَالْأَقْمَا فِي صِفَةِ الْخُمُولِ أَشَدُّ مِنْ ذِكْرِ لَاسِيَمَا عَلَى
رَوَايَةٍ مَنْ رَوَى (فَلَوْ تَسَالُ الْأَيَّامُ) . وَمِنْ جَيْدٍ مَا سَعِغَتْ لِيُحَدِّثَ
وَأَطْنُهُ لِابْنِ الْأَرْوَجِيِّ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَرَأَيْتُ
مَنْ يَرْوِيهِ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْكَاتِبِ أَبِي الْحَسَنِ :

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا

لَمْ يُجْمَدِ الْأَجُودَانِ الْبَجْرُ وَالْمَطَرُ
وَأِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ

تَضَاءَلِ النَّيِّرَانِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَأِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزَمَتُهُ

تَأَخَّرَ الْمَاضِيَانِ السَّيْفُ وَالْقَدَرُ
مَنْ لَمْ يَبْتَ حَذْرًا مِنْ سَطْوِ صَوْلَتِهِ

لَمْ يَذِرْ مَا أَلْمَزَ عِجَانِ السَّيْفِ وَالْحَذَرُ
يَبَالُ بِالظَّنِّ مَا يَغِيَا الْعَيَانُ بِهِ

وَالشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ الْعَيْنُ وَالْآثَرُ
كَأَنَّهُ وَزِمَامُ الدُّهْرِ فِي يَدِهِ

يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَسْذَرُ
قَالَ خَلْفُ الْأَحْمَرِ: أَخْلَبَ الْمَذْحِ وَأَكْثَرُهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ

أَبِي سَلَمَى :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ
أَخُوَيْتَهُ لَا تُتْلَفُ الْخَيْرُ مَا لَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُتْلَفُ أَمْوَالُ نَائِلُهُ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدُوَّةَ فَرَأَيْتُهُ فَعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَازِلُهُ
يُعَدِّيْنَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلْمَنَهُ وَأَعْيَا فَمَا يَذِيرُنْ أَيْنَ مَحَازِلُهُ
فَاغْرَضْنِ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَدًّا جُمُوعٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ قَابِلُهُ
وَقَوْلُ طَقِيلٍ :

جَزَى اللَّهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَدَلَّتْ بِنَا نَعْلَنَا فِي الْوَاطِئِينَ وَزَلَّتْ (١)
أَبَوَا أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنَّ أَمْنَا تُتْلَا فِي الَّذِي لَا قُوَّةَ مِثْلًا لَلَّتْ
وَسَالَ الرَّشِيدُ الْفَضْلَ الضَّيِّ : أَيَّ بَيْتٍ قَالَتْ الْعَرَبُ أَمْدَحُ
فَقَالَ :

أَعْرُ ابْلُجْ تَأْتُمُّ أَهْدَاةً بِهِ كَأَنَّهُ عَامٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ
قَالَ شَرَّاحِيلُ بْنُ مَعْنٍ بْنِ زَائِدَةَ : كُنْتُ أَسِيرٌ تَحْتَ قُبَّةٍ يَحْيَى
أَبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ الرَّشِيدِ وَعَدِيْلُهُ أَبُو يُوسُفَ الْقَاضِي إِذَا
أَعْرَاجِي مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَاثْنِدَهُ شِعْرًا
أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ : يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ وَثْلِ
هَذَا الشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ الْإِلْقَاءِ كَأَنَّهُمْ لِحَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَائِ كَيْنِ مَنَزِلُ
بِهَالِيلٍ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ كَأَوَّلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمْ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دَعُوا أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فَعَالَهُمْ وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي اللَّائِيَاتِ وَاجْمَلُوا
فَقَالَ أَبُو يُوْسُفَ لِمَنْ هَذَا الشَّعْرُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ قَمَا سَمِعْتُ أَحْسَنَ
مِنْهُ فَقَالَ يُحْيَى يَقُولُهُ ابْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِي هَذَا أَلْفَتَنِي وَأَوْمَأَ إِلَيَّ
فَكَانَ قَوْلُهُ أَسْرَى إِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ الْقَوَائِدِ ثُمَّ أَلْفَتَنِي إِلَيَّ وَقَالَ
يَا سَرَاخِيلُ أَتَشِدُّنِي أَجُودَ مَا قَالَهُ ابْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِيكَ
فَأَنشَدْنَاهُ:

نَعَمْ أَلْمَسَاخُ لِزَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ مِمَّنْ تُصِيبُ حَوَائِجُ الْأَزْمَانِ
مَعْنَى نَنْ رَائِدَةَ الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَقًّا إِلَى شَرَفِ بَنُو شَيْبَانَ
إِنْ عُدَّ أَيَّامُ الْإِلْقَاءِ فَلَنَمَّا يَوْمَاهُ يَوْمٌ نَدَى وَيَوْمٌ طَمَانٍ
يَكْسُو الْأَسِرَةَ وَالْمَنَابِرَ بِهَجَّةٍ وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَيَبَانِ
تَمْضِي أَسِنَّتُهُ وَيُسْفِرُ وَجْهَهُ فِي الْحَرْبِ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْأَلْوَانِ
نَفْسِي فِدَاكَ أَمَا الْوَلِيدُ إِذَا بَدَأَ رَهْجُ السَّنَابِكِ وَالرَّيَاحُ دَوَانِ
فَقَالَ يُحْيَى أَنْتَ لَا تَذَرِي جَيْدَ مَا مُدِحَ بِهِ أَبُوكَ وَأَجُودُ مِنْ
هَذَا قَوْلُهُ:

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَاشْكَلَا فَلَا تَحْنُ نَذَرِي أَيُّ يَوْمِيهِ أَفْضَلُ
أَيُّومُ نَدَاهُ الْعُمَرَاءُ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغْرُ مُجْجَلُ
وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَنْقُلُ الْمَدِيحَ عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ
ذَلِكَ ذَابُ الْبُخْتَرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو ثَمَامٍ فِي قَصَائِدِ مِنْهَا:

قَدْكَ أَتَيْتُ أَرْبَيْتَ فِي الْغُلُوءِ

نَقَلَهَا عَنْ يُحْيَى بْنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانِ الصُّيْتِيِّ

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسه)

الِافْتِحَارُ هُوَ الْمَدْحُ بِعَيْنِهِ إِلَّا أَنْ الشَّاعِرَ يُخْصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ
فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي الْمَدْحِ حُسْنٌ فِي الْإِفْتِحَارِ وَكُلَّمَا قَبِحَ فِيهِ قَبِيحٌ
فِي الْإِفْتِحَارِ فَمِنْ آيَاتِ الْإِفْتِحَارِ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَانِيهِ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ ثَعْلَبٍ : أَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ قَوْلُ
أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

مَا يُنْكِرُ النَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ كَانُوا عَيْدًا وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابَا
وَقَالَ دِغِيلُ أَفْخَرُ الشُّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ :

وَيَبْرِ بَذِرٍ إِذْ يَرُدُّ وَجُوهَهُمْ جَبْرِيلُ تَحْتَ لَوَائِنَا وَ مُحَمَّدُ
وَقَالَ الْحَافِي : قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

تَرَى النَّاسَ مَا يَسِرُّنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْ مَا نَأْتِي النَّاسَ وَفَقُوا
قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو عَقِيمٍ وَجَدْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابَا
وَقَالَ آخَرُ : بَلْ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

وَنَحْنُ إِذَا عَدَّتْ مَعَدُّ قَدِيمَهَا مَكَانَ النَّوَاحِي مِنْ وَجْهِ السَّوَابِقِ
وَقَالَ غِيْثُ : بَلْ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ لَجَرِيرٍ :

فَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ قَوْكَ دَارِمًا وَالشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ إِلَّا بَصَادُ
وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ابْنِ مِيَادَةَ:

وَلَوْ أَنَّ قَيْسًا قَيْسَ غِيلَانَ أَقْسَمَتْ

عَلَى الشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وَأَفْخَرُ بَيْتٍ صَنَعَهُ مُحَمَّدٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ:

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضَبَةً مُضْرِيَةً

هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمًا (١)

إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

وَمِنْ جَيِّدِ الْإِفْتِحَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ النَّطَّاحِ:

وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِمَّا يَعِشُ بِجُسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلُ

وَيَحْنُ وَصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِأَسْ شَدِيدٍ فِي الْكِتَابِ الْمَثَلُ

وَأَنَا لِلْهَوَى فِي الْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ قَتَاةٌ بِعَقْدٍ أَوْ سِحَابٍ قَرْنُفَلٍ

يَعْنِي قَوْلَ الْقُرْآنِ: سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ. وَبِسَبَبِ

هَذَا الشَّعْرِ وَأَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ الرَّشِيدُ أَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ: كَيْفَ تَفْتَحِرُ عَلَى

مُضَرٍّ وَمِنْهُمْ النَّبِيُّ. فَهَذَا الْإِفْتِحَارُ بِالشَّجَاعَةِ خَاصَّةً. وَمِنْ أَفْخَرَ

بِالْكَثْرَةِ أَوْسُ بْنُ مَفْرَاءٍ فَقَالَ:

مَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ إِلَّا عِنْدَ أَوَّلِنَا وَلَا تَغِيْبُ إِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا

وَقَدْ أَنْكَرَ قَدَامَةً أَنْ يُعَدَّحَ الْإِنْسَانُ بِأَبَانِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ

تَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَأَبَائِهِمْ. وَالَّذِي

ذَهَبَ إِلَيْهِ حَسَنٌ. وَأَنْكَرَ لُجْجَانِي عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلَهُ :
مَا يَقْوِي شَرَفْتُ بَلْ شَرُّوْا بِي بَلْ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا يُجْدُو بِي
وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ :

وَمَا سَوَّدَتْ عَجَلًا مَاثِرٌ عَنْدهُمْ وَلَكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عَجَلُ
قَالَ وَهَذَا مَعْنَى سُوءِ يُغْضُ مِنْ حَسَبِ الْمَدْحِ وَيُخَفِّرُ مِنْ شَأْنِ
سَلْفِهِ وَإِنَّمَا طَرِيقَةُ الْمَدْحِ أَنْ يَجْعَلَ الْمَدْحُ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَالْآبَاءُ
تَزْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجْعَلُ لِكُلِّ مِنْهُمْ فِي الْفَخْرِ حَظًّا وَفِي الْمَدْحِ
نَصِيبًا. وَإِذَا حُصِلَتِ الْحَقَائِقُ كَانَ التَّصْيِيَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ
الْكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَرَفَ الْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ
مِيرَاثِهِ وَمُتَّقِلٌ إِلَى وَلَدِهِ كَأَنْ يَقَالَ إِلَهِي قَدْ آدَا رُغْبِي وَخُرْتُ ثَبَتَ
وَأَزْدَادَ وَإِنْ أَهْمِلَ وَضِيعَ هَلَكَ وَكَذَلِكَ شَرَفُ الْوَالِدِ يَعْصِمُ الْقَبِيلَةَ
وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمِنْهُ الْقِسْمُ الْآوَفَرُ وَالْحَظُّ الْأَكْبَرُ

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ : وَالَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ الْأَخْتِيَارُ عَنْدهُمْ مَا
نَاسَبَ قَوْلَ الْمُتَوَكِّلِ اللَّيْثِيِّ :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ تَكْبَلُ
نَبِينِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبِينِي وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا
وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ أَبْنَى سَيِّدِ عَامِرٍ وَفِي السَّرِّ مِنْهَا وَالصَّرِيحُ الْمُهَذَّبُ
فَمَا سَوَّدَتْ بَنِي عَامِرٍ عَنْ وَرَاثَةٍ إِلَهِي اللَّهُ أَنْ أَسْمُو بِأَمْرٍ وَلَا أَبِ
وَمِنْ أَفْخَرِ مَا قَالَ أَلْمَوْلِدُونَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ :

يَفْحَرُ بِوَلَايَةِ مَنْ خَزِيعةُ بِنِ خَازِمِ الْهَشَلِي :
 إِذَا مُضِرُّ الْحَمْرَاءِ كَانَتْ أَرْوَمِي وَقَامَ بِضَرْيِ خَازِمٍ وَأَبْنُ خَازِمِ
 عَطَسَتْ بِأَنْفٍ شَاخِجٍ وَتَنَاوَلَتْ يَدَايَ الْأَثَرِيَا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ
 وَمَنْ قَوْلِ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ يَفْحَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ .
 يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمْ وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ
 أَنْتُمْ دَعَائِمُ هَذَا الْمُلْكِ مُذَرَّكُضَتْ قَبْلُ الْخِيُولُ لِإِبْرَامَ وَتَوَكِيدِ
 أَنْتُمْ عُمُومُ إِذَا مَا أَرَمَتْ أَرَمَتْ وَأَلَوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ الْمَرَاوِيدِ
 سَيُوفُكُمْ أَفْقَدَتْ كَسْرَى مَرَاذِبُهُ فِي يَوْمِ ذِي قَارِ إِذْ جَاؤُوا لِلْمَوْعُودِ
 فَهَذَا هُوَ الْفَخْرُ الْحَلَالُ غَيْرُ الْمُدْعَى فِيهِ وَلَا الْمُنْتَحَلِ .
 وَعَابَ الْأَضْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مُعْسِرٍ بِنِ أَنْحَمَ يَصِفُ
 أُسِيرًا :

فَظَلَّ يُجَالِسُ الْمَذَقَاتِ فِيهَا يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَيْقُ
 وَذَلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ أُسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُجَالِسُ الْقَلِيلُ الْمَذُوقِ
 مِنَ اللَّبَنِ إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الْجَهْلِ . وَمِنْ أَجْوَدِ قَصِيدَةِ أَفْحَرَ فِيهَا شَاعِرُ
 قَصِيدَةُ السَّمَوَالِ بْنِ عَادِيَاءَ فَلَهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا ضُرُوبَ الْمَادِحِ
 وَأَنْوَاعِ الْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ



البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسه)

وَلَيْسَ بَيْنَ الرِّثَاءِ وَالْمَدْحِ قَرْنٌ إِلَّا أَنْ يُخْلَطَ بِالرِّثَاءِ شَيْءٌ
يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ مَيِّتٌ مِثْلُ كَانَ أَوْ عَدِمْسًا كَيْتٌ وَكَيْتٌ
أَوْ مَا شَاكَلَ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ مَيِّتٌ. وَسَبِيلُ الرِّثَاءِ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَ
التَّجَمُّعِ بَيْنَ الْحَسْرَةِ مَخْلُوطًا بِالتَّلْهُفِ وَالْأَسْفِ وَالْإِسْتِعْظَامِ. إِنْ
كَانَ أَلَمِيْتُ مَلِكًا أَوْ رَئِيسًا كَبِيرًا كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ فِي حِصْنِ بْنِ
حُدَيْقَةَ :

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْتِي نَفُوسُهُمْ وَكَيْفَ بِحِصْنٍ وَالْجِبَالُ جُحُوحُ
وَلَمْ تَلْفِظِ الْمَوْتِ الْقُبُورُ وَلَمْ تُرَلِّ نُجُومُ السَّمَاءِ وَالْأَدِيمُ صَحِيجُ
فَعِمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعِيَّهُ فَظَلَّ بِذِي الْقَوْمِ وَهُوَ يَنُوحُ
فَهَذَا وَمَا شَاكَلَ رِثَاءَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ الْحِلَّةُ وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ
أَبُو الْعَتَاهِيَةِ حِينَ قَالَ : (مَاتَ الْحَلِيقَةُ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) فَرَفَعَ النَّاسُ
رُؤُوسَهُمْ وَفَتَحُوا عُيُونَهُمْ وَقَالُوا : أَنْعَاهُ إِلَى الْخِنْ وَالْأَنْسِ ثُمَّ قَالَ :
(فَكَأَنِّي أَفْطَرْتُ فِي رَمَضَانَ) يُرِيدُ إِلَيَّ مُجَاهَرَّتِي بِهَذَا
الْقَوْلِ كَأَنَّمَا جَاهَرْتُ نَهَارًا بِالْإِفْطَارِ فِي رَمَضَانَ فَكُلُّ أَحَدٍ
يُسَكِّرُ عَلَيَّ ذَلِكَ وَيَسْتَعْظِمُهُ مِنْ فِعْلِي وَهَذَا مَعْنَى جَيْدٌ غَرِيبٌ فِي
لَفْظِ رَدِيٍّ غَيْرِ مُغَرَّبٍ عَمَّا فِي النَّفْسِ. وَمِنْ أَفْضَلِ الرِّثَاءِ قَوْلُ

أَلْحَسَيْنِ بْنِ مَطِيرٍ بَرِّئِي مَعْنَى بِنِ زَائِدَةَ وَيُرْوَى لِابْنِ أَبِي حَفْصَةَ:
يَا قَبْرَ مَعْنَى أَنْتَ أَوَّلُ بُقْعَةٍ

مِنَ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْسَّمَاحَةِ مَوْضِعًا
وَيَا قَبْرَ مَعْنَى كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ

وَقَدْ كَانَ مِنْهُ أَلْبَرُ وَالْجَرُّ مُتَرَعًا
يَلَى قَدْ وَسِعْتَ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيِّتٌ

وَلَوْ كَانَ حَيًّا عِشْتَ حَتَّى تَصْدَعًا
فَتَى عِيشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ

كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعًا
وَمِمَّا قَصَرَ بِهِ أَبُو تَمَّامٍ فِي رِثَائِهِ مُحَمَّدَ بْنَ حُمَيْدٍ بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي
يَقُولُ فِيهَا :

أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ عُطِلَتْ لَهُ فِجَاجُ سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْشَعَرَ الثَّغَرُ
وَقَدْ آجَادَ أَيْضًا فِي الْقَصِيدَةِ الَّتِي رَتَّى بِهَا آدِرِيسَ بْنَ بَدْرِ
يَقُولُ فِيهَا :

وَلَمْ أَنْسَ سَفَى الْجُودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ بِأَكْثَفِ بَالٍ يَسْتَقِيلُ وَيَطْلُعُ
وَأَبُو تَمَّامٍ مِنَ الْمُعْدُودِينَ فِي إِجَادَةِ الرِّثَاءِ وَمِثْلُهُ دِيكَ الْحِنْ
وَهُوَ أَشْهُرُ فِي هَذَا مِنْ أَبِي تَمَّامٍ لَهُ فِيهِ طَرِيقٌ قَدْ أَنْفَرَدَ بِهَا قَالَ
فِي عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ :

قَدْ اسْتَوَى النَّاسُ وَمَاتَ الْكَمَالُ وَصَاحَ صَرْفُ الدَّهْرِ أَيْنَ الرِّجَالِ
هَذَا أَبُو الْقَاسِمِ فِي نَعَشِهِ قَوْمُوا أَنْظَرُوا كَيْفَ تَسِيرُ الْحِبَالِ

وَمِنْ عَادَةِ الْقَدَمَاءِ أَنْ يَضْرِبُوا الْأَمْثَالَ فِي الْمَرَاتِي بِأَلْمُلُوكِ
الْأَعَزَّةِ وَالْأُلَمِّ السَّالِقَةِ وَبِالْوُعُولِ الْمُسْتَعَةِ فِي قُلُلِ الْجِبَالِ وَالْأَسُودِ
الْحَادِرَةِ فِي الْغِيَاضِ وَحُمُرِ الْوُحْشِ الْمُنْتَصِرَةِ بَيْنَ الْقَقَارِ وَالنُّسُورِ
وَالْعُقْبَانِ وَالْحَيَاتِ لِبَاسِهَا وَطُولِ أَعْمَارِهَا وَذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ
مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَحُلُو مِنْهُ. فَأَمَّا الْمُخْدَثُونَ فَهُمْ إِلَى غَيْرِ هَذِهِ
الطَّرِيقَةِ أَمِيلٌ وَمِنْهُمْ فِي الرِّثَاءِ أَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هَذَا وَقَبْلَهُ وَرَبَّمَا
جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ أَقْتِدَاءَ بِهِمْ وَأَخَذُوا يُسْتَبْتَهُمْ كَالَّذِي صَنَعَ
أَبُو نَوَاسٍ فِي رِثَائِهِ أَبَا الْوَلِيدِ الْأَعْرَابِيِّ وَخَلَفَا الْأَحْمَرَ وَمَرَّاشِيهِ
فِيهِمَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتٌ

وَكَمَا صَنَعَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ يَرِثِي أَبَاهُ بِالْقَصِيدَةِ اللَّامِيَةِ الْمُقِيدَةِ
فِي الرَّمْلِ أَوْهَا :

رُبَّ حَتَفٍ بَيْنَ أَثْنَاءِ الْأَمَلِ وَحَيَاةِ الْمَرْءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلٌ
وَهِيَ مَعْرُوقَةٌ وَلَوْ لَا أَشْتَهَارُ هَذِهِ الْقَصَائِدَ وَوُجُودَهَا وَخِيفَةُ التَّطْوِيلِ
لَا ثَبَتَتْ بِهَذَا الْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ الشُّعْرَاءِ أَنْ يَقْدِمُوا قَبْلَ
الرِّثَاءِ نَسِيئًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي الْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ. قَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ
وَكَانَ عَلَامَةً لَا أَعْرِفُ مَرِثَةً فِي أَوْهَا نَسِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةً دُرَيْدِ بْنِ
الْصَّمَّةِ فِي رِثَائِهِ أَخِيهِ خَالِدٍ :

أَرَثَ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبِدٍ لِعَاقِبَةٍ أَوْ أَخْلَقَتْ كُلَّ نَوْعِدٍ
وَحَكَّى الْحَاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ الْأَخْوَلِ
أَنَّ الْقَصِيدَةَ الَّتِي لِأَبِي قُحَاقَةَ أَعْنَى بِأَهْلَةٍ إِنَّمَا هِيَ لِابْنَةِ الْمُنْتَشِرِ

وَأَسْمَاهُ الدَّعْجَاءُ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُتَعَارِفَ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَرْثِيَةٌ أَوْ لَهَا تَنْسِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةُ دُرَيْدٍ. وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ الْوَاجِبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا وَمِنْ بَعْدِهِ لِأَنَّهُ لَا اخْذَ فِي الرِّثَاءِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَشْغُولًا عَنِ النَّسِيبِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحَسْرَةِ وَالْأَهْتِسَامِ بِالْمُصِيبَةِ وَإِنَّمَا تَغُولُ دُرَيْدٌ بَعْدَ قَتْلِ أَخِيهِ بِسَنَةِ وَحِينَ أَخَذَ بَنَاهُ وَادْرَكَ طَائِلَتَهُ

وَمِنْ الْعَجِيبِ أَنَّ يَقُولَ عَبْدِ بَنِ الطَّيِّبِ فِي تَأْيِينِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ الْمُنْقَرِي :

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا وَيَقُولَ الْكَمِيتُ فِي تَأْيِينِ النَّبِيِّ هَذَا الْقَوْلَ فَهَلَّا قَالَ مِثْلَ قَوْلِ فَاطِمَةَ :

اغْبِرْ أَفَاقُ السَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ الْعَصْرَانِ وَالنِّسَاءُ اسْتَحْجَى النَّاسَ قُلُوبًا عِنْدَ الْمُصِيبَةِ وَأَشَدُّهُمْ جَزَعًا عَلَى هَالِكٍ لِمَا رَكَّبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي طِبَاعِهِنَّ مِنْ نُعْفٍ الْعَزِيمَةِ فَأَنْظُرْ إِلَى قَوْلِ جَلِيلَةٍ بِنْتِ مَرْثِي زَوْجَهَا كَلِمًا حِينَ قَتَلَهُ أَخُوهَا جَسَاسٌ مَا اسْتَحْجَى لَفْظَهَا وَأَظْهَرَ الْفَحِيحَةَ فِيهِ وَكَيْفَ يُثِيرُ الْأَشْجَانَ وَيَقْدَحُ شَرَرَ الْبِرَانِ وَذَلِكَ :

يَا أَبْنَةَ الْأَقْوَامِ إِنْ مُلْتَ فَلَا تَحْجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسَالِي وَمِنْ أَشَدِّ الرِّثَاءِ صُعُوبَةٌ عَلَى الشَّاعِرِ أَنْ يَرِثِي طِفْلًا أَوْ امْرَأَةً لِضِيقِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِيهَا وَقِلَّةِ الصِّفَاتِ. لَا تَرَى مَا صَنَعُوا بِأَيِّ

الطَّيِّبِ وَهُوَ فُحْلٌ مُجَرَّدٌ إِذْ ذَكَرَ الْخُحْدُثُونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ أَمْ سَيْفِ
الدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقَنَا حَنُوطٌ عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْنَنِ بِالْجَمَالِ
وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهَذِهِ الْعُجُوزُ يَصِفُ جَمَاهَا وَقَالَ الصَّاحِبُ بْنُ
عَبَادٍ : هَذِهِ أَسْتَعَارَةُ حِدَادٍ فِي عُرْسٍ فَإِنْ كَانَ أَرَادَ الصَّاحِبُ
بِالْأَسْتَعَارَةِ الْحَنُوطَ فَقَدْ وَاللَّهِ ظَلَمَ وَتَعَسَّفَ وَإِنْ كَانَ أَرَادَ
أَسْتَعَارَةَ الْكَفَنِ لِحِمَالِ الْعُجُوزِ فَقَدْ اعْتَرَضَ فِي مَوْضِعٍ اعْتَرَضَ
إِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ مَا يَخْتُلِي كُلَّ رَلَّةٍ وَيُعْنِي كُلَّ
إِسَاءَةٍ . قَالَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَادٍ وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَرِيثَةٍ لَهُ فِي
أَمِّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ تَدُلُّ مَعَ فَسَادِ الْحُسْنِ عَلَى سُوءِ آدَبِ النَّفْسِ
وَمَا ظَنُّكَ بِنِ بْنِ يُحَاظِبُ مَلِكًا فِي أَمَةٍ يَقُولُهُ :

رِوَاقُ الْغُرِّ فَوْقَكَ مُسْبِطٌ وَمُلْكٌ عَلَيَّ أَيْنِكَ فِي كَمَالٍ
وَأَعْلَى لَفْظُ الْأَسْبِطَارِ فِي مَرَاثِي النِّسَاءِ مِنَ الْخِذْلَانِ الصَّفِيقِ
الرَّقِيقِ . وَأَنَا أَقُولُ إِنَّ أَشَدَّ مَا هَجَّنَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ
قَصِيدَةٍ هَجَاءٍ أَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقَكَ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا فُضَاءٌ
وَمِنْ أَضْعَبِ الرِّثَاءِ أَيْضًا جَمْعُ تَغْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ
قَالُوا : لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ أَجْتَمَعَ النَّاسُ بَابَ يَزِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى
الْجَمْعِ بَيْنَ التَّغْزِيَةِ وَالتَّهْنِئَةِ حَتَّى آتَى عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ هَمَامٍ السَّائِلِيُّ
فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى الرِّزْيَةِ . وَبَارَكَ لَكَ
فِي الْعَطِيَّةِ . وَأَعَانَكَ عَلَى الرَّعِيَّةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَأُعْطِيتَ فَاشْكُرْ

اللَّهُ عَلَى مَا أُعْطِيَ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا رُزِيتَ فَقَدْتَ خَلِيفَةَ اللَّهِ وَأُعْطِيَ
خِلَافَةَ اللَّهِ فَقَارَقْتَ جَلِيلًا وَأُعْطِيَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ
وَوَلَّيْتَ الرِّئَاسَةَ وَأُعْطِيَ السِّيَاسَةَ فَأَوْرَدَهُ اللَّهُ مَوَارِدَ الشُّرُورِ
وَوَقَّتَكَ لِمَصَالِحِ الْأُمُورِ :

فَأَصْبِرْ يَرْيَدُ فَقَدْ قَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ

فَأَشْكُرْ جَبَاءَ الَّذِي بِأَمْلُكَ أَضْفَاكَ
لَا رُزْءَ أَصْبَحَ فِي الْأَيَّامِ تَعْلَمُهُ كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَ
فَقَفَّحَ لِلنَّاسِ بَابَ الْقَوْلِ وَعَلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ جَرَى الشُّعْرَاءُ بَعْدَهُ
قَالَ أَبُو نَوَاسٍ يُعْزِي الْفَضْلَ بْنَ الرَّبِيعِ وَيُهْنِيهِ بِالْأَمِينِ :
تَعَزَّ أَبَا الْعَبَّاسِ عَنْ خَيْرِ هَالِكٍ بِأَكْرَمِ حَيٍّ كَانَ أَوْ هُوَ كَانُ
حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا لَهْنٌ مَسَاوِيْرَةٌ وَمَحَاسِنُ
وَفِي الْحَيِّ بِالْمَيِّتِ الَّذِي غَيْبَ الْآثَرُ

فَلَا أَمْلُكَ مَغْبُونٌ وَلَا أَمُوتُ غَابِنُ
وَيُرَوَّى فَلَا أَنْتَ مَغْبُونٌ . وَاتَّبَعَهُ أَبُو تَمَّامٍ بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي أَوَّلَهَا
(مَا لِلدَّمُوعِ ثَرُومٌ كُلُّ مَرَامٍ) يَقُولُ فِيهَا الْوَائِقِ بَعْدَ الْمُنْتَصِمِ صَرَفَ
فِيهَا الْكَلَامَ حَيْثُ شَاءَ وَأَطْنَبَ كَمَا أَرَادَ وَأَحْتَجَّ وَأَسْهَبَ وَتَقَدَّمَ
فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هَذِهِ النَّاحِيَةَ مِنَ الشُّعْرَاءِ . وَأَرَادَ أَنْ يُرِثَ
مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ التَّقْصِيرَ فَأَقْتَصَرَ عَلَى :

قَدْ قُلْتَ إِنَّ غَيْبُوكَ وَأَضْطَقَّتْ عَلَيْكَ أَيْدٍ بِالْثَرْبِ وَالطَّيْنِ
إِذْ هَبَ فَنِعْمَ أَلْمَعِنُ كُنْتَ عَلَى الدُّمِ نِيًّا وَنِعْمَ الظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْبِرَ اللَّهُ أُمَّةً فَقَدَتْ مِثْلَكَ إِلَّا عِشْلَ هَارُونَ
وَمِنْ جَيْدٍ مَا رُثِيَ بِهِ النِّسَاءُ وَأَشَدُّهُ تَأْثِيرًا فِي الْقَلْبِ وَآثَارَةً
لِلْخُزْنِ قَوْلُ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ هَذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ :
أَلَا مَنْ رَأَى الطِّفْلَ الْمَفَارِقَ أُمَّهُ

بُعِيدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ
يَقُولُ فِيهَا :

أَلَا إِنَّ سَجَلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ مِنْ الدَّمْعِ أَوْ سَجَلَيْنِ قَدْ شَفَّيَانِي
وَأَنَّ مَكَانًا فِي الْأَثَرِ خُطَّ لِحْدُهُ

لَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
وَمِنْ أَشْجَى الشَّعْرِ رِثَاءٌ قَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

فَهَبْنِي عِدْمَتُ الصَّبْرِ عَنْهَا لِأَنِّي جَلِيدٌ قَدْ بَالَصَبْرِ لِابْنِ ثَمَانٍ
فَهَذِهِ الطَّرِيقُ هِيَ الَّتِي يَجْرِي خُذَّاقُ الشُّعْرَاءِ إِلَيْهَا وَيَعْتَبِدُونَ
فِي الرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَكُنِ الْمَرْثِيَّةُ مِنْ نِسَاءِ الْمَلِكِ وَبَنَاتِ
الْأَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مَحَارِمِ الشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يُبْجَا فَي عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ
إِلَى أَرْفَعِ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

وَلَوْ أَنَّ النِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

مَشَى الْأُمَرَاءُ حَوْلَهَا حُفَاةً كَانَ الْمُرَوِّ مِنْ زِفْرِ الرِّيَالِ
وَقَوْلُهُ لِأَخْتِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

يَا أُخْتَ حَيْرٍ آخِرَ يَا بِنْتَ حَيْرٍ أَبِ كِنَايَةِ يَهْمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ

الْعَاقِبَةِ لَعَنُوا بَنِي الْعَلَاءِ. وَأَبْنُ الْمُعْتَرِ يَسْتَبِي هَذَا النَّوعَ مَرْحًا
يُرَادُ بِهِ الْجِدُّ وَهُوَ :

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ أَلَعَيْنُ يَا عَمْرُؤَ فَتَحْنُ لَهَا نَبْعِي التَّمَامِ وَالشَّرَّ
سَرَقِيكَ بِالْأَشْعَارِ حَتَّى تَمْلَهَا فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقِيكَ بِالسُّورِ
وَكُنْتُ مَنَعْتُ فِي الْإِسْتِطَاءِ :

أَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنْهُ لَوْ لَمْ تُؤَخِّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَةً
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَةٌ
وَجَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَا آجَلَةٌ لِلْمَرْءِ لَا عَاجِلَةٌ
لَكِنَّمَا أَضَعَفَ مِنْ نِيَّتِي أَيَّامُ عَمْرٍو دُونَهَا زَائِلَةٌ
وَالْعِتَابُ أَوْسَعُ جِدًّا مِنَ الْإِقْتِضَاءِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلُهُ بِسَبَبِ
الْحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيرًا وَالْإِقْتِضَاءُ لَا يَكُونُ
إِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسه)

وَأِنْ كَانَ حَيَاةُ الْمَوَدَّةِ وَشَاهِدُ الْوَفَاءِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ
الْحَدِيثِ وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ الْقَطِيعَةِ وَالْجَفَاءِ وَإِذَا قُلٌّ كَانَ دَاعِيَةً
الْأُلْفَةِ وَقَيْدَ الصُّحْبَةِ وَإِذَا كَثُرَ خَشَنُ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ. وَلِلْعِتَابِ
طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَالنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَقَدْ مَازَجَهُ الْإِسْتِعْطَافُ

وَالْإِسْتِثْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ الْإِخْتِجَاجُ وَالْإِتِّصَافُ . وَقَدْ يَفْرِضُ
فِيهِ أَنَّهُ وَالْإِجْحَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرُكُهُ الْإِعْتِدَارُ وَالْإِعْثَرَاْفُ . وَأَحْسَنُ
النَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ الْأَشْرَافِ شَيْخُ الصَّنَاعَةِ وَسَيِّدُ الْجَمَاعَةِ أَبُو
عِبَادَةَ الْجُبَيْرِيُّ الَّذِي يَقُولُ :

يُرِيدُنِي الشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ	وَأَكْثَرُ قَدْرِكَ أَنْ أَسْتَرِيَا
وَأَكْرَهُ أَنْ أَمَادَى عَلَى	سَبِيلِ اعْتِدَارٍ فَأَلْقَى شُعُوبَا
أَكْذَبُ ظَنِّي بَأَن قَدْ سَخِطْتُ	وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ أَكُنْ	أَذْمُ الزَّمَانِ وَأَشْكُو الْخُطُوبَا
وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَهِي	عَلَيْكَ بِهَا مُحْطِئًا أَوْ مُصِيَا
أَيُضِجُ وَرَدِي فِي سَاحَتَيْكَ	طَرَفًا وَمَرْعَايَ مَحَلًّا جَدِيَا
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ	يُسَقِّقُ فِيهِ الْوَدَاعُ الْجُيُوبَا
وَالَّذِي يَقُولُ :	

وَأَعِيدَ إِنْ نَازَعْتَهُ الْخَطَّ رَدَّهُ
ثَنَاهُ الْعِدَا عَنِّي فَأَضْجِعُ مُعْرِضًا
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ
يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعَشَرُ
أَعِيدُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ

تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمِ إِلَيْكَ تَقَدَّمَ مَا
أَلَسْتُ أَلْوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ
هِيَ أَلَا نَجْمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجَمَا

فَهَذَا أَعْتَبُ كَمَا قَالَ :

عَتَابُ بِأَطْرَافِ الْقَوَائِي كَأَنَّهُ طَعَانٌ بِأَطْرَافِ الْقَنَا أَلْتَكْتَسِرُ
وَقَدْ نَحَوْتُ أَنَا بَعْضَ هَذَا النُّحْوِ فِي كَلِمَةٍ عَاتَبْتُ بِهَا الْقَاضِيَّ
جَعْفَرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْكُوفِيَّ قُلْتُ فِيهَا :

وَقَدْ كُنْتُ لَا آتِي إِلَيْكَ مُحَايِلًا لَدَيْكَ وَلَا أُثْنِي عَلَيْكَ تَصْنَعًا
وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْمَدْحَ فِيكَ فَرِيضَةً عَلَيَّ إِذَا كَانَ الْمَدِيحُ تَطَوُّعًا
فَقَسَمْتُ بِمَا لَا يَخْفَى عَنْكَ مَكَانَهُ مِنْ الْقَوْلِ حَتَّى ضَاقَ مِنِّي تَوْسَعًا
إِلَى أَنْ أَقُولَ :

فَوَاللَّهِ مَا طَوَّلْتُ بِاللُّومِ فِيكُمْ لِسَانِي وَلَا عَرَّضْتُ لِلذَّمِّ مِسْمَعًا
أَلُوذُ بِإِكْثَافِ الرَّجَاءِ وَآتَّقِي شَتَا الْعِدَا إِنْ لَمْ أَجِدْ فِيكَ مَطْمَعًا
وَمِنْ مُعَاتَبَاتِ أَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ لِأَبْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْزِّيَّاتِ :
تَقَطَّعْتَ الْأَنْسَابُ إِنْ لَمْ تُعْرِ لَهَا

قُوًى أَوْ يَصِلَهَا مِنْ يَمِينِكَ وَاعْمِلْ
سِوَى مَطْلَبٍ يَنْضَى الرَّجَاءُ بِطُولِهِ

وَتُخْلِقُ أَخْلَاقَ الْجُلُوفِ الْوَسَائِلُ
وَقَدْ تَأَلَّفُ الْعَيْنُ الدُّجَى وَهُوَ قَيْدُهَا

وَيُرْجَى شِفَاءُ السَّمِّ وَالسَّمُّ قَاتِلُ

إِلَى قَوْلِهِ :

وَأَنَّ أَلْمَاعِي يُسْتَرَمُ بِنَاوِهَا وَشَيْكََا كَمَا قَدْ تُسْتَرَمُ أَلْمَازِلُ
مَتَحْتُهَا تَشْفِي الْجَوَى وَهُوَ لَا عِجْ وَتَبَعْتُ أَشْجَانَ الْفَتَى وَهُوَ ذَاهِلُ

تُرَدُّ قَوَائِمُهَا إِذَا هِيَ أُرْسِلَتْ هَوَامِلُ مَجْدِ الْقَوْمِ وَهِيَ هَوَامِلُ
فَكَيْفَ إِذَا حَلَّتْهَا بِحَايِبُهَا تَكُونُ وَهَذَا حُسْنُهَا وَهِيَ عَاطِلُ
وَقَالَ ابْنُ الْأَرَوَمِيِّ لِأَيِّ الصَّغِيرِ يُعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ جَدَّةٍ :
عَذْرُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءً تَقَشَّعَتْ سَحَابَتُهَا أَوْ كَانَ رَوْضًا تَصَوَّحَا
فَيَا لَكَ بَجْرًا لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرَعًا وَإِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْبَجًا
مَدِينِي عَصَا مُوسَى وَذَلِكَ أَنِّي صَرَبْتُ بِهِ نَجْرَ النَّدَى فَتَضَخَّحَا
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

سَاءَ مَدْحُ بَعْضِ الْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ إِذَا اطَّرَدَ الْقِيَاسُ أَنْ يَتَسَحَّحَا
فَهَذَا هُوَ الَّذِي لَا يُبْلَغُ جُودَةٌ وَلَا يُجَارَى سَبْقًا. عَلَى أَنَّ
الْمُجْتَزِيَّ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى بَعْضِ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ :
نَعَامُ خَطَا فِي صَوْبِهِ وَهُوَ مُسْبِلٌ وَبَجْرٌ عَدَا فِي قِيضِهِ وَهُوَ مُنْعِمٌ
وَبَدْرٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَحْلِي وَمِنْهُ أَسْوَدُ أَقْمٌ
وَمَا بَجَلُ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ بِالْنَدَى وَلَكِنَّهَا الْأَقْدَارُ تُغْطِي وَتَحْرِمُ
فَأَمَّا أَبُو الطَّيِّبِ فَكَانَتْ فِي طَبْعِهِ غِلَظَةٌ وَفِي عَتَابِهِ شِدَّةٌ
وَكَانَ كَثِيرَ التَّحَامُلِ ظَاهِرَ الْكِبَرِ وَالْأَنْفَةِ وَمَا ظَنُّكَ بِعَنْ يَقُولُ
لِسَيْفِ الدَّوَلَةِ :

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فَيْكَ الْجُصَامُ وَأَنْتَ الْحَصَمُ وَالْحَكَمُ
أَعِيدُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةٌ أَنْ تَحْسَبَ الشَّخْمَ فِي مَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وَمَا أَتَيْتَ أَخِي الدُّنْيَا بِنَازِلِهِ إِذَا أَسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ
وَفِيهَا يَقُولُ :

إِذَا رَأَيْتُ يُوبَ اللَّيْلِ بَارِدَةً فَلَا تَطَنَّ أَنْ اللَّيْلَ مُبْسِمٌ
فَهَذَا الْكَلَامُ فِي نِهَايَةِ الْجُودَةِ غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ الْوَاجِبِ
وَالسِّيَاسَةِ غَايَةً فِي الْقُبْحِ وَالرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَضَ بِقَوْمٍ يَنْتَقِصُونَهُ
عِنْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَيُعَارِضُونَهُ فِي أَشْعَارِهِ . وَالْإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى
سَيْفِ الدَّوْلَةِ . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ آيَاتٍ :

يَا مَنْ يِعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُ وَجَدْنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ
مَا كَانَ أَخْلَقْنَا مِنْكُمْ بِكَرَمَةٍ لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمٌّ
وَبَيْنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةً إِنَّ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النَّهْيِ ذِمٌّ
كُمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزُكُمْ وَاللَّهُ يَكْزُرُهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ مِنْ شَرِّ فِي

أَنَا الْثُرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وَلَيْسَ هَذَا عِتَابًا لِكِنَّهُ سَبَابٌ وَيَسَبُّ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ كَادَ
يُقْتَلُ بَعْدَ أَنْصَرَفِهِ مِنْ مَجْلِسِ إِنْشَادِهَا . وَأَمَّا عِتَابُ الْأَكْفَاءِ
وَأَهْلِ الْمَوَدَّاتِ مِنَ الظُّرَفَاءِ فَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبَّاسٍ الصَّوَلِيِّ
يُعَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزُّيَّاتِ وَقَدْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ كَمَا وَرَدَ :
وَكُنْتَ أَخِي بِأَخَاءِ الزَّمَانِ فَلَمَّا نَبَا صِرْتَ حَرْبًا عَوَانَا
وَكُنْتُ أَذَمُّ إِلَيْكَ الزَّمَانِ فَاصْبَحْتُ فِيكَ أَذَمُّ الزَّمَانِ
وَكُنْتُ أَعْدُكَ لِلنَّائِبَاتِ فَهِيَ أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ الْأَمَانَا
وَهَذَا عِنْدِي مِنْ أَشَدِّ الْعِتَابِ وَأَوْجَعِهِ . وَمِنْ أَكْرَمِ الْعِتَابِ
قَوْلُ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ :

وَأَيُّ لَأْطَرِي كُلِّ خَلٍّ صَحْبَتُهُ وَأَنْتَ تَرَى سَمْتِي بِغَيْرِ حَيَاءٍ
وَمِنْ مَلِيحٍ مَا سَمِعْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ مُحَمَّدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا
لَهُ :

أَقْلَبُ عِتَابَكَ فَأَلْبَقَاءُ قَلِيلُ
لَمْ أَبْكُ مِنْ زَمَنٍ ذَمَّمْتُ ضَرْوْفَهُ
وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَّتْ مُدَّةُ
وَأَلْمَسْتُونِ إِلَى الْإِخَاءِ عَصَابَةُ
وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْلَيْثَةِ وَالرَّدَى
فَلَنْ سَبَقْتُ لَتُكَبَّنَ بِحَسْرَةٍ
وَلَتُجْعَنَ مُجْلَسُ لَكَ وَأَوْقِ
وَلَنْ سَبَقْتُ وَلَا سَبَقْتُ لَيْمُضِينَ
وَلَيْذَهَبَنَّ بَهَاءُ كُلِّ مُرْوَةٍ
وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا
وُدُّ بَدَا لَذَوِي الْإِخَاءِ كَمَا هُ
وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْإِخَاءِ قَصِيرَةٌ
وَأَلَى هُنَا أَوْمًا أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

دَرِ النَّفْسَ تَأْخُذُ وَسَعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا
فَفُتِرَقُ جَارَانِ دَارُهَا الْعَمْرُ
وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ وَأَرَدَتْ الْبَيْتَ الْآخِرَ :

وَصَلِيًّا نَصْلِكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
يَا فَإِنَّ أَلْقَامَ فِيهَا قَلِيلُ
وَأَجْمَعُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُجَنِّبًا

أَنَّ الصُّدُودَ هُوَ الْفِرَاقُ الْأَوَّلُ
حَسْبُ الْأَجَبَةِ أَنْ يَفْرَقَ بَيْنَهُمْ رَيْبُ الْأَمْنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعِجِلُ
إِلَّا أَنْ أَبْنَ حَمِيدٍ قَدْ فَتَنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا أَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ:
لَيْنَ سَبَقْتُ أَنَا وَلَيْنَ سَبَقْتَ أَنْتَ وَلَا سَبَقْتُ فَلَهُ بِذَلِكَ فَضْلٌ بَيْنُ
الرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا أَحْسَنَ إِجَارَ الَّذِي قَالَ:

الْعُمُرُ أَقْصَرُ مُدَّةٍ مِنْ أَنْ يُحَقِّقَ بِالْعِتَابِ
وَقَالَ أَبُو الْخَدَّاثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

إِذَا كُنْتُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقِ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسه)

كَانَ الْعُقَلَاءُ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَذَوُو الْحِزَمِ يَتَوَعَّدُونَ بِالْهَجَاءِ
وَيَحْذَرُونَ مِنْ سُوءِ الْأُخْذُوثَةِ وَلَا يُعْضُونَ الْقَوْلَ إِلَّا ضَرُورَةً حِينَ
لَا يَخْشَنُ السُّكُوتُ. قَالَ أَبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرَ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ تَحْيِدَ آيَاتِ الْكِتَابِ هَجَائِيَا
أَغْفُوا كَمَا يَغْفُو الْكَرِيمُ فَإِنِّي أَرَى الشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا
أَغْضُ بَيْنَ اللَّحْمِ وَالْجِلْدِ غَمَضَةً يَبْرِدُ رُومِي يَقْطُ الْمَوَاصِيَا
فَأَمَّا سُرَاقَاتُ الْهَجَاءِ فَإِنَّهَا كَلَامٌ تَهَادَاهُ اللَّئَامُ تَهَادِيَا

وَعَمْدِي الدَّهْمُ لَوْ أُحِلَّ عَقَالَهَا فَتَضَجَّ لَمْ تَعْدَمِ مِنَ الْحَيْنِ حَادِيَا
شَبَّ لِسَانُهُ يَبْرُدُ رُومِي لِيَصَاهُ وَشَبَّ الْقَصِيدَةُ أَلَّتِي لَوْ شَاءَ
هَجَاءُ هُمْ بِهَا بِالدَّهْمِ وَهُوَ الدَّاهِيَةُ. وَأَعْلُ ذَلِكَ أَنَّ الدَّهْمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ
رَبَّانٍ الثَّعْلَبِيِّ أَلَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا الْحَيَّ
فَضْرِبَ بِهَا أَلْتَمَلُ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لَبَنِي خَنِيفَةَ وَكَانَ مِيلَهُمْ
مَعَ الْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ :

أَبْنِي خَنِيفَةَ حَكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضَبَا
قَوْلُهُ حَكِمُوا أَيُّ كُفُّوا. وَقَالَ لَتَيْمِ الرَّبَّابِ رَهْطِ عَمْرِو بْنِ لَجَا :
يَا تَيْمَ تَيْمَ عَمْرِي لَا أَبَا لَكُمْ لَا يُفَيْسِكُمْ فِي سُوءَةِ عَمْرِ
وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هَذَا الْبَابِ :

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى أَنَّهُ لَوْ تَرَكَ الْبَرْغُوثُ مَا أَوْجَعَا
كُلُّ لَهٍ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ وَآفَةُ الْخَلَّةِ أَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ أَنَّهُ قَالَ : خَيْرُ الْهَجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ
الْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَتَّبِعُ بِمِثْلِهَا نَحْوَ قَوْلِ جَرِيرٍ :
لَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أَحْسَابَهَا يَوْمَ التَّفَاخُرِ لَمْ تَرِنْ مِثْقَالَا
وَقَوْلِ الْآخَرِ :

فَقَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُصَيْرٍ فَلَا كُفْبًا بَأَقْتٍ وَلَا كِلَابًا
وَلَمَّا أَطْلَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْحُطَيْبَةَ مِنْ حَبْسِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِ
هَيْجَاهِ الزُّبْرَقَانِ قَالَ لَهُ: تَدْعُ الْهَيْجَاءَ الْمُقْدِعَ. قَالَ: وَمَا الْهَيْجَاءُ الْمُقْدِعُ.
قَالَ: الْمُقْدِعُ أَنْ تَقُولَ هُوَلَاءُ أَفْضَلُ مِنْ هُوَلَاءُ وَأَشْرَفُ وَتَبْنِي
شِعْرًا عَلَى مَدْحِ لِقَوْمٍ وَذَمِّ لِبَنٍ يُعَادِيهِمْ. قَالَ: أَنْتَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ مِنِّي بِمَذَاهِبِ الشِّعْرِ لِكُنِّي حَبَانِي هُوَلَاءُ قَدْ حُتُّهُمْ
وَحَرَمَنِي هُوَلَاءُ قَدْ كَرْتُ حِرْمَانَهُمْ وَلَمْ أَنْلِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ شَيْئًا
وَصَرَفْتُ مَدْحِي إِلَى مَنْ أَرَادَهُ وَرَغِبْتُ بِهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَزَهَّدَ
فِيهِ. يُرِيدُ قَصِيدَتَهُ الْمَهْمُوزَةَ وَهِيَ أَخْبَثُ مَا صَنَعَ فِيهَا أَوْ مِنْ أَجْلِهَا
قَالَ خَلْفُ الْأَحْمَرِ: أَشَدُّ الْهَيْجَاءِ أَعْفُهُ وَأَصْدُقُهُ. وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى:
مَا عَفَ لَفْظُهُ وَصَدَقَ مَعْنَاهُ. وَمِنْ كَلَامِ صَاحِبِ الْوَسَاطَةِ: فَا مَّا
الْهَجْوُ فَا بَلَّغُهُ مَا قَرُبْتَ مَعَانِيهِ وَسَهَّلَ حِفْظُهُ وَاسْرَعَ عُلوُّهُ
بِالْقَلْبِ وَلُصُوفُهُ بِالنَّفْسِ فَا مَّا الْقَذْفُ وَالْفُحْشُ قَبَابٌ مُحَضُّ وَائِسَ
لِلشَّاعِرِ فِيهِ إِلَّا إِقَامَةُ الْوِزْنِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ
الْوَسَاطَةِ وَحُسْنِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِعْجَابُ الْخُذَاتِي مِنَ الْعُلَمَاءِ
وَفُرْسَانِ الْكَلَامِ بِقَوْلِ زُهَيْرٍ فِي تَشْكُكِهِ وَتَهْزِيلِهِ وَتَجَاهُلِهِ فِيمَا
يَعْلَمُ:

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَذْرِي أَقَوْمُ آلِ حِضْنٍ أَمْ نِسَاءُ
فَإِنَّ هَذَا عِنْدَهُمْ مِنْ أَشَدِّ الْهَيْجَاءِ وَأَمْضِهِ. وَلَمَّا قَدِمَ النَّابِغَةُ بَعْدَ
وَقَعَةِ حُسَا سَأَلَ بَنِي ذِيَّانَ مَا قُلْتُمْ لِإِمَامِ بْنِ الْأُفْقِيلِ وَمَا قَالَ

لَكُمْ . فَأَنشَدُوهُ . فَقَالَ : أَنفَحْتُمْ عَلَى الرَّجُلِ وَهُوَ شَرِيفٌ لَا يُقَالُ لَهُ مِثْلُ هَذَا وَلَكِنِّي سَأَقُولُ ثُمَّ قَالَ :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنَّ مَظِنَّةَ الْجَهْلِ السَّبَابُ (١)
فَلَمَّا بَلَغَ عَامِرًا قَوْلُ النَّابِغَةِ شَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ جَعَلَنِي الْقَوْمُ رَئِيسًا
وَجَعَلَنِي النَّابِغَةُ سَفِيهَا جَاهِلًا وَتَهَكَّمُ بِي . وَرُوِيَ أَنَّ شَاعِرًا مَدَحَ
أَحْسَنَ بَنِ عَلِيٍّ فَأَجْزَلَ مَطِيئَتُهُ فَلِمَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : أَتَرُونِي خِفْتُ
أَنْ يَقُولَ : لَسْتُ أَيْنَ قَاطِئَةً وَلَا أَيْنَ عَلِيٍّ . وَلَكِنْ خِفْتُ أَنْ يَقُولَ :
لَسْتُ كَالرَّسُولِ وَلَسْتُ كَعَلِيٍّ . فَيَصْدُقُ وَيُجْمَلُ عَنْهُ وَيَبْقَى مُجْمَلًا فِي
الْكِتَابِ مُحْفُوظًا عَلَى السِّنَةِ الرُّوَاةِ . فَقَالَ الشَّاعِرُ : أَنْتَ وَاللَّهِ أَعْلَمُ
مَنِي بِالْمَدْحِ . وَقَدْ وَقَعَ أَحْسَنُ بَنِ زَيْدٍ بَعْضَ مَا قَالَ فِيهِ أَبُو
عَاصِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ خُمَزَةَ الْأَسْلَمِيُّ الْمَدَنِيُّ :

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ وَهَمَّا قَالَ فَاحْسَنُ الْجَمِيلِ
وَجَمِيعُ الشُّعْرَاءِ يَرُونَ قَصْرَ الْهَجَاءِ أَجُودَ وَتَرَكَ الْفُحْشَ أَصُوبَ
الْأَجْرِيًّا فَإِنَّهُ قَالَ لِنَبِيهِ : إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا وَإِذَا هَجَوْتُمْ
فَخَالِفُوا . وَأَنَا أَرَى التَّعْرِيزَ أَهْجَى مِنَ التَّضَرُّعِ لِإِتْسَاعِ الظَّنِّ فِي
التَّعْرِيزِ وَشِدَّةِ قَلْقِ النَّفْسِ بِهِ وَالْجُثِّ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَطَلَبِ حَقِيقَتِهِ
فَإِذَا كَانَ الْهَجْوُ تَضَرُّعًا أَحَاطَتْ بِهِ النَّفْسُ عِلْمًا وَقَلَّتْهُ يَقِينًا فِي أَوَّلِ
وَهْلَةٍ وَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ فِي نَقْصٍ لِلنِّسَانِ أَوْ مَلَلٍ يَغْرِضُ . وَهَذَا الْمَذْهَبُ
الصَّحِيحُ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمَهْجُوُّ ذَا قَدَرٍ فِي نَفْسِهِ وَحَسَنِهِ . فَأَمَّا

(١) انظر تسمية هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصارية

إِنْ كَانَ يَمْنٌ لَا يُوقِظُهُ التَّلَوُّجُ وَلَا يُؤْمِلُهُ إِلَّا التَّصْرِيحُ فَذَلِكَ .
 وَلِهَذَا أَلَعَلَّ اخْتَلَفَ هِجَاءُ أَبِي نُوَّاسٍ وَكَذَلِكَ هِجَاءُ أَبِي الطَّيِّبِ فِيهِ
 اخْتِلَافٌ لِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِ الْمُتَهَجِّوِينَ فَنَ التَّفْصِيلِ فِي الْهِجَاءِ قَوْلُ
 رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّقِّي :

أَشْتَانُ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى يَرِيدُ سُلَيْمٍ وَالْأَعَزَّ بْنَ حَاتِمِ
 فَهَمُّ الْفَتَى الْقَيْسِيِّ اتِّلَافُ مَالِهِ وَهُمْ الْفَتَى الْقَيْسِيِّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
 فَلَا يَحْسَبُ التَّمَتُّمُ إِلَيَّ هَجْوَتُهُ وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْكَارِمِ
 وَمَنْ أَلَاخْتِصَارٍ وَأَلَا اسْتِحْفَافٍ قَوْلُ زِيَادِ الْأَعْجَمِ :

قُمْ صَاحِبًا يَا شَيْخَ جُرْمٍ فَإِنَّمَا يُقَالُ لَشَيْخِ الصَّدَقِ قُمْ غَيْرَ صَاحِبِ
 قَنْ أَتَمُّ إِنَّا نَسِيئًا مِنْ أَتَمِّ وَرِيحِكُمْ مِنْ آتِي رِيحِ الْأَعَاصِرِ
 أَأَتَمُّ أَوْلَى جِثْمٍ مَعَ الرِّيحِ وَالِدَبَا فَطَارَ وَهَذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرِ
 قَضَى اللَّهُ خَلْقَ النَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمْ بَقِيَّةَ خَلْقِ اللَّهِ آخِرَ آخِرِ
 فَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَّا بِنَ كَانَ قَبْلَكُمْ

وَلَمْ تُدْرِكُوا إِلَّا مَدَقَّ الْحَوَافِرِ

أَخَذَ مِنْهُ الطَّرْمَاحُ هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ :

وَمَا خُلِقْتَ تَيْمٌ وَعَبْدُ مَنَاتِيهَا وَضَبَّةٌ إِلَّا بَعْدَ خَلْقِ الْقَبَائِلِ

وَمِنْ أَلَاخْتِقَارِ قَوْلِ جَرِيرٍ فِي تَيْمٍ :

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ

وَأَنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ عَيْدَ تَيْمٍ وَتَيْمًا قُلْتَ أَيُّهُمَا الْعَيْدُ

وَمِنْ مَلِيحِ التَّهَكُّمِ قَوْلُ أَبِي هَفَّانَ :

سُلَيْمَانُ مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ حَارِثُ
وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ الرُّومِيَّةِ :

قَرَنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضَرَّ بِهِ شَوْقُ إِلَى وَجْهِهِ سَيَتَلَفُهُ
كَمْ يَبْعُدُ الْقَرْنَ بِاللِّقَاءِ وَكَمْ يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

أَخَذَ مَعْنَى الْبَيْتِ الْأَخِيرِ مِنْ قَوْلِ الْحَارِثِيِّ وَقَدْ قَالَ لَهُ
الْمَنْصُورُ : أَيُّ أَصْحَابِي كَانَ أَشَدَّ إِقْدَامًا فِي مَبَارَزَتِكُمْ فَقَالَ : مَا
أَعْرِفُ وَجُوهَهُمْ وَلَكِنْ أَعْرِفُ أَفْقَاءَهُمْ . وَأَجُودُ فِي الْهَجَاءِ أَنْ
يَسْلُبَ الْإِنْسَانُ الْقَضَائِلَ النَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا . فَأَمَّا مَا
كَانَ فِي الْخَلْقَةِ الْخِسْمَانِيَّةِ مِنَ الْعَلَايِبِ فَإِنَّ الْهَجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ
وَقُدَّامَهُ لَا يَرَاهُ هَجُورًا الْبَتَّةَ وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَهَاتِ مِنْ
النَّقْصِ وَالْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ الْهَجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ
النَّابِغَةُ الْجَعْدِيُّ يَقُولُ إِنِّي وَأَوْسًا لَنَبْتَدِرُ أَبَا مِنْ الْهَجَاءِ فَنَ غَلَبَ
مِنَّا إِلَيْهِ غَلَبَ صَاحِبُهُ فَلَمَّا قَالَ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ :

لَعَمْرُكَ مَا تُبْلَى سَرَائِيلُ عَامِرٍ مِنْ الْأَوْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا
قَالَ النَّابِغَةُ : هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي كُنَّا نَبْتَدِرُهُ . وَالَّذِي أَرَاهُ عَلَى
كُلِّ حَالٍ أَنَّ أَشَدَّ الْهَجَاءِ مَا أَصَابَ الْفَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى الثُّكْتَةِ وَهُوَ
كَمَا قَالَ خَلْفُ الْأَحْمَرِ بَعِيْنُهُ



البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسه)

وَيَبْغِي الشَّاعِرُ أَنْ لَا يَقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ أَنْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَإِنْ
اضْطَرَّهُ الْإِفْتِدَارُ إِلَى ذَلِكَ وَأَوَقَعَهُ فِيهِ الْقَضَاءُ فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا طَيِّبًا
وَلْيَقْصِدْ مَقْصِدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ الْمُعْتَذِرِ إِلَيْهِ مِنْ
بَابِ الْإِخْتِجَاجِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ الْمُلُوكِ وَذَوِي السُّلْطَانِ
وَحَقُّهُ أَنْ يُلَظِفَ بُرْهَانَهُ مُدْرَجًا فِي التَّضَرُّعِ وَالْدُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ
الْمُلُوكِ وَاعَادَةِ النَّظَرِ فِي الْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ النَّاقِلِ وَالْحَاسِدِ فَأَمَّا
مَعَ الْإِخْوَانِ فَتِلْكَ طَرِيقَةٌ أُخْرَى وَقَدْ أَحْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَصْبَهَانِيُّ
حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ أَسَأْتُ فَبِالْنُّعْمَى الَّتِي سَلَفَتْ إِلَّا مَنَنْتَ بِعَفْوِ مَا لَهُ سَبَبُ
وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ مِنْ آيَاتٍ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ :
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهَا جَهْدُ الْآلِيَةِ مِنْ مُقَرَّرٍ خَاضِعٍ
مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَالْعَوَاةُ تُبَدِّلُنِي أَسْبَابُهَا إِلَّا بِنَيْتِ طَائِعٍ
وَقَدْ سَلَكَ أَبُو عَلِيٍّ الْبَصِيرُ مَذْهَبَ الْحُجَّةِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ بَعْدَ
ارْتِكَابِ الْحِلَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ أَجْنِ ذَنْبًا فَإِنْ زَعَمْتَ بِأَنْ جَنَيْتُ ذَنْبًا فَعَيِّرْ مُعْتَصِدِ
نَحْوَتْ هَذَا النَّحْوَ فَقُلْتُ :

لَا يُبْعِدُ اللَّهُ أَبَا جَعْفَرٍ دَعَاةً بَتُّ عَلَى نَارِهَا

وَأَن تَأْذَيْتَ قِيَارُبَا تَأْذَيْتَ الْعَيْنَ بِأَشْفَارِهَا

وَأَجَلُ مَا وَقَعَ فِي الْأَعْتِدَارِ مِنْ شَهُورَاتِ الْعَرَبِ قَصَائِدُ النَّابِغَةِ
الْثَّلَاثُ إِحْدَاهُنَّ « يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ بِالسَّنَدِ » يَقُولُ فِيهَا :

فَلَا لَعَنُ الَّذِي مَسَّحَتْ كَعْبَتَهُ وَتَاهَرِيقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَأَلْمُومٍ مِنَ الْعَائِدَاتِ الطَّيْرِ تَمْسُحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْفِيلِ وَالسَّعْدِ

مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّءٍ بِمَا آتَيْتَ بِهِ إِذَا فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَى يَدِي
إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامٍ شَقِيتُ بِهَا كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرْعًا عَلَى الْكَيْدِ

أُنَيْتُ أَنْ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَائِرٍ مِنَ الْأَسَدِ
وَالثَّلَاثِيَّةُ (أَرْسَمًا جَدِيدًا مِنْ سَعَادَ تَجَنَّبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعْتَذِرًا

مِنْ مَذْحِ آلِ جَفَنَةَ وَخُجَّجًا بِإِحْسَانِهِمْ إِلَيْهِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتُ قَدْ بُلِغْتَ عَنِّي خِيَانَةً لُمْلُغُكَ الْوَأَشِي أَغْشُ وَأَكْذِبُ

وَلَكِنِّي كُنْتُ أَمْرًا لِي جَانِبُ مِنْ الْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكُ وَإِخْوَانُ إِذَا مَا آتَيْتُهُمْ أَحْكَمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ

كَفَعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ أَصْطَنَعْتُهُمْ فَلَمْ تَذْكُرْنِي بِالْوَعِيدِ كَأَنِّي
كَيْفَ لَكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ أَصْطَنَعْتُهُمْ كَأَنِّي

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً بِأَنَّكَ شَمْسُ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ
تَرَى كُلَّ مَالِكَ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَاكِبُ

وَالثَّلَاثِيَّةُ (عَقًا ذُو حُسَى مِنْ قَرْنَتَا فَالْقَوَارِعِ) يَقُولُ فِيهَا بَعْدَ

قَسَمَ قَدَمَهُ عَلَى عَادَتِهِ :

لَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ أَمْرِي وَتَرَكْتَنِي كَذِي الْعَرِ يُكْوِي غَيْدَهُ وَهُوَ رَاتِعُ
فَإِنْ كُنْتَ لَا ذُو الضَّغْنِ عَنِّي مُكَدِّبُ

وَلَا حَلْفِي عَلَى الْبَرَاءَةِ نَافِعُ
وَلَا أَنَا مَأْمُونُ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مُحَالَةَ وَاقِعُ
فَإِنَّكَ كَأَلِيلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتَ أَنَّ أَلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ
وَقَدْ عَلِقَ بِهَذَا أَلْمَعْنَى جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ سَلَمُ الْخَالِيسُ
يَعْتَذِرُ إِلَى أَلْمَهْدِيِّ :

إِلَيَّ أَعُوذُ بِخَيْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَأَنْتَ ذَاكَ لِمَا نَأْتِي وَتَجْتَنِبُ
وَأَنْتَ كَالدَّهْرِ مَبْنُوتًا حَبَائِلُهُ وَالِدَّهْرُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ
وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ :

وَإِلَيَّ وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَنْتِي أَفُوتُكَ إِنْ أَلَرَّأَيْ مَنِّي لَعَاذِبُ
وَإِلَى هَذِهِ النَّاحِيَةِ أَشَارَ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

وَلَكِنَّكَ الدُّنْيَا إِلَيَّ حَبِيبَةٌ قَاعُكَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَهَابُ
غَيْرَ أَنَّهُ حَرَّفَ الْكَلَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَأَخْتَارَ الْعُلَمَاءُ بِهَذَا الشَّانِ
قَوْلَ عَلِيٍّ بْنِ جَبَلَةَ :

وَمَا لِأَمْرِي حَاقِلَتُهُ عَنْكَ مَهْرَبُ وَلَوْ رَفَعْتُهُ فِي السَّمَاءِ أَلَطَّلَاعُ
بَلَى هَارِبُ لَا يَتَّيْدِي لِمَكَانِهِ ظِلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنْ أَلْفَجْرِ سَاطِعُ
لِأَنَّهُ قَدْ أَجَادَ مَعَ مُعَارَضَتِهِ التَّابِعَةَ وَرَادَ عَلَيْهِ ذِكْرُ الْأَضْمِ
وَإِظْهُهُ أَقْتَدَى بِقَوْلِ الْأَنْصَارِيِّ فِي بَيْتِ التَّابِعَةِ : لَيْسَ أَلَّلِيلُ أَوَّلِي

بِهَذَا الْمَثَلِ مِنَ الْهَارِ . وَفِي هَذَا الْأَعْتِرَاضِ كَلَامٌ يَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ
 مِنْ هَذَا الْكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَأَفْضَلُ مِنْ هَذَا كَلِمَةُ قَوْلُ
 الْقُرْآنِ : إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 قَا نَفُذُوا . وَوَجَدَ الْفَضْلُ بْنُ يُحْيَى عَلَى أَبِي الْهَوَلِ الْحَمِيرِيِّ فَدَخَلَ
 إِلَيْهِ فَأَنشَدَهُ :

كَسَانِي وَعِيدُ الْفَضْلِ ثَوْبًا مِنَ اللَّيْلِ

وَأِعَادُهُ عُنْدِي الَّذِي مَا لَهُ رَدُّ
 فَجِدَ بِالرِّضَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ وَرَأَيْكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ
 فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ عَلَى مَذْهَبِ الْكِتَابِ فِي تَحْرِيرِ الْخَطَابِ : لَا
 أَحْتَمِلُ وَاللَّهِ قَوْلَكَ (وَرَأَيْكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ) فَقَالَ أَبُو
 الْهَوَلِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى قَصْرِ بَاعِي وَقِلَّةِ تَمِيزِي وَأَفْعَلْ لِي مَا أَنْتَ
 أَهْلُهُ . فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ جَسِيمٍ وَرَضِيَ عَنْهُ وَقَرَّبَهُ

وَفِي اسْتِثْقَاءِ الْأَعْدَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا أَنْ نَكُونَ مِنْ
 الْحَوَرِ كَمَا نَكَ حَوْتَ آثَارِ الْمَوْجِدَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ أَعْتَدْتَ الْمَنَازِلُ إِذَا
 دَرَسْتَ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ابْنِ خُجْرٍ :

أَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ آيَاتٍ فَقَدْ جَعَلْتَ

أَطْلَالَ الْفِكَ بِالْوُدْكَاءِ تَقْذِيرُ
 وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَنْقِطَاعِ كَمَا نَكَ قَطَعْتَ الرَّجُلَ عَمَّا أَمْسَكَ
 فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمَوْجِدَةِ وَيَقُولُونَ أَعْتَدْتَ الْمِيَاهُ إِذَا أَنْقَطَعَتْ :
 وَأَقُولُ الثَّلَاثُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَجَرِ وَالْتَمَعُ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ

يُقَالُ عَذَرْتُ الدَّابَّةَ أَيِ جَعَلْتُ لَهَا عِذَارًا يَخْجُزُهَا مِنَ الشِّرَادِ
فَعَنَى ائْتَدَرَ الرَّجُلُ ائْتَجَزَ وَعَذَرْتُهُ جَعَلْتُ لَهُ حَاجِزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْعُقُوبَةِ أَوْ الْقَتْلِ وَمَنْ تَعَذَّرَ الْأَمْرُ وَائْتَجَزَ أَنْ يُقْضَى وَمِنْهُ جَارِيَةٌ
عِذْرَاءُ

البحث الحادي عشر

في سيرورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كَانَ الْأَعَشَى أَسِيرَ النَّاسِ شِعْرًا وَأَعْظَمَهُمْ فِيهِ حَظًّا حَتَّى كَادَ
يُنْسِي أَحْكَامَهُ الْمَذْكُورِينَ مَعَهُ وَقَبْلَهُ زُهَيْرٌ وَالتَّائِبَةُ وَأَمْرُوهُ الْقَيْسُ
وَكَانَ جَرِيرٌ بَاقِعَةً سَائِرَ الشَّعْرِ مُظْفَرًا. قَالَ الْأَخْطَلُ لِلْفَرَزْدَقِ وَأَنَا
وَاللَّهِ أَشَعْرُ مِنْ جَرِيرٍ غَيْرَ أَنَّهُ رَزَقَ مِنْ سَيَرُورَةِ الشَّعْرِ مَا لَمْ أُرْزَقْهُ
وَقَدْ قُلْتُ بَيْتًا لَا أَحْسَبُ أَحَدًا قَالَ أَهْجَا مِنْهُ

وَلَيْسَ مِنَ الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ إِلَّا وَقَدْ نِيلَ مِنْهَا وَعُذِرَتْ وَهَيَّجَتْ فَحُطَّ
الشَّعْرُ مِنْهُمْ بَعْضًا بِمُؤَافَقَةِ الْحَقِيقَةِ وَمَضَى صَفْحًا عَلَى الْآخَرِينَ لَمَّا لَمْ
يُؤَافِقِ الْحَقِيقَةَ وَلَا صَادَفَ مَوْضِعَ الرِّيَّةِ. فَمِنْ الَّذِينَ لَمْ يُحْكَمْ فِيهِمْ هِجَاءُ
إِلَّا قَلِيلًا عَلَى كَثْرَةِ مَا قِيلَ فِيهِمْ تَيْمٌ بِنُ مَرْوَةَ وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ
وَأَسَدُ بْنُ خَزِيمَةَ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْيَمَنِ. فَأَمَّا مَنْ شَعُّوا بِالْهِجَاءِ
وَمَزَقُوا كُلَّ مَزَقٍ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْفَضْلِ أَحْيَاءُ مِنْ قَيْسٍ
نَحْوِ غَيٍّ وَبَاهِلَةَ بْنِ أَنْعَسٍ بْنِ سَعْدٍ بْنِ قَيْسٍ بْنِ غِيلَانَ وَأَسْمُ غَيٍّ.

عَمْرُو وَكَانُوا مَوَالِي عَامِرِ بْنِ صَعَصَعَةَ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِمُ الدَّبَاتِ وَالنَّوَابِ
وَتَحْوِ مُحَارِبِ بْنِ خُصْفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ غِلَانَ وَجَسْرِ بْنِ مُحَارِبِ
وَمِنْ وَلَدِ طَالِحَةَ بْنِ الْيَاسِ بْنِ مُضَرَ تَيْمٌ وَعُكْلُ أَبْنَاءِ عَبْدِ مَنَاءَ
وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّبُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَسْتَهَانَتِ الْعَرَبُ بِهِمْ وَأَنْطَمَعَ الْعَجَّاءُ
فِيهِمْ وَعَدِيُّ بْنُ عَبْدِ مَنَاءَ كَانُوا قَطِينًا حَاجِبِ بْنِ ذُرَّادَةَ وَأَرَادَ أَنْ
يَسْتَمْلِكَهُمْ مَلِكُ رِقٍ بِسِجْلٍ مِنْ قَبْلِ الْمُنْدَرِ. وَالْحِطَّاتُ وَهُمْ وَلَدُ
الْحَارِثِ بْنِ عَمْرُو بْنِ تَيْمٍ وَسَمِيَ الْحِطُّ لِعَظَمِ بَطْنِهِ شَبَّوهُ بِالْحِجَلِ
الْحِطُّ وَهُوَ الَّذِي انْتَفَخَ بَطْنُهُ مِنْ كَلَالٍ يَسْتَوِي لَهُ. فَأَمَّا السَّائِلُ فَقَدْ
قَالَ فِيهِمْ أَبُو زَيْدٍ الْكِلَابِيُّ: كَرَامٌ مِنْ كَرَامٍ مَعْصَعَةٌ لَمْ يُخَالَفُوا فِي
أَنْسَرٍ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي صَعَارٍ وَإِنَّمَا كَلِمَةُ عَامِرِ بْنِ الطَّقِيلِ هِيَ الَّتِي
شَاطَمَتْهُمْ يُرِيدُ قَوْلَهُ: أُنْدَةُ كَعْدَةُ الْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سُلُوبَةٍ.
قُلْتُ أَمَّا عَامِرٌ فَقَدْ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ حِينَ دَعَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ فَمَا
يَضْنَعُ يَقُولُ السَّمَوَالِ بْنِ عَادِيَاءَ:

وَأَنَا لَقَوْمٌ لَا تَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَّوُلُ

وَالسَّمَوَالِ فِي زَمَانِ أُمْرِئِ الْقَيْسِ وَبَيْنَ أُمْرِئِ الْقَيْسِ
وَمَنْعَتِ الرَّسُولِ مِثَّةً وَارْبَعٍ وَخَمْسُونَ سَنَةً. قَالَ الْحَاجِظُ لَمْ يَمْدَحْ
قَبِيلَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ كَمَا مُدَحَّتْ تَحْزُومٌ. قَالَ وَكَانَ عَبْدُ
الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ أَخْطَا فِي الشَّعْرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خُلَفَائِهِمْ. وَمَا
أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ نِعْمَةً بَعْدَ وَلَايَةِ اللَّهِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ
الرَّجُلُ مُمَدِّحًا. قُلْتُ أَنَا: أَمَّا هَذِهِ النِّعَةُ فَقَدْ أَحَلَّهَا اللَّهُ مُضَاعَفَةً

عِنْدَ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ وَقَرَنَاهَا مِنْهُ بِالْإِسْتِحْقَاقِ فَقَرَّتْ مَقَرَّهَا
وَزَلَتْ مَثَرُهَا الْمُخْتَارَ لَهَا. وَأَحْيَا اللَّهُ بِهِ لِبْنِي شَيْبَانَ حَمْدًا لَمْ
يُشْبِهْ ذَمُّ وَجُودٍ لَمْ يُعْقِبْهُ نَدَمٌ مِمَّا زَادَ عَلَى يَزِيدٍ وَلَمْ يَدْعُ لِعَنٍ مَعْنَى
فِي الْجُودِ. وَقَالَ غَيْرُهُ : كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَلَاءِ مَمْدُوحًا وَفِيهِ يَقُولُ
بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنْ جِئْتَهُ نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي أَلْمَتِهِمْ
إِذَا أَيْقَظْتُكَ حُرُوبُ الْعِدَا فَنَبَهُ لَهَا عَمْرًا ثُمَّ ثُمَّ
فَتَى لَا يَسِيلُ عَلَى دِمْنَةٍ وَلَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا بِدَمٍ
وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

إِنَّ الْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِأَنَّهَا قَطَعَتْ إِلَيْكَ سَبَابِيًا وَرِمَالًا
قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : لَمْ يَدْعُ أَحَدٌ قَطُّ بَنِي كَلْبٍ غَيْرُ
الْخَطِيئَةِ :

لَعَمْرُكَ مَا أَجْجَازُ فِي كَلْبٍ يُبْقِصِي فِي الْجَوَارِ وَلَا مَضَاعٍ
وَكَاثَتْ قَيْسُ تَنْقُحُ عَلَى تَيْمٍ لِأَنَّ شُعْرَاءَ تَيْمٍ تَضْرِبُ الْمَثَلَ
بِقَبَائِلِ قَيْسٍ وَرَجَالِهَا. فَأَقَامَتْ تَيْمٌ دَهْرًا لَا تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى
قَالَ لَيْدُنُ بْنُ رَبِيعَةَ :

أَبْنِي كَلْبٍ كَيْفَ تُنْفَى جَعْفَرُ وَبَنُو ضَبِيعَةَ حَاضِرُوا الْأَجْنَابِ
قَتَلُوا أَبْنَ عُرْوَةَ ثُمَّ لَطَوْا دُونَهُ حَتَّى يُحَاكِمَهُمْ إِلَى جَوَابِ
يَزْعُونَ مُنْخَرَقَ اللَّدِيدِ كَانَهُمْ فِي الْعِزِّ أَمْرَةً حَاجِبٍ وَشِهَابِ
مُتَظَاهِرٍ حَلَقُ الْحَدِيدِ عَلَيْهِمْ كَبَنِي زُرَّادَةَ أَوْ بَنِي عَتَّابِ

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدُّ فَضْلُهُمْ وَالْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ
وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ بْنُ سَيَّارٍ الْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِمَجْمَعٍ مُجْزَلٍ كَأَنَّهُمْ بَنُو دَارِمٍ إِذْ كَانَ فِي النَّاسِ دَارِمٌ
فَتَكَلَّمْتُ تَمِيمٌ وَافْتَحَرْتُ لِمَكَانِ هَذَيْنِ الشَّاعِرَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ

قَدَرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَخْطَى بِالْمَذْحِ مِنْ تَمِيمٍ .
وَالْأَوَايِدُ مِنَ الشِّعْرِ الْآيَاتُ السَّائِرَةُ كَالْآلَاءِ تَالٍ وَأَكْثَرُ مَا
تُسْتَعْمَلُ الْأَوَايِدُ فِي الْهَجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِآيِدَةٍ فَتَكُونُ الْآيِدَةُ
هَهُنَا الدَّاهِيَّةُ . قَالَ الْجَاهِظُ : الْأَوَايِدُ الدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَايِدُ الشِّعْرِ
حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : الْأَوَايِدُ الْإِبِلُ الَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا
يُقَدَّرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِالْعَقْرِ . وَالْأَوَايِدُ الطَّيْرُ الَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً .
وَالْأَوَايِدُ الْوَحْشُ فَإِذَا جُمِلَتْ آيَاتُ الشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ الْجَاهِظُ
كَانَتْ الْمَعَانِي السَّائِرَةُ كَالْإِبِلِ الشَّارِدَةِ الْمُتَوَحَّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ
الْمُقِيمَةَ عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَأَقَامَةِ الطَّيْرِ الَّتِي لَيْسَتْ
بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ الشُّعْرَاءِ وَأَمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ
كَالْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ النَّاسِ . وَأَمَّا الْمَجْدَدُونَ فِي الْكُتُبِ
بِالشِّعْرِ وَالْخُطُوبَةِ عِنْدَ الْمُلُوكِ فَتَنْهَمُ مُسْلِمٌ الْخَالِصُ مَاتَ عَنْ مِائَةِ
أَلْفٍ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو الْعَتَاهِيَةِ عَنَّعَ :

تَعَالَى اللَّهُ يَا مُسْلِمُ بْنُ عَمْرِو أَذَلَّ الْخِرْصُ اغْتَسَاقَ الرِّجَالِ
وَكَانَ صَدِيقَةً جَدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيَلِي مِنْ هَذَا الرَّجُلِ جَمْعُ
الْقَطَايِرِ مِنَ الذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ الْخِرْصِ . وَلَمْ

يَرَدُّ ذَلِكَ أَبُو الْعَتَاهِيَّةَ وَمَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ أُعْطِيَ مِائَةَ أَلْفٍ
دِينَارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لَا يُقَابِلُ إِلَّا بِالْكَثِيرِ وَهُوَ لَعَنِي مِنْ
ذَوِي السُّيُوفِ وَالْمَعْرُوفِينَ فِي الْأَكْثَبِ وَالشَّعْرِ . وَكَانَ أَبُو نُؤَاسٍ
مُحْظُوظًا لَا يُدْرَى لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ لِكِنَّهُ كَانَ مُتَلِفًا سَخَا وَكَانَ
يَتَسَاوَلُ فِي الْأَتْفَاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بْنُ أَحْنَفَ . وَكَانَ النُّجَاشِيُّ مَلِيًّا
قَدْ فَاضَ كَسْبُهُ مِنَ الشَّعْرِ . وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوَكِبٍ مِنْ عَسِيدِهِ .
وَأَمَّا أَبُو ثَمَامٍ فَمَا وَفَى حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ لِأَنَّهُ تَبَدَّلَ
وَجَابَ الْأَرْضَ وَكَذَلِكَ أَبُو الطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العدة لابن رشي)

أَنشَدَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ النَّخَوِيُّ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ
الْحُسَيْنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْأَمْدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ سَعْدِ بْنِ
تَمِيمٍ :

تَضِيفَنِي وَهَنًا قَفَلْتُ أَسَافِي إِلَى الزَّادِ شَلْتُ مِنْ يَدَيَّ الْأَصَابِعُ
وَلَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ ضَيْفًا بِقَفْرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا وَهُوَ غُرِيَانُ جَانِعُ
لَمْ يُرَدْ أَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيْفَهُ إِلَى الزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ
لِكِنَّهُ وَصَفَ ذُبَابًا لَيْقَهُ لَيْلًا فَقَالَ : أَتَسْبِقُنِي أَنْتَ إِلَى الْأَكْلِ
أَيُّ تَأْكُلُنِي شَلْتُ إِذَا أَصَابِعِي إِذَا لَمْ أَرْمِكَ فَأَقْتَلَكَ وَأَكُلَ
لَحْمَكَ . ثُمَّ قَالَ عَلَى الْمَثَلِ : لَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيْفًا فِي

قَفَرَةً يَعْنِي الذُّبَابَ إِلَّا هُوَ جَائِعٌ فَهُوَ لَا يُبْقِي عَلَيَّ لِأَنِّي أَقْتُلُهُ قَبْلَ
أَنْ يَشْبَعَ مِنْ لَحْمِي . وَمِنْ أَنَا شِيدِهِمْ :

أَبُوكَ الَّذِي نَبَّئْتُ يُحْسِنُ خَيْلَهُ غَدَاةَ اللَّدَى حَتَّى يَجِفَّ لَهَا الْبَقْلُ
قَالُوا إِذَا أَخَذَ مَطَرُ الصَّيْفِ الْأَرْضَ أَتَبَّتْ بَقْلًا فِي أَصُولِ
بَقْلِ قَدْ يَبَسَ فَذَلِكَ الْأَخْضَرُ هُوَ النَّشْرُ وَهُوَ الْقَمِيرُ فَتَأْكُلُهُ
الْأَبِلُ فَيَأْخُذُهَا السَّهَامُ وَلَا سَهَامَ فِي الْخَيْلِ فَعَابَهُ بِالْجَهْلِ بِالْخَيْلِ .
قَالَ الْأَضْمَعِيُّ : هَذَا الْقَوْلُ خَطَأٌ بَلْ مَدَحُهُ بِمَعْرِفَةِ الْخَيْلِ لِأَنَّ
النَّشْرَ وَذِي كُلِّ مَا أَكَلَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَحْمَ سَهَامَ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ
قُبَةَ فِي رِثَاءِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَذَكَرَ آلَ الرَّسُولِ :

أُولَئِكَ قَوْمٌ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ وَلَمْ تَكْثُرِ الْقَتْلَى بِهَا حِينَ سَلَّتِ
قَالَ قَوْمٌ أَرَادَ لَمْ يُعْمِدُوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا بَعْدَ كَثْرَةِ الْقَتْلِ بِهَا كَمَا
تَقُولُ لَمْ أَضْرِبْكَ وَلَمْ تَجْنِ عَلَيَّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ . وَقَالَ
آخَرُونَ : أَرَادَ لَمْ يَسْأُوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا الْقَتْلَى كَمَا
تَقُولُ : لَمْ أَلْقَ وَلَمْ أَحْسِنْ إِلَيْكَ أَيَّ إِلَّا وَقَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ
وَأَلْقَوْنَا مَعًا صَحِيحَانِ لِأَنَّهُ مِنْ الْأَضْدَادِ وَيُشَدُّونَ قَوْلَ الْآخِرِ .
هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْفُهُ كَلْبُهُ دَعِ الْكَلْبَ يَنْجُ إِنَّمَا الْكَلْبُ نَاجٍ
وَيُرَوَّى :

دَفَعْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْتَرُ كَلْبُهُ
وَأَنشَدَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ :

فَجَنَيْتَ الْجِيُوشَ أَبَا حَبِيبٍ وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ السَّحَابُ

وَيُرَوَّى أَنَّ أَبَا زَيْنَبٍ قَالَ: إِنْ دَعَا لَهُ قَائِمًا أَرَادَ أَنْ يُعَافِيَ مِنْ
الْجِيوشِ وَأَنْ يَجُودَهُ السَّحَابُ فَتُخَصَّبَ أَرْضُهُ وَإِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ:
لَا أَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ الْجِيوشُ فَهِيَ تَتَجَبَّبُ دِيَارَكَ لِإِعْلَامِهِمْ
بِقِلَّةِ الْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مُحَلَّتِهِ بِأَنْ تَذُرْسَهَا إِلَّا طَارُ . وَقَالَ
غَيْرُهُ: إِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مُحَلَّتِكَ السَّحَابُ فَأَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَةَ
لَكَ فِيهَا فَذَلِكَ أَشَدُّ لِهَيْكَ وَتَمَكَّ وَيَكُونُ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ
الْآخِرِ:

وَحِفَاءَ أَلْقَى اللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ فَسَرَتْ وَسَاءَتْ كُلُّ مَاشٍ وَمُضْرَمٍ
أَيَّ سَرَتْ كُلُّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلُّ قَتِيرَةٍ . وَأَنشَدَ أَبُو عَبْدِ
اللَّهِ أَيْضًا:

إِنِّي عَلَى كُلِّ إِيسَارٍ وَعَسْرَةٍ أَدْعُو حَيْثُنَا كَمَا تُدْعَى ابْنَةُ الْجَبَلِ
وَرَوَى الْمُبَرَّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ أَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَالصَّادِ وَهُوَ ابْنَةُ
الْجَبَلِ وَقِيلَ ابْنَةُ الْجَبَلِ الصَّخْرَةُ الْمُتَحَدِّدَةُ مِنْ أَعْلَاهُ . وَزَادَ أَبُو
زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْنَنَا وَهُوَ:

إِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلُ بِجَانِبِهِ عَارِي الْأَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلٍ
فَهَذَا مَذْحٌ لَا مَحَالَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ الْآخِرِ:
كَأَنِّي إِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمْ الْجَبَالَ
وَرَوَاهُ قَوْمٌ بَنِي سُلَيْمٍ قَدْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ الْأَوَّلِ فِي سُرْعَةِ
الْإِجَابَةِ وَمَنْ دَمَّ نَسَبُهُمْ إِلَى الثَّقَلِ عَنْ إِجَابَتِهِ مِثْلَ الْجَبَالِ . وَمِنْ
الدُّعَاءِ الَّذِي يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ:

تَفَرَّقْتُ غَنِيَّ يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا الذُّبَابَ وَالضَّبْعَا
قِيلَ إِنَّهُمَا إِذَا اجْتَمَعَا لَا يُؤْذِيَانِ وَشَغَلَ كُلُّهُمَا الْآخَرَ
وَإِذَا تَفَرَّقَا أَذَىَا وَقِيلَ : إِنَّ مَعْنَاهُ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهَا : قَتَلَ الذُّبَابُ
الْأَحْبَاءَ عَبَثًا وَاسْكَلَتِ الضَّبْعُ الْأَمْوَاتَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ . وَمِنْ
لَطِيفِ مَا وَقَعَ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُ النَّائِفَةِ الذُّبَابِي :

يَصُدُّ الشَّاعِرُ الثَّنِيَّانُ عَنِّي صُدُودُ الْبَكْرِ عَنْ قَرْمِ الْهَجَّانِ
وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَغْلِبُ الثَّنِيَّانَ وَلَا يَغْلِبُ الْفُحْلُ لَكِنْ أَرَادَ التَّضْعِيرَ
بِالَّذِي هَاجَهُ فَجَعَلَهُ ثُنَيَّانًا . وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَفْخَرُ بِمِثْلِ أَبِي وَجَدِّي يَحْيَى قَبْلَ السَّوَابِقِ وَهُوَ ثَانٍ
أَرَادَ وَهُوَ ثَانٍ مِنْ عَنَانِهِ لَا يُسْبِقُ مُتَمَهِّلًا . وَمِمَّا يُمدَحُ بِهِ وَيُدَمَّ
قَوْلُهُمْ بَيِّضَةُ الْبَلَدِ فَمَنْ مَدَحَ أَرَادَ أَنَّهَا أَصْلُ الطَّائِرِ وَمَنْ ذَمَّ أَرَادَ أَنَّهَا
لَا أَصْلَ لَهَا . قَالَتْ أُخْتُ عَمْرُو بْنِ عَبْدِ وَدٍّ فِي عَلِيٍّ لَمَّا قَتَلَ أَخَاهَا :
لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرُو غَيْرَ قَاتِلِهِ لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ الْأَبَدِ
لَكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَاذُ بِهِ مَنْ كَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيِّضَةُ الْبَلَدِ
فَهَذَا أَمْدَحُ كَمَا تَرَاهُ وَقَالَ الرَّاعِي الثَّمِيرِيُّ يَهْجُو عَدِيَّ بْنَ
الرِّقَاعِ الْعَامِلِيَّ :

لَوْ كُنْتَ مِنْ أَحَدٍ تُهْجَى هَجْوَتُكُمْ

يَا أَبْنَ الرِّقَاعِ وَلَكِنْ لَسْتَ مِنْ أَحَدٍ

تَأْتِي قُضَاعُهُ أَنْ تَرْضَى بِكُمْ نَسَبًا

وَأَبْنَا زُرَّارٍ فَأَنْتُمْ بَيِّضَةُ الْبَلَدِ

وَأَنْشَدَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ :

وَإِنِّي لَظَلَامٌ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ

عَرَارًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالَهُ الدَّهْرُ

وَجَارٍ قَرِيبٍ الدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ

غَرِيبٍ بَعِيدِ الدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَقْرٌ

يَظُنُّهُ السَّمَاعُ هَجَا نَفْسُهُ يَظْلِمُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا

مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ النَّاقَةَ فَيَنحَرُ لِلضِّيَاقَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ

هَذَا هُوَ الْأَشْعَثُ وَالْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

الْبَدِيْهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَسَّسِينَ يَعْلَمُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ فِي
بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ الْإِرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ الْبَدِيْهَةَ
فِيهَا الْفِكْرُ وَالتَّأْيِيدُ . وَالْإِرْتِجَالُ مَا كَانَ أَنَّهُمَا وَتَدَقُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ
فِيهِ قَائِلُهُ كَالَّذِي صَنَعَ الْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ
الْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ الرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا
كَمَاهَا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ ارْتِجَالًا
فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِأَبْوِ سَيْفِ وَرَقَاءِ بْنِ
زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ :

فَإِنْ يَكُ سَيْفُ خَانَ أَوْ نَبَا حَدُّهُ

لِتَأْخِيزَ نَفْسٍ حَيْثُهَا غَيْرُ شَاهِدٍ

فَسَيْفُ بَنِي عَبَسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ

نَبَا يَدَيَّ وَرَقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدٍ

كَذَاكَ سُيُوفُ الْهِنْدِ تَتَّبِعُ ظُبَانَهَا

وَيَقْطَعْنَ أَحْيَانًا مَنَاطَ الْقَلَائِدِ

وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ السَّيْفُ مَا بَيْنَ أَنْفِهِ

إِلَى عَرَقِي دُونَ الشَّرَاسِيفِ حَاسِدٍ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْشُ الْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفْكَهُمْ

إِذَا شَعَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ

وَأَعْظَمُ أَرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ بَيْنَ يَدَيَّ عَمْرُو

أَبْنِ هِنْدٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ آتَى بِهَا كَالْخُطْبَةِ . وَكَذَاكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ

الْأَبْرَصِ . وَقِيلَ : أَفْضَلُ الْبَدِيَّةِ بَدِيَّةُ أَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعٍ

خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِالْأَرْتِجَالِ وَهُوَ أَسْرَعُ مِنَ الْبَدِيَّةِ . وَكَانَ أَبُو

نُوَاسٍ قَوِيَّ الْبَدِيَّةِ وَالْأَرْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرَوِي إِلَّا فَاتَةً .

وَيُرْوَى أَنَّ الْخُطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يَمَازُحُهُ وَهُوَ بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ :

وَأَنْتَ غَيْرُ مُدَافِعٍ فِي الشَّعْرِ وَلَكِنَّكَ لَا تَحْطُبُ . فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ

يَقُولُ مُرْتَجِلًا :

مَتَحْتَكُمُ يَا أَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي أَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِصِيبٍ

رَمَاكُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَيَّةٍ أَكُولٍ لِحَيَاتِ أَلِيلَةٍ شُرُوبٍ
 قَانَ يَكُ بَاقِي سِحْرِ فِرْعَوْنَ فِيكُمْ فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَطِيبٍ
 ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَيْهِ : وَاللَّهِ لَا يَأْتِي بِمِثْلِهَا خَطِيبٌ مُضْعَعٌ فَكَيْفَ
 رَأَيْتَ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَخَلَفَ : إِنْ كُنْتُ إِلَّا مَا زَحَا . وَسَمِعَتْ جَمَاعَةٌ
 مِنَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ : كَانَ مُسْلِمٌ بَنُ الْوَلِيدِ نَظِيرَ أَبِي نُوَّاسٍ فِي
 وَقُوفِهِ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ فِي أَشْيَاءٍ إِلَّا أَنَّ أَبَا نُوَّاسٍ
 قَهَرَ بِالْبِدْيَةِ وَالْإِرْتِجَالِ مَعَ تَقَبُّضٍ كَانَ فِي مُسْلِمٍ وَإِظْهَارٍ تَوْقُذٍ
 وَكَانَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ وَرَوِيَّةٍ لَا يَبْتَدِهُ وَلَا يَرْتَجِلُ فَكَانَ أَبُو
 الْعَتَاهِيَةِ فِيمَا يُقَالُ أَقْدَرَ النَّاسِ عَلَى الْإِرْتِجَالِ وَبِدْيَةِ الْقُرْبِ مَأْخِذِهِ
 وَسُهُولَةِ طَرِيقِهِ

وَأَجْتَمَعَ عِدَّةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِيهِمْ أَبُو نُوَّاسٍ فَشَرِبَ أَحَدُهُمْ مَاءً
 ثُمَّ قَالَ أَجِزُونَا : بَرَدَ الْمَاءُ وَطَابَا . فَكُلُّهُمْ تَلَعَمَ حَتَّى طَلَعَ أَبُو
 الْعَتَاهِيَةِ . قَالَ : فِيمَ أَنْتُمْ فَأَنْشُدُوهُ . فَقَالَ وَمَا تَرَدَّدَ : حَبَّذَا الْمَاءُ
 شَرَابَا . فَأَتَى بِالْقَسِيمِ شَيْئًا بِصَاحِبِهِ . وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَعُوذُ الْقَوْمَ لَا
 وَزْنَ الْكَلَامِ . وَصَحِبَ رِقَّةً فَسَمِعَ زَقَاءَ الدُّيُوكِ . فَقَالَ لِرَفِيقِهِ :
 هَلْ رَأَيْتَ الصُّنْجَ لَاحَا . قَالَ نَعَمْ . قَالَ : وَسَمِعْتَ أَلْدِيكَ صَاحَا .
 قَالَ نَعَمْ . قَالَ :

إِنَّمَا بَكَى عَلَى أُلْمِهِ تَرَّ بِالْدُّنْيَا وَنَاحَا

فَاسْتَيْقَظَ رَفِيقُهُ لِلْكَلَامِ أَنَّهُ شِعْرُ فَرَوَاهُ . فَاجْرَى هَذَا الْحَجْرَى
 فَهُوَ الْإِرْتِجَالُ . وَأَمَّا الْبِدْيَةُ فَبَعْدَ أَنْ يُفَكِّرَ الشَّاعِرُ يَسِيرًا وَيَكْتُبَ

سَرِيعًا إِنْ حَضَرَتْ آلَةُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ بَطِيءٍ وَلَا مُتَرَاخٍ فَإِنْ أَطَالَ
 حَتَّى يُفْرِطَ أَوْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ لَمْ يَعُدْ بَدِيهًا
 وَقَالُوا اجْتَمَعَ الشُّعْرَاءُ بِبَابِ الرَّشِيدِ فَادْنُ لَهُمْ وَقَالَ: مَنْ
 يُجِيزُ هَذَا الْقَسِيمَ وَلَهُ حُكْمُهُ. قَالُوا: مَا هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ:
 أَلَمَلِكُ لِلَّهِ وَحَدَهُ. فَقَالَ الْجَمَازُ: وَلِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ وَلِلْحَبِ إِذَا مَا
 حَبِيئُهُ بَاتَ عِنْدَهُ. فَقَالَ: أَحْسَنْتَ وَأَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي وَأَمَرَ
 لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ. وَقَدْ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ كَثِيرَ الْبَدِيهِ
 وَالْأَرْتَجَالِ إِلَّا أَنَّ شَعْرَهُ فِيهَا نَازِلٌ عَنْ طَبَقَتِهِ جَدًّا وَهُوَ لَعْمَرِي فِي
 سَعَةٍ مِنَ الْفَنَدِ إِذْ كَانَتْ الْبَدِيَةُ كَمَا قَالَ ابْنُ الزُّوَمِيِّ فِيهَا:
 نَارُ الرُّوِيَّةِ نَارٌ جَدُّ مُنْخَبِجَةٍ وَلِلْبَدِيَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيجٍ
 وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا لَكِنَّ عَاجِلَهَا يَعْضِي مَعَ الرِّيحِ
 وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَرِ:

وَالْقَوْلُ بَعْدَ الْفِكْرِ يَوْمَ زَيْفِهِ شَتَانٌ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيَّةٍ
 وَمِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ شَعْرُهُ فِي الرُّوِيَّةِ وَالْبَدِيَّةِ سَوَاءٌ وَعِنْدَ
 الْأَمَنِ وَالْخَوْفِ لِقُدْرَتِهِ وَسُكُونِ جَأَشِهِ وَقُوَّةِ غَرِيزَتِهِ كَهَدِيَّةِ بْنِ
 الْحَشْرَمِ الْمُعْذِرِيِّ وَطَرَقَةَ بْنِ الْعَبْدِ الْبَكْرِيِّ وَمُرَّةَ بْنِ مُحْكَانَ
 السَّعْدِيِّ إِذْ يَقُولُ وَقَدْ أَمَرَ مُضْعَبُ بْنُ الرَّبِيعِ رَجُلًا مِنْ بَنِي
 أَسَدٍ بِقَتْلِهِ:

بَنِي أَسَدٍ إِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا تَيْمًا إِذَا الْحَرْبُ أَلْعَوَانُ أَشْمَعَاتِ
 وَأَنْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَيَّ حَبِيلَةٌ بِيَاكِ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتْ

وَهَذَا شِعْرُ لَوْ تَرَوَى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى أَمْنٍ وَدَعَةٍ
وَقَرَطٍ شَهْوَةٍ أَوْ شِدَّةٍ حَيَّةٍ لَمَا أَتَى بِهِ فَوْقَ هَذَا وَكَذَلِكَ عَبْدُ
يَاغُوثَ بْنِ صَلَاةٍ إِذْ يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ :

أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ أَمَعَشَرَ تَيْمٍ أَظْلَقُوا مِنْ لِسَانِيَا
أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضَتْ فَبَلَعَنْ نُدَايَايَ مِنْ تَحْرَانِ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
وَكَانُوا شَدُّوا لِسَانَهُ خَوْفًا مِنْ أَلْهَجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَأَظْلَقُوهُ
لِيَنُوحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ أَلْفَ نَاقَةٍ فَأَبَوْا إِلَّا
قَتْلَهُ فَقَالَ :

فَإِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ وَإِنْ تُظْلِقُونِي تَحْرِبُونِي بِمَالِيَا
وَهَذِهِ شَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَشِدَّةٌ . وَمِنْ قَوْلِ طَرَفَةِ بْنِ الْعَبْدِ لَمَّا
أَيَقَنَ بِالْمَوْتِ :

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي
وَلَمْ أَعْطِكُمْ فِي الطُّوعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي
أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَأَسْتَبْقِ بَعْضَنَا

حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
وَأَيْنَ هُوَلَاءِ مِنْ عُيَيْدِ بْنِ الْأَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ
الصَّنَاعَةِ وَمُقَدَّمٌ فِي السِّنِّ عَلَى الْجَمَاعَةِ إِذْ يَقُولُ لَهُ التَّغَمُّانُ يَوْمَ
بُؤْسِهِ : أُنْشِدْنِي . قَالَ : حَالُ الْجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ . قَالَ : أُنْشِدْنِي
قَوْلَكَ أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ . فَقَالَ :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عُيَيْدُ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

قَبَلَتْ بِهِ حَالُ الْجُرْعِ إِلَى مِثْلِ هَذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرَفَةِ
بَعْضِ الصَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ الْمُتَوَكِّلِ إِذْ آتَاهُ رَسُولُ
إِسْحَقَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:
أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولٍ جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ الْقَلِيلِ
رَأْسِ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ

فَقَالَ الْمُتَوَكِّلُ أَلْقُوا هَذَا الْجَوْهَرَ لَا يَضِيعُ . وَأَشْتَقُّ الْبَدِيهَةَ
مِنْ بَدَهٍ بِمَعْنَى بَدَأَ أُبْدِلْتُ الْهَمْزَةُ هَاءً كَمَا أُبْدِلْتُ فِي أَشْيَاءَ
كَثِيرَةٍ لِقُرْبِهَا مِنْهَا . فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَهَ وَلِهَذَا تَفْعَلُ كَذَا
بِمَعْنَى لِأَنَّكَ وَمِثْلُ ذَلِكَ كَثِيرٌ . وَالْأَرْجَالُ مَاخُذٌ مِنَ السُّهُولَةِ
وَالْأَنْصَابِ . وَمِنْهُ قِيلَ: شَعَرَ الرَّجُلُ إِذْ كَانَ شَعْرُهُ سَبْطًا مُسْتَرَسِلًا
غَيْرَ جَعْدٍ . وَقِيلَ هُوَ مِنْ أَرْجَالِ الْبَيْتِ وَهُوَ أَنْ تَتَرَهَّأَ بِرِجْلَيْكَ مِنْ
غَيْرِ حَبْلٍ

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

مِنْ حِكْمِ الشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلُوَ الشَّمَائِلِ حَسَنَ الْأَخْلَاقِ
طَلَقَ أَلَوْجُهُ بَعِيدَ الْقَوْرِ مَأْمُونِ الْجَانِبِ سَهْلَ النَّاحِيَةِ وَطِيَّ
الْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذَلِكَ بِمَا يُجَنَّبُهُ إِلَى النَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيَقْرَبُهُ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلَيْكُنْ مَعَ ذَلِكَ شَرِيفَ النَّفْسِ لَطِيفَ الْحِسِّ عَرُوفَ
الْهَمَّةِ نَظِيفَ الْبَرَّةِ أَيْفًا لَهَا بِهِ الْعَلَامَةُ وَيَدْخُلُ فِي جُمْلَةِ الْخَاصَّةِ فَلَا
تَجِبُهُ أَبْصَارُهُمْ سَخَّحَ الْيَدَيْنِ وَالْأَفْهَامُ كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي قَتَنِ:
وَأَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِاللَّوْمِ شَاعِرٌ يُلَوِّمُ عَلَى الْجَلِّ الرِّجَالِ وَيَجْلُ
وَالِي هَذَا الْمَعْنَى ذَهَبَ الطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

أَلَوْمْ مَنْ بَجَلَتْ يَدَاهُ وَاعْتَدَى لِلْجَلِّ جَرِيًّا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعًا
وَالشَّاعِرُ مَأْخُودٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرَمَةٍ لَا تَسَاعُ
الشَّعْرُ وَأَخْتِمَالِهِ كُلُّ مَا حُمِلَ مِنْ نَحْوِ وَلَعَةٍ وَفَقَةٍ وَجَبَرٍ وَحِسَابٍ
وَفَرِيضَةٍ وَأَخْتِيَاكِ أَكْثَرُ هَذِهِ الْعُلُومِ إِلَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكَيَّفٌ
بِذَاتِهِ مُسْتَعْنٍ عَمَّا سِوَاهُ وَلِأَنَّهُ قِنْدُ الْأَخْبَارِ وَتَجْدِيدُ الْأَثَارِ وَصَاحِبُهُ
الَّذِي يَذُمُّ وَيُحْمَدُ وَيُهْجُو وَيَعْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي النَّاسُ مِنْ مَحَاسِنِ
الْأَشْيَاءِ وَمَا يَذَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِحُجَّتِهِ مَأْخُودٌ. وَلَيَأْخُذُ
نَفْسُهُ بِحِفْظِ الشَّعْرِ وَالْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ النَّسَبِ وَأَيَّامِ الْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُ
ذَلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ الْأَثَارِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ لِيَعْلَقَ نَفْسُهُ
بَعْضَ أَنْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طَبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا الشَّاعِرَ مِنْ
الْمَطْبُوعِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضَلُ أَصْحَابَهُ بِرِوَايَةِ الشَّعْرِ وَمَعْرِفَةِ الْأَخْبَارِ
وَالْتَلَمَذَةِ لِمَنْ قُوَّةُ مِنَ الشُّعْرَاءِ يَقُولُونَ: فَلَانُ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ
يُرِيدُونَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ الْمَقَاصِدَ وَسَهَّلَ عَلَيْهِ مَأْخُذُ
الْلَفْظِ وَلَمْ يَضِقْ بِهِ الْمَذْهَبُ وَإِذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رِوَايَةَ
ضَلَّ وَاهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ الْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ

وَهُوَ مَائِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لُضْعَفِ آلَتِهِ كَالْمُقْعَدِ يُجِدُّ فِي نَفْسِهِ الْقُوَّةَ عَلَى
 التَّهْوُضِ فَلَا تُعِينُهُ إِلَّا لَهُ . وَقَدْ سُئِلَ رُؤْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ عَنِ النَّحْلِ
 مِنَ الشُّعْرَاءِ . فَقَالَ : هُوَ الرَّاوِيَةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى اسْتَحْلَلَ . قَالَ
 يُونسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيْدِ شَعْرِهِ مَعْرِفَةً
 جَيْدَ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُؤْبَةُ فِي
 صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرًا رِوَايَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرًا
 وَأَسْتَغْظَمَ حَالَهُ حَتَّى قَرَنَاهَا بِالسِّحْرِ . وَقَالَ الْأَضْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ
 الشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ الشَّعْرِ فَخْلًا حَتَّى يَرْوِيَ أَشْعَارَ الْعَرَبِ وَيَسْمَعَ
 الْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ الْعَلَاءِيَّ وَتَدُورَ فِي مَسَامِعِهِ الْأَلْقَاطُ . وَأَوَّلُ ذَلِكَ
 أَنْ يَعْرِفَ الْعَرُوضَ لِيَكُونَ مِيزَانًا عَلَى قَوْلِهِ وَالنَّحْوُ يُضْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ
 وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَالنَّسَبَ وَأَيَّامَ النَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذَلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ
 الْمُنَاقِبِ وَالْمَثَالِبِ وَذَكَرَهُمَا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ . وَقَدْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ
 عَلَى فَضْلِهِ فِي هَذِهِ الْجِنَاةِ يَرْوِي لِلْحُطَيْيَةِ كَثِيرًا وَكَانَ الْحُطَيْيَةُ
 رَاوِيَةً زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرٌ رَاوِيَةً أَوْسَ بْنَ حَجْرٍ وَطَقِيلَ الْغَنَوِيَّ جَمِيعًا
 وَقَدْ زَالَ أَعَشَى بَنِي قَيْسٍ بْنِ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيَّ
 بِسُوقِ عُكَّازٍ وَأَنشَدَهُ فَقَدَّمَهُ . وَأَنشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَابْتَدَأَ
 ابْنُ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذَلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كَثِيرُ رَاوِيَةٍ
 جَمِيلٍ مُفْضِلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ النَّسْرِيُّ وَأَسْمُهُ الْهَيْثَمُ بْنُ الرَّبِيعِ
 وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شِعْرًا وَأَنْظِفِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًا بِالْفَرَزْدَقِ

أَخِذًا عَنْهُ كَثِيرًا مُتَعَصِّبًا لَهُ . وَلَا يَسْتَعْنِي الْمَوْلَدُ عَنْ تَصَحُّحِ أَشْعَارِ
 الْمَوْلَدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ حَلَاوَةِ اللَّفْظِ وَقُرْبِ الْأَخْذِ وَإِشَارَاتِ الْمُلْحِ
 وَوُجُوهِ الْبَدِيعِ الَّذِي مِثْلُهُ فِي شِعْرِ الْمُتَقَدِّمِينَ قَلِيلٌ وَإِنْ كَانُوا هُمْ
 قَتَحُوا بَابَهُ وَفَتَحُوا جِلْبَابَهُ . وَلِلْمُتَعَقِّبِ زِيَادَاتٌ وَأَقْتِسَانٌ . لَا عَلَى أَنْ
 تَكُونَ عُدَّةُ الشَّاعِرِ مُطَالَعَةً مَا ذَكَرْتُهُ آخِرَ كَلَامِي هَذَا دُونَ مَا
 قَدَّمْتُهُ فَإِنَّهُ مَتَى فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ الْإِلْتِمَافِ وَقَضَلِ الْقُوَّةِ مَا
 يَنْبَغُ بِهِ طَاقَةٌ مِنْ تَبَعٍ فَيُجَارِيهِ . وَإِذَا آعَاتُهُ فَصَاحَةٌ الْمُتَقَدِّمِ وَحَلَاوَةُ
 الْمُتَأَخِّرِ أَشَدَّ سَاعِدُهُ وَبَعْدَ مَرَامِهِ قَلَمٌ يَقَعُ دُونَ الْفَرَضِ وَسَعَى
 أَنْ يَكُونَ أَوْثَقَ سِهَامًا وَأَحْسَنَ مَوْقِعًا يَمْنُ لَوْ عَوَّلَ عَلَيْهِ مِنْ
 التَّخَدُّثِ لَقَصَرَ عَنْهُ وَوَقَعَ دُونُهُ . وَلِيَجْعَلَ طَلَبُهُ أَوَّلًا لِلسَّلَامَةِ فَإِذَا
 صَحَّتْ لَهُ طَلَبُ التَّجْوِيدِ حِينَئِذٍ وَلَيَرْغَبُ فِي الْحَلَاوَةِ وَالطَّلَاوَةِ رَغْبَتُهُ
 فِي الْخِزَالَةِ وَالْفَحْشَامَةِ . وَلِيَجْتَنِبَ الْأُسُوقِيَّ الْقَرِيبَ وَالْوَحْشِيَّ الْغَرِيبَ
 حَتَّى يَكُونَ شِعْرُهُ حَالًا بَيْنَ حَالَيْنِ كَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ دُلُولا وَلَا صَعْبًا
 وَأَوَّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ بَعْدَ الْحِجْدِ الَّذِي هُوَ الْعَالِيَةُ وَفِيهِ
 وَحْدَهُ الْكِفَايَةُ حُسْنُ التَّأَنِّي وَالسِّيَاسَةِ وَعِلْمُ مَقَاعِدِ الْقَوْلِ فَإِنْ
 نَسَبَ ذَلِكَ وَخَضَعَ وَإِنْ مَدَحَ أَطْرَبَ وَأَسَمَعَ وَإِنْ هَجَا أَقْلَّ
 وَأَوْجَعَ وَلَتَكُنْ غَايَتُهُ مَعْرِفَةُ أَغْرَاضِ الْمُخَاطَبِ كَانًا مَنْ كَانَ
 لِيَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهِ وَيُدَاخِلَهُ فِي ثِيَابِهِ فَذَلِكَ هُوَ سِرُّ صِنَاعَةِ
 الشِّعْرِ وَمَغْزَاهُ الَّذِي تَفَاوَتَ النَّاسُ فِيهِ تَفَاضُلًا . وَقَدْ قِيلَ : لِكُلِّ

مَقَامٍ مَقَالٍ. وَشِعْرُ الشَّاعِرِ لِنَفْسِهِ وَفِي مُرَادِهِ وَأُمُورٌ ذَاتِهِ مِنْ مَدْحٍ
وَعَزْلِ وَمُكَاتَبَةٍ وَجُحُونٍ وَخَيْرِيَّةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ غَيْرُ شِعْرِهِ فِي
قَصَائِدِ الْخَلِّ الَّتِي يَقُومُ بِهَا بَيْنَ السِّمَاطَيْنِ. يُقْبَلُ مِنْهُ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ
غَفُورٌ كَلَامُهُ وَمَا لَا يَتَكَلَّفُ لَهُ وَلَا أَلْقَى بِهِ بَالًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ
فِي هَذِهِ إِلَّا مَا كَانَ مُحْكَمًا مُعَاوَدًا فِيهِ النَّظَرُ جَيِّدًا لَا غَثَ
فِيهِ وَلَا سَاقِطَ وَلَا قَلِقَ. وَشِعْرُهُ لِلْأَمِيرِ غَيْرُ شِعْرِهِ لِلزَّوْجِرِ وَالْكَاتِبِ
وَمُخَاطَبَتِهِ لِلْقَضَاةِ وَالْفُقَهَاءِ بِخِلَافِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ.
وَالْمُتَأَخِّرُ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي الزَّمَانِ لَا يَضُرُّهُ تَأَخُّرُهُ إِذَا أَجَادَ
كَمَا لَا يَنْفَعُ الْمُتَقَدِّمُ تَقَدُّمُهُ إِذَا قَصَرَ وَإِنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ السَّبْقِ
فَعَلَيْهِ دَرَكُ التَّقْصِيرِ كَمَا أَنَّ لِلْمُتَأَخِّرِ فَضْلَ الْإِجَادَةِ وَالزِّيَادَةِ. وَلَا
يَكُونُ الشَّاعِرُ حَازِقًا مُجَوِّدًا حَتَّى يَتَفَقَّدَ شِعْرَهُ وَيُعَيِّدَ فِيهِ نَظْرَهُ
فَيُسْقِطَ رَدِيَّهُ وَيُثَبِّتَ جَيِّدَهُ وَيَكُونُ بِالرَّكِيكِ مُطَرِّجًا لَهُ رَاغِبًا
عَنْهُ. فَإِنَّ بَيْتًا جَيِّدًا مَقَامُ أَلْفِ رَدِيٍّ. وَقَالَ أَمْرُوهُ الْقَيْسِ وَهُوَ
أَوَّلُ مَا زَعَمُوا أَنَّهُ اخْتِيرَ لَهُ وَعُلِمَ بِهِ أَنَّهُ أَفْضَلُ الشُّعْرَاءِ وَالْمُقَدَّمُ
عَلَيْهِمْ:

أَذُودُ الْقَوَا فِي عَتِي ذِيَادَا ذِيَادُ غَلَامٍ جَرِيءٍ جَرَادَا
قَلَمًا كُتُنَ وَعَتْنِيَهُ تَحْيَرٌ مِنْهُنَّ سِتًا حِيكَادَا
فَاعْزَلْ مَرْجَانَهُمَا جَانِبًا وَأَخْذُ مِنْ دُرِّهَا الْمُسْتَجَادَا
وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا نُوَّاسٍ كَانَ يَفْعَلُ هَذَا الْفِعْلَ وَيُبْقِي الْجَيْدَ
وَيَلْتَمِسُ لَهُ مِنَ الْكَلَامِ مَا سَهْلَ وَمِنْ الْمَعْنَى مَا كَانَ وَاجِبًا جَلِيًّا

يُعرفُ بديًّا . فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ : شَرُّ الشُّعْرِ مَا سُئِلَ عَنْهُ .
وَكَانَ الْخُطِيبَةُ يَقُولُ : خَذِرُ الشُّعْرِ الْحَوْلِيُّ الْمُحْكَكُ . أَخَذَ فِي ذَلِكَ
بِمَذْهَبِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سَلَمَى وَأَوْسٍ وَطُفَيْلٍ . وَلَا يَجُوزُ لِلشَّاعِرِ
كَمَا لَا يَجُوزُ لِغَيْرِهِ أَنْ يَكُونَ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ مُثْنِيًا عَلَى شِعْرِهِ وَإِنْ
فَضِيحَةٌ ظَاهِرَةٌ كَانَتْ غَنِيًّا عَنْهَا . وَكَانَ فِي الْبُحْتَرِيِّ اعْجَابٌ شَدِيدٌ إِذَا
أَنشَدَ يَقُولُ : مَا كُنْمْ لَا تَحْبُونِ مَا أَحْسَنَ مَا تَسْمَعُونَ . فَأَنشَدَ
الْمُتَوَكِّلُ يَوْمَ مَا قَصِدَتْهُ :

عَنْ أَيِّ شَعْرٍ تَبْتَسِمُ وَبِأَيِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمُ
وَأَبُو الْعَبَّاسِ الصِّمِيرِيُّ حَاضِرٌ فَلَمَّا رَأَى اعْجَابَهُ قَامَ حِدَاءً
وَقَالَ :

مِنْ أَيِّ سَلَحٍ تَلْتَقِمُ وَبِأَيِّ كَفِّ تَلْتَظِمُ
فَوَلَّى وَهُوَ غَضَبَانُ . فَقَالَ : وَعَلِمْتُ أَنَّكَ تَنْهَزِمُ . فَصَحَّحَ
الْمُتَوَكِّلُ حَتَّى فَحَصَ بِرِجْلَيْهِ وَأَعْطَى الصِّمِيرِيَّ جَارِزَةً سَنِيَّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشمذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لَا بُدَّ لِلشَّاعِرِ وَإِنْ كَانَ فَحْلًا حَازِقًا مُبِيرًا مُقَدِّمًا مِنْ قُدْرَةِ
تَعَرُّضٍ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ إِمَّا لِشُغْلٍ طَوَّاءَ أَوْ مَوْتِ قَرِيحَةٍ أَوْ
نُبُوِّ طَبْعٍ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَوْ ذَلِكَ الْخِينِ . وَقَدْ كَانَ الْقُرَزْدَقُ

وَهُوَ فُحْلٌ مُضَرٌّ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تُرُّ عَلَى السَّاعَةِ وَقَلْعُ ضَرْسٍ مِنْ
أَضْرَاسِي أَهَوْنٌ عَلَيَّ مِنْ عَمَلٍ بَيْنَ مِنَ الشَّعْرِ فَإِذَا تَمَادَى ذَلِكَ
عَلَى الشَّاعِرِ قِيلَ : قَدْ أَصْفَى كَمَا يُقَالُ أَصْفَتِ الدَّجَاجَةُ إِذَا
انْقَطَعَ بَيْنُهَا وَكَذَلِكَ يُقَالُ لَهُ أَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِلْحَافِرِ أَلْسِرَ
إِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ الْأَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ أَجْبَلَ . وَأُفْجِمَ
الشَّاعِرُ عَلَى أَفْعَلٍ وَقَالُوا : هُوَ مِنْ فُجِمَ الصَّيِّ إِذَا انْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ
شِدَّةِ الْبُكَاءِ . فَإِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ أَهْتَرُ فَهُوَ
مُهْتَزٌّ . وَقَدْ قِيلَ فِي الدُّبْيَانِيِّ إِنَّهُ كَانَ شِعْرُهُ نَظِيفًا مِنَ الْعُيُوبِ
لِأَنَّهُ قَالَهُ كَثِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يَهْتَزَّ وَكَثُرَ مَا جَاءَ الْإِهْتَارُ
فِي صِفَةِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ . وَقَوْلُهُمْ فِي شِعْرِ النَّابِغَةِ
إِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَهَذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ أَكْثَرِ
النَّاسِ لَا لِقَوْلِهِ : « قَدْ نَبَغْتُ لَنَا مِنْهُمْ شُؤْنٌ » كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ
قَوْلِ بَعْضِهِمْ . وَيُقَالُ أَخْلَى الشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ أَخْلَى الرَّامِي إِذَا
لَمْ يُصِيبْ مَعْنَى

وَيُحْكَى عَنِ الْجُبُرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : فَأَوْضَتْ عَلَيَّ بَنَ الْجَهْمِيِّ فِي
الشَّعْرِ وَذَكَرَ أَشْجَعَ السَّلْمِيِّ فَقَالَ : أَنَّهُ يُخْلِي . فَلَمْ أَفْهَمْهَا وَارْتَفَتْ
أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا . فَلَمَّا أَنْصَرَفْتُ وَصَرَّتْ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شِعْرِ
أَشْجَعَ فَإِذَا هُوَ رَبَّمَا مَرَّتْ بِهِ الْآيَاتُ مَعْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيِّنَةٌ
رَاضِعٌ

ثُمَّ إِنَّ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعْدَ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا الشَّعَرَ

فَقَسَّحْهُ الْقَرَائِمَ وَتَبَّهْهُ الْخَوَاطِرَ وَتَلَّيْنِ عَرِيكَةَ الْكَلَامِ وَتَسَهَّلْ
طَرِيقَ الْغَنَى لِكُلِّ أَمْرٍ بِحَسَبِ تَدْبِيرِ طَبْعِهِ وَأَطْرَادِ عَادَتِهِ .
وَسَيَأْتِي ذَلِكَ فِي أَقَاوِيلِ الْعُلَمَاءِ بِمَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِيهِ هِدَايَةٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

قَالَ بَكْرُ بْنُ الْأَنْطَاحِ الْحَنْفِيُّ: الشَّعْرُ مِثْلُ عَيْنِ الْمَاءِ إِنْ تَرَكْتَهَا
تَضَبَّتْ وَإِنْ اسْتَهْتَمْتَهَا هَتَمَتْ . وَلَيْسَ مُرَادُ بَكْرٍ أَنْ تُسْتَهْتَمَ بِالْعَمَلِ
وَحْدَهُ لِأَنَّا نَحْمَدُ الشَّاعِرَ تَكِلَ قَرِيبَتُهُ مَعَ كَثَرَةِ الْعَمَلِ مُرَادًا وَتَذَرِفُ
مَادَّتُهُ وَتَقْدُ مَعَانِيهِ فَإِذَا جَمَّ طَبْعُهُ أَيَّامًا وَدَبَّهَا زَمَانًا طَوِيلًا ثُمَّ
صَنَعَ الشَّعْرَ جَاءَ بِكُلِّ آيَةٍ وَاتَّهَمَ بِكُلِّ قَافِيَةٍ شَارِدَةٍ وَقَمَحَ لَهُ
مِنَ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَافِ مَا لَوْ رَأَاهُ مِنْ قَبْلِ لَأَسْتَغْلِقَ عَلَيْهِ وَأُنْهِمَ
دُونَهُ . لَكِنْ بِالْمَذَاكِرَةِ مَرَّةً فَإِنَّهَا تَقْدَحُ زِنَادَ الْخَاطِرِ وَتُخَجِّرُ عُيُونََ
الْمَعَانِي وَتَوَقِّظُ أَبْصَارَ الْفِتْنَةِ وَبُطَالَةِ الْأَشْعَارِ كَرَّةً فَلَهَا تَبْعَثُ
الْجَسَدَ وَتُولِدُ الشَّهْوَةَ . وَسُئِلَ ذُو الرِّمَّةِ كَيْفَ تَفْعَلُ إِذَا انْتَقَلَ
دُونَكَ الشَّعْرُ . فَقَالَ: كَيْفَ يَنْقَلُ دُونِي وَعِنْدِي مَفَاتِحُ . قِيلَ لَهُ:
وَعَنْهُ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ . قَالَ: الْخُلُوفُ يَذْكُرُ الْأَحْبَابَ وَلَعَمْرِي أَنَّهُ إِذَا
انْتَفَحَ لِلشَّاعِرِ نَسِيبُ الْقَصِيدَةِ فَقَدْ وَلَجَ مِنَ الْأَلْبَابِ وَحَطَّ رِجْلُهُ فِي
الرِّكَابِ عَلَى أَنَّ ذَا الرِّمَّةِ لَمْ يَكُنْ كَثِيرَ الْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ وَإِنَّمَا
كَانَ وَاصِفَ أَطْلَالٍ وَنَادِبَ أَطْلَانٍ وَهُوَ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنْ طَبَقَةِ
الْفُحُولِ . وَقِيلَ لِكَثِيرٍ كَيْفَ تَصْنَعُ الشَّعْرَ إِذَا عَسَرَ عَلَيْكَ . قَالَ:
أَطُوفُ فِي الرِّيَاضِ الْمُسْتَعْبَةِ فَيَسْهَلُ عَلَيَّ صَعْبُهُ وَيُسْرِعُ إِلَيَّ

أَحْسَنُهُ . وَقَالَ الْأَضْمَعِيُّ : مَا اسْتُدْعِيَ شَارِدُ الشَّعْرِ بِشَلِّ الْمَاءِ
الْجَارِي وَالشَّرَفِ الْعَالِي وَالْمَكَانِ الْخَالِي . وَقِيلَ الْخَالِي يَعْنِي الرُّوَضَ
وَحَدَّثَنَا بَعْضُ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ الْمَهْدِيَّةِ وَقَدْ مَرَرْنَا بِمَوْضِعٍ
بِهَا يُعْرَفُ بِالْكِنْدِيَّةِ وَهُوَ اشْرَفُهَا أَرْضًا وَهَوَاءً . قَالَ : جِئْتُ هَذَا
الْمَوْضِعَ مَرَّةً فَإِذَا عَبْدُ الْكَرِيمِ عَلَى سَطْحٍ هُنَالِكَ قَدْ كَشَفَ الدُّنْيَا .
فَقُلْتُ : أَبَا مُحَمَّدٍ . قَالَ : نَعَمْ . فَقُلْتُ : مَا تَصْنَعُ هَاهُنَا . قَالَ : أُلْقِ
خَاطِرِي وَأَجَاوِ نَاطِرِي قُلْتُ : فَهَلْ نَتَجَّ لَكَ شَيْءٌ . قَالَ : مَا تَقَرَّبَ بِهِ
عَيْنِي وَعَيْنُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَانْشَدَ شِعْرًا يَدْخُلُ مَسَامَ الْقُلُوبِ
رَقَّةً . قُلْتُ : هَذَا اخْتِيارُ مِثْلِكَ اخْتَرَعْتَهُ . قَالَ : بَلَى يَرَأِي
الْأَضْمَعِيُّ

وَقَالُوا كَانَ جَرِيرٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُؤَيِّدَ قَصِيدَةً صَنَعَهَا أَيْلًا يُشْعِلُ
سَرَاجًا وَيَعْتَرِلُ أَهْلَهُ وَرَبَّمَا عَلَا السَّطْحَ وَحَدَّهُ وَغَطَّى رَأْسَهُ رَغَبَةً فِي
الْخُلُوةِ فِي نَفْسِهِ . فَحَكِي أَنَّهُ صَنَعَ ذَلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ أَلَّتِي أَخْرَجَ
بِهَا بَنِي عُثَيْرٍ

وَرُوِيَ أَنَّ الْقُرَزْدَقَ كَانَ إِذَا عَصَتْ عَلَيْهِ صَنْعَةُ الشَّعْرِ رَكِبَ
نَاقَةً وَطَافَ وَحَدَّهُ مُنْفِرِدًا فِي شِعَابِ الْجِبَالِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ
وَالْأَمَاكِنِ الْخَالِيَةِ فَيُعْطِيهِ الْكَلَامَ قِيَادَهُ . حَكِي ذَلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ
الْفَلَائِيَّةِ :
عُرِفْتُ بِأَعْشَاشٍ وَمَا كِدْتُ تُعْرَفُ
وَذُكِّرَ أَنَّ قَتِيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ فَاخِرَ بَايَاتِ حَسَّانَ بْنِ
ثَابِتٍ :

لَنَا الْجَفَمَاتُ الْغُرُ يُلَمَعْنَ فِي الضُّحَى

وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا
وَأَنْظَرَهُ سَنَةً قَضَى حَقًّا وَطَالَتْ لَبْلُتُهُ لَمْ يَضَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ
قُرْبَ الصَّبَاحِ أَتَى جَبَلًا بِالْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابُ فَنَادَى : أَخَاكُمْ
أَخَاكُمْ يَا بَنِي لَيْنَا صَاحِبِكُمْ صَاحِبِكُمْ صَاحِبِكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ
نَاقَتِهِ فَأَنْثَلَتْ عَلَيْهِ الْقَوَارِي وَجَاءَ بِالْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ أَعْجَزَتْ
الشُّعْرَاءُ وَبَهَرَتْهُمْ طَوْلًا وَجُودَةً

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : وَلِلشُّعْرِ أَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا أَوَّلُ
الَلِيلِ قَبْلَ تَغَشِّي الْكَوَى وَمِنْهَا صَدْرُ اللَّيْلِ وَقَبْلَ الْغَدَاءِ وَمِنْهَا
يَوْمٌ تُشْرَبُ الدَّوَاءُ وَمِنْهَا الْخُلُوءُ فِي الْجُلُوسِ . فَلِهَذَا الْأَسْبَابِ
تُخْتَلِفُ أَشْعَارُ الشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ الْمُرْسَلِ . وَحُكِيَ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ
وَقَدْ سَأَلَهُ الْبُخَّارِيُّ عَنْ أَوْقَاتِ صِنْعَةِ الشُّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هَذَا
لَا أَحْفَظُهُ وَلَا أَشْكُ أَنَّ ابْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ اقْتَدَى وَإِنْ كَانَ بِمَا
رَوَاهُ

وَمَا يَجْمَعُ الْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ الْفَلَسَفَةِ اسْتِثْلَاءُ الْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ
وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْعَلِ الْخَوَاطِرِ مِثْلُ مُبَاكَرَةِ الْعَمَلِ
بِالْإِسْحَارِ عِنْدَ الْمَهُوبِ مِنَ النَّوْمِ لِكَوْنِ النَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ
حِسُّهَا فِي أَسْبَابِ اللَّهْوِ أَوْ الْعَيْشَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَإِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ
جَدِيدَةٌ كَأَنَّهَا نَشَأَتْ نَشَاةً أُخْرَى وَلِأَنَّ السَّحَرَ الطَّيْفُ هَوَاءٌ وَارِقٌ
نَسِيمًا وَأَعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَيْشِيُّ كَالسَّحَرِ

وَهُوَ عَلَيْهِ فِي التَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِدُخُولِ الظُّلُمَةِ
فِيهِ عَلَى الصِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ الصِّيَاءِ بِالسَّحَرِ عَلَى الظُّلُمَةِ وَلِأَنَّ النَّفْسَ
فِيهِ كَالِةٍ مُرِيضَةٍ مِنْ تَعَبِ النَّهَارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةً إِلَى قُوَّتِهَا مِنْ
النَّوْمِ وَتَشْوِيقُهُ نَحْوَهُ فَالسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَضَعُ . فَأَمَّا لِمَنْ
أَرَادَ الْحِفْظَ وَالدرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَاللَّيْلُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ
أَمْدُقُ الْقَائِلِينَ : إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً . وَهَذَا
الْكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ
نَفْسَهُ عَلَى الْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذَلِكَ فِي شِعْرِهِ . حَكَى ذَلِكَ عَنْهُ بَعْضُ
أَصْحَابِهِ قَالَ : اسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي
فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصْهَجٍ قَدْ غُسِلَ بِالْمَاءِ يَتَقَلَّبُ عَيْنًا
وَشَيْئًا فَقُلْتُ : لَقَدْ بَلَغَ بِكَ الْحَرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا . قَالَ : لَا وَلَكِنْ غَيْرُهُ .
فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ : الْآنَ الْآنَ
أَرَدْتُ . ثُمَّ اسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ : أَتَذَرِي مَا
كُنْتُ فِيهِ مِنْذُ الْآنَ . قُلْتُ : كَلًّا . قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

« كَالدَّهْرِ فِيهِ شِرَاسَةٌ وَلِيَانٌ » زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْكَنَ اللَّهُ مِنْهُ
فَعَمِلْتُ :

شَرِسْتُ بَلْ لَيْتَ بَلْ فَأَيْتَ ذَلِكَ نَدَى

فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ السَّهْلُ وَالْجَبَلُ
وَلَعَنَرِي لَوْ سَكَّتَ هَذَا الْحَاكِي لَتَمَّ هَذَا أَلَيْتَ بِمَا كَانَ
دَاخِلَ أَلَيْتَ لِأَنَّ الْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَالتَّعَمُّلُ بَيْنَ . عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ أَبِي تَمَّامٍ وَأَشَدَّ مِنْهَا وَقَعَتْ لِي أَن لَا يَتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ. صَنَعَ
الْفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ:
قُلْتُ أَنَا أَلَمُوتُ الَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ

بِنَفْسِكَ فَأَنْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُحَاوِلُهُ
وَحَلَفَ بِالطَّلَاقِ أَن جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَمَرَّغُ
فِي الرَّمَضَاءِ وَيَقُولُ: أَنَا أَبُو حَرْزَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ آيَاتِهِ لَهُ
مَشْهُورَةٌ:

أَنَا الدَّهْرُ يُفْنِي أَلَمُوتَ وَالِدَهُ خَالِدٌ

فَحِينِي مِثْلُ الدَّهْرِ شَيْنًا يُطَاوِلُهُ
وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يَنْصِبُ الْقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيُعْلَقَ الْأَنْجَارُ بِالْصُّدُورِ
وَذَلِكَ هُوَ التَّصْدِيرُ فِي الشَّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا إِلَّا شَاعِرٌ مُتَّصِعٌ
مُحْيِبٌ وَنُظْرَائِهِ وَالْحَوَابُ أَن لَا يَضَعَنَّ الشَّاعِرُ بَيْنَنَا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ
غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ ذَلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ أَلْبَسْتُ بَلْ أَضَعُ
الْقَسِمَ الْأَوَّلَ عَلَى مَا أُرِيدُهُ ثُمَّ أَلْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَأْتِي بِهِ
مِنَ الْقَوَا فِي بَعْدِ ذَلِكَ فَأَبْنِي عَلَيْهِ الْقَسِمَ الثَّانِي أَفْعَلُ ذَلِكَ فِيهِ
كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي الْبَيْتَ كُلَّهُ عَلَى الْقَافِيَةِ وَلَمْ أَرِ ذَلِكَ يَجْعَلُ عَلَى
وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ الْقَسِمِ الْأَوَّلِ
إِلَّا فِي التَّدْرَةِ الَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ التَّسْتَعِجِ الْمَفْرُطِ

وَمِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَسْتَقِي إِلَيْهِ بَيْتٌ وَاثْنَانِ وَخَاطِرُهُ فِي
غَيْرِهَا يَحِبُّ أَن يَكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ بِآيَاتِهِ وَذَلِكَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَأَنْبِعَاتِ

خَاطِرُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُ قَافِيَةَ بَعْضِهَا لِلْبَيْتِ بَعْضُهُ مِنَ الشِّعْرِ
مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ثَلَاثَةً أَوْ رَابِعَةً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذَلِكَ
الْمَوْضِعَ إِلَّا ائْتَحَلَ عَلَيْهِ نَظْمُ آيَاتِهِ وَذَلِكَ عَيٌّْ فِي الصَّنْعَةِ شَدِيدٌ
وَنَقْصٌ بَيِّنٌ لِأَنَّ الشَّاعِرَ يَصِيرُ مُحْضُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بَعْضُهُ مُضَيَّقًا
عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ الْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ الشِّعْرُ
تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَخَذَ فِي صَنْعَةِ الشِّعْرِ جَمَعَ مِنَ الْقَوَائِي مَا
يَضِلُّ لِدَلَالَةِ أَلْوَزَنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ أَخَذَ مُسْتَعْمَلَهَا وَشَرِيفَهَا وَمَا
سَاعَدَ عَائِيَهُ وَوَاقَفَهَا وَأَطْرَحَ مَا سَوَى ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ
يَجْمَعَهَا لِيُكْرَرَ فِيهَا نَظَرُهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا التَّخْيِيرَ فِي حِينِ الْعَمَلِ .
هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ حَدَّاقُ الْقَوْمِ .

وَمِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ إِذَا جَاءَهُ الْبَيْتُ عَفْوًا أَتَتْهُ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ
فَنَحَّحَهُ وَصَفَّاهُ مِنْ كَدَرِهِ وَذَلِكَ أَسْرَعُ وَأَخَفُ عَلَيْهِ وَأَصَحُّ لِنَظَرِهِ
وَأَخَفُ لِبَالِهِ . وَآخِرُ مَا يُثْبِتُهُ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِينِهِ
مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذَلِكَ أَشْرَفُ لِلْهِمَّةِ وَأَدْلُ عَلَى الْقَدْرِ وَأَظْهَرُ
لِلْكُلْفَةِ وَأَبْعَدُ مِنَ السَّرِقَةِ . وَسَأَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
فَقُلْتُ : مَا يُعِينُ عَلَى الشِّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ الْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ الْحَمَامِ
وَقِيلَ : إِنَّ الطَّعَامَ الطَّيِّبَ وَالشَّرَابَ الطَّيِّبَ وَسَمَاعَ الْغِنَاءِ يَرْوِقُ
الطَّبْعَ وَيُصْفِي الْمَزَاجَ وَيُعِينُ عَلَى الشِّعْرِ . وَلَمَّا أَرَادَتْ قُرَيْشُ
مُعَارَضَةَ الْقُرْآنِ عَكَفَ فَصْحَاؤُهُمُ الَّذِينَ تَعَاظَوْا ذَلِكَ عَلَى لُبَابِ

أَبْرَ وَسَلَافِ الْحَمْرِ وَلَحْمِ الضَّانِ وَالْخَلْقَةِ إِلَى أَنْ بَلَّغُوا مَجْهُودَهُمْ .
فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ الْقُرْآنِ : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ
اَقْبَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَنْسُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . يَتَسَوَّأُ بِمَا طَمَعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامٍ مَخْلُوقٍ .
وَقِيلَ : مَقْرُودُ الشَّيْخِ الْعِتَابُ . وَذَكَرَ عَنْ أَبِي الطَّيِّبِ أَنَّ مُتَشَرِّفًا
تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا « جَلَّأَ كَمَا
بِي فَلَيْكَ التَّبَرُّجُ » وَهُوَ يَتَعَنَّى وَيَصْنَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعْضُ التَّوَقُّفِ
رَجَعَ بِالْإِنْشَادِ مِنْ أَوَّلِ الْقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ انْتَهَى مِنْهَا . وَقَالُوا :
الْحَيَّةُ إِكْلَالُ الْقَرِيحَةِ أَنْتِظَارُ الْحَمَامِ . وَهَذَا عِنْدِي أَنْجَعُ الْأَقْوَالِ
وَبِهِ أَقُولُ وَإِلَيْهِ أَذْهَبُ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَزْهَرِيُّ : لَا
تَكْذِبُوا الْقُلُوبَ وَلَا تُشْهِأُوهَا وَخَيْرُ الْفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ الْحَمَامِ
وَأَشْجَدُ الْقُلُوبَ بِالْمَذَاكِرَةِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ إِصَابَةِ الْحِكْمَةِ إِذَا
امْتَنَحْتُمْ بِبَعْضِ الْأَسْتِفْلَاقِ فَإِنَّ مَنْ أَدَمَّنَ قَرَعَ أَلْبَابِ وَصَلَ .
وَقَالَ الْخَلِيعُ : مَنْ لَمْ يَأْتِ شَعْرُهُ مَعَ الْوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ .
وَقَالُوا يُرِيدُ الْخَاوَةَ وَرَبَّمَا أَرَادَ الْغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكُ الْجِنَّ : مَا
أَصْفَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَبِمَا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بِشَرُّ بْنُ
الْمُعْتَبِرِ ذَكَرَ فِيهَا الْأَبْلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ الْكَلَامِ وَالْفَصَاحَةِ يَقُولُ
فِيهَا : خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةً فَرَانِكَ وَفَرَاغَ بَالِكَ وَاجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ
قَلِيلَ تِلْكَ السَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ جِنْسًا وَأَحْسَنُ فِي الْأَسْمَاعِ

وَاخْلَى فِي الصُّدُورِ وَأَسْلَمَ مِنْ فَاحِشِ أَخْطَاءٍ وَاخْلَبَ بِكُلِّ عَيْنٍ وَغَرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنَى بَدِيعٍ .

وَأَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمَكَ الْأَظُولُ بِالْكَدِّ وَالْجَاهِدَةِ وَبِالتَّكْلُفِ وَالْمُعَانَدَةِ وَمَهْمَا أَخْطَاكَ لَمْ يُخْطِئِكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا أَوْ حَقِيقَةً عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا كَمَا خَرَجَ مِنْ يَتْبُوعِهِ وَتَجَمَّ عَنْ مَعْدِنِهِ وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعَّرَ فَإِنَّ التَّوَعَّرَ يُسَلِّمُكَ إِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيكَ وَيَشِينُ أَلْفَاظَكَ . وَمَنْ أَرَاعَ مَعْنَى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ الْمَعْنَى الشَّرِيفِ أَلْفَظُ الشَّرِيفِ وَمِنْ حَقِّهِمَا أَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيُجْهِئُهُمَا وَعَمَّا يَفُودُ مِنْ أَجَلِهِ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ أَنْ يُلْتَمَسَ إِظْهَارُهُمَا وَتَرْهَنْ نَفْسَكَ فِي مُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِّهِمَا وَكُنْ فِي إِحْدَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ فَإِنَّ أَوَّلَ الثَّلَاثِ أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا أَوْ فَحْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . إِمَّا عِنْدَ الْخَاصَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ . أَوْ لِلْعَامَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ قَصَدْتَ وَالْمَعْنَى لَيْسَ يَشْرَفُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي الْخَاصَّةِ فَكَذَلِكَ لَيْسَ يَتَضَمُّ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي الْعَامَّةِ وَإِنَّمَا مَدَارُ الشَّرَفِ مَعَ الصَّوَابِ وَإِخْرَازِ الْمُنْفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ أَحَالٍ وَمَعَ مَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ الْقَالَ . وَكَذَلِكَ أَلْفَظُ الْعَامِّيِّ وَالْخَاصِّيِّ فَإِنْ أَمَكَّكَ أَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَاقْتِدَارِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى أَنْ تُفْهِمَ الْعَامَّةَ مَعَانِي

الخاصّة وتكسوها الالفاظ المتوسّطة التي لا تطف عن الدّهاء
ولا تحقّ عن الالفاء فانّ اللّيلغ الثّام فان كانت الميزلة
الاولى لا ثواتيك ولا تغريك ولا تسخ لك عند اول نظرك
في اول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تسخ الى
قرارها والى حقها من اماكنها المقسومة لها والقاية لم تحل من
مركزها في نضابها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها
نافرة عن موضعها فلا تكرها على اغتصاب مكانها والذول في
غير اوطانها فانك اذا لم تتعاط قرض الشجر الموزون ولم تكلف
اختيار الكلام المشور لم يعبك بترك ذلك احد . فان انت
تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما
عليك ولك عابك من انت اقل منه عيبا وراى من هو دونك
انه فوقك . فان انت ابتليت بان تكلف القول وتتاعلى
الصنعة ولم تسخ لك الطباغ فلا تعجل ولا تضجر ودعه يياض
يومك وسواد ليلك وعادده عند نشاطك وفراغ باليك فربما لا تعدم
الاجابة والمواتاة ان كان هناك طيبة او جرئت في الصنعة على
عرف فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل ومن غير
طول افعال فالميزلة الثالثة ان تتحول عن هذه الصناعات الى
اشهى الصناعات اليك واخفها عليك

الا انّ النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسخ بخزونها
عند الرغبة كما تجود به مع الشهوة والحبّة . وقال بعض اهل

الآدَبُ : حَسْبُ الشَّاعِرِ عَوْنًا عَلَى صِنَاعَتِهِ أَنْ يَجْمَعَ خَاطِرُهُ بَعْدَ أَنْ
يُخْلِجِي قَلْبَهُ مِنْ فُضُولِ الْأَنْفَعَالِ وَيَدْعَ الْأَمْتِلَاءَ مِنْ أَطْعَامِ
وَالشَّرَابِ ثُمَّ يَأْخُذَ فِيهَا يُرِيدُ . وَأَفْضَلُ مَا اسْتَعَانَ بِهِ الشَّاعِرُ غِنَى
أَوْ فَضْلُ طَمَعٍ وَالْفَقْرُ آفَةُ الشِّعْرِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّ الشَّاعِرَ إِذَا صَنَعَ
الْقَصِيدَةَ وَهُوَ فِي غِنَى وَوُسْعَةٍ نَقَحَهَا وَأَمِنَ النَّظَرَ فِيهَا عَلَى مَهَلٍ
وَإِذَا كَانَ مَعَ ذَلِكَ طَمَعٌ غَنَى أَنْبَاءُهَا مِنْ يَبُوعِهَا وَجَاءَتْ
الرَّغْبَةُ فِيهَا فِي نَهَائِهَا مُحْكَمَةً . وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا مُضْطَرًّا رَضِيَ بِعَفْوِ
الْكَلَامِ وَأَخَذَ مَا أَمَكَنَهُ مِنْ نَتِيجَةِ خَاطِرِهِ وَلَمْ يَتَدَبَّرْ فِي بُلُوغِ
مُرَادِهِ وَلَا بَلَغَ مَجْهُودَ نَفْسِهِ لِما يُخْفِرُهُ مِنَ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ فَجَاءَ
دُونَ عَادَتِهِ فِي سَائِرِ أَشْعَارِهِ وَرُبَّمَا قَصَرَ عَنْ دُونِهِ بِكَثِيرٍ . وَمِنْهُمْ
مَنْ تَحْيِي الْحَاجَةَ خَائِرُهُ وَتَبَعَتْ قَرِيْبَتَهُ فَيَجُودُ فَإِذَا أَوْسَعَ أَرِنَفَ
وَصَعِبَ عَلَيْهِ عَمَلُ الْأَنْبِيَاءِ الْبَسِيرَةِ فَضْلًا عَنِ الْكَثِيرَةِ وَالْعَادَةِ
فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِعْلٌ عَظِيمٌ وَهِيَ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ كَمَا قِيلَ فِيهَا

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اِخْتَلَفَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ فِي الْمَقَاطِعِ وَالْمَطَالِعِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ :
هِيَ الْفُضُولُ وَالْوُصُولُ بِعَيْنِهَا . فَأَلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ الْفُضُولِ وَالْمَطَالِعُ
أَوَائِلُ الْوُصُولِ . وَالْفُضُولُ آخِرُ جُزْءٍ مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ كَمَا قَدَّمْتُ

وَهُوَ الْعَرُوضُ أَيْضًا . وَالْوُصُولُ أَوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي .
وَقَالَ غَيْرُهُمْ : الْقَاطِعُ مُنْقَطِعُ الْآيَاتِ وَهِيَ الْقَوَافِي وَالْمَطَالِعُ
أَوَائِلُ الْآيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي بَعْضِ تَأْلِيْفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ
التَّصْرِيعَ وَهُوَ أَنْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ الْأَجْزَاءِ فِي الْبَيْتِ عَلَى سَبْعٍ
أَوْ شَيْءٍ بِهِ أَوْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي التَّصْرِيفِ . فَأَشَارَ بِهَذِهِ
الْعِبَارَةِ إِلَى الْقَاطِعِ أَوْ آخِرِ أَجْزَاءِ الْبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَحَدُّ مِنْ
الشِّعْرِ الْمَرْصُوعِ مَا يَكُونُ سَبْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ الْأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ أُمِّ
مَعْدَانَ فِي مَرَثِيَّةِهَا :

فَعَلُ الْجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ الْجَلِيلِ وَرَاءَ مَطَاءِ الْجَزِيلِ الَّذِي لَمْ يُعْطِهِ أَحَدٌ
فَالسَّبْعُ فِي هَذَا الْبَيْتِ اللَّامُ الْمَطْرَدَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَمَاكِنَ مِنْهُ
وَأَخِرُ الْأَجْزَاءِ الَّتِي هِيَ الْقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ الْإِيَاءِ الَّتِي قَبْلَ اللَّامِ .
اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُجْعَلَ السَّبْعُ هُوَ الْإِيَاءُ الْمُلْتَزِمَةُ فَحِينَئِذٍ عَلَى أَنَا لَا نَعْلَمُ
حَرْفَ السَّبْعِ يَكُونُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَكَانِ وَمِثْلُ هَذَا
فِي أَنْوَاعِ الْأَعَارِضِ كَثِيرٌ

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الْمَقْطَعَ وَالْمَطْلَعَ أَوَّلُ الْقَصِيدَةِ
وَأَخِرُهَا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِشَيْءٍ لِأَنَّا نَحْدُ فِي كَلَامٍ جِهَابِدَةً الْقَوَادِ
إِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ الْقَاطِعِ حَمِيدَةُ الْمَطَالِعِ . وَلَا
يَقُولُونَ الْقَطْعَ وَالْمَطْلَعَ . وَفِي هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِأَنَّ الْقَصِيدَةَ
إِنَّمَا هِيَ أَوَّلُ وَاحِدٌ وَآخِرُ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا أَوَائِلُ وَأَوَاخِرُ إِلَّا
عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ ذِكْرِ أَبْتِدَآتِ الْآيَاتِ أَوْ الْأَقْسِمَةِ وَأَنْتَهَائِهَا

وَسَأَلْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ السَّيِّدِ عَنْ
هَذَا فَقَالَ: الْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَطَالِعُ أَوَائِلُهَا. قَالَ وَمَعْنَى
قَوْلِهِمْ: حَسَنُ الْمَقَاطِعِ جَيِّدُ الْمَطَالِعِ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطِعُ الْبَيْتِ وَهُوَ
الْقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَاتٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهَذَا هُوَ حُسْنُهُ. وَالْمَطْلَعُ
هُوَ أَوَّلُ الْبَيْتِ وَجُودُهُ أَنْ يَكُونَ دَلَالًا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَالْتَضْدِيرِ
وَمَا شَاكَاهُ. وَرَوَى الْجَاهِظُ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ شُبَّةٍ كَانَ يَقُولُ: النَّاسُ
مُؤَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ الْإِبْتِدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ
بِتَفْضِيلِ جُودَةِ الْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ. وَحَظُّ جُودَةِ الْقَافِيَةِ وَإِنْ
كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ الْبَيْتِ أَوْ الْقَصِيدَةِ. حَكَاهُ
الْجَاهِظُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَقْطَعِ آخِرُ الْبَيْتِ أَوْ الْقَصِيدَةِ وَهُوَ بِالْأَنْبِيَاءِ
الْيَقِي لِدُكْرِ حَظِّ الْقَافِيَةِ

وَحِكْمِي أَيْضًا عَنْ سَمِيقٍ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْعِتَابِيِّ مَا الْبَلَاغَةُ. فَقَالَ:
كُلُّ كَلَامٍ أَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُسْنَةٍ
وَلَا اسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِغٌ. قَالَ: قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ الْإِعَادَةَ وَالْحُسْنَ فَأَيُّ
الْإِسْتِعَانَةِ فَقَالَ: أَمَّا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ
يَا هَذَا أَسْمَعُ مِنِّي وَأَسْتَمِعُ إِلَيَّ وَأَفْهَمُ وَالسَّتْ تَفْهَمُ هَذَا كُلُّهُ
عِيٌّ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ وَهَذَا الْقَوْلُ مِنَ الْعِتَابِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
الْمَقَاطِعَ أَوَاخِرَ الْأَفْصُولِ. وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ الْجَاهِظُ عَنِ الْمَأْمُونِ إِنَّهُ
قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتُضْغِي لِجَدِيشٍ وَتَقِفُ عِنْدَ

مَقَاطِعِ كَلَامِي. وَإِذَا جُعِلَ الْمَقْطَعُ وَالْمَطْلَعُ مُضَدَّزَيْنِ بِمَعْنَى الْقَطْعِ
وَالطُّلُوعِ كَانَتْ أَلَاءٌ وَاللَّامُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَإِذَا أُرِيدَ مَوْضِعُ الْقَطْعِ
وَالطُّلُوعِ كَثُرَتْ أَلَاءُ خَاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ الْقِيَاسِ

البعث السابع عشر

في المبتدأ او الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيقي)

قِيلَ لِبَعْضِ الْحَدَاقِ بِصَاعَةِ الشَّعْرِ لَقَدْ طَارَ أَسْمُكَ وَأَشْتَهَرَ
فَقَالَ لِي أَنِّي أَقَلْتُ الْحَقَّ وَأَصَبْتُ مَقَامِعِدَ الْكَلَامِ وَقَرِطْتُ نَصَّتَ
الْأَغْرَاضِ بِحَرِّ الْفَوَاحِشِ وَالْحَوَاتِمِ وَلُطْفِ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَذْحِ وَالْهَجَاءِ
وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ الْإِفْتِتَاحِ دَاعِيَةُ الْإِنْشِرَاحِ وَمَطِيَّةُ التَّجَاحِ
وَلَطَافَةُ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَذْحِ سَبَبُ أَرْتِيَاكِ الْمَدْحِ وَخَاتِمَةُ الْكَلَامِ
أَبْقَى فِي السَّمْعِ وَالْحَقُّ بِالنَّفْسِ لِقُرْبِ الْعَهْدِ بِهَا فَإِنْ حَسُنَتْ حَسَنَ
وَأِنْ قُبِحَتْ قُبِحَ وَالْأَعْمَالُ بِحَوَاتِمِهَا. وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ آيَتِدَاءَ
شِعْرِهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يُقْرَعُ السَّمْعُ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ
أَوَّلٍ وَهَلَّةٍ. وَقَدْ اخْتَارَ النَّاسُ كَثِيرًا مِنَ الْآيَتِدَآتِ سَادَ كُرْ هُنَا مَا
أَمْكَنَ مِنْهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ نَحْوُ قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ «فَقَا بَبِكَ مِنْ
ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَثْرِلٍ» وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ آيَتِدَاءٍ قَالَهُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ
وَقَفَ وَاسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَاسْتَبَكَى وَذَكَرَ الْحَبِيبَ وَالْمَثْرِلَ فِي
مِضْرَاعٍ وَاحِدَةٍ. وَقَوْلُهُ «الْأَغَمِ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي» وَمِثْلُهُ

قَوْلُ الْقَطَّاعِي « إِنَّا مُحْيِيُونَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلُّ » وَكَقَوْلِ النَّابِغَةِ :
 كَلِّينِي لِهَمِّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
 وَقَوْلُهُ :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِالْجُمُومَيْنِ سَاهِرًا وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِينًا وَظَاهِرًا
 هَذَا بَعْضُ مَا اخْتِيرَ لِلْقُدَمَاءِ وَمِمَّا اخْتِيرَ فِي الرِّثَاءِ قَوْلُ أَوْسِ
 ابْنِ حَجْرٍ :

أَيُّهَا النَّفْسُ أَخْجَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تُخَذِرِينَ قَدْ وَقَعَا
 وَمِمَّا اخْتِيرَ لِلْمُخَذَّذِينَ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ « أَبِي طَلُّلٌ بِالْخُزْعِ
 أَنْ يَتَكَلَّمَا » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ أَيْتِدَاءٍ قَالَهُ مُحَدِّثٌ . وَقَوْلُ أَبِي
 نُوَّاسٍ :

لَمَنْ دَمْنٌ تَرْدَادُ طِيبَ نَسِيمٍ
 عَلَى طُولِ مَا أَقَوْتُ وَحُسْنَ دُسُومٍ

وَقَوْلُهُ :

رَسْمُ الْكَرَى بَيْنَ الْجُفُونِ مَحِيلٌ عَمِّي عَلَيْهِ بُكَاءُ عَلَيْكَ طَوِيلٌ
 وَقَوْلُهُ :

أَعْطَيْتُكَ رَيْحَانَهَا الْعُقَارُ وَحَانَ مِنْ لَيْلِنَا أَنْسِفَارُ

وَقَوْلُهُ :

دَعِ عَنْكَ لَوْنِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِي بِلَاتِي كَانَتْ هِيَ الْدَاءُ
 وَمِمَّا أَشْبَهَ ذَلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ لَطَالَ وَكَثُرَ . وَيَرْغَبُ عَنِ التَّعْقِيدِ
 فِي الْإِبْتِدَاءِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ الْهَيِّ وَدَلِيلُ الْفَهْمِ . وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ دِعْبِلَ

أَبْنَى عَلِيٍّ الْخُرَاعِيَّ وَرَدَّ خِصَّ فَقَصَدَ دَارَ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ رَغْبَانَ
دِيكَ الْخِنْ فَصَمَّ نَفْسَهُ عَنْهُ خَوْفًا مِنْ قَوَارِصِهِ فَقَالَ : مَا لَهُ
يَسْتَرُ وَهُوَ أَشْعَرُ الْخِنْ وَالْإِنْسِ أَلَيْسَ الْقَائِلُ :
بِهَا غَيْرُ مَعْدُولٍ فِدَاً وَحَمَاهَا وَهَلْ بَعِثِيَّاتُ الْغُبُوقِ ابْتِكَارُهَا
فَظَهَرَ إِلَيْهِ وَأَعْتَذَرَ إِلَيْهِ وَأَحْسَنَ . ثُمَّ تَنَاشَدَا فَأَنشَدَ دِيكَ
الْخِنْ ابْتِدَاءً قَصِيدَةً :

كَانَهَا مَا كَانَتْهُ خَلَلُ الْخَلَّةِ وَفَقُّ أَلْهُوِكَ أَنْ بَعَمَا
فَقَالَ لَهُ دِغِيلُ : أَسَكْتُ فَوَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُكَ تُتِمُّ الْبَيْتَ إِلَّا وَقَدْ
غَشِيَ عَلَيْكَ أَوْ تَشَكَّيْتَ دِمَاغَكَ وَكَكَانَكَ فِي جَهَمٍ مُخَاطَبُ
الزَّبَانِيَةِ أَوْ تَحْبَطُكَ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ . وَإِنَّمَا أَرَادَ إِلَيْكَ أَنْ
يَهْوَلَ عَلَيْهِ وَيَقْرَعَ سَمْعَهُ عَنِّي أَنْ يُرْجِحَهُ أَوْ يَرُوعَهُ فَسَمِعَ مِنْهُ مَا
كَرِهَ . وَلَعَمْرِي مَا ظَلَمَهُ دِغِيلٌ وَلَقَدْ أَبْعَدَ مَسَاقَةَ الْكَلَامِ وَخَالَفَ
الْعَادَةَ وَهَذَا يَبْتَغِي قَبِيحٌ مِنْ جِهَاتٍ . نَهَا إِخْضَارَ مَا لَمْ يُذَكَّرْ قَبْلُ وَلَا
جَرَتْ الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ فَيُعَذَّرُ وَلَا كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ فَيُشْهَرُ مَعَ إِحَالَةِ
الْتَشْبِيهِ عَلَى تَشْبِيهِ ثَقُلَ تَجَانُّسُهُ الَّذِي هُوَ حَشْوٌ قَارِعٌ لَوْ طُرِحَ مِنْ
أَلْبَيْتٍ كَانَ أَحْزَمَ وَأَسْتَدْعَى قَافِيَةً لَا لَشَيْءٍ إِلَّا لِقِسَادِ الْمَعْنَى وَاسْتِحَالَةِ
الْتَشْبِيهِ مَا الَّذِي يُرِيدُ بِنِغَامِهِ فِي تَشْبِيهِ الْوَقْفِ وَهُوَ السَّوَارِ وَلَمْ
كَانَ وَقْفُ أَلْهُوِكَ خَاصَّةً . وَمِثْلُهُ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزُّبَايَتِ
بِصَفِّ اقْتِهِ فِي أَوَّلِ قَصِيدَةٍ مَدَحَ : الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ :

كَانَهَا حِينَ تَنَاءَى خَطُوهَا أَجْرُ مَرْبِي الشُّوَى يَرْغَى الْفَقْلُ

فَالْيَتُ الْأَوَّلُ فِي مُحَافَظَةِ الْعَادَةِ لِأَزْمٍ وَمَعَ ذَلِكَ قَوْلُهُ « حِينَ
تَنَاسَى خَطُوهَا » فَقَصَرَ بِهَا وَهُوَ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ « حِينَ تَدَانِي
خَطُوهَا » وَخَالَفَ جَمِيعَ الشُّعْرَاءِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَصِفُونَ الثَّاقَةَ بِالظُّلُمِ
وَالْحِمَارِ وَالثَّوْرِ بَعْدَ الْكَلَالِ غُلُوبًا وَمُبَالَغَةً فِي الْوَصْفِ . هَذَا هُوَ
الْحَيِّدُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا لَمْ يَذْكُرُوا أَنَّهَا بَدَلَتْ جَهْدَهَا وَاسْتَفْرَعَتْ جَمِيعَ
مَا عِنْدَهَا بَلْ يَدْعُونَ التَّأْوِيلَ مُحْتَمِلَ الزِّيَادَةِ . ثُمَّ قَالَ « تَرَعَى
الْقُلُلَ » وَالثَّوْرُ لَا يَرَعَى قُلُلَ الْحَبَالِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ الْوَعْلُ لِأَنَّهُ لَا يُسْهَلُ
وَالثَّوْرُ فِي السُّهُولِ وَمَوَاضِعِ الرِّمَالِ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِالثَّبَاتِ أَعَالِيَهُ
فَرُبَّمَا أَنْ يَكُونَ الْقُلُلُ نَبْتًا بَعِيْنَهُ أَوْ مَكَانًا فَقَدْ يُعْكِسُ وَمَا سَمِعْتُ
بِهَا

وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَقْطَعُ الْبُضْرَاعَ الثَّانِي مِنَ الْأَوَّلِ إِذَا أَبْتَدَأَ
شِعْرًا وَاصْنَعُوا مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي النَّسَبِ كَأَنَّهُ يَدُلُّ بِذَلِكَ عَلَى
وَلَهُ وَشِدَّةٌ حَالِ كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

جَلَا كَمَا بِي قَلِيكَ التَّبَرُّجُ أَغْذَاءُ ذَا الرِّشَاءِ الْأَعْنَ الشَّيْخُ
فَهَذَا اعْتِدَارُ مَنْ اعْتَدَرَ لَهُ لَوْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا فِي الرَّثَاءِ
وَالْتَفْجَعُ لَكَانَ مَوْضِعُهُ أَيْضًا وَكَذَلِكَ عِنْدَ الْعُظَمَاءِ مِنَ الْأُمُورِ
وَالْتَوَازِلِ الشَّدِيدَةِ . وَلِيَحْتَرَسَ بِمَا يَنَالُهُ فِيهِ زِيَادَةٌ أَوْ يَقَعُ عَلَيْهِ مَطْعَنٌ
فَإِنَّ أَبَا تَمَّامٍ أَمْتَدَحَ أَبَا دَلْفٍ بِمِحْضَرَةٍ مِنْ كَانَ يَكْرَهُهُ وَأَفْتَحَ
قَصِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ « عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبَعٍ وَمَلَاعِبٍ » وَكَانَتْ فِيهِ
جُبْنَةٌ شَدِيدَةٌ . فَقَالَ الرَّجُلُ لَعَنَهُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ .

فَدَهَشَ أَبُو تَمَّامٍ حَتَّى تَبَيَّنَ ذَلِكَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَاخُوذٍ بِمَا قِيلَ
وَلَا هُوَ يَمَّا يُدْخِلُ عَلَيْهِ عِيًّا. وَلَا يَأْزُمُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا أَنْ أَخُو طَةً
وَالْتَحَفَظَ مِنَ النُّجَّةِ الْبَارِدَةِ أَفْضَلُ وَالتَّفْرِيطُ أَرْذَلُ وَأَخْبَثُ.
وَدَخَلَ جَرِيدٌ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَنْشَدَهُ « أَتَضْحَكُ أَمْ فُؤَادُكَ
غَيْرُ صَاحِي » فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : بَلْ فُؤَادُكَ يَا ابْنَ الْقَاعَةِ كَأَنَّهُ
يَسْتَقْبِلُ هَذِهِ الْمَوَاجِهَةَ وَالْأَفَقْدَ عِلْمُ أَنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا خَاطَبَ نَفْسَهُ
وَمِنْ هَذِهِ لُحْجَةٍ بِعَيْنَيْهَا عَابُوا عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلَهُ لِكَافُورٍ أَوَّلَ
لِقَائِهِ مُبْتَدِئًا وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يُخَاطَبُ نَفْسَهُ لَا كَافُورًا :
كُنْ بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى أَلَمْتَ شَافِيَا

وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
فَالْعَيْبُ مِنْ بَابِ التَّادِبِ وَحُسْنِ السِّيَاسَةِ لَا زِمَ لِأَبِي الطَّيِّبِ
فِي هَذَا الْإِتِّدَاءِ لَا سِيَّمَا وَهَذَا النَّوعُ أَعْنِي جُودَةَ الْإِتِّدَاءِ مِنْ
أَجْلِ مُحَاسِنِ أَبِي الطَّيِّبِ وَأَشْرَفِ مَآثِرِ شِعْرِهِ إِذَا ذُكِرَ الشِّعْرُ.
وَدَخَلَ ذُو الرِّمَّةِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَاسْتَنْشَدَهُ شَيْئًا مِنْ
شِعْرِهِ فَأَنْشَدَهُ « مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا أَلْمَاءُ يَنْسَكِبُ » وَكَانَ بِعَيْنِ
عَبْدِ الْمَلِكِ رِيْشَةٌ فَهِيَ تَدْمَعُ فَتَوَهَّمُ أَنَّهُ خَاطَبَهُ أَوْ عَرَضَ بِهِ فَقَالَ :
وَمَا سُؤَالُكَ يَا جَاهِلُ عَنْ هَذَا وَمَقْتَهُ وَأَسْرَ بِإِخْرَاجِهِ وَكَذَلِكَ فَعَلَ
ابْنُهُ هِشَامٌ بِأَبِي النَّجْمِ وَقَدْ أَنْشَدَهُ فِي أُرْجُوزَةٍ :

صَفْوَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَّمَّا تَفْعَلْ فَكَأَنَّهَا فِي الْأَفْقِ عَيْنُ الْأَحْوَلِ
وَكَانَ هِشَامٌ أَحْوَلَ فَامْرَأَتُ فَحُجِبَ عَنْهُ مُدَّةً وَقَدْ كَانَ قَبْلَ

ذَلِكَ مِنْ خَاصَّتِهِ يَسْمُرُ عِنْدَهُ وَهُوَ يَمَازِجُهُ وَإِنَّمَا يَأْتِي الشَّاعِرُ بِهِ هَذِهِ
 الْأَشْيَاءُ إِمَّا مِنْ غَفْلَةٍ فِي الطَّبَعِ أَوْ مِنْ اسْتِغْرَاقٍ فِي الصَّنْعَةِ
 وَشُغْلٍ هَاجِسٍ بِالْعَمَلِ يَذْهَبُ مَعَ حُسْنِ الْقَوْلِ حَيْثُ ذَهَبَ.
 وَالْفُطْنُ الْحَادِثُ يُخْتَارُ لِلْأَوْقَاتِ مَا يُشَاكِلُهَا وَيَنْظُرُ فِي أَحْوَالِ
 الْمُخَاطَبِينَ فَيَقْصِدُ مَحَابِبَهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى شَهَوَاتِهِمْ وَإِنْ خَالَفَتْ شَهَوَاتِهِ
 وَيَتَقَفَّدُ مَا يَكْرَهُونَ سَمَاعَهُ فَيَجْتَنِبُ ذِكْرَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ
 قَالَ لِأَحَدِ الشُّعْرَاءِ وَقَدْ أوردَ بَيْنَنَا ذَكَرَ فِيهِ «لَوْ خُلِدَ أَحَدُ أَكْرَمِ
 لَكُنْتُ مُخْلِداً بِكَرَمِكَ» وَقَالَ كَلَاماً نَحْوَ هَذَا . فَقَالَ الْمَلِكُ : إِنْ
 أَلْمُوتَ حَقٌّ وَلَنَا مِنْهُ نَصِيبٌ . غَيْرَ أَنَّ الْمُلُوكَ تَكَرَّرَ مَا يُسَكِّدُ عَيْنَهَا
 وَيُنْعِصُ لَدَنَهَا فَلَا تَأْتِيهَا بِشَيْءٍ مِمَّا تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ
 وَمِنْ الْمَشْهُورِ أَنَّ النُّعْمَانَ بْنَ الْمُثَنِّرِ أَتَى شَجَرَةً ظَلِيلَةً مُلْتَمِّتَةً
 الْأَغْصَانِ فِي مَرَجٍ حَسَنِ كَثِيرِ الشَّقَائِقِ وَكَانَ مُعْجَباً بِهَا وَإِلَيْهِ
 أَضِيفَتْ قَيْلَ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ . فَقَالَ قَامِرٌ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ
 فَأَخْضَرَا وَجَلَسَ لِلدَّهْنِ . فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ الْعَبَّادِيُّ وَكَانَ كَاتِبَهُ :
 أَتَعْرِفُ أَيْتَ اللَّغَنِ مَا تَقُولُ هَذِهِ الشَّجَرَةُ . قَالَ : وَمَا تَقُولُ . قَالَ
 تَقُولُ :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ
 عَطَفَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَتَوَدَّوْا وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالٍ
 مَنْ رَأَى فُلْيُوطَانَ نَفْسَهُ إِنَّمَا الدُّنْيَا عَلَى قُرْطِ الزُّوَالِ
 كَأَنَّهُ قَصَدَ مَوْعِظَتَهُ فَنَعَصَ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِيهِ وَآمَرَ بِالطَّعَامِ

وَالشَّرَابِ قَرُفًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَأَزْخَلَ مِنْ قُورِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِقِيَّةِ
يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهَذَا شَأْنُ الْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ أَكْثَرُ
النَّاسِ مِنَ الدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ الْعُمُرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يُمَكِّنُ
فَقَالُوا: عِشْ أَبَدًا وَسَلِّمْ مَدَى الدَّهْرِ وَابْقِ بَقَاءَ الزَّمَانِ . وَأَعْتَرَضَ
النُّقَادُ فِي ذَلِكَ وَاخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ
أَبِي نُوَّاسٍ :

يَا أَمِينَ اللَّهِ عِشْ أَبَدًا دُمُ عَلَى الْأَيَّامِ وَالزَّمَنِ
أَنْتَ تَبْقَى وَالْقَنَاءُ لَنَا فَإِذَا أَفْنَيْنَا فَكُنْ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَإِذَا خَرَجَ الْكَلَامُ عَنْ حَدِّ الْإِمْكَانِ فَإِنَّمَا
يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ النَّسَائَةِ لَا غَيْرُ ذَلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِأَبِي نُوَّاسٍ
الَّذِي آسَأَ فِيهِ آدَبُهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ أَنْ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنَى
دَارًا اسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَانْتَقَلَ إِلَيْهَا . فَصَنَعَ أَبُو نُوَّاسٍ لِذَلِكَ
الْحَيْنِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَدْحُهُ بِهَا وَيَقُولُ أَوَّلُهَا :

أَرْبَعٌ إِلَيَّ إِنَّ الْخُشُوعَ لَبَادٍ عَلَيْكَ وَإِنِّي لَمْ أَخُكْ وَدَادِي
وَحَتَمَهَا أَوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا قُدِّمْتُمُ بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَانِحِينَ وَغَادِي
قَطِيرَ الْبَرْمَكِيِّ وَأَشْمَارُ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ إِلَيْنَا أَنْفُسًا يَا أَبَا
نُوَّاسٍ فَمَا كَانَتْ إِلَّا مُدِيدَةً حَتَّى أَوْقَعَ بِهِمُ الرِّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمُ
الطَّيْرَةُ . وَزَعَمَ أَنَّ أَبَا نُوَّاسٍ قَصَدَ الشَّارِئَ لَهُمْ لَشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ
مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا أَظُنُّ ذَلِكَ صَحِيحًا لِأَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ جَيْدِ شِعْرِهِ

الَّذِي لَا أَشْكُ أَنْ يُحْتَفَلَ لَهُ. اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَضَعَ ذَلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا
عَلَى مَنْ قَصَدَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ. وَلِلشُّعْرَاءِ مَذَاهِبُ فِي افْتِتَاحِ الْقَصَائِدِ
بِالنَّسِيبِ إِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ الْقُلُوبِ وَاسْتِدْعَاءُ الْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا
فِي الطَّبَاعِ مِنْ حُبِّ الْغَزْلِ وَالْمِيلِ إِلَى الْهَوَى فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ
إِلَى مَا بَعْدَهُ. وَمَقَاصِدُ النَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ذِكْرُ
الرَّحِيلِ وَالْإِتِّقَالِ وَتَوَقُّعُ الْبَيْنِ وَالْإِشْقَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ الطَّلُولِ
وَالْحُمُولِ وَالْإِبِلِ وَلَمْعُ الْهَرَقِ وَرَمَزُ النَّسِيمِ وَذِكْرُ أَلْيَاسِهِ الَّتِي يَلْتَقُونَ
عَلَيْهَا وَالرِّيَاضِ الَّتِي مِنْ خَزَائِمِ وَالتَّحْوَانِ وَهَيَاةٍ وَعَوَارٍ وَمَا أَشَبَّهُ
مِنْ ذَهْرِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَهْلُ الْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَعَزُّهُمْ فِي الصَّدُودِ
وَالْهَجْرَانِ وَالرُّقْبَاءِ وَمَنْعَةُ الْحَرَسِ وَالْأَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ الشَّرَابِ
وَالنَّدَامَى وَاللَّسْرِينَ وَاللَّيْلُوفِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ مِنَ النَّوَائِرِ الْبَلَدِيَّةِ
وَالرِّيَاحِينَ الْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ الثَّقَاحِ وَالنَّجْمَةِ بِهِ وَدَسِ الْكُتُبِ
وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ بِمَا هُمْ مُنْقَرِدُونَ بِهِ

وَالْعَادَةُ أَنْ يَذْكُرَ الشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ الْمَقَاوِزِ وَمَا أَنْضَى مِنَ
الرَّكَائِبِ وَمَا تَجَسَّمَتْ مِنْ هَوْلِ اللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ النَّهَارِ وَهَجِيرِهِ
وَقَلَّةِ الْمَاءِ وَغُورِهِ. ثُمَّ يُخْرِجُ إِلَى مَدْحِ الْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ
الْقَصْدِ وَذِمَامَ الْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ الْمَكَافَاةَ. وَكَأَنَّا قَدِيمًا أَصْحَابَ
خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى آخَرٍ فَلِذَلِكَ كَانَ أَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ
أَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ الدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَأَنِّيَّةِ الْحَاضِرَةِ
فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ الْحَضَرِيِّ الدِّيَارِ إِلَّا بَحَازًا لِأَنَّ الْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

الرَّيْحُ وَلَا تَخْوَها إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمَكِّنُ
أَنْ يَعَيشَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْحَيْلِ وَأَحْسَنُ مَا اسْتَعْمَلَهُ الْمُؤَلَّدُونَ
الْخُذُّونَ مَا نَأْسَبُ قَوْلَ ابْنِ الرُّومِيِّ :

سَمَى اللَّهُ قَضْرًا بِالرَّصَاقَةِ شَاقِنِي بِأَعْلَاهُ قَضْرِي الدِّيَارِ رُصَا فِي
أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ الدُّرِّ فُجِعَتْ يَوَاقِيتُ خُمْرًا فَاسْتَبَاحَ عَمَّا فِي
وَكَانَتْ دَوَابُّهُمْ الْإِبِلَ بِكَثْرَتِهَا وَعَدَمِ غَيْرِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى
الْتِمَاعِ وَقِلَّةِ الْمَاءِ وَالْعَلْفِ فَلِهَذَا أَيْضًا خَضُّوْهَا بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ
يَكُنْ أَحَدُهُمْ يَرْضَى بِالْكَذِبِ قَيْصِفَ مَا أَيْسَرُ عَنْدهُ كَمَا يَفْعَلُ
الْخُذُّونَ إِلَّا تَرَى أَمْرًا الْقَيْسَ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ
الْبَرِيدِ وَالْفَرَاتِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ الْإِبِلِ لِلْعَادَةِ الَّتِي
جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فَقَالَ يَصِفُ رَجُلُهُ إِلَى قَيْصَرَ :

إِذَا قُلْتُ رَوْحَنَا أَرَنْ فُرَاتٍ

عَلَى هَزَجٍ وَاهِي الْأَبَاجِلِ أَبْتَرَا

عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ الذَّنَابِي مُعَاوِدِ

بَرِيدَ السَّرَى بِاللَّيْلِ مِنْ خَيْرِ بَرَبَرَا

إِذَا رُغْمُهُ مِنْ جَانِبَيْهِ رَكَّتِيهَما

مَشَى الْهَيْدَلَى فِي دَقِّهِ ثُمَّ فَرَفَرَا

كَانَتْ الْخَيْلُ الْبَرْبَرِيَّةُ تُهْلَبُ أَذْنَابُهَا كَالْبُعَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاخِلَهَا

فِي خِدْمَةِ الْبَرِيدِ وَلِيَعْلَمَ أَنَّهَا لِلْمَلِكِ . وَقَالَ ابْنُ مِيَادَةَ فِي ابْنِ

هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أَمِيرًا :

جَاءَتْ بِهِ مُعْتَجِرًا يَبْزِدُو سَفَوَاءَ تَزْدِي بِسَيْحٍ وَخِدِهِ

تَقْدَحُ قَيْسُ كُلُّهَا بِزْنِدِهِ

إِلَّا أَنْ مِنْهُمْ مَنْ خَالَفَ هَذَا كُلَّهُ فَوَصَفَ أَنَّهُ قَصْدَ الْمَمْدُوحِ
رَاجِلًا إِمَّا إِخْبَارًا بِالْصِّدْقِ وَإِمَّا تَعَاظِي صَعْلَكَةٍ . قَالَ أَبُو نُوَّاسٍ
لِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى :

إِلَيْكَ أبا الْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى

عَلَيْهَا أَمْتَطَيْنَا الْخَضْرَمِيَّ الْمَلْسَا

قَلَانِصُ لَمْ تَعْرِفْ حَيْثَا عَلَى طَلَا

وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرَعَ الْفَنِيْقِ وَلَا أَلْهَسَا

فَذَكَرَ أَنَّ قَلَانِصَهُمُ الَّتِي أَمْتَطَوْا إِلَيْهِ مَشْدُودَةٌ بِالْعِيَالِ
وَأَخْرَجَهُ كَمَا تَرَى مُخْرَجَ الْغَزْرِ وَاتَّبَعَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَقَالَ :

لَا نَأْتِي تَحْمِيلُ الرَّدِيفِ وَلَا بِالسُّوْطِ يَوْمَ الرِّهَانِ أَجْهَدُهَا
شِرَاكُهَا كُودُهَا وَمِشْفَرُهَا زَمَامُهَا وَالشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا
وَقَالَ كَرَّةٌ أُخْرَى فِي مِثْلِ ذَلِكَ يَلْشَكِي :

وَمَهْمَةٍ جُبْتُهِ عَلَى قَدَمِي تَعِزُّ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الدُّلُلُ

وَلَوْ شَاءَ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ فَإِنَّ أَبَا نُوَّاسٍ لَمْ يَرِدْ مَا ذَهَبَ

إِلَيْهِ أَبُو الطَّيِّبِ لَكِنْ أَرَادَ أَنَّهُ مَعَهُ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ قَصْدُهُ فِي حَاجَتِهِ
مُخْتَدِيًا نَعْلَيْهِ لَكَانَ أَظْهَرَ وَجْهًا مَا لَمْ يَكُنِ الْخَضْرَمِيُّ مِنَ الْبُلُودِ
مَخْصُوصًا بِهِ الْمُسَافِرُ دُونَ الْحَاضِرِ . وَظَاهِرُ الْكَلَامِ أَنَّ مَقْصِدَ
الشَّاعِرِينَ وَاحِدٌ . وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الطَّيِّبِ الْخَيْلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ

وَكَانَ يُؤْثِرُهَا عَلَى الْأَبْلِ لَمَّا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مِنَ التَّهَيُّبِ بِذِكْرِ
الْحِلِّ وَتَعَاطِي الشَّجَاعَةِ . فَقَالَ يَذْكُرُ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ
مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

وَيَوْمَ كَلِيلِ الْعَاشِقِينَ كَمَثَلُهُ
أَرَأَيْتُ فِيهِ الشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ
وَعَيْنِي إِلَى أُذُنِي أَعَزُّ كَأَنَّهُ

مِنَ اللَّيْلِ بَاتِيَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوَكْبُ
وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ بَلَدِنَا خَاصَّةً شَيْءٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ إِلَّا مَا يُعَدُّ
قِلَّةً فَالْوَاجِبُ اجْتِنَابُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ حَقِيقَةً لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ
الْمَدْحُ مِنْ سُكَّانِ بَلَدٍ الْمَدْحُوحِ يَرَاهُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فَمَا أَفْجَحَ ذِكْرُ
الْمُنَاقَةِ وَالْفَلَاةِ

وَمِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مُكَافَحَةً وَذَلِكَ عِنْدَهُمْ
هُوَ الْوُثْبُ وَالْبَتْرُ وَالْقَطْعُ وَالْكَنَعُ وَالْإِقْتِضَابُ كُلُّ ذَلِكَ يُقَالُ
وَالْقَصِيدَةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ بَتْرَاءً كَالْخُطْبَةِ الْبَتْرَاءِ
وَالْقَطْعَاءِ وَهِيَ الَّتِي لَا يُبْتَدَأُ فِيهَا بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي الْخُطْبِ
كَمَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ « إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالْجَيْبُ الْمَقْدَمُ » فَانْكُرُوا
الْجَيْبَ وَزَعُمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ قَفَحَ هَذَا الْبَابَ وَقَفَى هَذَا الْمَعْنَى أَبُو
نُؤَاسٍ بِقَوْلِهِ « لَا تَبْكُ لَيْلِي وَلَا تَطْرُبْ إِلَى هَيْدِ » وَقَوْلُهُ عِنْدَ
الْحَاقِمِيِّ فِيمَا رَوَى بَعْضُ أَشْيَاخِهِ أَفْضَلُ أَيْدَاءَ صَنَعَهُ شَاعِرٌ مِنْ
الْقَدَمَاءِ وَالْخَدَائِرِ :

أَعَزَّ شَعْرَكَ الْأَطْلَالَ وَالْمُتَرَلِّ الْقَفْرَا
 فَقَدْ طَالَ مَا إِنْ رَأَيْتُكَ الْخَمْرَا
 دَعَانِي إِلَى نَفْتِ الطُّلُولِ مُسَلَّطُ
 يَضِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَرُدَّ لَهُ أَمْرَا
 فَسَمِعَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةَ

وَأِنْ كُنْتُ قَدْ جَسَمْتَنِي مَرْكَبًا وَغَرَا
 فَجَاءَ هُوَ بِأَنْ وَصَفَ الْأَطْلَالَ وَالْقَفْرَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ
 الْإِمَامِ وَالْأَفْهَى عِنْدَهُ فِرَاقٌ وَجَهْلٌ. وَإِنَّ فِي اللِّسَانِ وَكَثْرَةَ وَلَوْعِهِ
 بِالشَّيْءِ لِشَاهِدًا عَدَلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ أَبُو تَمَّامٍ « لِسَانُ
 الْمَرْءِ مَنْ خَدَّمَ الْفُؤَادَا » وَمِنْ عُيُوبِ هَذَا أَلْبَابِ أَنْ يَكُونَ النَّسِيبُ
 كَثِيرًا وَالْمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَضَعُ بَعْضُ أَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ الْإِبْتِدَاءَ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ
 بَاقِيَ الْقَصِيدَةِ وَكَثَرَتْهُمْ فَعَلًا لِذَلِكَ الْمُجْتَزِيُّ كَانَ يَضَعُ الْإِبْتِدَاءَ
 سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكُلَّمَا تَقَادَى قَوِي كَلَامُهُ وَلَهُ مِنْ جَيْدِ
 الْإِبْتِدَآتِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَالْقَالِبُ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ أَنَّ
 الْقَاضِي الْجُرْجَانِي فَضَلَ بِجُودَةِ الْإِسْتِهْلَالِ وَهُوَ الْإِبْتِدَاءُ عَلَى أَبِي
 تَمَّامٍ وَأَبِي الطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَاهُمَا بِالْخُرُوجِ وَالْحَاطِمَةُ وَلَسْتُ أَرَى
 لِذَلِكَ وَجْهًا إِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَإِنَّهُ لَوْ حَاسِبَهُمَا ابْتِدَاءً
 جَيْدًا بِإِبْتِدَاءِ لَارَبِّي وَقَصْرًا عَنْ عَدَدِهِ

وَأَمَّا الْحَاطِمَةُ فَإِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ أَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَجُودُ

عَلَيْهِ جَوْزًا بَيْتًا لَا يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يُسَلَّمُ إِلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَامٍ فَعِمَ
الْإِبْتِدَاءَ لَهُ رَوْعَةٌ وَعَلَيْهِ أُبْهَةٌ كَقَوْلِهِ :
الْحَقُّ أَلْبَحُّ وَالسُّيُوفُ عَوَارُ فُحْذَارٍ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٍ
وَقَوْلِهِ أَيْضًا :

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ
فِي حَدِيثِ الْحَدِّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ
وَقَوْلِهِ « يَا رُبَّعُ لَوْ رَبَعُوا عَلَى ابْنِ هُمُومٍ » وَأَنْغَالِبُ تَحْتَ الْأَلْفِظِ
وَجَهَارَةُ الْإِبْتِدَاءِ

وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الْحَسَنُ بْنُ بَشْرِ الْأَمْدِيِّ يُفَضِّلُ ابْتِدَاءَاتِ
الْبُخْتَرِيِّ جِدًّا وَهُوَ الَّذِي وَضَعَ كِتَابَ الْمَوَازِنَةِ وَالتَّرَجِيمِ بَيْنَ
الطَّلَاسِيِّينَ وَنَوَّهَ فِيهِ بِالْبُخْتَرِيِّ أَعْظَمَ تَنْوِيهِ وَمِنْ جَيْدِ ابْتِدَائِهِ
قَوْلُهُ :

عَارَضْنَا أَصْلًا فَقُلْنَا الرَّبُّ حَتَّى أَضَاءَ الْأَقْحَوَانُ الْأَشْنَبُ
وَقَوْلُهُ « ضَمَانٌ عَلَى عَيْنِكَ أَيْ لَا أَسْأَلُ » وَقَوْلُهُ « نَرَى عَنْدهُمْ
عِلْمًا بِشَجْوِي وَأَذْمُعِي » فَأَمَّا الْخُرُوجُ فَهُوَ عَنْدهُمْ شَيْءٌ بِالْإِسْطِرَادِ
وَلَيْسَ بِهِ لِأَنَّ الْخُرُوجَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ نَسِيبٍ إِلَى مَذْحٍ أَوْ
غَيْرِهِ بِطَنْفٍ تَحِيلٍ ثُمَّ تَتَمَادَى فِيمَا خَرَجْتَ إِلَيْهِ كَقَوْلِ أَبِي عِبَادَةَ
الْبُخْتَرِيِّ :

سُقِيتَ رَبَّاكَ بِكُلِّ غَيْثٍ جَاعِلٍ مِنْ وَبَلِهِ حَقًّا لَهَا مَعْلُومًا
وَلَوْ أَنِّي أُعْطِيتُ فِيهِنَّ أَلْمَنَى لَسَقَيْتُهُنَّ بِكَفِّ إِبْرَاهِيمَا

وَأَكْثَرُ النَّاسِ اسْتِعْمَالًا لِهَذَا الْقَوْلِ أَبُو الطَّيِّبِ فَإِنَّهُ مَا يَكَادُ
يَشُدُّ عَنْهُ حَتَّى رُبَّمَا قَبِجَ سُقُوطُهُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ:
هَذَا فَانْظُرِي أَوْ فَطْطِي بِي تَرِي حُرْقًا
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَآلَا

عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعُ لِي
إِلَى أَلَّتِي تَرَكْتَنِي فِي الْهَوَى مَشَلَا
فَقَدْ نَمَنَى أَنْ يَكُونَ الْأَمِيرُ لَهُ قَوَادًا وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَّاسٍ:
سَأَشْكُو إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هَوَانًا لَعَلَّ الْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
فِي شَيْءٍ لِأَنَّ أَبَا نُوَّاسٍ قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَنَا ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ ذِكْرَ
الْمَاءِ وَالسَّحَابَةِ فَقَالَ:

أَمِيرُ رَأَيْتُ أَلْمَالَ فِي نَقْمَاتِهِ ذَلِيلًا مَهِينًا النَّفْسَ بِالضَّمِّ مُوَقِنًا
وَكَاَنَّهُ أَشَارَ إِلَى أَنَّ جَمْعَهُ بَيْنَهُمَا بِالْمَالِ خَاصَّةً يَفْضُلُ عَلَيْهِ
وَيُجْزَلُ عَطِيَّتُهُ فَيَتَذَوَّجُهَا أَوْ يَتَسَرَّاهَا. وَأَبُو الطَّيِّبِ قَالَ لِيَشْفَعُ
وَالشَّمَقَةُ رَغْبَةٌ وَسُؤَالٌ. ثُمَّ أَتْبَعَ بَيْتَهُ بِمَا هُوَ مُقَوِّلُ لَعْنَاهُ فِي
الْقِيَادَةِ فَقَالَ:

أَيَقُنْتُ أَنَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بَدِمِي لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرَّمْحِ مُعْتَقِلًا
فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَشْفَعُ فَإِنْ أُجِيبَ إِلَى مُسَاعَدَةِ أَبِي الطَّيِّبِ
فَذَلِكَ وَالْأَرَجُ إِلَى الْقَهْرِ وَالَّذِي يُشَاكِلُ قَوْلَ أَبِي نُوَّاسٍ قَوْلُهُ:
أَحِبُّ الَّذِي فِي الْبَدْرِ مِنْهُ مَشَابَهُ
وَأَشْكُو إِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلٌ

فَلَفْظَةُ الشَّكْوَى تُحْمَلُ عَنْهُ كَمَا حُمِلَتْ عَنْ أَبِي نُوَّاسٍ
وَأَوَّلَى الشَّعْرِ بِأَن يُسَى تَخَاصُّ مَا تَخَلَّصَ فِيهِ الشَّاعِرُ عَنْ مَعْنَى
إِلَى مَعْنَى ثُمَّ عَادَ إِلَى الْأَوَّلِ وَآخَذَ فِي غَيْرِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَا كَانَ
فِيهِ كَقَوْلِ النَّابِغَةِ الذَّنْبِيَّيْنِ آخِرَ نَسِيبٍ قَصِيدَةٍ اعْتَذَرَ بِهَا إِلَى
النُّعْمَانِ :

فَكَفَّكَتُ مَتَى عَبْرَةٌ فَرَدَدْتُهَا
عَلَى الْخَمْرِ مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَامِعُ
عَلَى حِينَ عَانَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبِيِّ
وَقُلْتُ أَلَّا أَخْفُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ
ثُمَّ تَخَلَّصَ إِلَى الْأَعْتِدَارِ فَقَالَ :

وَلَكِنْ هُمَا دُونَ ذَلِكَ دَاخِلًا مَكَانَ الشَّغَافِ تَبَتُّغِيهِ الْأَصَابِعُ
وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَّاجِعُ
ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُ عِنْدَ مَا سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ فَقَالَ :
فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتُ ضَيْيَلَةَ مِنْ الرُّقَشِ فِي أَنْيَابِهَا السَّمُّ نَاقِعُ
يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ اللَّتَامِ سَلِيمُهَا لِحْلِي السَّاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاكِعُ
فَوَصَفَ الْحَيَّةَ وَالسَّلِيمَ الَّذِي شَبَّ نَفْسَهُ بِهِ مَا شَاءَ ثُمَّ تَخَلَّصَ
مِنَ الَّذِي كَانَ فِيهِ فَقَالَ :

أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّغْنَ أَنَّكَ لَمَتْنِي وَتَلَكَ أَتَيْتُكَ مِنْهَا الْمَسَامِحُ
ثُمَّ أَطَرَدَ لَهُ الْقَوْلُ مَا شَاءَ مِنْ تَخَلُّصٍ إِلَى تَخَلُّصٍ حَتَّى انْقَضَتْ
الْقَصِيدَةُ وَهُوَ مَا اشْرَتْ إِلَيْهِ غَيْرُ خَافٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَدْ

يَقَعُ مِنْ هَذَا التَّنَوُّعِ شَيْءٌ يَغْتَرِضُ فِي وَسْطِ التَّشْيِيبِ مِنْ مَذْحٍ
مَنْ يُرِيدُ الشَّاعِرُ مَذْحَهُ بِتِلْكَ الْقَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا
كَانَ فِيهِ وَنَ التَّشْيِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْمَذْحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ
أَبِي تَمَّامٍ يَمْدَحُهُ الَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذَلِكَ فِي وَسْطِ التَّشْيِيبِ
مِنْ قَصِيدَةٍ :

لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ التَّوَى

مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ

مَا زِلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوَدَادِ وَلَا غَدْتُ

نَفْسِي عَلَى رَأْفِ سِوَاكَ تَحْوُمُ

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ :

بِحُجْمِدِ بْنِ أَهْلِيْمٍ بَنِ شَبَابَةٍ مَجْدُهُ إِلَى جَنْبِ السَّمَاءِ مُقِيمٌ

وَيَسْتَسَى هَذَا التَّنَوُّعَ الْإِلْمَامَ . وَكَانَتْ الْعَرَبُ لَا تَذْهَبُ هَذِهِ

الْمَذَاهِبَ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَذْحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعْدَ فَرَغِهِمْ مِنْ نَعْتِ

أَبِي بَلٍ وَذِكْرِ الْفَقَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيلِهِ دَعَا وَعَدَا عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ

فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِأَنَّ الْأَشْدَدَّ اتِّدَاءَ الْكَلَامِ الَّذِي يَقْصِدُونَهُ

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ الشَّاعِرِ إِلَى الْمَذْحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْفَصِلًا

بِقَوْلِهِ دَعَا وَعَدَا عَنْ ذَا وَتَحْوِي ذَلِكَ سُبْحِي طَفَرًا وَاتَّقِطَاعًا . وَكَانَ

الْمُجْتَزِي كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ :

لَوْلَا الرِّجَاءُ لَمْتُ مِنَ أَلْمِ الْهَوَى لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مُوَكَّلٌ

إِنَّ الرِّعْيَةَ لَمْ تَرَلْ فِي سِيرَةِ مُحَمَّدَةٍ مُذْ سَاسَهَا الْمُتَوَكِّلُ

وَرَبَّمَا قَالُوا بَعْدَ صِفَةِ اللَّائِقَةِ وَالْفَازَةِ إِلَى فُلَانٍ قَصَدْتُ وَحَتَّى
تَرَلْتُ بِفَنَاءِ فُلَانٍ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ . وَأَمَّا الْإِنْتِهَاءُ فَهُوَ قَاعِدَةٌ
الْقَصِيدَةِ وَآخِرُ مَا يَنْقُي مِنْهَا فِي الْأَسْمَاعِ وَسَبِيلُهُ أَنْ يَكُونَ مُحْكَمًا
لَا يُمَكِّنُ الزِّيَادَةَ عَلَيْهِ وَلَا يَأْتِي بَعْدَهُ أَحْسَنُ مِنْهُ . وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ
الشَّعْرِ مُفْتَحًا لَهُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ آخِرُهُ قُفْلًا عَلَيْهِ . وَقَدْ أَرْنَى أَبُو
الطَّيِّبِ عَلَى كُلِّ شَاعِرٍ فِي جُودَةٍ هَذِهِ الْأَبْوَابِ الثَّلَاثَةِ إِلَّا أَنَّهُ
رُبَّمَا عَقَّدَ أَوَائِلَ الْأَشْعَارِ ثِقَةً بِنَفْسِهِ وَاغْرَابًا عَلَى النَّاسِ كَقَوْلِهِ أَوَّلُ
قَصِيدَةٍ :

وَقَالُوا كَمَا كَالرَّبْعِ اشْجَاهُ طَاسِيُهُ بِأَنْ تُسْعِدَا وَالِدَمْعُ اشْفَاهُ سَاجِمُهُ
فَإِنَّ هَذَا يَحْتَاجُ الْأَضْمَعِيَّ إِلَى أَنْ يُفَسِّرَ مَعْنَاهُ . وَيَقَعُ لَهُ فِي
الْخُرُوجِ مَا كَانَ تَرْكُهُ أَوَّلِي بِهِ وَأَشْعَرُ لَهُ وَإِنَّمَا أَدْخَلَهُ فِيهِ حُبُّ
الْإِغْرَابِ فِي بَابِ التَّوْلِيدِ حَتَّى جَاءَ بِالْعَثِّ الْبَارِدِ وَاللَّشْنِيعِ أَلْتَكَلَّفِ
نَحَرَ قَوْلِهِ :

أُحِبُّكَ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٍ ثَيِّرًا وَأَبْنُ إِزْبِهِمْ رَيْعَا
فَهَذَا مِنَ الْبَسَاطَةِ وَمِنْ الشَّنَاعَةِ يَحِثُّ لَا يَحْتَفِي عَلَى أَحَدٍ . وَمَا
أَظَنَّهُ سَرَقَ هَذَا الْمَعْنَى الشَّرِيفَ إِلَّا مِنْ كِذْبَةٍ كَانَ أَوْرَدَهَا أَبُو
الْعَبَّاسِ الصَّمِيرِيُّ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ فَرَعَمَ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْتُ رَجُلًا
نَامَ فَجَرَهُ النَّمْلُ ثَلَاثَةَ فَرَاسِخَ . وَقَدْ جَعَلَ أَبُو الطَّيِّبِ مَكَانَ الرَّجُلِ
جَبَلًا وَإِنْ عَلِمْنَا الْإِغْرَابَ فِي مُرَادِهِ وَلَفْظِهِ . وَقَالَ أَيْضًا :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرَجُ سَاجِمٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وَبَجَرُ أَبُو الْمَسْكِ الْحِضْمُ الَّذِي لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرِ زَخْرَةٌ وَعُكَّابٌ
يُرِيدُ وَخَيْرُ بَحْرِ أَبُو الْمَسْكِ وَهَذِهِ غَايَةُ التَّصْنَعِ وَالتَّكْلِيفِ. وَمِنْ
الْعَرَبِ مَنْ يَنْجِمُ الْقَصِيدَةَ فَيَقْطَعُهَا وَالنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ
وَلَهَا مُشْتَبِهَةٌ وَيَبْقَى الْكَلَامُ مَنْشُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ جَعْلُهُ خَاتَمَةً
كُلُّ ذَلِكَ رَغْبَةٌ فِي اخْتِذِ الْعَفْوِ أَلَا تَرَى مُعَلَّقَةً أَمْرِي الْقَيْسَ كَيْفَ
خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ السَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ الْمَطَرِ :

كَانَ السَّبَاعُ فِيهِ غَرْقَى غُدِيَّةٌ بِأَرْجَانِهِ الْقُضْوَى عَنَّا يَشُ غُضُلُ
فَلَمْ يَفْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ الْمُعَلَّقَاتِ
وَهِيَ أَفْضَلُهُنَّ. وَقَدْ كَرِهَ اخْتِذَاقُ مِنَ الشُّعْرَاءِ خَتَمَ الْقَصِيدَةَ بِالذِّعَاءِ
لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ الضَّعْفِ إِلَّا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ
مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ يَذْكُرُ الْحَيْلَ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ
فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

فَلَا هَجَمْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى أَمَلٍ
قَالَ هَذَا يُشَبِّهُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَغِيضٍ كَانَ يُصَاحِبُ الْأَمِيرَ
فَيَقُولُ « لَا صَبَّحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ » وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ
« إِلَّا وَمَسَاءَهُ بِأَكْثَرِ مِنْهَا » وَيَأْسِيهِ فَيَقُولُ « لَا مَسَى اللَّهُ الْأَمِيرَ
بِنِعْمَةٍ » ثُمَّ يَقُولُ « إِلَّا وَصَبَّحَهُ بِأَكْثَرِ مِنْهَا » وَتَحْوُ هَذَا فَلَا يَدْعُو
لَهُ حَتَّى يَدْعُو عَلَيْهِ وَمِثْلُ هَذَا قَبِيحٌ لَأَسِيًّا مِنْ مِثْلِ أَبِي الطَّيِّبِ



فهرس

المقالات

وجه

١٢ الجذيرة بالخطيب

البحث الثاني في وسائل الاقناع التي

يتخذها الخطيب البليغ ٢٥

الفصل الثالث في الاقاويل

٣٨ المقنعة

البحث الاول في ان الخطيب لا بد له

للاقتناع من معرفة القياس وعلم

المنطق ٢٨

البحث الثاني في الطريق اي الدليل

وتقسيمه ٣٠

البحث الثالث في المواضيع ٣١

البحث الرابع في التعريف والحد

والرسم ٣٣

البحث الخامس في الكلي

والجزئي ٣٧

البحث السادس في الجنس والنوع ٣٩

البحث السابع في تعريف العلة

والمعلول ٤١

وجه

القسم الاول في علم الخطابة ١

الفصل الاول في تعريف الخطابة

واقسامها ومنافعها ١

البحث الاول في تحديد الخطابة وما

تتضمن عليه بوجه الاجمال ١

البحث الثاني في تعريف الخطابة

وموضوعها ٣

البحث الثالث في المناسبة الموجودة

بين الجدل والخطابة ٤

البحث الرابع في ان الخطابة تحرر

للتصديق اكثر منها للتأثير ٥

البحث الخامس في فوائد علم

الخطابة ٧

البحث السادس في ان الخطابة صناعة

اصلا في طبع الانسان ١١

الفصل الثاني في بلاغة الخطيب ١٢

البحث الاول في تعريف البلاغة

وجه

البحث الاول في مبادئ الخطابة

٨٩

والافتتاحات

البحث الثاني في القضية والقياس

٩٠

البحث الثالث في القياس واقسامه

٩٢

وانواعه

البحث الرابع في ملحقات القياس

٩٥

البحث الخامس في القياسات المستعملة

في الخطابة وخصها القياس الاضماري

٩٧

والتمثيل

البحث السادس في مقدمات القياسات

١٠٢

الخطبية

الفصل السابع في التنفيذ

١٠٨

البحث الاول في المناظرة

١٠٨

والجدال

البحث الثاني في آداب

١١١

المناظرة

البحث الثالث في الجوابات على

١١٤

المصم

البحث الرابع في المغالطة

١١٥

البحث الخامس في مقاطيع

١١٩

الكلام

الفصل الثامن في التعبير

١٢٤

وجه

الفصل الرابع في آداب الخطابة

٢٢

البحث الاول في آداب كلام

٢٢

الخطيب

البحث الثاني في خصال الخطيب

٢٦

البحث الثالث في طباع الناس على

٢٩

اختلاف اطوار الحياة

البحث الرابع في سياسة الخطيب مع

٥٢

الجمهور ومواجهة طباعهم

الفصل الخامس في الاخلاق

٥٩

والاهواء

البحث الاول في تعريف

٥٩

الاخلاق

البحث الثاني في الاخلاق الحسنة

٦٢

البحث الثالث في الاخلاق

٦٩

الردية

البحث الرابع في بعض الاخلاق التي

تكون في بعض الناس فضيلة وفي

٧٤

بعضهم رذيلة

البحث الخامس في الارتياض بمكارم

٧٩

الاخلاق

الفصل السادس في تنسيق الخطابة

٨٩

وبيان القضية والقياس

وجه

١٦٢

والسعادة

البحث الثامن في انه ينبغي للخطيب

المشير ان يعرف الاشياء النافعة

وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة

الخير مع بعضها ١٧٢

البحث التاسع في اشارة الخيور وفي

شروط تفضيل بعضها على بعض

والاسباب الموجبة لذلك ١٨١

البحث العاشر في ان الخطيب المشوري

ينبغي ان يعرف اصناف السياسات

وفي بيان اجناس هذه السياسات

الاربعة ١٩٤

البحث الحادي عشر في ما ينبغي

للخطيب ان يعرفه في النوع التثبيتي

وفي الفضيلة والنقصة والمدح والذم

وتصرف الخطيب فيهما وفي انواع

الامور الفاضلة والناقصة ١٩٨

الفصل العاشر في انواع الخطب ومن

برع فيها ٢١١

البحث الاول في خطب التهناني ٢١١

البحث الثاني في خطب التقليد ٢١٢

البحث الثالث في الارتجال والبدعة

واشارات الخطيب ٢١٤

وجه

البحث الاول في خواص تعبير

الخطيب ١٢٤

البحث الثاني في بلاغة كلام العرب

وكلام العجم ١٢٦

الفصل التاسع في اجناس الخطابة

الثلاثة ١٣٧

البحث الاول في تقسيم الخطب الى

ثلاثة اجناس ١٣٧

البحث الثاني في غايات الاجناس

الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها ١٣٩

البحث الثالث في مقدمات الجنس

المشوري ١٤٢

البحث الرابع في خمسة امور يدور

عليها البحث في النوع المشوري وفي

القياسات المختلفة بها ١٤٥

البحث الخامس في السبب الذي من

اجله يشير الخطيب وهو سعادة

السامع وفي ماهية السعادة وانواع

الخير التي من مجموعها تتولد

السعادة ١٥٠

البحث السادس في الفرق بين الخير

والسعادة ١٦١

البحث السابع في اقسام الخير

وجه

البحث الثامن في اسطقسات الاقاويل
الشعرية ٢٨٤

البحث التاسع في صناعة الاشعار
القصصية ٢٩٤

البحث العاشر في كيفية التخلص الى
ما يراد محاكاته ٢٩٥

البحث الحادي عشر في انواع
المحاكاة غير المقبولة ٢٩٦

الفصل الثاني في معرفة الشعراء ٣٠٠

البحث الاول في القدماء من
الشعراء ٣٠٠

البحث الثاني في المقلّين من
الشعراء ٣١٢

البحث الثالث في المقلّين من
الشعراء ٣١٤

الفصل الثالث في فنون الشعر ٣٢١

البحث الاول في المطبوع
والمصنوع ٣٢١

البحث الثاني في اقسام الشعر ٣٢٧

البحث الثالث في صناعة المديح ٣٢٩

البحث الرابع في الافتخار ٣٤٣

البحث الخامس في الرثاء ٣٤٧

وجه

البحث الرابع في خطب الوعاظ ٢١٦

البحث الخامس في غاية الوعظ ٢٢١

البحث السادس في فوائد الوعظ
وجهل كثيرين من الخطباء في
هذا الفن ٢٢٣

البحث السابع في الخطب عند
العرب ٢٣١

القسم الثاني في علم الشعر ٢٤٠

الفصل الاول في تعريف الشعر
وانواعه وفوائده ٢٤٠

البحث الاول في تحديد الشعر ٢٤٠

البحث الثاني في صناعة الشعر وانواع
الاشعار ٢٤٣

البحث الثالث في المديح والهجو ٢٤٧

البحث الرابع في العلال المولدة
للشعر ٢٤٩

البحث الخامس في وزن الشعر
ولحنه ٢٥٣

البحث السادس في صناعة المديح
واجزاؤها ٢٥٨

البحث السابع في اجزاء صناعة
المديح من جهة الكمية ٢٦٦

وجه

البحث الثالث عشر في البديهة

٣٨٠ والارتجال

البحث الرابع عشر في اداب

الشعر ٣٨٥

البحث الخامس عشر في عمل الشعر

٣٩٠ وشخذ القرينة

البحث السادس عشر في المقاطع

والمطالع ٤٠١

البحث السابع عشر في المبتدا او

الخروج والنهاية ٤٠٤

وجه

البحث السادس في الاقتضاء

٣٥٤ والاستنجاز

البحث السابع في العتاب ٣٥٦

البحث الثامن في الوعيد

والانذار ٣٦٢

البحث التاسع في الهجاء ٣٦٣

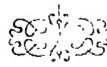
البحث العاشر في الاعتذار ٣٦٨

البحث الحادي عشر في سيرورة

الشعر والحظوة في المدح ٣٧٢

البحث الثاني عشر في ما اشكل

من المدح والهجاء ٣٧٦



مكتبة
١٩٥٨

